

في

تفسير وإشارات القرآن

من كلام

الشيخ الأكبر

محي الدين ابن العربي

الجزء الثالث

جمع وتأليف

محمود محمود الغراب

وعلى هامشه إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن

للشيخ الأكبر ابن العربي

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

تصوير ومونتاج وتحضير بلاكات
زنكوغراف محمد خير الحلبي دمشق هـ ٢٣٥١١٤

مطبعة خضر - هاتف ٢٢٢٣٦٣

ن : ١٥٠٠

(١٨) سُورَةُ الكَهْفِ مَكِّيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾

القرآن له الاعتدال فلم يكن فيه عوج ولا تحريف ، ولما كان له الاعتدال الذي هو حفظ بقاء الوجود على الموجود كان له الديمومية والبقاء .

قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

ما أحد أكشف للأمور وأشهد للحقائق وأعلم بالطرق إلى الله من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومع هذا ما سلموا من الشؤون الإلهية ، فعرضت لهم الأمور المؤلمة النفسية من رد الدعوة في وجهه ، وما يسمعه في الحق تعالى مما نُزِّه جلاله عنه ، وفي الحق الذي جاء به ، فقال تعالى لرسوله ﷺ « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » .

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾

ـــ إشارة ـــ ما تنعمت الأبصار في أحسن من زهرة الروض ، وأحسن زينة على الأرض رجال الله ، فاجعلهم منتزهك حتى تكون منهم .

وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

الفتوة ليس فيها شيء من الضعف ، إذ هي حالة بين الطفولة والكهولة ، وهو عمر لإنسان من زمان بلوغه إلى تمام الأربعين من ولادته .

فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

الفتى هو من آثر أمر ربه على هوى نفسه ، والفتوة أن يؤثر الإنسان العلم المشروع الوارد من الله على ألسنة الرسل على هوى نفسه ، وعلى أدلة عقله وما حكم به فكره ونظره ، إذا خالف علم الشارع المقرر له ــ **بحث في الفتوة** ــ الفتيان أهل علم وافر ، وهم الذين حازوا مكارم الأخلاق أجمعها ، ولا يتمكن أحد أن يكون حاله مكارم الأخلاق ما لم يعلم المَحال التي يصرفها فيها ويظهر بها ، ولما لم يكن في وسع الإنسان أن يسع العالم بمكارم أخلاقه ، إذ كان العالم كله واقفاً مع غرضه أو إرادته ، لا مع ما ينبغي ، فاختلفت الأغراض والإرادات وطلب كل صاحب غرض أو إرادة في الفتى أن يعامله بحسب غرضه وإرادته ، والأغراض متضادة ، فلما رأينا الأمر على هذا الحد وأنه لا يعمّ ، ولم يتمكن عقلاً ولا عادة أن يقوم الإنسان في هذه الدنيا أو حيث كان في مقام يرضي المتضادين ، انبغى للفتى أن يترك هوى نفسه ويرجع إلى خالقه الذي هو مولاه وسيده ، ويقول : أنا عبد ، وينبغي للعبد أن يكون بحكم سيده ، لا بحكم نفسه ولا بحكم غير سيده ، يتبع مراضيه ويقف عند حدوده ومراسمه ، ولا يكن ممن جعل مع سيده شريكاً في عبوديته ، فيكون مع سيده بحسب ما يحدّ له ، ويتصرف فيما يرسم له ، ولا يبالي وافق أغراض العالم أو خالفهم ، فإن وافق

ما وافق منها فذلك راجع إلى سيده . والفتى من وقر الكبير في العلم أو في السن ، والفتى من رحم الصغير في العلم أو السن ، والفتى من آثر المكافىء في السن أو في العلم ، وينبغي للفتى أن يوفّي السلطان حقه الذي أوجبه الله له عليه ، ولا يطلب منه حقه الذي جعله الله له قبل السلطان ، مما له أن يسامحه فيه إن منعه منه ، فتوة عليه ورحمة به وتعظيماً لمنزلته ، إذ كان له أن يطلبه به يوم القيامة ، فالفتى من لا خصم له ، لأنه فيما عليه يؤديه ، وفيما له يتركه ، فليس له خصم ، والفتى من لا تصدر منه حركة عبثاً جملة واحدة ، وإن كانت الحركة في غيره فلا ينظرها عبثاً ، فإن الله خلقها أي قدّرها ، وإذا قدرها فلا تكون عبثاً ولا باطلاً ، فيكون حاضراً مع هذا عند وقوعها في العالم ، فإن فتح له بالعلم في الحكمة فيها فبخ على بخ ، وهو صاحب عناية ، وإن لم يفتح له في العلم بالحكمة فيها فيكفيه حضوره في نفسه أنها حركة مقدرة منسوبة إلى الله ، وأن لله فيها سراً يعلمه الله ، فالفتيان هم السلاطين في صور العبيد ، يعرفهم الملأ الأعلى ، فليس أحد مما سوى الإنس والجان إلا ويقول بفضله ، إلا بعض الثقلين ، فإن الحسد يمنعهم من ذلك ، وهم يعاملون الخلق بالإحسان إليهم مع إساءتهم لهم ، فلهم القوة العظمى على نفوسهم حيث لم يغلبهم هواهم ، ولا ما جبلت النفس عليه من حب الثناء والشكر والاعتراف (راجع سورة الأنبياء آية ٦٠) « إنهم فتية آمنوا بربهم » اعلم أن الإيمان بالربوبية يزيد في الهدى ، والإيمان بالله هو الهدى .

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ

ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ فالكل بيده وإليه يرجع الأمر كله .

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

انظر إلى قوله تعالى لنبيه ﷺ ، الذي ليس من شأنه ولا من شأن الأنبياء عليهم السلام أن ينهزم ، ولا أن يقتل في مصاف « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً » فوصفه بالانهزام ، وقوله صدق ، أترى ذلك عن رؤية أجسامهم ؟ أليسوا أناسي مثله ، فما ينهزم إلا من أمر يريد إعدامه ، ولا يُملأ مع شجاعته وحماسته رعباً إلا من شيء يهوله ، فلو لم ير منهم ما هو أهول مما رآه ليلة إسرائه ما امتلأ رعباً مما رآه ـــ ولا يُملأ رعباً من صور أجسامهم ـــ فذلك الذي كان يملؤه رعباً ، وما ذكر الله إلا رؤية عينهم ، لأنه قال « لو اطلعت عليهم » فوصفه بالاطلاع ، فهم أسفل منه بالمقام ، ومع هذا كان يولي منهم فراراً ، خوفاً أن يلحق بهم فينزل من مقامه ، ويملأ منهم رعباً لئلا يؤثروا فيه ، من تأثير الأدنى في الأعلى ، ومن علم الأمر على هذا حقيق عليه أن يولي فراراً ويملأ رعباً ، هل رأيتم عاقلاً يقف على جرف مهواة إلا ويفر خوفاً من السقوط ، فانظر فيما تحت هذا النعت الذي وصف الله به نبيه لو اطلع على الفتية ، مع علو رتبتهم وشأنهم ، فعلوّه أعلى ورتبته أسنى ، فعرّفنا الله بذلك ، ينبهنا على علو رتبة نبينا محمد ﷺ ، وانظر إلى ماذا ترجع صور العالم هل لأنفسهم أو لرؤية الناظر ، وانظر ما ترى ، واعلم ما تنظر ، وكن بحيث تعلم لا بحيث ترى ، فإن الله يُنكَر بالرؤية ولا يُنكَر بالعلم ، فإذا لم يُنكَر بالرؤية فبشاهد العلم لم يُنكَر .

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ

فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

« رجماً بالغيب » أي ما هم على تحقيق فيما يخبرون به من عددهم ، لأنهم ما شاهدوهم ، فهو من رجمات الظنون ، والظن رجم بالغيب ، والعلم ما فيه شك ولا ريب ، ولهذا جاء بفعل الاستقبال فقال « سيقولون » وأما قوله تعالى « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » لا يقال ثامن ثمانية إلا في الجنس الواحد ، فإذا انتفت المثلية لم يقل فيه : إنه ثامن ثمانية إذا كان معهم ، وإنما يقال : ثامن سبعة ، ألا ترى إلى الكلب لما لم يكن من النوع الإنساني قالوا « سبعة وثامنهم كلبهم »، و لم يقولوا ثمانية ثامنهم كلبهم ، « قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم » يعني كم عددهم « إلا قليل » إما من شاهدهم ممن لا يغلب عليه الوهم ، وإما من أعلمه الله بعدتهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أنا من ذلك القليل الذين يعلمونهم .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

هذه الآية مذكورة باللسان العبراني في التوراة ، فالله أخّر الاستثناء ، فالمحمدي يؤخره ، فإن الله أمر محمداً ﷺ بذلك ، والله تعالى يمقت مَنْ يقول ما لا يعمل من غير أن يقرن به المشيئة الإلهية ، فإذا علق المشيئة الإلهية بقوله أن يعمل فلا يكون ذلك العمل ، لم يمقته الله ، فإن العبد غاب عن انفراد الحق في الأعمال كلها التي تظهر على أيدي المخلوقين بالتكوين ، وأنه لا أثر للمخلوق فيها من حيث تكوينها ، وإن كان للمخلوق فيها حكم لا أثر . ولما علم الحق أن هذا لابد أن يقع من عباده وأنهم يقولون ذلك ، شرع لهم الاستثناء الإلهي ليرتفع المقت الإلهي عنهم ، ولهذا لا يحنث من استثنى إذا حلف على فعل مستقبل ، فإنه أضافه إلى الله لا إلى نفسه .

وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾

ثلاث مائة وتسع سنين قمرية ، وهذه تعدل ثلاث مائة سنة شمسية .

قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

كان سبب هذه الآية أن زعماء الكفار من المشركين كالأقرع بن حابس وأمثاله ، قالوا : ما يمنعنا من مجالسة محمد إلا مجالسته لهؤلاء الأعبد ، يريدون بلالاً وخباب بن الأرت وغيرهما ، فكَبُر عليهم أن يجمعهم والأعبد مجلس واحد ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على إيمان مثل هؤلاء ، فأمر أولئك الأعبد إذا رأوه مع هؤلاء الزعماء أن لا يقربوه إلى أن يفرغ

من شأنهم ، أو إذا أقبل الزعماء والأعبد عنده أن يخلوا لهم المجلس ، فأنزل الله هذه الآية غيرة لمقام العبودية والفقر أن يستهضم بصفة عز وتأله ظهر في غير محله ، فإن الله يغار لعبده المنكسر الفقير أشد مما يغار لنفسه ، وهو من أعظم دليل على شرف العبودة والإقامة عليها ، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بقوله « واصبر نفسك » أن يحبس نفسه مع الأعبد والفقراء من المؤمنين مثل خباب بن الأرت وبلال وابن أم مكتوم وغيرهم ، فكان ﷺ إذا رأى هؤلاء الأعبد وأمثالهم أو جالسهم يقول [مرحباً بمن عاتبني فيهم ربي] فكلما جلسوا عنده جلس لجلوسهم ، لا يمكن له أن يقوم ولا ينصرف حتى يكونوا هم الذين ينصرفون ، وكان ﷺ يقول : [إن الله أمرني أن أحبس نفسي معهم] فكانوا إذا أطالوا الجلوس معه يشير إليهم بعض الصحابة مثل أبي بكر وغيره أن يقوموا حتى يتسرح رسول الله ﷺ لبعض شؤونه ، ولما علموا ذلك منه وأنه عليه السلام قد تعرُض له أمور يحتاج إلى التصرف فيها ، فكانوا يخففون فلا يلبثون عنده إلا قليلاً ، وينصرفون حتى ينصرف النبي ﷺ لأشغاله ، وأبان الحق لرسوله ﷺ بهذه الآية أن مقام العبودة هو الذي تدعو له الناس ، فإن جميع النفوس يكبر عندهم رب الجاه ورب المال ، لأن العزة والغنى لله تعالى ، فحيثما تجلت هذه الصفة تواضع الناس وافتقروا إليها ، ولا يفرقون بين ما هو عز وغنى ذاتي وبين ما هو منهما عرضي إلا بمجرد مشاهدة هذه الصفة ، فإذا حضر مَلِكٌ مطاع نافذ الأمر وقد جاءك مع عظم مرتبته زائراً ، وجاءك فقير ضعيف في ذلك الوقت زائراً أيضاً فليكن قبولك على الفقير وشغلك به إلى أن يفرغ من شأنه الذي جاء إليه ، فما عتب الله نبيه سدى ، بل أبان والله في ذلك عن أرفع طريق الهدى ، وزجر عن طريق الردى ، فقال (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ردعاً وزجراً لحالة تحجبك ، فإن عزة الإيمان أعلى ، وعزة الفقر أولى ، فليكن شأنك تعظيم المؤمن الفقير على المؤمن الغني بماله ، العزيز بجاهه ، المحجوب عن نفسه ، فإن الفقير المؤمن هو مجلى حقيقتك (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) وأنت مأمور بمشاهدة نفسك حذر الخروج عن طريقها ، فالمؤمن الفقير مرآتك ترى فيه نفسك ، والمؤمن الغني بالمال عنك هو مرآة لك صدئت فلا ترى نفسك فيها ، فلا تعرف ما طرأ على وجهك من التغيير . واعلم أن لله عباداً كانت أحوالهم وأفعالهم ذكراً يتقرب به إلى الله ، وينتج من العلم بالله ما لا يعلمه إلا مَنْ ذاقه ، فإن كل ما أمر الله به نبيه ﷺ ونهاه عنه كان عين أحوالهم

وأفعالهم ، مع كون هذه الطائفة التي نزل فيهم هذا القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ ، فما نالوا ما نالوه إلا باتباعه وفهم ما فهموا عنه ، ومع هذا عاتب الله تعالى نبيه ﷺ فيهم ، فكان ﷺ إذا حضروا لا تعدو عيناه عنهم ، ولما كان دعاؤهم بالغداة والعشي ، وهو زمان تحصيل الرزق في المرزوقين ، فكان رزق هؤلاء بالغداة والعشي ما ينتج لهم معرفة وجه الحق في كل شيء ، فلا يرون شيئاً إلا ويرون وجه الحق فيه ، فيحصل لهم معرفة الوجه الذي كان مرادهم ، لأنه تعالى يقول « يريدون وجهه » يعني بذلك الدعاء بالغداة والعشي وجه الحق ، لما علموا أن كل شيء هالك إلا وجهه ، فطلبوا ما يبقى وآثروه على ما يفنى ، فكانوا في حضرة شهود أو طالبين لهذه الحضرة ، ولذا قال تعالى لرسوله ﷺ « ولا تعد عيناك عنهم » فكانت عينا رسول الله ﷺ لا تعدوان عنهم إلى غيرهم ما داموا حاضرين ، ومن هنا قال رسول الله ﷺ في صفة أولياء الله [وهم الذين إذا رؤوا ذُكِر الله] لما حصل لهم من نور هذا الوجه الذي هو مراد لهؤلاء ، والأنبياء وإن شاهدوا هؤلاء في حال شهودهم للوجه الذي أرادوه من الله تعالى بدعائهم ، فإنهم من حيث إنهم أرسلوا لمصالح العباد لا يتقيدون بهم على الإطلاق ، وإنما يتقيدون بالمصالح التي بعثوا بسببها ، فوقتاً يعتبون مع كونهم في مصلحة مثل هذه الآية ، ومثل آية الأعمى ، ومن وجه آخر قيل في هذه الآية لرسول الله ﷺ في حق الأعبد « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » أي وانظر فيهم صفة الحق ، فإنها مطلوبك في الكون ، فإني أدعو عبادي بالغداة والعشي وفي كل وقت ، أريد وجههم أي ذاتهم أن يسمعوا دعائِي فيرجعوا إلَيّ « ولا تعد عيناك عنهم » فإنهم ظاهرون بصفتي كما عرفتك « تريد زينة الحياة الدنيا » فهذه الزينة أيضاً في هؤلاء وهي في الحياة الدنيا فهنا أيضاً مطلوبك « ولا تطع » فإنهم طلبوا منه ﷺ أن يجعل لهم مجلساً ينفردون به معه ، لا يحضره هؤلاء الأعبد ، فأجابهم حرصاً على إيمانهم « من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » أي جعلنا قلبه في غلاف فحجبناه عن ذكرنا ، فإنه إن ذكرنا علم أن السيادة لنا وأنه عبد ، فيزول عنه هذا الكبرياء ، والصفة التي ظهر بها التي عظمتها أنت لكونها صفتي وطمعت في إزالتها عن ظاهرهم ، فإني أعلمت أني قد طبعت على كل قلب متكبر جبار فلا يدخله كبر وإن ظهر به « واتبع هواه » أي غرضه الذي ظهر به « وكان أمره فرطاً » أي ما هو نصب عينيه له وهو مشهود له ، لا يصرف نظره عنه إلى ما يقول له الحق على لسان

رسوله وما يريده منه ، فكان رسول الله ﷺ إذا أقبل عليه هؤلاء الأعبد قال ﷺ [مرحباً بمن عتبني فيهم ربي] ويمسك نفسه معهم في المجلس حتى يكونوا هم الذين ينصرفون ، ولم تزل هذه أخلاقه ﷺ بعد ذلك إلى أن مات ، فما لقيه أحد بعد ذلك فحدثه إلا قام معه حتى يكون هو الذي ينصرف ، وكذلك إذا صافحه شخص لم يزل يده من يده حتى يكون الشخص هو الذي يزيلها ، هكذا رويناه من أخلاقه ﷺ ـــ **فائدة** ـــ إن كان العبد قوي الإيمان ، غير متبحر في التأويل ، خائضاً في بحر الظاهر ، لا يصرفه للمعاني الباطنة صارف ، انتفع بالذكرى ، فإن تأول تردى وأردى من اتبعه ، وكان من الذين اتبعوا أهواءهم ، وكان أمر من هذه صفته فرطاً فإن النفوس مجبولة على حب إدراك المغيبات ، واستخراج الكنوز وحل الرموز ، وفتح المغاليق والبحث عن خفيات الأمور ودقائق الحكم ، ولا ترفع بالظاهر رأساً ، فإن ذلك في زعمها أبين من فلق الصبح ، ومن أحكم الظاهر كشف الله له عند ذلك في هذه الظواهر ما لا يخطر بخاطر أحد ، ويعظم قدره وتظهر حكمته وكثرة خيره ، ويعلم الجاهل عند ذلك أنه ما كان يحسبه هيناً هو عند الله عظيم ، فإن الجاهل بالظاهر بالباطن أجهل ، فإنه الدليل عليه ، وإن فرط في تحصيل الأول كان في تحصيل الآخر أشد تفريطاً ـــ **نصيحة** ـــ الزم باب الله واصبر نفسك مع أحبابه الذين تحقرهم العيون ، فذلك الذي رفعهم عند الحق .

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ـــ **الوجه الأول** ـــ أي لا تأخذكم في الله لومة لائم ، وهو قوله تعالى (إنْ عليك إلا البلاغ) وقوله تعالى (ليس عليك هداهم) و (إنك لا تهدي من أحببت) ـــ **الوجه الثاني** ـــ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء الله أن يكفر فليكفر ، فإنهم ما يشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ، ثم ذكر تعالى ما للظالمين عند الله في الآخرة فقال تعالى « إنا اعتدنا للظالمين ناراً

أحاط بهم سرادقها » الآية ــ فإذا اجتمع في مجلس أهل الله من هو فقير ذليل منكسر وغني بماله ذو جاه في الدنيا ، أظهر الداعي إلى الله القبول والإقبال على الفقير أكثر من إظهاره على الغني ذي الجاه ، لأنه المقصود بالأدب الذي أدب الله تعالى به نبيه ﷺ ، غير أن صاحب هذه الصفة يحتاج إلى ميزان الحق في ذلك ، فإن غفل عنه كان الخطأ أسرع إليه من كل شيء ، وصورة الوزن فيه أن لا يرى في نفسه شفوفاً عليه ، ولا يخاطب الغني ولا ذا الجاه بصفة قهر تذله ، فإنه لا يذل تحتها بل ينفر ويزيد عظمة ، وإذا رأى من الأغنياء بالعرض ــ من جاه أو مال ــ الفقر والذلة نزولاً عن هاتين المرتبتين ، وجب على أهل الله الإقبال عليهم ، قال تعالى : ــ

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه أو تعلم أنه يراك ، فهذا هو الحد الضابط للإحسان في العمل ، وما عدا هذا فهو سوء عمل ، إما ببذل الوسع في الاجتهاد فيكون وفّى الأمر حقه ، ولكنه أخطأ وهو صاحب عمل حسن ، فيكون رؤية سوء العمل حسناً بعد الاجتهاد ، وإما أن يكون في المشيئة فلا يدري بما يختم له إذا لم يكن عن استيفاء الاجتهاد بقدر الوسع ورآه حسناً عن غير اجتهاد ، فقوله تعالى « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » أحسن عملاً هنا من الإحسان ، وهو الحضور مع الله تعالى في ذلك العمل ، وهو قول رسول الله ﷺ في الإحسان [أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] وذلك الحضور مع الله هو حياة ذلك العمل ، وبه سُمِّي عبادة ، فالإحسان في العبادة كالروح في الصور يحييها ، وإذا أحياها لم تزل تستغفر لصاحبها ، ولها البقاء الدائم ، فلا يزال مغفوراً له ، فإن الله صادق ، وقد أخبر أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وأحسن العمل ما عمل بشرطه وفي زمانه وتمام خلقه وكمال رتبته ، وأصحاب هذا المقام ــ مقام الإحسان ــ يشرعون في العمل على الحجاب (اعبد الله كأنك تراه) فإذا رأوا المعمول له رأوا العمل صادراً منه فيهم ما هم العاملين ، فيخافون من مزلة القدم فيما سماه من أفعاله حسناً وسيئاً .

ــ **تحقيق** ــ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، كيف يضيعه وهو الذي شرعه ووعد عليه بالأجر ، ووعده صدق ؟ .

أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

قصة هذين الرجلين هنا في الدنيا هو ما قصه الحق في سورة الكهف ، وذكر حديثهما في الآخرة في سورة الصافات (قال قائل منهم : إني كان لي قرين) إلى آخر الحديث وفيها ذكر المعاتبة .

كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

فيقول له صاحبه في الآخرة لما اطلع فرآه في سواء الجحيم (تالله إن كدت لتردين) ورد في الأخبار الإلهية الصحاح عن رسول الله ﷺ ، عن ربه عز وجل فيما يقوله لعبده يوم القيامة [أظننت أنك ملاقي] .

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾

فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

ـــ إشارة ـــ تحفظ من الصاحب فإنه العدو الملازم ، فدُلّه على الحق وإن ثقل عليه ، فيشكر لك عند الله .

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

الاقتدار حكم القادر في ظهور الأشياء بأيدي الأسباب ، والأسباب هي المتصفة بكسب القدرة ، فهي مقتدرة أي متعملة في الاقتدار ، وليس إلا الحق تعالى ، فهو المقتدر على كل ما يوجده عند سبب أو بسبب ، فالله القادر من حيث الأمر ، ومقتدر من حيث الخلق ، ومن وجه آخر ، القادر في مقابلة القابل للأثر فيه مع كونه معدوماً في عينه ، ففيه ضرب من الامتناع وهي مسألة مشكلة ، لأن تقدم العدم للممكن قبل وجوده لا يكون مراداً ، ولا هو صفة نفسية للممكن ، فهذا هو الإشكال فينبغي أن يعلم ، والمقتدر لا يكون إلا في حال تعلق القدرة بالمقدور لأنه تعمل في تعلق القدرة بالمقدور لإيجاد عينه .

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا

وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

جمع المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات من الخير عند ربه وهو الثواب ، ومن الخير المؤمل وهو المال والبنون ، لأنهما من الباقيات الصالحات ، أعني المال والبنين إذا كان المال الصالح والولد الصالح والعلم الذي ينتفع به ، وهو ما سنه من سنة حسنة قال عليه الصلاة والسلام [يموت ابن آدم وينقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم يبثه في الناس أو ولد صالح يدعو له] .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

يكون عموم الحشر لعموم ما ضمنته الدار الدنيا ، من معدن ونبات وحيوان وإنس وجان وسماء وأرض .

وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

أول موقف إذا خرج الناس من قبورهم ، يقومون على أبواب قبورهم ألف سنة عراة حفاة جياعاً عطاشاً

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

فالغافل هو الذي لا حفظ له يُحضَر له ما فعله ، لأنه استولى عليه سلطان الغفلة والسهو والنسيان ، فيكون الحق يحفظ له أو عليه .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

الملائكة رسل من الله إلى الإنسان ، موكلون به حافظون كاتبون أفعالنا ، والشياطين مسلطون على الإنسان بأمر الله ، فهم مرسلون إلينا من الله ، فلما شرّك بينهم في الرسالة أدخل تعالى إبليس في الأمر بالسجود مع الملائكة فقال (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) فأدخله معهم في الأمر بالسجود فصح الاستثناء ، وجعله منصوباً بالاستثناء المنقطع ، فقطعه عن الملائكة كما قطعه عنهم في خلقه من نار ، « كان من الجن » أي من الذين يستترون عن الإنس مع حضورهم معهم فلا يرونهم ، كالملائكة ، وليس إبليس أول الجن بمنزلة آدم من الناس ، بل هو واحد من الجن ، وإن الأول فيهم بمنزلة آدم في البشر إنما هو غيره ، ولذلك قال تعالى « إلا إبليس كان من الجن » أي من هذا الصنف من المخلوقين ، كما كان قابيل من البشر وكتبه الله شقياً ، فهو أول الأشقياء من البشر ، وإبليس أول الأشقياء من الجن « ففسق عن أمر ربه » وهو قوله تعالى (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) فهو من الفاسقين الخارجين عن أمر الله ، فسماه كافراً .

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

« ما أشهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » وهو حال الفعل عند تعلق الفاعل بالمفعول ، وكيفية تعلق القدرة الأزلية بالإيجاد الذي حارت فيه المشاهد والعقول ، وكل من رام الوقوف نكص على عقبه ورجع إلى مذهبه ، وقد قال تعالى في أنفَسِهم وأقدسهم حين قال (رب أرني كيف تحيي الموتى) فلما أراه آثار القدرة لا تعلقها عرف كيفية الأشياء والتحام الأجزاء حتى قام شخصاً سوياً ، ولا رأى تعلق القدرة ولا تحققها ، فقد تفرد الحق بسر نشأة خلقه ونشره ، فإنه ليس في حقائق ما سوى الله ما يعطي ذلك ، فلا فعل لأحد

سوى الله ، فهذه الآية دليل على عدم تجلي الحق في الأفعال ، أعني نسبة ظهور الكائنات عن الذات التي تتكون عنها ، فما أشهدهم خلق السموات ولا الأرض ولا خلق أنفسهم ، أي صدورها إلى الوجود ، أراد حالة الإيجاد ، فما شاهد أحد تعلق القدرة الإلهية بالأشياء عند إيجادها ، فإن الخلق يريد به المخلوق في موضع ، مثل قوله (هذا خلق الله) ويريد به الفعل في موضع ، مثل قوله « ما أشهدتم خلق السموات » فهنا يريد به الفعل بلا شك ، لأنه ليس لمخلوق فعل أصلاً ، فما فيه حقيقة من الله يشهد بها فعل الله ، وما لمخلوق مما سوى الله ولا العقل الأول أن يعقل كيفية اجتماع نسب يكون عن اجتماعها عين وجودية مستقلة في الظهور وغير مستقلة في الغنى ، مفتقرة بالإمكان المحكوم عليها به ، وهذا علم لا يعلمه إلا الله تعالى ، وليس في الإمكان أن يعلمه غير الله تعالى ، ولا يقبل التعليم ، أعني أن يعلّمه الله من شاء من عباده ، فأشبه العلم به العلم بذات الحق ، والعلم بذات الحق محال حصوله لغير الله ، فمن المحال حصول العلم بالعالم أو بالإنسان نفسه أو بنفس كل شيء لنفسه لغير الله ، فتفهم هذه المسئلة فإني ما سمعت ولا علمت أن أحداً نبه عليها وإن كان يعلمها ، فإنها صعبة التصور ، مع أن فحول العلماء يقولون بها ولا يعلمون أنها هي « وما كنت متخذ المضلين عضداً » يعتضد بهم .

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

الصمت حكمة وقليل فاعله ، فمن تكلم بالله كانت الحجة له ، فإن الحجة البالغة لله ، ومن تكلم بنفسه كان محجوباً ، كما أن الحق إذا تكلم بعبده كان كلامه ظاهراً بحيث يقتضيه مقام عبده ، فإذا رد الجواب عليه عبده به لا بنفسه ، وظهر حكمه على كلام ربه ، نادى الحق عليه « وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً » وإن قال الحق ، ولكن ما كل حق يحمد ،

ولا كل ما ليس بحق يذم ، فالأدباء يعرفون المواطن التي يحمد فيها الحق فيأتون به فيها ، ويعرفون المواطن التي يحمد فيها ما ليس بحق فيأتون به فيها ، ويتعلق بذلك تعلق الإرادة بالأمر التكليفي وموافقتها أو عدم الموافقة ، وأقوى الجدال ما يجادل به الله ، ومن أراد العصمة من ذلك فلينظر إلى ما شرع الله له ، وأتى على ألسنة رسله ، فيمشي معه حيث مشى ويقف عنده حيث وقف من غير مزيد ، وإن تناقضت الأمور وتصادمت فذلك له لا لك ، وقل : لا أدري هكذا جاء الأمر من عنده ، وارجع إليه وقل : رب زدني علماً .

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

الإعراض عن الآيات التي نصبها الحق دلائل عليه دليل على عدم الإنصاف واتباع الهوى المردي ، وهو علة لا يبرأ منها صاحبها بعد استحكامها حتى يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، فعند ذلك يريد استعمال الدواء فلا ينفع ، كالتوبة عند طلوع الشمس من مغربها .

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾

« وإذ قال موسى لفتاه » وهو صديقه « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً » الحقبة السنة ، وإنما كان الحوت عند يوشع للمناسبة ، لأن يوشع هو ابن نون ، ولهذه المناسبة كان الحوت الذي هو النون .

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾

ولم يكن قبل ذلك أصابه النصب ليتذكر دلالة الحوت ـ **إشارة** ـ مجمع البحرين إشارة إلى علم الباطن وعلم الظاهر .

قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾

من أدب يوشع فتى موسى إضافة النسيان إلى الشيطان ، وما أضافه إلى الله الذي أنساه أن يعرّف موسى عليه السلام بحياة الحوت ، لما أراد الله من تمام ما سبق به العلم الإلهي من زيادة الأقدام التي قدر له أن يقطع بها تلك المسافة ، ويجاوز المكان الذي كان فيه خضر ـ **إشارة** ـ كان الدليل حوتاً ولم يكن غير ذلك لأنه من الحيوان الذي يتكون في الماء ، فليس بينه وبين الأصل واسطة ، لأنه سبحانه جعل من الماء كل شيء حي ، فهو أصل الحياة ، فكذلك جعله دليلاً على الخضر ، إذ كان حياً بما أعطاه الله تعالى ، لا موت عنده ولا جهل ، فكان الدليل مناسباً للمدلول ، ولهذا جعلت حياته دليلاً على وجود خضر ، أي قد وصلت إلى معدن الحياة ـ أما اتخاذه البحر مسلكاً فهو إشارة لرجوع الأشياء إلى أصلها .

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾

أي يتبعان الأثر إلى أن عادا إلى المكان .

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

ـ تفسير من باب الإشارة ـ « فوجدا » تنبيهاً من الله وتأديباً لموسى عليه السلام لما جاوزه من الحد في إضافة العلم إلى نفسه بأنه أعلم مَنْ في الأرض في زمانه ، فلو كان عالماً لعلم دلالة الحق التي هي عين اتخاذ الحوت سرباً ، وما علم ذلك وقد علمه يوشع ، ونسّاه الله التعريف بذلك ليظهر لموسى عليه السلام تجاوزه الحد في دعواه و لم يَرُدّ ذلك إلى الله في علمه في خلقه « فوجدا عبداً من عبادنا » فأضافه إلى نون الجمع وهو خضر ، واسمه بليا بن ملكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، كان في جيش فبعثه أمير الجيش يَرتاد لهم ماء ، وكانوا قد فقدوا الماء ، فوقع بعين الحياة فشرب منه فعاش إلى الآن ، وكان لا يعرف ما خص الله به من الحياة شارب ذلك الماء ، والخضر هو الشاب الذي يقتله الدجال في زعمه لا في نفس الأمر ، وهو فتى ممتلىء شباباً ، هكذا يظهر له في عينيه « آتيناه رحمة من عندنا » الرحمة تتقدم بين يدي العلم تطلب العبد ، ثم يتبعها العلم ، فالعلم يستصحب الرحمة بلا شك ، فإذا رأيت من يدعي العلم ولا يقول بشمول الرحمة فما هو صاحب علم ، وهذا هو علم الذوق لا علم النظر ، قال تعالى في حق عبده خضر « آتيناه رحمة من عندنا » فقدم الرحمة على العلم ، وهي الرحمة التي في الجبلة ، جعلها فيه ليرحم بها نفسه وعباده ، فيكون في حق الغلام رحمة أن حال بينه وبين ما يكتسبه لو عاش من الآثام إذ قد كان طبع كافراً ، وأما رحمته بالملك الغاصب حتى لا يتحمل وزر غصب تلك السفينة من هؤلاء المساكين ، فالرحمة إنما تنظر من جانب الرحيم بها لا من جانب صاحب الغرض ، فإنه جاهل بما ينفعه ، وإن أراد الله تعالى أنه أعطاه رحمة من عنده أي رحمناه ، فأعطيناه هذا العلم الذي ظهر به ، وهو ما أعطاه من الفهم ، وهو مقام يحصل من وجهين : وجه اختصاص كالخضر وأمثاله من غير تعمل وكالقائم في آخر الزمان ، ووجه آخر من طريق التعمل طريق الكسب ، فقال تعالى في خضر « وعلمناه من لدنا علماً » جوداً ورحمة من الله ، فإنه لم يذكر له تعملاً في تحصيل شيء من ذلك ، وجعل الكل منه امتناناً وفضلاً ، فهو علم الوهب لا علم الكسب ، فإنه لو أراد العلم المكتسب لقال تعالى : وعلمناه طريق اكتساب العلوم ، فالعلم الموهوب هو العلم اللدني علم الخضر وأمثاله ، وهو

العلم الذي لا تعمل لهم فيه بخاطر أصلاً ، حتى لا يشوبه شيء من كدورات الكسب ، والنبوات كلها علوم وهبية ، لأن النبوة ليست مكتسبة ، فالشرائع كلها من علوم الوهب وكل علم حصل عن دعاء فيه أو بدعاء مطلق فهو مكتسب ، والعلم المكتسب لا يصلح إلا للرسل صلوات الله عليهم ، فإنهم في باب تشريع الاكتساب ، فإذا وقفوا مع نبوتهم لا مع رسالتهم كان حالهم مع الله ترك طلب ما سواه ، فالكسب هو توفيقه وإلهامه إلى ترك جميع المعلومات وجميع العالم من خاطره ، ويجلس فارغ القلب مع الله بحضور ومراقبة وسكينة وذكر إلهي باسم الله ذكر قلب ، ولا ينظر في دليل يوصله إلى علمه بالله ، فإذا لزم الباب وأدمن القرع بالذكر علّمه الله من لدنه علماً ، وهذا مقام المقربين وهو بين الصديقية ونبوة التشريع ، فلم يبلغ منزلة نبي التشريع من النبوة العامة ، ولا هو من الصديقين الذين هم أتباع الرسل لقول الرسل ، وغير الرسل من العلماء بالله مثل الخضر وأمثاله لم يكله إلى عنديته ولا إلى نفسه ، بل تولى تعليمه ليريحه ، لما هو عليه من الضعف ، وأعطاه هذا العلم من أجل قوله « لدنا » والغصن اللدن هو الرطيب ، فهي هنا اللين والعطف وهي الرحمة المبطونة في المكروه ، وبهذه الرحمة قتل الغلام وخرق السفينة ، وبالرحمة التي في الجبلة أقام الجدار ، وأضاف الحق التعليم إليه تعالى لا إلى الفكر ، فعلمنا أن ثَمَّ مقاماً آخر فوق الفكر يعطي العبد العلم بأمور شتى ، يقول عنه بعض العلماء إنه وراء طور العقل ، ومن العلوم ما يمكن أن يدركها العقل من حيث الفكر ، ومنها ما يجوّزها الفكر وإن لم تحصل لذلك العقل من الفكر ، ومنها ما يجوزها الفكر وإن كان يستحيل أن يعينها الفكر ، ومنها ما يستحيل عند الفكر ويقبلها العقل من الفكر مستحيلة الوجود لا يمكن أن يكون له تحت دليل الإمكان ، فيعلمها هذا العقل من جانب الحق واقعة صحيحة غير مستحيلة ، ولا يزول اسم الاستحالة ولا حكم الاستحالة عقلاً ، قال ﷺ : [إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله] هذا من العلم الذي يكون تحت النطق ، فما ظنك بالعلم الخارج عن الدخول تحت حكم النطق ، فما كل علم يدخل تحت العبارات وهي علوم الأذواق كلها ، وفي هذه الآية جمع بنون الجمع في قوله تعالى آتيناه وعلمناه ولدنا ، أي جمع له في هذا الفتح العلم الظاهر والباطن ، وعلم السر والعلانية ، وعلم الحكم والحكمة ، وعلم العقل

والوضع ، وعلم الأدلة والشبه ، ومن أُعطي العلم العام وأمر بالتصرف فيه كالأنبياء ومن شاء الله من الأولياء أنكر عليه ، ولم ينكر هذا الشخص على أحد ما يأتي به من العلوم وإن حكم بخلافه ، ولكن يعرف موطنه وأين يحكم به ، وهذا العلم من الوجه الخاص الذي بين العبد وبين الله وهو لكل مخلوق ، وهو وجه لا يطلع عليه من العبيد نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ولذلك قال الخضر لموسى عليه السلام : أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت ، لأنه كان من الوجه الخاص الذي من الله لعبده ، لا يطلع على ذلك الوجه إلا صاحبه ، ثم قال له الخضر : وأنت أيضاً على علم علمكه الله لا أعلمه أنا ، فإن كان موسى عليه السلام قد علم وجهه الخاص عرف ما يأتيه من ذلك الوجه ، وإن كان لم يعلم ذلك فقد نبهه الخضر عليه ليسأل الله فيه ــ **استدراك** ــ اعلم أن العلم وسوء الخلق لا يجتمعان في موفق ، فكل عالم فهو واسع المغفرة والرحمة ، وسوء الخلق من الضيق والحرج وذلك لجهله ، واعلم أن العلم وإن كان شريفاً فإن له معادن ، أشرفها ما يكون من لدنه ، فإن الرحمة مقرونة به ، ولها النَفَسُ الذي يُنَفّس الله به عن عباده ما يكون من الشدة فيهم ، والعبد إذا لزم الخلوة والذكر ، وفرغ المحل من الفكر ، وقعد فقيراً لا شيء له عند باب ربه ، حينئذ يمنحه الله تعالى ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية ، والمعارف الربانية التي أثنى الله بها على عبده خضر ما يغيب عنده كل متكلم على البسيطة ، بل كل صاحب نظر وبرهان ليست له هذه الحالة ، فإنها وراء النظر العقلي ، إذ كانت العلوم على ثلاث مراتب ــ **علم العقل** ــ وهو كل علم يحصل لك ضرورة أو عقيب نظر في دليل ، بشرط العثور على وجه ذلك الدليل ، وشبَهه من جنسه من عالم الفكر الذي يجمع ويختص بهذا الفن من العلوم ، ولهذا يقولون في النظر : منه صحيح ومنه فاسد ــ والعلم الثاني ــ **علم الأحوال** ــ ولا سبيل إليها إلا بالذوق ، فلا يقدر عاقل على أن يحدّها ولا يقيم على معرفتها دليلاً ، كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر ولذة الجماع والعشق والوجد والشوق وما شاكل هذا النوع من العلوم ، فهذه علوم من المحال أن يعلمها أحد إلا بأن يتصف بها ويذوقها ، وشبهها من جنسها في أهل الذوق ، كمن يغلب على محله طعمة المرة الصفراء ، فيجد العسل مراً وليس كذلك ، فإن الذي باشر محل الطعم إنما هو المرة الصفراء ــ والعلم الثالث ــ **علوم الأسرار** ــ وهو العلم الذي فوق طور العقل ، وهو علم نفث روح القدس في الروع ، يختص به النبي والولي ،

وهو نوعان : نوع منه يدرك بالعقل كالعلم الأول من هذه الأقسام ، لكن هذا العالم به لم يحصل له عن نظر ، ولكن مرتبة هذا العلم أعطت هذا ، والنوع الآخر على ضربين ، ضرب منه يلتحق بالعلم الثاني لكن حاله أشرف ، والضرب الآخر من علوم الأخبار وهي التي يدخلها الصدق والكذب ، إلا أن يكون المُخبِر به قد ثبت صدقه عند المُخبَر ، وعصمته فيما يخبر به ويقوله ، كإخبار الأنبياء صلوات الله عليهم عن الله ، وكإخبارهم بالجنة وما فيها ، فقوله إن ثَمَّ جنة من علم الخبر ، وقوله في القيامة إن فيها حوضاً أحلى من العسل من علم الأحوال ، وهو علم الذوق ، وقوله كان الله ولا شيء معه ومثله من علوم العقل المدركة بالنظر ، فهذا الصنف الثالث الذي هو علم الأسرار العالم به يعلم العلوم كلها ويستغرقها ، وليس صاحب تلك العلوم كذلك ، فلا علم أشرف من هذا العلم المحيط الحاوي على جميع المعلومات ، وما بقي إلا أن يكون المخبر به صادقاً عند السامعين له معصوماً ، هذا شرطه عند العامة ، وأما العاقل اللبيب الناصح نفسه فلا يرمي به ، ولكن يقول : هذا جائز عندي أن يكون صدقاً أو كذباً ، وكذلك ينبغي لكل عاقل إذا أتاه بهذه العلوم غير المعصوم ، وإن كان صادقاً في نفس الأمر فيما أخبر به ، ولكن كما لا يلزم هذا السامع له صدقه لا يلزمه تكذيبه ، ولكن يتوقف ، وإن صدّقه لم يضره ، لأنه أتى في خبره بما لا تحيله العقول ، بل بما تجوّزه أو تقف عنده ، ولا يهد ركناً من أركان الشريعة ، ولا يبطل أصلاً من أصولها ، فإذا أتى بأمر جوزه العقل وسكت عنه الشارع فلا ينبغي لنا أن نرده أصلاً ، ونحن مخيرون في قبوله إن كانت حالة المخبر به تقتضي العدالة لم يضرنا قبوله ، كما تقبل شهادته ونحكم بها في الأموال والأرواح ، وإن كان غير عدل في علمنا فننظر ، فإن كان الذي أخبر به حقاً بوجه ما عندنا من الوجوه المصححة قبلناه ، وإلا تركناه في باب الجائزات ولم نتكلم في قائله بشيء ، فإنها شهادة مكتوبة نسأل عنها ، قال تعالى : (ستكتب شهادتهم ويسألون) ولو لم يأت هذا المخبر إلا بما جاء به المعصوم فهو حاكٍ لنا ما عندنا من رواية عنه ، فلا فائدة زادها عندنا بخبره ، وإنما يأتون رضي الله عنهم بأسرار وحِكَم من أسرار الشريعة ، مما هي خارجة عن قوة الفكر والكسب ، ولا تنال أبداً إلا بالمشاهدة والإلهام وما شاكل هذه الطرق ، ومن هنا تكون الفائدة بقوله عليه السلام : [إن يكن من أمتي محدَّثون فمنهم عمر] وقوله في أبي بكر في فضله بالسر غيره ، ولو لم يقع الإنكار لهذه العلوم في الوجود لم يُفد

قول أبي هريرة [حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين ، فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قطع مني هذا البلعوم] و لم يُفد قول ابن عباس حين قال في قول الله عز وجل (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) لو ذكرت تفسيره لرجمتموني ، وفي رواية لقلتم إني كافر ، و لم يكن لقول الرضي من حفدة علي بن أبي طالب رضي الله عنه معنى ، إذ قال :

يا رب جوهر علم لو أبوح به   لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي   يرون أقبح ما يأتونه حسنا

فهؤلاء كلهم سادات أبرار فيما أحسب واشتهر عنهم ، قد عرفوا هذا العلم ورتبته ومنزلة أكثر العالم منه ، وأن الأكثر منكرون له ، وينبغي للعاقل العارف أن لا يأخذ عليهم في إنكارهم ، فإنه في قصة موسى مع خضر مندوحة لهم ، وحجة للطائفتين ، وإن كان إنكار موسى عن نسيان لشرطه ولتعديل الله إياه ، وبهذه القصة عينها نحتج على المنكرين ، لكنه لا سبيل إلى خصامهم . واعلم أن كل علم إذا بسطته العبارة حسن وفُهِمَ معناه أو قارب وعذب عند السامع الفَهِم فهو علم العقل النظري ، لأنه تحت إدراكه ومما يستقل به لو نظر ، إلا علم الأسرار ، فإنه إذا أخذته العبارة سمج واعتاص على الأفهام دركه وخشن ، وربما مجته العقول الضعيفة المتعصبة التي لم تتوفر لتصريف حقيقتها التي جعل الله فيها من النظر والبحث ، وأما علوم الأحوال فمتوسطة بين علم الأسرار وعلم العقول ، ثم لتعلم أنه إذا حسن عندك وقبلته وآمنت به فأبشر أنك على كشف منه ضرورة وأنت لا تدري ، لا سبيل إلا هذا ، إذ لا يثلج الصدر إلا بما يقطع بصحته ، وليس للعقل هنا مدخل ، لأنه ليس من دركه إلا إن أتى بذلك معصوم ، حينئذ يثلج صدر العاقل ، وأما غير المعصوم فلا يلتذ بكلامه إلا صاحب ذوق

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾

اعلم أن الأنبياء أصحاب الشرائع هم أرفع عباد الله من البشر ، ومع هذا لا يبعد أن يخص الله المفضول بعلم ليس عند الفاضل ، ولا يدل تميزه عنه أنه بذلك العلم أفضل منه ،

قال الخضر لموسى عليه السلام : أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا

قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾

ثم أنصفه في العلم وقال له : يا موسى أنا على علم ... الحديث ــ .

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾

الخُبْر الذوق ، وهو علم حال لأنه وحي خاص إلهي ، ليس للملك فيه وساطة من الله ، فإن وحي الرسل إنما هو بالملك بين الله وبين رسوله ، فلا خُبْر له بهذا الذوق في عين إمضاء الحكم في عالم الشهادة ، فما تعود الأرسال لتشريع الأحكام الإلهية في عالم الشهادة إلا بواسطة الروح الذي ينزل به على قلبه أو في تمثله ، لم يعرف الرسول الشريعة إلا على هذا الوصف لا غير الشريعة ، فإن الرسول له قرب أداء الفرائض والمحبة عليها من الله ، وما تنتج له تلك المحبة ، وله قرب النوافل ومحبتها وما يعطيه محبتها ، ولكن من العلم بالله لا من التشريع وإمضاء الحكم في عالم الشهادة ، فخرق الخضر السفينة وقتل الغلام حُكْماً ، وأقام الجدار مكارم أخلاق عن حكم أمر إلهي ، فلم يحط موسى عليه السلام به خبراً من هذا القبيل ، فهذا القدر الذي اختص به خضر دون موسى عليه السلام ، فلما علم الخضر أن موسى عليه السلام ليس له ذوق في المقام الذي هو الخضر عليه ، قال الخضر لموسى عليه السلام « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً »، لأنه كان في مقام لم يكن لموسى عليه السلام في ذلك الوقت الذي نفاه عنه العدل بقوله ، وتعديل الله إياه بما شهد له به من العلم ، مع كون موسى عليه السلام كليم الله ، وكما أن الخضر ليس له ذوق فيما هو موسى عليه من العلم الذي علمه الله ، إلا أن مقام الخضر لا يعطي الاعتراض على أحد من خلق الله ، لمشاهدة خاصة هو عليها ، ومقام موسى والرسل يعطي الاعتراض من حيث هم رسل لا غير ، في كل ما يرونه خارجاً عما أرسلوا به ، ودليل ما ذهبنا إليه في هذا قول الخضر لموسى عليه السلام « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً »، فلو كان الخضر نبياً لما قال له « ما لم تحط به خبراً » فالذي فعله لم يكن من مقام النبوة ، وقال له في انفراد كل واحد منهما بمقامه الذي هو عليه [يا

موسى أنا على علم ... الحديث] فافترقا وتميزا بالإنكار ، وما رد موسى على الخضر في ذلك ، ولا أنكر عليه في قوله المذكور في هذه الآية ، بل .

قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴿٦٩﴾

قال ذلك لأنه قال له قبل ذلك (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً) والصبر لا يكون إلا على ما يشق عليه ، وأدخل موسى نفسه عليه السلام في اتباع الخضر وتحت شرطه ، وموسى كليم الله ونجيه ، ومع هذا لم يصبر لأنه قدم الاستثناء ، فلو قدم موسى عليه السلام الصبر على المشيئة كما يفعل المحمدي لصبر و لم يعترض ، فإن الله قدمه في الإعلام تعليماً لمحمد ﷺ في قوله تعالى : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) فأخر الاستثناء ، فمن أراد أن يحصل علم الله في خلقه فليقف عند ترتيب حكمته في الأشياء ، وليقدم ما قدم الله ويؤخر ما أخر الله ، فإذا أخرت ما قدمه أو قدمت ما أخره فهو نزاع خفي يورث حرماناً ، فالله أخر الاستثناء وقدمه موسى عليه السلام فلم يصبر ، فلو أخره لصبر ، والآية التي ذكرناها أنها نزلت على محمد ﷺ مذكورة باللسان العبراني في التوارة .

قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٧٠﴾

كل أمر يقع التعجب منه فإن صاحبه الذي أوجده للتعجب ما أوجده بهذه الحالة إلا ليحدث منه ذكراً لهذا الذي تعجب منه ، فلا تستعجل ، فإنه لابد أن يخبره موجده بحديثه ، إلا أن الإنسان خلق عجولاً ، وما في العالَم أمر لا يتعجب منه ، فالوجود كله عجيب ، فلابد أن يحدث الله منه ذكراً للمتعجبين ، فالعارفون أحدث الله لهم ذكراً منه في هذه الدار ، فعرفوا لما خلقوا له ولما خلق لهم ، والعامة تعرف حقائق الأمور في الآخرة ، فلابد من العلم سواء في الدنيا للعلماء أو في الآخرة للعامة .

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا

﴿نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣﴾

العلم حاكم ، فإن لم يعمل العالم بعلمه فليس بعالم ، العلم لا يمهل ولا يهمل ، لما علم الخضر حكم ، ولما لم يعلم ذلك صاحبه اعترض عليه ونسي ما كان قد ألزمه ، فالتزم .

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ۝٧٤﴾

« لقد جئت شيئاً نكراً » أي ينكره شرعي ، فما أنكر موسى عليه السلام إلا بما شرع له الإنكار فيه ، ولكن غاب عن تزكية الله لهذا الذي جاء بما أنكره عليه صاحبه ، فهو في الظاهر طعن في المزكي . واعلم أنه ما أذهل موسى عليه السلام إلا سلطان الغيرة التي جعل الله في الرسل عليهم السلام على مقام شرع الله على أيديهم ، فلله أنكروا ، وتكرر منه عليه السلام الإنكار مع تنبيه العبد الصالح في كل مسئلة ، ويأبى سلطان الغيرة إلا الاعتراض ، لأن شرعه ذوق له ، والذي رآه من غيره أجنبي عنه ، وإن كان علماً صحيحاً ، ولكن الذوق أغلب والحال أحكم . واعلم أن الكشف لا ينكر شيئاً ، بل يقرر كل شيء في رتبته ، من عقل وشرع وذوق ، فمن كان وقته الكشف أنكر عليه و لم ينكر هو على أحد ، ومن كان وقته العقل أنكر وأنكر عليه ، ومن كان وقته الشرع أنكر وأنكر عليه ، والمحقق ينكر مع الشرع ما ينكره الشرع ، لأن وقته الشرع ، ولا ينكره كشفاً ولا عقلاً

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧﴾

فكانت الثالثة ، ونسي موسى حالة قوله (إني لما أنزلت إلي من خير فقير) وما طلب الإجارة على سقايته مع الحاجة .

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

فحصل لموسى عليه السلام مقصوده ومقصود الحق في تأديبه ، فعلم أن لله عباداً عندهم من العلم ما ليس عنده .

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

من كلام خضر يُعلَم أدب الإضافة ، فقال « فأردت أن أعيبها » لذكره العيب وهو ما يذم ، وقال في الغلام (فأردنا أن يبدلهما) للاشتراك بين ما يحمد ويذم ، وقال في الجدار (فأراد ربك) لتخليص المحمدة فيه، فيكتسب الشيء الواحد بالنسبة ذماً ، وبالإضافة إلى جهة أخرى حمداً وهو عينه ، وتغير الحكم بالنسبة .

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾

وقد شهد الله للخضر بأنه رحيم ، اقتلع رأس الغلام وقال : إنه طبع كافراً ، فلو عاش أرهق أبويه طغياناً وكفراً ، وانتظم الغلام في سلك الكفار ، فقتله الخضر رحمة به وبأبويه ، أما الصبي حيث أخرجه من الدنيا على الفطرة فسعد الغلام ــ والله أعلم ــ وسعد أبواه .

فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

الضمير في قوله « فأردنا » يعود على الخضر وعلى الله ، فيعود على الله تعالى بما كان في ذلك القتل من الرحمة بالأبوين وبالغلام ، وعلى الخضر بقتل نفس زكية بغير نفس ، فظاهره جور ، فشرك في الضمير بينه وبين الله .

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

إن وقع الجدار ، ظهر كنز الأيتام الصغار ، فتحكمت فيه يد الأغيار ، وبقي الأيتام الصغار من الفقر في ذلة وصَغَار « وما فعلته عن أمري » ــ **الوجه الأول** ــ يعني جميع ما فعله من الأعمال ، وكل ما جرى منه ، وجميع ما قال من الأقوال في العبارة لموسى عليه السلام عن ذلك ، يعني أن الحق علمني الأدب معه ، لأنه كان على شرعة من ربه ومنهاج ، فكان الخضر في حكمه على شرع رسول غير موسى ، فحكم بما حكم به مما يقتضيه شرع الرسول الذي اتبعه ، ومن شرع ذلك الرسول حكم الشخص بعلمه ، فحكم بعلمه في الغلام أنه كافر ، فلم يكن حكم الخضر فيه من حيث إنه صاحب شرع منزل ، وإنما حكم فيه مثل حكم القاضي عندنا بشرع رسول الله ﷺ ، فنبه الخضر موسى عليه السلام أنه ما فعل الذي فعل عن أمره ، فإنه ليس له أمر ، وما هو من أهل الأمر عن طريق الملائكة المخصوصة بالرسل والأنبياء ، ولو قال الخضر لموسى عليه السلام من أول ما صحبه : ما أفعل شيئاً مما تراني أفعله عن أمري ما أنكره عليه ، ــ **الوجه الثاني** ــ « وما فعلته عن أمري » لولا أن الخضر أمره الله أن يظهر لموسى عليه السلام بما ظهر ، ما ظهر له بشيء من ذلك ، فإنه من الأمناء ــ **الوجه الثالث** ــ « وما فعلته عن أمري » فعلم موسى عليه السلام أن فراق الخضر له كان عن أمر ربه ، فما اعترض عليه في فراقه ــ **أدب الإضافة** ــ كل ما ينسب إلى المخلوق من الأفعال فهو فيه نائب عن الله ، فإن وقع محموداً نسب إلى الله لأجل المدح ، فإن الله يحب أن يمدح ، كذا ورد في الصحيح عن رسول الله ﷺ ، وإن تعلق به ذم أو لحق به عيب لم ننسبه إلى الله ، وكذلك فعل العالم العدل الأديب ، فكنّى عن نفسه في إرادة العيب فقال (فأردت أن أعيبها) وقال في المحمود (فأراد ربك) في حق اليتيمين ، وقال في موضع الحمد والذم (فأردنا) بنون الجمع ، لما فيه من تضمن الذم في قتل الغلام بغير نفس ، ولما فيه من تضمن الحمد في حق ما عصم الله بقتله أبويه ، فقال (فأردنا) وما أفرد ولا عيّن ،

هكذا حال الأدباء ، فتعلمنا قصة الخضر مع موسى عليه السلام أدب الإضافة ، فقد أضاف الخضر خرق السفينة إليه ، إذ جعل خرقها عيباً ، وأضاف قتل الغلام إليه ، وإلى ربه لما فيه من الرحمة بأبويه ، وما ساءهما من ذلك أضافه إليه ، وأضاف إقامة الجدار إلى ربه لما فيه من الصلاح والخير ، فقال تعالى عن عبده خضر في خرق السفينة (فأردت أن أعيبها) تنزيهاً أن يضاف إلى الجناب العالي ما ظاهره ذم في العرف والعادة ، وقال في إقامة الجدار لما جعل إقامته رحمة باليتيمين لما يصيبانه من الخير الذي هو الكنز (فأراد ربك) يخبر موسى عليه السلام (أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) وقال لموسى عليه السلام في حق الغلام : إنه طبع كافراً ، والكفر صفة مذمومة ، وأراد أن يخبره بأن الله يبدل أبويه خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ، فأراد أن يضيف ما كان في المسألة من العيب في نظر موسى عليه السلام ، حيث جعله نكراً من المنكر ، وجعله نفساً زاكية قتلت بغير نفس ، قال (فأردنا أن يبدلهما ربهما) فأتى بنون الجمع ، فإن في قتله أمرين : أمر يؤدي إلى الخير ، وأمر إلى غير ذلك في نظر موسى وفي مستقر العادة ، فما كان من خير في هذا الفعل فهو لله من حيث ضمير النون ، فنون الجمع لها وجهان لما فيها من الجمع ، وجه إلى الخير به أضاف الأمر إلى الله ، ووجه إلى العيب به أضاف العيب إلى نفسه ، وجاء بهذه المسألة والواقعة في الوسط لا في الطرف بين السفينة والجدار ، ليكون ما فيها من عيب من جهة السفينة ، وما فيها من خير من جهة الجدار ، فلو كانت مسألة الغلام في الطرف ابتداء أو انتهاء لم تعط الحكمة أن يكون كل وجه مخلصاً من غير أن يشوبه شيء من الخير أو ضده ، وبذلك يلي وجه العيب جهة السفينة ، ويلي وجه الخير جهة الجدار فاستقامت الحكمة ـ **إشارة** ـ سفينتك مركبك فاخرقه بالمجاهدة ، وإن جعلتها النفس فاخرقها بالرياضات ، وغلامك هواك فاقتله بسيف المخالفة ، وجدارك عقلك ، لا بل الأمر المعتاد في العموم ، فأقمه تستتر به كنز المعارف الإلهية عقلاً وشرعاً حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وهو إذا بلغ عقلك وشرعك فيك أشدهما ، وتوخيا ما يكون به المنفعة في حقهما استخرجا كنزهما ، فإن الجدار لم يمل إلا عبادة ليظهر ما تحته من كنوز المعارف ، التي يستغني بها العارف الواقف ، فخلق الله الغيرة في صورة الخضر فأقامه من انحنائه ، لما علم أن الأهلية ما وجدت في ذلك الوقت في رب المال ، فيقع التصرف فيه على غير وجهه ، (ولتعلمن نبأه بعد حين)

فلو ظهر اتخذ عبثاً وعاثت فيه الأيدي ، فسبحان واضح الحِكَم وناصب الآيات ومظهر جمال الدلالات .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

« يا ذا القرنين » أي يا مالك الصفتين ، وهما بلوغه المشرق والمغرب .

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ « ثم أتبع سبباً » أي اقفوا الأسباب .

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ

قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

بعد أن يدرك عيسى ابن مريم عليه السلام الدجال بباب لد فيقتله ، يلبث ما شاء الله ، ثم يوحي الله إليه أن أحرز عبادي إلى الطور ، فإني قد أنزلت عباداً لي لا يد لأحد بقتالهم ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم كما قال الله تعالى (من كل حدب ينسلون) فيمر أولهم ببحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ثم يمر بها آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ثم يسيرون إلى أن ينتهوا إلى جبل بيت المقدس ، فيقولون : لقد قتلنا مَنْ في الأرض فهلم فلنقتل مَنْ في السماء ، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم محمراً دماً ، ويحاصر عيسى ابن مريم وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور يومئذ خيراً لهم من مائة دينار لأحدكم اليوم ، (يعني الصحابة) فيرغب عيسى ابن مريم إلى الله وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم ، فيصبحون فرسى موتى كموت نفس واحدة ، ويهبط عيسى ابن مريم وأصحابه ، فلا يجد موضع شبر إلا وقد ملأته زهمتهم ونتنهم ودماؤهم ، فيرغب عيسى إلى الله وأصحابه ، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم بالمهبل ، ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم وجعابهم سبع سنين ، ويرسل الله عليهم مطراً لا يكن منه بيت ولا وبر ولا مدر ، فيغسل الأرض ويتركها كالزلفة .

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم

بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾

وما أحسنوا صنعاً فإنهم ما كانوا على علم ، بل ظنوا وحدسوا ، فهم الدجاجلة وأصحاب الخيالات الفاسدة .

أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾

المشركون لا قدر لهم ولا يوزن لهم عمل ، ولا من هو من أمثالهم ، ممن كذب بلقاء الله وكفر بآياته ، فإن أعمال خير المشرك محبوطة ، فلا يكون لشرهم ما يوازنه ، فقال تعالى « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » كما أنهم لم يقيموا للحق هنا وزناً ، فعادت عليهم صفتهم ، فما عذبهم بغيرهم ، فالله عز وجل لا يقيم للمجرمين يوم القيامة وزناً ولا يعبأ الله بهم ، من قبورهم إلى جهنم .

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾

الجنات كلها منازل حسية لا معنوية ، وليست المنزلة المعنوية لكل شخص إلا ما في نفس الله تعالى .

خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

وذلك لعدم التناهي ، فإنه يستحيل أن ينقطع خبر الله وإخباره من العالم ، إذ لو انقطع

لم يبقَ للعالم غذاء يتغذى به في بقاء وجوده ، وأعيان الموجودات كلها كلمات الحق ، وهي لا تنفد ، فمخلوقاته لا تزال توجد ، ولا يزال خالقاً ، ولولا الضيق والحرج ما كان للنَفَس الرحماني حُكم ، فإن التنفيس هو إزالة عين الحرج والضيق ، والعدم نَفْس الحرج والضيق ، فإنه يمكن أن يوجد هذا المعدوم ، فإذا علم الممكن إمكانه وهو في حالة العدم كان في كرب الشوق إلى الوجود الذي تعطيه حقيقيته ، ليأخذ نصيبه من الخير ، فنَفّس الرحمن بنَفَسه هذا الحرج فأوجده ، فكان تنفيسه عنه إزالة حكم العدم فيه ، وكل موجود سوى الله فهو ممكن ، فله هذه الصفة ، فنَفَس الرحمن هو المعطي صور الممكنات الوجود ، كما أعطى النَفَس الحروف ، فالعالم كلمات الله من حيث هذا النفس ، كما قال تعالى : (وكلمته ألقاها إلى مريم) وليست غير عيسى عليه السلام ، لم يلق إليها غير ذلك .

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا (١١٠)

ما تميز العالم إلا بالمراتب ، وما شرف بعضه على بعضه إلا بها ، ومن عَلِم أن الشرف للرتب لا لعينه لم يغالط نفسه في أنه أشرف من غيره ، وإن كان يقول إن هذه الرتبة أشرف من هذه الرتبة ، ولما كانت الخلافة ربوبية في الظاهر لأنه يظهر بحكم المَلِك ، فيتصرف في الملك بصفات سيده ظاهراً ، وإن كانت عبوديته له مشهودة في باطنه ، فلم تعم عبوديته عند رعيته الذين هم أتباعه ، وظهر ملكه بهم وباتباعهم والأخذ عنه ، فكان في مجاورتهم بالظاهر أقرب ، وبذلك المقدار يستتر من عبوديته ، لذلك كثيراً ما ينزل في الوحي على الأنبياء « قل إنما أنا بشر مثلكم » فكانت هذه الآية دواء لهذه العلة ، وبهذا المقدار كانت أحوال الأنبياء والرسل في الدنيا البكاء والنوح ، فإنه موضع تُتقى فتنته ، فقال الكامل ﷺ : « إنما أنا بشر مثلكم » عن أمر الله ، قيل له : قل ، فقال ، وبهذا علمنا أنه عن أمر الله ، لأنه نقل الأمر إلينا كما نقل المأمور ، وكان هذا القول دواء للمرض الذي قام بمن عبد عيسى عليه السلام من أمته ، وكان رسول الله ﷺ يقول لنا كثيراً في هذا المقام في حق نفسه وتعليماً لنا « إنما أنا بشر مثلكم » فلم ير لنفسه فضلاً علينا ، أي حكم البشرية فيّ حكمها فيكم ،

فكان ذلك من التأديب الإلهي الذي أدب الله تعالى به نبيه عليه السلام فيما أوحى به إليه ، فقال ﷺ : [إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر] يعني لنفسه ولحق غيره ، [وأرضى كما يرضى البشر] يعني لنفسه ولغيره ، ويعني أن أغضب عليهم وأرضى لنفسي [اللهم من دعوت عليه فاجعل دعائي عليه رحمة له ورضواناً] ثم ذكر المرتبة وهو قوله « يوحى إلي » ولما كان ﷺ لم تؤثر فيه المراتب إذا نالها ، قال وهو في المرتبة العليا [أنا سيد الناس] وفي رواية [أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر] فنفى أن يقصد بذلك الفخر ، لأنه ذكر الرتبة التي لها الفخر الذي هو ﷺ مترجم عنها وناطق بلسانها ، فذكر رتبة الشفاعة والمقام المحمود ، فالفخر للرتبة ولا فخر بالذات إلا لله وحده ، فلم تحكم فيه المرتبة ، وقال في كل وقت وهو في مرتبة الرسالة والخلافة « إنما أنا بشر مثلكم »، فلم تحجبه المرتبة عن معرفة نشأته ، وسبب ذلك أنه رأى لطيفته ناظرة إلى مركبها العنصري وهو متبدد فيها ، فشاهد ذاته العنصرية ، فعلم أنها تحت قوة الأفلاك العلوية ، ورأى المشاركة بينها وبين سائر الخلق الإنساني والحيواني والنبات والمعادن ، فلم ير لنفسه من حيث نشأته العنصرية فضلاً على كل من تولد منها ، وأنه مثل لهم وهم أمثال له ، فقال : « إنما أنا بشر مثلكم » ثم رأى افتقاره إلى ما تقوم به نشأته من الغذاء الطبيعي كسائر المخلوقات الطبيعية ، فعرف نفسه فقال : [يا أبا بكر ما أخرجك ، قال : الجوع ، قال : وأنا أخرجني الجوع] فكشف عن حجرين قد وضعهما على بطنه يشد بهما أمعاءه ــ **إشارة** ــ كان عليه السلام نائب الحق ، فهو وجهه في العالم ، فكان الحق يقول له : « قل إنما أنا بشر مثلكم » أي استتر بعبوديتك ، ولا تظهر مكانتك عندي . واعلم أن جميع ما سوى الله يمكن حصرهم في الأجناس الآتية ، وهم المَلَك والفلك والكوكب والطبيعة والعنصر والمعدن والنبات والحيوان والإنسان ، وما من صنف ذكرناه من هؤلاء الأصناف إلا وقد عبد منهم أشخاص ، فمنهم من عبد الملائكة ، ومنهم من عبد الكواكب ، ومنهم من عبد الأفلاك ، ومنهم من عبد العناصر ، ومنهم من عبد الأحجار ، ومنهم من عبد الأشجار ، ومنهم من عبد الحيوان ، ومنهم من عبد الجن والإنس ، فالمخلص في العبادة التي هي ذاتية له أن لا يقصد إلا من أوجده وخلقه ، وهو الله تعالى ، فتخلص له هذه العبادة ولا يعامل بها أحداً ممن ذكرناه ، أي لا يراه في شيء فيذل له ، واعلم أنه ما من شيء في الكون إلا وفيه ضرر ونفع ، فاستجلب بهذه الصفة الإلهية

نفوس المحتاجين إليه لافتقارهم إلى المنفعة ودفع المضار ، فأداهم ذلك إلى عبادة الأشياء وإن لم يشعروا ، ولما علم الله ما أودعه في خلقه ، وما جعل في الثقلين من الحاجة إلى ما أودع الله في الموجودات وفي الناس بعضهم إلى بعض قال : « فمن كان يرجوا لقاء ربه » فذكر لقاء الله ليدل على حالة الرضى من غير احتمال ، كما ذكره رسول الله ﷺ وذلك في الجنة ، فإنها دار الرضوان ، فما كل من لقي الله سعيد « فليعمل عملاً صالحاً » أي لا يشوبه فساد ، والصالح الذي لا يدخله خلل ، فإن ظهر فيه خلل فليس بصالح ، وليس الخلل في العمل وعدم الصلاح فيه إلا الشرك ، فقال : « ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » أي لا يذل إلا لله لا لغيره ، لأنه إذا لم يرَ شيئاً سوى الله وأنه الواضع أسباب المضار والمنافع ، لجأ إلى الله في دفع ما يضره ونيل ما ينفعه من غير تعيين سبب ، ونكر « أحداً » فدخل تحته كل شيء له أحدية ، وعم كل ما ينطلق عليه اسم أحد ، وهو كل شيء في عالم الخلق والأمر ، وعم الشرك الأصغر ، وهو الشرك الذي في العموم ، وهو الربوبية المستورة المنتهكة ، في مثل فعلتُ وصنعتُ وفعل فلان ولولا فلان ، فهذا هو الشرك المغفور ، فإنك إذا راجعت أصحاب هذا القول فيه رجعوا إلى الله تعالى ، والشرك الذي في الخصوص ، فهم الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ، وهو الظلم العظيم ، قال رسول الله ﷺ : [إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل في سبيل الله ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلته على رسولي ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة له : كذبت ، ويقول الله : إنما قرأت ليقال فلان قارىء فقد قيل ذلك ، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جواد فقيل ذلك ، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله : فيماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبة أبي هريرة وقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول من يسعر

بهم النار يوم القيامة] فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث يغشى عليه ، يقول الله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » وجاء في الحديث الغريب الصحيح [من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك] فنكر تعالى العمل وما خص عملاً من عمل ، والضمير في فيه يعود على العمل ، والضمير في منه يعود على الغير الذي هو الشريك ، وضمير هو يعود على المشرك ـ **تحقيق إخلاص العمل لله من الشرك** ـ الإخلاص في العمل هو أن تقف كشفاً على أن العامل ذلك العمل هو الله ، كما هو في نفس الأمر ، أي عمل كان ذلك العمل ، مذموماً أو محموداً أو ما كان ، فذلك حكم الله تعالى فيه ما هو عين العمل ، لذلك فإن الله لا يتبرأ من العمل فإنه العامل بلا شك ، فإخلاص العمل لله هو نصيب الله من العمل ، لأن الصورة الظاهرة في العمل إنما هي في الشخص الذي أظهر الله فيه عمله ، فيلتبس الأمر للصورة الظاهرة ، والصورة الظاهرة لا تشك أن العمل بالشهود ظاهر منها ، فهي إضافة صحيحة ، فإن البصر لا يقع إلا على آلة وهي مُصَرَّفة لأمر آخر ، لا يقع الحس الظاهر عليه ، بدليل الموت ووجود الآلة وسلب العمل ، فإذن الآلة ما هي العامل ، والحس ما أدرك إلا الآلة ، فكما علم الحاكم أن وراء المحسوس أمراً هو العامل بهذه الآلة والمصرف لها ، المعبر عنه عند علماء النظر العقلي بالنفس العاملة الناطقة والحيوانية ، فقد انتقلوا إلى معنى ليس هو من مدركات الحس ، فكذلك إدراك أهل الكشف والشهود ـ في الجمع والوجود ـ في النفس الناطقة ما أدرك أهل النظر في الآلة المحسوسة سواء ، فعرفوا أن ما وراء النفس الناطقة هو العامل ، وهو مسمى الله ، فالنفس في هذا العمل كالآلة المحسوسة سواء ، ومتى لم يدرك هذا الإدراك فلا يتصف عندنا بأنه أخلص في عمله جملة واحدة ، مع ثبوت الآلات وتصرفها لظهور صورة العمل من العامل ، فالعالم كله آلات الحق فيما يصدر عنه من الأفعال ، قال ﷺ فيما صح عنه : [أتدرون ما حق الله على العباد ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم قال : أتدرون ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك ، أن يدخلهم الجنة] فنكر ﷺ بقوله شيئاً ليدخل فيه جميع الأشياء ، وهو قوله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ـ وجه آخر في تفسير قوله تعالى في هذه الآية ،

كأنه تعالى يقول : إن الحق لا يُعبَد من حيث أحديته ، لأن الأحدية تنافي وجود العابد ، فكأنه يقول : لا يُعبَد إلا الرب من حيث ربوبيته ، فإن الرب أوجدك ، فتعلق به وتذلل له ولا تشرك الأحدية مع الربوبية في العبادة ، فتتذلل لها كما تتذلل للربوبية ، فإن الأحدية لا تعرفك ولا تقبلك ، فيكون تعبد في غير معبد ، وتطمع في غير مطمع ، وتعمل في غير معمل ، وهي عبادة الجاهل ، فنفى عبادة العابدين من التعلق بالأحدية ، فإن الأحدية لا تثبت إلا لله مطلقاً ، وإنما ما سوى الله فلا أحدية له مطلقاً ، فهذا هو المفهوم من هذه الآية عندنا من حيث طريقنا في تفسير القرآن ، ويأخذ أهل الرسوم في ذلك قسطهم أيضاً تفسيراً للمعنى ، فيحملون الأحد المذكور على ما اتخذوه من الشركاء ، وهو تفسير صحيح أيضاً ، فالقرآن هو البحر الذي لا ساحل له ، إذ كان المنسوب إليه يقصد به جميع ما يطلبه الكلام من المعاني بخلاف كلام المخلوقين .

(١٩) سورة مريم مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾

في هذه الآية الرحمة هي التي تذكر العبد ما هو يذكرها ، فتعطيه بذكره حقيقة ما فيها لأنها تطلب منه التعشق بها ، فإنه لا ظهور لها إلا به ، فهي حريصة على مثل هذا ، وهذه الآية تعريف إلهي بوجوب حكم الرحمة فيمن تذكره من عباده سبحانه وتعالى ، وجاء زكريا لا لخصوص الذكر ، وإنما ساقته عناية العبد ، فإنها ما ذكرته إلا لكونه عبداً له تعالى في جميع أحواله ، فأي شخص أقامه الله في هذا المقام فبرحمته به أقامه لتذكره رحمة ربه عنده تعالى ، فحال عبوديته هو عين رحمته الربانية التي ذكرته ، فأعلمت ربها أنها عند هذا العبد ، فأي شيء صدر من هذا الشخص فهو مقبول عند الله تعالى ، ومن هذا المقام يحصل له من الله ما يختص به مما لا يكون لغيره ، وهو الأمر الذي يمتاز به ويخصه ، فإنه لابد لكل مقرَّب عند الله من أمر يختص به .

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾

لما كانت مريم محررة لله ، حاملة لروح الله ، محلاً لكلمة الله ، مثنياً عليها بكلام الله ، مبرأة بشهادة ما سقط من التمر في هزها جذع النخلة اليابس ونطق ابنها في المهد بأنه عبد الله ، فكانت لله وبالله وعن الله ، لهذا غبطها زكريا نبي الله ، فتمنى مثلها على الله ، فنادى ربه نداءً خفياً .

قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾

الاشتعال اسم مخصوص ونعت من نعوت أحوال النار المركبة ، فاستعير للشيب في قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » .

وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾

فقدم زكريا الحق على ذكر ولده .

يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

فأكرمَهُ الله بأن قضى حاجته ، وسماه بصفته حتى يكون اسمه تذكاراً لما طلب منه نبيه زكريا ، لأنه عليه السلام آثر بقاء ذكر الله في عقبه ، إذ الولد سر أبيه ، فقال « يرثني ويرث من آل يعقوب » وليس موروث في حق هؤلاء إلا مقام ذكر الله والدعوة إليه .

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

أنزل الحق تعالى يحيى عليه السلام منزلته في الأسماء : فلم يجعل له من قبل سمياً ، وخصه بأن لم يجعل له سمياً من قبل من أنبياء الله ، وهو وإن كان في العالم يحيى كثير ، إلا أن له

مرتبة الأولية في هذا الاسم ، فبه يحيا كل من يحيا من الناس مَنْ تقدم ومن تأخر ، فإن الله ما جعل له من قبل سمياً ، فكل يحيى تبع له ، فبظهوره لا حكم لهم ، وبعد ذلك وقع الاقتداء به في اسمه ليرجع إليه ، وسماه الله يحيى ، أي يحيا به ذكر زكريا ، فجمع بين حصول الصفة وبين الاسم العَلَم ، وما جمع الله لأحد قبل يحيى بين ذلك إلا لزكريا عناية منه . ولما سلَّط عليه الجبار عدوه فقتله ، وما حماه منه ولا نصره باقتراح بَغِيّ على باغ ، فإنه أراد بقاءه حياً فقتله شهيداً ، فأبقى حياته عليه ، فجمع له بين الحياتين فسماه يحيى ، وأثرت فيه همة أبيه لما أشرب قلبه من مريم ، وكانت منقطعة من الرجال فجعله حصوراً بهذا التخيل ، وجاء في الخبر أن الله يأتي بالموت يوم القيامة فيوضع بين الجنة والنار ليراه هؤلاء وهؤلاء ويعرفون أنه الموت ، في صورة كبش أملح ، فيذبحه يحيى عليه السلام خاصة ، وذلك من سِرّ اسمه ، فإن الموت ضد له ولا يبقى معه ، والدار دار الحيوان فلابد من إزالة الموت ، فلا مزيل له سوى يحيى .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

ليس أعجب من حال زكريا عليه السلام ، وهو الذي ظهر فيه سلطان الإنسانية حين يقول (رب هب لي من لدنك ذرية طيبة) فما سأل حتى تصور الوقوع ، فأين هذه الحالة من قوله « رب أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً » فإن لم يكن ثَمَّ قرينة حال جعلته أن يقول مثل هذا حتى يقال له في الوحي .

قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا ﴿٩﴾

« قال » له في الوحي « كذلك » الله يفعل ما يشاء ، فيكون قصد إعلام الله بذلك حتى يعلم غيره أن الله يفعل ما يشاء في المعتاد أن يخرقه كما وقع ، وإن كان ذلك القول الذي قال زكريا عليه السلام من نفسه فقد أعطته الإنسانية قوتها ، فإن الإنسان بذاته كما ذكره الله في كتابه ، فما ذكره الله في موضع إلا وذكر عند ذكره صفة نقص تدل على

خلاف ما خُلِق له « قال ربك هو على هين وقد خلقتك » أي قدّرتك « من قبل و لم تك شيئاً » المقصود هو شيئية الوجود لأنه جاء بلفظة تك ، وهي حرف وجودي فنفاه بِلَم ، أي ما كانت لك شيئية الوجود ، وهي على الحقيقة شيئية الظهور ، فإياك أن تتوهم أن هذا الخطاب لزكريا في حق نفسه لإبطال المعنى فيه ، فإن خلق ابنه أعجب من خلقه في حكم العادة ، لأن زكريا عليه السلام قد أظهر العلة ، فلو أحاله على خلق نفسه لما أتاه بأعجب مما تعجب منه ، وإنما أشار إليه بذلك أن ينظر في أول موجود ، وهي الحقيقة الإنسانية قبل كل شيء ، وهي أم الأشياء كلها وليست من شيء ، وهي سبب كل شيء ، وليست مسببة لشيء ، ولهذا قال له « و لم تك شيئاً » فإن هذا الخلق الترابي الآدمي مسبب عن أشياء ، قال الله تعالى في خلق الجسد الآدمي (خلقكم من تراب) ثم قال (من طين) وهو خلط الماء والتراب ، وقال (من حمأ مسنون) وهو المتغير الريح وهو جزء الهواء ، وقال (من صلصال كالفخار) وهو جزء النار ، فهذه أمهات الجسد الآدمي ، وهي كثيرة ، فلا يصح على هذا قوله « و لم تكُ شيئاً » فإنه قد كان شيئاً وانتقل في أطوار العالم من شكل إلى شكل حتى صار على هذه الصفة ، فقوله على ما تعطيه الحقائق ويعظم التعجب عند زكريا عليه السلام « وقد خلقتك من قبل و لم تك شيئاً » إنما يشير إلى البروز الأول من غير شيء ، لأن زكريا عليه السلام إنما تعجب من بشراه له تعالى بيحيى على كبره وامرأته عاقر ، فذكر له ما هو أعجب من ذلك وهو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود ، فإن النقلة في مراتب الوجود من وجود إلى وجود باختلاف الأحوال أهون من إبراز المعدوم ، فلهذا كان أعجب مما تعجب منه زكريا ، ومن هذا تعجبت امرأة إبراهيم عليه السلام حين بشرت باسحاق عليه السلام ، فقالت (يا ويلتا أألِدُ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ، إن هذا لشيء عجيب) فشرّك الله تعالى بين المرأة والرجل في هذا التعجب ، فشرّك بينهما في العلم ، لأن التعجب على قدر العلم ، فـ « لم تك شيئاً » يعني و لم تك موجوداً ، فظهر لعينه وإن كان في شيئية ثبوته ظاهراً متميزاً عن غيره بحقيقته ، ولكن لربه لا لنفسه ، يقول لزكريا عليه السلام : فكن معي في حال وجودك من عدم الاعتراض في الحكم والتسليم لمجاري الأقدار كما كنت في حال عدمك . ويقول للإنسان : ينبغي لك أن تكون وأنت في وجودك من الحال معي كما كنت وأنت في حال عدمك من قبولك لأوامري وعدم اعتراضك . يأمره بالوقوف عند

حدوده ومراسمه ، فيتكلم حيث رسم له أن يتكلم ، ويتكلم بما أمره به أن يتكلم ـــ راجع آية ٢١ ـــ .

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

أمر الله تعالى زكريا عليه السلام بصمت ثلاثة أيام ، وأن يأمر قومه بالذكر بكرة وعشية ، ليسوي بذلك بين ظاهره مع وجود باطنه فيحيا ، ويستعين بذكر قومه لمناسبتهم إياه إذ كانوا لا يصلحون للصمت ، فالذكر أولى بهم .

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾

يعني حكم الإمامة وهو مقام الإمامة مع تسميته صبياً ، فإن الصبي من صبا أي مال ، وبذلك سمي الصبي صبياً لميله إلى حكم الطبيعة ونيل أغراضه ، فهو مائل إلى شهواته ، والحكم هو القضاء المحكوم به على المحكوم عليه ، ولما كان الناس إنما يستغربون الحكمة من الصبي الصغير دون الكبير ، لأنهم ما عهدوا إلا الحكمة الظاهرة عن التفكر والروية ، وليس الصبي في العادة بمحل لذلك ، فيقولون إنه ينطق بها فتظهر عناية الله بهذا المحل الظاهر ، فزاد يحيى بأنه على علم بما نطق به علم ذوق ، لأن مثل هذا في هذا الزمان والسن لا يصح أن يكون إلا ذوقاً ، فآتاه الله الحكم صبياً وهو حكم النبوة التي لا تكون إلا ذوقاً ، فيحيى آتاه الله الحكم صبياً ولم يجعل له من قبل سمياً .

وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

شهادة إلهية مقطوع بها عناية من غير تعمل ، وقد قال عيسى عليه السلام (والسلام علي يوم ولدت) فسلّم بالتعريف ، وهنا سلّم الحق على يحيى عليه السلام بالتنكير ، والتنكير

أعم ، فاعلم أن التعريف الذي جاء به عيسى ما هو تعريف عين بل هو تعريف جنس ، فلا فرق بينه بالألف واللام وبين عدمهما ، فعيسى ويحيى في السلام على السواء كما هما في الصلاح كذلك ، فإن الله تعالى قال عن يحيى عليه السلام (ونبياً من الصالحين) فعيّنه في النكرة ، وقال في عيسى (ومن الصالحين) فعيّنه في النكرة .

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾

جبريل عليه السلام هو الذي تمثل لمريم بشراً سوياً عند إيجاد عيسى عليه السلام في حضرة الخيال المحسوس يقظة ، فانتقل حكم البشر إلى الروح لما ظهر بصورة البشر ، فأعطى الولد الذي هو عيسى ، وليس ذلك من شأن الأرواح ، ولكن انتقل حكم الصورة إليها بقبوله للصورة . واعلم أن الأرواح لها اللطافة ، فإذا تجسدت وظهرت بصورة الأجسام كثفت في عين الناظر إليها ، والأجسام لها الكثافة شفافها وغير شفافها ، فإذا تحولت في الصور في عين الرائي أو احتجبت مع الحضور فقد تروحنت ، أي صار لهم حكم الأرواح في الاستتار ، وأما سبب كثافة الأرواح وهي من عالم اللطف فلكونهم خلقوا من الطبيعة ، وإن كانت أجسامهم نورية فمن نور الطبيعة كنور السراج ، فلهذا قبلوا الكثافة ، فظهروا بصور الأجسام الكثيفة ، كما أثر فيهم الخصام حكم الطبيعة لما فيها من التقابل والتضاد ، فمن هذه الحقيقة التي أورثتهم الخصومة تجسدوا في صور الأجسام الكثيفة ، وأما الكثيف يرجع لطيفاً فسببه التحليل ، فإن الكثائف من عالم الاستحالة ، وكل ما يقبل الاستحالة يقبل الصور المختلفة والمتضادة ، والأرواح لا تتشكل إلا فيما تعلمه من الصور ، ولا تعلم شيئاً منها إلا بالشهود ، فكانت الأرواح تتصور في كل صورة في العالم إلا في صورة الإنسان قبل خلق الإنسان ، فإن الأرواح وإن كان لها التصور فما لها القوة المصورة كما للإنسان ، فإن القوة المصورة تابعة للفكرة التي هي صفة للقوة المفكرة ، فالتصور للأرواح من صفات ذات الأرواح النفسية لا المعنوية ، لا لقوة مصورة تكون لها ، إلا أنها وإن كان لها التصور ذاتياً فلا تتصور إلا فيما أدركته من صور العالم الطبيعي ، وقوله تعالى « فتمثل لها بشراً سوياً » تنبيهاً على المباشرة ، فإنه لا يوجد أحد من بني آدم إلا عن مباشرة ، فكان الروح واسطة

بينه تعالى وبين مريم في إيجاد عيسى ــ **دقيقة** ــ لما كان وجود عيسى عليه السلام عن تمثل روح في صورة بشر و لم يكن عن ذكر بشري ، لهذا غلب على أمة عيسى ابن مريم دون سائر الأمم القول بالصورة ، فيصورون في كنائسهم مُثلاً ويتعبدون في أنفسهم بالتوجه إليها ، فإن أصل نبيهم عليه السلام كان عن تمثل ، فسرت تلك الحقيقة في أمته إلى الآن .

قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾

لما تمثل جبريل لمريم عليها السلام بشراً سوياً ، تخيلت أنه يريد مواقعتها ، فاستعاذت منه ، استعاذت بجمعية منها ليخلصها الله منه لما تعلم أن ذلك مما لا يجوز .

قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾

« قال إنما أنا رسول ربك » جئت « لأهب لك غلاماً زكياً » تمثل المَلَك لمريم بشراً سوياً وجعله الحق تعالى روحاً ، إذ كان جبريل روحاً ، فوهبها عيسى عليه السلام ، فكان انفعال عيسى عن المَلَك الممثل في صورة الرجل ، ولذلك خرج على صورة أبيه ، إذ كل مؤثِّر أب وكل مؤثَّر فيه أم ، والمتولد من ذلك يسمى ابناً ومولداً ، فخرج عيسى ذكراً بشراً روحاً ، فجمع بين الصورتين اللتين كان عليهما أبوه الذي هو المَلَك ، فإنه روح في عينه بشر من حيث تمثله في صورة البشر ، فما تكون عيسى إلا عن اثنين ، فجبريل وهب لمريم عيسى في النفخ كما ينفخ الروح في الصورة عند تسويتها ، فصورة عيسى مثل تجسد الأرواح لأنه عن تمثل ، فلو تفطنت لخلق عيسى لرأيت علماً عظيماً تقصر عنه أفهام العقلاء ، وهو التحاق البشر بالروحاني والتحاق الروحاني بصورة البشر ، فخرج عيسى على صورة جبريل في المعنى والاسم والصورة ، ففي الصورة كان بشراً لتمثل جبريل في صورة البشر ، وفي الاسم فإن عيسى سمي روحاً وجبريل من أسمائه الروح ، وفي المعنى فكان يحيي الموتى كما يحيي جبريل .

قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾

فإن الخصم يقول لا ولد إلا من والد ، ولا بيضة إلا من دجاجة ، فأراهم الله تعالى عيسى حجة عليهم ، ولذلك كان آية .

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

لما كانت أحدية الله ذاتية لا نسبة بينها وبين طلب الممكنات ، ومن المحال أن يعقل العقل وجود العالم من هذه الأحدية التي لها الغنى عن العالمين ، وجب عليه أن يرجع إلى النظر فيما يطلبه الممكن من وجود من له هذه الأحدية ، فنظر فيه من كونه إلهاً يطلب المألوه ، وهو تركيب الأدلة وترتيبها ، ولما كان يجب على الرجل الجمع بين العلم بتلك الأحدية وبين العلم بكونه إلهاً ، فقال تعالى لزكريا عليه السلام « كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » فتعدُد الأحكام على المحكوم عليه مع أحدية العين إنما ذلك راجع إلى نسب واعتبارات ، فعين الممكن لم تزل ولا تزال على حالها من الإمكان ، فلم يخرجها كونها مظهراً حتى انطلق عليها الاتصاف بالوجود عن حكم الإمكان فيها ، فإنه وصف ذاتي لها ، والأمور لا تتغير عن حقائقها لاختلاف الحكم عليها لاختلاف النسب ، لذلك قال « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » فنفى الشيئية عنه وأثبتها له ، والعين هي العين لا غيرها ، فأحاله إلى النظر والاستدلال ، ولم يقل ذلك للمرأة وهي مريم ، بل قال لها (كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً) فإن المرأة تنقص عن الرجل في العلم بالأحدية الذاتية ، فلم يكلفها النظر في الجمع بينها وبين العلم بالله من كونه إلهاً ، بل قال لها (وكان أمراً مقضياً) مع أنه متعين على مريم العلم بالأحدية الذاتية وعلم الأحدية الإلهية التي هي أحدية الكثرة ، فإنها ممن تحصّل له درجة الكمال .

فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

جسم عيسى متكون من ماء أمه مريم ، وينكر ذلك الطبيعيون ويقولون إنه لا يتكون من ماء المرأة شيء ، وذلك ليس بصحيح .

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

عيسى عليه السلام لم يلبث في البطن اللبث المعتاد ، فإنه لم ينتقل في أطوار النشأة الطبيعية بمرور الأزمان المعتادة ، بل كان انتقاله يشبه البعث ، أعني إحياء الموتى يوم القيامة في الزمان القليل على صورة ما جاؤوا عليها في الزمان الكثير . واعلم أنه لا عذاب على النفوس أعظم من الحياء ، حتى يود صاحب الحياء ان لم يكن شيئاً كما قالت الكاملة « يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » قالت ذلك وهي بريئة في نفس الأمر عند الله ، حياءً من الناس ، لما علمت من طهارة بيتها وآبائها ، فخافت من إلحاق العار بهم من أجلها ، فهذا حياء من المخلوق كيف نسبوا إليها ما لا يليق ببيتها ولا بأصلها ، فبرأها الله مما نسبوا إليها لما نالها من عذاب الحياء من قومها ، فإن عيسى عليه السلام هو عين الكلمة التي ألقاها الله إلى مريم ، لا غير ذلك ، ولا علمت غير ذلك ، فلو كانت الكلمة الإلهية قولاً من الله وكلاماً لها مثل كلامه لموسى عليه السلام لسرت و لم تقل « يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » فلم تكن الكلمة الإلهية التي ألقيت إليها إلا عين عيسى روح الله وكلمته ، وهو عبده ، فنطق عيسى ببراءة أمه في غير الحالة المعتادة ليكون آية ، فنفّسَ الله عن أمه بنطقه ما كان أصابها من كلام أهلها بما نسبوها إليه مما طهرها الله عنه .

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

فكان ذلك شهادة مبرئة لمريم عليها السلام بما سقط من الثمر في هزها جذع النخلة اليابس ونطق ابنها في المهد بأنه عبد الله ، وهما شاهدان عدلان عند الله ، إذ أكثر الشرع في الحكومة بشاهدين عدلين : ولا أعدل من هذين وقام الشاهد الأول بهز الجذع للمناسبة الموجودة ، فإن النخل لا ينتج إلا بتذكير ، فلما هزت الجذع اليابس أنتج من غير تذكير للحين ، كما فعل بعيسى عليه السلام ، وأما الشاهد الثاني فهو نطق عيسى في المهد ، شاهد ثانٍ على أهل الجحد .

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾

« يا أخت هارون » المقصود هنا هارون عليه السلام ، وقولهم « يا أخت هارون » فإن مريم أخت له ديناً ونسباً ، فإذا قيل إنه ما هو أخوها لأن بينهما زماناً طويلاً ، قلنا : ألا ترى إلى قوله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) ما هذه الأخوة ؟ أترى هو أخو ثمود لأبيه وأمه فهو أخوهم ؟ فسمى القبيلة باسم ثمود ، وكان صالح من نسل ثمود ، فهو أخوهم بلا شك ، ثم جاء بعد ذلك بالدين ، ألا ترى أصحاب الأيكة لما لم يكونوا من مدين ، وكان شعيب من مدين ، فقال في شعيب أخو مدين (وإلى مدين أخاهم شعيباً) ولما جاء ذكر أصحاب الأيكة قال (إذ قال لهم شعيب) ولم يقل أخاهم ، لأنهم ليسوا من مدين وشعيب من مدين .

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾

عدلت مريم عليها السلام إلى الإشارة من أجل أهل الإفك والإلحاد ، فإن الإشارة لا تكون إلا بقصد المشير بذلك أنه يشير ، لا من جهة المشار إليه ، والإشارة إيماء ، جاءت به الأنباء فهي إشارة على رأس البعد ، وهي على قسمين : إشارة تقتضي البعد ، وتبلغ ما لا يبلغ الصوت ، وإشارة تقتضي القرب ولكن بحضور ثالث أو أكثر ، فالبعد الذي فيه ، كون الأغيار حاضرين ، فأشارت إليه متكلة عليه ، فبرأتها شهادته مما قيل ، وتُلي ذلك في كل جيل ، في قرآن وزبور وتوراة وإنجيل « قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً » لما عندهم من حكم المواطن ، وآتى الله تعالى عيسى عليه السلام الحكم صبياً ، وهو حكم النبوة التي لا تكون إلا ذوقاً ، فمن حكمه أن حكم في مهده على مرأى من قومه الذين افتروا في حقه على أمه مريم ، فبرأها الله بنطقه وبحنين جذع النخلة إليه ، ومن حكمه عليه السلام .

قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾

لما كان عيسى عليه السلام قد آتاه الله الحكم صبياً وهو رضيع في المهد ، فقد أيده ببيان ذلك ، فنطق عليه السلام في المهد بالإقرار والجحد ، وبدأ عليه السلام في نطقه بالعبودية ، فقال لقومه في براءة أمه لما علم من نور النبوة التي في استعداده أنه لابد أن يقال فيه إنه ابن الله ، فقال عن نفسه إخباراً بحاله مع الله « إني عبد الله » فبدأ في أول تعريفه وشهادته في الحال الذي لا ينطق مثله في العادة ، فما أنا ابن لأحد ، فأمي طاهرة بتول ، ولست بابن لله ، كما أنه لا يقبل الصاحبة لا يقبل الولد ، ولكني عبد الله مثلكم ، فحكم على نفسه بالعبودية لله ، وما قال ابن فلان لأنه لم يكن ثَمَّ « آتاني الكتاب » فحصل له إنجيله قبل بعثه ، فكان على بينة من ربه ، فحكم بأنه مالك كتابه الإلهي « وجعلني نبياً » فنطق بنبوته في وقتها عنده وفي غير وقتها عند الحاضرين ، لأنه لابد له في وقت رسالته أن يعلم بنبوته كما جرت عادة الله في الأنبياء قبله ، وحكم بأن النبوة بالجعل لئلا يتخيل أن ذلك بالذات ، بل هو اختصاص إلهي .

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

فلما أبان عن أنه أوتي مقام الإمامة مع تسميته صبياً ، قال « وجعلني مباركاً » أي محلاً وعلامة على زيادات الخير عندكم ، وخصني بزيادة لم تحصل لغيري ، وتلك الزيادة ختْمه للولاية ، ونزوله في آخر الزمان وحكمه بشرع محمد ﷺ حتى يكون يوم القيامة ممن يرى ربه الرؤية المحمدية في الصورة الإلهية « أين ما كنت » في المهد وغيره ، ويعني في كل حال من الأحوال ، ما تختص البركة بسببي فيكم في حال دون حال من دنيا وآخرة ، فإنه ذو حشرين يحشر في صف الرسل ويحشر معنا في أتباع محمد ﷺ « وأوصاني بالصلاة » المفروضة في أمة محمد ﷺ أن أقيمها ، لأنه جاء بالألف واللام فيها « والزكاة » أيضاً كذلك ، وأراد بالوصية بالصلاة والزكاة العبادة ، كما تدل على العمل هي على العبادة أدل ، لأنها تفتقر في كونها عبادة إلى بيان ، وإذا أريد بها العمل احتيج إلى تعيين ذلك العمل وبيان صورته ، حتى يقيم نشأته هذا المكلّف به « ما دمت حياً » زمان التكليف وهو الحياة الدنيا ،

فأراد ما دام في عالم التكليف والتشريع ، يعني حياة التكليف في ظاهر الأمر عند السامعين ، وعندنا أنه لما أوصاه بالصلاة والزكاة وهي العبادة ، دل على أنه لا يزال حياً أينما كان ، وإن فارق هذا الهيكل بالموت فالحياة تصحبه ، لأنها صفة نفسية له ، ولاسيما وقد جعله روح الله .

وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾

ثم ذكر عليه السلام أنه بر بوالدته أي محسن إليها ، فأول إحسانه أنه برأها مما نسب إليها في حالة لا يشكون في أنه صادق في ذلك التعريف ، فمن بره بها كونه برأها مما نسب إليها بشهادته ، وأخبر أنه شِقّ في خَلْقِه ، فإن لأمه عليه ولادة لما كانت محل تكوينه ، وذلك بقوله « وبراً بوالدتي » ولم يقل : براً بوالِديّ ، فأخبر أنه شِقّ أي من أنثى فقط ، فقلت نسبته العنصرية ، وأتى عليه السلام في كل ما ادعاه ببنية الماضي ليعرف السامع بحصول ذلك كله عنده وهو صبي في المهد ، وقد ذكر أنه آتاه الكتاب والحكمة ، ولكن غاب عن أبصار الناس إدراك الكتاب الذي آتاه حتى ظهر في زمان آخر ، وأما الحكمة فظهر عينها في نفس نطقه بمثل هذه الكلمات وهو في المهد ، وهو يريد بلفظ الماضي الحال والاستقبال ، فما كان منه في الحال فنطقه شهادة ببراءة أمه ، وتنبيهاً وتعليماً لمن يريد أن يقول فيه إنه ابن الله ، فنزه الله ، وهو نظير براءة أمه مما نسبوا إليها ، فهو في جناب الحق تنزيه وفي جناب الأم تبرئة ، ويدل لفظ الماضي فيه « وأينما كنت » أن يكون له التعريف بذلك من الله ، ثم تمم فقال « ولم يجعلني جباراً شقياً » إذ لا يكون ذلك ممن يكون إلا بالجهل ، والجهل فيه إنما هو من قوة سلطان ظلمة العنصر ، ويريد بقوله « ولم يجعلني جباراً » فإن الجبروت وهو العظمة يناقض العبودة وهو قوله (إني عبد الله) ويريد أيضاً بقوله « ولم يجعلني جباراً » أي لا أجبر الأمة التي أرسل إليها بالكتاب والصلاة والزكاة ، إنما أنا مبلغ عن الله لا غير ، ثم قال معرّفاً عن أمر إلهي .

وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

قول عيسى عليه السلام أكمل في الوصلة ممن قيل فيه (وسلام عليه يوم ولد) وهو

يحيى ، فهذا مقام أول لهذا المقام الثاني ، فإن يحيى من الحياة ، وهي مسخرة لعيسى عليه السلام فإنه كان يحيي الموتى ، لهذا قلنا فيه أعلى في قوله « والسلام عليّ » فعرّف عليه السلام بما له قبل فطامه ، وحكم على نفسه بالاستقامة قبل استحكامه ، وشهد لنفسه بقبول الوصية الإلهية ، بالصلاة النورية والزكاة البرهانية ، وسلم على نفسه في الثلاثة الأحوال ، فإنه لما كان عليه السلام في المهد دلالة على براءة أمه مما نسب إليها لم يترجم عن الله إلا هو بنفسه ، فقال « والسلام عليّ » يعني من الله ، لعلمه بمرتبته من ربه وحظه « يوم ولدت » بما نطقت فيكم به من أني عبد الله ، فسَلِمْت من انتساب وجودي إلى سفاح أو نكاح ، ويعني له السلامة في ولادته من تأثير العبد المطرود الموكل بالأطفال عند الولادة ، حين يصرخ الولد إذا وقع من طعنته ، فلم يكن لعيسى عليه السلام صراخ ، بل وقع ساجداً لله تعالى « ويوم أموت » يُكَذِّب من يفتري عليه أنه قتل ، فلم يقل ويوم أقتل ، فكأنه يقول : فأسلَم من وقوع القتل الذي ينسب إلي مَنْ يزعم أنه قتلني ، وهو قول بني إسرائيل (إنا قتلنا المسيح ابن مريم) فأكذبهم الله فقال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) فقال لهم إن السلام عليه يوم يموت سالماً من القتل ، إذ لو قُتِل قتل شهادة ، والشهيد حيّ غير ميت ، ولا يقال فيه إنه ميت كما ورد عندنا النهي في ذلك ، وكذلك لم يزل الأمر ، فأخبر أنه يموت ولا يقتل ، فذكر السلام عليه يوم يموت « ويوم أبعث حياً » ثم ذكر أن السلام عليه يوم يبعث حياً في القيامة الكبرى ، أكَّد موته ، والقيامة موطن سلامة الأبرياء من كل سوء ، مثل الأنبياء وغيرهم من أهل العناية ، فهو صاحب سلامة في هذه المواطن كلها ، وما ثم موطن ثالث ، ما هي إلا حياة دنيا وحياة أخرى بينهما موت ، ثم نزه نفسه تعالى عما قاله أهل الضلالة من الضلال ، فقال .

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ

كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

إن الله يظهر الموت وإن كان نسبة يوم القيامة في صورة كبش أملح ، وينادي يا أهل الجنة فيشرئبون ، وينادي يا أهل النار فيشرئبون ، وليس في النار في ذلك الوقت إلا أهلها الذين هم أهلها ، فيقال للفريقين أتعرفون هذا ؟ ـ وهو بين الجنة والنار ـ فيقولون : هو الموت ، ويأتي يحيى عليه السلام وبيده الشفرة فيضجعه ويذبحه ، وينادي مناد : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، وذلك هو يوم الحسرة ، فأما أهل الجنة إذا رأوا الموت سروا برؤيته سروراً عظيماً ، ويقولون له بارك الله لنا فيك ، لقد خلصتنا من نكد الدنيا وكنت خير وارد علينا ، وخير تحفة أهداها الحق إلينا ، فإن النبي ﷺ يقول : [الموت تحفة المؤمن] وأما أهل النار إذا أبصروه يفرقون منه ويقولون له : لقد كنت شر وارد علينا ، حلت بيننا وبين ما كنا فيه من الخير والدعة ، ثم يقولون له : عسى تميتنا فنستريح مما نحن فيه ، فذبح الموت أعظم حسرة ، وذبحه لتنقطع الكرَّة ، وإنما سمي يوم الحسرة ، لأنه حسر للجميع أي ظهر عن صفة الخلود الدائم للطائفتين ، ثم تغلق أبواب النار غلقاً لا فتح بعده ، وتنطبق النار على أهلها ويدخل بعضها في بعض ليعظم انضغاط أهلها فيها ، ويرجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها ، وترى الشياطين والناس فيها كقطع اللحم في القدر إذا كان تحتها النار العظيمة ، تغلي كغلي الحميم ، فتدور بمن فيها علواً وسفلاً ، كلما خبت زدناهم سعيراً بتبديل الجلود ، وقد يكون يوم الحسرة يوم القيامة يوم يقول الشقي : يا حسرتا على ما فرطت ، فهو يوم الحسرة أي يوم الكشف لإظهاره ما كان يخفى ويبطن ، لأنه من حسرت الثوب عني فظهر ما تحته أي أزلته ، أو من حسرت عن الشيء إذا كشفت عنه ، فكأنه يقول : يا ليتني حسرت عن هذا الأمر في الدنيا فأكون على بصيرة من أمري ، فإن أحداً لا يؤاخذه على ما جناه سوى ما جناه ، فهو الذي آخذ نفسه فلا يلومن إلا نفسه ، ومن أحوال ذلك اليوم أن المؤمن الذي لا علم له وهو من أهل الجنة ، يرى منازل العلماء

بالله فيتحسر ويندم ، فيعمد الله إلى مَنْ هو من أهل النار من العلماء فيخلع عنه ثوب علمه ويكسوه هذا المؤمن ليرقى به في منزلة ذلك العلم من الجنة ، لأنه لكل علم منزلة في الجنان لا ينزل فيها إلا من قام به ذلك العلم ، لأن العلم يطلب منزلته من الجنان ، والعالِم الذي كان له هذا العلم هو من أهل النار الذين هم أهلها ، والعلم لا يقوم بنفسه فينزل بنفسه في تلك المنزلة ، فلابد له من محل يقوم به ، فيخلعه الله على هذا المؤمن السعيد الذي لا علم له فيرقى به العلم إلى منزلته ، فما أعظمها من حسرة ، فإن الله لا يبقي في الدنيا عند الموت عند أهل النار الذين هم أهلها سوى العلم الذي يليق أن يكون عليه أهل النار ، وما عدا ذلك من العلوم التي لا تصلح أن تكون إلا لأهل الجنة ، يُدخل الله بها على العالِم به في الدنيا أو عند الاحتضار شبهة يخطرها له تزيله عن العلم أو تحيره ، ثم يموت على ذلك ، وكان ذلك في نفس الأمر علماً ، فهذا الصنف من العلم هو الذي يخلع على أهل الجنان إذا لم يتقدم لهم علم به في الدنيا ، ويطمع فيه من قد كان علمه من أهل النار فيقام عليه الحجة بأنه مات على شبهة .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾

فهو تعالى الوارث إذا مات مَنْ عليها ، فإنه إذا وقعت الفرقة بين المالك والمملوك فهو الوارث لهما ، فقال تعالى « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها » عيناً وحكماً ، فأما في العين فقوله « وإلينا يرجعون » وعلى الحقيقة ما ورث إلا الوجود الذي يتجلى فيه لمن ظهر من خلقه ، وهو صور الممكنات وأعراضها ، لأن الوارث لا يكون مع وجود الموروث عنه وبقائه ، وإنما يكون بعد انتقاله وعدمه من هذا الموطن ، وهو اتصافه بالعدم ، وليس ذلك إلا للصور والأعراض ، فهو وارث على الدوام .

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١﴾

من صفة الصدّيق : سلامة العقل والفكر الصحيح والخيال الصحيح والإيمان بصدق المخبر وإن أحاله العقل الذي ليس بسليم ، والنبي صديق لما يخبر به الروح .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾

فهي شهادة بقصور نظره وعقله .

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

فلو علم أن في الرحمة ما يوجب النقمة لما عصاه ، فما عُصي إلا الرحمن ، لأن كل اسم يعمل على شاكلته ، فما أعلم الأنبياء بربهم .

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

فإن قلت : كيف قرن إبراهيم الخليل العذاب بالرحمن هنا والاسم الرحمن لا يقتضيه في الظاهر ؟ فاعلم أنه أشار له إلى الاسم الذي هو أبوه معه في الحال ، فإنه الرحمن بلا شك ، لحصول العافية والخير والرزق والصحة الذي هو فيه وعليه ، والمعنى الآخر في مساق هذ الاسم مع العذاب ، مثل رحمة الطبيب بصاحب الأكلة فهو يعذبه في الوقت بقطع العضو الذي فيه الأكلة رحمة به حتى يحيا ، ومن رحمته نصب الحدود في الدنيا لتكون طهارة إلى الأخرى ، وهكذا في كل دار إن نظرت بعين التحقيق والرحمة الإلهية الموضوعة يصحبها في العبد العزة والسلطان ، فهي لا عن شفقة ، والرحْمة الطبيعية عنها تكون الشفقة ، ولو لم تصحب الرحمة الإلهية العزة وتتنزه عن الشفقة ما عذب الله أحداً ، فالرحمن لا يعطي ألماً موجعاً إلا أن يكون في طيه رحمة يستعذبها من قام به ذلك الألم ، كشرب الدواء الذي يتضمن العافية استعماله ، فانظر ما ألطف توصيل الحق بشارته لعباده في حال الشدة والرخاء ، فإنه سبحانه ما اختار كلمة العذاب ليعبر بها عن الآلام إلا لما يؤول إليه أمر أصحابه فيستعذبه في آخر الحال ، ولذلك سماه عذاباً ، وإنما يستعذبه في آخر الأمر لكونه ذكّره بربه ، فإن الإنسان إذا أصابه الضر وانقطعت به الأسباب ـ وهو أشد العذاب ـ ذكر ربه فرجع إليه مضطراً لا مختاراً ، فيستعذب عند ذلك الأمر الذي رده إلى الله وذكّره به وأخرجه عن حكم

غفلته ، ونسيانه ، فسماه عذاباً ، فهو اسم مبشر لمن حَلَّ به بالرحمة أنها تدركه ، فما أعلم الأنساء بربهم .

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾

كلم الله تعالى موسى من وراء حجاب من الشجرة من جانب الطور الأيمن له ، لأنه لو كلمه من الأيسر الذي هو جهة قلبه ربما التبس عليه بكلام نفسه ، فجاءه الكلام من الجانب الذي لم تجر العادة أن تكلمه نفسه منه ، ثم إن الله تعالى يقول في حق موسى عليه السلام معرفاً إيانا « وناديناه من جانب الطور الأيمن » فجعل النداء من الطور لانحنائه ، لأنه خرج في طلب النار لأهله لما كان فيه من الحنو عليهم ، الذي أورثه الانحناء على مَنْ خُلِق من الانحناء وهي أهله ، لأنها خُلِقت بالأصالة من الضلع ، والضلع له الانحناء « وقرّبناه نجيّا » ــ **نصيحة** ــ إذا ناجيت ربك فلا تناجه إلا بكلامه ، واحذر أن تخترع كلاماً من عندك تناجيه به ، فإنه لا يسمعه منك ولا تسمع له إجابة ، فتحفظ فإن ذلك مزلة قدم .

وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

« ووهبنا له من رحمتنا » يعني لموسى « أخاه هارون نبياً » فالوهب هو العطاء لمجرد الإنعام ، وهو الذي لا يقترن به طلب معاوضة ، وهو العطاء من الواهب على جهة الإنعام

لا يخطر له خاطر الجزاء عليه من شكر ولا غيره ، فإن اقترن به طلب شكر جزاء فليس بوهب ، فالحق تعالى هو الوهاب على الحقيقة في جميع أنواع عطائه .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾

إدريس عليه السلام كان نبياً ولم يجيء له نص في القرآن برسالته ، بل قيل فيه صديقاً نبياً ، فكان عليه السلام من الأنبياء الذين بعثوا قبل نوح عليه السلام الذي هو أول رسول أرسل ، ويقال إن إدريس عليه السلام أول من كتب بالقلم من بني آدم ، فأول إمداد القلم الأعلى له عليه السلام ، كان قد أسري به إلى أن بلغ السماء السابعة فصارت السموات كلها في حوزته ، ولما علم إدريس عليه السلام بالعلم الذي أوحاه الله إليه أن الله تعالى قد ربط العالم بعضه ببعضه ، وسخر بعضه لبعضه ، ورأى أن عالم الأركان مخصوص بالمولدات ، رأى اجتماعات الكواكب وافتراقها في المنازل واختلاف الكائنات واختلاف الحركات الفلكية ، ورأى السريعة والبطيئة ، وعرف أنه مهما جعل سيره وسفره مع البطيء أن السريع يدخل تحت حكمه ، فإن الحركة دورية لا خطية ، فلابد أن يرجع عليه دور الصغير السريع ، فيعلم من مجاورة الهبط فائدة المسرع ، فلم ير ذلك إلا في السماء السابعة ، فأقام عندها ثلاثين سنة يدور معها في نطع فلك البروج في مركز تدوير وكيلها ، وفي الفلك الحامل لفلك التدوير ، والفلك الحامل لأفلاك التداوير وهو الذي يدور به فلك البروج ، فلما عاين ما أوحى الله في السماء ، وعاين أن الكواكب قريبة الاجتماع في برج السرطان ، فعلم أنه لابد أن يكون الله ينزل ماءً عظيماً وطوفاناً عاماً لما تحققه من العلم ، ومشى مع دقائق الفلك فعلم الجمل والتفصيل ، ثم نزل فاختص من أبناء دينه وشرعه . ممن عرف أن فيه ذكاء وفطنة ، فعلّمهم ما شاهد وما أودع الله من الأسرار في هذا العلم ، وأنه من جملة ما أوحى الله في هذه السموات أنه يكون طوفان عظيم ويهلك الناس ويُنسى العلم ، وأراد بقاء هذا العلم على ما يأتي بعدهم ، فأمر بنقشها في الصخور والأحجار ، وكان عليه السلام

يقول : بالخرق ، ولولا الخرق ما رفع مكاناً علياً ، وكان عليه السلام نبياً يدعو إلى كلمة التوحيد لا إلى التوحيد ، فإن التوحيد ما أنكره أحد ، فإن مقالات الأنبياء في الحق لم تختلف ، لأنهم ما قالوا عن نظر وإنما قالوه عن إلٰه واحد ، ولهذا ما دعوا الناس إلا إلى كلمة التوحيد لا إلى التوحيد ، ومن تكلم في الحق من نظره ما تكلم في محظور فإن الذي شرع لعباده توحيد المرتبة ، وما ثَمَّ إلا مَنْ قال بها ، وما أُخِذَ المشركون إلا بالوضع من حيث كذبوا في أوضاعهم واتخذوها قربة و لم ينزلوها منزلة صاحب تلك الرتبة الأحدية ، ثم رفعه الله المكان العلي فنزل بفلك الشمس ، وهو الفلك الرابع وسط الأفلاك السماوية وهو القلب ، لأن فوقه خمس كور وتحته مثل ذلك ، فقال تعالى

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

« ورفعناه » أي إدريس « مكاناً علياً » وهي السماء الرابعة ، وسميت بذلك لكونها قلباً ، أي قلب الأفلاك ، فهي قلب السموات وقطبها ، فهو مكان عال بالمكانة ، وما فوقه وإن كان دونه فهو أعلى بالمسافة وبالنسبة إلى رؤوسنا ، فأراد الحق علو مكانة المكان ، فلهذا المكان من المكانة رتبة العلو ، فإدريس عليه السلام ما مات إلى الآن ، بل رفعه الله مكاناً علياً ، فهو في السماء الرابعة حيث الشمس ، ونسبة إدريس عليه السلام مع الشمس كون الشمس في الوسط ومدار الأسفل والأعلى عليها ، وهي بمنزلة القطب فناسبها بذلك ، وهو أول من خط بالقلم ، فَلَهُ الرفعة في الكتابة والتعبير فكان منزلته في العلو منزلة القلم الذي لا أعلى منه .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ۩ ﴾

هذه السجدة سجدة إنعام رحماني ، وهي سجدة النبيين المنعم عليهم ، فهذا بكاء فرح

وسرور وآيات قبول ورضى ، فإن الله قرن هذا السجود بآيات الرحمن ، والرحمة لا تقتضي القهر والعظمة ، وإنما تقتضي اللطف والعطف الإلهي ، فدمعت عيونهم فرحاً بما بشرهم الله من هذه الآيات ، فالصورة صورة بكاء لجريان الدموع ، والدموع دموع فرح لا دموع ترح وكمد وحزن ، لأن مقام الاسم الرحمن لا يقتضيه .

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ ﴾

« جنات عدن » وهي جنة الإقامة « التي وعد الرحمن » والموعد ما وقع عليه الوعد ، وهو مقام اللطف « عباده » مقام العبودية بإضافة الاختصاص ، « بالغيب » يريد مقام الإيمان ، وقد يريد بالغيب حالة أوان أخذ الميثاق على النفوس ، فكان غيباً أي في عالم الأمر والملكوت « إنه كان وعده مأتيا » حقاً وصدقاً

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ ﴾

فجعل الجنة محلاً للزمان المعروف عند العرب مثل الدنيا ، فإن لأهل الجنة مقادير يعرفون بها انتهاء مدة طلوع الشمس إلى غروبها في الدنيا ، وإن لم يكن في الجنة شمس ، فالحركة ــ التي كانت تسير بالشمس فيظهر من أجلها طلوعها وغروبها ــ موجودة في الفلك الأطلس الذي على الجنة ، وهو سقفها ، والحركة بعينها فيه موجودة ، ولأهل الجنة كشف ورؤية إلى المقادير التي فيه المعبر عنها بالبروج ، فإن ذلك الفلك هو السماء الذي أقسم الله به في قوله (والسماء ذات البروج) فيعلمون بها حَدَّ ما كان عليهم في الدنيا مما يسمى بكرة وعشياً ، وكان لهم في هذا الزمان في الدنيا حالة تسمى الغداء والعشاء ، فيتذكرونها هنالك ، فيأتيهم الله عند ذلك برزق يرزقهم فيها كما قال « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً » وهو رزق خاص في وقت خاص معلوم عندهم ، وما عدا ذلك فأكلهم دائم لا ينقطع ، والدوام في

الأكل إنما هو عين النعيم مما يكون به الغذاء للجسم ، فأهل الجنة يأكلون ويشربون عن شهوة لالتذاذ لا عن جوع ، والصبوح شرب الغداة ، والغبوق شرب العشى ، وأما أهل النار فقد وصفهم الله بالأكل والشرب في النار عن جوع وعطش .

تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

لأهل السعادة ثلاث جنات : جنة أعمال ، وجنة اختصاص ، وجنة ميراث ، فينزل أهل الجنة في الجنة على قدر أعمالهم ، ولهم جنات الميراث وهي التي كانت لأهل النار لو دخلوا الجنة ، ولهم جنات الاختصاص . يقول الله تعالى « تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا » فهذه الجنة التي حصلت لهم بطريق الورث من أهل النار الذين هم أهلها ، إذ لم يكن في علم الله أن يدخلوها ، ولم يقل في أهل النار إنهم يرثون من النار أماكن أهل الجنة لو دخلوا النار ، وهذا من سبق الرحمة بعموم فضله سبحانه ، فما نزل مَنْ نزل في النار من أهلها إلا بأعمالهم ، ولهذا يبقى فيها أماكن خالية ، وهي الأماكن التي لَوْ دخلها أهل الجنة عمروها ، فيخلق الله خلقاً يعمرونها ، على مزاج لو دخلوا به الجنة تعذبوا ، وهو قوله ﷺ [فيضع الجبار فيها قدمه فتقول : قط قط] أي حسبي حسبي ، فإنه تعالى يقول لها : هل امتلأت ، فتقول : هل من مزيد ، فإنه قال للجنة والنار : لكل واحدة منكما ملؤها ، فما اشترط لهما إلا أن يملأهما خلقاً ، وما اشترط عذاب من يملأها بهم ولا نعيمهم ، كما ورد في الخبر أنه يبقى أيضاً في الجنة أماكن ما فيها أحد ، فيخلق الله خلقاً للنعيم يعمرها بهم ، وهو أن يضع الرحمن فيها قدمه ، وليس ذلك إلا في جنات الاختصاص ، فمن كرمه أنه تعالى ما أنزل أهل النار إلى على قدر أعمالهم خاصة — **نصيحة** — لا تحزن على ما يفوتك من جنة الميراث فإنه ما فيها تقصير ، وإنما ينبغي لك أن تحزن على ما يفوتك من جنة الأعمال ، ولا تعتمد إلا على جنة الاختصاص فإنها مثل التوفيق للأعمال الصالحة في هذه الدار ، لا تنال إلا بالعناية لا بالاكتساب .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

« وما نتنزل إلا بأمر ربك » أي بإذن الله ، وهو قول جبريل ، فإن الخاصية لا تؤثر في الملائكة ، ولا تنزل بها ، وذلك لمانع إلهي قوي يقتضيه مقام الأملاك ، أما أرواح الكواكب فَتُستَنْزَلُ بالأسماء والبخورات وأشباه ذلك ، وكذلك الأرواح النارية ، أما مَنْ كان تنزله بأمر ربه لا تؤثر فيه الخاصية ، فإن العالم النوراني خارجون عن أن يكون للعالم البشري عليهم تولية ، فكل منهم على مقام معلوم عيّنه له ربه ، فما يتنزل إلا بأمر ربه ، فمن أراد تنزيل واحد منهم فيتوجه في ذلك إلى ربه ، وربه يأمره ويأذن له في ذلك إسعافاً لهذا السائل ، أو ينزله عليه ابتداءً ، وقول جبريل لمحمد ﷺ هو ما قال له الحق أن يقول لنبيه ﷺ عن ربه ، ولهذا جعله من القرآن ، وهو حكاية الله عن جبريل ، وجبريل هو الذي نزل به ، وما أخرجه نزوله به والحكاية عنه عن أن يكون قرآناً ، فكان جبريل يحكي عن الله تعالى ما حكى الله تعالى عن جبريل أن لو قال لمحمد ﷺ ذلك لقاله له على هذا الحد في عالم الشهادة « وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً » فيما شاهده من قول جبريل لمحمد عليهما السلام وهم أعيان ثابتة في حال عدمهم وخطاباتهم ، أعيان ثابتة في حال عدمهم له ، فهو الإشارة إليه بقوله « نسياً » فكانت الحكاية أمراً محققاً عن وجود لله محقق لا يتصف بالحدوث ، ثم حدث الوجود لتلك الأعيان ، فأخبرت بما كان منها قبل كونها مما شاهده الحق ولم تشهده لعدم وجودها في عينها ، ومن ذلك نعلم أن المعلم على الحقيقة هو الله تعالى ، ورجوع التعليم بالواسطة وغير الواسطة إلى الرب ، ولذلك قال المَلَك « وما نتنزل إلا بأمر ربك » « وما كان ربك نسياً » أي لا ينسى ، كان ﷺ يقول [اتركوني ما تركتكم] وقال [لو قلت نعم ــ للسائل عن الحج كلّ عام ــ لوجبت] وكانت الأحكام تحدث بحدوث السؤال عن النوازل ، فكان غرض النبي ﷺ حين علم ذلك أن يمتنع الناس عن السؤال ويجرون مع طبعهم ، حتى يكون الحق هو الذي يتولى من تنزيل الأحكام ما شاء ، فكانت الواجبات والمحظورات تقل ، وتبقى الكثرة من قبيل المباحات التي لا يتعلق بها أجر ولا وزر ، فأبت النفوس ذلك وأن تقف عند الأحكام المنصوص عليها ، فأثبتت لها عللاً وجعلتها مقصودة للشارع ، وطردتها وألحقت المسكوت عنه في الحكم بالمنطوق به بعلة جامعة بينهما اقتضاها نظر الجاعل المجتهد ، ولو لم يفعل لبقي المسكوت عنه على أصله من الإباحة والعافية ، فكثرت الأحكام بالتعليل وطرد العلة والقياس

والرأي والاستحسان ، « وما كان ربك نسياً » .

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾

« أو لا يذكر الإنسان » الإنسان عالم بالذات إلا أنه ينسى ، فكل علم يحصل له إنما هو تذكُّر ، ولا يشعر به أنه تذكر إلا أهل الله ، فإن الله أودع في الإنسان علم كل شيء ، ثم حال بينه وبين أن يدرك ما عنده مما أودع الله فيه ، ولقد خاطب الحق الإنسان وحده في هذه الآية لأنه المعتبر الذي وجد العالم من أجله ، وإلا فكل ممكن بهذه المثابة ، فما هو الإنسان مخصوص بهذا وحده بل العالم كله على هذا ، وهو من الأسرار الإلهية التي ينكرها العقل ويحيلها جملة واحدة ، وقربها من الذوات الجاهلة في حال علمها قرب الحق من العبد ، وهو قرب لا يُدْرَك ولا يُعْرَف إلا تقليداً ، ولولا إخباره ما دل عليه عقل ، فكل ما يعلمه الإنسان دائماً ـــ وكل موجود ـــ فإنما هو تذكر على الحقيقة وتجديد ما نسيه ، وليس المحال تعلق العلم بما لا يتناهى ، وإنما المحال دخول مالا يتناهى في الوجود لا تعلق العلم به ، فإن الخلق أنساهم الله ذلك كما أنساهم شهادتهم بالربوبية في أخذ الميثاق مع كونه قد وقع ، وعرفنا ذلك بالإخبار الإلهي ، فعِلْم الإنسان دائماً إنما هو تذكُّرٌ ، فمِنَّا مَنْ إذا ذكرته تذكَّر أنه قد كان علم ذلك المعلوم ونسيه ، ومنا من لا يتذكر ذلك مع إيمانه به أنه قد كان يشهد بذلك ، ويكون في حقه ابتداء علم ، ولولا أنه عنده ما قبله من الذي أعلمه ، ولكن لا شعور له بذلك ، ولا يعلمه إلا من نور الله بصيرته « أنا خلقناه من قبل و لم يك شيئاً » وكل ممكن بهذه المثابة ، ولكن الإنسان هو المعتبر الذي وجد العالم من أجله . ومن وجه آخر أنه ما ادعى أحد الألوهية سواه من جميع المخلوقات ، وأعصى الخلائق إبليس ، وغاية جهله أنه رأى نفسه خيراً من آدم لكونه من نار ، لاعتقاده أنه أفضل العناصر ، وغاية معصيته أنه أمر بالسجود لآدم فتكبر في نفسه عن السجود لآدم لما ذكرناه وأبى ، فعصى الله في أمره فسماه الله كافراً ، فإنه جمع بين المعصية والجهل ، والإنسان ادعى أنه الرب الأعلى ، فلهذا

خص بالخطاب في قوله « أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل » أي قدّرناه في حال شيئيته المتوجه عليها أمرنا إلى شيئية أخرى ، لقوله تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه) يعني في حال عدمه (أن نقول له كن فيكون) وكن كلمة وجودية من التكوين ، فسماه شيئاً في حال لم تكن فيه الشيئية المنفية بقوله « و لم يك شيئاً » نبهه على أصله ، فأنعم عليه بشيئية الوجود ، فأحاله على هذه الصفة أن يكون مستحضراً لها ، فإن الله لما امتن علينا بالاسم الرحمن ، وتولانا منه سبحانه ابتداء الرحمة ، أخرجنا من الشر الذي هو العدم إلى الخير الذي هو الوجود ، ولهذا امتن الله تعالى بنعمة الوجود فقال « أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل و لم يك شيئاً » يريد منك في شيئيتك أن تكون معه كما كنت وأنت لا هذه الشيئية ، فالمراد من كل ما سوى الله أن يعبد الله ، فإن الإنسان لما قال منكراً (أءذا ما مت لسوف أخرج حياً) أحاله الله تعالى على نشأته الأولى ، فقال « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل و لم يك شيئاً » وهذا فيه وجهان : الوجه الواحد ، أن هذا الذي يقال له الإنسان لم يك قبل ذلك إنساناً ، فشيئاً هنا معناه إنساناً ، كما تقول في جسد الإنسان إذا مات إنه إنسان بحكم المجاز ، أي قد كان إنساناً ، فإنه لا يتغذى ولا يحس ولا ينطق ، ومتى بطلت الأوصاف الذاتية بطل الموصوف ، فقد كان الإنسان قبل أن يطلق عليه اسم إنسان تراباً وماءً وهواءً وناراً وروحاً قدسياً إلهياً ، وقد كان دماً ثم انتقل نطفة وهي نشأة الأين ، وقد كان ذلك الدم بُرّاً ولحماً وشحماً وفاكهة وغير ذلك من المطعومات ، فقد كان الإنسان أشياء لكن لم يكن إنساناً . والوجه الآخر ، أن يكون قد أحاله على حقيقته الأولى التي هو فيها الإنسان بالقوة ، وهو أول البدء ، وهو شيء من لا شيء ولا كان شيئاً ، وأحاله في هذه الآية على النظر الفكري الذي يستدل به على معرفة الفاعل ــ **نصيحة** ــ اعلم أنه ما يكون منك ولا تُمتَحن وتُختَبر حتى تُمكّن من نفسك وتجعل قواك لك ، ويُسدَل الحجاب بينك وبين ما هي الأمور عليه ، حتى ترى ما يُستخرَج منك ، هذه هي الفتنة ، فإذا أراد الرجل التخلص من هذه الورطة ، فلينظر إلى الأصل الذي كان عليه قبل الفتنة ، وقد أحالك الله عليك إن تفطنت بقوله « أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل و لم يك شيئاً » فانظر إلى حالك مع الله إذ لم تكن شيئاً وجودياً ، ما كنت عليه مع الحق ؟ فلتكن مع الله في شيئية وجودك على ذلك الحكم ، لا تزد على ذلك شيئاً إلا ما اقتضاه الخطاب فقف عنده ، فإنه من بقي في حال وجوده مع

الله كما كان في حال عدمه فذلك الذي أعطى الله حقه ، ومن ادعى مع الله في نعته وزاحمه في صفاته أحاله من دائه العضال على استعمال دواء « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » يقول له : كن معي في شيئية وجودك كما كنت إذ لم تكن موجوداً ، فأكون أنا على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه .

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾

أقسم الله جل ثناؤه على الحشر الروحاني والجسماني ، أقسم سبحانه على نفسه باسمه الرب المضاف إلى نبيه محمد عليه السلام فقال « فوربك لنحشرنهم والشياطين » الآية ، فإن الإنسان لما قال منكراً (أءذا ما مت لسوف أخرج حياً) وسمع النبي عليه السلام من الإنسان هذا الإنكار وتكذيبه فيما قال الله من حشر الأجساد بعد موتها ، ولهذا ورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى ، يقول الله تعالى [شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، أما شتمه إياي فقوله : إن لي صاحبة وولداً ، وأنا الواحد الأحد لم اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأما تكذيبه إياي فبقوله : إني لا أعيده كما بدأته ، وليس أول الخلق عليّ بأهون من إعادته] فلما كان في إنكار الحشر والإعادة تكذيب الله جل وعلا ، شق ذلك على رسول الله ﷺ ، ولما لم تكن الدنيا دار انتقام مطلق ، أقسم الباري باسمه جل ثناؤه ــ المضاف إلى نبيه ــ بحشر الجميع الصالح والطالح في مقابلة الإنكار الروحاني والترابي ، وجعل الطريق الذي هو الصراط على النار ، حتى لا يبقى أحد إلا ويَرِدُ عليها ، فمنهم السوي ومنهم المكبوت (وما قدروا الله حق قدره) فقال تعالى « فوربك لنحشرنهم » مَنْ أنكر الحشر « والشياطين » فهم الذين يوحون إليهم ليجادلوا أهل الحق ، فذُكروا له ﷺ في المقسومين عليهم ، حتى يسكن ما يجده من الألم بالوعد الذي وعده الله للانتقام المطلق .

ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾

لما كان الصراط على النار ، وما ثَمّ طريق إلى الجنة إلا عليه ، قال تعالى « وإن منكم

إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » فالصراط المشروع الذي كان هنا معنى ينصب في الآخرة حساً محسوساً ، يقول الله لنا (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ولما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية خط خطاً وخط عن جنبتيه خطوطاً ، وهذا الصراط صراط التوحيد ولوازمه وحقوقه ، فالمشرك ما وحد الله هنا ، فهو من الموقف إلى النار مع المعطلة ومَنْ هو من أهل النار الذين هم أهلها ، إلا المنافقين ، فلابد لهم أن ينظروا إلى الجنة وما فيها من النعيم فيطمعون ، فذلك نصيبهم من نعيم الجنان ، ثم يصرفون إلى النار ، وهذا من عدل الله ، فقوبلوا بأعمالهم ، والطائفة التي لا تخلد في النار إنما تمسك وتُسأل وتُعذب على الصراط . والصراط على متن جهنم غائب فيها ، والكلاليب التي فيه بها يمسكهم الله عليه ، وقد أتى في وصف الصراط الحسي أنه أدق من الشعر وأحد من السيف ، وكذا هو علم الشريعة في الدنيا ، فالشرع هنا هو الصراط المستقيم ، فهو أحد من السيف وأدق من الشعر ، وظهوره في الآخرة محسوس أبين وأوضح من ظهوره في الدنيا ، وقد ورد في الخبر أن الصراط يظهر يوم القيامة متنه للأبصار على قدر نور المارين عليه ، فيكون دقيقاً في حق قوم وعريضاً في حق آخرين ، فالطريق إلى الجنة على النار فلابد من الورود ، فعلى الحقيقة ما منا إلا من يردها ، فإنها الطريق إلى الجنة ، وإذ لم يبق في أرض الحشر من أهل الجنة أحد ، عاد الصراط كله ناراً .

ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا

وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾

معلوم أنه لا يُحشَر إلى شيء من كان عند ذلك الشيء ، ولا يحشر الرحمن إليه إلا من ليس عنده من حيث هذا الاسم الخاص ، وهو عنده من حيث حكم اسم آخر غير هذا الاسم ، فالعين التي تحشر منها هي العين التي تحشر إليها وبعينها ما وصفت به ، فانظر أي اسم يكون مشهود المتقي فما تجده الرحمن ، وإن كان معه في حال إتقائه ، ولكن تحشر إليه لينفرد بك دون أن يكون لاسم آخر تصرف فيك ، والمتقي هو الحذر الخائف الوجل ، ولا يكون أحد يشهد الرحمن الرحيم الرؤوف ويتقيه ، وإنما مشهود المتقي السريعُ الحساب الشديدُ العقاب المتكبر الجبار ، لأن الاتقاء والخوف من حكم المتقى منه ، فكان المتقي في حكم أمثال هذه الأسماء الإلهية فيتقي ويخاف ، لأن المتقي ما هو جليس الرحمن ، إنما هو جليس الجبار المريد العظيم المتكبر فيتقي سطوته ، والاسم الرحمن ماله سطوة من كونه الرحمن ، إنما الرحمن يعطي اللين والعطف والعفو والمغفرة ، فإن الرحمن لا يُتّقى ، بل هو محل موضع الطمع والإدلال والأنس ، فلذلك يُحشَر إليه من الاسم الجبار الذي يعطي السطوة والهيبة ، فإنه جليس المتقين في الدنيا مع كونهم متقين ، فالمتقي جليس الاسم الإلهي الذي يقع منه الخوف في قلوب العباد ، فسمي جليسه متقياً منه ، فيحشره الله من هذا الاسم إلى الاسم الإلهي الذي يعطيه الأمان مما كان خائفاً منه ، وهو الرحمن ، فقال « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا » أي يأمنون مما كانوا يخافون منه ، قال ﷺ في حديث الشفاعة

[شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين] فيقضي سياق الكلام أن يكون أرحم الراحمين يشفع أيضاً ، فلابد ممن يشفع عنده ، وما ثَمَّ إلا الله ، فيشفع اسمه أرحم الراحمين عند اسمه القهار والشديد العقاب ، لذا يحشر الله المتقين يوم القيامة إلى الرحمن ليكون جليسهم ، فيزول عنهم الاتقاء ويزول عنهم حكم هؤلاء الأسماء الأخر ، فيأمن المتقي سطوة الجبار القهار ، وعلى هذا الأسلوب تأخذ الأسماء الإلهية كلها ، وهكذا تجدها حيث وردت في ألسنة النبوات إذا قصدت حقيقة الاسم وتميزه من غيره ، فإن له دلالتين : دلالة على المسمى به ، ودلالة على حقيقته التي بها يتميز عن اسم آخر .

وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾

« ونسوق المجرمين » وهم الذين استحقوا المقام الذي ساقهم إليه ، والذي ساقهم هو عين الأهواء التي كانوا عليها « إلى جهنم » وهي البعد « ورداً » .

لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾

فانظر إلى القوة الإلهية التي أعطاها الله لمن أنزل عليه الوحي الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، فإنهم علموا قدر من أنزله ، فرزقهم الله من القوة ما يطيقون به حمل ذلك الجلال ، فإذا سمعوا في الله ما يخالف ما تجلى لهم فيه « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً » وقد سمع ذلك أهل الله ورسله ، وما جرى عليهم شيء من ذلك ، لما أعطاهم من قوة العلم ، إذ لا أقوى من العلم ، فعَلِمَ أهل الله من رسول ونبي وولي ما لم تعلمه السموات والأرض والجبال من الله ، فأنتج لهم هذا العلم بالله قوة في نفوسهم حملوا بها ما سمعوه من قول من قال : إن المسيح ابن الله ، وإن عزيراً ابن الله ، ولم يتزلزلوا ، ولو نزل ذلك على من ليست له هذه القوة

لذاب في عينه لعظيم ما جاءه ، فانظر ما اكثف حجاب من اعتقد أن لله ولداً وما أشد عماه عن الحقائق .

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾

يعني يوم القيامة ، والعبودة حال يستصحب العبد في الدنيا والآخرة فإنها حقيقة تطلبه ، فالعبد ثابت الوجود في عبوديته ، دائم الحكم في ذلك ، لأن العبودة نعت ثابت لا يرتفع عن الكون ، فإذا أضفت الخلق إلى الله تعالى فكل ما سوى الله عبد لله ، فالعبادة حال ذاتي للإنسان لا يصح أن يكون لها أجر مخلوق ، لأنها ليست بمخلوقة أصلاً ، فالأعيان من كل ما سوى الله مخلوقة موجودة حادثة ، والعبادة فيها ليست بمخلوقة ، فإنها لهذه الأعيان أعني أعيان العالم في حال عدمه وفي حال وجوده ، وبها صح أن يقبل أمر الله بالتكوين من غير تثبط ، فحكم العبادة للممكن في حال عدمه أمكن فيه منها في حال وجوده ، إذ لابد له في حال وجوده واستحكام رأيه ونظره لنفسه واستقلاله من دعوى في سيادة بوجه ما ، ولو كان ما كان ، فينقص له من حكم عبادته بقدر ما ادعاه من السيادة .

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾

الود هو ثبات الحب ، أي سيجعل لهم الرحمن ثباتاً في المحبة عند الله وفي قلوب عباده .

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ۝٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ۝٩٨﴾

(٢٠) سورة طه مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة أشرف سورة في القرآن في العالم السعيد ، فإنها السورة التي يقرؤها الحق تعالى في الجنة على عباده بلا واسطة ، فإذا تلا الحق على أهل السعادة من الخلق سورة طه تلاها عليهم كلاماً ، وتجلى لهم فيها عند تلاوته صورة ، فيشهدون ويسمعون ، فكل شخص حفظها من الأمة يتحلى بها هنالك كما تحلى بها في الدنيا بالحاء المهملة ، فإذا ظهروا بها في وقت تجلي الحق بها وتلاوته إياها تشابهت الصور ، فلم يعرف المتلو عليهم الحق من الخلق إلا بالتلاوة ، فإنهم صامتون منصتون لتلاوته ، ولا يكون في الصف الأول بين يدي الحق في مجلس التلاوة إلا هؤلاء الذين أشبهوه في الصورة القرآنية الطاهيّة ، ولا يتميزون عنه إلا بالإنصات خاصة ، فلا يمر على أهل النظر ساعة أعظم في اللذة منها ، فمن استظهر القرآن هنا بجميع رواياته حفظاً وعلماً وعملاً فقد فاز بما أنزل الله له القرآن ، وصحت له الإمامة ، وكان على الصورة الإلهية الجامعة ، فمن استعمله القرآن هنا استعمل القرآن هناك ، ومن تركه هنا تركه هناك .

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾

المسألة الأولى ــ بحث عام في الألفاظ التي تعطي التشبية والتجسيم ــ المحقق الواقف العارف بما تقتضيه الحضرة الإلهية من التقديس والتنزيه ونفي المماثلة ، لا يحجبه ما نطقت به الآيات والأخبار في حق الحق تعالى ، من أدوات التقييد بالزمان والجهة والمكان وما أشبه ذلك من الأدوات اللفظية ، وقد تقرر بالبرهان العقلي خلقه الأزمان والأمكنة والجهات والألفاظ والحروف والأدوات والمتكلِم بها والمخاطبين من المحدثات ، كل ذلك خلق الله

تعالى ، فيعرف المحقق قطعاً أنها مصروفة إلى غير الوجه الذي يعطيك التشبيه والتمثيل ، وأن الحقيقة لا تقبل ذلك أصلاً ، ولكن تتفاضل العلماء السالمة عقائدهم من التجسيم ، فتتفاضل العلماء في هذا الصرف عن هذا الوجه الذي لا يليق بالحق تعالى ، فطائفة لم تشبّه و لم تجسم ، وصرفت علم ذلك الذي ورد في كلام الله ورسله إلى الله تعالى ، و لم تُدْخِل لها قدماً في باب التأويل ، وقنعت بمجرد الإيمان بما يعلمه الله في هذه الألفاظ والحروف ، من غير تأويل ولا صرف إلى وجه من وجوه التنزيه ، بل قالت لا أدري جملة واحدة ، ولكنني أحيل إبقاءه على وجه التشبية ، لقوله تعالى (ليس كمثله شيء) لا لما يعطيه النظر العقلي ، وعلى هذا فضلاء المحدثين من أهل الظاهر السالمة عقائدهم من التشبيه والتعطيل ، وطائفة أخرى من المنزهة عدلت بهذه الكلمات عن الوجه الذي لا يليق بالله تعالى في النظر العقلي ، عدلت إلى وجه ما من وجوه التنزيه على التعيين مما يجوز في النظر العقلي أن يتصف به الحق تعالى ، بل هو متصف به ولابد ، وما بقي النظر إلا في هذه الكلمة ، هل المراد بها ذلك الوجه أم لا ؟ ولا يقدح ذلك التأويل في ألوهته ، وربما عدلوا إلى وجهين وثلاثة وأكثر على حسب ما تعطيه الكلمة في وضع اللسان ، ولكن من الوجوه المنزهة لا غير ، فإذا لم يعرفوا من ذلك الخبر أو الآية عند التأويل في اللسان إلا وجهاً واحداً قصروا الخبر أو الآية إلى تلك المصارف ، وقالت طائفة من هؤلاء : يحتمل أن يريد كذا ، ويحتمل أن يريد كذا ، وتعدد وجوه التنزيه ، ثم تقول : والله أعلم أي ذلك أراد ، وطائفة أخرى تقوّى عندها وجه ما من تلك الوجوه النزيهة بقرينة ما ، قطعت لتلك القرينة بذلك الوجه على الخبر وقصرته عليه ، و لم تعرج على باقي الوجوه في ذلك الخبر وإن كانت كلها تقتضي التنزيه ، وطائفة أخرى من المنزهة أيضاً وهي العالية ، فرغوا قلوبهم من الفكر والنظر وأخلوها ، إذ كان المتقدمون من الطوائف المتقدمة المتأولة أهل فكر ونظر ، فأشبهت في هذا العقد المحدثين السالمة عقائدهم ، حيث لم ينظروا ولا تأولوا ولا صرفوا ، بل قالوا : ما فهمنا ، فقال هؤلاء بقولهم ثم انتقلوا عن مرتبة أولئك بأن قالوا : لنا أن نسلك طريقة أخرى في فهم هذه الكلمات ، وذلك بأن نفرغ قلوبنا من النظر الفكري ، ونجلس مع الحق تعالى بالذكر على بساط الأدب والمراقبة والحضور والتهيىء لقبول ما يرد علينا منه تعالى ، حتى يكون الحق تعالى يتولى تعليمنا على الكشف والتحقيق ، لما سمعته يقوله (واتقوا الله ويعلمكم الله) ويقول (إن تتقوا الله

يجعل لكم فرقاناً) . فعندما توجهت قلوبهم وهممهم إلى الله تعالى ولجأت إليه ، وألقت عنها ما استمسك به الغير من دعوى البحث والنظر ونتائج العقول ، كانت عقولهم سليمة وقلوبهم مطهرة فارغة ، فعندما كان منهم هذا الاستعداد تجلى الحق لهم معلّماً ، فأطلعتهم تلك المشاهدة على معاني هذه الأخبار والكلمات دفعة واحدة ، وهذا ضرب من ضروب المكاشفة ، فإنهم إذا عاينوا بعيون القلوب ما نزهته العلماء المتقدم ذكرهم بالإدراك الفكري ، لم يصح لهم عند هذا الكشف والمعانية أن يجهلوا خبراً من هذه الأخبار التي توهم ، ولا أن يبقوا ذلك الخبر منسحباً على ما فيه من الاحتمالات النزيهة من غير تعيين ، بل يعرفون الكلمة والمعنى النزيه الذي سيقت له ، فيقصرونها على ما أريدت له ، وإن جاء في خبر آخر ذلك اللفظ عينه فله وجه آخر من تلك الوجوه المقدسة ، معيّن عند هذا الشاهد ، وطائفة أخرى ليس لهم هذا التجلي ، ولكن لهم الإلقاء والإلهام واللقاء والكتابة ، وهم معصومون فيما يلقى إليهم بعلامة عندهم لا يعرفها سواهم ، فيخبرون بما خوطبوا به وما ألهموا به وما ألقي إليهم أو كتب ، وقد تقرر عند جميع المحققين الذين سلّموا الخبر لقائله ولم ينظروا ولا شبّهوا ولا عطلوا ، والمحققين الذين بحثوا واجتهدوا ونظروا على طبقاتهم ، والمحققين الذين كوشفوا وعاينوا ، والمحققين الذين خوطبوا وألهموا ، أن الحق تعالى لا تدخل عليه تلك الأدوات المقيدة بالتحديد والتشبيه على حد ما نعقله من المحدثات ، ولكن تدخل عليه بما فيها من معنى التنزيه والتقديس ، على طبقات العلماء والمحققين في ذلك لما فيه وتقتضيه ذاته من التنزيه ، وإذا تقرر هذا ، فقد تبيّن أنها أدوات التوصيل إلى أفهام المخاطبين ، وكل عالِم على حسب فهمه فيها وقوة نفوذه وبصيرته ، فعقيدة التكليف هينة الخطب ، فُطِر العالَم عليها ، ولو بقيت المشبهة على ما فطرت عليه ما كفرت ولا جسّمت ، وجاء في هذه الآية الاستواء على العرش بلفظ العرش ولفظ الاستواء ، وما هو نص في ظرفية المكان ، بخلاف اسم لفظة المكان ، فإنه نصٌّ بالوضع في ظرفيته ، والمتمكن في المكان نص فيه ، فعدل إلى الاستواء والعرش ، ليسوغ التأويل الذي يليق بالجناب العالي لمن يتأول ولابد ، والأولى التسليم لله فيما قاله ، ورد ذلك إلى علمه سبحانه بما أراده في هذا الخطاب ، ونفي التشبيه المفهوم عنه ، بقوله (ليس كمثله شي) ـــ **المسألة الثانية في الاستواء** ـــ ذكر تعالى أنه استوى على العرش على طريق التمدح والثناء ، إذ كان العرش أعظم الأجسام ، والاستواء حقيقة معقولة معنوية

تنسب إلى كل ذات بحسب ما تعطيه حقيقة تلك الذات ، ولا حاجة لنا إلى التكلف في صرف الاستواء عن ظاهره ، فهو استواء منزه عن الحد والمقدار ، معلوم عنده ، غير مكيف ولا معلوم للعقول والأذهان ، وكما لا يلزم من الفوق إثبات الجهة ، كذلك لا يلزم من الاستواء إثبات المكان ، فذلك الاستواء مجهول النسبة ، ثابت الحكم ، متوجه كما ينبغي لجلاله نخلص من ذلك إلى القول بأن استواء الرحمن ليس كاستواء الأكوان ، وأنه لو جلس عليه جلوساً كما يدعيه المشبهة لحدّه المقدار ، وقام به الافتقار إلى مخصص مختار ، لا تحيط به الجهات والأقطار ، والافتقار على الله مُحَال ، فالاستقرار بمعنى الجلوس عليه محال ، ولا سبيل إلى هذا الاعتقاد بحال ، وما بقي فيه سوى أمرين مربوطين بحقيقتين ، الأمر الواحد أن نصرف هذا الاستواء إلى الاستيلاء ، والأمر الآخر أن نؤمن بها كما جاءت من غير تشبيه ولا تكييف ، ونصرف العلم بها إليه ، فإنه أسلم بالمؤمنين عند قدومهم عليه ، ولهذا يختم المنزِّه تأويله بقوله : والله أعلم ، لمعرفته بأن التنزيه قائم بذاته ، ولكن صرف هذه الآية إلى هذا الحكم لايلزم . فتحفظوا من مكر الله في التأويل واستدراجه ، واسألوه الثبات على منهاجه ، وطهروا قلوبكم بماء التقديس والتنزيه ، من التجسيم والتشبيه ، فإنه ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، ويستوي ويجيء وينزل ، وهو في السماء وفي الأرض كما قاله ، وعلى المعنى الذي أراده ، من غير تشبيه ولا تكييف ، وهو العليم القدير . ــ **المسألة الثالثة في معنى العرش ــ الوجه الأول** ــ « على العرش » أي على ملكه ، فالعرش عين المُلْك ، يقال : ثُلَّ عرش الملك إذا اختل ملكه ــ **الوجه الثاني** ــ العرش الذي استوى عليه الرحمن ، هو سرير ذو أركان أربعة ووجوه أربعة ، وله أربعة قوائم يحمله منها أربعة من الملائكة ، وفي كل نصف وجه قائمة ، فهي ثمانية قوائم ، لا حامل لتلك الأربعة اليوم إلى يوم القيامة ، فإذا كان في القيامة وكَّل الله بها من يحملها ، فيكونون في الآخرة ثمانية وهم في الدنيا أربعة ، وقوائم هذا العرش على الماء الجامد ، فالعرش إنما يحمله الماء الجامد ، والحملة التي له إنما هي خدمة له تعظيماً وإجلالاً ، وذلك الماء الجامد مقره على الهواء البارد ، والعرش مجوف ، محيط بجميع ما يحوي عليه من كرسي وأفلاك وجنات وسموات وأركان ومولدات ، وبين مقعر العرش والكرسي فضاء واسع وهواء مخترق ، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة ، ولما أوجد الله العرش استوى عليه الرحمن واحد الكلمة لا مقابل لها ، فهو رحمة كله ، ليس فيه ما

يقابل الرحمة ، وإن وقع ببعض العالم غصص ، فذلك لرحمة فيه . لولا ما جرعه إياها اقتضى ذلك مزاج الطبع ومخالفة الغرض النفسي ، فهو كالدواء الكريه والطعم الغير المستلذ وفيه رحمة للذي يشربه ويستعمله وإن كرهه ، فباطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، وما استوى عليه الرحمن تعالى إلا بعد ما خلق الأرض وقدّر فيها أقواتها ، وخلق السموات وأوحى في كل سماء أمرها ، وفرغ من خلق هذه الأمور كلها ، ورتب الأركان ترتيباً يقبل الاستحالات لظهور التكوين والتنقل من حال إلى حال ، وبعد هذا استوى على العرش ، فالعرش هو الجسم الكلي ، واستوى عليه سبحانه بالاسم الرحمن بالاستواء الذي يليق به ، الذي لا يعلمه إلا هو ، من غير تشبيه ولا تكييف ، وهو أول عالم التركيب ، وقد قال تعالى « الرحمن على العرش استوى » في معرض التمدح ، فلو كان في المخلوقات أعظم من العرش لم يكن ذلك تمدحاً ، والعرش المذكور في هذه الآية مستوى الرحمن وهو محل الصفة — **المسألة الرابعة في تفسير الآية** — اعلم أن الله سبحانه ما استوى على عرش إلا بالاسم الرحمن ، إعلاماً بذلك أنه ما أراد بالإيجاد إلا رحمة بالموجودين ، ولم يذكر غيره من الأسماء ، وذكر الاستواء على اعظم المخلوقات إحاطة من عالم الأجسام ، فإن الآلام ليس محلها إلا التركيب ، وأما البسائط فلا تقبل في ذاتها قيام معنى بها ، بل هي عين المعنى ، فتدل هذه الآية على شمول الرحمة للعالم وإن طرأت عوارض البلايا ، فإنها رحمة كما ذكرنا في شرب الدواء الكريه ، ليس المقصود منه عذاب من شربه ولا إيلامه ، وإنما المقصود من استعماله ما يؤول إليه من استعمله من الراحة والعافية ، فللحق سبحانه تجلٍ عام إحاطي ، وتجلٍ خاص شخصي ، فالتجلي العام تجلٍ رحماني . وهو قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فمن معافى ومبتلى ، بحسب ما يحكم فيه من الأسماء إلى الأجل المسمى ، فتعم الرحمة التي وسعت كل شيء من الرحمن الذي استوى على العرش ، فتعم النعم العالم ، فإن العرش ما حوى ملكه كله مما وجد ، وعرشه وسع كل شيء ، والنار ومَنْ فيها من الأشياء ، والرحمة سارية في كل موجود ، والتجلي الخاص هو ما لكل شخصٍ شخصٍ من العلم بالله ، والرحمن لا يظهر عنه إلا مرحوم ، لذلك قال « على العرش استوى » لنعلم إذا ظهرت أعياننا وبلّغتنا سفراؤه هذا الأمر شمول الرحمة وعمومها ، ومآل الناس والخلق كلها إليها ، فلو لم يكن من عظيم الرجاء في شمول الرحمة إلا قوله « الرحمن على العرش استوى » لكفى فإذا استقرت

الرحمة في العرش الحاوي على جميع أجسام العالم ، فكل ما يناقضها أو يريد رفعها من الأسماء والصفات فعوارض لا أصل لها في البقاء ، لأن الحكم للمستولي وهو الرحمن ، فإليه يرجع الأمر كله ، فيكون المآل للرحمة التي وسعت كل شيء ، فهو في الدنيا يرزق مع الكفر ويعافي ويرحم ، فكيف مع الإيمان والاعتراف في الدار الآخرة على الكشف كما كان في قبض الذرية ؟ ــ **إشارة** ــ قرأ أبو العباس العريبي « الرحمن على العرش » وقف والابتداء « استوى » .

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

أي ثبت له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، فالاسم الرحمن ثابت الحكم في كل ما يحوي عليه العرش ، وهو قوله (ورحمتي وسعت كل شيء) فمآل الكل إلى الرحمة وإن تخلل الأمر آلام وعذاب وعلل وأمراض مع حكم الاسم الرحمن ، فإنما هي أعراض عرضت في الأكوان دنيا وآخرة ، ومن أجل أن الرحمن له الأسماء الحسنى ، ومن الأسماء الضار والمذل والمميت ، فلهذا ظهر في العالم مالا تقتضيه الرحمة ولكن لعوارض ، وفي طي تلك العوارض رحمة ، ولو لم يكن إلا تضاعف النعيم والراحة عقيب زوال حكمه ، ولهذا قيل : أحلى من الأمن عند الخائف الوجل ، فما تعرف لذات النعيم إلا بأضدادها ، فما ثَمَّ حكم إلا للرحمن لأنه المستوي على العرش ، فلا تنفذ الأحكام إلا من هذا الاسم ، فالرحمن استوى على عرشه ، وما انقسمت الكلمة إلا من دون العرش ، من الكرسي فما تحته ، فإنه موضع القدمين ، ليس سوى انقسام الكلمة ، فظهر الأمر والخلق ، والنهي والأمر ، والطاعة والمعصية ، والجنة والنار ، وكل ذلك عن أصل واحد وهي الرحمة التي هي صفة الرحمن .

﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ﴾

الوجه الأول ــ يدل ظاهر الآية في قوله تعالى « فإنه يعلم السر » أي ما يحدِّث المرء به نفسه ، لقوله وإن تجهر بالقول ، فإنه يعلم ذلك ويعلم ما تحدث به نفسك ، وهو قوله (ونعلم ما توسوس به نفسه) ومتعلق السر الاسم الباطنَ ، وهو ما يسره العبد في نفسه ،

وهو خلاف الجهر والعلانية ــ **الوجه الثاني** ــ السر ما بينك وبينه ، وما هو أخفى ما يستر عنك عينه فالسر ما بين العبد والحق ، والأخفى ما يعلمه سبحانه من العبد ولا يعلمه العبد من نفسه أن يكون فيه ، فلا يعلم الأخفى إلا الله ، والسر يعلمه الزائد ، وما زاد فهو إعلان وزال عن درجة الكتمان ، فقوله « وأخفى » الأخفى عن صاحب السر هو مالا يعلمه . مما يكون لابد أن يعلمه خاصة ، فالعلم بما هو أخفى من السر مالا يعلمه إلا الله وحده ، لا علم لهذا العبد به ، ولا يمكن أن يعلمه إلا الله ، فالأخفى هو سرّ سرّ ، وهو العلم الذي انفرد به الحق دون سواه ، فما هو أخفى من السر مَالا يعلم من الأمر ، وما هو إلا العلم بالله ــ **الوجه الثالث** ــ « يعلم السر » والسر هو إخفاء ما له عين « وأخفى » وهو إظهار ما لا عين له ، فيتخيل الناس أن ذلك حق ، والله يعلم أنه ليس له وجود عين في نفس الحكم ، فيعلم السر وأخفى ، أي أظهر في الخفاء من السر ، والشيء الخافي هو الظاهر لغة منقولة ــ **الوجه الرابع** ــ ومع هذا فإن الألف واللام لها حكم في مطلق اسم السر ، للشمول على جميع ما ينطلق عليه اسم السر ، وما هو أخفى من ذلك السر ، ومن السر النكاح ، فمن أسمائه السر ، فيعلم ما ينتجه النكاح ، وهو قوله (ويعلم ما في الأرحام) فإنه الخالق ما فيها ، ولذلك فإن الإيجاد بمنزلة السر في النكاح ، والأخفى هو التوجه بتعلق القدرة بإيجاد موجود ما ، فنفذ الاقتدار فكان أخفى من السر ، لجهلنا بنسبة هذا التوجه إلى الذات العلية ونسبة الصفات إليها ، لأنها مجهولة لا تعرف فيعرف التوجه ، فأعقب ذلك بتوحيد الموجد للأشياء مع كثرة النسب ، فهو واحد في كثير فقال :

اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

هذا التوحيد السادس عشر في القرآن ، وهو توحيد الإبدال ، فإنه أبدل الله من الرحمن ، وهذا في المعنى بدل المعرفة من النكرة ، لأنهم أنكروا الرحمن ، وفي اللفظ بدل المعرفة من المعرفة ، وهو توحيد الهوية القائمة بأحكام الأسماء الحسنى ، لا أن الأسماء الحسنى تقوم معانيها بها ، بل هي القائمة بمعاني الأسماء ، فهو قائم بكل اسم بما يدل عليه ، وقد تسمى بأحكام أفعاله من طريق المعنى ، فكلها أسماء حسنى ، غير أنه منها ما يتلفظ بها ، ومنها ما يعلم ولا يتلفظ بها لما هو عليه حكمها في العرف من إطلاق الذم عليها ، والله اسم جامع

لحقائق جميع الأسماء ، وهو دليل على مسمى ، وهو ذات مقدسة له نعوت الكمال والتنزيه « له الأسماء الحسنى » فالاسماء كلها للمرتبة ، ولها ترتيب حقائق معقولة كثيرة من جهة النسب لا من جهة وجود عيني ، فإن ذات الحق واحدة من حيث ما هي ذات ، ولكن لما كان وجودنا وافتقارنا وإمكاننا لابد له من مرجح نستند إليه ؛ وأن ذلك المستند لابد أن يطلب وجودنا منه نسباً مختلفة ، كنّى الشارع عنها بالأسماء الحسنى وتسمى بها ، فالله واحد وإن تكثرت أحكامه فإنها نسب وإضافات ، فهو من حيث نفسه له أحدية الأحد ، ومن حيث أسماؤه له أحدية الكثرة ، والأسماء الحسنى تبلغ فوق أسماء الإحصاء عدداً ، وتنزل دون أسماء الإحصاء سعادة ، وهي المؤثرة في هذا العالم ، فإنه ليس في المخلوقات على اختلاف ضروبها أمر إلا ويستند إلى حقيقة ونسبة إلهية ، وهي المفاتيح الأول التي لا يعلمها إلا هو ، وإن كان لكل حقيقة اسم ما يخصها من الأسماء ، فحقيقة الإيجاد يطلبها الاسم القادر ، وحقيقة الأحكام يطلبها الاسم العالم ، وحقيقة الاختصاص يطلبها الاسم المريد ، إلى غير ذلك من الحقائق ، فالاسماء الحسنى نِسَبٌ وإضافات ترجع إلى عين واحدة ، إذ لا يصح هناك كثرة بوجود أعيان فيه كما زعم من لا علم له بالله من بعض النظار ، لأن الصفات الذاتية للموصوف بها وإن تعددت ، فلا تدل على تعدد الموصوف في نفسه لكونها مجموع ذاته ، وإن كانت معقولة في التمييز بعضها عن بعض ، فأسماء الله وهي صفاته نِسَبٌ وإضافات له لا أعيان زائدة ، لما يؤدي إلى نعتها بالنقص ، إذ الكامل بالزائد ناقص بالذات عن كماله بالزائد ، وهو كامل لذاته ، فالزائد بالذات على الذات محال ، وبالنسب والإضافة ليس بمحال ، ولو كانت الصفات أعياناً زائدة وما هو إله إلا بها ، لكانت الألوهية معلولة بها ، فلا يخلو أن تكون هي عين الإله ــ فالشيء لا يكون علة لنفسه ــ أو لا تكون ، فالله لا يكون معلولاً لعلة ليست عينه ، فإن العلة متقدمة على المعلول بالرتبة ، فيلزم افتقار الإله من كونه معلولاً لهذه الأعيان الزائدة التي هي علة له ، وهو محال ، ثم إن الشيء المعلول لا يكون له علتان ، وهذه كثيرة ، ولا يكون إلهاً إلا بها ، فبطل أن تكون الأسماء والصفات أعياناً زائدة على ذاته ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، فأسماء الله الحسنى نسب وإضافات ، منها ما يحتاج إليها الممكنات احتياجاً ضرورياً ، ومنها مالا يحتاج إليها الممكنات ذلك الاحتياج الضروري ،

وقوة نسبتها إلى الحق أوجه من طلبها الخلق . ولما كانت الأسماء الإلهية نسباً تطلبها الآثار ، لذلك لا يلزم ما تعطل حكمه منها ما لم يتعطل ، وإنما يقدح ذلك لو اتفق أن تكون أمراً وجودياً ، فالله إله سواء وجد العَالَم أو لم يوجد ، فلذلك قلنا : إنه سبحانه لو رحم العالم كله لكان ، ولو عذب العالم كله لكان ، ولو رحم بعضه وعذب بعضه لكان ، ولو عذبه إلى أجل مسمى لكان ، فإن الواجب الوجود لا يمتنع عنه ما هو ممكن لنفسه ، ولا مُكْرِه له على ما ينفذه في خلقه ، بل هو الفعال لما يريد ، ولما كانت الصفات نسباً وإضافات ، والنسب أمور عدمية ، وماثمَّ إلا ذات واحدة من جميع الوجوه ، لذلك جاز أن يكون العباد مرحومين في آخر الأمر ، ولا يسرمد عليهم عدم الرحمة إلى مالا نهاية له إذ لا مُكِره له على ذلك ، والصفات والأسماء ليست أعياناً توجب حكماً عليه في الأشياء ، فلا مانع من شمول الرحمة للجميع ، ولاسيما وقد ورد سبقها للغضب ، فإذا انتهى الغضب إليها كان الحكم لها ، فكان الأمر على ما قلناه ، ولذلك قال تعالى (ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً) فكان حكم هذه المشيئة في الدنيا بالتكليف ، وأما في الآخرة فالحكم لقوله (يفعل ما يريد) فمن يقدر أن يدل على أنه لم يرد إلا تسرمد العذاب على أهل النار ولابد ، أو على واحد في العالم كله ؟ فكل ما ذكر في قوله : لو شاء ، ولئن شئنا ، لأجل هذا الأصل ، فله الإطلاق وما ثَمَّ نص يرجع إليه لا يتطرق إليه الاحتمال في تسرمد العذاب كما لنا في تسرمد النعيم ، فلم يبق إلا الجواز ، وأنه رحمن الدنيا والآخرة ، والأسماء الإلهية منها مشتركة وإن كان لكل واحد من المشتركة معنى ، إذا تبين ظهر أنها متباينة ، فالأصل في الأسماء التباين ، والاشتراك فيه لفظي ، ومنها متباينة ، ومنها مترادفة ومع ترادفها فلابد أن يفهم من كل واحد معنى لا يكون في الآخر ، فعلمنا ما سمى به نفسه واقتصرنا عليها ، وقيدت الأسماء بالحسنى لدلالتها على المسمى الأسمى .

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

« إني آنست ناراً » أي أبصرت ناراً ، من آنست الشيء إذا أبصرته ، ويدل أيضاً على

أنه ما قطع فيما أبصر أنه نار « لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » فانظر ما أعجب قوة النبوة لأنه وجد الهدى ، وكل خير في السعي على الغير ، والسعي على الأهل من ذلك ، فمشى موسى عليه السلام في حق أهله ليطلب لهم ناراً يصطلون بها ويقضون بها الأمر الذي لا ينقضي إلا بها في العادة ، وما كان عنده خبر بما جاءه ، فأسفرت له عاقبة ذلك الطلب عن كلام ربه ، فكلمه الله في عين حاجته وهي النار في الصورة ، ولم يخطر له عليه السلام ذلك الأمر بخاطر ، وأي شيء أعظم من هذا ؟ وما حصل له إلا في وقت السعي في حق عياله ، ليعلمه بما في قضاء حوائج العائلة من الفضل ، فيزيد حرصاً في سعيه في حقهم ، فكان ذلك تنبيهاً من الحق تعالى على قدر ذلك عند الله تعالى ، وعلى قدرهم لأنهم عبيده على كل حال ، وقد وكّل هذا على القيام بهم .

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ وتجلى له الحق في عين حاجته فلم تكن ناراً

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ ﴾

لما خرج موسى عليه السلام في طلب النار لأهله لما كان فيه من الحنو عليهم ، وقع التجلي له في عين صورة حاجته ، فرأى ناراً لأنها مطلوبه فقصدها فناداه ربه منها ، وهو لا علم له بذلك لاستفراغه فيما خرج له « يا موسى إني أنا ربك » ولما كان القاعد لا يلبس النعلين وإنما وضعت للماشي فيها ، ومَنْ وصل إلى المنزل خلع نعليه ، قيل لموسى عليه السلام « اخلع نعليك » أي قد وصلت المنزل ، فإنه كلمه الله بغير واسطة ، بكلامه سبحانه بلا ترجمان ، وقوله تعالى « اخلع نعليك » له ظاهر وباطن ، فأما ظاهره فالحكمة في الأمر بخلع النعل الظاهر ، أن سير الأنبياء في الأرض كان سير اعتبار وادكار ونظر لما أودع فيها من سر البدء والإعادة ، بمقتضى قوله تعالى (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) وكان المراد التعرف لموسى بسر الإعادة وقيام الساعة ، ولهذا كانت مناجاته من الجانب الغربي ، لأن من أكبر آيات الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وقيل له في أول مناجاته (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية) ومن المعلوم أن بعث الخلائق وحشرهم يكون من الأرض المقدسة ، وقد فسر قوله تعالى (واستمع يوم

يناد المناد من مكان قريب) أي من صخرة بيت المقدس ، فمن ها هنا قيل لموسى ﷺ عندما سار بأهله وبلغ بيت المقدس وكشف له عن سر ما أودع فيه من قيام الساعة « اخلع نعليك » تنبيهاً على أنه انتهى سفرك وبلغ ما كان المراد بك من التعرف ، ولهذا قيل له « إنك بالوادي المقدس » أي هذا هو الوادي الذي أودع فيه سر قيام الساعة ورجوع الخلائق إلى الله تعالى ، فاخلع نعليك وألق عصاك ، فإن النعل وأخذ العصا من توابع السفر ، وخلع النعل وإلقاء العصا من أعلام الإقامة ، قال الشاعر

فألقت عصاها واطمأن بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

وأما الباطن فإن حقيقة النعل ما يكون وقاية لقدم الصدق من عوائق طريق القلب إلى الله تعالى وما فيه من وعر وشوك ، كما نبه عليه قوله ﷺ : [تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم ، تعس وانتكس وشيك ولا انتقش] فنبه بهذا على أن افتتان القلب بزينة الدنيا يعوق قدم الصدق عن السير إلى الله تعالى ، فإن عظم في عينيه منها شيء تعس به ، وإن احتقره أو استهان به كان بمثابة الشوك يدخل في قدم السائر ، فإن انتقش أي أخرجه بمنقاش الاستغفار ، وألقاه بالزهد فيه سَلِم وسارع بقدم صدقه إلى الله تعالى ، وإن أهمله كان بمثابة الشوكة التي يهملها صاحبها حتى تتمكن ويفسد بها الدم ويحصل المرض والوقوف عن السير ، وربما تمكنت فكانت سبباً للموت أو ورماً للقدم ، والنعلان يقيان من ذلك ، وهما الرجاء فيه والخوف منه ، كموسى ﷺ لما خرج خائفاً يترقب ، وقال عند التوجه (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) علم أنه انتعل الخوف والرجاء وركبهما في سيره ، لأن مَنْ انتعل فقد ركب ، لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في صحيح مسلم قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فقال : أكثروا من النعال فإن الرجل يظل راكباً ما انتعل . فلما بلغ موسى عليه السلام في حضرة المناجاة والتأنيس وصل في وادي التقديس ، قيل له « اخلع نعليك » لأن الرجاء والخوف لأرباب السلوك لا لمن وصل وخص بمجالسة الملوك ، روينا أن نعلا موسى كانتا من جلد حمار ميت ، فجمعت ثلاثة أشياء : الشيء الواحد الجلد وهو ظاهر الأمر ، أي لاتقف مع الظاهر في كل الأحوال ، والثاني البلادة فإنها منسوبة إلى الحمار ، والثالث كونه ميتاً غير مذكى والموت الجهل ، وإذا كنت ميتاً لا تعقل ما تقول ولا ما يقال لك ، والمناجي لابد أن يكون بصفة من يعقل ما يقول ويقال له ، فيكون حي

القلب فطناً بمواقع الكلام ، غواصاً في المعاني التي يقصدها من يناجيه بها ــ **اعتبار** ــ خلع النعلين في الاعتبار يشير إلى خلع صفة الجهل المختصة بالحمار ، لأن النعلين كانتا من جلد حمار ميت ، فهو صفة جهل وموت ، والوادي المقدس في الاعتبار يشير إلى صفة موسوية ــ **إشارة** ــ خُلِعَت النعلان إشارة لزوال شفعية الإنسان .

﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ (١٣)

وقريء « وإنا اخترناك » قرأ بها حمزة على رب العزة في المنام ، وإذا قرىء « وأنا اخترتك » كان أحق بالآية وأنسب وأنفى للتغيير ، فإنه ما زال التوحيد يصحبها إلى آخر الآية في قوله (فاعبدني) وإذا قرىء بالجمع ظهر التغيير بالانتقال في العين الواحدة من الكثير إلى الواحد ، فمساق الآية يقوي « وإنا اخترناك » لأنه عدد أموراً تطلب أسماء مختلفة ، فلابد من التغيير في كل صورة يدعى إليها ، وكان جملة ما تحصل في هذه الواقعة لموسى على ما روي اثنتي عشرة ألف صورة ، يقول له في كل صورة : يا موسى ، ليتنبه موسى على أنه لو أقيم لصورة واحدة لاتسق الكلام ، ولم يقل في كل كلمة : يا موسى ؛ فقوله « إنا اخترناك » فجمع ، ثم أفرد ثم عدد ما كلم به موسى عليه السلام غير أن قوله « وإنا اخترناك » قرأ بها حمزة على رب العزة في المنام ، فقال له ربه : « وإنا اخترناك » فهي قراءة برزخية ، فلهذا جمع لأنه تجل صوري في منام ، فلابد أن تكون القراءة هكذا ، فإذا أفردتها بعد الجمع فلأحدية الجمع لاغير .

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ (١٤)

هذا هو التوحيد السابع عشر في القرآن ، وهو توحيد الاستماع ، وهو توحيد الإنابة ، وقوي بالجمع إذ قد قرىء « وإنا اخترناك » فكثّر ، ثم أفرد فقال « إنني » وإن كلمة تحقيق ، فالإنية هي الحقيقة ، ولما كان حكم الكناية بالياء يؤثر في صورة الحقيقة ، نظرت مَنْ في الوجود على صورتها ، فوجدت نوناً من النونات ، فقالت لها : قني بنفسك من أجل كناية الياء ، لئلا تؤثر فيّ في صورة حقيقتي ، فيشهد الناظر والسامع التغيير في الحقيقة أن الياء هي عين الحقيقة ؛ فجاءت نون الوقاية فحالت بين الياء ونون الحقيقة ، فأحدثت الياء الكسر

في النون المجاورة لها ، فسميت نون الوقاية لأنها وقت الحقيقة بنفسها ، فبقيت الحقيقة على ما كانت عليه لم يلحقها تغيير ، فقال « إنني أنا الله » ولولا نون الوقاية لقال « إني أنا الله » فغيرها ، وتغيير الحقيقة بالضمير في الإن هو مقام تجليه في الصور يوم القيامة ، وما ثَمَّ إلا صورتان خاصة لا ثالث لهما ، صورة تنكر وصورة تعرف ، ولو كان مالا يتناهى من الصور فإنها محصورة في هذا الحكم ، إما أن تنكر أو تُعْرَف ، لابد من ذلك ، فإذا قرىء « وأنا اخترتك » كان أحق بالآية وأنسب وأنفى للتغيير ، فإنه ما زال التوحيد يصحبها إلى آخر الآية . **تفسير من باب الإشارة ــ الوجه الأول** : واعلم أن إنيتين ضبطتهما العبارة ، وهما طرفان ، ولكل واحدة من الإنيتين حكم ليس للأخرى ، إنية في جانب الحق « إني أنا ربك » وإنية في جانب الخلق الكامل (إني رسول الله) والإنيتان متميزتان ، إلا أن لإنية الحادث منزلة الفِداء والإيثار لجناب الحق بكونها وقاية ، وبهذه الصفة من الوقاية تندرج إنية العبد في الحق اندراجاً في ظهور ، فينسب الفعل إلى العبد وليس إليه ، قال ﷺ : [الخير كله بيديك ، والشر ليس إليك] قال تعالى « إنني أنا الله » النون الثانية من إنني هي نون الوقاية ، فلولا نون العبد التي أثر فيها حرف الياء ، الذي هو ضمير الحق ، فخفض النون ، فظهر أثر القديم في المحدث ، ولولاه لخفضت النون من إن ، وهي إنية الحق فخفضتها ، ومقامها الرحمة التي هي الفتح ، فما أزاله عن مقامه إلا هو ولا أثر فيه سواه ، فأقرب ما يكون العبد من الحق إذا كان وقاية بين إنية الحق وبين ضميره ، فيكون محصوراً قد أحاط به الحق من كل جانب ، وكان به رحيماً لبقاء صفة الرحمة ، فبابها مفتوح ، وبها حفظ على المحدث وجوده ، فبقي عين نون الوقاية الحادثة في مقام العبودية الذي هو الخفض المتولد عن ياء ضمير الحق ، فظهر في العبد أثر الحق ، وهو عين مقام الذلة والافتقار ، فما للعبد مقام في الوصلة بالحق تعالى أعظم من هذا ، حيث له وجود العين بظهور مقامه فيه ، وهو في حال اندراج في الحق محاط به من كل جانب ، فعرف نفسه بربه حين أثر فيه الخفض ، فعرف ربه حين أبقاه على ما هو عليه من الرحمة ، فإنه الرحمن الرحيم ، فما زال عنه الفتح (فتح أَنا) بوجود عين العبد (نون الوقاية) فلا يشهده أبداً إلا رحماناً ، ولا يعلمه أبداً إلا مؤثِّراً فيه ، فلا يزال في عبوديته قائماً ، وهذا غاية القرب ، ولولا هذا القرب المعيّن لعاد الأثر على إنية الحق ، ولهذا ظهر في « إني أنا ربك » ليعلم أن الأثر إذا صدر من الحق لابد من

ظهور حكم ، وما وجد إلا الحق فعاد عليه ، فجاء العبد فدخل بين الإنية الإلهية والمؤثر فعمل فيه ، قال أبو يزيد لربه : يا رب بماذا أتقرب إليك ؟ فقال : بما ليس لي ، فقال : يا ربّ وما ليس لك ؟ فقال : الذلة والافتقار ، فعلم عند ذلك ما لإنّيّة الحق وما لإنية العبد ، وليست العناية من الله ببعض عباده إلا أن يشهده هذا المقام من نفسه ، فما يزيد على العالم كله إلا بالعلم به حالاً وذوقاً ، ولا يجني أحد ثمرة الإيثار مثل ما يجنيها صاحب هذا المقام ، فإن ثمرة الإيثار على قدر من تؤثره على نفسك ، والذي تؤثره على نفسك هنا إنما هو الحق ــ **الوجه الثاني** ــ النون الثانية نون الوقاية ، وهو تعالى الواقي ، فهو نون الوقاية ، وهو ضمير الياء ، فهذه إضافة الشيء إلى نفسه ، يروى أن موسى لما جاء من عند ربه كساه الله نوراً على وجهه يعرف به صدق ما ادعاه ، فما رآه أحد إلا عمي من شدة نوره ، فكان يتبرقع حتى لا يتأذى الناظر إلى وجهه عند رؤيته .

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾

السؤال عن الضروريات ما يكون من العالِم بذلك إلا لمعنى غامض ، وهو في هذه المسئلة تعليم موسى خلع الصور من الجوهر وإلباسه صوراً غيرها ، ليعلمه أن الأعيان ــ أعيان الصور ــ لا تنقلب ، فإنه يؤدي إلى انقلاب الحقائق ، وإنما الإدراكات تتعلق بالمدركات ، تلك المدركات لها صحيحة لا شك فيها ، فيتخيل من لا علم له بالحقائق أن الأعيان انقلبت ، وما انقلبت ، فقال تعالى لموسى عليه السلام « وما تلك بيمينك يا موسى » فقال في تحقيق كونها عصا .

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

كل ذلك من كونها عصا ، أرأيتم أنه أعلم الحق تعالى بما ليس معلوماً عند الحق ؟ وهذا جواب علم ضروري عن سؤال معلوم مُدْرَك بالضرورة ، فقال له .

قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ يعني من يدك ، مع تحققك أنها عصا .

فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾

« فألقاها » موسى من يده في الأرض « فإذا هي » يعني تلك العصا « حية تسعى » فلما خلع الله على العصا ــ أعني جوهرها ــ صورة الحية ، استلزمها حكم الحية وهو السعي ، حتى يتبين لموسى عليه السلام بسعيها أنها حية ، ولولا خوفه منها خوف الإنسان من الحيات ، لقلنا إن الله أوجد في العصا الحياة فصارت حية من الحياة ، فسعت لحياتها على بطنها ، إذْ لم يكن لها رجل تسعى بها ، فصورتها لشكلها عصا صورة الحيات ، فلما خاف منها للصورة على مجرى العادة في النفوس أنها تخاف من الحيات إذا فاجأتها ، لما قرَنَ الله بها من الضر لبني آدم ، وما علم موسى مراد الله في ذلك ولو علمه ما خاف ، فقال له الحق :

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

« قال خذها ولا تخف » وهذا هو خوف الفجأة إذ كان ، ثم قال له « سنعيدها » الضمير يعود على العصا « سيرتها الأولى » أي ترجع عصاً مثلما كانت ، فالآية محتملة ، فإن الضمير الذي في قوله عز وجل « سنعيدها سيرتها الأولى » إذا لم تكن عصاً في حال كونها في نظر موسى حية ، لم يجد الضمير على مَنْ يعود ، فجواهر الأشياء متماثلة وتختلف بالصور والأعراض ، والجوهر واحد ، فالأعيان لا تنقلب ، فالعصا لا تكون حية ولا الحية عصا ، ولكن الجوهر القابل صورة العصا قبل صورة الحية ، فهي صور يخلعها الحق القادر الخالق عن الجوهر إذا شاء ويخلع عليه صورة أخرى ، ومن هنا يُعلَم تجلي الحق في القيامة في صورة يتعوذ أهل الموقف منها وينزهون الحق عنها ، ويستعيذون بالله منها وهو الحق ما هو غيره ، وذلك في أبصارهم ، فإن الحق منزه عن قيام التغيير به والتبديل ، وقدّم الله هذا لموسى عليه السلام توطئة لما سبق في علمه سبحانه أن السحرة تظهر لعينه مثل هذا ، فيكون عنده علم من ذلك حتى لا يذهل ولا يخاف إذا وقع منهم عند إلقائهم حبالهم وعصيهم وخيل إلى موسى أنها تسعى ، يقول له : فلا تخف إذا رأيت ذلك منهم ، يقوي جأشه ــ **إشارة ــ**

« سنعيدها سيرتها الأولى » بشرى لموسى عليه السلام بمقام الفنا وتصحيح اللقا ، فالعَوْدُ رجوع إلى الأصل .

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾

إشارة ــ فيه تنبيه للإنسان أنه عند خروجه من الغيب من العلل بريء ، فإنه خرج من الغيب طاهراً نقياً ، وما تدنس إلا بمصاحبة الكون والحدث ، ولذلك قيل : كل مولود يولد على الفطرة .

لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾

قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ قال موسى ذلك لربه حين بعثه لفرعون .

وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

فعلم موسى عليه السلام ما قال ، وعلمنا نحن من هذا القول ما أشار به ، ليفهم عنه صاحب عين الفهم معنى التعاون وظهور حكم الأسباب في المسببات ، فلا يزيل حكمها إلا جاهل .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾

أرشد الحق تعالى أم موسى عليه السلام عند الخوف أن تلقيه من يدها وتخرجه عن حفظها ، فإن الله تعالى يتولاه بحفظه ويبقيه برحمته ، وأما قوله تعالى « ولتصنع على عيني » أي على حكم آيتي التي أوحيتها إلى أمك (أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) . ويؤيد أن المراد ذلك كونه جعل ظرف صنعه على عينيه . ــ **إشارة** ــ أُلقي موسى عليه السلام في التابوت لأن الحكمة ما ظهرت إلا بوجود الناسوت ، وإلقاؤه في اليم إشارة إلى العلم ، أمّا كيف يصح اليم مع العلم ، لأنه لولاه ما صح عند ذوي الفهم ، قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ولذلك العلم تحيا به القلوب .

إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

« وفتناك فتوناً » أي اختبره في مواطن كثيرة ، ليتحقق في نفسه صبره على ما ابتلاه الله به . « فرجعناك إلى أمك كي تقرعينها ولا تحزن » ولتعلم أن وعد الله حق .

وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾

ليس لصنعة شرف أعلى من إضافتها إلى صانعها ، ولهذا لم يكن لمخلوق شرف إلا بالوجه الخاص الذي له من الحق ، لا من جهة سببه المخلوق مثله ، وأرفع المنازل عند الله أن يحفظ الله على عبده مشاهدة عبوديته دائماً ، سواء خلع عليه من الخلع الربانية شيئاً أو لم يخلع ، فهذه أشرف منزلة تعطى لعبد ، وهو قوله « واصطنعتك لنفسي » وقوله (سبحان الذي أسرى بعبده) فقرن معه تنزيهه .

ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ

طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

« فقولا له قولاً ليناً » هو عين المداراة ، لأنه ما يؤمر بلين المقال إلا من قوته أعظم من قوة من أرسل إليه وبطشه أشد ، فإنه يأتي باللين ما يأتي بالقهر والفظاظة ، ولا يأتي بالقهر ما يأتي باللين ، فإن القهر لا يأتي بالرحمة والمودة في قلب المقهور ، وباللين ينقضي المطلوب ، وتأتي المودة فتلقيها في قلب من استملته باللين ، وصاحب اللين لا يُقاوَم ، فإنه لا يقاوم لما يعطيه اللين من الحكم ، ولما علم الحق أنه قد طبع على كل قلب مظهر للجبروت والكبرياء ، وأنه في نفسه أذل الأذلاء ، أمر موسى وهارون عليهما السلام أن يعاملا فرعون بالرحمة واللين ، لمناسبة باطنه واستنزال ظاهره من جبروته وكبريائه ، « لعله يتذكر » ما نسي مما كان قد علم من امتناننا عليه ، ويتذكر بما يقابله من اللين والمسكنة ما هو عليه في باطنه ، ليكون الظاهر والباطن على السواء « أو يخشى » أو يخاف مما يعرفه من أخذنا وبطشنا الشديد بمن قال مثل مقالته ممن تقدمه وحصل عنده العلم به ، فهذا جدل في الله ليّن مأمور به وتعطف ، ولعل كلمة ترجي ، والترجي من الله إذا ورد واقع بلا شك ، ولهذا قال العلماء : إن كلمة عسى من الله واجبة ؛ فعلم الله أنه يتذكر ، والتذكر لا يكون إلا عن علم سابق منسي ، فالترجي من الله واقع كما قالوا في عسى ، فإن لعل وعسى كلمتا ترج ، ولم يقل تعالى لموسى وهارون : لعله يتذكر أو يخشى في ذلك المجلس ولابد ؛ ولا خلّصه للاستقبال الأخراوي ، فإن الكل يخشونه في ذلك الموطن ، فجاء بفعل الحال الذي يدخله الاحتمال بين حال الدنيا وبين استقبال التأخير للدار الآخرة ، وذلك لا يكون مخلصاً للمستقبل إلا بالسين أو سوف ، ولما كان لعل وعسى من الله واجبتين ، وقد ترجى من فرعون التذكُّر والخشية ، فلابد أن يتذكر فرعون ذلك في نفسه وأن يخشى ، والذي تُرجي من فرعون وقع ، لأن ترجيه تعالى واقع ، فإن تلك الخميرة ما زالت معه تعمل في باطنه ـــ مع الترجي الإلهي الواجب وقوع المترجى ـــ ويتقوى حكمها ، إلى حين انقطاع يأسه من أتباعه ، وحال الغرق بينه وبين أطماعه ، فلجأ إلى ما كان مستسراً في باطنه من الذلة والافتقار ، ليتحقق عند المؤمنين وقوع الرجاء الإلهي ، كما أخبر الله فقال (آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فأظهر حالة باطنه وما كان في قلبه من العلم الصحيح بالله ، فهذا يدلك

على قبول إيمانه ، لأنه لم ينص إلا على ترجي التذكر والخشية ، لا على الزمان ، إلا أنه في زمان الدعوة ، ووقع ذلك في زمان الدعوة في الحياة الدنيا ، ولكن لم يظهر من ذلك شيئاً على ظاهره في المجلس ، وإن كان قد حَكَم التذكُّر والخشية على باطنه ، فلم يبطش بموسى ولا بأخيه في المجلس ، فإنه صاحب السلطان والقهر في ذلك الوقت ، فما منعه إلا ما قام به من التذكّر والخشية من الحق ، وكان القول باللين من جنود الله ، قابل بها جنود باطن فرعون ، فهزمهم بإذن الله ، فتذكر وخشي لما انهزم جيشه الذي كان يتقوى به ، فذل في نفسه ، فشغلته تلك الذلة والمعرفة عن أن يحكم بقوة ظاهره فلم يبطش بهما في المجلس ، فإن موسى عليه السلام ما قال (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) إلا لعدم التكافؤ في القوة الظاهرة ، فأمرهما الله تعالى أن يقولا له قولاً ليناً ــ والقول يقبل اللين والخشونة ــ ليقابل به غلظة فرعون ، فينكسر لعدم المقاوم ، إذ لم يجد قوة تصادم غلظته ، فعاد أثرها عليه فأهلكته بالغرق .

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾

أرسل الله تعالى موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وهو الذي فر منه موسى خوفاً ، فكان خوفه عليه السلام من السبب الموضوع ، فأرسله الحق إليه تنبيهاً أن الخوف يكون من الله ، إذ لا قدرة مؤثرة للممكن في إيصال خير أو شر إلى ممكن آخر ، وأن ذلك كله بيد الله ، فلما أمرهما بالذهاب إلى فرعون « قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » فأظهرا أن الخوف من فرعون باق معهما ، وقولهما « أن يفرط علينا » أي يتقدم علينا بالحجة بما يرجع إليه من التوحيد « أو أن يطغى » أي يرتفع كلامه لكونه يقصد عين الحقيقة فنتعب معه ، أو يرتفع بالحجة إذ له الملك والسلطان ، فقال الله لهما :

قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

« قال لا تخافا إنني معكما » وهذه معية اختصاص لموسى وهارون عليهما السلام ، فهذه بشرى لهما حتى لا يخافا ، فآمنهما الله مما خافا منه « أسمع وأرى » من وجوه ــ **الوجه الأول** ــ أسمع دعاءكما فأجيبكما ، وأرى من كونه تعالى بصيراً بأمور عباده ، وهو البصر

الذي يعطي الأمان ، لا أنه يشهده ويراه فقط ، فإنه يراه حقيقة سواء نصره أو خذله أو اعتنى به أو أهمله ــ **الوجه الثاني** ــ أسمع من فرعون إذا بلغتما إليه رسالة ربكما ، وأرى ما يكون منكما في حقه مما أوصيتكما به من اللين والتنزل في الخطاب ــ **الوجه الثالث** ــ نبههما على أنه سمعهما وبصرهما ، تذكرة لهما أو إعلاماً ، لم يتقدمه علم به عندهما ، فإنه قد صح عندنا في الخبر أن العبد إذا أحبه ربه كان سمعه وبصره الذي يسمع به ويبصر به ، والنبي أولى بهذا ممن ليس بنبي .

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

فلم يجد فرعون على مَنْ يتكبر ، لأن التكبر من المتكبر إنما يقع لمن يظهر له بصفة الكبرياء ، فلما رأى ما عندهما من اللين في الخطاب رق لهما وسرت الرحمة الإلهية بالعناية الربانية في باطنه ، فعلم أن الذي أرسلا به هو الحق ، لذلك لما قالا له صلى الله عليهما ما قالاه على الوجه الذي عهد إليهما الله أن يقولاه .

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

لما سأل فرعون موسى وهارون عليهما السلام هذا السؤال ، دلّ سؤاله أنه يريد أن يتنبه الحاضرون لما يقولانه مما يكون دليلاً على وجود الله ، ليعلموا صدقهما ، لأن العاقل إذا علم أنهما إذا قالا مثل قولهما ربما أن الخواطر تتنبه ويدعوهم قولهما إلى النظر فيه ، لنصبهما في قولهما مواضع الدلالة على الله ، فإنه لا يسأل خصمه ، فدل سؤاله أنه يريد هداية من يفهم من قومه ما جاءا به ، فأجابا عليه بما يستحقه الرب وهي هذه الصفة .

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

قال موسى عليه السلام ذلك مجيباً فرعون على سؤاله ، فأخبر بإحاطة علم الله ، و لم يكن ذلك لفرعون مع دعواه الربوبية ، فعلم فرعون ما قالاه وسكت ، وتبين له أنه الحق ، لكن حب الرياسة منعه من الاعتراف « الذي أعطى كل شيء خلقه » . اعلم أن العطاء منه واجب ومنه امتنان ، فإعطاء الحق العالم الوجود امتنان ، وإعطاء كل موجود من العالم خلقه واجب ، فإن أداء الحقوق نعت إلهي طولب به الكون ، قال تعالى « الذي أعطى كل شيء خلقه » فذلك حق ذلك الشيء الذي له عند الله من حيث ذاته ، فهو حق ذاتي ، وأعطى كل شيء خلقه يعني في نفس الأمر ، فَخَلْقُ كل شيء حقه أي كماله ، وهو عين كمال ذلك الشيء فما نقصه شيء لأنه لا يصدر عن الكامل شيء إلا على كماله اللائق به ، فما في العالم نقص أصلاً ، فالكمال للاشياء وصف ذاتي وهو جماله ، إذ لو نقص منه شيء لنزل عن درجة كمال خلقه فكان قبيحاً ، فليس في الإمكان أجمل ولا أبدع ولا أحسن من العالم ، ولو أوجد ما أوجد إلى مالا يتناهى ، لأن الحسن الإلهي والجمال قد حازه وظهر به ، والنقص أمر عرضي ، كالمرض له كمال في ذاته ، والكمال هنا بمعنى التمام ، لأن الكمال هو المطلوب لا التمام ، فإن التمام في الخلق ، والكمال فيما يستفيده التام ويفيده ، قال تعالى « الذي أعطى كل شيء خلقه » فقد تم ، ومن ذلك النقص ، فقد أعطى النقص خلقه أن يكون ناقصاً ، فالزيادة على النقص الذي هو عينه ، لو كانت لكانت نقصاً فيه و لم يعط النقص خلقه ، فتمام النقص أن يكون نقصاً ، فالوجود كله عطاء .

ليس عند الله منع كل ما منه عطاء
فإذا ما قيل منع لم يكن إلا عطاء
فأنا ما بين شيئين غطاء ووطاء
وأنا لكل ما في الكون من خير وعاء

وميّز الله كل شيء في العالم بأمر ، ذلك الأمر هو الذي ميزه عن غيره ، وهو أحدية كل شيء ، فما اجتمع اثنان في مزاج واحد ، قال أبو العتاهية :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وليست سوى أحدية كل شيء ، فما اجتمع اثنان قط فيما يقع به الامتياز ، ولو وقع

الاشتراك فيه ما امتازت ، وقد امتازت ، فأعطى كل شيء خلقه مما تقتضيه الحكمة الإلهية ما يستحقه ، وهو ما يقوّم ذات ذلك الشيء من الفصول المقومة لذاته ، وأما ما تطلبه تلك الفصول من اللوازم والأعراض فما أعطاه ذلك ، لأن أعراض كل ذات لا تتناهى ما دام موصوفاً بالبقاء في الوجود ، وما لايمكن فيه التناهي لا يصح أن يدخل في الوجود ، بل على التتالي والتتابع والطالب بالسؤال المحق ، هو الذي لا يطلب مالا تستحقه ذاته من لوازمها وأعراضها ، كمن ليس حقيقته أن يقبل التفكر فيطلب أن يتصف بالفكر ، فما هو محق في طلبه ، فإذا طلبه الإنسان إذا كان الغالب عليه الوقوف مع المحسوسات ، فطلب الاشتغال بالتفكُّر في خلق السموات والأرض وجميع الآيات فهو محق في طلبه ، صادق الدعوى في نفي التفكُّر عنه ، لاستيلاء الغفلة عليه ، فطلبه هذا لا يعارض « أعطى كل شيء خلقه » فله أن يطلب ما تستحقه ذاته من لوازمها وأعراضها ، فهذا هو المحق الذي لا يعارض طلبه حقه الذي يستحقه بذاته ، فينبغي لك أن تعلم كيف تسأل ؟ وماذا تسأل فيه ؟ ومن أوصاف المحق أن لا يسأل إلا من بيده قضاء ذلك الحق المسؤول ، فلا تعارض في هذه الآية بين الطلب بالسؤال ما يستحقه من اللوازم والأعراض وبين قوله تعالى « أعطى كل شيء خلقه » من الفصول المقومة لذاته ، وتدل هذه الآية على أن كل شيء في استقامة حاصلة تطلبها حكمة الله السارية في كل كون ، فاستقامة النبات أن تكون حركته منكوسة ، واستقامة الحيوان أن تكون حركته أفقية ، وإن لم يكن كذلك لم ينتفع بواحد منهما ، لأن حركة النبات إن لم تكن منكوسة حتى يشرب الماء بأصولها لم تعط منفعة ، إذ لا قوة له إلا كذلك ، وكذلك الحيوان لو كانت حركته إلى العلو وقام على رجلين مثلنا ، لم يعط فائدة الركوب وحمل الأثقال على ظهره ، ولا حصلت به المنفعة التي تقع بالحركة الأفقية ، فاستقامته ما خلق له ، فهي الحركة المعتبرة التي تقع بها المنفعة المطلوبة ، وإلا فالنبات والحيوان لهما حركة إلى العلو ، وهو قوله تعالى (والنخل باسقات) فلولا الحركة ما نما علواً ، وإنما غلبنا عليه الحركة المنكوسة للمنفعة المطلوبة ، فإن المتكلمين في هذا الفن ما حرروا الكلام في حقيقته ، واعوجاج القوس استقامته لما أريد له ، فما في الكون إلا الاستقامة ، وهي ما أعطي كل شيء من خلقه « ثم هدى » أي بيّن لنا بالتعريف أنه أعطى كل شيء خلقه ، وأعطى الهدى أيضاً الذي هو البيان خلقه ، فأبان الأمر لعبيده على أكمل الوجوه عقلاً وشرعاً ، بأن بيّن

الأمور على ما هي عليه بإعطاء كل شيء خلقه ، أي ما خلقه إلا بالحق ، وهو ما يجب له ، حتى لا يقول شيء من الأشياء : قد نقصني كذا ، فإن ذلك النقص الذي يتوهمه هو عرض ، عرض له لجهله بنفسه وعدم إيمانه إن كان وصل إليه قوله « أعطى كل شيء خلقه » فإن المخلوق ما يعرف كماله ولا ما ينقصه ، لأنه مخلوق لغيره لا لنفسه ، فالذي خلقه إنما خلقه له لا لنفسه ، فما أعطاه إلا ما يصلح أن يكون له تعالى ، والعبد يريد أن يكون لنفسه لا لربه ، فلهذا يقول : أريد كذا ، وينقصني كذا ؛ فلو علم أنه مخلوق لربه ، لعلم أن الله خلق الخلق على أكمل صورة تصلح لربه ، وهذا أصل الأدب الإلهي الذي طلبه الحق من عباده ، فالعالِمُ على الحقيقة هو الله الذي علم ما تستحقه الأعيان في حال عدمها ، وميّز بعضها عن بعض بهذه النسبة الإحاطية ، ومن تمام خلق الشيء تعيين زمانه ، وهو القدر ، وهي الأقدار ، أي مواقيت الإيجاد ، فأعطى كل شيء خلقه من زمانه ، فيمن يتقيد وجوده بالزمان ، ومن حاله فيمن يتقيد وجوده بالحال ، ومن صفته فيمن يتقيد وجوده بالصفة « ثم هدى » لاكتساب الكمال ، فمن اهتدى فقد كمل ، ومن وقف مع تمامه فقد حُرِم ، فما ترك الحق لمخلوق ما يحتاج إليه من حيث ما هو مخلوق تام ، فإن قلت : ففيمَ إذاً السؤال والدعاء ؟ قلنا : اعلم أن ثَمَّ تماماً وكمالاً ، فالتمام إعطاء كل شيء خلقه ، وهذا لا سؤال فيه ، ولا يلزم إعطاء الكمال ، ويتصور السؤال والطلب في حصول الكمال ، فإنها مرتبة ، والمرتبة إذا أوجدها الحق في العبد أعطاها خلقها ، وما هي من تمام المعطى إياه ولكنها من كماله ، وكل إنسان وطالب محتاج إلى كمال ، أي إلى المرتبة ، ولكن لا يتعين ، فإنه مؤهل بالذات لمراتب مختلفة ، ولابد أن يكون على مرتبة ما من المراتب ، فيقوم في نفسه أن يسأل الله في أن يعطيه غير المرتبة لما هو عليه من الأهلية لها ، فيتصور السؤال في الكمال ، وهو مما يحتاج إليه السائل في نيل غرضه ، فإنه من تمام خلق الغرض أن يوجد له متعلقه الذي يكون به كماله ، فإن تمامه تعلقه بمتعلق ما ، وقد وجد ، فإن أعطاه الله ما سأله بالغرض فقد أعطاه ما يحتاج إليه الغَرض ، وذلك هو السخاء ، فإن السخاء عطاء على قدر الحاجة ، وقد يعطيه الله ابتداء من غير سؤال نطق ، لكن وجود الأهلية في المعطى إياه سؤال بالحال ، كما تقول : إن كل إنسان مستعد لقبول استعداد ما يكون به نبياً ورسولاً وخليفة وولياً ومؤمناً ، لكنه سوقة وعدو وكافر ، وهذه كلها مراتب يكون فيها كمال العبد ونقصه ، قال ﷺ : [كمل من الرجال كثيرون ،

و لم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون] كل إنسان ما عدا هؤلاء مستعد بإنسانيته لقبول ما يكون له به هذا الكمال ، فبالأهلية هو محتاج إليه ، وللحرمان وجد السؤال ، فالكامل من علم ما يستحقه العالم منه ، فوفاه حقه ، فأعطى كل ذي حق حقه ، كما أن الله أعطى كل شيء خلقه ، من اسمه الحكيم ، فإن الذي انفرد به الحق إنما هو الخلق ، والذي انفرد به العالِمُ الكامل إنما هو الحق ، فيعلم ما يستحقه كل موجود فيعطيه حقه ، وهو المسمى بالإنصاف ، فمن أعطيته حقه فقد أنصفته ، فإن تغاليت فما كملت وأنت ناقص ، فإن الزيادة في الحد نقص في المحدود ، فلا يتعدى الكامل بالشيء رتبته ، فإن الله لما أعطى كل شيء خلقه أمر عبده أن يعطي كل شيء حقه ، وهو قولنا فيما تقدم : إن أداء الحقوق نعت إلهي طولب به الكون ، فإذا أقامه الحق تعالى في فعل من أفعاله المأمور بها أو المحجور عليه فيها ، نظر ما لها من الحق قبله ، فوفّى ذلك الفعل حقه ، فإذا كان من الأمور المأمور بفعلها أعطاها حقها في نشأتها حتى تقوم سوية الخلق معدلة النشء ، فلم يتوجه لذلك الفعل حق على فاعله ، فلله الخلق وللعبد الحق فالحق أعطى كل شيء خلقه ، والخلق أعطى كل شيء حقه ، وإن كان من الأمور المنهي عنها فحقها على هذا العبد أنه لا يوجدها ولا يظهر لها عيناً أصلاً ، فإن لم يفعل فما وفّاها حقها ، وتوجهت عليه المطالبة لها ، فلم يعط كل شيء حقه فكان محجوجاً ــ مسئلة ــ من هذه الآية ، يعرف ما تخبط فيه الناس من تفضيل الفقر على الغنى والغنى على الفقر ، والخوض في هذه المسئلة من الفضول الذي في العالم والجهل القائم به ، فإن الحالات تختلف والمنازل تختلف ، وكل حالة كمالها في وجود عينها ، فإن الله يقول « أعطى كل شيء خلقه » فما تركت هذه الآية لأحد طريقاً إلى الخوض في الفضول لمن فهمها وتحقق بها ، غير أن الفضول أيضاً من خلق الله ، فقد أعطى الله الفضول خلقه ، ثم هدى أي بين أن من قام به الفضول فهو المعبر عنه بالمشتغل بما لا يعنيه وجهله بالأمر الذي يعنيه ، والفقر في عينه كامل الخلق لاقدم له في الغنى ، والغنى في حاله كامل الخلق لا قدم له في الفقر ، ولو تداخلت الأمور لكان الفقر عين الغنى والغنى عين الفقر ، إذْ كان كل واحد منهما من مقومات صاحبه ، والضد لا يكون عين الضد ، وإن اجتمعا في أمر ما ، فلا يجتمع الغنى والفقر أبداً ، فليس للفقر منزلة عند الله في وجوده ، وليس للغنى منزلة عند العبد في وجوده ، فكما لا يقال : الله أفضل من الخلق أو الخلق

كذلك ، لا يقال : الغنى أفضل من الفقر أو الفقر أفضل من الغنى ، فالفقر صفة الخلق ، والغنى صفة الحق ، والمفاضلة لا تصح إلا فيمن يجمعهما جنس واحد ، ولا جامع بين الحق والخلق ، فلا مفاضلة بين الغنى والفقر ، قال الله تعالى في الغنى (إن الله غني عن العالمين) وقال في الفقر (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) فمن قال بعد علمه بهذا الغنى أفضل من الفقر ، أم الفقر أفضل ، كان كمن قال : من أفضل الله أم الخلق ؟ وكفى بهذا جهلاً من قائله ، وأما الذي بأيدي الناس الذي يسمونه غنى ، فكيف يكون غنى وأنت فقير إليه غير مستغن في غناك عن غناك ؟ فغناك عين فقرك ، وهذا على الحقيقة لا يسمى غنى ، فكيف تقع المفاضلة ما بين ما لَهُ وجود حقيقي وهو الفقر ، وبين ما ليس له وجود حقيقي وهو غناك ؟ وإذا سمي الإنسان غنياً فهو وصف عرضي ، والفقر له ذاتي ، فطلب المفاضلة جهل بين الوصف الحقيقي والإضافي العرضي ــ **رقيقة** ــ اعلم أن العقل من جملة الأشياء ، وقد أعطاه الله خلقه ، ولهذا ينزهه العقل ويرفع المناسبة من جميع الوجوه ، ويجيء الحق فيصدقه في ذلك بـ (ليس كمثله شيء) يقول لنا : صدق العقل فإنه أعطى ما في قوّته ، لا يعلم غير ذلك فإني أعطيت كل شيء خلقه ، وتمم الحق الآية بقوله « ثم هدى » أي بيّن ، فبين سبحانه أمراً لم يعطه العقل ولا قوة من القوى ، فذكر لنفسه أحكاماً هو عليها ، لا يقبلها العقل إلا إيماناً أو بتأويل يردها تحت إحاطته ، لابد من ذلك ، وطريقة السلامة لمن لم يكن على بصيرة من الله ، أن لا يتأول ، ويسلّم ذلك إلى الله على علمه فيه ، هذه طريقة النجاة . ثم نعود إلى قول موسى عليه السلام « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » هذا من القول اللين ، فإنه دخل تحته كل شيء ادعاه فرعون ، فأعطاه الله خلقه ، فكأن في كلامهما جواب فرعون لهما ، إذ كان ما جاء به فرعون خلق الله ، ثم زادهما في السؤال ليزيد في الدلالة .

قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

« ولا ينسى » مثل ما نسيت أنت حتى ذكرناك فتذكرت ، فلو كنت إلهاً ما نسيت ،

لأن الله تعالى قال « لعله يتذكر » ثم زادا في الدلالة بما قالا بعد ذلك إلى تمام الآية ، فما زال ذلك العلم مضمراً في نفس فرعون ، لم يعطه حب الرياسة أن يكذّب نفسه عند قومه فيما استخفهم به حتى أطاعوه ، فكانوا قوماً فاسقين ، فما شركه الله معهم في ضمير (إنهم) فلما رأى البأس قال : آمنت ، فتلفظ باعتقاده الذي ما زال معه ، فقال له الله تعالى (آلآن) قلت ذلك ، فأثبت الله بقوله (آلآن) أنه آمن عن علم محقق والله أعلم ، وإن كان الأمر فيه احتمال ، وحقت الكلمة من الله وجرت سنته في عباده ، أن الإيمان في ذلك الوقت لا يدفع عن المؤمن العذاب الذي أنزله بهم في ذلك الوقت ، إلا قوم يونس ، كما لا ينفع السارق توبته عند الحاكم فيرفع عنه حد القطع ، ولا الزاني مع توبته عند الحاكم ، مع علمنا بأنه تاب بقبول التوبة عند الله ، وحديث ماعز في ذلك صحيح أنه تاب توبة لو قسمت على أهل المدينة لوسعتهم ، ومع هذا لم تدفع عنه الحدّ ، بل أمر ﷺ برجمه ، وكذلك كل من آمن عند رؤية البأس من الكفار أن الإيمان لا يرفع نزول البأس بهم ، مع قبول الله إيمانهم في الدار الآخرة ، فيلقونه ولا ذنب لهم ، فربما لو عاشوا بعد ذلك اكتسبوا أوزاراً ، أما قول موسى عليه السلام « علمها عند ربي في كتاب » فما كتبها في اللوح المحفوظ إلا ليعلم من ليس من شأنه أن لا يعلم إلا بإعلام ، لا ليتذكر ما أوجبه على نفسه مما تُستَقبل أوقاته في المدد الطائلة ، فإنه سبحانه « لا يضل ربي » الذي جئتك من عنده لأدعوك إلى عبادته « ولا ينسى » يعني ما أوجبه على نفسه من ذلك ، ثم زادا في الدلالة .

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾

خلق الله تعالى الإنسان من تراب الأرض وجعلها محلاً للخلافة ، فهي دار ملكه وموضع نائبه الظاهر بأحكام أسمائه ، فمنها خلقنا وفيها أسكننا أحياءً وأمواتاً .

كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

« كلوا وارعوا انعامكم » أعلم أنه ما من نبات إلا وهو دواء وداء ، أي فيه منفعة ومضرة

بحسب قبول الأمزجة البدنية وما هي عليه من الاستعداد ، فيكون المضر لبعض الأمزجة عين ما هو نافع لمزاج غيرها ، لذلك قال « إن في ذلك لآيات لأولي النهي » وهم أولو نهى بما زجرهم به في خطابه ، وهم الذين يوافقون الحق فيما أمر به ونهى .

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

« منها » أي هذه الأرض « خلقناكم » فالأرض أم للإنسان فالغالب علينا عنصر التراب ، وإن كنا على جميع الطبائع كلها « وفيها نعيدكم » فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ، لذلك تضغطه عندما يدفن فيها مثل عناق الأم وضمها ولدها إذا قدم عليها من سفر ، فهو ضم محبة « ومنها نخرجكم تارة أخرى » يعني يوم البعث ــ **الوجه الثاني** ــ « منها خلقناكم » أي هذه الأرض « وفيها نعيدكم » يعني في النشأة الأخرى أيضاً كما خلقنا فيها « ومنها نخرجكم تارة أخرى » يخرجنا إخراجاً لمشاهدته ، كما أنشأنا منها وأخرجنا لعبادته ، فخلق أرواحنا في أرض أبداننا في الدنيا لعبادته ، وأسكننا أرض أبداننا في الآخرة لمشاهدته إن كنا سعداء ، كما آمنا به في النشأة الأولى لما اعتنى الله بنا ، والحال مثل الحال سواء في تقسيم الخلق في ذلك ، وكذلك يكونون غداً ، والموت بين النشأتين حالة برزخية تعمر الأرواح فيها أجساداً برزخية خيالية ، مثل ما أعمرتها في النوم ، وهي أجساد متولدة عن هذه الأجسام الترابية ، فإن الخيال قوة من قواها ، فما برحت أرواحنا منها أو مما كان منها ، ومن مات فقد قامت قيامته ، وهي القيامة الجزئية وهو قوله « وفيها نعيدكم » فإن مدة البرزخ هي للنشأة الآخرة بمنزلة حمل المرأة للجنين في بطنها ، ينشئه الله نشأ بعد نشء ، فتختلف عليه أطوار النشء إلى أن يولد يوم القيامة ، فلهذا قيل في الميت إنه إذا مات قامت قيامته ، أي ابتدأ فيه ظهور نشأة الأخرى في البرزخ إلى يوم البعث من البرزخ ، كما يبعث من البطن إلى الأرض بالولادة ، فتدبير نشأة بدنه في الأرض زمان كونه في البرزخ ليسويه ويعدله على غير مثال سبق مما ينبغي للدار الآخرة ، فيعبد الله فيها ، أعني في أرض نشأته الأخراوية عبادة ذاتية لا عبادة تكليف ، فالعاقل إذا شاهد التراب تذكر ما خلق منه ، وذكرته الأرض بنشأته وبإهانته وذلته ، فإن الأرض جعلها الله ذلولاً مبالغة في الذلة ، ولا أذل مما يطأه الأذلاء ، ونحن نطأها وجميع الخلائق ونحن عبيد أذلاء .

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾

اعلم أن من خرق العوائد قسماً منها يرجع إلى ما يدركه البصر أو بعض القوى ، على حسب ما يظهر لتلك القوة مما ارتبطت في العادة بإدراكه ، وهو في نفسه على غير ما أدركته تلك القوة ، وهذا القسم داخل تحت قدرة البشر ، ومنه ما يرجع إلى خواص أسماء ، إذا تلفظ بتلك الأسماء ظهرت تلك الصور في عين الرائي أو في سمعه خيالاً ، وما ثَمَّ في نفس الأمر أعني في المحسوس شيء من صورة مرئية ولا مسموعة ، وهو فعل الساحر ، وهو على علم أنه ما شيء مما وقع في الأعين والأسماع ، وللأسماء سلطان على خيال الحاضرين ، فتخطف أبصار الناظرين ، فيرى صوراً في خياله كما يرى النائم في نومه ، وما ثم في الخارج شيء مما يدركه ، لذا قال تعالى « يخيل إليه » يعني إلى موسى ، فإن موطن الخيال يعطي في أعين الناظرين حياة الجمادات وحركتها ، وهي في نفسها ليست بتلك الحياة التي تدركها

الأبصار ، كحبال سحرة موسى عليه السلام وعصيهم ، يخيل إلى موسى « من سحرهم » الذي سحروا به أعين الناس وعلمهم بما فعلوه ، والسحر مأخوذ من السَحَر ، وهو اختلاط الضوء والظلمة ، فالسَحَر له وجه إلى الظلمة وليس ظلاماً خالصاً ، وله وجه إلى الضوء وليس ضوءاً خالصاً ، كذلك السِحْر له وجه إلى الحق وهو ما ظهر إلى بصر الناظر آنه حق ، وله وجه إلى الباطل لأنه ليس الأمر في نفسه على ما أدركه البصر ، فلهذا سمته العرب سحراً ، وسمي العامل به ساحراً ، لا العالم به « أنها تسعى » وليست بساعية في نفس الأمر ، أقاموا ذلك في حضرة الخيال المنفصل أمام الجميع ، فرأوا العصي والحبال في صورة الحيات ، وكذلك أدركها موسى مخيلة ولا يعرف أنها مخيلة ، بل ظن أنها مثل عصاه في الحكم ، فهي ساعية في نظر موسى ونظر الحاضرين ، إلا السحرة فإنهم يرونها حبالاً ، والغريب لو وَرَدَ لرآها كما يراها السحرة ، فكان فعل السحرة عن حكم أسماء كانت عندهم ، لها في عيون الناظرين خاصية النظر إلى ما يريد الساحر إظهاره ، فله بتلك الأسماء قلب النظر لا قلب المنظور فيه ، وهذا بخلاف عصا موسى عليه السلام حين ألقاها عن الأمر الإلهي ، فانقلب المنظور فيه فتبعه النظر ، فتلك حبال نشأت بين الخيال وبين أعين الناظرين أنها تسعى ، وهي أجسام في عينها لا حكم لها في السعي ، فظهرت في عين موسى بصورة الجسم الذي له سعي ، والأمر في نفسه ليس كذلك ، وامتلأ الوادي من حبالهم وعصيهم ، ورآها موسى فيما خُيّل له حيات تسعى ، فلهذا خاف موسى عليه السلام .

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾

لم يكن نسبة الخوف إلى موسى عليه السلام في هذا الوقت نسبة الخوف الأول ، فإن الخوف الأول لما ألقى موسى عصاه فكانت حية تسعى ، خاف منها على نفسه على مجرى العادة ، فولى مدبراً ولم يعقب ، حتى أخبره الله تعالى ، وكان خوفه الثاني الذي ظهر منه للسحرة عندما ألقت السحرة الحبال والعصي فصارت حيات في أبصار الحاضرين ، كان هذا الخوف الآخر على الحاضرين من الأمة ، لئلا تظهر عليه السحرة بالحجة فيلتبس الأمر على الناس ، فلا يفرقون بين الخيال والحقيقة ، أو ما بين ما هو من عند الله وبين ما ليس من عند الله ، فاختلف تعلق الخوفين ، فإنه عليه السلام على بينة من ربه ، قوي الجأش بما

تقدم له في الإلقاء الأول (خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) أي ترجع عصاً كما كانت في عينك ، فلما خاف موسى عليه السلام على الأمة قال الله له :

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾

لما ادعى فرعون الفوقية اللائقة بالربوبية ، وهي الفوقية الحقيقية في قوله (أنا ربكم الأعلى) كذبه الله تعالى بقوله تعالى لموسى ﷺ « لاتخف إنك أنت الأعلى » لما ظهر للسحرة خوف موسى مما رآه ، وما علموا متعلق هذا الخوف أي شيء هو ؟ علموا أنه ليس عند موسى من علم السحر شيء فإن الساحر لا يخاف مما يفعله ، لعلمه أنه لا حقيقة له من خارج ، وأنه ليس كما يظهر لأعين الناظرين ، فأمر الله موسى أن يلقي عصاه وأخبر أنها تلقف ما صنعوا ، فقال تعالى :

وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

فلما ألقى موسى عصاه فكانت حية ، تلقفت تلك الحية جميع ما كان في الوادي من الحبال والعصي ، أي تلقفت صور الحيات منها المتخيلة في عيون الحاضرين ، فأبصرت السحرة والناس حبال السحرة وعصيهم التي ألقوها حبالاً وعصياً كما هي ، وأخذ الله بأبصارهم عن ذلك ، فهذا كان تلقفها ، لا أنها انعدمت الحبال والعصي ، إذ لو انعدمت لدخل عليهم التلبيس في عصا موسى ، وكانت الشبهة تدخل عليهم ، فإن الله يقول « تلقف ما صنعوا » وما صنعوا الحبال ولا العصي ، وإنما صنعوا في أعين الناس صور الحيات ، وهي التي تلقفت عصا موسى ، وما قال تعالى : تلقف حبالهم وعصيهم « إنما صنعوا كيد ساحر » أي فعلوا ما يقارب الحق ، فإن الكيد من كاد ، وكاد من أفعال المقاربة ، أي فعلوا ما يقارب الحق في الصورة الظاهرة للبصر « ولا يفلح الساحر حيث أتى » فكانت الآية عند السحرة خوف موسى وأخذ صور الحيات من الحبال والعصي ، فكان ظهور حجته على حجتهم أن بقيت حبالهم وعصيهم في صور حبال وعصي ، فلما رأى الناس الحبال حبالاً ، علموا أنها

مكيدة طبيعية يعضدها قوة كيدية روحانية ، وأما العامة فنسبوا ما جاء به موسى إلى أنه من قبيل ما جاءت به السحرة ، إلا أنه أقوى منهم وأعلم بالسحر بالتلقف الذي ظهر من حية عصا موسى ، فقالوا : هذا سحر عظيم ، ولم تكن آية موسى عند السحرة إلا خوفه وأخذ صور الحيات من الحبال والعصي خاصة ، فمثل هذا خارج عن قوة النفس ، فتخيل السحرة أن موسى خاف من الحيات ، وكان موسى في نفس الأمر غير خائف من الحيات لما تقدم له في ذلك من الله في الفعل الأول حين قال له (خذها ولا تخف) فنهاه عن الخوف منها ، وأعلمه أن ذلك آية له ، فكان خوفه الثاني على الناس لئلا يلتبس عليهم الدليل والشبهة ، والسحرة تظن أنه خاف من الحيات ، فلبّس الله عليهم خوفه كما لبّسوا على الناس ، لأن السحرة لو علمت أن خوف موسى من الغلبة بالحجة لما سارعت إلى الإيمان ، ثم أنه كان لحية موسى التلقف ولم يكن لحياتهم تلقف ولا أثر ، لأنها حبال وعصي في نفس الأمر ، فلما علمت السحرة قدر ما جاء به موسى من قوة الحجة ، وأنه خارج عما جاؤوا به ، وتحققت شفوف ما جاء به على ما جاؤوا به ، ورأوا عصاه حية حقيقة ، علموا عند ذلك أنه أمر غيب من الله الذي يدعوهم إلى الإيمان به ، وما عنده من علم السحر خبر ، لما علمت من خوف موسى أنه لو كان ذلك منه وكان ساحراً ما خاف ، لأنه يعلم ما يجري ، فآية موسى عند السحرة خوفه ، وآيته عند الناس تلقف عصاه ، وعَلِم السحرة أن أعظم الآيات في هذا الموطن تلقف هذه الصور من أعين الناظرين ، وإبقاء صورة حية عصا موسى في أعينهم ، والحال عندهم واحدة ، فعلموا صدق موسى فيما يدعوهم إليه ، وأن هذا الذي أتى به خارج عن الصور والحيل المعلومة عند السحرة ، فهو أمر إلهي ليس لموسى عليه السلام فيه تعمل ، فصدّقوا برسالته على بصيرة وآمنت السحرة ــ **إشارة لا تفسير** ــ « وألق ما في يمينك » من ألقى إرادة نفسه في بحر إرادة مولاه وميدانها ، تولاها بلطف حكمته ، وأجرى عليه سابق عنايته ، فأحياها حياة السعادة والتمليك ، فامتحق كل زور وباطل ، وخنس من دلاه بغرور ، وردّت إليه بعد ما ألقاها ، وحصل لها الشرف الكامل على أبناء جنسها ، فتلك النفس المطمئنة الراضية المرضية ، الداخلة في عباد الاختصاص ، وفي الفراديس العلية جوار الرحمن .

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

لما علمت السحرة أن الذي جاء به موسى من عند الله آمنوا بما جاء به موسى عن آخرهم ، وخروا سجداً عند هذه الآية . قيل : كانوا ثمانين ألف ساحر ، آمنوا واختاروا عذاب فرعون على عذاب الله ، وآثروا الآخرة على الدنيا ، وعلموا من علمهم بذلك أن الله على كل شيء قدير ، وقالت السحرة « آمنا برب هارون وموسى » قالت ذلك لرفع اللبس من أذهان السامعين (راجع سورة الشعراء آية ٤٧) ولهذا توعدهم فرعون بقوله :

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾

« فاقض ما أنت قاض » فالدولة لك .

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾

« والله خير وأبقى » وإلى هذا مال العارف ، أما الزاهد في الدنيا فميله إلى (وما عند الله خير وأبقى) فالزاهد صيد الحق من الدنيا ، والعارف صيد الحق من الآخرة ، فالله خير وأبقى ممن هو عنده ، وما عند الله إلا العالم ، فالله خير وأبقى ، لأن بقاء العالم إذا وصف بالوجود بإبقائه ، والحق لولا بقاء عينه ما كان للممكن حكم فيما يظهر ، فإن بقاء الحق بنفسه وبقاء العالم بإبقاء الحق تعالى .

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾

إن الحقائق تعطي أن المآل إلى الرحمة في الدار الآخرة ، فيرحم الله معنى وحساً ، فثمَّ

مَنْ تكون الرحمة به عين العافية لا غير وارتفاع الآلام ، وهذا مخصوص بأهل النار الذين هم أهلها ، فهم لا يموتون فيها ، لما حصل لهم فيها من العافية بزوال الآلام ، فاستعذبوا ذلك ، فهم أصحاب عذاب لا أصحاب ألم ، ولا يحيون أي ما لهم نعيم كنعيم أهل الجنان الذي هو أمر زائد على كونهم عافاهم الله من دار الشقاء .

وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾

في الجنة يُذهِب الله عن المؤمن الحسرة التي كان يجدها في الدنيا لما يفوته هنا وفي القيامة ، ولكن يعلم مَنْ هو أعلى منه ، قدر ما فاته من العلم والعمل الصالح ، ويرزق القناعة بحاله وما هو فيه والرضا ، فلا أدنى همة ممن يعلم أن هناك مثل هذا ولا يرغب في تحصيل العالي من الدرجات ، هذا رسول الله ﷺ قد سأل أمته أن يسألوا الله له في الوسيلة طلباً للأعلى لعلو همته ، وإن علم المحروم في الجنة ما فاته فلا يكترث له لعدم ذوقه ، وكل مَنْ تعلقت همته في الدنيا بطلب الأعلى ولم يحصل ذلك ذوقاً في الدنيا ولا كشف له فيه ، فإنه يوم القيامة يناله ولابد ، ويكون فيه كالذائق له هنا لا فرق ، وما بين الشخصين إلا ما عُجِّل له هنا من ذلك ، فالمحروم كل المحروم من لا يعلق همته هنا بتحصيل المعالي من الأمور ، ولكن لابد مع التمني من بذل المجهود ، وأما إن تمنى مع الكسل والتثبط فما هو ذلك الذي أشرنا إليه .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

فلما زال البحر بعضه عن بعض وافترق فظهر الأرض وسكن البحر ، غرَّ ذلك فرعون قال تعالى :

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾

فانطبق البحر عليهم فأهلكهم بما أنجى به بني إسرائيل .

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ ﴿٧٩﴾

لما كان نسبة الأفعال إلى المخلوقين فيها إشكال ، قال تعالى « وأضل فرعون قومه » فنسب الإضلال لفرعون ، وما نسبه إلى قومه فإنه عندهم ذو فعل ، ونفس الأمر كذلك ، وقوله « وما هدى » أي ما بيّن لهم طريق الحق ، فإنه موضع لَبْس لكونه ذا أفعال ، فلو كان المعبود جماداً ما وقع اللبس ، ومع ذلك لا يُعْذَر قوم فرعون ، فإن خاصية الفعل في المخلوق لا تكون سارية في كل شيء حتى تضاف إليه الأفعال كما تضاف إلى الله ، وبهذا القدر من الجهل أُخِذ عبدة المخلوقين ذوي الأفعال كفرعون وغيره ، وهذه الآية والتي قبلها تكذيب من الحق لفرعون في دعواه القهر لبني اسرائيل ، لما قال (سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ ﴿٨١﴾

« ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي » فأضاف الغضب إليه ، وإذا نزل بهم كانوا محلاً له ، فهم محل الغضب وهو النازل بهم ، فإن الغضب هنا هو عين الألم ، وجهنم إنما هي مكان لهم ، وهم النازلون فيها « ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى » فالغضب الإلهي جعله يهوي ، فإذا هوى وهو السقوط ـــ وهو حكم الغضب لا غير ـــ فيسقط في الرحمة فتسعه وتتلقاه ، فلا يسقط إلا إليها ، وبالرحمة التي في الغضب سقط ، فهي التي جعلت الغضب يهوي به لتستلمه الرحمة الخالصة ، ولهذا كان المآل إلى الرحمة وحكمها وإن لم يخرجوا من النار ، فلهم فيها نعيم ، والله على كل شيء قدير ، وهو القائل (ورحمتي وسعت كل شيء) والغضب من الأشياء التي وسعته الرحمة ، فما ثَمَّ غضب خالص غير مشوب برحمة ، والرحمة لا يشوبها غضب .

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (٨٢)

إذا صح التوحيد فهو المطلوب من كل موجود ، فكيف إذا انضاف إلى ذلك أداء العبادات المشروعة في الحركات الخارجة والداخلة ؟

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (٨٣)

لما قال الله عز وجل لموسى عليه السلام « وما أعجلك عن قومك يا موسى » أضرب موسى عليه السلام عن الجواب ، وجوابه أن يقول : أعجلني كذا وكذا ويبين ، فـ :

﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (٨٤)

« قال هم أولاء على أثري » يشير إلى حكم الأتباع ، ثم ذكر عجلته فقال « وعجلت إليك رب لترضى » أي سارعت إلى إجابة دعائك حين دعوتني ، وقومي على أثري ، فعَجِل موسى عليه السلام للأمر ليكون من المسارعين إلى الخيرات ، وإلا لو عجل من غير أمر لكانت عجلته إلى هواه ، وهو عليه السلام كان من العارفين المحققين ، وإنما عجل للأمر الإلهي . فقال عز وجل :

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ (٨٥)

« فإنا قد فتنا قومك من بعدك » أي اختبرناهم « وأضلهم السامري » بالعجل الذي قال لهم في شأنه (هذا إلهكم وإله موسى) وسبب ذلك أنه لما مشى مع موسى عليه السلام ، كشف الله عن بصره حتى أبصر الملك الذي هو على صورة الثور من حملة العرش ، فتخيل أنه إله موسى الذي يكلمه ، فأخرج لهم العجل ، وعلم أن قلوبهم تابعة لأموالهم ، فصاغ لهم العجل بمرآى منهم من حليهم ، فسارعوا إلى عبادته حين دعاهم إلى ذلك ـــ **إشارة** ـــ فتن قوم موسى من بعده ، ضيافة من السيد لعبده ، فإن ابتلاءه بذلك ضيافته ، ولا يبتلى مثل الأنبياء إلا في ربه ، ولابد للقادم من كرامة ، فكانت كرامته ما أصابه من الغيرة في حق الله حين رجع إلى قومه ، فوجدهم قد عبدوا غيره ، فكانت منزلته على قدر غيرته ،

فتلك ضيافته سبحانه لعبده .

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾

« فرجع موسى إلى قومه غضبان » على قومه « أسفاً » عليهم لما فعلوه من اتخاذهم العجل إلهاً ، فقال ما ذكر الله عنه .

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ ﴾

وإنما كان عجلاً لأن السامري لما مشى مع موسى عليه السلام في السبعين الذين مشوا معه ، كشف الله عنه غطاء بصره ، فما وقعت عينه إلا على المَلَك الذي على صورة الثور ، وهو من حملة العرش ، لأنهم أربعة : واحد على صورة أسد ، وآخر على صورة نسر ، وآخر على صورة ثور ، ورابع على صورة إنسان ؛ فلما أبصر السامري العجل تخيل أنه إله موسى الذي يكلمه ، فصور لهم العجل وصاغه من حليهم ليتبع قلوبهم أموالهم ، لعلمه أن المال حبه منوط بالقلب ، وعلم أن حب المال يحجبهم أن ينظروا فيه ، هل يضر أو ينفع ؟ أو يرد عليهم قولاً إذا سألوه ؟ وكان قد عرف جبريل حين جاءه ، وأنه لا يمر بشيء إلا حيي بمروره ، فقبض قبضته من أثر فرس جبريل ، ورمى بها في العجل فحيي العجل وخار لأنه عجل ، والخوار صوت البقر ــ **إشارة** ــ « فقبضَ قبضة من أثر الرسول » ظهر من قبضة الأثر في العجل خوار ، تنبيه على أن الحياة في سلوك الآثار ، أي أن حياة القلوب في اتباع الشرائع ، وذلك أنه إذا اتبعها رزقه الله علماً يحيا به قلبه . « فقالوا » قال لهم « هذا إلهكم وإله موسى فنسي » أي ونسي السامري إذا سأله عابدوه أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، فقال تعالى :

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

أي إذا سئل لا ينطق ، والله يكون متصفاً بالقول « ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً » أي لا ينتفعون به ، ومن لا يدفع الضر عن نفسه كيف يدفع الضر عن غيره ؟

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾

« إنما فتنتم به » أي اختبرتم به لتقوم الحجة لله عليكم إذا سئلتم « وإن ربكم الرحمن » ومن رحمته بكم أن أمهلكم ورزقكم مع كونكم اتخذتم إلهاً تعبدونه غيره سبحانه ، ثم قال لهم « فاتبعوني » لما علم أن في اتباعهم إياه الخير « وأطيعوا أمري » لكون موسى عليه السلام أقامه فيهم نائباً عنه .

قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

« قالوا لن نبرح عليه » يريدون عبادة العجل « عاكفين » أي ملازمين « حتى يرجع إلينا موسى » الذي بُعِث إلينا وأمرنا بالإيمان به ، فحجبهم هذا النظر أن ينظروا فيما أمرهم به هارون عليه السلام ، فلما رجع موسى إلى قومه وجدهم قد فعلوا ما فعلوا ، فألقى الألواح من يده ، وَ : ــ

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾

وأخذ برأس أخيه يجره إليه عقوبة له بتأنيه في قومه ، فناداه هارون عليه السلام بأمه فإنها محل الشفقة والحنان .

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

لما ظهر موسى عليه السلام على أخيه هارون عليه السلام بصفة القهر ، بأن أخذ برأسه يجره إليه ، ناداه بأشفق الأبوين فقال « يبنؤم » فناداه بالرحم وهي الأم ، إذ كانت الرحمة للأم دون الأب أوفر في الحكم ، ولو لم يلق موسى الألواح ما أخذ برأس أخيه ، فإن في نسختها الهدى والرحمة تذكرة لموسى ، فكان يرحم أخاه بالرحمة ، وتتبين مسألته مع قومه بالهدى « إني خشيت » لما وقع ما وقع من قومك أن تلومني على ذلك وتقول « فرقت بين بني إسرائيل و لم ترقب » أي تلزم « قولي » الذي أوصيتك به ، فتجعلني سبباً في تفريقهم ، فإن عبادة العجل فرقت بينهم ، فكان منهم من عبده اتباعاً للسامري وتقليداً له ، ومنهم من توقف عن عبادته حتى يرجع موسى إليهم فيسألونه في ذلك ، فخشي هارون أن ينسب ذلك الفرقان بينهم إليه ، ولما سكت عن موسى الغضب قبل عذر أخيه وأخذ الألواح ، فما وقعت عيناه مما كتب فيها إلا على الهدى والرحمة ، فقال (رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) . وأما الذين عبدوا العجل فما أعطوا النظر الفكري حقه للاحتمال الداخل في القصة ، فما عذرهم الحق ولا وفّى عابدوه النظر في ذلك ، ثم رَدَّ موسى وجهه إلى السامري .

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ أي ما حديثك يا سامري .

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾

« قال » له السامري « بصرت بما لم يبصروا به » وهو ما رآه من صورة الثور الذي هو أحد حملة العرش ، فظن أنه إله موسى الذي يكلمه ، فلذلك صنعت لهم العجل ، وعلمت أن جبريل ما يمر بموضع إلا حيي به لأنه روح ، « فقبضت » لذلك « قبضة من أثر الرسول » جبريل ، لعلمه بتلك القبضة ، « فنبذتها » في العجل فخار « وكذلك سولت لي نفسي » فما فعله السامري إلا عن تأويل ، فضل وأضل . من ذلك تعلم أن حياة الأرواح ذاتيةٌ ، ولهذا يكون كل ذي روح حياً بروحه ، قال ابن عباس : ما وطىء جبريل عليه السلام قط موضعاً من الأرض

إلا حيي ذلك الموضع ؛ وما يطؤه الروح يعطي الحياة في أي صورة مركبة ، فلما أبصر السامري جبريل عليه السلام حين جاء لموسى عليه السلام وعرفه ، وعلم أن روحه عين ذاته ، وأن حياته حياة ذاتية ، فلا يطؤ موضعاً إلا حيي ذلك الموضع بمباشرة تلك الصورة الممثلة إياه ، وعلم أن وطأته يحيا بها ما وطئه من الأشياء ، فقبض قبضة من أثر الرسول ، بالصاد أو الضاد ، أي بملء أو بأطراف أصابعه ، فلما صاغ العجل وصوره ، نبذ فيه تلك القبضة فحيي ذلك العجل وخار ، إذ صوت البقر إنما هو خوار ، وكان ذلك من إلقاء الشيطان في نفس السامري ، لأن الشيطان يعلم منزلة الأرواح ، فوجد السامري في نفسه هذه القوة ، وما علم أنها من إلقاء إبليس ، فقال « وكذلك سولت لي نفسي » وفعل ذلك إبليس من حرصه على إضلاله بما يعتقده من الشريك لله تعالى .

قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

وإذا حرقه ونسفه لم ينتفع به ، فإنه لو أبقاه دخلت عليهم الشبهة بما يوجد في الحيوان من الضرر والنفع ، فحرقه ثم نسف رماد تلك الصورة في اليم نسفاً

إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

هذا التوحيد هو الثامن عشر في القرآن ، وهو توحيد السعة من توحيد الهوية ، وهو توحيد تنزيه ، لئلا يتخيل في سعته الظرفية للعالم ، فقال إن سعته علمه بكل شيء لا أنه ظرف لشيء ، وسبب هذا التوحيد لما جاء في قصة السامري قوله عن العجل لما نبذ فيه ما قبضه من أثر الرسول ، فكان العجل ظرفاً لما نبذ فيه ، فلما خار العجل قال السامري (هذا إلهكم وإله موسى) فقال موسى « إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو » لا تركيب فيه ، وسع كل شيء علما « أي هو عالم بكل شيء » أكذب السامري في قوله ، ونصب لهم الدلالة على كذب السامري مع كون العجل خار .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾

كون القرآن ذكر فلما فيه من آيات الاعتبارات وقصص الأمم في إهلاكهم بكفرهم .

مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

الضمير في خالدين فيه يعود على الوزر لا على العذاب ، وهذا في موطن من مواطن الآخرة ، إذا أقيموا في حمل الأثقال التي هي الأوزار يحملونها ، وهو زمان مخصوص ، فيقول تعالى « خالدين فيه » أي في حمل الوزر في الموضع الذي يحملونه ، من خروجهم من قبورهم إلى أن يصلوا به إلى النار فيدخلونها ، فهم خالدون فيه في تلك المدة ، لا يفتر عنهم ولا يأخذه من على ظهورهم غيرهم ، فأعاد الحق الضمير على الوزر وجعله ليوم القيامة هذا الحمل ، ويوم القيامة مدته من خروج الناس من قبورهم إلى أن ينزلوا منازلهم من الجنة والنار ، وينقضي ذلك اليوم فينقضي بانقضائه جميع ما كان فيه ، ومما كان فيه الخلود في حمل الأوزار ، ولذلك فإن هذه الآية ما هي بنص في خلود العذاب ، فإنه ما ورد في العذاب شيء يدل على الخلود فيه كما ورد في الخلود في النار ، قال (خالدين فيها) يعني في النار ، ولم يقل : فيه ؛ فيريد العذاب ، ولما أعاد الضمير في خالدين فيها على الدار لم يلزم العذاب .

يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾

الصور جمع صورة ، وهو الحضرة البرزخية التي ننتقل إليها بعد الموت وَنَشْهد نفوسنا فيها ، ولما سئل رسول الله ﷺ عن الصور : ما هو ؟ قال ﷺ [هو قرن من نور ألقمه إسرافيل] فأخبر أن شكله شكل القرن ، فوصف بالسعة والضيق ، فهو في غاية السعة ، لا شيء من الأكوان أوسع منه ، وضيقُه من أنه لا يجرد المعاني عن المواد أصلاً ، فلا يقبلها إلا في صورة . واعلم أن الله سبحانه إذا قبض الأرواح من هذه الأجسام الطبيعية حيث كانت والعنصرية ، أودعها صوراً جسدية في مجموع هذا القرن النوري ، فجميع ما يدركه الإنسان

بعد الموت في البرزخ من الأمور إنما يدركه بعين الصورة التي هو فيها في القرن وبنورها ، وهو إدراك حقيقي ، ومن الصور هنالك ما هي مقيدة عن التصرف ، ومنها ما هي مطلقة كأرواح الأنبياء كلهم وأرواح الشهداء ، ومنها ما يكون لها نظر إلى عالم الدنيا في هذه الدار ، وكل إنسان في البرزخ مرهون بكسبه ، محبوس في صور أعماله إلى أن يُبعث يوم القيامة من تلك الصورة في النشأة الآخرة .

يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾

وهذه صفة أرض الآخرة ، وهو قوله ﷺ [إن الله يمد الأرض مدَّ الأديم] وهو بسط قبضه وفرش نتوئه ، فتبسط الأرض فلاترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، فيأخذ البصر جميع مَنْ في الموقف بلا حجاب من ارتفاع وانخفاض ، ليرى الخلق بعضهم بعضاً ، فيشهدوا حكم الله بالفصل والقضاء في عباده .

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

« وخشعت الأصوات للرحمن » هذا مع الاسم الرحمن ، فكيف يكون الحال مع الجبار ؟

خشوع حياء لا خشوع مهانة وهيبة إجلال وقبض تأدب

حكم اقتضاه الموطن ، بإشارة عين وخفي صوت ، من علو الهيبة الإلهية يوم العرض ، فقد ألجم الناس العرق وعظم الخطب وجل الأمر وكان البهت « فلا تسمع إلا همساً » أي صوتاً خفياً ، خشوعاً لله تعالى وخضوعاً ، فإن الهمس إسماع من قصدته بالإسماع خاصة .

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

فهو سبحانه لا يحيط به علم ، تقدَّس وتعالى عن أن يحيط به علم الممكن أو تكون ذاته تعطي الإحاطة فهو المحيط ولا يحيط به شيء ، إذ لو أحاط به شيء لحصره ذلك الشيء ، فإن القوى الحسية والخيالية تطلبه بذواتها لترى موجدها ، والعقول تطلبه بذواتها وأدلتها من نفي وإثبات ووجوب وجواز وإحالة لتعلم موجدها ، فخاطب الحواس والخيال بتجريده الذي دلت عليه أدلة العقول (ليس كمثله شيء) والحواس تسمع ، فحارت الحواس والخيال وقالت : ما بأيدينا منه شيء ، وخاطب العقول بتشبيهه الذي دلت عليه الحواس والخيال (وهو السميع البصير) والعقول تسمع ، فحارت العقول وقالت : ما بأيدينا منه شيء ، فَعَلَا عن إدراك العقول والحواس والخيال ، وانفرد سبحانه بالحيرة في الكمال ، فلم يعلمه سواه ولا شاهده غيره ، فلم يحيطوا به علماً ولا رأوا له عيناً ، فآثار تُشهَد ، وجَنابٌ يُقصَد ، ورتبة تُحمَد ، وإله منزه ومشبه يُعبَد ، لأنه المجهول الذي لا يُعرَف ، ولا يقال هو النكرة التي لا تتعرّف ، قال رسول الله ﷺ [اعبد الله كأنك تراه] فأمر المكلف بالاستحضار ، فإنه يعلم أن لا يستحضر إلا من يقبل الحضور ، فاستحضار العبد ربه في العبادة عين حضور المعبود له ، فإن لم يعلمه إلا في الحد والمقدار حدّه وقدّره ، وإن علمه منزهاً عن ذلك لم يحده و لم يقدره مع استحضاره كأنه يراه ، وإنما لم يحدّه و لم يقدّره العارف به لأنه يراه جميع الصور ، فمهما حده بصورة عارضته صورة أخرى ، فانخرم عليه الحد ، فلم ينحصر له الأمر لعدم إحاطته بالصور الكائنة وغير الكائنة له ، فلم يحط به علماً كما قال « ولا يحيطون به علماً » فإذا عرفوا أنهم لا يحيطون به علماً خضعوا فقال تعالى : ـــ

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾

الوجوه منا المراد بها حقائقنا ، إذ وجه كل شيء ذاته ، وكل ما خلق الله من العالم فإنما خلقه الله على كماله في نفسه ، فذلك الكمال وجهه ، فالوجوه هنا أعيان الذوات وحقائق

الموجودات ، إذ وجه كل شيء حقيقته وذاته ، فعنت الوجوه أي خضعوا وذلوا ، وطلبوا الزيادة من العلم فيما لا علم لهم به منه ، وهو العلم بالله عن طريق التجلي والذوق ، ولذلك قال : عنت أي ذلت ، فلما تجلى اسمه « الحي » حييت الموجودات « والقيوم » فقامت به الأرض والسموات ومن فيهن من عوالم البقاء والاستحالات ، فعنت لحياته الوجوه وسجدت لقيوميته الجباه ، وأقنعت لعظمته الرؤوس وتحركت بذكره الشفاه « وقد خاب من حمل ظلما »

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

الوحي وحيان : وحي قرآن ووحي فرقان ؛ ووحي القرآن هو الأول فإن القرآن حصل عند رسول الله ﷺ مجملاً غير مفصل الآيات والسور ، فلما أوحى الله إلى محمد ﷺ كان يعجل بالقرآن حين كان ينزل عليه جبريل عليه السلام بالفرقان ، قبل أن يُقضَى إليه وحيه ، ليُعلَم بالحال أن الله تولى تعليمه من الوجه الخاص الذي لا يشعر به المَلَك ، وجعل الله الملك النازل بالوحي صورة حجابية ، فقيل له « ولا تعجل بالقرآن » الذي عندك فتلقيه مجملاً فلا يفهم عنك « من قبل أن يقضى إليك وحيه » فرقاناً مفصلاً ، فأُمِرَ ﷺ بالتأني عند الوحي أدباً مع المعلم الذي أتاه به من قبل ربه ، فهو ﷺ مصغ تابع للملك هنا ، وقد قال تعالى له فيما أوحى إليه (لا تحرك به لسانك لتعجل به) كذلك أدباً مع أستاذه جبريل « وقل رب زدني علماً » بتفصيل ما أجملته فيَّ من المعاني ، فما أشرف العلم ، فهو الصفة الشريفة التي أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ وسلم بالزيادة منها ، ولم يقل ذلك في غيره من الصفات ، فإن فيه الشرف التام ، وليس في الصفات أعم منه تعلقاً ، لتعلقه بالواجبات والجائزات والمستحيلات ، وغيره من الصفات ليس كذلك ، وحدّ العلم

وحقيقته المطلقة معرفة الشيء على ما هو عليه ، والمفيدة العمل به ، وهو الذي يعطيك السعادة الأبدية ، ولا تخالف فيه ، فهو نور من أنوار الله تعالى يقذفه في قلب من أراد من عباده ، وهو معنى قائم بنفس العبد يطلعه على حقائق الأشياء ، وهو للبصيرة كنور الشمس للبصر ، بل أتم وأشرف ، وكل من ادعى علماً من غير عمل فدعواه كاذبة إن تعلق به خطاب عمل ، ولهذا لم يأمر الله نبيه ﷺ أن يطلب من الله تعالى الزيادة من شيء إلا من العلم ، فإنه أشرف الصفات وأنزه السمات ، فالعلم سبب النجاة وإن شقي في الطريق ، فالمآل إلى النجاة ، فلو علم المشرك ما يستحقه الحق من نعوت الجلال لعلم أنه لا يستحق أن يشرك به ، ولو علم المشرك أن الذي جعله شريكاً لا يستحق أن يوصف بالشركة لله في ألوهته لما أشرك ، فما أُخذ إلا بالجهل من الطرفين . ولما كانت العلوم الشريفة العالية التي إذا اتصف بها الإنسان زكت نفسه وعظمت مرتبته أعلاها العلم بالله ، لهذا أمر الحق تعالى نبيه أن يقول « رب زدني علماً » فهذا العلم الذي أمر رسول الله ﷺ بطلب المزيد منه ، هو العلم بالله عن طريق التجلي والذوق ، فإنه أشرف الطرق إلى تحصيل العلوم ، لا علم التكليف ، فإن النقص منه هو مطلوب الأنبياء عليهم السلام ، فقوله تعالى « وقل رب زدني علماً » يريد من العلم به ، من حيث ما له تعالى من الوجوه في كل مخلوق ومبدع ، وهو علم الحقيقة ، فإنه لما كان الخلق على الدوام دنيا وآخرة فالمعرفة تحدث على الدوام دنيا وآخرة ، ولذا أمر بطلب الزيادة من العلم ، أتراه أمره ﷺ بطلب الزيادة من العلم بالأكوان ؟ لا والله ، ما أمر إلا بالزيادة من العلم بالله ، بالنظر فيما يحدثه من الكون ، فيعطيه ذلك الكون عن أيّة نِسْبَة إلهية ظهر ، ولهذا نبّه ﷺ القلوب في دعائه [اللهم إني أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم غيبك] والأسماء نسب إلهية والغيب لا نهاية له ، فلابد من الخلق على الدوام ، فكأنما يقول ﷺ : ارفعْ عني اللّبس الذي يحول بيني وبين العلم بالخلق الجديد ، فيفوتني خير كثير حصل في الوجود لا أعلمه ، لذا أمر الله نبيه ﷺ أن يدعوه بأن يزيده بطلبه علماً به في كل ما يعطيه ، وهو وجه الحق في كل شيء ، فما طلب الزيادة من علم الشريعة ، بل كان يقول [اتركوني ما تركتكم] فالشرف كله إنما هو في العلم ، والعالم به بحسب ذلك العلم ، فإن أعطى عملاً في جانب الحق عمل به ، وإن أعطاه عملاً في جانب الخلق عمل به ، فهو يمشي في بيضاء نقية سمحاء ،

لا يرى فيه عوجاً ولا أمتاً ، وما طلب الزيادة من العلم إلا من الرب ، ولهذا جاء مضافاً لاحتياج العالم إليه أكثر من غيره من الأسماء ، لأنه اسم لجميع المصالح ، وهو من الأسماء الثلاث الأمهات ، وهي : الله والرحمن والرب ، فقال « وقل رب زدني علماً » أي زدني من كلامك ما أزيد به علماً بك ، يرقى به عنده منزلة لم تكن له ، فالمراد بهذه الزيادة من العلم المتعلق بالإله ليزيد معرفة بتوحيد الكثرة ، فتزيد رغبته في تحميده ، فيزاد فضلاً على تحميده دون انتهاء ولا انقطاع ، فطلب منه الزيادة وقد حصل من العلوم والأسرار ما لم يبلغه أحد ، ومما يؤيد ما ذكرناه من أنه أمر بالزيادة من علم التوحيد لا من غيره ، أنه كان ﷺ إذا أكل طعاماً قال [اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه] وإذا شرب لبناً قال [اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه] لأنه أُمِر بطلب الزيادة ، فكان يتذكر عندما يرى اللبن اللبَنَ الذي شربه ليلة الإسراء ، فقال له جبريل : أصبت الفطرة أصاب الله بك أمتك ، والفطرة علم التوحيد الذي فطر الله الخلق عليها حين أشهدهم حين قبضهم من ظهورهم وقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، فشاهدوا الربوبية قبل كل شيء ، ولهذا تأول ﷺ اللبن لما شربه في النوم وناول فضله عمر ، قيل : ما أولته يا رسول الله ؟ قال : العلم ، فلولا حقيقة مناسبة بين العلم واللبن جامعة ما ظهر بصورته في عالم الخيال ، عرف ذلك مَنْ عرفه وجهله مَنْ جهله ، واعلم أن الله تعالى أمر نبيه أن يقول « رب زدني علماً » وما أمره إلى وقت معين ولا حد محدود ، بل أطلق ، فطلب الزيادة والعطاء دُنْياً وآخرة ، فقد أمر ﷺ بطلب الزيادة مع كونه قد حصل علم الأولين والآخرين وأوتي جوامع الكلم ، فإنه لا يعظم على الله شيء طلب منه ، فإن المطلوب منه لا يتناهى فليس له طرف نقف عنده ، فوسع في طلب المزيد ، يقول النبي ﷺ في شأن يوم القيامة [فأحمده] يعني إذا طلب الشفاعة [بمحامد يعلمنيها الله لا أعلمها الآن] فالله لا يزال خلاقاً إلى غير نهاية فينا ، فالعلوم إلى غير نهاية ، ولا شيء أشرف من العلم ، ولم يأمر بطلب زيادة في غيره من الصفات ، لأنه الصفة العامة التي لها الإحاطة بكل صفة وموصوف فطلب المزيد من العلم عبادة مأمور بها .

فالعلم أشرف نعت ناله بشر ... وصاحب العلم محفوظ عليه مصون
إن قام قام به أو راح راح به ... والحال والمال في حكم الزوال يكون

ولما كانت أعلى الطرق إلى العلم بالله علم التجليات ، أردف سبحانه هذه الآية بقوله « وعنت

الوجوه للحي القيوم » أي ذلت فأراد علوم التجلي ، والتجلي أشرف الطرق إلى تحصيل العلوم ، وهي علوم الأذواق ، وكل تجل إلهي لابد أن يصحبه زيادة في العلم ، فزاد هنا من العلم العلم بشرف التأني عند الوحي ، فقوله تعالى « وقل رب زدني علماً » بما يكون من الله إليه برفع الوسائط ، وما أسمعنا الله ذلك إلا تنبيهاً لنقول ذلك ونطلبه من الله ، ولو كان خصوصاً بالنبي لم يسمعنا ، أو كان يذكر أنه خاص به كما قال في نكاح الهبة ، فإذا سأل الإنسان مزيد العلم فليسأل كما أمر الله تعالى نبيه أن يسأل إذْ قال له « وقل رب زدني علماً » فنكر ولم يعين ، فعَمَّ ، فأي علم نزل عليه دخل تحت هذا السؤال ، فإن النزول عن سؤال أعظم لذة من النزول عن غير سؤال ، فإن في ذلك إدراك البغية وذلة الافتقار ، وإعطاء الربوبية حقها والعبودة حقها ، وفي العلم المنزل عن السؤال من علو المنزلة ما لا يقدَّر قدر ذلك إلا الله ـــ **تحقيق** ـــ إذا قلت : ما لابد منه هو يأتيك من غير طلب ، لأنه من المحال الإقامة على أمر واحد زمانين ، فلا يحتاج إلى طلب الزائد ، قلنا : قال تعالى لنبيه ﷺ « وقل ربّ زدني علماً » ينبهه وإيانا على أن ثَمَّ أمراً آخر زائداً على ما هو الحاصل في الوقت ، لنتهمم لقدومه ، وليظهر من العبد الافتقار إلى الله بالدعاء في طلب الزيادة ، والزائد غير معيّن عندك ، فإذا عينه الدعاء والحق يجيب ، فقد تعيّن عندك ما تدعو فيه ، وهو الذي أمر الله به نبيه ﷺ أن يزيده بطلبه علماً به في كل ما يعطيه .

والعلم أشرف ما يؤتيه من منح	والكشف أعظم منهاج وأوضحه
فإن سألت إله الحق في طلب	فسله كشفاً فإن الله يمنحه
وأدمن القرع إن الباب أغلقه	دعوى الكيان وجود الله يفتحه

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

خلق الله تعالى آدم بيديه وما حفظه من المعصية ولا من النسيان ، وما توجهت اليدان إلا على طينته وطبيعته ، وما جاءته الوسوسة إلا من جهة طبيعته ، لأن الشيطان وسوس إليه وهو مخلوق من جزء ما خلق منه آدم ، فما نسي ولا قبل الوسوسة إلا من طبيعته ، فإن هذه النشأة من حكم الطبيعة فيها الجحد والنسيان ، فكانت حركة آدم في جحده حركة طبيعية ، وفي نسيانه أثر طبيعي ، فلو تناسى لكان الأمر من حركة الطبيعة ، كالجحد من

حيث أنه جحد هو أثر طبيعي ، ومن حيث ما هو جحد بكذا هو حكم طبيعي لا أثر ، فهذا الفرق بين حكم الطبيعة وبين أثرها ، والنسيان من أثرها والتناسي من حكمها ، والغفلة من أثرها والتغافُل من حكمها ، وقليل من العلماء بالله من يفرق بين حكم الطبيعة وأثرها ، فاجتمع في آدم حكم الطبيعة بالجحد ، لأنه الأول الجامع في ظهره للجاحدين من أبنائه ، لأن آدم إنسان كامل ، وكذا النسيان الواقع منه هو من أثر الطبيعة وحكم الأبناء ، فإنه حامل في ظهره للناسين من أبنائه ، فحكموا عليه بالنسيان ، وسرى الجحد والنسيان في بني آدم من جحد آدم ونسيانه جبراً لقلب آدم ، قال تعالى « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي » والذي نسي آدم إنما هو قوله تعالى (هذا عدو لك ولزوجك) فنسي ما أخبره الله به من عداوته ، فقبل نصيحته ، فنسيان آدم عليه السلام إنما كان لما أخبره الله تعالى به من عداوة إبليس ، وما تخيل آدم عليه السلام أن أحداً يقسم بالله كاذباً ، فلما أقسم بالله إنه ناصح لهما فيما ذكره لهما ، تناولا من الشجرة المنهي عنها ، وفي هذا تنبيه في أن الاجتهاد لا يسوغ مع وجود النص في المسئلة ، وربما وقعت المعصية بتأويل منه ، ولو نسي النهي ما عوقب أصلاً ، وإنما نسي ما ذكرناه ، وفي عداوة إبليس لحواء بشرى لها بالسعادة لأنها لو كانت من حزب الشيطان ما كان عدواً لها « ولم نجد له عزماً » وهو عمل الباطن ، فبرأ الحق باطن آدم من المعصية ، وكان عند الله وجيهاً مجتبى ، قال رسول الله ﷺ [نسي آدم فنسيت ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته] وهذا حديث بشرى من النبي ﷺ ، فإن آدم رحمه الله فرحمت ذريته ، حيثما كانوا جعل لهم رحمة تخصهم ، بأي دار أنزلهم الله تعالى .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾

الترتيب في الظاهر على خلاف ذلك ، ولكن الحكمة في ذلك أن الحرارة سبب الظمأ ، فقرنه بالضحى ، والجوع تعرية باطن الحيوان ، فلذلك قرنه بتعرية ظاهر الأبدان .

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾

فصدّقه وهو الكذوب ، فتلطُّف إبليس في الإغواء تلطف المستدرج في الاستدراج ، والماكر في المكر ، والخادع في الخداع ، فكان لآدم بعد المؤاخذة ما أعطته خاصية تلك الشجرة لمن أكل من ثمرها من الخلد والملك الذي لا يبلى .

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾

اعلم أن الأمر الإلهي لا يخالف الإرادة ، فإنها داخلة في حدّه وحقيقته ، وإنما وقع الالتباس من تسميتهم صيغة الأمر أمراً وليست بأمر ، والصيغة مرادة بلا شك ، فأوامر الحق إذا وردت على ألسنة المبلغين فهي صيغ الأوامر لا الأوامر فتُعصَى ، وقد يأمر الآمر بما لا يريد وقوع المأمور به ، فما عصى أحد قط أمر الله ، وهو قوله إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ؛ وبهذا علمنا أن النهي الذي خوطب به آدم عن قرب الشجرة إنما كان بصيغة لغة المَلَك الذي أوحى إليه به ، ولما علم إبليس أن آدم محفوظ من الله ، ورأى الله قد نهاه عن قرب الشجرة لا قرب الثمرة ، جاء بصورة الأكل لا بصورة القرب ، فإنه علم أنه لا يفعل لنهي ربه إياه عن قرب الشجرة ، فأتاه بثمرها فأكل آدم وزوجته حواء ، وصدَّقا إبليس وهو الكذوب في قوله (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) ولما كان آدم قد نهي و لم يؤمر أمر إيجاب ، وكان حاملاً للمخالف من ولده في ظهره والطائع ، فأوقع المخالفة عن حركة المخالف ، فلما رماه من صلبه ، ما بلغنا أن آدم عليه السلام عصى ربه بعد ذلك أبداً ، وأفرد بالمعصية دون أهله في قوله « وعصى آدم ربه » ـــ **الوجه الأول** ـــ والنهي وقع عليهما والفعل وقع عنهما ، لأنها بعض من كُلّه ، فهي جزء منه ، فكأنها ما ثَمَّ إلا هو ، فأهدِرت في اللفظ و لم تذكر ، وذكر آدم « فغوى » وَمَنْ غوى هوى ، ألا تراه هبط ، وفي يديه سقط ، فاستدرك الغلط حين هبط ، فتلقى من ربه ما تلقاه من الكلمات فتاب ، ففاز بحسن المآب ، لأنه ما قصد انتهاك الحرمة ، ولا الخروج من النور إلى الظلمة ـــ **الوجه الثاني** ـــ « وعصى

آدم ربه » لما نهاه عن قرب الشجرة فأكل من ثمرتها ، فأضاف المعصية إلى ظاهر آدم ، لأن المعصية بالظاهر وقعت وهو القرب من الشجرة والأكل ، بعد أن برأ باطنه منها ، وما حفظ الله تعالى آدم من المعصية مما حمله في طينته من عصاة بَنيهِ ، فآدم عليه السلام مع خلقه باليدين عصى بنفسه و لم يُحفظ « فغوى » أي فخاف ، وهو قد أكل بالتأويل وظن أنه مصيب غير منتهك للحرمة في نفس الأمر ، وكان متعلق النهي القرب لا الأكل . فيقوى التأويل وغوى هنا بمعنى خاف ، قال الشاعر[1] : ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً ؛ ولما كان آدم هو الأب الأعظم في الجسمية ، والمقرب عند الله وأول هذه النشأة الترابية ، ظهرت فيه المقامات كلها حتى المخالفة ، إذ كان جامعاً للقبضتين : قبضة الوفاق وقبضة الخلاف ، فما تحرك من آدم لمخالفة النهي إلا النسمة المجبولة على المخالفة ، فكانت مخالفته نهي الله من تحرك تلك النسمة التي كان يحملها في ظهره لما عصى ، ثم خاف ، قال الله تعالى في حقه .

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١٢٢)

« ثم اجتباه ربه » فهو مجتبى ، فآدم عليه السلام لولا خطيئته ما ظهرت سيادته في الدنيا ، فهي التي أورثته الاجتباء ، فما خرج من الجنة بخطيئته إلا لتظهر سيادته ، فكان هبوطه هبوط خلافة لا هبوط بعد « فتاب عليه » فكان الله هو التائب لا آدم ، والذي صدر من آدم ما اقتضته خاصية الكلمات التي تلقاها ، وما فيها ذكر توبته ، وإنما هو مجرد اعتراف وهو قوله (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فأنتج لهما هذا الاعتراف قوله تعالى « فتاب عليه » أي رجع عليه بالرحمة ، فرجع عليه بستره ، فحال بينه ذلك الستر الإلهي وبين العقوبة التي تقتضيها المخالفة ، وجعل ذلك من عناية الاجتباء ، أي لما اجتباه أعطاه الكلمات ، ورجع عليه بالصفة التي كان يعامله بها ابتداء من التقريب ، والاعتناء الذي جعله خليفة عنه في خلقه ، وكمل به وفيه وجود العالم « وهدى » ـ **الوجه**

---

(١) أنشد الأصمعي للمرقّش :

فمَنْ يلقَ خيراً يحمدِ الناسُ أمرَه ... ومَنْ يغوِ لا يعدمْ على الغيّ لائما

وغوى عند الجوهري بمعنى خابَ (تاج العروس ، ولسان العرب) ولا يوجد في المعاجم غوى بمعنى خاف إلا أن تكون لغةً لم تصلْ إلينا أو تصحيفاً لخاب ، وخاف أليق بِمكانة آدم عليه السلام .

الأول ـ أي بيّن له قدر ما فعل وقدر ما يستحقه من الجزاء ، وقدر ما أنعم عليه من الاجتباء ، وبيّن له أنه رجع عليه بالرحمة فَعَمّتْهُ ـ **الوجه الثاني** ـ « وهدى » به من هدى ، ومع التوبة قال له : اهبط ، هبوط ولاية واستخلاف لا هبوط طرد ، فهو هبوط مكان لا هبوط رتبة ، ولهذا يضعف القول بتسرمد العذاب ، فإن النار مع كونها دار ألم فإن حكم العذاب زائد على كونها داراً ، فإنا نعلم أن خزنتها في نعيم دائم ، ما هم فيها بمعذبين مع كونهم ما هم منها بمخرجين ، لأنهم لها خلقوا ، وهي دائمة والساكن فيها دائم لكونه مخلوقاً لها ، فلما شملت الرحمة آدم بجملته ، وكان حاملاً لكل بنيه بالقوة ، عمت الرحمة الجميع ، إذ لا تحجير ، ولا كان يستحق أن يسمى آدم مرحوماً وفيه من لا يقبل الرحمة ، والحق يقول « فتاب عليه » أي رجع عليه بالرحمة « وهدى » أي بيّن له أنه رجع عليه بها فعمته ، ولهذا يرجى لأهل الشقاء أن لا يتسرمد عليهم العذاب ، قال تعالى « وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » وما تركه سدى ، فأغاظ الله به الأعداء ، وأفرح به الملائكة الأوداء ، فتلقى من ربه الكلمات ، وكانت له من أعظم الهبات ، فتحقق بحقائق المحبة ، ورجع إلى ما كان عليه من المنزلة والقربة ، وهذا حكم سار في الذرية ، أعطته هذه البُنية ، فما ثَمَّ إلا من هَمَّ ولَمَّ ، وإن كان الموجود الأتم ، فاعلم إن كنت تعلم ، فاجتبي آدم عليه السلام قبل أن يُتاب عليه ، لأن سابقة قدمه سبقت إليه .

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

قلنا إن السمع والبصر قسمان : عادي وحقيقي ، فالعادي سمع القلب بالأذن وإبصاره بالعين ، وهو عام في المؤمن والكافر ، والحقيقي بصر العين بالقلب وسمع الأذن به ، وقد نفاه الله تعالى عن الكافر في غير ما آية ، وبهذا يفهم قوله تعالى « ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً » مع العلم بأن الله تعالى يعيدهم بأبصارهم

العادية كحالهم في الدنيا ، تحقيقاً لقوله تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده) ولكن الحكم في تلك الدار للأبصار الحقيقية المستفادة من نور صفاته ، بواسطة استجابة القلب لآياته ، وتوجهه لنورها إلى عالم الغيب ، وقلب الكافر في الدنيا كان خالياً من نور التوحيد ، فكان بصره لا يرجع إلى قلبه ، لأنه لا مدد له إلا من حسه ، وهو أعمى عن نور آيات التوحيد ، لا جرم أنه يحشر يوم القيامة أعمى كما كان في الدنيا ، لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ، فكذلك إذا قال « لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً » .

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾

أي لا بصر في هذه الدار إلا من نور صفاتي المستفادة من الاستجابة لآياتي ، ومن لم يَجْعَلْ الله له نوراً فما له من نور ولذلك قال تعالى :

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

الصباح والمساء أطراف النهار ، فالمساء ابتداء الليل ، والصباح انتهاء الليل ، والنهار ما بين الانتهاء والابتداء ، والليل ما بين الابتداء والانتهاء ، قال رسول الله ﷺ [مَنْ سبّح الله مائة بالغداة ومائة بالعشي كان كمن حج مائة حجة] يعني مقبولة [ومَنْ حمد الله مائة بالغداة ومائة بالعشي كان كمن حمل على مائة فرس في سبيل الله ، أو قال غزا مائة غزوة ، ومن هلل الله مائة بالغداة ومائة بالعشي كان كمن أعتق مائة رقبة من ولد إسماعيل ، ومن كبر الله مائة بالغداة ومائة بالعشي لم يأت في ذلك اليوم أحد أكثر مما أتى إلَّا مَنْ قال مثل

ما قال أو زاد على ما قال] أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ، وهو قوله عز وجل « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » فأمرنا بالتسبيح آناء الليل وأطرافَ النهار ، وما تعرض لذكر النهار في هذا الحكم لأنه قال (إن لك في النهار سبحاً طويلاً) أي فراغاً ، فالنهار لك والليل وأطراف النهار له ، فإذا كنت له في الليل وأطراف النهار كان لك هو في النهار ، فعطايا الليل وأطراف النهار جزاء التسبيح ، وعطايا النهار جزاء الاشتغال والفراغ إلى الحق في آناء الليل وأطراف النهار .

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾

« ولا تمدن عينيك » ليس هذا قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) فإن الغض له حكم آخر ، لأنه نقص مما تمتد العين إليه ، والنقص هنا أن لا يمد إلى أمر خاص ، أي إلى مرئي خاص ، فعلم ذلك رسول الله ﷺ فزاد علماً إلى علمه ، « إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » وقد جعل الله النساء زهرة حيث كن ، فإذا كن في الدنيا كن زهرة الحياة الدنيا ، فوقع النعيم بهن حيث كن ، وأحكام الأماكن تختلف ، فهن وإن خلقن للنعيم في الدنيا فهن فتنة « لنفتنهم فيه » يستخرج الحق بهن ما خفي عنا فينا مما هو به عالم ولا نعلمه من نفوسنا ، فيقوم به الحجة لنا وعلينا ، وما فتنهم الحق إلا بما سماه زهرة لهم ، لما كانت الزهرة دليلة على الثمرة ومتنزهاً للبصر ومعطية الرائحة الطيبة ، فإذا لم يدرك صاحب هذه الزهرة رائحتها ولا شهدها زهرة وإنما شهدها امرأة ولا علم دلالتها التي سيقت له على الخصوص وزوجت به ، وتنعم بها ونال منها ما نال بحيوانيته لا بروحه وعقله ، فلا فرق بينه وبين سائر الحيوان ، بل الحيوان خير منه ، لأن كل حيوان مشاهد لفصله المقوم له ، وهذا الشخص ما وقف مَعَ فصله المقوِّم له :

كل شخص زوجه من نفسه ... ولهذا زوجه من جنسه
فهو كل وهي جزء فلذا ... كثرت أزواجه من نفسه

« ورزق ربك » ما أعطاك مما أنت عليه في وقتك ، وما لم يعطك وهو لابد لك فلابد من

وصوله إليك ، وما أبطأ به إلا الوقت الزماني الذي هو له ، وما ليس لك فلا يصل إليك ، فتتعب نفسك حيث طمعت في غير مطمع ، وما أعني بقولنا إنه لك إلا ما تناله على الحد الإلهي الذي أباحه لك ، وإن نلته على غير ذلك الحد فما نلت ما هو لك من جانب الحق ، إنما نلت ما هو لك من جانب الطبْع ، وليس المراد في الدنيا إلا ما تناله من جانب الحق ، فالحق للدنيا والطبع للآخرة ، والطبع له الإباحة والحق له التحجير ، فانظر إلى عطايا ربك فإنها أكثر ما تكون ابتلاء ، ولا تعرف ذلك إلا بالميزان ، وذلك أن كل عطاء يصل إليك فهو رزق ربك ، ولكن على الميزان المشروع فهو « خير وأبقى » والذي هو خير وأبقى هو الحال الذي هو عليه في ذلك الوقت الذي رُزِقَه ، فإنه تعالى لا يُتّهم في إعطائه الأصلح لعبده ، فما أعطاه إلا ما هو خير في حقه وأسعد عند الله وإن قل ، فإنه ربما لو أعطاه ما يتمناه العبد طغى وحال بينه وبين سعادته ، فإن الدنيا دار فتنة .

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

« واصطبر عليها » يريد الصلاة ، قال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) يعني بالصبر على الصلاة .

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾

أذل الأذلاء مَنْ كان له عز وجل ، لأن ذل الذليل على قدر مَنْ ذَلَّ تحت عِزّه ، ولا عز أعظم من عز الحق ، فلا ذل أذل ممن هو لله ، ومن ذل لله لا يذل لغير الله أصلاً ، وأما الخزي فلا يُخْزَى إذا كان لله ، فإن الخزي لا يكون من الله لمن هو له ، وإنما يكون لمن هو لغير الله في شهوده ، ولذلك قالت خديجة وورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ [كلا والله لا

يخزيك الله أبداً] لما ذكر له ابتداء نزول الناموس عليه ، فالذل صفة شريفة إذا كانت الذلة لله ، والخزي صفة ذميمة بكل وجه ، فالخزي الذي يقوم بالعبد إنما هو ما جَناهُ على نفسه بجهله وتعديه رسوم سيده وحدوده ، فجميع مذام الأخلاق وسِفْسافُها صفات مخزية عند الله وفي العُرْف ، فمن كان لله لم يذل ولا يخزى أبداً .

قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

يقول الحقّ : وعزّتي وجلالي ، وما أخفيته من سَنَيّ علمي لأعذّبنَّ عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين ، مَنْ كَذّبَ رسلي وكذّب اختصاصي لهم من سائر العباد ، وكذّب بصفاتي وادّعى أنه ليس لي صفة ، وأوجب عليَّ وأدخلني تحت الحصر ، وكذّب كلامي وتأوّله مِنْ غير علم به ، وكذّب بلقائيْ ، وقال : إنّي لم أخلقهُ ، وإني غير قادر على بعثه كما بدأته ، وكذّب بحشري ونشري ، وحوْضِ نبيّ وميزاني ، وصراطي ورؤيتي ، وناري وجنّتي ، وزعم أنّها أمثلةٌ وعبارات ، المراد بها أمور فوق ما ظهر ، وعزّتي وجلالي لَتَردونَ وتَعْلَمونَ مَنْ أصحاب الصراط السوي ومَنِ اهتدى ، ولأنتقمَنَّ في دار الخزي والعذاب منهم ، على ما أخبرت في كتبي ، كذّبوني وصدّقوا أهواءَهم ، ونفوسهم سوّلت لهم الأباطيل ، وشياطينهم لعبت بهم (إنّكم وما تعبدون حصَب جهنم أنتم لها واردون) قِفْ عند حدّي ، وانظرْ في كتابي ، فهو النور الجلي ، وفيه السرّ الخفي ، صراطي ممدود على ناري ، فالويل كل الويل لِمَنْ كذّبني ، كلُّ حزب بما لديهم فرحون ، وَكُلٌّ له شِرْبٌ مَعلوم ، وَسَيُرَدونَ فيعلمون ، كأنّهم ما سمعوا (يوم يكشَفُ عن ساق ويدعَوْن إلى السجود).

(٢١) سُورَةُ الأَنبِيَاءِ مَكِّيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) ﴾

اعلم أنه ما أتي على أحد إلا من الغفلة عما يجب عليه من الحقوق ، التي أوجب الشرع عليه أداءها ، فمن أحضرها نصب عينيه وسعى جهده في أدائها ، ثم حالت بينه وبين أدائها موانع تقيم له العذر عند الله ، فقد وفى الأمر حقه ووفى الله بذمته ، ولا حرج عليه ولا جناح ، ولا خاطبه الحق بوجوب حق عليه مع ذلك المانع ، وأما إذا تغافل حتى أوجب له ذلك التغافل الغفلة آخذه الله بها ، فإنه متعمل قاصد فيما يحول بينه وبين ما أوجب الله عليه فعله وتركه ، فما بقي لظهور الساعة ؟ ووجود آدم من شروط اقترابها ، فهذا أوان الساعة قد اقترب ، ولو أزال الناس الغفلة لتنبهوا ، ولو تنبهوا لسمعوا خطاب البهائم .

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) ﴾

« ما يأتيهم من ذكر » ليس الذكر إلا القرآن ، وما هو إلا كلام الله المنعوت بالقِدم فالذي جاءهم إنما هو المتكلم به ، « من ربهم » من سيدهم ومالكهم ومصلحهم ومغذيهم « محدث » فوصف الحق الذكر بالحدوث وإن كان كلامه قديماً ، فحدث عندنا الذكر لا في نفسه تعالى ، والذكر هنا هو المتكلم به لا عين الكلام ، فالكلام موصوف بالقدم لأنه راجع إلى ذات المتكلم إذا أردت كلام الله ، والمتكلم به ما هو عين الكلام ، وقد يكون المتكلم به معنى وقد يكون غير معنى ، ثم إن ذلك المعنى قد يكون قديماً وقد يكون حادثاً ، فالمتكلم به أيضاً لا يلزم قدمه ولا حدوثه إلا من حيث إسماع المخاطب ، فإنه سمع أمراً لم يكن سمعه قبل ذلك فقد حدث عنده ، فعلى الحقيقة إتيان الذكر على من أتى عليه هو حادث بلا شك ، لأن ذلك الإتيان الخاص لم يكن موصوفاً بالوجود ، وإن كان الآتي أقدم من إتيانه لا من

حيث إتيانه بل من حيث عينه ، فكلام الله قديم من كونه صفة المتكلم به وهو الله ، ووصف بأنه محدث الإتيان والنزول أي حدث عندهم بإتيانه كما تقول حدث عندنا ضيف ، فإنه لا يدل ذلك أنه لم يكن له وجود قبل ذلك ، ولما كان القرآن في حقنا نزل نعت الله الذكر هنا بالحدوث ، لأنه نزل على محدث لأنه حدث عنده ما لم يكن يعلمه ، فهو محدث عنده بلا شك ولا ريب ، فكلام الله المنعوت بالقدم حدث عندهم حين سمعوه فهو محدث الإتيان قديم بالعين ، وجاء في مواد حادثة ما وقع السمع ولا تعلق إلا بها بما دلت عليه هذه الأخبار ، والذي دلت عليه منه ما هو موصوف بالقدم ومنه ما هو موصوف بالحدوث ، فله الحدوث من وجه وله القدم من وجه ، فإن قلت هذا الحادث هل هو محدث في نفسه أو ليس بمحدث ، قلنا اعلم أن كلام الحادث محدث وكلام الله له الحدوث والقدم ، فله عموم الصفة فإن له الإحاطة ولنا التقييد ، فلا يضاف الحدوث إلى كلام الله إلا إذا كتبه الحادث أو تلاه ، ولا يضاف القدم إلى كلام الحادث إلا إذا تكلم به الله عند من أسمعه كلامه ، كموسى عليه السلام ومن شاء الله من عباده في الدنيا والآخرة وأهل السعادة وأهل الشقاء ، وإن قلنا في هذا الحادث إنه صفة الحق التي يستحقها قلنا بقدمها بلا شك ، فإنه يتعالى أن تقوم الصفات الحادثات به فكلام الحق قديم في نفسه قديم بالنسبة إليه ، محدث أيضاً ، كما قال عند من أنزل عليه من حيث تعلق علمهم به ، فإنه لا يعلم الكون المحدث إلا محدث مثله ، لأنه لا يعلم الشيء إلا بصفته النفسية ، فعلمنا بالله محال ، فما تعلق العلم إلا بمحدث ، ومن وجه آخر يحتمل أن يكون قوله تعالى : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » أي أحدثت بعض هذه الأمور السؤالات ، فهو الذكر المحدث لما حدث وقد كان له الوجود ، وعين المخاطب مفقود (إلا استمعوه وهم يلعبون) فذم من لم يتلقاه بالقبول ، ومن هذه الآية ثبت حدوث القرآن عندهم لا في عينه ، فنعلم أن القرآن مجدد الإنزال على قلوب التالين له دائماً أبداً ، لا يتلوه من يتلوه إلا عن تجديد تنزل من الله الحكيم الحميد ، وقلوب التالين لنزوله عرش يستوي عليها في نزوله إذا أنزل ، وبحسب ما يكون عليه القلب المتخذ عرشاً لاستواء القرآن عليه من الصفة يظهر القرآن بتلك الصفة في نزوله ، وذلك في حق بعض التالين ، وفي حق بعضهم تكون الصفة للقرآن فيظهر عرش القلب بها عند نزوله عليه ، فقرآن عظيم لعرش عظيم ، وقرآن كريم لعرش كريم ، وقرآن مجيد لعرش مجيد ، فكل قرآن مستو على عرشه

بالصفة الجامعة بينهما ، فلكل قلب قرآن من حيث صفته بمجدد الإنزال لا بمجدد العين ــ راجع سورة البقرة آية ١٢٢ ــ ولما كان الاسم الرب لا يَرِدُ إلا مقيداً فإذا كان حدوث القرآن في الإنزال على القلب من الرب ينزل مقيداً ولابد ، فيكون عند ذلك قرآناً كريماً ، أو قرآناً مجيداً ، أو قرآناً عظيماً ، ويكون القلب النازل عليه بمثل ما نزل عليه من الصفة عرشاً عظيماً ، أو عرشاً كريماً ، وإذا حدث نزوله من الرحمن على القلب « ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث » لم يتقيد بإضافة أمر خاص ، فكان القلب له عرشاً غير مقيد بصفة خاصة ، بل له مجموع الصفات والأسماء ، فإن الاسم الرحمن له الإطلاق فكما أن الرحمن له الأسماء الحسنى ، لهذا العرش النعوت العلى بمجموعها فإن القرآن إذا نزل على قلب عبد وظهر فيه حكمه واستوى عليه بجميع ما هو عليه مطلقاً كان خلقاً لهذا القلب ، فما من آية في القرآن إلا ولها حكم في قلب هذا العبد ، لأن القرآن لهذا نزل ، ليحكم لا ليحكم عليه .

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

أهل الذكر هم أهل القرآن أهل الله وخاصته ، وأهل القرآن هم الذين يعملون به ــ راجع سورة النحل آية ٤٣ ــ .

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾

الصور المحسوسة التي تظهر فيها الروحانيات تسمى أجساداً ، ولا يكون غذاؤها

الطعام ، فالطعام غذاء الأشباح ، أما الجان ولو تشكل فغذاؤه ما يحمله الهواء مما في الأجسام الطبيعية من المطاعم ، والملائكة غذاؤهم ليس كذلك ، فالصور ثلاثة عنصرية ونورية وجسدية ، فالصور الجسدية أحدثها الله بتجل بين اللطائف والصور ، وتتجلى في تلك الصور الجسدية الصور النورية والنارية ظاهرة للعين ، وتتجلى الصور الحسية حاملة للصور المعنوية في هذه الصور الجسدية في النوم وبعد الموت وقبل البعث وهو البرزخ الصوري .

ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾

هو قوله تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً » .

لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾

« لو أردنا أن نتخذ لهواً » يعني الولد « لاتخذناه من لدنا » وما له ظهور إلا من الصاحبة التي هي الأم ، وهي من لدنه فما خرج عن نفسه ، وجاء بحرف لو فدل على الامتناع « إن كنا فاعلين » أي ما كنا فاعلين أن نتخذه من غيرنا ، ومن جعل إن شرطاً لا نفياً يكون معنى إن كنا فاعلين أن نتخذ لهواً نتخذه من عندنا لا من عندكم .

بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا

تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾

« ومن عنده » هم الملائكة المهيمة الكروبيون جلساء الحق تعالى بالذكر ، فإن الله تعالى لما تسمى بالملك رتب العالم ترتيب المملكة ، فجعل له خواص من عباده وهم الملائكة المهيمة .

يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

تسبيح الملائكة مثلنا في أنفاسنا دوام متوال من غير مشقة نجده في تنفسنا ، بل الأنفاس عين الراحة لنا ، بل لولاها لمتنا ، فالملائكة لا يلحقهم في تسبيحهم عي ولا نصب ، فإن نسبة التسبيح إليهم نسبة الأنفاس إلينا ، تقتضيها نشأتهم كما تقتضي نشأتنا الأنفاس ، لأن عالم الأرواح ما يتعبهم القيام ولا يدركهم الملل ، لأن النشأة النورية خارجة عن حكم الأركان ، فيسبحون الليل والنهار لا يفترون في غير ليل ولا نهار ، وهذا التسبيح لا يكون إلا عن شهود دائم لا عن تقديس عرضي ، وما عندنا خبر من جانب الحق تعالى في ذلك مروي ولا غير مروي أن هذا المقام ناله أحد من البشر ، وبهذا القدر يتبين فضل الملك على الإنسان في العبادة لكونه لا يفتر ، لأن حقيقة نشأته تعطيه أنه لا يفتر ، فتقديسه ذاتي لأن تسبيحه لا يكون إلا عن حضور مع المسبح ، وليس تسبيحه إلا لمن أوجده ، فهو مقدس الذات عن الغفلات ، فلم تشغله نشأته الطبيعية النورية عن تسبيح خالقه على الدوام ، مع كونهم من حيث نشأتهم يختصمون ، كما أن البشر من حيث نشأته تنام عينه ولا ينام قلبه ، ولم يعط البشر قوة الملك في ذلك لأن الطبيعة يختلف مزاجها في الأشخاص ، وهذا مشهود بالضرورة في عالم العناصر .

أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

« لو كان فيهما » يعني في السماء والأرض « آلهة إلا الله لفسدتا » فإنه قد أجمعنا مع المشركين على ثبوته سبحانه ، وخالفونا في الأحدية ، فكان الدليل المنصوب لهم من عند الله على أحديته ، أنه لو كان له شريك في فعله يسمى إلهاً لكان لا يخلو إما أن يختلفا في كون الشيء أو يتفقا ، فإن اختلفا فالذي ينفذ اقتداره هو الإله ، والذي يعجز ليس بإله ، وإن اتفقا فيقدّر الاختلاف ، فيلزم منه ذلك بعينه ، وتقدير الإمكان في المحال بالفرض ، كوقوع الكائن في أحد الإمكانين على السواء ، وهذا القدر كافٍ فيما يعطيه عقول الأعراب ، فإنه لا أجهل ممن اتخذ شريكاً مع الله . اعلم أن العلم بتوحيد الألوهة لمسمى الله لا توحيد الذات ، فإن الذات لا يصح أن تعلم أصلاً فالعلم بتوحيد الله علم دليل فكري لا علم شهود كشفي ، فالعلم بالتوحيد لا يكون ذوقاً أبداً ولا تعلق له إلا بالمراتب ، قال تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله » وهذا بطريق فرض المحال ، فوحد الإله ، وما تعرض لذات الله سبحانه ، لأن الفكر فيها ممنوع شرعاً (لفسدتا) أي لم يوجدا يعني العالم العلوي وهو السماء ، والسفلي وهو الأرض ، أي لو كان مع الله إله آخر لفسد النظام والأمر ، وقد وجد الصلاح وهو بقاء العالم ، فدل على أن الموجد له لو لم يكن واحداً ما صح وجود العالم ، هذا دليل الحق على أحديته ، وطابق الدليل العقلي في ذلك ، ولو كان غير هذا من الأدلة أدل منه عليه لعدل إليه وجاء به ، وما عرفنا بهذا ولا بالطريق إليه في الدلالة عليه ، فقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » هذه المقدمة ، والمقدمة الأخرى السماء والأرض وأعني بهما كل ما سوى الله ما فسدتا ، وهذه هي المقدمة الأخرى ، والجامع بين المقدمتين وهو الرابط الفساد ، فانتجتا أحدية المخصص وهو المطلوب ، وإنما قلنا ذلك لأنه لو كان ثم إله زائد على الواحد لم يخل هذا الزائد إما أن يتفقا في الإرادة أو يختلفا ، ولو اتفقا فليس بمحال أن يفرض الخلاف لننظر من تنفذ إرادته منهما ، فإن اختلفا حقيقة أو فرضاً في الإرادة فلا يخلو إما أن ينفذ في الممكن حكم إرادتيهما معاً وهو محال ، لأن الممكن لا يقبل الضدين وإما أن لا ينفذا ، وإما أن ينفذ حكم إرادة أحدهما دون الآخر ، فإن لم ينفذ حكم إرادتيهما فليس واحد منهما بإله ، وقد وقع الترجيح فلابد أن يكون أحدهما نافذ الإرادة وقصر الآخر عن تنفيذ إرادته فحصل العجز ، والإله ليس بعاجز ، فالإله من نفذت إرادته وهو الله الواحد لا شريك له ، ولهذا الأصل ما بعث رسول الله ﷺ بعثاً قط ولو كان اثنين إلا قدم أحدهما وجعل الآخر

تبعاً ، وإن لم يكن كذلك فسد الأمر والنظام ، فلا يصح إقامة ملك بين مدبرين ، وإن اتحدت إرادتهما ، ولما كان لا يصح عقلاً ولا شرعاً تدبير ملك بين أميرين متناقضين في أحكامهما وإن فرض اتحاد الإرادة في حق المخلوقين فإن حكم العادة يأبى ذلك والشرع في حق هذين الأميرين ، لم يرد الله تعالى أن يدبر هذا الملك إلا واحد ، وصرح بذلك على لسان رسوله ﷺ (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) شعر :

جمع الأنـــام على إمـــام واحـــد عين الدليـــل على الإلـــه الواحـــد

فجعل الله للناس إماماً في الظاهر واحداً يرجع إليه أمر الجميع لإقامة الدين ، وأمر عباده أن لا ينازعوه ، ومن ظهر عليه ونازعه أمرنا الله بقتاله ، لما علم أن منازعته تؤدي إلى فساد في الدين الذي أمرنا الله بإقامته ، وأصله قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فمن هناك ظهر اتخاذ الإمام وأن يكون واحداً في الزمان ظاهراً بالسيف .

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾

لله الحجة البالغة في قوله : (لا يسئل عما يفعل) فإنه ما فعل من نفسه ابتداءاً وإنما فعل بك في وجودك ما كنت عليه في ثبوتك . ولهذا قال : (وهم يسئلون) وقد أطلعهم الله عند ذلك على ما كانوا عليه وأن علمه ما تعلق بهم إلا بحسب ما هم عليه فيعرفون إذا سئلوا أنه تعالى ما حكم فيهم إلا بما كانوا عليه ، وإذا سئلوا وهم يشهدون اعترفوا فيصدق قوله : « فلله الحجة البالغة ولكن أكثر الناس لا يعلمون » فإن سر القدر هو كون العبد مجبوراً في اختياره ، ومع أن الله فاعل مختار فإن ذلك من أجل قوله : (ويختار) وقوله : (ولو شئنا) ولا يفعل إلا ما سبق به علمه ، وتبدل العلم محال ، فمن تفطن للقول الإلهي فإن معناه في غاية البيان ولشدة وضوحه خفي ، ومن وقف على هذه المسألة لم يعترض على الله في كل ما يقضيه ويجريه على عباده ، وفيهم ومنهم ، ولهذا قال : « لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون » فلو كنت عاقلاً تفهم من الله كفتك هذه الآية في المقصود ، فإن هذه الآية متعلقة بالقهر والجبروت وإثبات الملك ، فإذا ثبتت هذه الأوصاف في قلب العبد استحال عليه طلب العلة ، وكل ما يكون فيه اعتراض ، فإن أفعال الحق لا ينبغي أن تعلل ، فإنه

ما ثم علة موجبة لتكوين شيء إلا عين وجود الذات وقبول عين الممكن لظهور الوجود ، فالأزل لا يقبل السؤال عن العلل ، ولا يصدر ذلك إلا من جاهل بالله ـــ **الوجه الثاني** ـــ « لا يسئل عما يفعل » في عباده مثل المصادرة إذا لم تقع عن حساب أو تجاوز في الأخذ حد الاستحقاق ، وكذا القهر والإرعاد والإبراق والأخذ والرحمة والعفو والتجاوز والانتقام والحساب (وهم يسئلون) للأخذ والتجاوز بعد التقرير والحساب والسئوال ، فلله الحجة البالغة ـــ **تحقيق** ـــ من احتج عليك بما سبق فقد حاجك بحق ، ومع هذا فهي حجة لا تنفع قائلها ، ولا تعصم حاملها ، ومع كونها ما نفعت سمعت وقيل بها ، وإن عدل في الشرع عن مذهبها ، فإنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ولكن أكثر الناس لا يشعرون .

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

هذا هو التوحيد التاسع عشر في القرآن وهو توحيد الاقتدا والتعريف ، وهو توحيد الأنانية ، وما ثم من الأعمال السارية في كل نبوة إلا إقامة الدين والاجتماع عليه ، وكلمة التوحيد ، فقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وبوب البخاري على هذا ما جاء أن الأنبياء دينهم واحد وليس إلا التوحيد وإقامة الدين والعبادة ، ففي هذا اجتمعت الأنبياء عليهم السلام ، واختصاص هذا الوحي بالأنانية (أنا) دل على أنه كلام إلهي بحذف الوسائط ، فما أوحى إليهم منهم ، فإنه لا يقول (أنا) إلا من هو متكلم ، فإن قيل فقد قال إنه ينزل بمثل هذا الملائكة ، فهذا لا يبعد أن تأخذه الرسل من وجهين إذا نزلت به الملائكة يكون على الحكاية ، وإذا ورد مثل هذا معرى عن القرائن أو النص عليه حمل على ما هو الأصل عليه ، فما يقول أنا إلا المتكلم وهنا يقول الحق لرسوله ﷺ عليه وسلم معرضاً كذا فكن أنت مثل من سبقك من الرسل ، وجاء بالعبادة و لم يذكر الأعمال المعينة ، فإنه قال : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) وهي الأعمال التي ينتهي فيها مدة الحكم المعبر عنه بالنسخ .

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » في الشفاعة يوم القيامة ، فأذن تعالى في السؤال وهو لا يأذن وفي نفسه أن لا يقبل سؤال السائل .

وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

اعلم أنه ما في علمي أن أحداً يقع منه هذا القول وهو يجوع ويمرض ويغوط وأمثال هذا إلا فرعون لما استخف قومه ، وأما قوله : « من دونه » أي نزولاً عن المرتبة التي لله ، وهذا مثل قولهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فهو وإن كان أنزل منه في الرتبة فهو عنده أنه إله ، وقد أثبت جهله بقوله من دونه فإنه أثبت الغير بقوله من دونه ، فأخبر الله أن جزاء هذا القائل يكون غاية البعد لأن من قال : « إني إله » قد جعل نفسه في غاية القرب فكان جزاؤه غاية البعد عن سعادته في جهنم ، فينزل إلى قعرها ، وجهنم من جهنام يقال بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر ، وهنا تنبيه حيث قرن هذا الحال بالقول لا بالعلم والحسبان ، فإن قال قائل ما نظن أنه قد علم أن الأمر كذا فتخيل أن قوله مطابق لعلمه وهذا يستحيل وقوعه من أحد علماً لعلمه بذاته وافتقاره وقصوره في نفسه ـ **تحقيق** ـ كما أن لكل أجل كتاب فلكل عمل جزاء ، والقول عمل فله جزاء ، إن الله عند لسان كل قائل ، وليس بعد الخواطر أسرع عملاً منه ، أعني من اللسان ، فالقول أسرع الأعمال ، ولا يتولى حساب صاحبه إلا أسرع الحاسبين ، لأن متولي الحساب على الأعمال من الأسماء الإلهية ما يناسب ذلك .

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا

مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

« كانتا رتقاً » ــ **الوجه الأول** ــ أي غير متميزة « ففتقناهما » أي ميزنا بعضها عن بعض ليميز أعيانها ففتق الأرض بما أخرج فيها من معدن ونبات وحيوان ، فكان إيجاداً عند دوران الأفلاك بعد تقدير ــ **الوجه الثاني** ــ اعلم أن الله تعالى قد جعل هذه الأرض بعدما كانت رتقاً كالجسم الواحد كما كانت السماء ، ففتق رتقها وجعلها سبعة أطباق كما فعل بالسموات ، فقوله تعالى : « كانتا رتقاً » أي كل واحدة منهما مرتوقة ، « ففتقناها » يعني فصل بعضها من بعض حتى تميزت كل واحدة عن صاحبتها ، كما قال : « خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » أي فصل كل سماء على حدة بعدما كانت رتقاً ، إذ كانت دخاناً فإن الحق استوى إلى السماء وكانت واحدة ، ففتقها وسواها سبع سموات طباقاً ، فدارت بأفلاكها وفتق الأرض إلى سبع أرضين ، سماء أولى لأرض أولى ، وثانية لثانية إلى سبع ، ولما كان الأصل في وجودها الماء لهذا قال : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » تنسب عندنا الحياة لكل حي بحسب حقيقة المنعوت بها ، وما في العالم إلا حي ، لا كمن لا يرى الحياة إلا في غير الجماد والنامي ، فالجماد في نظرك هو حي في نفس الأمر ، وأما الموت فهو مفارقة حي مُدَبِّر لحي مُدَبَّر ، فالمدبر والمدبر حي ، والمفارقة نسبة عدمية لا وجودية ، إنما هو عزل عن ولاية ، فكل شيء حي ، فإن كل شيء مسبح لله بحمده ، وهذا الماء هو الماء الذي هو أصل في وجود كل شيء وبه حياته ، ولحياته وصف بالتسبيح ، وهو غير هذا الماء المركب البسيط المعهود ، فالماء أصل الحياة في الأشياء ، فهو سر الحياة ، حتى العرش لما خلقه الله ما كان إلا على الماء ، فسرت الحياة فيه منه ، ومن هذا الماء كانت حياة الجان وهم لا يشعرون ، وحياة العرش وما حوى عليه من المخلوقات ، فإن الله يقول : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » فجاء بالنكرة ، ولا يسبح إلا حي ، وأما الماء العنصري فأصله من نهر الحياة الطبيعية الذي فوق الأركان ، وهو الذي ينغمس فيه جبريل كل يوم غمسة ، وينغمس فيه أهل النار إذا خرجوا منها بالشفاعة ، فهو الماء الذي قال تعالى فيه : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ثم سرت منه الحياة في الماء العنصري ، وأما في عالم الاستحالة فاعلم أن العرش المُلْكُ ، وما تم الملك وكمل إلا في عالم الاستحالة ، وهو عالم الأركان الذي أصله

الماء ، والماء هو الركن الأعظم من العناصر الأربعة وهي الماء والهواء والنار والتراب ، ولولا عالم الاستحالة ما كان الله يصف نفسه بأنه كل يوم في شأن ، فالعالم يستحيل والحق في شأن حفظ وجود أعيانه يمده بما به بقاء عينه من الإيجاد ، فهو الشأن الذي هو الحق عليه ، فلما كان الماء أصلاً لكل حي قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » فالماء أصل العناصر والاسطقسات(١)، وهو أصل لكل حياة عرضية لا ذاتية ، فبالماء حياة الأحياء لما فيه من سر الإحياء ، فإن الله جعل الماء رزقاً لكل حي لأنه بارد رطب ، والعالم في عينه غلبت عليه الحرارة واليبوسة ، وسبب ذلك أن العالم مقبوض عليه قبضاً لا يتمكن له الانفكاك عنه ، لأنه قبض إلهي واجب على كل ممكن ، فلا يكون إلا هكذا ، والانقباض في المقبوض يبس بلا شك ، فغلب عليه اليبس ، فهو يطلب بذاته لغلبة اليبس ما يلين به ويرطب ، فتراه محتاجاً من حيث يبسه إلى الرطوبة ، وأما احتياجه إلى البرودة لأن العالم ممكن لا يصح له أن يكون مطلق الوجود يفعل ما يريد ، وهو يريد هذه المرتبة ولا ينال مطلوبه ، فيدركه الغبن فيحمى ، فتغلب الحرارة عليه فيتأذى ، فيخاف الانعدام فيجنح إلى طلب البرودة ليسكن بها ما يجده من ألم الحرارة ويحيي بها نفسه ، وييس القبض الذي هو عليه يطلب الرطوبة ، فنظر الاسم الرزاق في غذاء يحيا به يكون بارداً ، ليقابل الحرارة وسلطانها ويكون رطباً فيقابل به سلطان اليبس ، فوجد الماء بارداً رطباً فجعل منه كل شيء حي في كل صنف صنف بما يليق به ، فكل شيء من الماء عينه ومن الهواء حياته ، حتى حيوان البحر الذي يموت إذا فارق الماء ما حياته إلا بالهواء الذي في الماء ، لأنه مركب ، فيقبل الهواء بنسبة خاصة ، وهو أن يمتزج بالماء امتزاجاً لا يسمى به هواء ، كما أن الهواء المركب فيه الماء وبه يكون مركباً ، لكن امتزاج الماء به امتزاجاً خاصاً لا يسمى به ماء ، فإذا كانت حياة الحيوان بهواء الماء مات عند فقده ذلك الهواء الخاص ، وكذلك حيوان البر إذا غرق في الماء مات لأن حياته بالهواء الذي مازجه الماء ، لا بالماء الذي مازجه الهواء ، وثم حيوان بري بحري ، وهو حيوان شامل برزخي ، له نسبة إلى قبول الهوائين ، فيحيى بالهواء كما يحيى البري

---

(١) الأسطقس هو الأصل بلغة اليونان وكذان العنصر بلغة العرب إلا أن إطلاق الاسطقسات عليها باعتبار أن المركبات تتألف منها وإطلاق العناصر باعتبار أنها تنحل إليها فلوحظ في إطلاق لفظ الأسطقس معنى الكون وفي إطلاق لفظ العنصر معنى الفساد (كتاب التعريفات للجرجاني) ويقال إن الاسطقسات الطبائع الأربعة .

ويحيى في الماء كما يحيى البحري ، وبالهواء تكون حياته في الموضعين ، والماء أصله من كونه حياً ، ثم قال تعالى : « أفلا يؤمنون » أي يصدقون بذلك وبما يرونه من حياة الأرض بالمطر ، وحياة الأشجار بالسقي ، حتى الهواء إن لم يكن فيه مائية وإلا أحرق ، وإنما قرن به الإيمان لجواز خلافه عقلاً ، الذي هو ضد الواقع « أفلا يؤمنون » وينظرون في قولنا : (من الماء) فيعلمون طبع الماء وأثره ، وفيمن يؤثر وما يدفع به ، فيعلم أن العالم موصوف بنقيض ما يقتضيه الماء فيحكم عليه به ، فإن الواقع في العالم غلبة الحرارة واليبوسة عليه لما ذكرناه ، فثار عليه سلطان الحرارة واليبس ، فلم تكن حياة إلا ببارد رطب فكان الماء .

وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾

لما رأت الملائكة ميد الأرض ، وقد حصل لهم التعريف من الله بأنها محل خلق يخلقون منها على نشأة مخصوصة ، لا يمكن معها التصرف إلا على ساكن فقالت يا ربنا كيف استقرار عبادك على هذه الأرض ، فأبدى لهم تجلياً أصعقهم به ، وخلق من الأبخرة الغليظة المتراكمة الكثيفة الصاعدة من الأرض الجبال ، فقال بها عليها فسكن ميد الأرض ، وذهبت تلك الحركة التي لا يكون معها الاستقرار ، ثم أفاق الملأ الأعلى من صعقتهم ، فرأوا من قدرة الله ما هالهم ، فقالوا ربنا هل خلقت شيئاً أشد من هذه الجبال ، فقال نعم الحديد ، فقالوا ربنا فهل خلقت شيئاً أشد من الحديد ، فقال نعم النار ، فقالوا ربنا فهل خلقت شيئاً أشد من النار ، قال نعم الماء ، فقالوا ربنا فهل خلقت شيئاً أشد من الماء ، قال نعم الريح ، فقالوا ربنا فهل خلقت شيئاً أشد من الريح ، قال نعم الإنسان يتصدق بصدقة فلا تعرف شماله ما تنفق يمينه ، فهذا هو الذي ملك الهواء ، فمن ملك هواه فهو أشد من الهواء ، وهو الذي ينبغي أن يقال له إنسان ، ومن لم يحكم هذا المقام فهو حيوان صورته صورة إنسان لا غير ، فقالت سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إذ تكلمنا بما لا ينبغي لنا أن نتكلم به فإنك أنت العليم القدير .

وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

﴿خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

الليل والنهار فصلا اليوم ، فمن طلوع الشمس إلى غروبها يسمى نهاراً ، ومن غروب الشمس إلى طلوعها يسمى ليلاً ، وهذه العين المفصلة تسمى يوماً ، وأظهر هذا اليوم وجود الحركة الكبرى ، وما في الوجود العيني إلا وجود المتحرك لا غير ، وما هو عين الزمان الذي تطلقه العرب وتريد به الليل والنهار ، فإن الزمان أمر متوهم لا حقيقة له ، فباختلاف الحركات الفلكية حدث زمان الليل والنهار ، وتعينت السنون والشهور والفصول ، وهذه المعبر عنها بالأزمان ، فالزمان واليوم والليل وفصول السنة كلها أمور عدمية نسبية لا وجود لها في الأعيان ، وكان التوجه من الحق على إيجاد الشمس يخالف توجهه تعالى على إيجاد القمر ، فلو كان التوجه واحداً عليهما لما اختلفت الحركات ، وهي مختلفة ، فدل أن التوجه الذي حرك القمر في فلكه ما هو التوجه الذي حرك الشمس ولا غيرها من الكواكب والأفلاك ، ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت السرعة أو الإبطاء في الكل على السواء ، لذلك قال تعالى : « كل في فلك يسبحون » وبذلك تتميز آثارها ، فالآثار بلا شك مختلفة ، والفلك لا يكون إلا مستديراً . واعلم أن أصغر الأيام هي التي نعدها حركة الفلك المحيط ، الذي يظهر في يومه الليل والنهار ، فأقصر يوم عند العرب وهو هذا لأكبر فلك ، وذلك لحكمه على ما في جوفه من الأفلاك ، إذ كانت حركة ما دونه في الليل والنهار حركة قسرية له ، قهر بها سائر الأفلاك التي يحيط بها ، ولكل فلك حركة طبيعية تكون له مع الحركة القسرية ، فكل فلك دونه ذو حركتين في وقت واحد ، حركة طبيعية وحركة قسرية ، ولكل حركة طبيعية في كل فلك يوم مخصوص ، يعد مقداره بالأيام الحادثة عن الفلك المحيط المعبر عنها بقوله : « مما تعدون » وكلها تقطع في الفلك المحيط ، فكلما قطعته على الكمال كان يوماً لها ، ويدور الدور ، فأصغر الأيام منها هو ثمانية وعشرون يوماً مما تعدون ، وهو مقدار قطع حركة القمر في الفلك المحيط .

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

« كل نفس ذائقة الموت » وهو لقاء لله خاص عينه الحق ، إذ هو المشهود في كل حال ، ولكن لما عين ما شاء من المواطن وجعله محلاً للقاء مخصوص رغبنا فيه ، ولا نناله إلا بالخروج من الدار التي تنافي هذا اللقاء وهي الدار الدنيا ، خُيِّر النبي ﷺ بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى الأخرى فقال الرفيق الأعلى ، وورد في الخبر أنه من أحب لقاء الله يعني بالموت أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فلقيه في الموت بما يكرهه ، وهو أن حجبه عنه وتجلى لمن أحب لقاءه من عباده . ولقاء الحق بالموت له طعم لا يكون في لقائه بالحياة الدنيا ، فالموت فراغ لأرواحنا من تدبير أجسامنا ، فلها ذوق لا يكون لها إلا بالخروج من دار الدنيا بالموت لا بالحال ، وهو أن يفارق هذا الهيكل الذي وقعت له به هذه الألفة من حين ولد وظهر به ، بل كان السبب في ظهوره ، ففرق الحق بينه وبين هذا الجسم لما ثبت من العلاقة بينهما ، وهو من حال الغيرة الإلهية على عبيده لحبه لهم ، فلا يريد أن يكون بينهم وبين غيره علاقة ، فخلق الموت وابتلاهم به تمحيصاً لدعواهم في محبته فقال : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » وما فتن الله من فتن من عباده إلا بحكم ما ظهر عليهم من الدعاوى فيما يتصرفون فيه أن ذلك الفعل لهم حقيقة أو كسباً ، فلو أطلعهم الله على اليد الإلهية الخالقة ورأوا نفوسهم آلات صناعية لا يمكن وقوع غير ذلك لما اختبرهم الله ، فما اختبرهم إلا ليعثروا على مثل هذا العلم فيعصموا من الدعوى فيسعدوا ، لذا قال : « وإلينا ترجعون » .

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

« خلق الإنسان من عجل » هو قوله تعالى : (وخلق الإنسان عجولاً) ولو رام غير العجلة ما استطاع ، فإن في طبعه الحركة والانتقال لأنها أصله ، فإن خروجه من العدم إلى الوجود نقلة ، فهو في أصل نشأته ووجوده متحرك .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ

لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

يأتي الله بأعمال بني آدم مع كونها أعراضاً صوراً قائمة ، وهو تجسد المعاني ، توضع في الموازين لإقامة القسط ، وجعل الله الموازين يوم القيامة كثيرة ليزن بكل ميزان ما وضع له ، فإن الشرع مثلاً قد تعبد كل مجتهد بما أداه إليه اجتهاده ، وحرم عليه العدول عن دليله ، فكل مجتهد متعبد بما أعطاه اجتهاده ، فتوضع الموازين لوزن الأعمال ، فيجعل فيها الكتب بما عملوا ، وآخر ما يوضع في الميزان قول الإنسان الحمد لله ، ولهذا قال ﷺ : [الحمد لله تملأ الميزان] فإنه يلقى في الميزان جميع أعمال العباد إلا كلمة لا إله إلا الله فيبقى من ملئه تحميدة فتجعل فيه فيمتلىء بها ، وسبب ذلك أن كل عمل خير له عمل مقابل من ضده ، فيجعل هذا الخير في موازنته ولا يقابل لا إله إلا الله إلا الشرك ، ولا يجتمع توحيد وشرك

في ميزان أحد ، لأنه إن قال لا إله إلا الله معتقداً لها فما أشرك ، وإن أشرك فما اعتقد لا إله إلا الله ، فلما لم يصح الجمع بينهما لم يكن لكلمة لا إله إلا الله ما يعادلها في الكفة الأخرى ولا يرجحها شيء ، فلهذا لا تدخل الميزان ، وأما المشركون فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ، أي لا قدر لهم ولا يوزن لهم عمل ولا من هو من أمثالهم ممن كذب بلقاء الله وكفر بآياته ، فإن أعمال خير المشرك محبوطة ، فلا يكون لشرهم ما يوازنه ، وأما صاحب السجلات فإنه شخص لم يعمل خيراً قط ، إلا أنه تلفظ يوماً بكلمة لا إله إلا الله مخلصاً فتوضع له في مقابلة التسعة والتسعين سجلاً من أعمال الشر ، كل سجل منها كما بين المغرب والمشرق ، وذلك لأنه ما له عمل خير غيرها ، فترجح كفتها بالجميع وتطيش السجلات فيتعجب من ذلك ، ولا يدخل الموازين إلا أعمال الجوارح شرها وخيرها ، السمع والبصر واللسان واليد والبطن والفرج والرجل ، وأما الأعمال الباطنة فلا تدخل الميزان المحسوس ، لكن يقام فيها العدل وهو الميزان الحكمي المعنوي ، فلهذا توزن الأعمال من حيث ما هي مكتوبة « فلا تظلم نفس شيئاً » « وإن كان مثقال حبة مس خردل » يعني من العمل « أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

الضياء ما يدرك به وما يدرك منه .

ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾

« الذين يخشون ربهم بالغيب » اعلم أيدك الله أن عبادة الله بالغيب عين عبادته بالشهادة ، فإن الإنسان وكل عابد لا يصح أن يعبد معبوده إلا عن شهود ، إما بعقل أو ببصر أو بصيرة يشهده العابد بها فيعبده ، وإلا فلا تصح له عبادة ، فما عبد إلا مشهوداً لا غائباً ، فإن أعلمه بتجليه في الصور للبصر حتى يميزه عبده أيضاً على الشهود البصري ، ولا يكون ذلك إلا بعد أن يراه بعين بصيرته ، فمن جمع بين البصيرة والبصر فقد كملت عبادته ظاهراً وباطناً ، ومن قال بحلوله في الصور فذلك جاهل بالأمرين جميعاً ، قال ﷺ : اعبد الله كأنك تراه ، فأمره بالاستحضار ، فإنه يعلم أنه لا يستحضر إلا من يقبل الحضور ،

فاستحضار العبد ربه في العبادة عين حضور المعبود له « وهم من الساعة مشفقون » حتى إن كل دابة تصغي يوم الجمعة شفقاً من الساعة .

وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

لما ذكر الحق تعالى في القرآن قصص الأولين والآخرين ، وشرائع المتقدمين ومنازلهم ومراتبهم وسابقتهم ومآلهم جعله ذكراً وسماه به .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

ــ **إشارة** ــ اجعل الأصنام جذاذاً ، واعتصم بالله عياذاً ، فلا تستند إلى غير الله تعالى ، بل إلى الله وحده رب الأرباب ، « إلا كبيراً لهم » ما ترك إبراهيم عليه السلام الكبير إلا ليقيم الحجة على خصومه .

قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

أطلق الله على ألسنة المشركين فتوة إبراهيم لأنه قام في الله حق القيام ، ومن فتوته عليه

السلام أنه جاد بنفسه على النار إيثاراً لتوحيد ربه ، (راجع الفتوة في سورة الكهف آية ١٣) ومن صفات الفتيان والفتوة : الفتى ابن الوقت ، مخافة المقت ، لا يتقيد بالزمان ، كما لا يحصره المكان ، لا تصحب من إذا قلت له : باسم الله قال لك أين تذهب ؟ ليس للفتى من الزمان ، إلا الآن ، لا يتقيد بما هو عدم ، بل له الوجود الأدوم ، زمان الحال ، لا ينقال ، لا فتى إلا عَلِيّ ، لأنه الوصي والولي ، الفتيان رؤساء المكانة والمكان ، لهم الحجة والسلطان ، والدليل والبرهان ، عليهم قام عماد الأمر ، وهم على قدم حذيفة في علم السر ، لهم التمييز والنقد ، وهم أهل الحل والعقد ، لا ناقض لما أبرموه ، ولا مبرم لما نقضوه ، ولا مطنب لما قوضوه ، ولا مقوض لما طنبوه ، إن أوجزوا أعجزوا ، وإن أسهبوا أتعبوا ، إليهم الاستناد وعليهم الاعتماد ، الفتى هو صاحب الفتوح ، ما عنده جموح ، سهل الهوى والانقياد ، ومع هذا فهو مع من زاد بزاد وبغير زاد ، الفتى من لا يزال للعلم طالباً ، ومن الجهل هارباً .

قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

ــ **الوجه الأول** ــ « قال بل فعله كبيرهم هذا » أحالهم على الكبير من الأصنام على نية طلب السلامة منهم ، فإنه قال لهم : « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » يريد توبيخهم ، ولهذا رجعوا إلى أنفسهم وهو قوله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » في كل حال ، وإنما سمي ذلك كذباً لإضافة الفعل في عالم الألفاظ إلى كبيرهم ، والكبير هو الله على الحقيقة ، والله هو الفاعل المكسر للأصنام بيد إبراهيم ، فإنه يده التي يبطش بها كذا أخبر عن نفسه ، فكسر هذه الأصنام التي زعموا أنها آلهة ــ **الوجه الثاني** ــ لما كان الله تعالى هو الكبير بما نصبه المشركون من الآلهة لهذا قال الخليل في معرض الحجة على قومه مع اعتقاده الصحيح أن الله هو الذي كسر الأصنام المتخذة آلهة ، حتى جعلها جذاذاً مع دعوى عابديها بقولهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »، فاعترفوا أن ثم إلهاً كبيراً أكبر من هؤلاء ، ونسبوا الكبر له تعالى على آلهتهم ، فقال إبراهيم عليه السلام : « بل فعله كبيرهم » فجاء بلفظ الكبير

لأنهم قائلون بكبرياء الحق على آلهتهم التي اتخذوها ، فهذا الذي قاله إبراهيم عليه السلام صحيح في عقد إبراهيم عليه السلام ، وإنما أخطأ المشركون حيث لم يفهموا عن إبراهيم ما أراد بقوله : « بل فعله كبيرهم »، فكان قصد إبراهيم عليه السلام بكبيرهم الله تعالى وإقامة الحجة عليهم ، وهو موجود في الاعتقادين ، وكونهم آلهة ذلك على زعمهم ، والوقف عليه حسن تام ، وابتدأ إبراهيم بقوله : « هذا » إشارة ابتداء وخبره محذوف يدل عليه قوله : « بل فعله كبيرهم »، أو « هذا قولي » فالخبر محذوف يدل عليه مساق القصة ، « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » إقامة الحجة عليهم منهم ، فهم يخبرونكم ، ولو نطقت الأصنام في ذلك الوقت لاعترفوا بأنهم عبيد ، وأن الله هو الكبير العلي العظيم ، ولنسبت الفعل إلى الله لا إلى إبراهيم ، فإنه مقرر أن الجماد والنبات والحيوان قد فطرهم الله على معرفته وتسبيحه بحمده ، فلا يرون فاعلاً إلا الله ، ومن كان هذا فطرته كيف ينسب الفعل لغير الله ، فكان إبراهيم على بينة من ربه في الأصنام أنهم لو نطقوا لأضافوا الفعل إلى الله ، لأنه ما قال لهم سلوهم إلا في معرض الدلالة ، سواء نطقوا أو سكتوا ، فإن لم ينطقوا يقول لهم : « لم تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنكم من الله شيئاً » ولا عن نفسه ، ولو نطقوا لقالوا إن الله قطعنا قطعاً ، لا يتمكن في الدلالة أن تقول الأصنام غير هذا ، فإنها لو قالت الصنم الكبير فعل ذلك بنا لكذبت ، ويكون تقريراً من الله بكفرهم ورداً على إبراهيم عليه السلام ، فإن الكبير ما قطعهم جذاذاً ، ولو قالوا في إبراهيم إنه قطعنا لصدقوا في الإضافة إلى إبراهيم ولا تلزم الدلالة بنطقهم على وحدانية الله ببقاء الكبير ، فيبطل كون إبراهيم قصد الدلالة ، فلم تقع و لم يصدق (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) فكانت له الدلالة في نطقهم لو نطقوا كما قررنا ، وفي عدم نطقهم لو لم ينطقوا ، ومثل هذا ينبغي أن يكون قصد الأنبياء عليهم السلام ، فهم العلماء صلوات الله عليهم ، ولهذا قال تعالى :

فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾

فقال الله لمثل هؤلاء (أتعبدون ما تنحتون) فالذين عبدوا من ينطق ويدعي الألوهة

أقرب حالاً من عبادة من لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً ، وهذا قول إبراهيم لأبيه ، وهو الذي قال فيه تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » وأبوه من قومه فقول الخليل عليه السلام « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » من الحجة التي أعطاه الله ، ومنها .

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

هذه الآية تدل على أن إبراهيم عليه السلام نبه قومه على أن العلم بالله من كونه إلهاً من مدركات العقول ، فما أحالهم إلا على أمر يصح منه أن ينظر فيعلم بنظره ما هو الأمر عليه .

قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾

ومن فتوة إبراهيم عليه السلام أن باع نفسه في حق أحدية خالقه لا في حق خالقه ، لأن الشريك ما ينفي وجود الخالق ، وإنما يتوجه على نفي الأحدية .

قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

الأعيان لا تنقلب ، والحقائق لا تتبدل ، فالنار تحرق بحقيقتها لا بصورتها ، فالخطاب للصورة وهي الجمرات ، وأجرام الجمرات محرقة بالنار ، فلما قامت بها النار سميت ناراً ، فتقبل البرد كما قبلت الحرارة ، فخاطبها الحق بقوله : « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » وهو أجره الذي آتاه الله في الدنيا ، فنجاه الله من النار وجعلها عليه برداً وسلاماً ، وهي في الظاهر نار ولكن ما أثرت إحراقاً في جسم إبراهيم ولا وجد ألماً لها ، فليس العجب من ورد في بستان ، وإنما العجب من ورد في قعر النيران ، إبراهيم الخليل عليه السلام في وسط النار يتنعم ويلتذ ، ولو لم يكن عليه السلام إلا في حمايتها إياه من الوصول إليه ، فالأعداء يرونها في أعينهم ناراً تأجج ، وهو يجدها بأمر الله إياها برداً وسلاماً عليه ، فأعداؤه ينظرون إليه ولا يقدرون على الهجوم عليه .

وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

فأثنى عليهم و لم يكونوا يؤدون سوى الفرائض .

وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾

ـ إشارة ـ لا تغلب على مقلتك النوم ، فتنفش في غنم القوم ، أي إذا لم تراقب خواطرك فإنها تتصرف فيما لا ينبغي ، والنفش الرعي ليلاً ، وهو محل الظلمة والغيب .

فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

« ففهمناها سليمان » مع نقيض الحكم « وكلاً آتينا حكماً وعلماً » فكان علم داود

علماً مؤتى ، آتاه الله ، وعلم سليمان علم الله في المسألة ، فحكم الله في القصة حكم سليمان فهو مصيب بعين الحكم ومصيب في الاجتهاد ، وداود مصيب من وجه واحد ، وحكمه من عند الله آتاه إياه ، فهو بمنزلة المجتهد المخطىء من أمة رسول الله ﷺ ، فإن العلماء ورثة الأنبياء بإطلاقه ﷺ ، وقد قال في المجتهد إذا أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران ، ومن رزق الفهم من المحدثات فقد رزق العلم ، وما كل من رزق علماً كان صاحب فهم ، فالفهم درجة عليا في المحدثات ، وفي الفهم عن الله يقع التفاضل بين العلماء بالله ، والفهم قوة لا تتصرف إلا في المبهمات الممكنات وغوامض الأمور ، ويحتاج صاحب الفهم لمعرفة المواطن ، « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » داود منصوص على خلافته ، ومن أعطي الخلافة أعطي التحكم والتصرف في العالم ، فترجيع الجبال معه بالتسبيح والطير تؤذن بالموافقة ، فموافقة الإنسان أولى .

وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾

الشكوى إلى الله لا تقدح في الصبر ، ألا ترى إلى أيوب عليه السلام سأل ربه رفع البلاء عنه بقول « أني مسني الضر » أي أصاب مني ، فشكا ذلك إلى ربه عز وجل ، وقال له : « وأنت أرحم الراحمين » ففي هذه الكلمة إثبات وضع الأسباب ، وعرض فيها لربه برفع البلاء عنه ، فإن من النزاع الصبر على البلاء إذا لم يرفع إزالته إلى الله ، والدعاء لا يقتضي المنازعة ، فإنه ذلة وافتقار ، والنزاع رياسة وسلطنة ، فلم يقدح دعاء أيوب عليه السلام في صبره ، وقد أثنى الله عليه بالصبر ، فقال مع ثبوت شكواه « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » فذكره بكثرة الرجوع إليه في كل أمر ينزل به ، فمن حبس نفسه عند الضر النازل

به عن الشكوى إلى الله في رفع ما نزل به وصبر مثل هذا الصبر فقد قاوم القهر الإلهي ، والشكوى إلى الله أعلى منه وأتم ، ولهذا قلنا إن الدعاء لا يقدح ولا يقتضي المنازعة ، بل هو أعلى وأثبت في العبودة من تركه ، وأما الرضا والتسليم فهما نزاع خفي لا يشعر به إلا أهل الله ، لذلك رفع أيوب عليه السلام شكواه إلى الله لا إلى غيره ، بل يجب عليه ذلك ، لما في الصبر إن لم يشك إلى الله من مقاومة القهر الإلهي ، وهو سوء أدب مع الله ، والأنبياء عليهم السلام أهل أدب ، وهم على علم من الله ، فاستجاب له ربه وقال :

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

فأثبت بقوله تعالى : « فاستجبنا له » أن دعاءه كان في رفع البلاء ، فكشف ما به من ضر وشهد له بالصبر ، فلو كان الدعاء إلى الله في رفع الضر ورفع البلاء يناقض الصبر المشروع المطلوب لم يثن الله على أيوب عليه السلام بالصبر ، وقد أثنى عليه به ، بل من سوء الأدب مع الله أن لا يسأل العبد رفع البلاء عنه ، لأن فيه رائحة من مقاومة القهر الإلهي بما يجده من الصبر وقوته ، ومن الأدب الإلهي الذي علمه الله أنبياءه ورسله ، إن كنت صاحب غرض وتحس بمرض وألم فاحبس نفسك عن الشكوى لغير من آلمك بحكمه عليك ، فإنه ما آلمك وحكم عليك بخلاف غرضك ــ وغرضك من جعل حكمه فيك ــ إلا لتسأله في رفع ذلك عنك ، بما جعل فيك من الغرض الذي بسببه تألمت ، كما فعل بأيوب عليه السلام ، فمن لم يشك إلى الله مع الإحساس بالبلاء وعدم موافقة الغرض فقد قاوم القهر الإلهي ، فالأدب كل الأدب في الشكوى إلى الله في رفعه لا إلى غيره ، ويبقى عليه اسم الصبر كما قال تعالى في أيوب عليه السلام : « إنا وجدناه صابراً » في وقت الاضطراب والركون إلى الأسباب ، فلم يضطرب ولا ركن إلى شيء غير الله إلا إلينا لا إلى سبب من الأسباب ، فإنه لابد طبعاً عند الإحساس من الاضطراب وتغير المزاج . ــ **إشارة** ــ لذلك قال بعضهم : الصبر مقاومة ، وهو سوء أدب في حق الكامل .

﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى

﴿رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾

« وذا النون إذ ذهب مغاضباً » كان غضب يونس عليه السلام لله ومن أجله ، فلما ذهب مغاضباً « فظن أن لن نقدر عليه » أي ظن أن الله لا يضيق عليه من سعة رحمة الله فيه ، وما نظر ذلك الاتساع الإلهي الرحماني في حق غيره ، فتناله أمته واقتصر به على نفسه ، وكذلك فعل الحق ، ففرج الله عنه بعد الضيق ليعلم قدر ما أنعم الله به عليه ، بعد أن أسكن بطن الحوت ما شاء الله لينبهه الله على حالته ، حين كان في بطن أمه من كان يدبره فيه ، وهل كان في ذلك الموطن يتصور منه أن يغاضب أو يغاضب ، بل كان في كنف الله لا يعرف سوى ربه ، فرده إلى هذه الحالة في بطن الحوت تعليماً له بالفعل لا بالقول ، « فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت » عذراً عن أمته ، أي تفعل ما تريد وتبسط رحمتك على ما تشاء « سبحانك » حيث كنت « إني كنت من الظالمين » ما أنت ظلمتني ، وهذا هو التوحيد العشرون في القرآن وهو توحيد الغم ، وهو توحيد المخاطب « أنت » وهو توحيد التنفيس .

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾

ظن يونس عليه السلام بالله خيراً فاستجاب له فنجاه من الغم وقذفه الحوت من بطنه على ساحل اليم مولوداً على الفطرة ، وأنبت عليه اليقطين لنعمته ولنفور الذباب عن حوزته ، ونفس الله عن يونس بالخروج من بطن الحوت ، وأرضاه في أمته ، إذ كان غضبه لله ومن أجله ، وظنه بربه أنه لا يضيق عليه ، وكذلك فعل ، فانظر في هذه العناية الإلهية بهذا النبي وما جاء به من الاعتراف في توحيده ، « وكذلك ننجي المؤمنين » يعني الصادقين في أحوالهم .

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾

من حيث أنه سبحانه وارث فإنه تعالى قال إنه يرث الأرض ومن عليها ، وهكذا الإشارة في كل خير منسوب مضاف مثل خير الصابرين والشاكرين ، ومثل هذا مما ورد عن الله في أي شرع .

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

روح عيسى منفوخ بالجمع والكثرة ففيه قوى جميع الأسماء والأرواح ، فإنه قال فنفخنا بنون الجمع ، فإن جبريل عليه السلام وهبه لها بشراً سوياً ، فتجلى في صورة إنسان كامل فنفخ وهو نفخ الحق ، كما قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده .

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾

جاء في حديث أبي عيسى الترمذي عن الدجال أن عيسى عليه السلام يقتله بباب لد ، ثم قال ويلبث كذلك ما شاء الله ، ثم يوحي الله إليه أن أحرز عبادي إلى الطور ، فإني قد أنزلت عباداً لي لا يد لأحد بقتالهم ، قال ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى : « من كل حدب ينسلون » قال فيمر أولهم ببحيرة طبرية فيشربون ما بها ، ثم يمر بها آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ، ثم يسيرون إلى أن ينتهوا إلى جبل بيت المقدس ، فيقولون لقد قتلنا من في الأرض فهلم فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله

عليهم نشابهم محمراً دماً ، ويحاصر عيسى ابن مريم وأصحابه حتى يكون رأس الثور يومئذ خيراً لهم من مائة دينار لأحدكم اليوم ، قال فيرغب عيسى ابن مريم إلى الله وأصحابه ، قال فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم ، فيصبحون فرسى موتى كموت نفس واحدة ، قال ويهبط عيسى ابن مريم وأصحابه فلا يجد موضع شبر إلا وقد ملأته زهمتهم ونتنهم ودماؤهم ، قال فيرغب عيسى إلى الله وأصحابه ، قال فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم بالمهبل ، ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم وجعابهم سبع سنين ، ويرسل الله عليهم مطراً لا يكن منه بيت ولا وبر ولا مدر ، قال فيغسل الأرض ويتركها كالزلفة ــ إلى آخر الحديث ــ قال أبو عيسى هذا حديث غريب حسن صحيح .

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾

« إنكم وما تعبدون من دون الله » أي الذي انفرد بهذا الاسم « حصب جهنم » وهو قوله : « وقودها الناس والحجارة » وهو كل من دعاكم إلى عبادة نفسه ، أو عبدتموه وكان في وسعه أن ينهاكم عن ذلك فما نهاكم ، فمثل هؤلاء يكونون من حصب جهنم ، وقد قرىء حطب جنهم ، إذا كان يوم القيامة ، وأدخل المشركون دار الشقاء ، وهي جهنم ، أدخل معهم جميع من عبدوه إلا من هو من أهل الجنة وعمارها فإنهم لا يدخلون معهم فدخولها معهم زيادة في عذابهم .

لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾

فيخلد المشرك في النار مع شريكه إن كان حجراً أو نباتاً أو حيواناً أو كوكباً ، إلا الإنسان الذي لم يرضَ بما نسب إليه ونهى عنه وكرهه ظاهراً وباطناً ، فإنه لا يكون معه في النار ، وإن كان هذا من قوله وعن أمره ومات غير موحد ولا تائب كان معه في النار ، إلا أن الذي

لا يرضى بذلك ينصب للمشرك مثال صورته يدخل مَعَهُ ليعذب بها ، ولا عذاب على كوكب ولا حجر ولا شجر ولا حيوان ، وإنما يدخلون معهم زيادة في عذابهم حتى يروا أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً ، فيقولون : (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون) .

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

وأما من سبقت لهم الحسنى ، وهم الذين لم يأمروا ولم يرضوا ، فهم عنها مبعدون كعيسى وعزير وأمثالهما وعلي بن أبي طالب وكل من ادعي فيه أنه إله وقد سعد .

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

فيدخل الله مع المشركين في جهنم مثلهم الذين كانوا يصورونها في الكنائس وغيرها ، نكاية لهم لأن كل عابد من المشركين قد مسك مثال صورة معبوده المتخيلة في نفسه ، فتجسد إليه تلك الصورة المتخيلة ويدخلها النار معه ، فإنه ما عبد إلا تلك الصورة التي مسكها في نفسه ، وتجسد المعاني المتخيلة غير منكور شرعاً وعقلاً ، فالمشركون يدخلون النار للعقاب والانتقام ، وهؤلاء المعبودون يدخلونها لا للانتقام فإنهم ما ادعوا ذلك ولا المثل ، وإنّما أدخلوها نكاية في حق العابدين لها فيعذبهم الله بشهودهم إياها ، حتى يعلموا أنهم لا يغنون عنهم من الله شيئاً ، لكونهم ليسوا بآلهة كما ادعوا فيهم ، والذين سبقت لهم الحسنى .

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾

« لا يسمعون حسيسها » يعني النار ، لما يؤثر السماع في صاحبه من الخوف (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) فإن الآخرة دائمة التكوين عن العالم ، فإنهم يقولون في الجنان للشيء يريدونه كن فيكون ، فلا يتوهمون أمراً ولا يخطر لهم خاطر في تكوين أمر ما إلا ويتكون بين أيديهم حساً بمجرد حصول الخاطر والهم والإرادة والتمني والشهوة ، فشهواتهم كالإرادة من الحق ، إذا تعلقت بالمراد تكوَّن .

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

اعلم أن لله عباداً أخفياء لا يعرفهم سواه ، قال فيهم ﷺ إنهم يوم القيامة يكونون على منابر من نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، تغبطهم الأنبياء والشهداء ، يعني بالشهداء هنا الرسل ، فإنهم شهداء على أممهم ، وكان الاغتباط من كونهم لم يكونوا رسلاً فارتاحوا ، وإن كانت الرسل أرفع مقاماً منهم ، فإنهم لا يدخلهم خوف البتة ، فغبط الأنبياء والشهداء إياهم فيما هم فيه من الراحة وعدم الحزن والخوف في ذلك الموطن ، والأنبياء والرسل وعلماء هذه الأمة الصالحون الوراثون درجات الأنبياء خائفون وجلون على أممهم ، وأولئك لم يكن لهم أمم ولا أتباع ، وهم آمنون على أنفسهم مثل الأنبياء على أنفسهم آمنون لا يحزنهم الفزع الأكبر من أجل نفوسهم ، فهذه الفئة هم أولياء الله الذين لا يخافون ، لأنهم ما لهم أمم ولا أتباع يخافون عليهم ، فارتفع الخوف عنهم في ذلك اليوم في حق نفوسهم وفي حق غيرهم ، كما قال تعالى : (لا يحزنهم الفزع الأكبر) فقد كانوا مجهولين عند الناس فلم يكونوا في الدنيا يعرفون ، ولا في الآخرة يطلب منهم الشفاعة ، فهم أصحاب راحة عامة في ذلك اليوم ، والوجه الآخر الذي ذكرناه أنهم لم يكونوا لهم أتباع ، فإذا كان في القيامة جاءت الأنبياء والعلماء خائفة يحزنهم الفزع الأكبر في غاية من شدة الخوف على أممهم لا على أنفسهم ، والأمم والمؤمنون والعامة والعصاة خائفون على أنفسهم لما ارتكبوه من المخالفات ، وهؤلاء ما لهم أتباع يخافون عليهم ، ولا ارتكبوا مخالفة توجب لهم الخوف ، فجاءت هذه الطائفة مستريحة غير خائفة لا على نفوسهم ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر على أممهم ، إذ لم يكن لهم أمم ، ففي مثل هذا يغبطهم النبيون والشهداء في ذلك الموقف خاصة (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) أن يرتفع الحزن والخوف فيه عنكم في حق أنفسكم وحق الأمم ، إذ لم تكن لكم أمة ولا تعرفتم لأمة مع انتفاع الأمة بكم ، ففي هذا الحال تغبطهم الأنبياء المتبوعون ، فإذا أدخلوا الجنة وأخذوا منازلهم تبينت المراتب وتعينت المنازل ، وظهر عليون لأولي الألباب .

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾

وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

قال ﷺ في حديث جابر المشهور أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر . وقال ﷺ أنا أول من تنشق عنه الأرض ــ **بحث في الإعادة** ــ قال تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده) وقال : (كما بدأكم تعودون) الإعادة تكرار الأمثال في الوجود ، لأن تكرار العين ليس بواقع للاتساع الإلهي ، ولكن الإنسان في لبس من خلق جديد ، فهي أمثال يعسر الفصل فيها لقوة الشبه ، فالإعادة إنما هي في الحكم ، مثل السلطان يولي والياً ثم يعزله ثم يوليه بعد عزله ، فالإعادة في الولاية ، والولاية نسبة لا عين وجودي ، ألا ترى الإعادة يوم القيامة إنما هي في التدبير ، فإن النبي ﷺ قد ميز بين نشأة الدنيا ونشأة الآخرة ، والروح المدبر لنشأة الدنيا عاد إلى تدبير النشأة الآخرة ، فهي إعادة حكم ونسبة لا إعادة عين فقدت ثم وجدت ، وأينَ مزاج من يبول ويغوط ويتمخط من مزاج مَنْ لا يبول ولا يغوط ولا يتمخط ؟ والأعيان التي هي الجواهر ما فقدت من الوجود حتى تعاد إليه ، بل لم تزل موجودة العين ، ولا إعادة في الوجود لموجود فإنه موجود ، وإنما هي هيآت وامتزاجات نسبية .

وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

ــ **إشارة** ــ الأرض هي أرض العبادة التي يرثها الصالحون في الطاعة ، فإن الصالح لا يرث من الأرض إلا إتيانها لله طائعة مع السماء ، حين قال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فورث العباد منها الطاعة لله وهي المعبر عنها بالقنوت .

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

ما كان السبَبُ في إنزال هذه الآية إلا أنّه لمّا اشتد قيام رسول الله ﷺ في الله وغيرته على الحق ، وكان في مقام الغيرة على جناب الله تعالى وما يستحقه ، أخذ يقنت في صلاته شهراً كاملاً وهو القنوت ، يدعو على طائفة من عباد الله بالهلاك والعذاب والانتقام في قصة رعل وذكوان وعصية عصت الله ورسوله ، فكان يقول اللهم عليك بفلان وفلان ، وذكر ما كان منهم فأنزل الله عليه وحيه بواسطة الروح الأمين ، يا محمد إن الله يقول لك ما أرسلك سباباً ولا

لعاناً ، أي طراداً ، أي لا تطرد عن رحمتي من بعثتك إليه ، وإنما بعثك رحمة ، أي لترحم مثل هؤلاء ، كأنه يقول له : بَدلَ دعائك عليهم كنت تدعوني لهم . وأوحى الله تعالى إليه في ذلك لما علم من إجابته إياه إذا دعاه في أمر ، فنهاه عن الدعاء عليهم وسبهم وما يكرهون إبقاءً لهم ورحمة بهم ، كما قال ﷺ حين جرحوه اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون ثم تلا عليه جبريل عليه السلام كلام ربه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فعتب الحق رسوله ﷺ في حق المشرك الذي أخبر أنه لا يغفر له بهذه الآية ، وما خص مؤمناً من غيره ، فلم يقل تعالى « للمؤمنين خاصة » فلم يخص الحق مؤمناً من كافر بل قال « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » أي لترحمهم ، لأنك صاحب القرآن الذي ينطق بأن رحمتي وسعت كل شيء ، فعم العالم و لم يخص عالماً من عالم ، فدخل المطيع والعاصي والمؤمن والكافر والموحد والمشرك في هذا الخطاب و كل مسمى العالم ، أي لترحمهم وتدعوني لهم لا عليهم ، فإنك إذا دعوتني لهم ربما وفقتهم لطاعتي ، فترى سرور عينك وقرتها في طاعة ، وإذا لعنتهم ودعوت عليهم وأجبت دعاءك فيهم لم يتمكن أن آخذهم إلا بأن يزيدوا طغياناً وإثماً مبيناً ، وذلك كله إنما يكون بدعائك عليهم ، فكأنك أمرتهم بالزيادة في الطغيان الذي نؤاخذهم به ، فتنبه رسول الله ﷺ لما أدبه به ربه ، فقال ﷺ إن الله أدبني فأحسن أدبي ، وقد صح عنه ﷺ أنه كان يقول : (اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون) ونهي عن الدعاء عليهم ، قام ليلة إلى الصباح لا يتلو فيها إلا قوله تعالى : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وهو قول عيسى عليه السلام ، فإنه ﷺ مرسل إلى جميع الناس كافة ليرحمهم بأنواع وجوه الرحمة ، ومن وجوه الرحمة أن يدعو لهم بالتوفيق والهداية ، فلا أحد ممن بعث إليه يبقى شقياً ولو بقي في النار فإنها ترجع عليه برداً وسلاماً ، فإنه من حين بعث رسول الله ﷺ انطلق على جميع من في الأرض من الناس أمة محمد ﷺ ، فعمت العالم رحمته ﷺ التي أرسل بها ، فإن الله أخبر أنه أرسله ليرحم العالم ، وما خص عالماً من عالم ، فأعلمنا الله أنه أرسله ﷺ بالرحمة وجعله رحمة للعالمين ، فمن لم تنله رحمته فما ذلك من جهته ، وإنما ذلك من جهة القابل ، فهو كالنور الشمسي أفاض شعاعه على الأرض ، فمن استتر منه في كن أو ظل جدار فهو الذي لم يقبل انتشار النور عليه ، وعدل عنه ، فلم يرجع إلى الشمس من ذلك منع ، وكانت هذه الآية في الدنيا عنوان حكم الآخرة ، لأنه إذا كان من

أشرك به يعتب رسوله ﷺ في الدعاء عليهم ، فكيف يكون فعله فيهم إذا تولى سبحانه الحكم فيهم بنفسه ، وقد علمنا أنه تعالى ما ندبنا إلى خلق كريم إلا كان هو أولى به ، ففي هذه الآية تنبيه على رحمة الله بعباده ، لأنهم على كل حال عباده ، معترفون به معتقدون لكبريائه ، طالبون القربة إليه ، لكنهم جهلوا طريق القربة و لم يوفوا النظر حقه . ـ وجه آخر ـ (وما أرسلناك) وما أرسل إلا بالعلم (إلا رحمة للعالمين) فجعل إرساله رحمة ، فهو علم يعطي السعادة في لين ، قال تعالى : (فبما رحمة من الله لنت لهم) .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾

اعلم أن الحق لما انتقم وعذب بصفة الغضب ، وعفا وتجاوز بصفة الكرم ، وعصم بصفة الرحمة ، وظهر الاستناد من الموجودات إلى الكثرة في العين الواحدة ، فاستند هذا إلى غير ما استند هذا ، زال ابتهاج التوحيد والأحدية بالأسماء الحسنى وبما نسب إليه من الوجوه المتعددة الأحكام ، فلم يبق للاسم الواحد ابتهاج ، فرجع إلى أحدية الألوهية ، وهي أحدية الكثرة لما تطلبه من الأسماء لبقاء مسمى الأحدية ، فقال : (قل إنما يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد) ولم يتعرض إلى ذكر النسب في الأسماء والوجوه ، فإن طلب الوحدة ينافي طلب الكثرة ـ راجع البقرة آية ١٦٤ ـ .

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

« قال رب احكم بالحق » أي الحق الذي شرعت لنا ليثبت صدقي عند من أرسلتني إليهم فيما أرسلتني به ، فجاء بلفظ يدل على أنه وقع فقال تعالى مخبراً « قال » وهو عند العامة ما وقع ، فإنه يوم القيامة ، وما أخبر الله إلا بالواقع ، فلابد أن يكون ثم حضرة إلهية فيها وقوع الأشياء دائماً ، لا يتقيد بالماضي فيقال قد وقعت ، ولا بالمستقبل فيقال تقع ، ولكن

متعلقها الحال الدائم ، والحال له الوجود ، ومن هذه الحضرة الإلهية عنها تقع الإخبارات بالماضي والمستقبل ، والألف واللام في الحق للحق المعهود الذي بعث به رسول الله ﷺ ، أي بما شرعت لي وأرسلتني به ، فإن الله لا يعاملنا إلا بما شرع لنا لا بغير ذلك ، ألا تراه قد أمر نبيه ﷺ أن يسأله يوم القيامة أن يحكم بالحق الذي بعثه به بين عباده وبيده ، فقال تعالى آمراً « قل » يا محمد ، وهي قراءة « رب احكم بالحق » أي فليكن حكمك في الأمم يوم القيامة بما شرعت لهم وبعثتنا به إليهم . فإن ذلك مما يراد ، فإنك ما أرسلتنا إلا بما تريد حتى يثبت صدقنا عندهم ، وتقوم الحجة عليهم إذا حكم الحق في كل أمة بما أرسل به نبيه إليهم ، وبهذا تكون لله الحجة البالغة ، فما حكم إلا بما شرع وأمر عبده أن يسأله تعالى في ذلك حتى يكون حكمه فيه عن سؤال عبده ، كما كان حكم العبد بما قيده من الشرع عن أمر ربه ، وأكثر من هذا التنزل الإلهي إلى العباد ما يكون ، وهل يحكم الله إلا بالحق ، فجعل الحق نفسه في هذه الآية مأموراً لنبيه عليه السلام ، فإن لفظة احكم أمر ، وأمره سبحانه أن يقول له ذلك ، فإن الله ما يعامل العبدَ بأمر إلا قد عامل به نفسه ، فأوجب على نفسه كما أوجب عليك ، ودخل لك تحت العهد كما أدخلك تحت العهد ، فما أمرك بشيء إلّا وقد جعل على نفسه مثل ذلك ، هذا لتكون له الحجة البالغة ، ووفى بكل ما أوجبه على نفسه ، وطلب منك الوفاء بما أوجبه عليك ، أليس هذا من لطفه ؟ أليس هذا من كرمه ؟ ألا تراه تعالى لما قال لنبيه داود « احكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » قال تعالى جبراً لقلب خلفائه « قل » يا محمد « رب احكم بالحق » فيحكم بنفسه تعالى بالحق الذي بعث به رسله ليصدقهم عند عبيده فعلاً بحكمه ، كما صدقهم في حال احتجابه بما أيدهم به من الآيات ، ولما كان الأصل في الحكم المشروع غلبة الظنّ ، فإن الحاكم لا يحكم إلا بشهادة الشاهد ، وهو ليس قاطعاً فيما شهد به من ذلك ، فما اختلف العلماء في حكم الحاكم بين الخصمين بغلبة الظن ، واختلفوا في حكمه بعلمه ، فكانت غلبة الظن في هذا النوع أصلاً متفقاً عليه ويرجع إليه ، وكان العلم في ذلك مختلفاً فيه ، والحق تعالى وإن لم يكن عنده إلا العلم فإنه يحكم بالشهود ، ولذلك جاء « قل رب احكم بالحق » أي بما شرعت لي وأرسلتني به ، فمع علمه تعالى يقيم على خلقه يوم القيامة الشهود ، فلا يعاقبهم إلا بعد إقامة البينة عليهم مع علمه ، وبهذا قال من قال : إنه ليس للحاكم أن يحْكُمَ بعلمه ، أما في العالم فللتهمة بما له

من الغرض ، وأما في جانب الحق فلإقامة الحجة على المحكوم عليه ، حتى لا يأخذه في الآخرة إلا بما شرع له من الحكم في الدنيا على لسان رسوله ﷺ ، ولهذا يقول الرسول لربه عن أمر ربه « رب احكم بالحق » يعني بالحق الذي بعثتني به وشرعت لي أن أحكم به فيهم « وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » لولا ما هو الرحمن ما اجترأ العبد أن يقول رب احكم بالحق ، فإنه تعالى ما يحكم إلا بالحق ــ **الوجه الثاني** ــ جعل الله في الوجود كتابين ، كتاباً سماه أمّاً ، فيه ما كان قبل إيجاده وما يكون ، كتبه بحكم الاسم المقيت ، فهو كتاب ذو قدر معلوم فيه بعض أعيان الممكنات وما يتكون عنها ، وكتاباً آخر ليس فيه سوى ما يتكون عن المكلفين خاصة ، فلا تزال الكتابة فيه ما دام التكليف ، وبه تقوم الحجة لله على المكلفين ، وبه يطالبهم لا بالأم ، وهذا هو الإمام الحق المبين الذي يحكم به الحق تعالى الذي أخبرنا الله في كتابه أنه أمر نبيه أن يقول لربه « احكم بالحق »، يريد هذا الكتاب ، وهو كتاب الإحصاء فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وكل صغير وكبير مستطر ، وهو منصوص عليه في الأم .

(٢٢) سورة الحج مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ (١) يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ (٢)

إذا كان يوم العرض ، ووقع الطلب بالسنة والفرض ، وذهلت كل مرضعة عما أرضعت ، وزهدت كل نفس فيما جمعت ، وألجم الناس العرق ، وامتازت الفرق ، واستقصيت الحقوق ، وحوسب الإنسان على ما اختزنه في الصندوق ، زال الريب والمين ، وبان الصبح لذي عينين ، وندم من أعرض وتولى ، وفاز بالتجلي السعادي كل قلب بالأسماء

الحسنى تحلى ، فإن الأمر جليل مهم ، وخطب ملم ، فزلزلة الساعة ، مذهلة عن الرضاعة ، مع الحب المفرط في الولد ، ولا يلوي أحد على أحد ، فإن عذاب الله شديد .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » من عناية الله بنا لما كان المطلوب من خلقنا عبادته أن قرب علينا الطريق ، بأن خلقنا من الأرض التي أمرنا أن نعبده فيها ، فخلقنا من تراب الأرض ، أنزل موجود خلق ، ليس وراءها وراء ، فقرَّب علينا الطريق لعبادته ، فخلقنا من تراب في تراب ، وهي الأرض التي جعلها الله ذلولاً ، والعبادة الذلة ، فنحن الأذلاء بالأصل (ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) أي تامة الخلقة وغير تامة الخلقة ، والغير تامة الخلقة داخل في قوله تعالى : « أعطى كل شيء خلقه » فأعطى النقص خلقه أن يكون نقصاً ، ولما كان الجسد للروح كالآلة للصانع يعمل بها في صنعته ، يصرف كل آلة لما هيئت له فمنها مكملة وهي المخلقة يعني التامة الخلقة ، ومنها غير المكملة وهي غير المخلقة ، فينقص العامل من العمل على قدر ما نقص من جودة الآلة ، ذلك ليعلم أن الكمال الذاتي لله سبحانه ، ولتنظر في مرتبة جسدك وروحك وتتفكر ، فتعتبر أن الله ما خلقك سدى ، وإن طال المدى ، (لنبين لكم ونقر في الأرحام

ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً) الطفل مأخوذ من الطفل وهو ما ينزل من السماء من الندى غدوة وعشية ، وهو أضعف ما ينزل من السماء من الماء ، فالطفل من الكبار كالرش والوبل والسكب من أنواع نزول المطر ، ولما كان بهذا الضعف كان مرحوماً أبداً ، (ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) وذلك لأنه من عالم الطبيعة يتنوع ويستحيل باستحالاتها ، فالمواد التي حصل له منها هذا العلم استحالت ، فالتحقق العلم بها بحكم التبعية ، « وترى الأرض هامدة » فإن الأرض فراش « فإذا أنزلنا عليها الماء » فإذا نكح الجو الأرض وأنزل الماء « اهتزت » تحركت ودبرت الماء في رحمها آثار الأنواء الفلكية ، « وربت » وهو الحمل فحملت شبه حمل المرأة « وأنبتت من كل زوج بهيج » فأولدها توأمين ، فضحكت الأرض بالأزهار ، وإنما كان زوجاً من أجل ما يطلبه من النكاح ، إذ لا يكون إلا بين زوجين ، والمخلقة من النبات هو ما سلم من الجوائح ، وغير المخلقة ما نزلت به الجائحة ، والله على كل شيء قدير .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

إن الله لما خلق الإنسان خلقه مستقبلاً الآخرة ، والساعة تستقبله ، ولذا سميت ساعة ، أي تسعى إليه .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم » وهو ما أعطاه الدليل النظري دليل فكره « ولا هدى » يعني ولا بيان أبان نه كشفه ، « ولا كتاب منير » وهو ما وقع به التعريف مما هو الحق عليه من النعوت ، لما نزلت به الآيات من المعرفة بالله في كتبه المنزلة الموصوفة بأنها نور ليكشف بها ما نزلت به ، لما كان النور يكشف به ، فنفاهم عن تقليد الحق وعن التجلي والكشف وعن النظر العقلي ، ولا مرتبة في الجهل أنزل من هذه المرتبة ، ولهذا جاءت من الحق في معرض الذم يذم بها من قامت به هذه الصفة .

ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

يقول تعالى في الحديث القدسي : « إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »، فما نرى من الحق إلا ما نحن عليه ، فمن شاء فليعمل ومن شاء لا يعمل ، فإنه لا يرجع إلى الإنسان إلا ما خرج منه ، فاجهد أن لا يخرج عنك إلا ما تحمد رجوعه إليك ، فهذه كلمة نبوية حق كلها فإن العمل ما يعود إلا على عامله ، قال رسول الله ﷺ : « لا تكونوا ممن خدعته العاجلة وغرته الأمنية واستهوته الخدعة ، فركن إلى دار سريعة الزوال وشيكة الانتقال ، إنه لم يبق من دنيا كم هذه في جنب ما مضى إلا كإناخة راكب أو صر حالب ، فعلام تعرجون ، وماذا تنتظرون ، فكأنكم والله بما قد أصبحتم فيه من الدنيا كأن لم يكن ، وما تصيرون إليه من الآخرة كأن لم يزل ، فخذوا الأهبة لأزوف النقلة ، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة ، واعلموا أن كل امرىء على ما قدَّم قادم ، وعلى ما خَلَّف نادم

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ

ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

قال الله تعالى خطاباً لمحمد ﷺ صاحب الكشف حيث يرى ما لا نرى « ألم تر » رؤية مشاهدة واعتبار ، لما أشهده سجود كل شيء « أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض » فأطلق وعم ثم فصل فقال « والشمس » في غروبها « والقمر » في محاقه « والنجوم » في مواقعها « والجبال » في إسكانها « والشجر » في إقامتها على سوقها « والدواب » في تسخيرها ، فعم الأمهات والمولدات وما ترك شيئاً من أصناف المخلوقات ، ولم يبعض فإن كل شيء في العالم يسجد لله تعالى من غير تبعيض إلا الناس ، فلما وصل بالتفصيل إلى ذكر الناس قال : « وكثير من الناس » فبعض ولم يقل كلهم ، وهم من لهم الشهود ، فإنه تعالى قال : كذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، ولذلك قال : « وكثير حق عليه العذاب »، وسبب ذلك أن وكله من حيث نفسه الناطقة بما جعل الله فيها من الفكر ، فسجد لله في صورة غير مشروعة ، فأخذ بذلك مع أنه ما سجد إلا لله في المعنى « ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » فجعل ذلك من مشيئته ، وأشهد الله سبحانه نبيه ﷺ سجود كل شيء فما ترك أحداً ، فإنه ذكر من في السموات ومن في الأرض فذكر العالم العلوي والسفلي ، فإن الله دعا العالم كله إلى معرفته وهم قيام فإن الله أقامهم بين يديه حين خلقهم ، فأسجدهم فعرفوه في سجودهم ، فلم يرفعوا رؤوسهم أبداً ، فكل ما سوى الله ما عدا الثقلين على معرفة بالله ،

ووحي من الله وعلم بمن تجلى له ، مفطور على ذلك سعيد كله ، فإن تجلي الحق دائم أبداً ، فيبادر العبد بالسجود في هذه الآية ليكون من الكثير الذي يسجد لله لا من الكثير الذي حق عليه العذاب ، فإذا رأى العبد أن الله قد وفقه للسجود و لم يحل بينه وبين السجود علم أنه من أهل العناية الذين التحقوا بمن لم يعض سجودهم ، فهذه السجدة هي سجود المعادن والنبات سجود المشيئة ، والحيوان وبعض البشر وعمار الأفلاك والأركان سجود مشاهدة واعتبار .

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

الإلحاد الميل عن الحق شرعاً ولذلك قال : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم » فذكر الظلم وهو هنا الهم الذي هو الإرادة ، فإنه سواء وقع منه ذلك الظلم الذي أراده أو لم يقع في الحرم المكي فإنه محاسب عليه ، وأما في غير المسجد الحرام المكي فإنه غير مؤاخذ بالهم ، فإن لم يفعل ما هم به كتب له حسنة إذا ترك ذلك من أجل الله خاصة ، فإن لم يتركها

من أجل الله لم يكتب له ولا عليه ، قال رسول الله ﷺ : احتكار الطعام بمكّةَ إلحاد فيه ، وكان ابن عباس يسكن الطائف لأجل هذه الآية احتياطاً لنفسه فإن الإنسان ما في قوته أن يمنع عن قلبه الخواطر فإنه تعالى نَكَّرَ الظلم ، فخاف مثل ابن عباس وغيره ـ **بحث في الإرادة** ـ اعلم أن الله تعالى إذا أراد إيجاد فعل ما بمقارنة حركة شخص ما بعث إليه رسوله المعصوم وهو الخاطر الإلهي المعلوم ، ولقربه من حضرة الاصطفا هو في غاية الخفا ، فلا يشعر بنزوله في القلب إلا أهل الحضور والمراقبة في مرآة الصدق والصفا ، فينقر في القلب نقرة خفية ، تنبيهاً لنزول نكتة غيبية ، فمن حكم به فقد أصاب في كل ما يفعله ، ونجح في كل ما يعمله ، وذلك هو السبب الأول ، عند الشخص الذي عليه يُعَوَّل ، وهو نقر الخاطر ، عند أرباب الخواطر ، وهو الهاجس ، عند من هو للقلب سائس ، فإن رجع إليه مرة أخرى فهو الإرادة ، فإن عاد ثالثة فهو الهم ، فإن عاد رابعة فهو العزم ، ولا يعود إلا لنفوذ أمر جزم ، فإن عاد خامسة فهو النية ، وهو الذي يباشر الفعل الموجود عن هذه البُنْيَة ، وبين التوجه إلى الفعل والفعل يظهر القصد ، واعلم أن النية إذا كان معناها القصد أصل في إقامة كل بنية ، وليس للحس في النية مدخل لأنها من وصف العقل المتخيل .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾

يا كعبة طاف بها المرسلون ... من بعد ما طاف بها المكرمون
ثم أتى من بعدهم عالم ... طافوا بها من بين عالٍ ودون
أنزلها مثلاً إلى عرشه ... ونحن حافون لها مكرمون
فإن يقل أعظم حاف به ... إني أنا خير فهل تسمعون
والله ما جاء بنص ولا ... أتى لنا إلا بما لا يبين
هل ذاك إلا النور حفت به ... أنوارهم ونحن ماء مهين
فانجذب الشيء إلى مثله ... وكلنا عبد لديه مكين
هلا رأوا ما لم يروا أنهم ... طافوا بما طفنا وليسوا بطين
لو جرد الألطف منا استوى ... على الذي حفوا به طائفين

قدّسُهمو أن يجهلوا حق من ... قد سخر الله له العالمين

لما نسب الله تعالى البيت إليه بالإضافة في قوله : « وطهر بيتي » جعله نظيراً ومثالاً لعرشه ، وجعل الطائفين به من البشر كالملائكة الحافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، أي بالثناء على ربهم تبارك وتعالى .

قلت عند الطواف كيف أطوف ... وهو عن درك سرنا مكفوف
جلمد غير عاقل حركاتي ... قيل أنت المحير المتلوف
انظر إلى البيت نوره يتلالا ... لقلوب تطهرت مكشوف
نظرته بالله دون حجاب ... فبدا سره العلي المنيف
وتجلى لها من أفق جلالي ... قمر الصدق ما اعتراه خسوف
لو رأيت الولي حين يراه ... قلت فيه مدله ملهوف
يلثم السر في سواد يميني ... أي سر لو أنه معروف
جُهلت ذاته فقيل كثيف ... عند قوم وعند قوم لطيف
قال لي حين قلت لم جهلوه ... إنما يعرف الشريفَ الشريفُ
عرفوه فلازموه زماناً ... فتولاهم الرحيم الرؤوف
واستقاموا فما يرى قط فيهم ... عن طواف بذاته تحريف
قم فبشر عني مجاور بيتي ... بأمان ما عنده تخويف
إن أمتهم فرحتهم بلقائي ... أو يعيشوا فالثوب منهم نظيف

ولنا أيضاً :

أرى البيت يزهو بالمطيفين حوله ... وما الزهو إلا من حكيم له صنع
وهذا جماد لا يحس ولا يرى ... وليس له عقل وليس له سمع
فقال شُخَيصٌ هذه طاعة لنا ... قد أثبتها طول الحياة لنا الشرع
فقلت له هذا بلاغك فاستمع ... مقالة من أبدى له الحكمة الوضع
رأيت جمادا لا حياة بذاته ... وليس له ضر وليس له نفع
ولكن لعين القلب فيه مناظر ... إذا لم يكن بالعين ضعف ولا صدع

يـــراه عزيـــزاً إن تجلى بذاتـــه   فلـيس لمخلـوق على حملـه وسع
فكـنتَ أبـا حـفص وكـنتُ عليًّـا   فمني العطاء الجزل والقبض والمنع

— **إشارة لا تفسير** — لما جعل الله قلب عبده بيتاً كريماً وحرماً عظيماً ، ذكر أنه وسعه حين لم يسعه سماء ولا أرض ، علمنا قطعاً أن قلب المؤمن أشرف من هذا البيت ، وجعل الخواطر تمر عليه كالطائفين ولما كان في الطائفين من يعرف حرمة البيت فيعامله في الطواف به بِما يستحقه من التعظيم والجلال ، ومن الطائفين من لا يعرف ذلك فيطوفون به بقلوب غافلة لاهية وألسنة بغير ذكر الله ناطقة ، بل ربّما يطوفون بفضول من القول وزور ، كذلك الخواطر التي تمر على قلب المؤمن منها مذموم ومنها محمود ، وكما كتب الله طواف كل طائف للطائف بالبيت على أي حالة كان ، وعفا عنه فيما كان منه ، كذلك الخواطر المذمومة عفا الله عنها ، ما لم يظهر على ظاهر الجوارح إلى الحس ، فقلب العبد المؤمن أعظم علماً وأكثر إحاطة من كل مخلوق ، فإنه محل لجميع الصفات ، وارتفاعه بالمكانة عند الله لما أودع الله فيه من المعرفة به ، ولما كان للبيت أربعة أركان ، فللقلب خواطر أربعة ، خاطر إلهي وهو ركن الحجر ، وخاطر ملكي وهو الركن اليمني ، وخاطر نفسي وهو الركن الشامي ، وهذه الثلاثة الأركان هي الأركان الحقيقية للبيت من حيث أنه مكعب الشكل ، وعلى هذا الشكل قلوب الأنبياء مثلثة الشكل ، ليس للخاطر الشيطاني فيها محل ، ولما أراد الله ما أراد من إظهار الركن الرابع جعله للخاطر الشيطاني ، وهو الركن العراقي ، وإنما جعلنا الخاطر الشيطاني للركن العراقي ، لأن الشارع شرع أن يُقال عنده : أعوذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، وبالذكر المشروع عند كل ركن تعرف مراتب الأركان ، وعلى هذا الشكل المربع قلوب المؤمنين ، وما عدا الرسل والأنبياء المعصومين ، ليميز الله رسله وأنبياءه من سائر المؤمنين بالعصمة التي أعطاهم وألبسهم إياها ، فليس لنبي إلا ثلاثة خواطر ، إلهي وملكي ونفسي ، وكما أن الله تعالى أودع في الكعبة كنزاً كذلك جعل الله في قلب العارف كنز العلم بالله ، فشهد لله بما شهد به الحق لنفسه من أنه لا إله إلا الله ، ونفى هذه المرتبة عن كل ما سواه ، فقال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) فجعلها كنزاً في قلوب العلماء بالله ، فالله بيته قلب عبده المؤمن ، والبيت بيت اسمه تعالى ، والعرش مستوى الرحمن ، فبين القلب والعرش في المنزلة ما بين الاسم الله والاسم الرحمن ، فإن مشهد الألوهية أعم ، لإقرار

الجميع ، فما أنكر أحد الله ، وأُنْكِرَ الرحمن ، فإنهم قالوا : [وما الرحمن ؟] ولما كان الحج لبيت الله الحرام تكرار القصد في زمان مخصوص ، كذلك القلب تقصده الأسماء الإلهية في حال مخصوص ، إذ كل اسم له حال خاص يطلبه ، فمهما ظهر ذلك الحال من العبد طلب الاسم الذي يخصه ، فيقصده ذلك الاسم ، فلهذا تحج الأسماء الإلهية بيت القلب ، وقد تحج إليه من حيث أن القلب وسع الحق ، والأسماء تطلب مسماها ، فلابد لها أن تقصد مسماها ، فتقصد البيت الذي ذكر أنه وسعه السعة التي يعلمها سبحانه ، والعمرة التي هي الزيارة بمنزلة الزور الذي يخص كل إنسان ، فعلى قدر اعتمارِه تكون زيارته لربه . فالطائفون بالكعبة كالحافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، فيلزم الطائف التسبيح في طوافه والتحميد والتهليل وقول : [لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم].

جسم يطوف وقلب ليس بالطائف ... ذات تُصَدُّ وذات مـــا لها صارف
يدعـى وإن كان هـذا الحال حليتـه ... هذا الإمام الهمـام الهمهـم العـارف
هيهات هيهات ما اسم الزور يعجبني ... قلبي له مـن خفايـا مكـره خائـف

ولما كان الحج تكرار القصد سمي تكرار الخواطر حجاً .

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧)

روي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه لما بنى البيت أمره ربه تعالى أن يصعد عليه وأن يؤذن في الناس بالحج ، فقال يا رب وما عسى يبلغ صوتي فأوحى إليه عليك النداء وعلي البلاغ ، فنادى إبراهيم عليه السلام يا أيها الناس إن لله بيتاً فحجوه ، قال فأسمع الله ذلك النداء عباده ، فمنهم من أجاب ومنهم من لم يجب ، وكانت إجابتهم مثل قولهم بلى حين أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، فمنهم من سارع إلى إجابة الحق وهم الذيـن يسارعون في الخيرات ، والقائلون بأن الحج على الفور للمستطيع ، ومنهم من تلكأ في الإجابة فلم يسرع إلا بعد حين ، وهو الذي يقول الحج مع الاستطاعة على التراخي ، ثم إن الذين أجابوه منهم من كرر الإجابة ومنهم من لم يكرر ، فمن لم يكرر لم يحج إلا واحدة ، ومن كرر حج على قدر ما كرر وله أجر فريضة في كل حجة ، « يأتوك رجالاً » يريد على أرجلهم لا يركبون « وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

« ليشهدوا منافع لهم » قال رسول الله ﷺ من أتى هذا البيت فلم يرفث و لم يفسق رجع كيوم ولدته أمه . « ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » سميت البهائم بهائم لإبهام أمرهم علينا « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » .

ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

« ثمَّ ليقضوا تفثهم » أي ليلقوا الوسخ ، وإزالة الشعث من الحاج لحفظ القوى مما ينالها من الضرر لسد المسام وانعكاس الأبخرة ، المؤذية لها المؤثرة فيها وما في معناها ، لأن الطهارة والنظافة مقصودة للشارع لأنه القدوس ، « وليوفوا نذورهم » التطوع قد يكون واجباً بإيجاب الله إذا أوجبه العبد على نفسه كالنذر ، فإن الله أوجبه بإيجاب العبد ــ **نصيحة** ــ لا تزد في العهود ويكفيك ما جبرت عليه ، ولهذا كره رسول الله ﷺ النذر وأوجب الوفاء به ، لأنه من فضول الإنسان « وليطوفوا بالبيت العتيق » الطواف ثلاثة ، طواف القدوم وطواف الإفاضة ويقال له طواف الزيارة وطواف الوداع ، وقد أجمع العلماء على أن الواجب من هذه الأطواف الثلاثة هو طواف الإفاضة ، فإن المعرّف إذا قدم مكة بعد الرمي أجزأه طواف الإفاضة عن طواف القدوم وصح حجه وإن المودع إذا طاف في زعمه طواف الوداع و لم يكن طافَ طواف الإفاضة كان ذلك الطواف طواف إفاضة أجزأ عن طواف الوداع ، لأنه طواف بالبيت معمول به في وقت طواف الوجوب الذي هو الإفاضة ، فقبله الله طواف إفاضة وأجزأ عن طواف الوداع ، والمتمتع إن لم يكن قارناً فعليه طوافان ، وإن كان قارناً فطواف واحد ، والمكي عليه طواف واحد ، وليست الطهارة شرطاً في صحة الطواف ، فإنه يجوز الطواف بغير وضوء للرجل والمرأة ، إلا أن تكون حائضاً فإنها لا تطوف ، وإن طافت لا يجزئها وهي عاصية لورود النص في ذلك ، وما ورد شرع بالطهارة للطواف إلا ما ورد في الحائض خاصة ، وما كل عبادة يشترط فيها هذه الطهارة الظاهرة ، ويجوز الطواف

في الأوقات كلها وبعد صلاة الصبح والعصر ، إلا أني أكره الدخول في الصلاة حال الطلوع وحال الغروب إلا أن يكون قد أحرم بها قبل حال الطلوع والغروب ، وصفة الطواف أن يجعل البيت على يساره ويبتدىء فيقبل الحجر الأسود إن قدر عليه ، ثم يسجد عليه أو يشير إليه إن لم يتمكن له الوصول إليه ، ويتأخّر عنه قليلاً بحيث أن يُدْخِلَهُ في الطواف بالمرور عليه ، ثم يمشي إلى أن ينتهي إليه يفعل ذلك سبع مرات ، يقبل الحجر في كل مرة ويمس الركن اليماني الذي قبل ركن الحجر بيده ولا يقبله ، فإن كان في طواف القدوم فيرمل ثلاثة أشواط ويمشي أربعة أشواط ، ولكن في أشواط رمله يمشي قليلاً بين الركنين اليمانين ويقول : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » إلى أن تفرغ الأشواط السبعة ، كل ذلك بقلب حاضر مع الله ويتخيل أنه في تلك العبادة كالحافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، فيلزم التسبيح في طوافه والتحميد والتهليل وقَوْلَ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، جاء في الخبر أن جبريل طاف بآدم حين أنزله الله بالكعبة ، فسأله آدم ما كنتم تقولون في طوافكم بهذا البيت ، فقال جبريل عليه السلام كنا نقول في طوافنا بهذا البيت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فقال آدم لجبريل عليهما السلام وأزيد كم أنا [ولا حول ولا قوة إلا بالله] فبقيت سنة في الذكر في الطواف لِبَنيه ولكل طائف به إلى يوم القيامة ، فأخبر رسول الله ﷺ أن هذه الكلمة أعطيها آدم من كنز من تحت العرش .

واعلم أن الله لما نسب العرش إلى نفسه وجعله محل الاستواء الرحماني جعل الملائكة حافين به من حول العرش بمنزلة الحرس حرس الملك والملازمين بابه لتنفيذ أوامره ، وجعل الله الكعبة بيته ، ونصب الطائفين به على ذلك الأسلوب ، وتميز البيت على العرش وعلى الضراح وسائر البيوت الأربعة عشر بأمر ، ما نقل إلينا أنه في العرش ولا في غير هذا من البيوت ، وهو الحجر الأسود يمين الله في الأرض لنبايعه في كل شوط مبايعة رضوان وبشرى بقبول ما كان منا في كل شوط مما هو لنا أو علينا ، فما لنا فقبول وما علينا فغفران ، فإذا انتهينا إلى اليمين الذي هو الحجر استشعرنا من الله سبحانه بالقبول فبايعناه وقبلنا يمينه المضافة إليه قبلة قبول وفرح واستبشار ، هكذا في كل شوط ، فإن كثر الازدحام أشرنا إليه إعلاماً بأنا نريد تقبيله ، وإعلاماً بعجزنا عن الوصول إليه ولا نقف ننتظر النوبة حتى تصل إلينا فنقبله ، لأنه لو أراد ذلك منا ما شرع لنا الإشارة إليه إذا لم نقدر عليه فعلمنا أنه يريد منا اتصال المشي في السبعة

الأشواط من غير أن يتخللها وقوف إلا قدر التقبيل في مرورنا إذا وجدنا السبيل إليه ، وكل طواف قدوم فيه رمل هكذا السنة لمن أراد أن يتبعها ، وأجمع العلماء على أن الركوع بعد الطواف من سنن الطواف ، وهو أن يركع ركعتين ، والأولى أن يصلي عند انقضاء كل أسبوع (أي سبعة أشواط) فإن جمع أسابيع فلا ينصرف إلا عن وتر ، فإن النبي ﷺ ما انصرف من الطواف إلا عن وتر فإنه انصرف عن سبعة أشواط أو عن طواف واحد ، فإن زاد فينصرف عن ثلاثة أسابيع وهي واحد وعشرون شوطاً ولا ينصرف عن أسبوعين ، فإنه شفع ، وبالأشواط الأربعة عشر شوطاً وهي شفع فجاء بخلاف السنة في طوافه من كل وجه ، والأولى أن لا يؤخر الركعتين عن أسبوعهما ، وليصلهما عند انقضاء الأسبوع ـ **إشارة** ـ طواف القدوم يقابل طواف الوداع ، فهو كالاسم الأول والآخر ، وطواف الإفاضة بينهما برزخ ، فلطواف الزيارة وجه إلى طواف الوداع ووجه إلى طواف القدوم ، كالعقل إذا أقبل على الله بالاستفادة ، وطواف الوداع إذا أراد الخروج إلى النفس بالإفادة ، والبرزخ أبداً أقوى في الحكم لجمعه بين الطرفين ، فيتصور في أي صورة شاء ، ويقوم في حكم أي طرف أراد ، ويجزىء عَنْهما ، فله الاقتدار التام ، والرَمَلُ إسراع في نفس الخير إلى الخير فهو خير في خير .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

العالم حُرَمُ الحق ، والكون حَرَمُه الذي أسكن فيه هؤلاء الحرم ، وأعظم الحرم ما له فيه أثر الطبع النكاحي لأنه مَحَلُّ التكوين ، فمن عظم حرمة الله فإنما عظم الله ، ومن عظم الله كان خيراً له ، وهو ما يجازيه به من التعظيم ، واعلم أن كل شعائر الله في دار التكليف قد حد لها للمكلف في جميع حركاته الظاهرة والباطنة حدوداً عمت جميع ما يتصرف فيه روحاً وحساً بالحكم ، وجعلها حرمات له عند هذا المكلف ، فقال : « ومن يعظم حرمات الله » وتعظيمها أن يبقيها حرمات كما خلقها الله في الحكم ، (فهو خير له عند ربه) فمن يسقط حرمات الله في دار التكليف فلا يرفع بها رأساً ولا يجد لها تعظيماً يفقد خيرها إذ

لم يعظمها عند ربه ونحن في دار التكليف ، فما فاتنا في هذه الدار من ذلك فاتنا خيره في الدار الآخرة ــ **وجه آخر** ــ « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » يعني خيراً له ممن يعظم شعائر الله إذا جعلنا خير بمعنى أفعل من ، ليميز بين تعظيم الشعائر وتعظيم حرمات الله ، فإن حرمة الله ذاتية فهو يقتضي التعظيم لذاته ، بخلاف الأسباب المعظمة ، فإن الناظر في الدليل ما هو الدليل له مطلوب لذاته ، فينتقل عنه ويفارقه إلى مدلوله ، فلهذا العالم دليل على الله لأنا نعبر منه إليه تعالى ، ولا ينبغي أن نتخذ الحق دليلاً على العالم فكنا نجوز منه إلى العالم وهذا لا يصح قال تعالى : « أفلا ينظرون » إلى كذا ، وعدّدَ المخلوقات لتتخذ أدلة عليه لا ليوقف معها ، فهذا الفرق بين حرمات الله وشعائر الله ــ **وجه آخر** ــ العامل في ظرف « عند ربه » أي من يعظم حرمات الله عند ربه أي في المواطن التي يكون العبد فيها عند ربه كالصلاة مثلاً ، فإن المصلي يناجي ربه فهو عند ربه ، فإذا عظم حرمة الله في هذا الموطن كان خيراً له ، والمؤمن إذا نام على طهارة فروحه عند ربه ، فيعظم هناك حرمة الله فيكون الخير الذي له في مثل هذا الموطن المبشرة التي تحصل له في نومه أو يراها له غيره ، والمواطن التي يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فيعظم فيها حرمات الله فليبحث العبد عن المواطن التي يكون فيها عند ربه فيعظم حرمة الله في تلك المواطن ، وتعظيمها أن يتلبس بها حتى تعظم « وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » لأنه مال بصاحبه عن الحق الذي هو الأمر عليه وزال عن العدل .

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

« حنفاء لله » فيكون العبد من المخلصين ويكونُ الدين مستخلصاً من الشيطان ، أو من الباعث عليه من خوف ورغبة وجنة ونار ، فيميل العبد به عن الشريك ولهذا قال فيه : « حنفاء لله » أي مائلين إلى جانب الحق ــ الذي شرعه وأخذه على المكلفين ــ من جانب الباطل « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح » وهو مثل قوة حكم النفس « في مكان سحيق » .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾

شعائر الله أعلامه ، وأعلامه الدلائل الموصلة إليه ، وكل شعيرة منها دليل على الله من حيث أمر ما خاص أراده الله وأبانه لأهل الفهم من عباده ، فيتفاضلون في ذلك على قدر فهمهم ، والشعائر ما دق وخفي من الدلائل ، وأخفاها وأدقها في الدلالة الآيات المعتادة، فهي المشهودة المفقودة ، والمعلومة المجهولة ، فإذا رأيت ما يقال فيه إنه من شعائر الله وتجهل أنت صورته من الشعائر ، ولا تعلم ما تدل عليه هذه الشعيرة فاعلم أن تلك الشعيرة ما خاطبك الحق بها ولا وضعها لك ، وإنما وضعها لمن يفهمها عنه ، ولك أنت شعيرة أيضاً غيرها ، وهي كل ما تعرف أنها دلالة لك عليه ، فقف عندها وقل رب زدني علماً ، فيقوى فهمك فيما أنزله ويعلمك ما لم تكن تعلم ، فليس في العالم عين إلا وهو من شعائر الله من حيث ما وضعه الحق دليلاً عليه ، ولما كان الشرف للموجودات إنما هو من حيث دلالتها على الله وجب تعظيمها ، فوصف من يعظم شعائر الله بقوله : « ومن يعظم شعائر الله فإنها » أي الشعائر عينها ، وهي الأعلام والدلالات والأسباب التي وضعها الله تعالى في العالم شعائر وأعلاماً لما يريد تكوينه وخلقه من الأشياء ، لما سبق في علمه أن يربط الوجود بعضه ببعضه ، ودل الدليل على توقف وجود بعضه على بعضه ، فالتعظيم لها ضرب من العلم به تعالى ، « من تقوى القلوب » فمن عظمها فهو تَقيّ في جميع تقلباته ، فإن القلوب من التقليب ، لأنه لما كان الدليل يشرف بشرف المدلول ، والعالم دليل على وجود الله ، فالعالم شريف كله ، فلا يحتقر شيء منه ولا يستهان ، فإن الله ما حقره لما علق القدرة بإيجاده ، فما ثم تافه ولا حقير ، فإن الكل شعائر الله ، فإن احتقار شيء من العالم لا يصدر من تقي يتقي الله . ــ **الوجه الثاني** ــ « فإنها » يعني العظمة ، والعظمة راجعة لحال المعظم بكسر الظاء اسم فاعل ، لذلك فهي حالة القلب فقال : « من تقوى القلوب » أي فإن عظمتها من تقوى القلوب ، فإن كل شيء من العالم إذا نظرته بتعظيم الله لا بعظمته فهو عظيم وهو الأدب ، فإنه لا ينبغي أن ينسب إلى العظيم إلا ما يستعظم ، فإنه تعظم عظمته في نفس من نظره بهذا النظر ، وما قال سبحانه إن ذلك من تقوى النفوس ، ولا من تقوى الأرواح ، ولكن قال من تقوى القلوب ، لأن الإنسان يتقلب في الحالات مع الأنفاس ، ومن يتق الله في كل

تقلب يتقلب فيه فهو غاية ما طلب الله من الإنسان ، ولا يناله إلا الأقوياء الكمل من الخلق ، لأن الشعور بهذا التقليب عزيز ، ولهذا قال شعائر الله أي هي تشعر بما تدل عليه ، وما تكون شعائر إلا في حق من يشعر بها ، ومن لا يشعر بها وهم أكثر الخلق فلا يعظمها ، فإذاً لا يعظمها إلا من قصد الله في جميع توجهاته وتصرفاته كلها ، ولهذا ما ذكرها الله إلا في الحج الذي هو تكرار القصد ، ولما كان القصد لا يخلو عنه إنسان كان ذكر الشعائر في آية الحج وذكر المناسك ، وهي متعددة أي في كل قصد ، ثم إن كل شعائر الله في دار التكليف قد حد لها للمكلف في جميع حركاته الظاهرة والباطنة حدوداً عمت جميع ما يتصرف فيه روحاً وحساً بالحكم ، وجعلها حرمات له عند هذا المكلَّف ، فقال : « ومن يعظم حرمات الله » وتعظيمها أي يبقيها حرمات كما خلقها الله في الحكم ، وهذا لا يكون إلا من تقوى القلوب ، فكل شيء في العالم أوجده الله لابد أن يكون مستنداً في وجوده إلى حقيقة إلهية ، فمن حقره واستهان به فإنما حقر خالقه واستهان به ، لأن كل ما في الوجود حكمة أوجدها الله ، لأنه صنعة حكيم ، فلا يظهر إلا ما ينبغي لما ينبغي كما ينبغي ، فمن عمي عن حكمة الأشياء فقد جهل ذلك الشيء ، ومن جهل كون ذلك الأمر حكمة فقد جهل الحكيم الواضع له ، ولا شيء أقبح من الجهل ، ولا تكون التقوى من جاهل ، والشعائر وإن كانت عظيمة في نفسها بما تدل عليه وعظيمة من حيث إن الله أمر بتعظيمها ، فموجدها وخالقها الآمر بتعظيمها أكبر منها وأعظم ، وما يقوم بحق التعظيم إلا من عظمه باستمرار الصحبة ، لا من عظمه عندما فجأه ، ذلك تعظيم الجاهل ، فمن عاين الخلق الجديد لم يزل معظماً للشعائر الإلهية .

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

« لكم فيها » يعني البدن « منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق » اعلم أن البدن جعلها الله من شعائره ، ولهذا تشعر ليعلم أنها من شعائر الله ، وما وهب لله لا رجعة فيه ، ألا تراها إذا ماتت قبل وصولها إلى البيت كيف ينحرها صاحبها ويخلي بينها وبين الناس ولا يأكل منها شيئاً ، وما عظم الله شعائره سدى ، لأنه ما عظم إلا من يقبل التعظيم ، وأما العظيم فلا يعظم ، فالله عظيم والعالم كله لإمكانه حقير ، إلا أنه يقبل التعظيم ، ولم يكن له طريق في التعظيم إلا أن يكون من شعائر الله عليه ــ **إشارة** ــ البيت العتيق عند أهل

الإشارات هو بيت الإيمان ، وليس إلا قلب المؤمن الذي وسع عظمة الله وجلاله ، والشعائر هي الدلائل الموصلة إليه تعالى وإلى معرفته .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

« وإلهكم إله واحد » فنؤمن به من حيث ما جاء به الخبر لا من حيث الدليل ، فذلك التصديق هو الإيمان ، والمخبتون هم الذين تولاهم الله بالإخبات وهو الطمأنينة ، والخبت المطمئن من الأرض ، فالذين اطمأنوا بالله من عباده وسكنت قلوبهم لما اطمأنوا إليه سبحانه فيه وذلوا لعزته أولئك هم المخبتون الذين أمر الله نبيه ﷺ في كتابه أن يبشرهم فقال له : « وبشر المخبتين »، فإن قيل ومن المخبتون قل .

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فهذه صفات المخبتين أي كانوا ساكنين فحركهم ذكر الله بحسب ما وقع به الذكر ، وصبروا أي حبسوا نفوسهم على ما أصابهم من ذلك و لم يمنعهم ذلك الوجل ولا غلبة الحال عن إقامة الصلاة إذا حضر وقتها على أتم نشأتها لما أعطاهم الله من القوة على ذلك ، ثم مع ما هم فيه من الصبر على ما نابهم من الشدة فسألهم سائل ــ وهم بتلك المثابة في رزق علمي أو حسي من سد جوعة أو ستر عورة ــ أعطوه مما سألهم منه ، فلم يشغلهم شأن عن شأن ، فهذا نعت المخبتين الذي نعتهم الله به ، وهم ساكنون تحت مجاري الأقدار عليهم راضون بذلك ، من خبت النار إذا سكن لهيبها .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ

﴿ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾

النعم كلها من شعائر الله ، فإن كل شعيرة منها دليل على الله من حيث أمر خاص أراده الله وأبانه لأهل الفهم من عباده ، والبدن هي الإبل وجعلها من شعائر الله عند كل حليم أواه ، ولم يكن المقصود منها إلا أنتم ، بقوله : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » يعني من البدن التي جعلها سبحانه من شعائر الله ، والقانع السائل والسؤال من الله لا من غيره ، يقال قنع قنوعاً إذا سأل وهو الذي رفع سؤاله إلى الله ، ومن سأل غير الله فليس بقانع ويخاف عليه من الحرمان والخسران

ـ **اعتبار من إشعار البُدْن** ـ اعلم أن النبي ﷺ قد ذكر في الإبل أنها شياطين وجعل ذلك علة في منع الصلاة في معاطنها ، والشيطنة صفة بعد من رحمة الله لا من الله ، لأن الكل في قبضة الله وبعين الله ، والإشعار الإعلام ولا أبعد من شياطين الإنس والجن ، والهدية بعيدة من المهدى إليه لأنها في ملك المهدي فهي موصوفة بالبعد ، وما يتقرب المتقرب إلى الله من أهل الدعاء إلى الله بأولى من رد من شرد عن باب الله وبعد إلى الله ليناله رحمة الله ، فإن الرسل ما بعثت بالتوحيد إلا للمشركين وهم أبعد الخلق من الله ليردوهم إلى الله ويسوقوهم إلى محل القرب وحضرة الرحمة ، فلهذا أهدى رسول الله ﷺ البدن مع ذكره فيها أنها شياطين ، ليثبت عند العالمين به أن مقامه ﷺ رد البعداء من الله إلى حال التقريب ، ثم إنه أشعرها في سنامها الأيمن ، وسنامها أرفع ما فيها ، فهو الكبرياء الذي كانوا عليه في نفوسهم ، فكان إعلاماً من النبي ﷺ لنا بأنه من هذه الصفة أتي عليهم ، لنجتنبها ، فإن الدار الآخرة إنما جعلها الله للذين لا يريدون علواً في الأرض ، والسنام علو ، ووقع الإشعار في صفحة السنام الأيمن ، فإن اليمين محل الاقتدار والقوة ، والصفحة من الصفح ، إشعار من أن الله يصفح عمن هذه صفته إذا طلب القرب من الله وزال عن كبريائه الذي أوجب له البعد ، لأنه أبى واستكبر ، وجعل ﷺ الدلالة على إزالة الكبرياء في شيطنة البدن جعل النعال في رقابها ، إذ لا يصفع بالنعال إلا أهل الهون والذلة ، ومن كان بهذه المثابة فما بقي فيه كبرياء يشهد ، وعلق النعال في قلائد من عهن وهو الصوف ليتذكر بذلك ما أراد الله بقوله : (وتكون الجبال كالعهن) فإذا كانت هذه صفته كان قرباناً من التقريب إلى الله ،

فحصلت له القربة بعد ما كان موصوفاً بالبعد إذ كان شيطاناً ، فإذا كانت الشياطين قد أصابتهم الرحمة فما ظنك بأهل الإسلام ـــ نحر البدن ـــ خرج أبو داود أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدنة معقولة اليد اليسرى ، قائمة على ما بقي من قوائمها .

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

ولذلك قال تعالى في الآية السابقة « ومما رزقناهم ينفقون » من حيث أن الإنفاق له وجهان وجه إلى الحق ووجه إلى الخلق « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » بل عادت منفعتها علينا من أكل لحومها والأجر الجزيل في نحرها والصدقة بلحومها « ولكن يناله التقوى منكم » فنالنا منها لحومها ونال الحق منها التقوى منا فيها ، فالحق تناله التقوى أعني تقوى القلوب ، فإنها شعائر الله ، ومن تقوانا تعظيمها ، وهو ضرب من العلم بالله من تقوى القلوب ، واعلم أن المراد بإثبات النيل هنا وعدم النيل في جانب الحق أن الله سبحانه ما يناله شيء من أعمال الخلق ، مما كلفهم العمل فيه نيل افتقار إليه وتزين به ليحصل له بذلك حالة لم يكن عليها ، ولكن يناله التقوى وهو أن تتخذوه وقاية مما أمركم أن تتقوه به على درجات التقوى ومنازله ، فمعنى يناله التقوى أنه يتناولها منك ليلبسك إياها بيده تشريفاً لك حيث خلع عليك بغير واسطة ، قال رسول الله ﷺ : إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، فيكسوكم الحق من أعمالكم حُللاً على قدر ما حَسَّنْتُموها واعتنيتم بأصولها ، فمن لابسٍ حريراً ، ومن لابس مشاقة كتان وقطن وما بينهما ، فسواء كانت الخلعة من رفيع الثياب أوْ دنيئها فذلك راجع إليك ، فإنه ما ينال منك إلا ما أعطيته ، وإن جمع ذلك التقوى ، فإنه لا يأخذ شيئاً سبحانه من غير المتقي ، فلهذا وصف نفسه بأن التقوى تناله من العباد ، والتقوى من المتقين من خلقه ، « وبشر المحسنين » الذين أشهدهم كبرياءه .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن

دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

« ولينصرن الله من ينصره » فالحمد لله واضع المِلَل وشارع النِحَل ، تارة بالوحي وتارة بالإلهام ، فوقتاً خَلْفَ حجاب الإشراق ووقتاً خلف حجاب الظلام ، فأضل وهدى ، وأنجى وأردى ، وأقام أعلام الضلالة والهدى ، ففصل بها بين الأولياء والأعداء ، فجعل الهدى لحزب السعادة سلماً ، ونصب الضلالة لحزب الشقاوة علماً ، وأوقع بينهما الفتن والحرب ، في عالم الشهادة والغيب ، وثبتت في صدورهم الشحناء ، وبدت بينهم العداوة والبغضاء ، فسفكت الدماء ، واتبعت الأهواء ، فالسعيد منا من ناضل عن شرعه المؤيد بالآيات ، وقاتل عن وضعه المقرر بالمعجزات ، والشقي من احتمى بحمى الضلالات ، ودافع عنها بمجرد الحمايات ، وأعمى نفسه عن ملاحظة الصواب ، فيما وقع به الخطاب ، فبادروا إلى نصرة الدين المكي ، وقاتلوا بما ثبت في نفوسكم من اليقين اليمني ، وقد خاب من طلب أثراً بعد عين ، ورجع بعد معرفته بعلو مرتبة الصدق إلى المين ، جعلنا الله وإياكم ممن ذب عن شرعه المعصوم ، وناضل عن دينه المعلوم .

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾

وهو الحمد فإن عواقب الثناء كله يرجع إلى الله لا إلى غيره .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » ما جعلها عقلاً إلا ليعقل عنه العبد بها ما يخاطبه بها ، فاعلم أيدك الله أن العلم تحصيل القلب أمراً ما على حد ما هو عليه ذلك في نفسه ، معدوماً كان ذلك الأمر أو موجوداً ، فالعلم هو الصفة التي توجب التحصيل من القلب ، والعالم هو القلب والمعلوم هو ذلك الأمر المحصل ، فالقلب مرآة مصقولة كلها وجه لا تصدأ أبداً ، فإن أطلق يوماً عليها أنها صدئت كما قال عليه السلام إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ـ الحديث ـ وفيه أن جلاءها ذكر الله وتلاوة القرآن ، فليس المراد بهذا الصدأ أنه طخاء طلع على وجه القلب ، ولكنه لما تعلق واشتغل بعلم الأسباب عن العلم بالله كان تعلقه بغير الله صدأ على وجه القلب لأنه المانع من تجلي الحق إلى هذا القلب ، لأن الحضرة الإلهية متجلية على الدوام لا يتصور في حقها حجاب عنا ، فلما لم يقبلها هذا القلب من جهة الخطاب الشرعي المحمود لأنه قبل غيرها ، عبر عن قبول ذلك الغير بالصدأ والكن والقفل والعمى والران وغير ذلك ، فالقلوب أبداً لم تَزَلْ مفطورة على الجلاء مصقولة صافية ، فكل قلب تجلت فيه الحضرة الإلهية فذلك قلب المشاهد المكمل العالم ، ومن لم تتجل له من كونها من الحضرة الإلهية فذلك هو القلب الغافل عن الله تعالى المطرود من قرب الله تعالى ـ **تحقيق** ـ اعلم أن الله تعالى ابتلى الإنسان ببلاء ما ابتلى به أحداً من خلقه ، إما لأن يسعده أو يشقيه ، على حسب ما يوفقه إلى استعماله ، فكان البلاء الذي ابتلاه به أن خلق فيه قوة تسمى الفكر ، وجعل هذه القوة خادمة لقوة أخرى تسمى العقل ، وجبر العقل مع سيادته على الفكر أن يأخذ منه ما يعطيه ، ولم يجعل للفكر مجالاً إلا في القوة الخيالية وجعل سبحانه القوة الخيالية محلاً جامعاً لما تعطيه القوة الحساسة ، وجعل له قوة يقال لها المصورة ، فلا يحصل في القوة الخيالية إلا ما أعطاه الحس ، أو أعطته القوة المصورة من المحسوسات ، وذلك

لأن العقل خلق ساذجاً ليس عنده من العلوم النظرية شيء ، وقيل للفكر ميز بين الحق والباطل الذي في هذه القوة الخيالية ، فينظر بحسب ما يقع له ، فقد يحصل في شبهة ، وقد يحصل في دليل عن غير علم منه بذلك ، ولكن في زعمه أنه عالم بصور الشبه من الأدلة ، وأنه قد حصل على علم ، ولم ينظر إلى قصور المواد التي استند إليها في اقتناء العلوم فيقبلها العقل منه ويحكم بها ، فيكون جهله أكثر من علمه بما لا يتقارب ، ثم إن الله كلّف هذا العقل معرفته سبحانه ليرجع إليه فيها لا إلى غيره ، فَفَهِمَ العقل نقيض ما أراد به الحق ، فاستند إلى الفكر وجعله إماماً يقتدى به ، وغفل عن الحق في مراده بالتفكر ، أنه خاطبه أن يتفكر فيرى أن علمه بالله لا سبيل إليه إلا بتعريف الله ، فيكشف له عن الأمر على ما هو عليه ، فلم يفهم كل عقل هذا الفهم ، إلا عقول خاصة الله من أنبيائه ، وأوليائه ، فالذي ينبغي للعاقل أن يدين الله به في نفسه أن يعلم أن الله على كل شيء قدير ، نافذ الاقتدار ، واسع العطاء ، ليس لإيجاده تكرار ، بل أمثال تحدث في جوهر أوجده ، وشاء بقاءه ، ولو شاء أفناه مع الأنفاس « أو آذان يسمعون بها فإنها لا تَعْمَى الأبصار » فإنها أدركت بلا شك ، قال رسول الله ﷺ : لولا تزييد في حديثكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع « ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وهي أعين البصائر ، تعمى عن النظر في مقدمات الأدلة وترتيبها « ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » فبين مكان القلوب ، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أن مركز الروح وهو الخليفة المستخلف على الجسم إنما هو القلب ، فليست الإشارة للقلب النباتي فإن الأنعام يشاركوننا في ذلك ، لكن للسر المودع فيه وهو الخليفة ، والقلب النباتي قصره ، قال ﷺ : إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب ، فالقلب النباتي لا فائدة له إلا من حيث هو مكان لهذا السر المطلوب ، المتوجه عليه الخطاب ، والمجيب إذا ورد السُّؤال ، والباقي إذا فَنِيَ الجسم والقلب النباتي ، فنقول كذلك إذا صلح الإمام صلحت الرعية وإذا فسد فسدت ، بذا جرت العادة وارتبطت الحكمة الإلهية ، فالقلب ما دام في الصدور فهو أعمى لأن الصدر حجاب عليه ، فإذا أراد الله أن يجعله بصيراً خرج عن صدره فرأى ، فالأسبابُ صدورُ الموجودات ، والموجودات كالقلوب ، فما دام الموجود ناظراً إلى السبب الذي صدر عنه كان أعمى عن شهود الله الذي أوجده ، فإذا أراد الله أن يجعله بصيراً ترك النظر إلى السبب الذي أوجده

الله عنده ، ونظر من الوجه الخاص الذي من ربه إليه في إيجاده جعله الله بصيراً ، فالأسباب كلها ظلمات على عيون المسببات ، وفيها هلك من هلك من الناس ، فالعارفون يثبتونها ولا يشهدونها ، ويعطونها حقها ولا يعبدونها ، وما سوى العارفين يعاملونها بالعكس ، يعبدونها ولا يعطونها حقها ، بل يغصبونها فيما تستحقه من العبودية التي هي حقها ويشهدونها ولا يثبتونها ، والعالمُ لم يزل في المعنى تحت تأثير الأسباب ، فإن الأسباب محال رفعها ، وكيف يرفع العبد ما أثبته الله ليس له ذلك ، ولكن الجهل عم الناس فأعماهم وحيرهم وما هداهم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، بالروح الموحى من أمر الله ، فيهدي به من يشاء من عباده ، فقد أثبت الهداية بالروح ، وهذا وضع السبب في العالم ، فالوقوف عند الأسباب لا ينافي الاعتماد على الله ، ولهذا جعل سبحانه الأسباب مسببات لأسباب غيرها من الأدنى حتى ينتهي فيها إلى الله سبحانه ، فهو السبب الأول لا عن سبب كان به ، فالقلب في الصدور هو الرجوع لا واحد الصدور ، فإنا عن الحق صدرنا من كوننا عنده في الخزائن ، كما أعلمنا فعلمنا ، فهو صدور لم يَتَقَدَّمْهُ ورود ، فالحق المعتَقَد في القلب هو إشارة إلى القلب ، فاقلب تجد ما ثبت في المعتقد ، فقوله تعالى : « ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » على الوجهين الواحد من الوجهين للحصر وهي الصدور المعلومة والثاني للرجوع إلى الحق ، ومن وجه آخر تعمى القلوب التي في الصدور عن الحق والأخذ به ، فلو كانت غير معرضة عن الحق مقبلة عليه لأبصرت الحق فأقرت له بالربوبية في كل شيء ، فلما صدرت عن الحق بكونها ولم تشهده في عينها عميت في صدورها عمن أوجدها ، فإن عمى القلوب أشد من عمى الأبصار ، فإن عمى القلوب يحول بينك وبين الحق ، وعمى البصر الذي لم يرقط صاحبه ليس يحول إلا بينك وبين الألوان خاصة ، ليس له إلا ذلك ، وهذا العمى من الحجب التي احتجب بها الخلق عن الله ، وكذلك الصمم والقفل والكن .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

يعني من أيامنا هذه المعلومة المعروفة وهو هذا اليوم الصغير الذي من شروق الشمس إلى شروق الشمس ، فبهذا الليل والنهار الموجودين في المعمور من الأرض بهما تعد أيام الأفلاك

وأيام الرب ، ونحن نعلم قطعاً أن الأماكن التي يكون فيها النهار ستة أشهر والليل كذلك أن ذلك يوم واحد في حق ذلك الموضع ، فيوم ذلك الموضع ثلاثمائة وستون يوماً مما نعده .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

الأنبياء لهم العصمة من الشيطان ظاهراً وباطناً وهم محفوظون من الله في جميع حركاتهم ، وذلك لأنهم قد نصبهم الله للناس ولهم المناجاة الإلهية ، فالأنبياء المرسلون معصومون من المباح أن يفعلوه من أجل نفوسهم ، لأنهم يشرعون بأفعالهم وأقوالهم ، فإذا فعلوا مباحاً يأتونه للتشريع ليقتدى بهم ويعرفون الأتباع الحكم الإلهي فيه ، فهو واجب عليهم ليبينوا للناس ما أنزل إليهم ، والأنبياء معصومون أن يلقي الشيطان إليهم ، وكذلك الأنبياء يعطى لكل نبي أجر الأمة التي بعث إليهم سواء آمنوا به أو كفروا ، فإن نية كل نبي يود لو أنهم آمنوا ، فيتساوى الأنبياء في أجر التمني ، ويتميز كل واحد عن صاحبه في الموقف بالأتباع ، فالنبي يأتي ومعه السواد الأعظم ، وأقل وأقل حتى يأتي نبي ومعه الرجلان والرجل ، ويأتي النبي وليس معه أحد والكل في أجر التبليغ سواء ، وفي الأمنية « والله عليم حكيم » فإن الحق لم يأت بالمعجزة إلا لمن يعلم أن في قوّته قبولها بما ركب الله فيه من ذلك ، ولذلك اختلفت الدلالات من كل نبي وفي حق كل طائفة ، ولو جاءهم بآية ليس في وسعهم أن يَقْبلوها لجهلهم ما آخذهم الله بإعراضهم ولا بتوليهم عنها ، فإن الله عليم حكيم عادل .

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ

ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

وصف الحق نفسه بأنه الهادي ، والهادي هو الذي يكون أمام القوم ليريهم الطريق ، وهو قوله : « إن ربي على صراط مستقيم » فتقدم تعالى الأشياء ليهديها إلى ما فيه سعادتها ، وتأخر عنها بقوله : « من ورائهم محيط »، ليحفظها ممن يغتالها وهو العدم ، فإن العدم يطلبها كما يطلبها الوجود ، وهي في محل قابل للحكمين ليس في قوتها الامتناع إلا بلطف اللطيف .

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

العقيم ما يوجب أن لا يولد منه ، فلا تكون له ولادة على مثله ، وسمي اليوم عقيماً لأنه لا يوم بعده أصلاً ، وهو من يوم الأسبوع يوم السبت ، وهو يوم الأبد ، فنهاره نور لأهل الجنة دائم لا يزال أبداً ، وليله ظلمة على أهل النار لا يزال أبداً .

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

« لينصرنه الله » ولو بعد حين « إن الله لعفو غفور » كل عاص ما اجترأ على الله إلا بما أشهده من نعوته تعالى ، من العفو والتجاوز والصفح والمغفرة وعموم الرحمة ولا سيما العفو .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

اعلم أن الأيام في الدنيا كل يوم هو ابن اليوم قبله ، وهما توأمان ليلة ونهار ، فالليلة أنثى والنهار ذكر ، فيتناكحان فيلدان النهار والليل اللذين يأتيان بعدهما ، ويذهب الأبوان فإنهما لا يجتمعان أبداً ، وفي غشيان الليل النهار وإيلاج بعضهما في بعض يكون ولادة ما يتكون في كل واحد منهما من الأمور والكوائن التي هي من شؤون الحق ، فيكون الليل ذكراً والنهار أنثى لما يتولَّد في النهار من الحوادث ، ويكون النهار ذكراً والليل أنثى لما يتولد في الليل من الحوادث ، فهذا التوالج لإيجاد ما سبق في علمه أن يظهر فيه من الأحكام والأعيان في العالم العنصري ، فنحن أولاد الليل والنهار ، فما حدث في النهار فالنهار أمه والليل أبوه ، وما ولد في الليل فالليل أمه والنهار أبوه ، ولا يزال الحال في الدنيا ما دام الليل والنهار يغشى أحدهما الآخر .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

« هو العلي » لذاته لا بالإضافة ، لأن الكل تحت ذل الحصر والتقييد والعجز ، لينفرد جلال الله بالكمال على الإطلاق فالعلي لِنَفْسِهِ هو الذي يكون له الكمال الذي يستغرق به جميع الأمور الوجودية والنسب العدمية ، بحيث لا يمكن أن يفوته نعت منها ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة ، وليس علوه بالمكان ولا المكانة ، فإن علو المكانة يختص بولاة الأمر كالسلطان والحكام والوزراء والقضاة وكل ذي منصب ، سواء كان فيه أهلية ذلك المنصب أو لم يكن ، والعلو بالصفات ليس كذلك .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ

ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

لرحمته بمن في الأرض من الناس مع كفرهم بنعمه ، فلا تهوي السماء ساقطة واهية حتى يزول الناس منها ، لذلك تمم « إن الله بالناس لرءوف رحيم » فيمسك الله صورة السماء على السماء لأجل الإنسان الموحد الذي لا يمكن أن ينفي فذكره الله لله ، لأنه ليس في خاطره إلا الله ، فما عنده أمر آخر يدعي عنده ألوهية فينفيه بلا إله إلا الله ، فليس إلا الله الواحد الأحد ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله ، فهذا هجير هذا الإمام الذي يقبض آخراً وتقوم الساعة فتنشق السماء ، فهذا وأمثاله كان العمد لأن الله ما أمسكها إلا من أجله أن تقع على الأرض .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

المعرفة تتعلق بأمرين من كل معروف ، الأمر الواحد الحق والآخر الحقيقة ، فالحق من مدارك العقول من جهة الدليل ، والحقيقة من مدارك الكشف والمشاهدة ، وليس ثم مدرك ثالث البتة ، فلهذا قال حارثة أنا مؤمن حقاً ، فأتى بالمدرك الأول فكان عنده مؤيداً بالمدرك الثاني ، ولكن سكت فقال له النبي عليه السلام فما حقيقة إيمانك ، يرى إن كان عنده المدرك الثاني ، فأجابه بالاستشراف والاطلاع والكشف ، فقال له النبي عليه السلام عرفت فالزم ، فلا تصح المعرفة للشيء على الكمال إلا بهاتين الحقيقتين الحق والحقيقة ، فإذا أخبر الله تعالى بأنا عاجزون عن إدراك حق قدره ، فكيف لنا بحقيقة قدره ، وليس القدر هنا إلا المعرفة بما يقتضيه مقام الألوهية من التعظيم ، ونحن قد عجزنا عنه فأحرى أن نعجز عن معرفة ذاته جلت وتعالت علواً كبيراً ، فلما عاين المحققون هذا الإجلال وقطعوا أنهم لا يقدرون قدره مع ما تقرر عندهم من التعظيم ، وقدر ما هم بالتقصير ، فعرفوا أنه ليس في وسع المحدثات أن تقدر قدر القديم ، لأن ذلك موقوف على ضرب من المناسبة الحقيقية ، ولا مناسبة في مَفاوزِ الحيرة لهذا الجلال ، وما قدروا الله حق قدره فيما كيَّف به نفسه مما ذكره في كتابه وعلى لسان رسوله من صفاته ، فالحق ذكر عن نفسه أن العبد يتحرك بحركة يضحك بها ربه ، ويتعجب منها ربه وتبشبش له من أجلها ربه ، ويفرح بها ربه ويرضي بها ربه ويسخط بها ربه ، وهذا حكم أثبته الحق ونفاه دليل العقل ، فعرفنا أن العقل قاصر عما ينبغي لله عز وجل ، وأنه لو ألزم نفسه الإنصاف للزم حكم الإيمان والتلقي ، وجعل النظر والاستدلال في الموضع الذي جعله الله ، ولا يعدل به عن طريقه الذي جعله الله له ، وهو الطريق الموصل إلى كونه إلهاً واحداً لا شريك له في ألوهيته ، ولا يتعرض لها لما هو عليه في نفسه ، فالحق قد أخبر عن نفسه أنه يجيب عبده إذا سأله ، ويرضى عنه إذا أرضاه ، ويفرح بتوبة عبدِهِ إذا تاب ، فانظر يا عقل لمن تنازع ، فالحق أعلم بنفسه ، فهو الذي نعت نفسه بهذا كله ،

ونعلم حقيقة هذا كله بحده وماهيته ، ولكن نجهل النسبة إلى الله في ذلك لجهلنا بذاته وقد منعنا وحذرنا وحجر علينا التفكر في ذاته ، وأنت يا عقل بنظرك تريد أن تعلم حقيقة ذات خالقك ، لا تسبح في غير ميدانك ، ولا تتعد في نظرك معرفة المرتبة ، لا تتعرض للذات جملة واحدة ، ومن أراد الدخول على الله فليترك عقله ويُقَدِّمَ بين يديه شرعه ، فإن الله لا يقبل التقييد ، والعقل تقييد ، بل له التجلي في كل صورة كما له أن يركبك في أي صورة شاء ، فله سبحانه التحول في الصور، وما قدروا الله حق قدره ، وما ثم حجاب ولا ستر ، فما أخفاه إلا ظهوره ، ولو وقفت النفوس مع ما ظهر لعرفت الأمر على ما هو عليه ، لكن طلبت أمراً غاب عنها فكان طلبها عين حجابها ، فما قدرت ما ظهر حق قدره لشغلها بما تخيلت أنه بطن عنها .

ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾

« الله يصطفي من الملائكة رسلاً » الملائكة خاصة هي الرسل منهم ، وهم المسمون ملائكة ، وكل روح لا يعطى رسالة فهو روح لا يقال فيه ملك إلا مجازاً ، والرسالة في الملائكة دنيا وآخرة ، لأنهم سفراء الحق لبعضهم وصنفهم ولمن سواهم من البشر في الدنيا والآخرة ، « ومن الناس » والرسالة في البشر لا تكون إلا في الدنيا ، وينقطع حكمها في الآخرة ، وكذلك تنقطع في الآخرة بعد دخول الجنة والنار نبوة التشريع ، والرسالة لا يقبلها الرسول إلا بواسطة روح قدسي أمين ينزل بالرسالة على قلبه ، وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً ، وكل وحي لا يكون بهذه الصفة لا يسمى رسالة بشرية ، وإنما يسمى وحياً أو إلهاماً أو نفثاً أو إلقاء أو وجوداً ، ولا تكون الرسالة إلا كما ذكرنا ، ولا يكون هذا الوصف إلا للرسول البشري ، وما عدا هذا من ضروب الوحي فإنه يكون لغير النبي والرسول ، والفرق بين النبي والرسول أن النبي إذا ألقى إليه الروح ما ذكرناه اقتصر بذلك الحكم على نفسه خاصة ، ويحرم أن يتبع غيره ، فهذا هو النبي فإذا قيل له بلغ ما أنزل إليك إما لطائفة مخصوصة كسائر الأنبياء ، وإما عامة للناس و لم يكن ذلك إلا لمحمد ﷺ ، لم يكن لغيره قبله ، فسمي بهذا الوجه رسولاً ، والذي جاء به رسالة ، وما اختص به من الحكم في نفسه وحرم على غيره من ذلك الحكم هو نبي مع كونه رسولاً ، وأعني بالنبوة هنا نبوة التشريع ، فالرسالة والنبوة

التي انقطعت هي تَنَزُّل الحكم الإلهي على قلب البشر بواسطة الروح .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾

هذه سجدة خِلاف مختلف فيها ، وهي سجدة الفلاح والإيمان عن خضوع وذلة وافتقار ، فكان فعل الخير بمبادرته للسجود عندما سمع هذه الآية تتلى سبباً لإيمانه ، إذ كان الله قد أيه بالمؤمنين في هذه الآية وأمرهم بالركوع والسجود له ، فالتحق بالملائكة من كونهم يفعلون ما يؤمرون ، فسجد العبد فأفلح بالفوز والنجاة « وافعلوا الخير ».

لا تندمــن على خير تجود بـــه ... وإن أغاظك من تعطيـه واقترفـا
فـالله يـرزق مــن يعطيـه نعمتـه ... سواء أنكرهـا كفــراً أو اعترفـا

« لعلكم تفلحون » الفلاح هو البقاء والفوز والنجاة .

وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

« وجاهدوا في الله حق جهاده » الهاء من جهاده تعود على الله ، أي يتصفون بالجهاد ، أي في حال جهاده صفة الحق ، أي لا يرون مجاهداً إلا الله ، وذلك لأن الجهاد وقع فيه ، ولا يعلم أحد كيف الجهاد في الله إلا الله ، فإذا ردوا ذلك إلى الله وهو قوله : « حق جهاده » فنسب الجهاد إليه بإضافة الضمير ، فكان المجاهد لا هم ، أي لا يرون لأنفسهم عملاً وإن كانوا محل ظهور الآثار . قال الله لموسى عليه السلام يا موسى اشكرني حق الشكر ، قال يا رب ومن يقدر على ذلك ، قال إذا رأيت النعمة مني فقد شكرتني حق الشكر ـ أخرجه

ابن ماجة في سننه ــ قال تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » فكل عمل أضفته إلى الله عن ذوق ومشاهدة ، لا عن اعتقاد وحال بل عن مقام وعلم صحيح فقد أعطيت ذلك العمل حقه حيث رأيته ممن هو له « وما جعل عليكم في الدين من حرج » تأمل هذه الآية فإن لها وجهين كبيرين قريبين خِلاف ما لها من الوجوه ، أي خففت عنكم في الحكم ، وما أنزلت عليكم ما يحرجكم ، وينظر إلى هذا قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » وقوله عليه السلام : [بعثت بالحنيفية السمحاء] وقوله عليه السلام : [إن الدين يسر] فلا يكون الحق يراعي اليسر في الدين ورفع الحرج ويفتي المفتي بخلاف ذلك ، فإن النفوس أبت أن تقف عند الأحكام المنصوص عليها ، فأثبتت لها عللاً وجعلتها مقصودة للشارع وطردتها ، وألحقت المسكوت عنه في الحكم بالمنطوق به بعلة جامعة اقتضاها نظر الجاعل المجتهد ، ولو لم يفعل لبقي المسكوت عنه على أصله من الإباحة والعافية ، فكثرت الأحكام بالتعليل وطرد العلة والقياس والرأي والاستحسان ، وما كان ربك نسياً ، ولكن بحمد الله جعل الله في ذلك رحمة أخرى لنا ، لولا أن الفقهاء حجرت هذه الرحمة على العامة ، بإلزامهم إياها مذهب شخص معين لم يعينه الله ولا رسوله ، ولا دل عليه ظاهر كتاب ولا سنة صحيحة ولا ضعيفة ، ومنعوه أن يطلب رخصة في نازلته في مذهب عالم آخر اقتضاه اجتهاده ، وشددوا في ذلك وقالوا هذا يفضي إلى التلاعب بالدين ، وتخيلوا أن ذلك دين ، وقد قال النبي ﷺ : [إن الله تصدق عليكم فاقبلوا صدقته] فالرخص مما تصدق الله بها على عباده ، وقد أجمعنا على تقرير حكم المجتهد وعلى تقليد العامي له في ذلك الحكم لأنه عنده عن دليل شرعي ، سواء كان صاحب قياس أو غير قائل به ، فتلك الرخصة التي رآها الشافعي في مذهبه على ما اقتضاه دليله ، وقد قررها الشرع فيمنع المفتي من المالكية المالكي المذهب أن يأخذ برخصة الشافعي التي تعبده بها الشارع ــ وإنما أضفناها إلى الشارع لأن الشرع قررها ــ بمنعه مما يقتضيه الدليل في الأخذ به بأمر لا يقتضيه الدليل الذي لا أصل له ، وهو ربط الرجل نفسه بمذهب خاص لا يعدل عنه إلى غيره ، ويحجر عليه ما لم يحجر الشرع عليه ، وهذا من أعظم الطوام وأشق الكلف على عباد الله ، فالذي وسع الشرع بتقرير حكم المجتهدين في هذه الأمة ضيقه عوام الفقهاء ، وأما الأئمة مثل أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل والشافعي فحاشاهم من هذا ،

ما فعله واحد منهم قط ، ولا نقل عنهم أنهم قالوا لأحد اقتصر علينا ، ولا قلدني فيما أفتيك به ، بل المنقول عنهم خِلاف هذا رضي الله عنهم ، والوجه الآخر في قوله تعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » رفع الحديث من النفس عند توجه الحكم بما لا يوافق الغرض وتمجه النفس ، فكأنه خاطب المؤمنين ومن وجد الحرج ليس بمؤمن ، وهذا صعب جداً ، فإذا قال تعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » فللإنسان إذا توجه عليه حكم بفتيا عالم من العلماء تصعب عليه أن يبحث عند العلماء المجتهدين ، هل له في تلك النازلة حكم مِنَ الشرع أهون من ذلك ، فإن وجده عمل به وارتفع الحرج ، وإن وجد الإجماع في تلك النازلة على ذلك الحكم الذي صعب عليه ، قبله إن كان مؤمناً طيب النفس ، وعادت حزونته سهولة ، ودفعه له قبولاً لما حكم عليه به الله ، فيصح بذلك عنده إيمانه ، وهي علامة له على ثبوت الإيمان عنده ، ولما كان هذا المقام شامخاً عسيراً على النفوس نيله ، أقسم بنفسه جل وتعالى عليه ، ولما لم يكن المحكوم عليهم يسمعون ذلك من الله وإنما حكم عليهم بذلك رسول الله الثابت صدقه ، النائب عن الله وخليفته في الأرض ، لذلك أضاف الاسم إليه عناية به وشرفاً له ﷺ ، فقال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل »، فإبراهيم عليه السلام هو أبونا في الإسلام وهو الذي سمانا مسلمين « وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » فنشهد نحن على الأمم بما أوحى الله تعالى به إلينا من قصص أنبيائه مع أممهم ، فالشهادة بالخبر الصادق كالشهادة بالعيان الذي لا ريب فيه ، مثل شهادة خزيمة ، بل الشهادة بالوحي أتم من الشهادة بالعين ، لأن خزيمة لو شهد شهادة عين لم تقم شهادته مقام اثنين ، « فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله » الاعتصام بالله هو قوله ﷺ في الاستعاذة « وأعوذ بك منك » فإنه لا يقاومه شيء من خلقه ، فلا يستعاذ به إلا منه « هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ».

(٢٣) سُورَةُ المؤمنون مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾

الخشوع مقام الذلة والصغار ، وهو نعت محمود في الدنيا على قوم محمودين ، وهو نعت محمود في الآخرة في قوم مذمومين شرعاً بلسان حق ، وهو حال ينتقل من المؤمنين في الآخرة إلى أهل العزة المتكبرين الجبارين ، الذين يريدون علواً في الأرض من المفسدين في الأرض ، فالمؤمنون في صلاتهم خاشعون ، وهم الخاشعون من الرجال والخاشعات من النساء ، الذين أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ، ولا يكون الخشوع حيث كان إلا عن تجل إلهي على القلوب في المؤمن عن تعظيم وإجلال ، وفي الكافر عن قهر وخوف وبطش ، قال عليه السلام حين سئل عن كسوف الشمس [إن الله إذا تجلى لشيء خشع له] ــ أخرجه البزار ــ وإذا وقع التجلي حصل الخشوع ، وخشوع كل خاشع على قدر علمه بربه ، وعلمه بربه على قدر تجليه له .

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

« والذين هم عن اللغو » أي عن الذي أسقطه الله عن أن يعتبر « معرضون » لكون الحق أسقطه ، يقال لما لا يعتد به في الدية من أولاد الإبل لغو ، أي ساقط ، ومنه لغو اليمين لإسقاط الكفارة والمؤاخذة بها ، فأثنى الله عليهم بالإعراض عما أمرهم الله بالإعراض عنه ، فأعرضوا بأمره ولم يعرضوا بأنفسهم ، إذ المؤمن لا نفس له ، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم .

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾

راجع الأحزاب آية ٣٥

إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾

بكلاءته .

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾

وهم أصحاب الصفات المرضية التي ذكرها تعالى والتي يحمدها ، ثم بشرهم تعالى بأنهم الوارثون .

ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾

الفردوس هي أوسط الجنات « هم فيها خالدون » يبشرهم بالبقاء والدوام في النعيم .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ وهو آدم الأب عليه السلام هنا .

ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾

« ثم جعلناه نطفة » وهو الماء المهين ، فهو طور آخر « في قرار مكين » وهي نشأة الأبناء في الأرحام مساقط النطف ، فكنى عن ذلك بالقرار المكين .

ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

« ثم خلقنا النطفة علقة » وهو طور آخر « فخلقنا العلقة مضغة » وهذا طور آخر « فخلقنا المضغة عظاماً ، وهذا طور آخر « فكسونا العظام لحماً » هذا طور آخر ، وهذا كله إنما ذكره ليعدد نعمه التي اختصك بها وحباك ، وهذه كلها أشياء علّق وجود بعضها

على بعض ، وقد تم البدن على التفصيل ، وهو الخلق الترابي الآدمي ، فهو مسبب عن أشياء هي أمهات الجسد الآدمي وهي كثيرة ، انتقل في أطوار العالم من شكل إلى شكل حتى صار على هذه الصفة ، فالجسد الآدمي أصله شيء والصورة عرض فيه ، ثم أجمل خلق النفس الناطقة الذي هو بها إنسان في هذه الآية فقال « ثم أنشأناه خلقاً آخر » وهو طور آخر ، عرّفك بذلك أن المزاج لا أثر له في لطيفتك وإن لم يكن نصاً لكن هو ظاهر ، وأبين منه قوله (فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك) فالظاهر أنه لو اقتضى المزاج روحاً خاصاً معيناً ما قال (في أي صورة ما شاء ركبك) وأي حرف نكرة مثل حرف (ما) ، فإنه حرف يقع على كل شيء ، فأبان لك أن المزاج لا يطلب صورة بعينها ، ولكن بعد حصولها تحتاج إلى هذا المزاج وترجع به ، فإنه بما فيه من القوى التي لا تدبره إلا بها ، فإنه بقواه لها كالآلات لصانع النجارة أو البناء مثلاً ، فبيّن لك الحق بهذه الآيات مرتبة جسدك وروحك ، لتنظر وتتفكر فتعتبر أن الله ما خلقك سدىً وإن طال المدى ، فإن النشأة الإنسانية مكونة من حس وخيال وعقل ، تجول بكلها أو ببعضها ، فإما أن يجول الإنسان بحسه وهو الكشف ، وإما أن يجول بعقله وهو حال فكره وتفكره ، وإما أن يجول بخياله ، ثم أثبت الله للعالم الخلق وجعل نفسه أحسن لأوليته في ذلك ، إذ لولاه ما ظهرت أعيان هؤلاء الخالقين فقال « فتبارك الله أحسن الخالقين » إثباتاً للأعيان ليصح قوله (لقوم يتفكرون) وأثنى على نفسه يعلمك صورة الثناء عليه لتشكره لا لتكفره فقال « تبارك الله أحسن الخالقين » تقديراً وإيجاداً ، فذكر أن ثَمَّ خالقين الله أحسنهم خلقاً ، فإنه تعالى نسب الخلق إلى عباده فقال (وإذ تخلق من الطين) فهو تعالى أحسن الخالقين لأنه تعالى يخلق ما يخلق عن شهود ، والخالق من العباد لا يخلق إلا عن تصور ، يتصور من أعيان موجودة يريد أن يخلق مثلها أو يبدع مثلها ، وخلق الحق ليس كذلك ، فإنه يبدع أو يخلق المخلوق على ما هو ذلك المخلوق عليه في نفسه وعينه ، فما يكسوه إلا حلة الوجود بتعلق يسمى الإيجاد ، فأضاف الحق الحسن إلى الخالقين غير أن الله أحسن الخالقين ، والخلق من خصوص وصف الإله ، ومن الناس من يقيم من أعماله وأنفاسه نشأةً ذات روح وجسد ، فبها يكون الإنسان خالقاً ، ويكون الحق أحسن الخالقين ، وهذه الطبقة التي وصفها الحق بالحسن هم أهل الإحسان ، فإن الإحسان في العبادة أن تعبد الله كأنك تراه ، فتعلم من هو الخالق على الحقيقة ، فلما كان

نعت الخلق من خصوص وصف الإله ، وقد أضاف الخلق إلى الخلق ، انفرد هو بالنظر إلى ما أثبت من الخلق للخلق بالأحسن في قوله « أحسن الخالقين » وهو معنى قوله « فتبارك الله أحسن الخالقين » والبركة الزيادة ، فزاد (أحسن) في قوله « أحسن الخالقين » وقال تعالى في الرد على عبدة الأوثان (أفمن يخلق كمن لا يخلق) فنفى الخلق عن الخلق ، فلو لم يرد عموم نفي الخلق عن الخلق لم تقم به حجة على من عبد فرعون وأمثاله ممن أمر من المخلوقين أن يُعبَد من دون الله ، و لم يكن هؤلاء ممن يدخل في عموم الخالقين في قوله « أحسن الخالقين » فإنهم لم يتصفوا بالإحسان في الخلق ، ومن وجه آخر « فتبارك الله أحسن الخالقين » خلق الناس التقدير ، فللخلق التقدير وليس لهم إمضاؤه ، والخلق في قوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) الإيجاد .

ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾

قال تعالى (إن يشأ يذهبكم) فعلق الذهاب بالمشيئة ، وهنا قال تعالى « وإنا على ذهاب به لقادرون » فعلق الذهاب بالاقتدار ، فما به قدرته أراد وشاء ، فاعلم أن متعلق القدرة الإيجاد لا الإعدام ، فيتعرض هنا أمران : الأمر الواحد أن الذهاب المراد هنا ليس الإعدام وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، فمتعلق القدرة ظهور المحكوم عليه بالحال التي انتقل إليها ، فأوجدت القدرة له ذلك الحال ، فما تعلقت إلا بالإيجاد ، والأمر الآخر أن وصفه بالاقتدار على الذهاب ، أي لا مكره له على إبقائه في الوجود ، فإن وجود عين غير القائم بنفسه ، أي بقاءه ، إنما هو مشروط بشرط ، بوجود ذلك الشرط يبقى الوجود عليه ، وذلك الشرط يمده الله به في كل زمان ، وله أن يمنع وجود ذلك الشرط ، ولا بقاء للمشروط إلا به ، فلم يوجد الشرط فانعدم المشروط ، وهذا الإمساك ليس متعلق القدرة ، وقد وصف نفسه بالقدرة على ذلك ، فلم يبق إلا فرض المنازع الذي يريد بقاءه ، فهو قادر على دفعه لما لم

يرد الله بقاءه ، فهو يقهر المنازع ، فلا يبقى ما أراد المنازع بقاءه ، والقهر حكم من أحكام الاقتدار .

فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

« فإذا جاء أمرنا وفار التنور » قيل فيه يراد ضوء الفجر ، وهو المعلوم من لسان العرب ، فإذا فار التنور أي ظهر الفجر .

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا

فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

« كل حزب بما لديهم فرحون » وما وقع ذلك إلا من تعشق كل نفس بما هي عليه ، فلو تبيّن لكل حزب مآله وما له ، لفرح مَنْ ينبغي له أن يفرح ، وحزن من ينبغي له أن يحزن ، « كل حزب بما لديهم فرحون » وكل له شرب معلوم ، وسيردون فيعلمون ، كأنهم ما سمعوا (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود) ــ **إشارة لا تفسير** ــ « كل حزب بما لديهم فرحون » إن العارفين كما هم اليوم يكونون غداً ، أجسامهم في الجنان ، وقلوبهم في حضرة الرحمن .

فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾

يقال : أشفقت منه فأنا مشفق إذا حذرته ، ولا يقال : أشفقت منه إلا في الحذر ، ويقال : أشفقت عليه إشفاقاً من الشفقة ، والأصل واحد أي حذرت عليه ، فالمشفقون من أولياء الله من خاف على نفسه من التبديل والتحويل ، فإنه أمنّه الله بالبشرى مع إشفاقه على خلق الله ، مثل إشفاق المرسلين على أممهم ، ومن بُشّر من المؤمنين ، وهم قوم ذوو كبدٍ رطبة ، لهم حنان وعطف ، إذا أبصروا مخالفة الأمر الإلهي من أحد ارتعدت فرائصهم إشفاقاً عليه أن ينزل به أمر من السماء ، ومن كان بهذه المثابة فالغالب على أمره أنه محفوظ في أفعاله ، لا يتصور منه مخالفة لما تحقق به من صفة الإشفاق ، فلما كانت ثمرة الإشفاق الاستقامة على

طاعة الله ، أثنى الله عليهم بأنهم مشفقون ، للتغير الذي يقوم بنفوسهم عند رؤية الموجب لذلك ، والإشفاق مأخوذ من الشفق الذي هو حمرة بقية ضوء الشمس إذا غربت ، أو إذا أرادت الطلوع

وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾

إن القلوب مع الخيرات في وجـل ... وإنها عندمـا تلقـاه في خجـل

اعلم أن السبب الموجب لوجلهم قول الله عنهم « الذين يؤتون » وجعل هنا ما بمعنى الذي ، ثم جاء بـ « أتوا » بعد « ما » وكلامه صدق ، فأدركهم الوجل إذ قطعوا أنهم لابد أن يقوم بهم الدعوى فيما جاؤوا به من طاعة الله ، فيكشف الله لهم إذا خافوا ووجلوا من ذلك ، وتبديل الله لفظة « ما » التي بمعنى الذي بلفظة « ما » النافية مثل قوله تعالى (وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى) هكذا يكون كشفه هنا للوجل ، ما يؤتون الذي أتوا به ، ولكن الله أتى به ، فأقامهم مقام نفسه فيما جاؤوا به من الأعمال الصالحة ، فإن الله تعالى علل بقوله « أنهم إلى ربهم راجعون » فيما أتوا به ، مع كون الله وصفهم بأنهم الذين أتوا به ، فانظر ما أدق نظرهم في السبب الذي جعل في قلوبهم الوجل » .

أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

« أولئك » إشارة إلى هؤلاء الذين يسارعون في الخيرات ، والإسراع لمن أتى هرولة فافهم ، فهم « يسارعون في الخيرات » بالحق ، « وهم لها سابقون » أي يسبقونها ويسبقون إليها ، فالخيرات ثلاثة : خيرات يكون السباق والمسارعة فيها ، وخيرات يكون السباق بها ، وخيرات يكون السباق إليها ، وهي قوله (سابقوا إلى مغفرة) (وسارعوا إلى مغفـرة) والسرعة في السباق لابد منها ، لأن السباق يعطي ذلك ، وهو فوق السعـي ، فإتيـانهم بسرعة ، والزائد على السعي ما هو إلا الهرولة وهـي نـعت إلهي « أولئك يسارعـون في الخيرات » وهي الطاعات التي أمر الله بها عباده ، ولأنهم السعداء سارعوا لما أبصروا حسن

النهاية بعين الموافقة والهداية « وهم لها سابقون » على نجب الأعمال إلى مرضاته كما قال (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) والمسارعة في الخيرات هي كونه لا يتصرف في مباح ، بل هو في الواجبات ، فإذا خطر له فرض قام إليه بلا شك ، وإذا خطر له خاطر في مندوب فليحفظ أول الخاطر ، فإنه قد يكون من إبليس فيثبت عليه ، فإذا خطر له أن يتركه إلى مندوب آخر هو أعلى منه وأولى فلا يعدل عن الأول ، وليثبت عليه ويحفظ الثاني ، ويفعل الأول ولابد ، فإذا فرغ منه شرع في الثاني ليفعله أيضاً ، فهو في خير على كل حال ، ويرجع الشيطان خاسئاً حيث لم يتفق له مقصوده ، ومن جهة أخرى فإن المغفرة لا تصح إلا بعد حصول فعل الخير الموجب لها ، فنحن نسارع في الخيرات إلى المغفرة ، ولما كانت المسارعة إلى الخيرات وفي الخيرات تتضمن المشقة والتعب ، لأن سرعة السير تشق ، أعقب الله هذه المشقة رحمة ، إما في باطن الإنسان ، وهو الذي رزقه الله الالتذاذ بالطاعات ، فتصرّفه المحبة فلا يحس بالمشقة ولا بالتعب في رضى المحبوب ، وإن كان بناء هذا الهيكل يضعف عن بعض التكاليف ، فإن الحب يهونه ويسهله ، وإما في الآخرة فلابد من الراحة ، ومن وصل إلى تحصيل الخير المحض ، وهو قوله تعالى : كنت سمعه وبصره وأمثال هذا ، فقد وصل إلى السعادة الأبدية ، وهو الوصول المطلوب .

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ

جِنَّةُۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ
لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم
مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ
﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ
شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

للعقل نور يدرك به أموراً مخصوصة ، وللإيمان نور به يدرك كل شيء ما لم يقع مانع ، فبنور العقل تصل إلى معرفة الألوهية وما يجب لها ويستحيل ، وما يجوز منها فلا يستحيل ولا يجب ، وبنور الإيمان يدرك العقل معرفة الذات وما نسب الحق إلى نفسه من النعوت .

بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل
لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾
قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾

وصف العرش بالعظيم جرماً وقدراً .

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

وصف الحق نفسه تعالى في هذه الآية بأنه قاهر كل شيء بقوله تعالى « من بيده ملكوت كل شيء » فبيده تصريف كل شيء ، إذ هو موجد الأسباب ، فهو محرك العالم ظاهراً وباطناً « وهو يجير ولا يجار عليه » فلا يُفتقر ولا يُذَل إلا لله « إن كنتم تعلمون » فالناس في واد والعلماء بالله في واد .

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾

قوله تعالى « إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » هذا الاستدلال بالتنبيه على موضع الدلالة ، فلم يقتصر على التعريف على طريق التسليم .

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

راجع سورة الأنعام آية ٧٣

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

ادفع بالتي هي أحسن من الإحسان

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾

يقول رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : (اليوم) يعني يوم القيامة (اضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون) .

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

لولا أن نشء الآخرة مثل نشء الدنيا ذو جسم طبيعي وروح ، ما صح من الشقي طلب ولا تضرع ، إذ لو لم يكن هناك أمر طبيعي لم يكن للنفس إذا جهلت من ينبهها على جهلها لعدم إحساسها ، إذ لا حس لها إلا بالجزء الطبيعي الذي هو الجسد المركب .

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

وهو خطاب الجبار لأهل النار الذين هم أهلها ، يقول لهم : سخطي عليكم لا رضى

بعده ، فلا أشد عليهم عذاباً من هذا الخطاب ، وخطاب الله تعالى هذا هو كلام المَلَك عن الله تعالى ، لأن كلام الله تعالى عباده شرف ، قال تعالى : (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) وقد يكون خطاباً من الحق لهم وهم في النار ، فخاطبهم وهم يسمعون .

إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سبحانه وتعالى خير الراحمين من باب المفاضلة ، وما جاء قط عنه تعالى أنه خير الآخذين ، ولا الباطشين ولا المنتقمين ولا المعذبين كما جاء خير الفاصلين ، وخير الغافرين ، وخير الراحمين ، وخير الشاكرين ، وأمثال هذا ، مع كونه يبطش وينتقم ويأخذ ويُهلِك ويعذب ، لا بطريق الأفضلية فتدبر ذلك .

فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً » هو قوله تعالى (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) ومن هنا وقع التنبيه على معرفة الحكمة التي أوجد الله لها العالم ، فإن الحق مع غناه في نفسه عن العالمين ، لما خلقهم لم يمكن إلا الرجوع إليهم والاشتغال بهم ، وحفظ العالم فإنه ما أوجده عبثاً ، فيرجع إليه سبحانه بحسب ما يطلبه كل شخص شخص ، فلم يكن ذلك إلا إظهاراً لحكمة عموم الرجوع الإلهي إلى العباد بحسب أحوالهم ، فإنه عام الرجوع ، فرجع على الطائعين بما وعد ، ورجع على العاصين بالمغفرة وإن عاقب ، فإن الحال الذي قام فيه العبد إذا كان سوءاً فإن لسان الحال يطلب من الحق ما يجازيه به ويرجع به عليه ، إما على التخيير ، وذلك ليس إلا لحال المعصية القائم بالعاصي ، وإما على الوجوب بالتعيين ، فالرجوع الإلهي

على العاصي إما بالأخذ وإما بالمغفرة ، والرجوع على الطائع بالإحسان ، ولما كان الحكم للمشيئة الإلهية كان الله أكثر رجوعاً إلى العباد من العباد إليه ، فإن رجوع العباد إلى الله بإرجاع الله ، فما رجعوا إلى الله إلا بالله .

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

هذا هو التوحيد الحادي والعشرون في القرآن ، هو توحيد الحق ، وهو توحيد الهوية ، فلا إله إلا هو من نعوت الحق ، فالأمر الذي ظهر فيه وجود العالم هو الحق ، وما ظهر إلا في نَفَس الرحمن ، وهو العماء فهو الحق « رب العرش » الذي أعطاه الشكل الإحاطي لكونه بكل شيء محيطاً ، فالأصل الذي ظهر فيه صور العالم بكل شيء من عالم الأجسام محيط ، وليس إلا الحق المخلوق به ، فكأنه لهذا القبول كالظرف ، يبرز منه وجود ما يحوي عليه طبقاً عن طبق ، عيناً بعد عين على الترتيب الحكمي ، فأبرز ما كان فيه غيباً ليشهده فيوحده ، فيوحده مع صدوره عنه ، قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ما خلقناهما إلا بالحق) فهو عين واحدة وإن تعددت الصور فيه ، ثم تمم تعالى فقال « الكريم » وصف العرش بأنه كريم لأنه بحركته أعطى ما في قوته لمن هو تحت إحاطته وقبضته .

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾

اعلم أن الشبهة تأتي في صورة البرهان ، وهذه الآية ذم للمقلدة لا لأصحاب النظر وإن أخطؤوا والحضرة الإلهية تقبل جميع العقائد إلا الشرك فإنها لا تقبله ، فإن الشريك عدم محض ، والوجود المطلق لا يقبل العدم ، والشريك لا شك أنه خارج عن شريكه بخلاف ما يعتقد فيه مما يتصف به الموصوف في نفسه ، فلهذا قلنا لا يقبل الشريك لأنه ما ثَمَّ شريك حتى يقبل ، وهذه أرجى آية للمشرك عن نظر جهد الطاقة ، وتخيله في شبهه أنها برهان ، فيقوم له العذر عند الله قال تعالى « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به » يعني في زعمه ، فإنه ما اتخذه إلهاً إلا عن برهان في زعمه ، فدل على أنه من قام له برهان في نظره أنه غير

مؤاخذ وإن أخطأ ، فما كان الخطأ له مقصوداً ، وإنما كان قصده إصابة الحق على ما هو عليه الأمر ، فالحق عند اعتقاد كل معتقد بعد اجتهاده ، إلا أن المراتب تتفاضل ، والله أوسع وأجل وأعظم أن ينحصر في صفة تضبطه ، ومن استند إلى معبود موضوع فإنما استند إليه بظنه لا بعلمه ، فلذلك أخذ به فشقي ، إلا أن يعطي المجهود من نفسه في نفي الشريك ، فلم يعط فكره ولا نظره ولا اجتهاده نفيه جملة واحدة ، و لم يبعث إليه رسول و لم تصل إليه دعوته ، فإن جماعةً من أهل النظر قالوا بعذر من هذه حالته ، وهو مأجور في نفس الأمر مع أنه مخطىء ، وليس بصاحب ظن ، بل هو قاطع لا عالم ، والقطع على الشيء لا يلزم أن يكون عن علم ، بل ربما يستروح من قول الله تعالى « لا برهان له به » أن الله يعذره ، ولا شك أن المجتهد الذي أخطأ في اجتهاده في الأصول يقطع أنه على برهان فيما أداه إليه اجتهاده ونظره ، وإن كان ليس ببرهان في نفس الأمر ، فقد يعذره الله تعالى لقطعه بذلك عن اجتهاد ، كما قطع الصاحب أنه رأى دحية وكان المرئي جبريل ، فهذا قاطع على غير علم فاجتهد فأخطأ ، وقد رأى بعض العلماء أن الاجتهاد يسوغ في الفروع والأصول ، فإن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران ، وهذه الآية تعطي النظر في معرفة الله جهد الاستطاعة ، أصاب في ذلك المجتهد أو أخطأ ، بعد بذل الوسع في الاجتهاد في ذلك ، فقد يعتقد المجتهد فيما ليس ببرهان أنه برهان ، فيجازيه الله مجازاة أصحاب البراهين الصحيحة ، وقد نبه سبحانه على ما يفهم منه ما ذكرناه بهذه الآية بقوله « لا برهان له به » يريد بالبرهان هنا في زعم الناظر ، فإنه من المحال أن يكون ثَمَّ دليل في نفس الأمر على إله آخر ، فإنه في نفس الأمر ليس إلا إله واحد ، و لم يبق إلا أن تظهر الشبهة بصورة البرهان فيعتقد أنها برهان ، وليس في قوته أكثر من هذا ، فهو في زعمه أنه برهان ، و لم يكن برهاناً في نفس الأمر فهو قد وفّى وسعه ، فإن الله ما كلف نفساً إلا ما آتاها ، وهو أمر يتفاضل فيه الناس فقال « فإنما حسابه عند ربه » هل وفّى ما آتاه من النظر في ذلك أم لا ؟ « إنه لا يفلح الكافرون » وليس الكافر إلا من علم ثم ستر ، وإن لم يعلم فما هو كافر ، فهذه الآية رحمة من الله بمن لاحت له شبهة في إثبات الكثرة فاعتقد أنها برهان ، بأن الله يتجاوز عنه ، فإنه بذل وسعه في النظر ، وما أعطته قوته غير ذلك ، فليس للمشركين عن نظر أرجى في عفو الله من هذه الآية ، وبقي الوعيد في حق المقلدين ، فبهم ألحق الشقاء ، حيث أهلهم الله للنظر وما نظروا

ولا فكروا ولا اعتبروا ، فإنه ما هو علم تقليد ، فالمخطىء مع النظر أولى وأعلى من الإصابة والمصيب مع التقليد ، إلا في ذات الحق فإنه لا ينبغي أن يتصرف مخلوق فيها بحكم النظر الفكري ، وإنما هو مع الخبر الإلهي فيما يخبر به عن نفسه لا يقاس عليه ، ولا يزيد ولا ينقص ولا يتأول ، ولا يقصد بذلك القول وجهاً معيناً ، بل يعقل المعنى ويجهل النسبة ، ويرد العلم بالنسبة إلى علم الله فيها ، ثم أمر نبيه .

وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

فأمر نبيه أن يقول « رب اغفر وارحم » هذه الفرق التي وفّت النظر استطاعتها التي آتيتها ، فلم تصل إلا إلى التعطيل أو الشرك « وأنت خير الراحمين » فإنهم ما تعدوا ما آتاهم الله ، فيشفع هنا فيهم رسول الله ﷺ من حيث لا يشعرون ، فإذا نالتهم السعادة بالخروج من النار ، وقد غفر لهم الله بسؤال الرسول فيهم إذ قال « رب اغفر وارحم » حين أمره الله بذلك ، وما أمره بهذا الدعاء إلا ليجيبه ، فأجابه في ذلك ، فعرفوا قدر رسول الله ﷺ عند ذلك إذا دخلوا الجنة ، فينتمون إليه فيها لأنه السيد الأكبر ، وهذا الدعاء يعم كل من هو بهذه المثابة من وقت آدم إلى نفخة الصعق ، لأنه ما خصص في دعوته إلا من هذه صفته ، ومن ينبغي أن يُرحَم ويُغفَر له ، فكل موحد لله ولو بدليله وإن لم يكن مؤمناً ففي الجنة ، يدخله الله خاصة لا غيره ، ويشفع المؤمنون والأنبياء في أهل الكبائر من أهل الإيمان ، لأن الأنبياء بعثت بالخير وهو الإيمان ، والموحدون الذين لم يؤمنوا لكونهم ما بُعِث إليهم رسول ، أو كانوا في فترة ، فهم الذين يحشر كل واحد منهم أمةً وحده ، فإن بعث في أمة ـــ هو فيهم ـــ رسول فلم يؤمن به مع علمه بأحدية خالقه دخل النار ، فما يخرج منها إلا بإخراج خالقه ، لأن الخلود في النار لا يكون بالنص لأهل التوحيد بأي وجه حصل لهم ، قال ﷺ [من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة] ولم يقل يقول ولا يؤمن ، وإنما ذكر العلم خاصة ، فلا يبقى في النار إلا مشرك أو معطل لا عن شبهة ولا عن نظر مستوف في النظر قوته ، فلم يبق في النار إلا المقلدة الذين كان في قوتهم واستعدادهم أن ينظروا فما نظروا

ـــ مسئلة ـــ قوله تعالى « خير الراحمين » من باب المفاضلة ، فمعلوم أنه ما يرحم أحد من المخلوقين أحداً إلا بالرحمة التي أوجدها الرحمن فيه ، فهي رحمته تعالى ، لا رحمتهم ، ظهرت

في صورة مخلوق ، كما قال في [سمع الله لمن حمده] أن ذلك القول هو قول الله على لسان عبده ، فقوله تعالى الذي سمعه موسى أتم في الشرف من قوله تعالى على لسان قائل ، فوقع التفاضل بالمحل الذي سمع منه القول المعلوم أنه قول الله ، وكذلك أيضاً رحمته من حيث ظهورها من مخلوق أدنى من رحمته بعبده في غير صورة مخلوق ، فتعيّن التفاضل والأفضلية بالمحال ، إلا أن رحمة الله بعبده في صورة المخلوق تكون عظيمة ، فإنه يرحم عن ذوق ، فيزيل برحمته ما يجده الراحم من الألم في نفسه من هذا المرحوم ، والحق ليس كذلك ، فرحمته خالصة لا يعود عليه منها إزالة ألم ، فهو خير الراحمين ، فرحمة المخلوق عن شفقة ورحمة الله مطلقة .

(٢٤) سورة النور مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

حد الزنا هو الرجم للثيب والجلد للبكر إلا عند من يرى الجمع بين الحدَّين على الثيب ، وأكثر العلماء على خلاف هذا القول ، وما عندي في مسائل الأحكام المشروعة بأصعب من الزنا خاصة ، ولو أقيم عليه الحد فإني أعلم أنه يبقى عليه بعد إقامة الحد مطالبات من مظالم العباد ، واعلم أنَّ للرأفة موطناً لا نتعداه وأن الله يحكم بها حيث يكون وزنها ، فإن الله ينزل كل شيء منزلته ولا يتعدى به حقيقته كما هو في نفسه ، فإن الذي يتعدى الحدود هو المتعدي ، فجاء الميزان في إقامة الحدود فأزال حكم الرأفة من المؤمن ، فإذا رأف في إقامة الحد فليس بمؤمن ولا استعمل الميزان ، وكان من الذين يخسرون الميزان ؛ فيتوجه عليه بهذه

الرأفة اللوم حيث عدل بها عن ميزانها ، فإن الله يقول : « ولا تأخذكم » يعني ولاة الأمور « بهما رأفة في دين الله » اعلم أن الرأفة من القلوب مثل جبذ وجذب ، كذلك رأف ورفأ ، وهو من الإصلاح والالتئام ، فالرأفة التئام الرحمة بالعباد ، ولذلك نهى عنها في إقامة الحدود لا كل الحدود ، وإنما ذلك في حد الزاني والزانية ، فيؤدي ذلك إلى الفتور في إقامة حدّ الله الذي شرع ودين الله جزاؤه ، ثم قال : « إن كنتم تؤمنون بالله » فخصّ لأنه ثَمَّ من يؤمن بالباطل « واليوم الآخر » يقول : وتؤمنون بإقامة الله حدوده في اليوم الآخر ، كأنه يقول لولاة الأمور : طهروا عبادي في الدنيا قبل أن يفضحوا على رؤوس الأشهاد ، ولذلك قال في هؤلاء : « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » ينبه أن أخذهم في الآخرة على رؤوس الأشهاد ، فتعظم الفضيحة ، فإقامة الحدود في الدنيا أستر ، فأمر الوالي بإقامة الحد نكالاً من الزاني كما هو نكال في حق السارق ، وبيّن ذلك ، وإقامة الحد إذا لم يكن نكالاً فإنه طهارة ، وإن كان نكالاً فلابد فيه من معقول الطهارة لأنه يسقط عنه في الآخرة بقدر ما أخذ به في الدنيا ، فسقط عن الزاني النكال وما سقط عن السارق ، فإن السارق قطعت يده وبقي مقيداً بما سرق لأنه مال الغير ، فقطع يده زجر وردع لما يستقبل ، وبقي حق الغير عليه فلذلك جعله نكالاً ، والنكل القيد ، فمازال من القيْد مع قطع يده وما تعرض في حد الزاني إلى شيء من ذلك ، وقد ورد في الخبر أن ما سكت عن الحكم فيه بمنطوق فهو عافية ، أي دارس لا أثر له ولا مؤاخذة فيه ، واعلم أن غير الحاكم ما عيّن الله له إقامة الحد ، فلا ينبغي أن يقوم به غضب عند تعدي الحدود ، فليس ذلك إلا للحكام خاصة ولرسول الله ﷺ من حيث ما هو حاكم ، والقاضي إن بقي معه الغضب على المحدود بعد أخذ حق الله منه فهو غضب نفس وطبع أو لأمرٍ في نفسه لذلك المحدود ، ما هو غضب لله ، فلذلك لا يأجره الله ، فإنه ما قام في ذلك مراعاة لحق الله ، فلا يغفل الحاكم عند إقامة الحدود عن النظر في نفسه ، وليحذر من التشفي الذي يكون للنفوس ، فإن وجد لذلك تشفياً فيعلم أنه ما قام في ذلك لله وما عنده فيه خير من الله ، وإذا فرح بإقامة الحد على المحدود إن لم يكن فرحه له لما سقط عن ذلك الحد في الآخرة من المطالبة وإلا فهو معلول ، فمن غضب لله وكان حاكماً وأقام الحد يزول عنه الغضب على ذلك الشخص عند الفراغ منه ، ويرجع لذلك المحدود رحمة كله .

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾

اعلم أن العقوبة قد أوقعها الله في رمي المحصنات وإن صدقوا ، فجلد الرامي إنما كان لرميه ولكونه ما جاء بأربعة شهداء ، وقد يكون الشهداء شهداء زور في نفس الأمر وتحصل العقوبة بشهادتهم في المرمي فيقتل ، وله الأجر التام في الأخرى مع ثبوت الحكم عليه في الدنيا ، وعلى شهود الزور والمفتري العقوبة في الأخرى ، وإن حكم الحق في الدنيا بقوله وشهادة شهود الزور فيه .

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾

قال ﷺ في المرأة التي لاعنت زوجها وكذبت وعرف ذلك وقد حكم الله بالملاعنة ، وفي نفس الأمر صدق الرجل وكذبت المرأة فقال ﷺ : [لكان لي ولها شأن] فترك كشفه وعلمه لظاهر الحكم ــ **حكم الحاكم بعلمه** ــ يترك الحاكم حكمه بما يعلم ويحكم بقول الشهود ، وليس ذلك عندنا إلا في الأموال لا في النفوس ولا في إقامة الحدود ، وعندي في هذه المسئلة لو كنت عالماً بأمر ما وشهد الشهود بخلاف علمي ، ولا يجوز لي أن أحكم

بعلمي إذا كنت ممن يقول بذلك ، استنبت في الحكم من لا علم له بالأمر ، وتركت الحكم فيه ، وهذا هو الوجه الصحيح عندي ، والذي أعمل به وإن كان في النفس منه شيء ، وهذا عندي في الحكم في الأموال ، وأما الحكم في الأبدان فلا أحكم إلا بعلمي إذا علمت البراءة ، فإن لم تكن البراءة وعلمت صدق المفتري حكمت بالشهود وتركت علمي ، فالحاكم لا يجوز له أن يخالف علمه أصلاً ، وذلك في الأموال وأما في الأبشار فما يجب عليه إمضاء الحكم على المحكوم عليه .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

إذا اتفق أن يؤاخذ التائب فما يأخذه إلا الحكيم لا غيره من الأسماء ، فإذا لم يؤاخذ فإنما يكون الحكم فيه للرحيم ، فإن الله تواب رحيم بطائفة ، وتواب حكيم بطائفة .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

اللسان ما عصى الله قط من حيث نفسه ، وإنما وقعت فيه المخالفة لا منه ، من حركة المريد تحريكه ، فهو مجبور حيث لم يعط الدفع عن نفسه لكونه من آلات النفس ، فهو طائع من ذاته ، ولو فتح الله سمع صاحبه لنطق اللسان الذاتي إذا جعلته النفس يتلفظ بمخالفة ما أراد الشرع أن يتلفظ به لبهت ، فإنه طائع بالذات شاهد عدل على محركه ، وكذلك كل جارحة مصرفة من سمع وبصر وفؤاد وجلد وعصب وفرج ونفس وحركة ، لذلك قال تعالى : « لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم » الاكتساب تعمل في الكسب ، والموجد مكتسب لأنه قد وصف بما اكتسب ، فقد كان عن هذا الوصف غير موصوف به إذ لم يكن ذلك المكتسب .

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ

مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَـٰٓئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾

« لولا جاءو عليه بأربعة شهداء » كما قرر في الحكم ، وكان الرامي في تلك القضية الخاصة كاذباً فيها « فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » قوله « أولئك » يحتمل يريد بهذه الإشارة هذه القضية الخاصة أو يريد عموم الحكم في ذلك .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

أي الذي هان على الجاهل بقدره من الافتراء على بيت رسول الله ﷺ ، عظيم عند الله تعالى .

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾

البهتان أن ينسب إلى الشخص ما لم يكن منه ، والأعراض عند ذوي الهيآت والمروءات أعظم في الحرمة من الدماء والأموال .

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَـٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَـٰحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

نزلت هذه الآية في توعد أبي بكر رضي الله عنه لمسطح في قضية الإفك ، وقد حلف أبو بكر أن لا يعطي مسطحاً ما كان يعطيه ، فنزلت الآية « ولايأتل » أي لا يحلف « أولوا الفضل منكم » من له مال رزقه الله « والسعة » يعني في الرزق « أن يؤتوا » يعطوا « أولي القربى » ذوي الرحم « والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » فقال رضي الله عنه بعد سمعها : بلى إني أحب أن يغفر الله لي ، وأعاد ما كان خصصه لمسطح وكفّر عن يمينه ، ففي الوعيد إذا لم يكن حداً مشروعاً وكان لك الخيار فيه وعلمت أن تركه خير من فعله عند الله ، فلك أن لا تفي به وأن تتصف بالخلف فيه ، فقد قال ﷺ : [من حلف على يمين فرأى خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير] وقال الشاعر :

وإني إذا أوعدتـــه أو وعدتـــه ... لمخلف إيعادي ومنجـز موعـدي

وإنما عوقب بالكفارة لأنه أمر بمكارم الأخلاق واليمين على ترك فعل الخير ، وهذا الترك من مذام الأخلاق ، فعوقب بالكفارة ، والله فعّال لما يريد لا يقاس بالمخلوق ولا يقاس المخلوق عليه ، وإنما الأدلة الشرعية أتت بأمور تقرر عندنا منها أنه يعامل عباده بالإحسان وعلى قدر ظنهم به ، فتبين أنه سبحانه ما يحمد خُلُقاً من مكارم الأخلاق إلا وهو تعالى أولى به بأن يعامل به خلقه ، ولا يذمّ شيئاً من سفساف الأخلاق إلا وكان الجناب الإلهي أبعد منه .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾

فما منك جزء إلا وهو عالم ناطق ، فلا يحجبنك أخذ سمعك عن نطقه ، فلا تقل يوماً : أنا وحدي ، ما أنت وحدك ولكنك في كثرة منك ، والجسم لا يأمر النفس ، إلا بخير ، ولهذا تشهد على النفس يوم القيامة جلود الجسم وجميع جوارحه ، وفي هذه الآية الإخبار بعلم جوارح الإنسان بالأشياء فإن العمل للجوارح والنية للنفس ، والجوارح لا تدري هل هذا العمل مشروع أم غير مشروع ، ولذلك إذا شهدت الجوارح والجلود بما وقع منها من الأعمال على النفس المدبرة لها ، ما تشهد بوقوع معصية ولا طاعة وإنما شهادتها بما عملته ، والله يعلم حكمه في ذلك العمل ، ولهذا إذا كان يوم القيامة « تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » يعني بها ، ولم يشهدوا بكون ذلك العمل طاعة ولا معصية ، فإن مرتبتهم لا تقتضي ذلك ، وما سمي ذلك النطق شهادة إلا تجوزاً ، فالجوارح تشهد بالفعل ما تشهد بالحكم ، فإنها ما تفرق بين الطاعة المشروعة والمعصية ، فإنها مطيعة بالذات لا عن أمر ، فبقي الحكم لله تعالى فيأخذه ابتداء من غير نطق الجوارح ، فما وقعت المخالفة من الجوارح إلا من حركة المريد تحريكها ، فهي مجبورة طائعة بالذات ، شاهد عدل على محرّكها ، فإنه ما من جارحة إلا وهي مسبحة لله مقدسة لجلاله ، غير عالمة بما تصرفها فيه نفسها المدبرة لها ، المكلَّفة التي كلَّفها الله تعالى عبادته والوقوف بهذه الجوارح وبعالم ظاهره عندما حد له ، فلو علمت الجوارح ما تعلمه النفس من تعيين ما هو معصية وما هو طاعة ما وافقت على مخالفة أصلاً ، فإنها ما تعاين شيئاً من الموجودات إلا مسبحاً لله مقدساً لجلاله ، غير أنها قد أعطيت من الحفظ القوة العظيمة ، فلا تصرفها النفس في أمر إلا وتحتفظ على ذلك الأمر وتعلمه ، والنفس تعلم أن ذلك طاعة ومعصية ، وذلك يدل على أن الجوارح ارتبطت بالنفس الناطقة ارتباط المُلْك بمالكه ، فلا تشهد إلا بالأجنبية ، إذ لابد من شهود عليه ، وإن لم يكن على ما قلناه وكان عين الشاهد عين المشهود عليه ، فهو إقرار لا شهادة ،

وما ذكر الله تعالى أنه إقرار بل ذكر أنها شهادة ، فإذا وقع الإنكار يوم القيامة عند السؤال من هذه النفس ، يقول الله لها : نبعث عليك شاهداً من نفسك ، فتقول في نفسها : مَنْ يشهد علي ؟ خرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : [قالوا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم ، فيلقى العبد فيقول : أي قل : ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب ؟ فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : آمنت بك وبكتابك وبرسلك ، وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ها هنا إذاً ، قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهداً عليك ، ويتفكر في نفسه ، من ذا الذي يشهد علي ؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه : انطقي ، فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق ، وذلك الذي سخط الله عليه] فيسأل الله تعالى الجوارح عن تلك الأفعال التي صرفها فيها ، فيقول للعين : قولي فيما صرفك ، فتقول له : يا رب نظر بي إلى أمر كذا وكذا ، وتقول الأذن : أصغى بي إلى كذا وكذا ، وتقول اليد : بطش بي في كذا وكذا ، يعني في غير حق فيما حرم عليه البطش فيه ، وتقول الرجل : كذلك والجلود كذلك والألسنة كذلك وجميع الجوارح (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) فيقول الله له : هل تنكر شيئاً من ذلك ؟ فيحار ، ويقول : لا ؛ والجوارح لا تعرف ما الطاعة ولا المعصية ، فيقول الله : ألم أقل لك على لسان رسولي وفي كتبي لا تنظر إلى كذا ، ولا تسمع كذا ، ولا تسع إلى كذا ، ولا تبطش بكذا ؟ ويعين له جميع ما تعلق من التكليف بالحواس ، ثم يفعل كذلك في الباطن فيما حجر عليه من سوء الظن وغيره ؛ فعليك بحفظ الجوارح ، فإنه من أرسل جوارحَهُ أتعب قلبه ، فهذه الآية إعلام من الله لنا أن كل جزء فينا شاهد عدل مزكى مرضي ، وذلك بشرى خير لنا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون صورة الخير فيها ، فإن الأمر إذا كان بهذه المثابة يرجى أن يكون المآل إلى خير وإن دخل النار ، فإن الله أجل وأعظم وأعدل من أن يعذب مُكرهاً مقهوراً ، وقد قال : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وقد ثبت حكم المكره في الشرع ، وعلم حد المكره الذي اتفق عليه والمكره الذي اختلف فيه ، وهذه الجوارح من المكرهين المتفق عليهم أنهم مكرهون ، فتشهد هذه الأعضاء بلا شك على النفس المدبرة لها السلطانة عليها ، والنفس

هي المطلوبة عند الله عن حدوده والمسؤولة عنها ، وهي مرتبطة بالحواس والقوى لا انفكاك لها عن هذه الأدوات الجسمية الطبيعية العادلة الزكية المرضية المسموع قولها ؛ ولا عذاب للنفس إلا بواسطة تعذيب هذه الجسوم ، وهي التي تحسّ بالآلام المحسوسة لسريان الروح الحيواني فيها ، وعذاب النفس بالهموم والغموم وغلبة الأوهام والأفكار الرديئة ، وما ترى في رعيتها مما تحس به من الآلام ويطرأ عليها من التغييرات ، كل صنف بما يليق به من العذاب ، وقد أخبر بمآلها لإيمانها إلى السعادة ، لكون المقهور غير مؤاخذ بما جبر عليه ، فالإنسان سعيد من حيث نشأته الطبيعية ومن حيث نشأة نفسه الناطقة بانفراد كل نشأة عن صاحبتها ، وبالمجموع ظهرت المخالفة ، فما عذبت الجوارح بالألم إلا لإحساسها باللذة فيما نالته من حيث حيوانيتها ، ولا عمل للنفوس إلا بهذه الأدوات ، ولا حركة في عمل للأدوات إلا بالأغراض النفسية ، فكما كان العمل بالمجموع وقع العذاب بالمجموع ، ثم تقضي عدالة الأدوات في آخر الأمر إلى سعادة المؤمنين ، فيرتفع العذاب الحسي ، ثم يقضى حكم الشرع الذي رفع عن النفس ما همت به ، فيرتفع أيضاً العذاب المعنوي عن المؤمن ، فلا يبقى عذاب معنوي ولا حسي على أحد من أهل الإيمان ، وبقدر قصر الزمان في الدار الدنيا بذلك العمل لوجود اللذة فيه ــ وأيام النعيم قصار ــ تكون مدة العذاب على النفس الناطقة الحيوانية الدرّاكة مع قصر الزمان المطابق لزمان العمل ، فإن أنفاس الهموم طوال ، فما أطول الليل على أصحاب الآلام وما أقصره بعينه على أصحاب اللذات والنعيم ، فزمان الشدة طويل على صاحبه وزمان الرخاء قصير ، فإذا عذبت النفس في دار الشقاء فبما يمسّ الجوارح من النار وأنواع العذاب فأما الجوارح فتستعذب جميع ما يطرأ عليها من أنواع العذاب ، ولذا سُمّيَ عذاباً لأنّها تستعذبه كما يستعذب ذلك خزنة النار حيث تنتقم لله ، وكذلك الجوارح حيث جعلها الله محلاً للانتقام من تلك النفس التي كانت تحكم عليها ، والآلام تختلف على النفس الناطقة بما تراه في ملكها وبما تنقله إليها الروح الحيواني ، فإن الحسّ ينقل للنفس الآلام في تلك الأفعال المؤلمة ، والجوارح ما عندها إلا النعيم الدائم في جهنم ، مثل ما هي الخزنة عليه ممجدة لله تعالى مستعذبة لما يقوم بها من الأفعال ، كما كانت في الدنيا ، فيتخيل الإنسان أن العضو يتألم لإحساسه في نفسه بالألم وليس كذلك إنما هو المتألم بما تحمله الجارحة ،

فتبين لك إن كنت عاقلاً . من يحمل الألم منك ومن يحس به ممن لا يحمله ولا يحسّ به ، ولو كانت الجوارح تتألم لأنكرت كما تنكر النفس ، وما كانت تشهد عليه ، فقد علمت يا أخي من يُعذّب منك ومن يتنعم وما أنت سواك ، فلا تجعل رعيتك تشهد عليك فتبوء بالخسران ، وقد ولاك الله الملك فيقال لك : ما فعلت برعيتك ؟ ألا ترى الوالي الجائر إذا أخذه الملك وعذبه عند استغاثة رعيته به كيف تفرح الرعية بالانتقام من واليها ؟ كذلك الجوارح يكشف لك يوم القيامة عن فرحها ونعيمها بما تراه في النفس التي كانت تدبرها في ولايتها عليها ، لأن حرمة الله عظيمة عند الجوارح ، قال تعالى : (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) .

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

« الحق المبين » أي الظاهر ، فمن شهدت عليه جوارحه ، فما تعظم فضيحته من حيث شهادة جوارحه عليه ، وإنما تعظم فضيحته من حيث عجزه وجهله بالذَّبِ عن نفسه .

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

جعل الله الطيبين للطيبات والطيبات للطيبين من كونه طيباً ، فالطيب من يميز الخبيث من الطيب ، وجعل تعالى الخبيثين للخبيثات والخبيثات للخبيثين من كونه حكيماً ، فإنه هو الجاعل للأشياء والمميز بين الأشياء والأحكام ، واعلم وفقك الله أن الحلال طيب لا ينتج إلا طيباً ، قال تعالى : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيّبين والطيبون للطيبات » ففي هذا من الاعتبار الصوفي والنظر الإلهي بعض ما نذكره الآن ، وذلك أن مَنْ كان عند الله خبيثاً فلا يغذيه إلا بالخبيثات من المطاعم ، ولا تصدر الأفعال الخبيثات إلا من الخبيثين ، وكذلك الطيبات من المطاعم وهي الحلال ، لا يغذي بها الله تعالى إلا مَنْ كان عنده من الطيبين ، وكذلك الطيبون عند الله تعالى لا تصدر منهم إلا طيبات الأفعال ، أو تلك المطاعم بأعيانها إنما أُهّلت الخبيثات التى هي الحرام للخبيثين كما أُهلوا لها ، وكذلك

الطيبات مع الطيبين ، فإنه من أُهِّل لشيء فقد أهل له ذلك الشيء .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

إذا جئت بيت قوم فاستأذن ثلاث مرات ، فإن أُذِن لك وإلا فارجع ، ولا تنظر في بيت أخيك من حيث لا يعرف بك ، فإنك إذا نظرت فقد دخلت ، وإنما جعل الإذن من أجل البصر .

﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾

ثبت في الحديث الاستئذان ثلاث ، فإن أذن لك وإلا فارجع .

﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

العبد مأمور بأن لا ينظر إلى ما لا يحل له النظر إليه شرعاً ، وبجميع ما يختص برأسه من التكليف ، ومأمور بأن لا يسعى بأقدامه إلى ما لا يحل له السعي إليه وفيه ومنه ، وما بينهما مما كلفه الله أن يحفظه في تصرفه ، من يد وبطن وفرج وقلب ، والغض نقص ما تمتد العين إليه ، وهذه الآية والتي بعدها خطاب للنفس بالحياء ، فإنه من الحياء غض البصر عن محارم الله ، والحياء منه فرض وسنة أي مستحب ، فإن النظر إلى عورة امرأتك وإن كان قد أبيح لك ولكن استعمال الحياء فيه أفضل وأولى .

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

التوبة قرين الحوبة ، علامتها الندم ، مما جرى به القَدَم ، وتعلق به العلم في القِدَم ، ثم أقلع فرجع ، عندما سمع « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون » أمر الله عباده المؤمنين بالتوبة ، والتوبة تختلف باختلاف المقامات ، فمنهم من رجع إليه من نفسه ، والعارف رجع إليه منه ، والعلماء رجعوا إليه من رجوعهم إليه ، والعامَّة رجعت من المخالفات إلى الموافقة ، وحدّ التوبة ترك الزلة في الحال والندم على ما فات ، والعزم على أنه لا يعود لما رجع عنه عند علماء الرسوم ، ويفعل الله بعد ذلك ما يريد ، والندم توبة وهو الركن الأعظم ، وميم الندم منقلبة عن باء ، مثل لازم ولازب ، وهو أثر حزنه على ما فاته يسمى ندباً ، والندب الأثر ، فقلبت ميماً وجعلت لأثر الحزن خاصة ؛ ولما كان توبة الله على عبْدِه مقطوعاً لها بالقبول ، وتوبة العبد في محل الإمكان ، لما فيها من العلل وعدم العلم باستيفاء حدودها وشروطها وعلم الله فيها ، فالعارفون يسألون من ربهم أن يتوب عليهم ، وحظهم من التوبة الاعتراف والسؤال لا غير ذلك ، فهذا معنى قوله « وتوبوا إلى الله جميعاً » أي ارجعوا إلى الاعتراف والدعاء ، كما فعل أبوكم آدم ، فإن الرجوع إلى الله بطريق العهد وهو لا يعلم ما في علم الله فيه خطر عظيم ، فإنه إن كان قد بقي عليه شيء من المخالفة ، فلابد من نقض ذلك العهد ، فالتوبة

التي طلب منا إنما هي صورة ما جرى من آدم عليه السلام ، أما العزم على عدم العودة كما يشترطه علماء الرسوم في حد التوبة فهو سوء أدب مع الله بكل وجه ، فإنه لا يخلو أن يكون عالماً بعلم الله فيه أنه لا يقع منه زلة في المستأنف أم لا ، فإن كان عالماً بذلك فلا فائدة في العزم على أن لا يعود بَعْد علمه أنه لا يعود ، وإن لم يعلم وعاهد الله إلى ذلك وكان ممن قضى الله عليه أن يعود ، ناقض عهد الله وميثاقه ، وإن أعلمه الله أنه يعود ، فعزمه بعد العلم أنه يعود مكابرة ، فعلى كل وجه لا فائدة للعزم في المستأنف لا لذي العلم ولا لغير العالم ، فالناصح نفسه مَنْ سلك طريقة آدم عليه السلام ، والتوبة المشروعة من المقامات المستصحبة إلى حين الموت ما دام مخاطباً بالتكليف ، ولم يأمر الله تعالى بالتوبة إلا المؤمنين بقوله : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون » وأيه بغير ألف لحكمة أخفاها يعرفها العالم ولا يشعر بها المؤمن ، فهي بالألف هاء التنبيه إذا قال أيها المؤمنون ، وهي بغير الألف هي هويته ، قرأها الكسائي برفع هاء « أيه » وحذف الواو لالتقاء الساكنين ، يقول : هو المؤمنون لأنه المؤمن ، وما يُسْمَع نداء الحق إلا بالحق ، والسامع مؤمن والسامعون كثيرون ، فهو المؤمنون . « عورات النساء » ليست العورة في المرأة إلا السوءتين ، وإن أمرت المرأة بالستر فهو مذهبنا لكن لا من كونها عورة ، وإنما ذلك حكم مشروع ورد بالستر ، ولا يلزم أن يستر الشيء لكونه عورة ، والوجه والكفان من المرأة ما هما بعورة ، ويبعد أن يكون القدمان عورة تستر .

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ

وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

« وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » روي أن بعض الصالحين لم يكن له شيء من الدنيا ، فتزوج فجاءه ولد وما أصبح عنده شيء فأخذ الولد وخرج ينادي به : هذا جزاء من عصى الله ، فقيل له : زنيت ؟ قال : لا إنما سمعت الله يقول في كتابه العزيز : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » فعصيت أمر الله وتزوجت وأنا لا أجد نكاحاً فافتضحت ، فرجع إلى منزله بخير كثير .

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ * ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

ـ **الوجه الأول** ـ « الله نور السموات والأرض » لا نقول فيه كما قال المفسرون معناه منور أو هاد ، فذلك له اسم خاص وهو الهادي الذي هداهم لإبابة حمل الأمانة ، وإلى الإتيان بالطاعة لأمره ، وأما هنا فما قال : إلا أنه نور السموات والأرض ، والنور النفور ، ويؤيد ذلك التشبيه بالمصباح على الوصف الخاص ، فإن مثل هذا النور المصباحي ينفر ظلمة الليل ، بل هو عين نفور ظلمة الليل مع بقاء الليل ليلاً ، فإنه ليس من شرط وجود الليل وجود الظلمة ، وإنما عين الليل غروب الشمس إلى حين طلوعها سواء أعقب المحل نور آخر سوى نور الشمس أو ظلمة ، فقد يكون الليل ولا ظلمة كما أنه قد يكون النهار ولا ضوء ، فإن النهار ليس إلا زمان طلوع الشمس إلى غروبها وإن طلعت مكسوفة فلا يزول الحكم عن كون النهار موجوداً ، ولما فصل الحق إضافة النور إلى السموات وهو ما غاب من القوى

وعلا ، وإلى الأرض وهو ما ظهر من القوى الحسية ودنا ، قال الله تعالى : إنه عين نفورها عن ذاتها ، فلم يشهد إلا هو ، فهو عين السموات والأرض ، فإن الخلق ظلمة ولا يقف للنور فإنه ينفرها ، والظلمة لا ترى النور ، وما ثَمَّ إلا نور الحق ، فمن النور ما يُدرَك به ولا يُدرَك في نفسه ، والنور لا يُرى أبداً ، والظلمة وإن حجبت فإنها مرئية للمناسبة التي بينها وبين الرائي ، فإنه ما ثَمَّ ظلمة وجودية إلا ظلمة الأكوان ، فكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه : واجعلني نوراً ، فكان رسول الله ﷺ يطلب بهذا الدعاء أن يكون الحق بصره حتى يراه به ، ولهذا قال ﷺ : [نور أنّى أراه] فإنه ما رآه مني إلا هويته ، وظلمتي لا تدركه ، فقال « الله نور السموات والأرض » فهو الذي أنارت به العقول العلوية ، وهو قوله : السموات ، والصور الطبيعية وهو قوله « والأرض » ـ **الوجه الثاني** ـ « الله نور » تسمى الحق بالنور ولم يتسم بالظلمة إذ كان النور وجوداً والظلمة عدماً ، وإذ كان النور لا تغالبه الظلمة بل النور الغالب ، كذلك الحق لا يغالبه الخلق بل الحق الغالب ، فسمى نفسه نوراً ، فهو أصل الموجودات كلها من اسمه النور « السموات » وهي ما علا « والأرض » وهي ما سفل ، فالأجسام الطبيعية أصلها النور ، والطبيعة نور في أصلها ، فأول موجود العقل وهو القلم وهو نور إلهي إبداعي ، وأوجد عنه النفس وهو اللوح المحفوظ ، وهي دون العقل في النورية للوساطة التي بينها وبين الله ، وما زالت الأشياء تَكْثُفُ حتى انتهت إلى الأركان والمولدات ، وبما كان لكل موجود وجه خاص إلى موجده به كان سريان النور فيه ، وبما كان له وجه إلى سببه به كان فيه الظلمة والكثافة ما فيه ، فلهذا كان الأمر كلما نزل أظلم وأكثف ، فأين منزلة العقل من منزلة الأرض ؟ كم بينهما من الوسائط ؟ والإنسان آخر مولد فهو آخر الأولاد ، مركب من حمأ مسنون صلصال ، فيه من الأنوار المعنوية والحسية والزجاجية ما فيه ، مما لا تجده في غيره من المولدات بما أعطاه الله من القوى الروحانية ، فما قبلها إلا بالنورية التي فيه ، فلولا النورية التي في الأجسام الكثيفة ما صح للمكاشف أن يكشف ما خلف الجدران وما تحت الأرض ، فلا يُدرَك الشيء إن لم يكن فيه نور يدرك به من ذاته ، وهو عين وجوده واستعداده بقبول إدراك الأبصار بما فيها من الأنوار له ، واختص الإدراك بالعين عادة ، وإنما الإدراك في نفسه إنما هو لكل شيء ، فكل شيء يدرك بنفسه وبكل شيء ألا ترى الرسول ﷺ كيف كان يدرك من خلف ظهره كما

كان يدرك من أمامه ، و لم يحجبه كثافة عظم الرأس وعروقه وعظامه وعصبه ومخه ، وذلك خرق عادة لقوة إلهية أعطاهُ الله إياها ولبعض الأشخاص ، ومن هذا نعلم أن خلق الأجسام الطبيعية أصلها من النور ، ولذلك إذا عرف الإنسان كيف يُصَفِّي جميع الأجسام الكثيفة الظلمانية أبرزها شفافة للنورية التي هي أصل ، مثل الزجاج إذا خلص من كدورة رمله يعود شفافاً ، وما ترى جسماً قط خلقه الله وبقي على أصل خلقته مستقيماً قط ، ما يكون أبداً إلا مائلاً للاستدارة ، لا من جَمادٍ ولا من حيوان ولا سماء ولا أرض ولا جبل ولا ورق ولا حجر ، وسبب ذلك ميله إلى أصله وهو النور ــ **الوجه الثالث** ــ لولا النور ما ظهر للممكنات عين ، ولولا ما أنت في نفسك ذو نور عقلي ما عرفته وذو نور بصري ما شهدته ، فما شهدته إلا بالنور ، وما ثَمَّ نور إلا هو ، فما شهدته ولا عرفته إلا به ، فهو نور السموات من حيث العقول ، والأرض من حيث الأبصار ، وما جعل الله عز وجل صفة نوره إلا بالنور الذي هو المصباح ، وهو نور أرضي لا سماوي ، فشبه نوره بالمصباح لأنه لولا نزوله إلينا ما عرفناه .

فلــولا النـــور لم تشهـــده عين ولــولا العقــل لم يعرفــه كــون

فبالنور الكوني والإلهي كان ظهور الموجودات التي لم تزل ظاهرة له في حال عدمها ، كما هي لنا في حال وجودها ، فنحن ندركها عقلاً في حال عدمها وندركها عيناً في حال وجودها ، والحق يدركها عيناً في الحالين ، فلولا أن الممكن في حال عدمه على نور في نفسه ما قبل الوجود ولا تميز عن المحال ، فبنور إمكانه شاهده الحق ، وبنور وجوده شاهده الخلق ، فبين الحق والخلق ما بين الشهودين ، فالحق نور في نور ، والخلق نور في ظلمة في حال عدمه ، وأما في وجوده فهو نور على نور ، لأنه عين الدليل على ربه ، ولما كان الحق لا يتمكن أن يشهد ويعلم إلا بضرب مثل ، لهذا ضرب الله لنا المثل ، وجعل لنا مثل نوره في السموات والأرض « كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » والزيتُ مادة الأنوار ، وهو مَثَلٌ للإمداد بالنور الإلهي الذي أودع الله في الزيت لبقاء النور ، ثم قال « نور على نور يهدي الله لنوره » من هذين النورين ، فيعلم المشبه والمشبه به « من يشاء ويضرب الله الأمثال » فجعله ضرب مثل للتوصيل ، ويجوز في ضرب الأمثال المحال الذي لا يمكن وقوعه ، فكما

لا يكون المحال الوجود وجوداً بالفرض ، كذلك لا يكون الخلق حقاً بضرب المثل ، فما هو موجود بالفرض قد لا يصح أن يكون موجوداً بالعين ، ولو كان عين المشبه ضرب المثل ، لما كان ضرب مثل إلا بوجه ، فلا يصح أن يكون هنا ما وقع به التشبيه وضرب المثل موجوداً إلا بالفرض ، فعلمنا بضرب هذا المثل أننا في غاية البعد منه تعالى في غاية القرب أيضاً ، ولهذا قبلنا ضَرْبَ المثل ، فجمعنا بين القرب والبعد ، وهو القريب البعيد ، قريب بالمثل بعيد بالصورة ، لأن فرض الشيء لا يكون كهو ولا عين الشيء ، فهذه الآية من أسرار المعرفة بالله تعالى في ارتباط الإله بالمألوه والرب بالمربوب ، فإن المربوب والمألوه لو لم يتول الله حفظه دائماً لفَنِيَ من حينه ، إذ لم يكن له حافظ يحفظه ويحفظ عليه بقاءه ، فمن فهم هذه الآية علم حفظ الله العالم ، فهو روح العالم الذي يستمد منه حياته ، قال تعالى : « الله نور السموات والأرض » فلو احتجب الله عن العالم في الغيب انعدم العالم ، فمن هنا الاسم الظاهر حاكم أبداً وجوداً ، والاسم الباطن علماً ومعرفة ، فبالاسم الظاهر أبقى العالم ، وبالاسم الباطن عرفناه ، وبالاسم النور شهدناه ، ثم مَثّل فقال : « مثل نوره كمشكاة » وهي الكوة « فيها مصباح » وهو النور أي صفة نوره صفة المصباح و لم يقل صفة الشمس ، فإن الإمداد في نور الشمس يخفى ، بخلاف المصباح فإن الزيت والدهن يمده لبقاء الإضاءة ، فهو باقٍ بإمداد دهني ، « من شجرة » نسبة الجهات إليها نسبة واحدة ، منزهة عن الاختصاص بحكم جهة ، وهو قوله « لا شرقية ولا غربية » وهذا الإمداد من نور السبحات الظاهرة من وراء سبحات العزة والكبرياء والجلال ، فما ينفذ من نور سبحات هذه الحجب هو نور السموات والأرض ، ومثله كمثل المصباح ، والنور الذي في الدهن معلوم غير مشهود ، وضوء المصباح من أثره يدل عليه ، وعلى الحقيقة ما هو نور وإنما هو سبب لبقاء النور واستمراره ، فالنور العلمي منفّر ظلمة الجهل من النفس ، فإذا أضاءت ذات النفس أبصرت ارتباطها بربها في كونها وفي كون كل كون ، وجعل هذا النور في مشكاة وزجاجة مخافة الهواء أن يحيره ويشتد عليه فيطفيه ، فكأن مشكاته وزجاجته نشأته الظاهرة والباطنة ، فإنهما من حيث هما معصومان ، فإنهما من الذين يسبحون بحمد الله الليل والنهار لا يفترون — فنور السّراج أدلُّ على الحق من نور الشمس عند الناظرين بمشاهدتهم المادة التي بها بقاؤه — وأنزلُ الأنوار ما يفتقر إلى مادة وهو المصباح ، فإذا أنزل الحق نوره في التشبيه إلى مصباح وهو

نور مفتقر إلى مادة تمده وهي الدهن ، فما هو أعلى منه من الأنوار أقرب إلى التشبيه وأعلى في التنزيه ، وإنما أعلمنا الحق بذلك وجاء بكاف الصفة في قوله « كمشكاة » إلى آخر الآية ، إعلاماً أنه نور كل نور ، بل هو كل نور ، وشرع لنا طلب هذه الصفة ، فكان ﷺ يقول : [واجعلني نوراً] وكذلك كان ﷺ ، وما ضرب الله المثل في هذه الآية للاسم الله وإنما عيّن سبحانه اسماً آخر ، وهو قوله « نور السموات والأرض » فضرب المثل بالمصباح لذلك الاسم النور المضاف إلى السموات والأرض ، أي هكذا فافعلوا ، ولا تضربوا الأمثال لله فإني ما ضربتها ، فنهينا أن نضرب المثل من هذا الوجه إلا أن نعين اسماً خاصاً ينطبق المثل عليه ، فحينئذ يصح ضرب المثل لذلك الاسم الخاص ، كما فعل الله في هذه الآية ، فإنه تعالى هنا لم يطلق على نفسه اسم النور المطلق الذي لا يقبل الإضافة وقال : « نور السموات والأرض » ليعلمنا ما أراد بالنور هنا ، فأثّر حكمُ التعليم والإعلام في النور المطلق الإضافة ، فقيدته عن إطلاقه بالسموات والأرض ، فلما أضافه نزل عن درجة النور المطلق في الصفة ، فقال : « مثل نوره » أي صفة نوره ، يعني المضاف إلى السموات والأرض كمشكاة ، إلى أن ذكر المصباح ومادته ، وأين صفة نور السراج ــ وإن كان بهذه المثابة ــ من صفة النور الذي أشرقت به السموات والأرض ؟ فعلّمنا سبحانه في هذه الآية الأدب في النظر في أسمائه إذا أطلقناها عليه بالإضافة كيف نفعل ، وإذا أطلقناها عليه بغير الإضافة كيف نفعل ، مثل قوله : « يهدي الله لنوره من يشاء » فأضاف النور هنا إلى نفسه لا إلى غيره ، وجعل النور المضاف إلى السموات والأرض هادياً إلى معرفة نوره المطلق ، كما جعل المصباح هادياً إلى نوره المقيد بالإضافة ، وتمم وقال : « ويضرب الله الأمثال للناس » ونهانا في موطن آخر فقال (ولا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) فإن الله اسم جامع لجميع الأسماء الإلهية ، محيط بمعانيها كلها ، وضرب الأمثال يخص اسماً واحداً معيناً ، فنهينا أن نضرب المثل من هذا الوجه إلا أن نعين اسماً خاصاً ينطبق المثل عليه ، فحينئذ يصح ضرب المثل لذلك الاسم الخاص كما فعل الله في هذه الآية ، وهذا مثل ضربه الله تعالى إخباراً بما هو الأمر عليه فقال : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية » فالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت أربعة ، مَثّل على الوجود القائم على التربيع ، وهو للحق كالبيت القائم على

أربعة أركان ، توقد من شجرة هويته ، مباركة فهي لا شرقية ولا غربية ، لا تقبل الجهات ، ومباركة في خط الاعتدال منزهة عن تأثير الجهات ؛ وعن هذه الزيتونة يكون الزيت وهو المادة لظهور هذا النور ، فالخامس للأربعة هو الهوية وهو الزيتونة المنزهة عن الجهات كنّى عنها بالشجرة ، من التشاجر ، وهو التضاد لما تحمله هذه الهوية من الأسماء المتقابلة كالمعزّ والمذلّ والضار والنافع ؛ فهي الخزانة للإمداد الإلهي للوجود الظاهر كله ، إمداداً باطناً بطون الزيت في الشجرة ، وقولنا مثل على الوجود القائم على التربيع ، فإن الحصر منع أن يكون سوى هذه الأربعة ، فهو القائل تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) فهي أربعة لا خامس لها إلا هويته ، فما ثَمَّ في العالم حكم إلا من هذه الأربعة « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور » نور المصباح ظاهر يمده نور باطن في زيت ، أي نور من نور ، فأبدل حرف من بعلى لما يفهم به من قرينة الحال ، وقد تكون على على بابها ، فإن نور السراج الظاهر يعلو حساً على نور الزيت الباطن وهو الممدّ للمصباح ، فلولا رطوبة الدهن تمد المصباح لم يكن للمصباح ذلك الدوام ، وكذلك إمداد التقوى للعلم العرفاني الحاصل منها في قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) ــ **الوجه الثاني** ــ لله في قلب العبد عينان : عين بصيرة تنظر بالنور الذي يهدي به وهو علم اليقين ، وعين اليقين تنظر بالنور الذي يهدي إليه وهو نور اليقين ، فإذا اتصل النور الذي يهدي به بالنور الذي يُهدي إليه ، عاين الإنسان ملكوت السموات والأرض ، ولاحظ سر القدر كيف تحكم في الخلائق ، وهو قوله تعالى : « نور على نور » لذلك قال تعالى : « يهدي الله لنوره من يشاء » وهو نور اليقين الذي تنظر به عين اليقين ــ **الوجه الثالث** ــ نور الشرع صورة سراج مصباح لا تحركه الأهواء لكونه في مشكاة ، ومشكاته الرسول ، فهو محفوظ من الأهواء التي تُطْفيهِ ، وذلك المصباح في زجاجة قلبه ، وجسمه المصباح واللسان ترجمته ، والإمداد الإلهي زيته ، والشجرة حضرة إمداده ، فقال تعالى : « نور » وهو النور المجعول (وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس) وهو الشرع الموحى به « على نور » وهو النور الذاتي ، فاجتمع نور البصر مع النور الخارج وهو الشرع « يهدي الله لنوره من يشاء » وهو أحد النورين ، والنور الواحد مجعول بجعل الله على النور الآخر فهو حاكم عليه ، والنور المجعول عليه هذا النور متلبس به مندرج فيه ، فلا حكم إلا للنور المجعول وهو الظاهر ، وهذا حكم نور الشرع على نور العقل .

فليس له سوى التسليم فيه وليس له سوى ما يصطفيه
فإن أولته لم تَحْظَ منه بعلم في القيامة ترتضيه

ــ **الوجه الرابع** ــ « نور على نور » نور الشرع « على نور » بصر التوفيق والهداية ، فإذا اجتمع النوران بان الطريق بالنورين ، فلو كان واحداً لما ظهر له ضوء ، ولاشك أن نور الشرع قد ظهر كظهور نور الشمس ، ولكن الأعمى لا يبصره ، كذلك من أعمى الله بصيرته لم يدركه فلم يؤمن به ، ولو كان نور عين البصيرة موجوداً ولم يظهر للشّرْع نور بحيث أن يجتمع النوران فيحدث الضوء في الطريق لما رأى صاحب نور البصيرة كيف يسلك ، لأنه في طريق مجهولة لا يعرف ما فيها ولا أين تنتهي به من غير دليل موقّف ، ولما كان القرب بالسلوك والسفر إليه ، لذلك كان من صفته النور لنهتدي به في الطريق ، فإنه لولا ما دعاك وبيّن لك طريق القربة وأخذ بناصيتك فيها ما تمكن لك أن تعرف الطريق التي تقرب منه ما هي ، ولو عرفتها لم يكن لك حول ولا قوة إلا به ــ **الوجه الخامس** ــ « نور السموات والأرض » الذي مثله بالمصباح شبّه النور الإلهي بنور المصباح وإن بعدت المناسبة ، ولكن اللسان العربي يعطي التفهم بأدنى شيء من متعلقات التشبيه ، فتكون المعارف على حسب ما وقع به التشبيه ، لأن المعارف متنوعة بالذي يريد صاحبها ، منها يدل عليه بأمر يناسبه ــ من وجه ما ــ مناسبة لطيفة لدلالة غيبية ، كما قال : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » بشروطه من الزجاجة ، التنزيه الذي هو الجسم الشفاف الصافي ، فكان قوله في الزجاجة مقام الصفا ، في المشكاة مَقامَ الستر من الأهواء ، فلم تصبه مقالات القائلين فيه بأفكارهم « توقد من شجرة مباركة » وهو الإمداد « لا شرقية ولا غربية » في مقام الاعتدال لا تميل عن غرض إلى شرق فيحاط بها علماً ، ولا إلى غرب فلم تعلم رتبتها « نور على نور » وجود على وجود ، وجود عيني على وجود مفتقر .

الله نور تعالى أن يماثله نور وقد لاح لي في نار نبراس
لو قال خلق به من دون خالقه لكفروه وما في القول من باس
لأنه مثل لو قلته قيل هل لداء هذا الذي قد قال مِنْ آسي

فالولي هو من يعرف ما ضرب الله له الأمثال ، فيشهد الجامع بين المثل وبين ما ضرب

له ذلك المثل ، فهو عينه من حيث ذلك الجامع ، وما هو عينه من حيث ما هو مثل ، ولذلك قال تعالى : « يهدي الله » بما ضربه لعباده من هذا النور بالمصباح « لنوره » المُمَثَّل به « من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » فهذا مصباح مخصوص ما هو كل مصباح ، فلا ينبغي أن يقال : إن نور الله كالمصباح من كونه يكشف المصباح كل ما انبسط عليه نوره لصاحب بصر ، مثل هذا لا يقال : فإن الله ما ذكر ما ذكره من شروط هذا المصباح ونعوته وصفاته الممثل به سدى ، فمثل هذا المصباح هو الذي يضرب به المثل ، فإن الله يعلم كيف يضرب الأمثال ــ **قراءة** ــ العارف يقف في التلاوة على مصباح ثم يقول : « المصباح في زجاجة » فيكون حديثه مع المصباح لا مع النور الإلهي ، والآية مَثَل لِقَلْب المؤمن التقي النقي الورع ، فليس له عامر إلا الله ، والله هو النور لأنه نور السموات والأرض ، فمثل القلب بالمشكاة فيها مصباح وهو النور ، نور العلم بالله ، وما بقي من الكلام فإنما هو من تمام كمال النور الذي وقع به التشبيه ، ما هو من التشبيه ، فلا تغلط فتخطىء الطريق إلى ما أبان الحق عنه في هذه الآية ، فالقلب مشبه بالمشكاة والمشكاة الكوة ــ **تفسير من مبشرة** ــ رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت : قوله تعالى « توقد من شجرة مباركة زيتونة » إلى آخر الآية ، ما هذه الشجرة ؟ فقال : كنّى عن نفسه سبحانه ، لذلك نفى عنها الجهات ، فإنه لا يتقيد بالجهات ، والغرب والشرق كناية عن الفرع والأصل ، فهو الله خالق المواد وأصلها ، ولولا هو ما كانت ــ في كلام طويل وتفصيل واضح .

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾

ربط الله إقامة الصلوات المفروضة بأماكن وهي المساجد فقال : « في بيوت أذن الله أن ترفع » أي أمر الله أن ترفع حتى تتميز البيوت المنسوبة إلى الله من البيوت المنسوبة إلى المخلوقين « ويذكر فيها اسمه » بالأذان والإقامة والتلاوة والذكر والموعظة « يسبح » يقول : يصلي « له فيها » أي من أجل أن أمرهم الله بالصلاة فيها « بالغدو والآصال » ــ **الوجه الثاني** ــ « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » أمر الله تعالى برفع المساجد عما

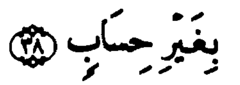
يجوز من العمل في البيوت « يسبح » يصلي « له » لله « فيها » في المساجد ، فهل ترفع عن دخول الكفار فيها ، هي مسئلة خلاف فيما يحرم من ذلك ، وأما تنزيهها عن ذلك على جهة الندب فلا خلاف فيه ، فمن خرج « أذن الله أن ترفع » أي أمر وحمله على الوجوب منع من دخول الكفار جميع المساجد المشركين وغيرهم ، وأما المسجد الحرام الذي بمكة فقد ورد النص بأن لا يقربه مشرك وأنه نَجَسٌ ، فمن علل المنع بالنجاسة وجعل النجاسة لكفره وعَلَّل المسجد لكونه مسجداً منع الكفار كيفما كانوا من جميع المساجد ، ومن رأى أن ذلك خاصٌ بالمسجد الحرام ، ولهذا خصّ بالذكر وأن ما عدا المشرك وإن كان كافراً لا يتنزل منزلته منع دخول المشرك المسجد الحرام وكل مسجد لقوله تعالى : « في بيوت » وجوز الدخول فيه لمن ليس بمشرك ، ومن أخذ بالظاهر و لم يعلل منع المشرك خاصة من المسجد الحرام خاصة ، فإن النبي ﷺ حبس في المسجد في المدينة ثُمامة بن أُثال حين أسر وهو مشرك وهو الأوجه ، ولَمْ يَمنعْ غير المشرك من المسجد الحرام ومن المساجد ، ومنع المشرك من سائر المساجد أولى لقوله تعالى : « أذن الله أن ترفع » إلا أن يقترن بذلك أمر وحالة فلا بأس ، وأما قوله تعالى في سورة البقرة : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » ففيه إباحة الدخول للكفار في المساجد على هذه الحالة من ظهور الإسلام عليهم .

رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾

« رجال » هنا له وجه تعلق يطلبه « يسبح » بالفاعلية ، ووجه يطلبه الابتداء بالمبتدئية ، وضمير « لا تلهيهم » يعود عليهم في الوجهين معاً ، وقوله : « رجال » المراد بالرجال في هذه الآية والآيات الثلاث (وعلى الأعراف رجال) (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً) (وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً) ما أراد بالرجال في هذه الآيات الذكران خاصة ، وإنما أراد الصنف الإنساني ذكراً أو أنثى ، فلم يذكر النساء لأن الرجل يتضمن المرأة ، فاكتفى بذكر الرجال دون النساء تَشْريفاً للرجال وتنبيهاً على لحوق النساء بالرجال ، فسمّى النساء هنا رجالاً ، فإن درجة الكمال لم تحجر عليهن ، بل يكملن كما تكمل الرجال ، وثبت في الخبر كمال مريم وآسية امرأة فرعون « لا تلهيهم تجارة » لا تشغلهم تجارة فهم في تجارتهم في ذكر

الله ، لأن التجارة على الحد المرسوم الإلهي من ذكر الله ، كما قالت عائشة عن رسول الله ﷺ : إنه كان يذكر الله على كل أحيانِهِ ، مع كونه يمازح العجوز والصغير « ولا بيع » فالتجارة أن يبيع ويشتري معاً ، والبيع أن يبيع فقط « عن ذكر الله » أي لا يلهيهم شيء عن ذكر الله حين سمعوا المؤذن في هذا البيت يدعو إلى الله وهو حاجب الباب ، فقال لهم : [حيّ على الصلاة] أي أقبلوا على مناجاة ربكم ، فهؤلاء الرجال بادروا من بيعهم وتجارتهم المعلومة في الدنيا إلى هذا الذكر عندما سمعوه ، وَرَد : المسجد بيت كل تقي ، فأضافه تعالى إلى المتقين من عباده وقد كان مضافاً إلى الله تعالى ؛ واعلم أن القائلين بالأسباب إذا اعتمدوا عليها وتركوا الاعتماد على الله لحقوا بالأخسرين أعمالاً ، وإذا أثبتوا الأسباب واعتمدوا على الله و لم يتعدوا فيها منزلتها التي أنزلها الله فيها ، فأولئك الأكابر من الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وأثبت لهم الحق الرجولة في هذا الموطن ، ومن شهد له الحق بأمر فهو على حق في دعواه إذا ادعاه « وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تَتَقَلَّبُ فيه القلوب والأبصار » الخائفون أثنى الله عليهم بالخوف ، فالتحقوا بالملأ الأعلى في هذه الصفة ، فإنه قال فيهم : (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) فمن كان بهذه المثابة تميز مع الملأ الأعلى ، ومن أدبهم مع الله أنهم خافوا اليوم لما يقع فيه لكون الله خوفهم منه ، ولما تحققوا بهذا الأدب أثنى الله عليهم بأنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فهذا خوف الزمان ، وأما خوف الحال فهو قوله تعالى : (ويخافون سوء الحساب) فأهل الأدب مع الله وفقوا له حيث وفقهم ، فإن كثيراً من الناس لا يتفطنون لهذا الأدب ولا يعرجون على ما خوفوا به من الأكوان وعلّقوا أمرهم بالله ، أوحى الله إلى رسوله موسى عليه السلام : يا موسى خفني وخف نفسك ــ يعني هواك ــ وخف من لا يخافني ــ وهم أعداء الله ــ ، فأمره بالخوف من غيره ، فامتثل الأدباء أمر الله ، فمشاهدة العقاب تمنع من الإدلال ، قال تعالى : (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) وقال (يخافون ربهم من فوقهم) .

لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ



« ويزيدهم من فضله » تلك الزيادة من جنات الاختصاص « والله يرزق من يشاء بغير حساب » عليه .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

ــ **الوجه الأول** ــ هذا مثل ضربه الله في أعمال الكفار فقال : « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء » وذلك لظمئه ، لولا ذلك ما حسبه ماءً ، لأن الماء موضع حاجته ، فيلجأ إليه لكونه مطلوبه ومحبوبه ، لما فيه من سر الحياة ، فجعل الحق في عين الرائي صورة الماء ، وهو ليس بالماء الذي يطلبه الظمآن ، فتجلى له في عين حاجته « حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » يعني الماء ، ونكّر وما قال الماء ، « ووجد الله عنده » أي عند السراب حين لم يجده شيئاً ، يعني السراب ــ **الوجه الثاني** ــ « ووجد الله عنده » لمّا لم يكن السراب إلا في عين الرائي الطالب الماء ، فرجع هذا الرائي لنفسه لما لم يجد مطلوبه في تلك البقعة ، « ووجد الله عنده » لانقطاع الأسباب عنه فلجأ إليه في إغاثته بالماء أو المزيل لذلك الظمأ القائم به ، فما وجد الله إلا عند الاضطرار ، فإن المضطر يرجع إلى الله بكليته مثل الظمآن المضطر عندما يسفر له السراب عن عدم الماء فيرجع إلى الله ولهذا قلنا : إذا لم تجد شيئاً وجدت الله ، فإنه لا يوجد إلا عند عدم الأشياء التي يُركن إليها ــ **تحقيق** ــ كل ما يعطيه الحس من المغاليط ليس على الحقيقة نسبة الغلط إلى الحس ، وإنما الغلط للحاكم ، وهو أمر آخر وراء الحس ــ **تفسير من باب الإشارة** ــ إذا اعتبرنا « والذين كفروا » أي ستروا محبتهم ، وهم معطوفون على من سبقهم من الرجال في الآية السابقة ، وهؤلاء الذين ستروا محبتهم من المحبين ، فإن الحب يلطف أرواحهم لطافة السراب ، فإن السراب يحسبه الظمآن ماءً لكونه مطلوبه ومحبوبه لما فيه من سر الحياة ، وقال « بقيعة » إشارة إلى مقام التواضع ، والظمآن إذا جاء السراب لم يجده شيئاً ، وإذا لم يجده شيئاً وجد الله عنده عوضاً من الماء ، فكأن قصده حساً للماء ، والله يقصد به إليه من حيث لا يشعر ، فكما أنه تعالى يمكر بالعبد من حيث لا يشعر ، كذلك يعتني بالعبد في الالتجاء إليه والرجوع إليه والاعتماد عليه ، بقطع الأسباب عنه عندما يبديها له من حيث لا يشعر ، فوجود الله عنده عند فقد الماء المتخيل له في السراب ، هو رجوعه

إلى الله ، لما تقطعت به الأسباب ، وتغلقت دون مطلوبه الأبواب ، رجع إلى من بيده ملكوت كل شيء ، وهو كان المطلوب به من الله ، هذا فعله مع أحباه ، يردهـم إليـه اضطـراراً واختياراً ، كذلك أرواح المحبين يحسبونها قائمة بحقوق الله التي فرضها عليها ، وأنها المتصرفة عن أمر الله ، محبة لله ، وشوقاً إلى مرضاته ، ليراها حيث أمرها ، فإذا كشف لها الغطاء واحتد بصرها ، وجدت نفسها كالسراب في شكل الماء ، فلم تر قائماً بحقوق الله إلا خالق الأفعال ، وهو الله تعالى ، فوجدت الله عين ما تخيلت أنه عينها ، فذهبت عينها عنها ، وبقي المشهود الحق بعين الحق ، كما فني السراب عن السراب ، والسراب مشهود لنفسه وليس بماء ، كذلك الروح موجود في نفسه وليس بفاعل ــ **إشارة لا تفسير** ــ إذا جئت إلى السراب لتجده كما أعطاك النظر لم تجده في شيئيته ما أعطاك النظر ، كذلك معرفتك بالله مثل معرفتك بالسراب أنه ماء ، فإذا به ليس ماءً وتراه العين ماء ، فكذلك إذا قلت عرفت الله وتحققت بالمعرفة عرفت أنك ما عرفت الله ، فالعجز عن معرفته هو المعرفة به ، فإن المتعطش إلى العلم بالله يأخذ في النظر في العلم به ، فيفيده تقييد تنزيه أو تشبيه ، فإذا كشف الغطاء وهو حال وصول الظمآن إلى السراب لم يجده كما قيده فأنكره ، ووجد الله عنده غير مقيد بذلك التقييد الخاص ، بل له الإطلاق في التقييد ، فوفاه حسابه أي تقديره ، فكأنه أراد صاحب هذا الحال أن يخرج الحق من التقييد فقال له الحق بقوله : « فوفاه حسابه » لا يحصل لك في هذا المشهد إلا العلم بي أني مطلق عن التقييد .

أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

« ظلمات بعضها فوق بعض » ظلمة الجو تقترن معها ظلمة البحر ، تقترن معها ظلمة الموج ، تقترن معها ظلمة تراكم الموج ، تقترن معها ظلمة السحاب التي تحجب أنوار الكواكب ، « إذا أخرج يده لم يكد يراها » فوصفه بأنه ما رآها ولا قارب رؤيتها ، فإنه نفى القرب بدخول لم على يكاد ، وهو حرف نفي وجزم يدخل على الأفعال المضارعة للأسماء

فينفيها « ومن لم يجعل الله له نوراً » ـــ **الوجه الأول** ـــ « نوراً » هنا من إيمانه « فما له من نور » في القيامة ـــ **الوجه الثاني** ـــ « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » وهو العلم ، والظلمة الجهل ، وشبهه الله تعالى هنا في هذه الآية بالظلمات فقال : « ظلمات بعضها فوق بعض » وهو جهل على جهل ، وهو مَنْ جهل ولا يعلم أنه جهل ، فنفى عنه أنه يقارب رؤية يده ، فكيف أن يراها ؟ وأدخل اليد هنا دون غيرها لأنها محل وجود الاقتدار ، وبها يقع الإيجاد ، أي إذا أخرج اقتداره ليراه لم يقارب رؤيته لظلمة الجهل ، لأنه لو رآه لرآه عين الاقتدار الإلهي ، فظلمة الليل ظلمة الطبع ، وظلمة البحر ظلمة الجهل وهو فقد العلم ، وظلمة الفكر ظلمة الموج ، وظلمة الموج المتراكم ظلمة تداخل الأفكار في الشبه ، وظلمة السحاب ظلمة الكفر ، فمن جمع هذه الظلمات فقد خسر خسراناً مبيناً ـــ **الوجه الثالث** ـــ « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » لولا النور ما وُجِد للممكن عين ولا اتصف بالوجود ، فنبهنا الله على ذلك بقوله : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » فالنور المجعول في الممكن ما هو إلا وجود الحق لأنه هو النور ، وقد قال تعالى : (كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) وهو ما بقي من الممكنات في شيئية ثبوتها ، لا حكم لها في الوجود الحق ، فأزال الحق بنوره ظلمة الكون الحادث ـــ **الوجه الرابع** ـــ لما كان الأمر سفراً وسلوكاً ، اجتمع نور البصر مع النور من خارج وهو نور الشرع ، فكشف ما في الطريق من المهالك والحيوانات المضرة ، فاجتنب كل ما يخاف منها ويحذر ، وسلك محجة بيضاء ما فيها مهلك ولا حيوان مضر « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » بعد أن ظهر مصباح الشرع لم ينطف ولا زال ، فمن استدبره وأعرض عنه مشى في ظلمة ذاته ، وتلك الظلمة ظلمته فيكون ممن جنى على نفسه بإعراضه عن الشرع واستدباره ، فهذا حكم من ترك الشرع واستقل بنظره .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)

« ألم ترَ » خاطب الحق رسوله محمداً ﷺ فقال له : « ألم ترَ » ولم يقل : ألم تروا ؛

فإنا ما رأينا ، فالمخاطب بهذه الآية نبيه ﷺ الذي أشهده وأراه ، فهو لنا إيمان وهو لمحمد ﷺ عيان ، فإنه صاحب الكشف حيث يرى ما لا نرى « أن الله يسبح له من في السموات والأرض » وهذا تسبيح فطري ذاتي عن تجلٍ إلهي ، فانبعثوا إلى الثناء عليه من غير تكليف بل اقتضاء ذاتي ، وهي العبادة الذاتية التي أقامهم الله فيها « والطير صافات » اعلم أيدنا الله وإياك أن البهائم أمم من جملة الأمم ، لها تسبيحات تخص كل جنس وصلاة مثل ما لغيرها من المخلوقات ؛ فتسبيحهم ما يعلمونه من تنزيه خالقهم ، وأما صلاتهم فلهم مع الحق مناجاة خاصة ، فكل شيء من المخلوقات له كلام يخصه يعلمه الله ويسمعه مَنْ فتح الله سمعه لإدراكه ، وجميع ما يظهر من الحيوان من الحركات والصنائع التي لا تظهر إلا من ذي عقل وفكر وروية ، وما يرى في ذلك من الأوزان تدل على أن لهم علماً في أنفسهم بذلك كله ، ثم نرى منهم أموراً تدلّ على أنهم ما لهم ما للإنسان من التدبير العام ، فتعارضت عند الناظرين في أمرهم الأمور ، فانْبَهَم أمرهم ، وربما سُموا لذلك بهائم من إبهام الأمر ، وما أُتي على مَنْ أتي عليه إلا مِنْ عدم الكشف ، لذلك فلا يعرفون من المخلوقات إلا قدر ما يشاهدون منهم ، فالحيوانات كلها عندنا ذوات أرواح وعقول تعقل عن الله « كل » أي كل هؤلاء « قد علم صلاته » ــ **الوجه الأول** ــ الضمير يعود على الله من قوله صلاته ، أي صلاة الله عليه بنفس وجوده ورحمته به في ذلك ــ **الوجه الثاني** ــ الصلاة تضاف إلى كل ما سوى الله من جميع المخلوقات : ملك وإنسان وحيوان ونبات ومعدن بحسب ما فرضت عليه وعيّنت له ، فأضاف الله الصلاة في هذه الآية إلى الكل « تسبيحه » الضمير يعود في تسبيحه على « كل » أي ما يسبح ربه به وهو صلاته له ، والتسبيح في لسان العرب الصلاة . قال عبد الله بن عمر وهو من العرب ــ وكان لا يتنفل في السفر ــ فقيل له في ذلك ، فقال : لو كنت مسبحاً أتممت ؛ وقال تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) ــ **الوجه الثالث** ــ إن الله ما خلق الأشياء من أجل الأشياء ، وإنما خلقها ليسبحه كل جنس من الممكنات بما يليق به من صلاة وتسبيح ، لتسري عظمته في جميع الأكوان وأجناس الممكنات وأنواعها وأشخاصها ، فالكل له تعالى مُلْك ، ولذلك نقول : إن الله تعالى خلق الأشياء له لا لنا ، وأعطى كل شيء خلقه ، وبإعادة الضمير في صلاته على الله وصف الحق نفسه بالصلاة ، وما وصف نفسه بالتسبيح ، فعمّ بهذه الآية

العالم الأعلى والأسفل وما بينهما برحمته ، فإن صلاة الله هي رحمته .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾

السحاب يتكون من الماء يكون بخاراً ، فتصعد الأبخرة للحرارة التي فيها فتتكون سحاباً ، والله يزجي السحاب والعين تشهد أن الريح يزجيها ، فما في السحاب من الماء يثقل فينزل ، كما صعد بما فيه من الحرارة ، فإن الأصغر يطلب الأعظم فإذا ثقل اعتمد على الهواء ، فانضغط الهواء فأخذ سفلاً ، فحك وجه الأرض فتقوت الحرارة التي في الهواء ، فطلب الهواء بما فيه من الحرارة القوية الصعود يطلب الركن الأعظم ، فوجد السحاب متراكماً فمنعه من الصعود تكاثفه فاشتعل الهواء ، فخلق الله في تلك الشعلة ملكاً سماه برقاً ، فأضاء به الجو ، ثم انطفأ بقوة الريح كما ينطفىء السراج ، فزال ضوءه مع بقاء عينه ، فزال كونه برقاً ، وبقي العين كوناً يسبح الله ، ثم صدع الوجه الذي يلي الأرض من السحاب ، فلما مازجه خلق الله من ذلك ملكاً سماه رعداً ، فسبح بحمد الله ، فكان بعد البرق ، لابد من ذلك ما لم يكن البرق خلباً ، فكل برق يكون على ما ذكرناه ، لابد أن يكون الرعد يعقبه ، لأن الهواء يصعد مشتعلاً فيخلقه ملكاً يسميه برقاً ، وبعد هذا يصدع أسفل السحاب فيخلق الله الرعد مسبحاً بحمد ربه لما أوجده ، وثَمَّ بروق وهي ملائكة يخلقها الله في زمان الصيف من حرارة الجو لارتفاع الشمس ، فتنزل الأشعة الشمسية فإذا أحرقت ركن الأثير زادت حرارة ، فاشتعل الجو من أعلى وما ثَمَّ سحاب ، لأن قوة الحرارة تلطف الأبخرة الصاعدة على كثافتها ، فلا يظهر للسحاب عين ، فيخلق الله من ذلك الاشتعال بروقاً خُلَّبا لا يكون معها رعد أصلاً « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » لأن البرق نور شعشعاني تذهب أشعته بالأبصار .

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾

قال تعالى : (كل يوم هو في شأن) فالعالم في كل نفس في تحول وانقلاب في الشؤون الإلهية ، فهو تعالى المحول القلوب في الليل والنهار بما يقلبها ، وفي السماء بما يوحي فيها ، وفي الأرض بما يقدر فيها ، وفيما بينهما بما ينزل فيه ، وفينا بما نكون عليه ، وهو معنا أينما كنا فنتحول لتحوله ونتقلب لتقلبه « إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » لاختلاف الآثار ، وما ذاك إلا لاختلاف استعداد المحل ، ومن عرف ذلك عرف اختلاف الملل والنحل ، فمن نظر في حقائق الأشياء عاش عيشة السعداء .

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

« فمنهم من يمشي على بطنه » وهي الحيّات « إن الله على كل شيء قدير » لا على ما ليس بشيء ، فإن لا شيء ، لا يقبل الشيئية ، إذ لو قبلها ما كانت حقيقته لا شيء ، ولا يخرج معلوم عن حقيقته ، فلا شيء محكوم عليه بأنه لا شيء أبداً ، وما هو شيء ، محكوم عليه بأنه شيء أبداً ، ومن هنا تعلم شيئية الأعيان الثبوتية التي قال الله تعالى فيها : (إذا أراد شيئاً) قال له : (كن فيكون) .

لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

« أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله » الحيف ميل إلى عدم الحق .

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

أول درجات التكليف إذا كان سبع سنين إلى أن يبلغ الحلم ، والبلوغ بالسن أو الإنبات أو الحلم للعاقل ، فيجب التكليف على العاقل إذا بلغ . واعلم أن الروح الإنساني لما خلقه الله خلقه كاملاً بالغاً عاقلاً عارفاً مؤمناً بتوحيد الله مقراً بربوبيته ، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ثم إن الله تعالى جعل له في الجسم الذي جعله الله له مُلْكاً واستوى عليه ، جعل فيه قوى وآلات حسية ومعنوية ، وقيل له : خذ العلوم منها وصرفها على حد كذا وكذا ، وجعلت له هذه الآلات على مراتب ، فالقوى المعنوية كلها قوى كاملة إلا قوة الخيال ، فإنها خلقت ضعيفة والقوة الحساسة ، وجُعِلت هاتان القوتان تابعة للجسم ، فكلما نما الجسم وكبر وزادت كميته كلما تقوى حسه وخياله ، فلم تكن لطيفة الإنسان من حيث ذاتها مدركة لما تعطيها هذه القوى إلا بوساطتها ، فلو اتفق أن تعطيها هذه القوى المعلومات من أول ما يظهر الولد في عالم الحس قبلها الروح الإنساني قبولاً ذاتياً ، ألا ترى أن الله قد خرق العادة في بعض الناس في ذلك ؟ مثل كلام عيسى في المهد وصبي جريج ، هذا سبب تأخير التكليف عن الروح الإنساني إلى الحلم الذي هو حد كمال هذه القوى في علم الله ، فلم يبق عند ذلك عذر للروح الإنساني في التخلف عن النظر والعمل بما كلفه ربه ، لذا قال تعالى :

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

أمر الله العبد إذا دخل بيتاً خالياً من كل أحد أن يسلم على نفسه في قوله تعالى : « فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم » فيكون العبد هنا مترجماً عن الحق في سلامه ، لأنه قال : « تحية من عند الله مباركة » فجعل الحق العبد رسولاً من عنده إلى نفس العبد بهذه التحية المباركة لما فيها من زوائد الخير « طيبة » لأنها طيبة الأعراف بسريانها من نَفَس الرحمن ، فأمرنا الله تعالى بالسلام علينا ، وهذا يدلك على أن الإنسان ينبغي أن يكون في صلاته أجنبياً عن نفسه بربه حتى يصح له أن يسلم عليه بكلام ربه في قوله : (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فإنه قال : « تحية من عند الله مباركة طيبة » فهو سلام الله على عبده وأنت ترجمانه إليك ــ **إشارة** ــ المؤوف لا حرج عليه ، والعالم كله مؤوف لا حرج عليه لمن فتح الله عين بصيرته ، ولهذا قلنا : مآل العالم إلى الرحمة وإن سكنوا النار وكانوا من أهلها « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » وما ثَمَّ إلا هؤلاء ، فما ثَمَّ إلا مؤوف ، فقد رفع الله الحرج بالعرج العاثر فيه ، فإنه ما ثَمَّ سواه ولا أنت ، والمريض المائل إليه ، لأنه ما ثَمَّ موجود يمال إليه إلا هو ، والأعمى عن غيره لا عنه ، لأنه لا يتمكن العمى عنه وما ثَمَّ إلا هو ، فالعالم كله أعمى أعرج مريض .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

(٢٥) سُورَةُ الفُرقَانِ مَكيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾

اعلم أن الله أنزل الكتاب فرقاناً في ليلة القدر ، ليلة النصف من شعبان ، وأنزله قرآناً في شهر رمضان ، كل ذلك إلى السماء الدنيا ، ومن هناك نزل في ثلاث وعشرين سنة فرقاناً نجوماً ذا آيات وسور ، لتعلم المنازل ، وتتبين المراتب ، فمن نزوله إلى الأرض في شهر شعبان يتلى فرقاناً ، ومن نزوله في شهر رمضان يتلى قرآناً .

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

أول أثر إلهي في الخلق التقدير ، لذلك قال تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » وأعلم أن الجوهر الثابت هو العماء ، وليس إلا نفَسَ الرحمن ، والعالم جميع ما ظهر فيه من الصور فهي أعراض فيه ، وأما نضده على الظهور والترتيب ، فأرواح نورية إلهية مهيمة في صور نورية خلقية إبداعية في جوهر نَفَسٍ هو العماء ، ومن جملتها العقل الأول ، وهو القلم ،

ثم النَفْس وهو اللوح المحفوظ ، ثم الجسم ، ثم العرش ومقره وهو الماء الجامد والهواء والظلمة ، ثم ملائكته ، ثم الكرسي ، ثم ملائكته ، ثم الأطلس ، ثم ملائكته ، ثم فلك المنازل ، ثم الجنات بما فيها ، ثم ما يختص بها وبهذا الفلك من الكواكب ، ثم الأرض ، ثم الماء ، ثم الهواء العنصري ، ثم النار ، ثم الدخان وفتق فيه سبع سموات : سماء القمر ، وسماء الكاتب ، وسماء الزهرة ، وسماء الشمس ، وسماء الأحمر ، وسماء المشتري ، وسماء المقاتل ، ثم أفلاكها المخلوقون منها ، ثم ملائكة النار والماء والهواء والأرض ، ثم المولدات المعدن والنبات والحيوان ، ثم نشأة جسد الإنسان ، ثم ما ظهر من أشخاص كل نوع من الحيوان والنبات والمعدن ، ثم الصور المخلوقات من أعمال المكلفين وهي آخر نوع ، هذا ترتيبه بالظهور في الإيجاد . وأما ترتيبه بالمكان الوجودي أو المتوهم ، فالمكان المتوهم المعقولات التي ذكرناها إلى الجسم الكل ، ثم العرش ، ثم الكرسي ، ثم الأطلس ، ثم المكوكب ــ وفيه الجنات ــ ثم سماء زحل ، ثم سماء المشتري ، ثم سماء المريخ ، ثم سماء الشمس ، ثم سماء الزهرة ، ثم سماء الكاتب ، ثم سماء القمر ، ثم الأثير ، ثم الهواء ، ثم الماء ، ثم الأرض . وأما ترتيبه بالمكانة : فالإنسان الكامل ، ثم العقل الأول ، ثم الأرواح المهيمة ، ثم النَفْس ، ثم العرش ، ثم الكرسي ، ثم الأطلس ، ثم الكثيب ، ثم الوسيلة ، ثم عدن ، ثم الفردوس ، ثم دار السلام ، ثم دار المقامة ، ثم المأوى ، ثم الخلد ، ثم النعيم ، ثم فلك المنازل ، ثم البيت المعمور ، ثم سماء الشمس ، ثم القمر ، ثم المشتري ، ثم زحل ، ثم الزهرة ، ثم الكاتب ، ثم المريخ ، ثم الهواء ، ثم الماء ، ثم التراب ، ثم النار ، ثم الحيوان ، ثم النبات ، ثم المعدن . وفي الناس : الرسل ، ثم الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم المؤمنون ، ثم سائر الخلق . وفي الأمم : أمة محمد ﷺ ، ثم أمة موسى عليه السلام ، ثم الأمم على منازل رسلها ، فنقول بعد هذا الإيجاز : إنه لما شاء سبحانه أن يوجد الأشياء من غير موجود ، وأن يبرزها في أعيانها بما تقتضيه من الرسوم والحدود ، لظهور سلطان الأعراض والخواص والفصول والأنواع والأجناس ، الدافعين شبه الشكوك ، والرافعين حجب الالتباس ، بوسائط العبارات الشارحة ، والصفات الرسمية والذاتية ، النيرة النبراس ، انجلى في صورة العلم صور الجواهر المتماثلات والأعراض المختلفات والمتماثلات والمتقابلات ، وفصل بين هذه الذوات بين المتحيزات منها وغير المتحيزات ، كما انجلى في ذوات الأعراض والجواهر صور الهيئات والحالات ، بالكيفيات وصور المقادير والأوزان المتصلات

والمنفصلات بالكميات ، وصور الأدوار والحركات الزمانيات ، وصور الأقطار والأكوار المكانيات ، والصور الحافظات الماسكات نظام العالم ، الحاملات أسباب المناقب والمثالب العرضيات ، وأسباب المدائح أو المذام الشرعيات ، وأسباب الصلاح والفساد الوضعيات الحكميات ، وصور الإضافات بين المالك والمملوك ، والآباء والأبناء والبنات ، وصور التمليك بالعبيد والإماء الخارجات ، والحسن والجمال والعلم وأمثال ذلك الداخلات ، وصور التوجهات الفعلية القائمة بالفاعلات ، وصور المنفعلات التي هي بالفعل والفاعلات مرتبطات ، وقال عندما جلّاها بالشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلّاها والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها . هذه حقائق الآباء العلويات ، والأمهات السفليات ، ولها البقاء بالإبقاء ، مع استمرار التكوينات والتلوينات بالتغيير والاستحالات ، ليثبت عندها علم ما هي الحضرة الإلهية عليه من العزة والثبات ، فهذا هو الذي أبرز سبحانه من المعلومات ، ولا يجوز غير ذلك فإنه لم يبق سوى الواجبات والمحالات . فأول موجود أداره سبحانه فلك الإشارات إدارة إحاطة معنوية ، وهو أول الأفلاك الممكنات المحدثات المعقولات ، وأول صورة ظهر في هذا الفلك العمائي صور الروحانيات المهيمات ، الذي منها القلم الإلهي الكاتب العلام في الرسالات ، وهو العقل الأول الفياض في الحكميات والإنباءات ، وهو الحقيقة المحمدية ، والحق المخلوق به ، والعدل ، عند أهل اللطائف والإشارات ، وهو الروح القدسي الكل ، عند أهل الكشوف والتلويحات ، فجعله عالماً حافظاً باقياً تاماً كاملاً فياضاً كاتباً من دواة العلم ، تحركه يمين القدرة عن سلطان الإرادة والعلوم الجاريات إلى نهايات ، وهو مستوى الأسماء الإلهيات .
ثم أدار معدن فلك النفوس دون هذا الفلك وهو اللوح المحفوظ في النبوات ، وهو النفس المنفعلة عند أصحاب الإدراكات والإشارات والمكاشفات ، فجعلها باقية تامة غير كاملة وفائضة غير مفيضة فيض العقل ، فهي في محل القصور والعجز عن بلوغ الغايات ، ثم أوجد الهباء في الكشف ، والهيولى في النظر ، والطبيعة في الأذهان ، لا في الأعيان ، فأول صورة أظهر في ذلك الهباء صور الأبعاد الثلاثة فكان المكان ، فوجه عليه سبحانه سلطان الأربعة الأركان ، فظهرت البروج الناريات والترابيات والهوائيات والمائيات ، فتميزت الأكوان ، وسمى هذا الجسم الشفاف اللطيف المستدير المحيط بأجسام العالم ، العرش العظيم الكريم ،

واستوى عليه باسمه الرحمن ، استواءً منزهاً عن الحد والمقدار ، معلوماً عنده غير مكيف ولا معلوم للعقول والأذهان ، ثم أدار سبحانه في جوف هذا الفلك الأول فلكاً ثانياً ، سماه الكرسي ، فتدلت إليه القدمان ، فانفرق فيه كل أمر حكيم بتقدير عزيز عليم ، وعنده أوجد الخيرات الحسان ، والمقصورات في خيام الجنان ، ثم رتب فيه منازل الأمور كلها ، وأحكمها في روحانيات سخرها وحَكّمها بالتأثيرات السبعية من ألف إلى ساعة عن اختلاف الملوان ، وجعل هذه المنازل بين وسط ممزوج ، وطرفي سعد مستقر ، ونحس مستمر ، بنزول المقدر المفرد الإنسان ، ثم أدار سبحانه في جوف هذا الفلك الثاني فلكاً ثالثاً ، وخلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس ، مسخراً فقيراً ، أودع لديه كل أسود حالك ، وقرن به ضيق المسالك ، والوعر والحزن والكرب والحزن وحسرات الفوت ، وسكرات الموت ، وأسرار الظلمات ، والمفازات المهلكات ، والأشجار المثمرات ، والأفاعي والحيات ، والحيوانات المضرات ، والحرات الموحشات ، والطرق الدارسات ، والعنا والمشقات ، وخلق عند مساعدته النفس الكلية الجبال ، لتسكين الأرضين المدحيات ، وأسكن في هذا الفلك روحانية خليله إبراهيم عليه السلام ، عبده ورسوله . ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً رابعاً ، خلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس ، أودع لديه النخل الباسقات ، والعدل في القضايا والحكومات ، وأسباب الخير والسعادات ، والبيض الحسان المنعمات ، والاعتدالات والتمامات ، وأسرار العبادات والقربات ، والصدقات البرهانيات ، والصلوات النوريات ، وإجابة الدعوات ، والناظرين إلى الواقفين بعرفات ، وقبول النسك بموضع رمي الجمرات ، وخلق عند مساعدته النفس الكلية تحليل المياه الجامدات ، وأسكن في هذا الفلك روحانية نبيه موسى عليه السلام عبده ونجيه . ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً خامساً ، خلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس ، أودع لديه حماية المذاهب بالقواضب المرهفات ، والموازن السمهريات ، وتجميز قدور راسيات ، وملء جفون كالجوابي المستديرات ، والتعصبات والحميات ، وإيقاع الفتن والحروب بين أهل الهدايات والضلالات ، وتقابل الشبه المضلات ، والأدلة الواضحات بين أهل العقول السليمة والتخيلات ، وخلق عند مساعدته النفس الكل لتلطيف الأهوية السخيفات ، وأسكن في هذا الفلك روح رسوليه هارون ويحيى عليهما السلام موضحي سبيليه . ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً سادساً ،

خلق فيه كوكباً عظيماً مشرقاً سابحاً ، وأودع لديه أسرار الروحانيات ، والأنوار المشرقات ، والضياآت اللامعات ، والبروق الخاطفات ، والشعاعات النيرات ، والأجساد المستنيرات ، والمراتب الكاملات ، والاستوآت المعتدلات ، والمعارف اللؤلؤيات واليواقيت العاليات ، والجمع بين الأنوار والأسرار الساريات ، ومعالم التأسيسات ، وأنفاس النور الجاريات ، وخلع الأرواح المدبرات ، وإيضاح الأمور المبهمات ، وحل المسائل المشكلات ، وحسن إيقاع السماع في النغمات ، وتوالي الواردات ، وترادف التنزلات الغيبيات ، وارتقاء المعاني الروحانيات ، إلى أوج الانتهاآت ، ودفع العلل بالعلالات النافعات ، والكلمات المستحسنات ، والأعراف العطريات ، وأمثال ذلك مما يطول ذكره ، وخلق عند مساعدته النفس الكل تحريك الفلك الأثير لتسخين العالم بهذه الحركات ، وأسكن في هذا الفلك إدريس النبي ، المخصوص بالمكان العلي . ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً سابعاً خلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس ، أودع لديه التصوير التام ، وحسن النظام ، والسماع الشهي ، والمنظر الرائق البهي ، والهيبة والجمال ، والانس والجلال ، وخلق عند مساعدته النفس الكل تقطير ماء رطب في كل ركن البخارات ، وأسكن في هذا الفلك روحانية النبي الجميل يوسف عليه السلام . ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً ثامناً ، خلق فيه كوكباً سابحاً من الخنس الكنس ، أودع لديه الأوهام والإيهام ، والوحي والإلهام ، ومهالك الآراء الفاسدة والقياسات ، والأحلام الرديئة والمبشرات ، والاختراعات الصناعيات والاستنباطات العمليات ، وما في الأفكار من الغلطات والإصابات ، والقوى الفاعلات والوهميات ، والزجر والكهانات والفراسات ، والسحر والعزائم والطلسميات ، وخلق عند مساعدته النفس الكل مزج البخارات الرطبة بالبخارات اليابسات ، وأسكن في هذا الفلك روحانية روحه وكلمته عيسى عليه السلام عبده ورسوله وابن أمته . ثم أدار في جوف هذا الفلك فلكاً آخر تاسعاً خلق فيه كوكباً سابحاً أودع الله لديه الزيادة والنقصان ، والربو والاستحالات بالاضمحلالات ، وخلق عند مساعدته النفس الكل إمداد المولدات بركن العصارات ، وأسكن في هذا الفلك روحانية نبيه آدم عليه السلام عبده ورسوله وصفيه ، وأسكن هذه الأفلاك المستديرات أصناف الملائكة الصافات التاليات ، فمنها القائمات والقاعدات ، ومنها الراكعات والساجدات ، كما قال تعالى إخباراً عنهم (وما منا إلا له مقام

معلوم) فهم عمار السموات ، وجعل منهم الأرواح المطهرات ، المعتكفين بأشرف الحضرات ، وجعل منهم الملائكة المسخرات ، والوكلاء على ما يخلقه الله من التكوينات ، فوكل بالأرجاء الزاجرات والأنباء المرسلات ، وبالإلهام واللمات الملقيات ، وبالتفصيل والتصوير والترتيب المقسمات ، وبالترغيب والترحيب الناشرات ، وبالترهيب الناشطات ، والتشتيت النازعات ، وبالسوق السابحات ، وبالاعتناء السابقات ، وبالأحكام المدبرات . ثم أدار في جوف هذا الفلك كرة الأثير ، أودع فيها رجوم المسترقات الطارقات ، ثم جعل دونه كرة الهواء أجرى فيه الذاريات العاصفات ، السابقات الحاملات المعصرات ، ومَوّج فيه البحور الزاخرات الكائنات من البخارات المستحيلات ، ويسمى دائرة كرة الزمهرير ، تُتعلم منه صناعة التقطير ، وأمسك في هذه الكرة أرواح الأجسام الطائرات ، وأظهر في هاتين الكرتين الرعود القاصفات ، والبروق الخاطفات ، والصواعق المهلكات ، والأحجار القاتلات ، والجبال الشامخات ، والأرواح الناريات الصاعدات النازلات ، والمياه الجامدات . ثم أدار في جوف هذه الكرة كرة أودع فيها سبحانه ما أخبرنا به في الآيات البينات ، من أسرار إحياء الموات ، وأجرى فيها الأعلام الجاريات ، وأسكنها الحيوانات الصامتات ، ثم أدار في جوفها كرة أخرى أودع فيها ضروب التكوينات من المعادن والنباتات والحيوانات ، فأما المعادن فجعلها عز وجل ثلاث طبقات : منها المائيات والترابيات والحجريات ، وكذلك النبات : منها النابتات والمغروسات والمزروعات ، وكذلك الحيوانات : منها المولدات المرضعات والحاضنات والمعفنات ، ثم كون الإنسان مضاهياً لجميع ما ذكرناه من المحدثات ، ثم وهبه معالم الأسماء والصفات ، فمهدت له هذه المخلوقات المعجزات ، ولهذا كان آخر الموجدات ، فمن روحانيته صح له سر الأولية في البدايات ، ومن جسميته صح له الآخرية في الغايات ، فبه بدء الأمر وختم ، إظهاراً للعنايات وأقامه خليفة في الأرض ، لأن فيها ما في السموات ، وأيده بالآيات والعلامات والدلالات والمعجزات ، واختصه بأصناف الكرامات ، ونصب به القضايا المشروعات ، ليميز الله به الخبيثات من الطيبات ، فيلحق الخبيث بالشقاوات في الدركات ، ويلحق الطيب بالسعادات في الدرجات ، كما سبق في القبضتين اللتين هما صفتان للذات ، فسبحان مبدىء هذه الآيات ، وناصب هذه الدلالات ، على أنه واحد قهار الأرض والسموات .

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

مَنْ اتُخِذ إلهاً من غير دعوى منه ، بل هو في نفسه عبد ، غير راض بما نسب إليه ، وعاجز عن إزالة ما ادعي فيه ، فإنه مظلوم حيث سلب عنه هذا المدعي ما يستحقه ، وهو كونه عبداً ، فظلمه فينتصر الله له لا لنفسه ، فاتخاذ الشريك من مظالم العباد .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾

« وإذا ألقوا منها » يعني من جهنم « مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً » فإن النفوس تكون في أشد ألم ، وأضيق حبس ، إذا شقيت وحبست في المكان الضيق ، لأن الأرواح من عالم السعة والانفساح بالأصل ، فإذا انحصرت في هذا العالم الضيق بما اكتسبت كان الضيق عليها أشد عذاباً ، فإن الضيق نقيض الرحمة . والثبور الهلاك .

لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

ثبوراً لا يتناهى ، فإن عذابكم لا يتناهى .

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾

النجاة مطلوبة لكل نفس ولأهل كل ملة ، فهي محبوبة للجميع ، غير أنهم لما جهلوا الطريق الموصل إليها فكل ذي نحلة وملة يتخيل أنه على الطريق الموصل إليها ، فالقدح الذي يقع بين أهل الملل والنحل إنما هو من جهة الطرق التي سلوكها للوصول إليها ، لا من جهتها ، ولو علم المخطىء طريقها أنه على خطأ ما أقام عليه .

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

الظلم هنا الذي جاء في قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وليس إلا الظلم الذي قال فيه لقمان لابنه (لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) كذا فسره رسول الله ﷺ .

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

فمن الغيرة الإلهية أن الناس ينادي مناد فيهم من قبل الله : أين ما أعطي لغير الله ؟ فيؤتى بالأموال الجسام ، والعقار والأملاك ، ثم يقال : أين ما أعطي لوجهي ؟ فيؤتى بالكسر اليابسة ، والفلوس وقطع الفضة المحقرة ، والخليع من الثياب ، فغار الحق لذلك أن يعطى لوجهه من نعمته مثل ذلك ، فأخذ الصدقة بيده ورباها حتى صارت مثل جبل أحد أكبر ما يكون ، فيظهرها له على رؤوس الأشهاد ، ويحقر ما أعطي لغير الله ، فيجعله هباءً منثوراً .

أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾

لا مفاضلة بين الخير والشر ، فما كان خير أصحاب الجنة أفضل وأحسن إلا من كونه واقعاً وجودياً محسوساً ، فهو أفضل من الخير الذي كان الكافر يتوهمه في الدنيا ، ويظن أنه يصل إليه بكفره لجهله ، فلهذا قال فيه خير وأحسن ، فأتى ببنية المفاضلة .

وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾

« يوم تشقق السماء بالغمام » أي بسبب الغمام ، أي لتكون غماماً ، فتفتح أبواباً كلها فتصير غماماً ، وقد كان الملائكة عمارها وهي سماء ، فيكونون فيها وهي غمام ، وفيها يأتون يوم القيامة إلى الحشر التقديري ، والملائكة في ظل من الغمام ، والظلل أبوابها يقول الله تعالى (وفتحت السماء فكانت أبواباً) وقال « يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً »

وهو إتيانهم في ذلك الغمام لإتيان الله للقضاء والفصل بين عباده يوم القيامة في تجلي القهر والرحمة .

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾

« ويوم يعض الظالم على يديه » وهم الكفار المقلدة « يقول » القائل منهم « يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً » فإنه قد زالت العداوة العرضية ، فهم الذين بلغتهم دعوة الرسل عليهم السلام فردوها ولم يعملوا بها

يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

« وكان الشيطان » يعني شيطان الإنس لا شيطان الجن « للإنسان خذولاً » فإنه قال : ما أضلني عن الذكر إلا فلان ، وسمى إنساناً مثله ، حيث أصغى إليه وقلده في مقالته ، وحال بينه وبين اتباع ما أمره الله باتباعه ، وهو ما جاء به رسول الله ﷺ .

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

راجع الجاثية آية ٢٣

عبد الهوى آبق عن ملك مولاه وليس يخرج عنه فهو تياه
الحُرُّ من ملك الأكوان أجمعها وليس يملكه مال ولا جاه

لما كان الهواء إذا تحرك أقوى المؤثرات الطبيعية في الأجسام والأرواح ، لم يكن ثَمَّ أقوى من الهواء إلا الإنسان ، حيث يقدر على قمع هواه بعقله الذي أوجده الله فيه ، فيظهر عقله في حكمه على هواه ، فإنه لقوة الصورة التي خلق عليها ، الرياسة له ذاتية ، ولكونه ممكناً الفقر والذلة له ذاتية ، فإذا غلّب فقره على رياسته ، فظهر بعبوديته و لم يظهر لربوبية الصورة فيه أثر ، لم يكن مخلوق أشد منه . ورد في الخبر عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال [لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال فقال بها عليها فاستقرت ، فعجبت الملائكة فقالوا : يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : نعم الحديد ، فقالوا : يا رب

فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار ، قالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم الماء ، قالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم الريح ، قالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : ابن آدم تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله] فأعطى الله من القوة النافذة للهوى ما يظهر بها على أكثر العقول إلا أن يعصم الله تعالى ، فإن الهوى يقول : أنا الإله المعبود عند كل موجود ، فإنه يعرض عن العقل وما جاء به النقل ، وتتبعه الشياطين والشهوة .

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

« إن هم إلا كالأنعام » يعني في الضلال الذي هو الحيرة ، وما شبّه الله أهل الضلال بالأنعام نقصاً بالأنعام ، فقد أثنى رسول الله ﷺ على البهائم بقوله : [لو يعلم البهائم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً] وإنما وقع التشبيه في الحيرة ، لا في المحار فيه ، فإن الأنعام والبهائم عالمة بالله بالفطرة حائرة فيه ، لذلك قال تعالى « إن هم إلا كالأنعام فإن لهم قلوباً يعقلون بها ، وإن لهم أعيناً يبصرون بها ، وإن لهم آذاناً يسمعون بها ، فأنزلوا أنفسهم منزلة الأنعام « بل هم أضل سبيلاً » لأن الأنعام ما جعل الله لهم هذه القوى التي توجب لصاحب البصر أن يعتبر ، ولصاحب الأذن أن يعي ما يسمع ، ولصاحب القلب أن يعقل ؛ والسبيل الطريق ، فزادوا ضلالاً أي حيرة في الطريق التي يطلبونها للوصول إلى معرفة ربهم من طريق أفكارهم ، فهذه حيرة زائدة على الحيرة في الله ، وكذلك قال فيهم حيثما قال ، إنما جعل الزيادة في السبيل وليس إلا الفكر والتفكر فيما منع التفكر فيه ، وهو النظر ، فقال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) ـــ راجع الأعراف ١٧٨ ـــ .

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

قبضُ الظل ومدُّه من اللطف ما إذا فكر فيه الإنسان رأى عظيم أمر ، ولهذا نصبه الله دليلاً على معرفته . فقال « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل » فلا يدرك البصر عين امتداده حالاً بعد حال ، فإنه لا يشهد له حركة مع شهود انتقاله ، فهو عنده متحرك لا متحرك ، وكذلك في فيئه وهو قوله « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » فمنه خرج ، فإنه لا ينقبض إلا إلى ما منه خرج ، كذلك تشهده العين ، وقد قال تعالى وهو الصادق إنه قبضه إليه ، فعلمنا أن عين ما خرج منه هو الحق ، ظهر بصورة خلق ، فيه ظل يبرزه إذا شاء ، ويقبضه إذا شاء لكن جعل الشمس عليه دليلاً و لم يتعرض لتمام الدلالة ، وهو كثافة الجسم الخارج الممتد عنه الظل ، فبالمجموع كان امتداد الظل ، فهذا شمس ، وهذا جدار ، وهذا ظل ، وهذا حكم امتداد وقبض بفيء ورجوع إلى ما منه بدأ فإليه عاد ، والعين واحدة ، فهل يكون شيء ألطف من هذا ؟ فالأبصار وإن لم تدركه فما أدركت إلا هو ، فإنه ما أحالنا إلا على مشهود بقوله « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل » وما مده إلا بشمسٍ وذات كثيفة تحجب وصول نور الشمس إلى ما امتد عليه ظل هذه الذات ، وجهة خاصة ، ثم قبضه كذلك ، فهذه كيفية ما خاطبنا بها أن ننظر إليها وما قال : فيها فكنا نصرف النظر تألقا إلى الفكر ، ولكن بأداة « إلى » أراد شهود البصر ، وإن كانت الأدوات يدخل بعضها في مكان بعض ، ولكن لا يعرف ذلك إلا بقرائن الأحوال ، وهي إذا استحال أن يكون حكم هذه الأداة بالوضع في هذا الموضع ، علمنا أنها بدل وعوض من أداة ما يستحقه ذلك الموضع ، وهذا معلوم في اللسان ، وبهذا اللسان أنزل القرآن ، فلابد أن يجري به على ما تواطؤوا عليه في لحنهم ، فقرن الرؤية بـ « إلى » وجعل المرئي الكيف ، فلم يشهد هنا ذات الحق وهو يكيف مد الظل ، وإنما رأينا مد الظلال عن الأشخاص الكثيفة ، التي تحجب الأنوار أن تنبسط على الأماكن التي تمتد فيها ظلال هذه الأشخاص ، فعلمنا أن الرؤية في هذا الخطاب إنما متعلقها العلم بالكيف المشهود الذي ذكرناه ، وأن ذلك من الله سبحانه لا من غيره ، أي أنه لو أراد أن تكون الأشخاص الكثيفة منصوبة ، والأنوار في جهة منها بمنع تلك الأشخاص انبساط النور على تلك الأماكن فيسمى منعها ظلالاً ، أو يقبض تلك الظلال عن الانبساط على تلك الأماكن ولا يخلق فيها نوراً آخر ، ولا ينبسط ذلك النور المحجوب على تلك الأماكن لَمَا قصرت إرادته عن ذلك ، كما قال تعالى : « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » وهو رجوع الظل

إلى الشخص الممتد منه ببروز النور حتى يشهد ذلك المكان ، فجعل المقبوض إنما كان قبضه إلى الله لا إلى الجدار ، وفي الشاهد وما تراه العين أن سبب انقباض الظل وتشميره إلى جهة الشخص الكثيف إنما هو بروز النور ، فهذه آية الدلالة على الله بضرب مثل الظل ، فأمرنا سبحانه بالنظر إليه ، والنظر إليه معرفته ، ولكن من حيث أنه مد الظل ، وهو إظهاره وجودَ عينك ، وما في المسائل الإلهية ما تقع فيها الحيرة أكثر ولا أعظم من مسئلة الأفعال ، فما نظرت إليه من حيث أحدية ذاته في هذا المقام وإنما نظرت إليه من حيث أحدية فعله في إيجادك في الدلالة ، وهذه الآية دليل من قال بمنع تجليه سبحانه في الأفعال ، أي في نسبة ظهور الكائنات والمظاهر عن الذات التي تتكون عنها الكائنات ، وهو قوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض) والأمر بينك وبين الحق في الوجود بين الاقتدار الإلهي ، وبين القبول من الممكن ، فقبض الظل إليه ليعرفك بك وبنفسه ، لأنه ما خرج الظل إلا منك ، ولولا أنت لم يكن ظل ، ولولا الشمس أو النور لم يكن ظل ، وكلما كثف الشخص تحققت أعيان الظلال ، فمهما ارتفع واحد من الأمرين ، ارتفع الوجود الحادث ، كذلك إذا ارتفع العين المشرق أو الجسم الكثيف الحائل عن نفوذ هذا الإشراق فيه لما حدث الظل ، وقوله تعالى « ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » الضمير في عليه يطلب الظل لأنه أقرب مذكور ، ويطلب الاسم الرب ، وإعادته على الرب أوجه ، فإنه بالشمس ضرب الله المثل في رؤيته يوم القيامة ، فقال على لسان نبيه ﷺ [ترون ربكم كما ترون الشمس بالظهيرة] أي وقت الظهر ، وأراد عند الاستواء بقبض الظل في الشخص في ذلك الوقت لعموم النور ذات الرائي ، وهو حال فنائه عن رؤية نفسه في مشاهدة ربه ، ثم قال « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » وهو عند الاستواء ، ثم عاد إلى مده بدلوك الشمس وهو بعد الزوال ، لأنه في هذا الوقت تثبت له المعرفة بربه من حيث مده الظل ، وهنا تكون إعادة الضمير من « عليه » على الرب أوجه ، فإنه عند الطلوع يعاين مد الظل ، فينظر ما السبب في مده ؟ فيرى ذاته حائلة بين الظل والشمس ، فينظر إلى الشمس فيعرف في مده ظله ما للشمس في ذلك من الأثر ، فكان الظل على الشمس دليلاً في النظر ، وكان الشمس على مد الظل دليلاً في الأثر . واعلم أن الممكنات التي أوجدها الحق تعالى هي للأعيان التي تتضمنها حضرة الإمكان ــ وهي برزخ بين حضرة الوجود المطلق والعدم المطلق ــ بمنزلة الظلالات للأجسام ، بل هي الظلالات

الحقيقية ، وهي التي وصفها الحق سبحانه بالسجود له مع سجود أعيانها ، فما زالت تلك الأعيان ساجدة له قبل وجودها ، فلما وجدت ظلالاتها ، وجدت ساجدة لله تعالى ، لسجود أعيانها التي وجدت عنها ، من سماء وأرض وشمس وقمر ونجم وجبال وشجر ودواب وكل موجود ، ثم لهذه الظلالات ــ التي ظهرت عن تلك الأعيان الثابتة من حيث ما تكونت أجساماً ــ ظلالات ، أوجدها الحق لها دلالات على معرفة نفسها من أين صدرت ، ثم أنها تمتد مع ميل النور أكثر من حد الجسم الذي تظهر عنه إلى مالا يدركه طولاً ، ومع هذا ينسب إليه ، وهو تنبيه أن العين التي في البرزخ التي وجدت عنها لا نهاية لها مما تتصف به من الأحوال والأعراض والصفات والأكوان ، فهو عالم لا يتناهى وماله طرف ينتهي إليه ، فإنه الحضرة الفاصلة بين الوجود المطلق والعدم المطلق ، وأنت بين هذين الظلالين ذو مقدار ، فأنت موجود عن حضرة لا مقدار لها ، ويظهر عنك ظل لا مقدار له ، فامتداده يطلب تلك الحضرة البرزخية ، وتلك الحضرة البرزخية هي ظل الوجود المطلق من الاسم النور ، الذي ينطلق على وجوده ، فلهذا نسميها ظلاً ، ووجود الأعيان ظل ذلك الظل ، والظلالات المحسوسة ظلالات هذه الموجودات في الحس ، ولما كان الظل في حكم الزوال لا في حكم الثبات ، وكانت الممكنات وإن وجدت في حكم العدم ، سميت ظلالات ليفصل بينها وبين من له الثبات المطلق في الوجود ، وهو واجب الوجود ، وبين من له الثبات المطلق في العدم وهو المحال ، لتتميز المراتب ، فالأعيان الموجودات إذا ظهرت ففي هذا البرزخ هي فإنه ما ثَمَّ حضرة تخرج إليه ، ففيها تكتسب حالة الوجود ، والوجود فيها متناه ما حصل منه ، والإيجاد فيها لا ينتهي ، فهذا مثَلٌ ضربه الله على دوام الخلق والتكوين ، وعلى العين الثابتة ثم ظهورها للوجود :

انظر إلى نقص ظل الشخص فيه إذا	ما الشمس تعلو فتفني ظله فيه
ذاك الدليل على تحريكه أبداً	بدأً وفيئاً وهذا القدر يكفيه
لو كان يسكن وقتاً ما بدا أثر	في الكون من كن وذاك الحكم من فيه
فالكون من نفَسَ الرحمن ليس له	أصل سواه فحكم القول يبديه

ــ اعتبار ــ ظلك على صورتك ، وأنت على الصورة ، فأنت ظل قام الدليل على أن التحريك للحق لا لك ، كذلك التحريك لك لا للظل ، غير أنك تعترض

فلم تعرف قدرك ، وظلك لا يعترض ، فيا من هو ظله أعلم بقدره منه متى تفلح ؟ ما مدّت الظلال للاستظلال ، وإنما مدّت لتكون سُلّماً إلى معرفة الله معك ، فأنت الظل وسيقبضك إليه ، فمن نظر إلى ظله عرف أن حكمه في الحركة والسكون من أصله ، فأراد الحق منك بهذه الآية أن تكون معه كظلك معك من عدم الاعتراض عليه فيما يجريه عليك ، والتسليم والتفويض إليه فيما تصرف فيك به ، وينبهك بذلك أن حركتك عين تحريكه ، وأن سكونك كذلك ، ما الظل يحرك الشخص ، كذلك فلتكن مع الله ، فإن الأمر كما شاهدته فهو المؤثر فيك ــ **من باب الإشارة** ــ الإنسان الكامل هو ظل الله في كل ما سوى الله ، وصورته في الغيب صورة الظل في الشخص الذي امتد عنه الظل ، ألا ترى الشخص إذا امتد له ظل في الأرض ، أليس له ظل في ذات الشخص الذي يقابله ذلك الظل الممتد ؟ فذلك الظل القائم بذات الشخص المقابل للظل الممتد ذلك هو الأمر الذي بقي من الإنسان ، الذي هو ظل الله الممدود في الغيب ، لا يمكن خروجه أبداً وهو باطن الظل الممدود ، والظل الممدود هو الظاهر ، فظاهر الإنسان ما امتد من الإنسان فظهر ، وباطنه ما لم يفارق الغيب فلا يعلم باطن الإنسان أبداً ، وقبضه قبضاً يسيراً عودته إلى غيبه ، فاعتبر في الإشارة أن الإنسان الذي لم يزل يحفظ صورة الحق في نفسه ظل له ، واعلم أن الإنسان لما كان مثال الصورة الإلهية ، كالظل للشخص الذي لا يفارقه على كل حال ، غير أنه يظهر للحس تارة ، ويخفى تارة ، فإذا خفي فهو معقول فيه ، وإذا ظهر فهو مَشْهودٌ بالبصر لمن يراه ، فالإنسان الكامل في الحق معقول فيه ، كالظل إذا خفي في الشمس فلا يظهر ، فلم يزل الإنسان أزلاً وأبداً ، ولهذا كان مشهوداً للحق من كونه موصوفاً بأنَّ له بصراً ، فلما مد الظل منه ظهر بصورته « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً » أي ثابتاً فيمن هو ظله فلا يمده ، فلا يظهر له عين في الوجود الحسي إلا لله وحده ، فلم يزل مع الله ، ولا يزال مع الله ، فهو باق ببقاء الله ، وما عدا الإنسان الكامل فهو باق بإبقاء الله ، فالإنسان الكامل الذي لا أكمل منه هو محمد ﷺ ، وهذا الكمال هو الغاية من العالم ، فحاز محمد ﷺ درجة الكمال بتمام الصورة الإلهية ، والكمل من الأناسي النازلين عن درجة هذا الكمال هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ومنزلة محمد ﷺ من العالم كله منزلة النفس الناطقة من الإنسان ، التي مِنْ دونها لا يكون إنساناً ، فحال العالم قبل ظهوره ﷺ كان بمنزلة الجسد

المسوى ، وحال العالم بعد موته بمنزلة النائم ، وحالة العالم ببعثه يوم القيامة بمنزلة الانتباه واليقظة بعد النوم ، فهو ﷺ روح العالم ، وهذه الآية ضرب مثال على خفاء ظهور رسول الله ﷺ في العالم قبل ظهور نشأته الظاهرة ، وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وأنه هو أكمل صورة إلهية في الظهور والخفاء لمن فهم المعنى ، وأنه بقبضه ﷺ لم يختفِ من العالم اختفاءً عدمياً ، بل هو كالظل المندرج في أصله ، فروح العالم ﷺ هو الآن من العالم في صورة المحل الذي هو فيه روح الإنسان عند النوم ، إلى يوم البعث ، الذي هو مثل يقظة النائم هنا ، فالعالم اليوم بفقد جمعية محمد ﷺ في ظهوره روحاً وجسماً وصورة ومعنى ، نائم لا ميت ، فإنه تعالى ذكر الكيف ، والظل لا يخرج إلا على صورة من مد منه ، فخلقه رحمة ، فَمَدَّ الظل رحمة وافية ، فلا أعظم رحمة من الإنسان الكامل ، والنور من الصفات ، والظل على صورة الذات ــ **إشارة** ــ ما مد الظلال للراحة ، وإنما مدها لتكون سلما إلى معرفته فأنت ذلك الظل وسيقبضك إليه .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

« جعل لكم الليل لباساً » لأهله يلبسونه فيسترهم « والنومَ سباتاً » أي راحة طبيعية للناس ــ **من باب الإشارة** ــ « هو الذي جعل لكم الليل لباساً » هذا لأهل الليل أي يسترهم عن أعين الأغيار فلا يشهد أحد فعل أهل الليل مع الله في عبادتهم ، لحجاب ظلمة الليل التي أرسلها الله دونهم ، فيتمتعون في خلواتهم الليلية بحبيبهم فيناجونه من غير رقيب ، لأنه جعل النوم في أعين الرقباء سباتاً ، أي راحة لأهل الليل إلهية ، كما هو راحة للناس طبيعية ، فإذا نام الناس استراح هؤلاء مع ربهم ، وخلوا به حساً ومعنى فيما يسألونه مِنْ قبول توبة ، وإجابة دعوة ، ومغفرة حوبة ، وغير ذلك . فنوم الناس راحةٌ لهم ، فإن الله تعالى ينزل إليهم بالليل إلى السماء الدنيا فلا يبقى بينه وبينهم حجاب فلكي ، ونزوله إليهم رحمة بهم ، ورد في الخبر : كذب من ادعى محبتي فإذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يطلب الخلوة بحبيبه ، ها أنا ذا قد تجليت لعبادي هل من داع فأستجيب له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ حتى ينصدع الفجر .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾

قال ﷺ [إن الله خلق الماء طهوراً لا ينجسه شيء] فإذا حصلت النجاسة فيه بلاشك . لكنها متميزة عن الماء ـــ بقي الماء طاهراً على أصله ، إلا أنه يعسر إزالة النجاسة منه ، فما أباح الشارع من استعمال الماء الذي فيه النجاسة استعملناه ، وما منع من ذلك امتنعنا منه لأمر الشرع ، مع عقلنا أن النجاسة في الماء ، وعقلنا أن الماء طهور في ذاته لا ينجسه شيء ، فما منعنا الشارع من استعمال الماء الذي فيه النجاسة لكونه نجساً أو تنجس ، وإنما منعنا من استعمال الشيء النجس لكوننا لا نقدر على فصل أجزائه من أجزاء الماء الطاهر ، فبين النجاسة والماء برزخ مانع لا يلتقيان لأجله ، ولو التقيا لتَنَجَّسَ الماء .

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

« وهو الذي مرج البحرين هذا عذاب فرات » لمصالح العباد فيما يستعملونه من الشرب وغير ذلك ، « وهذا ملح أجاج » لمصالح العباد فيما يذهب به من عفونات الهواء ، فبما فيه من الملوحة يصفي الجو من الوخم والعفونات التي تطرأ فيه من أبخرة الأرض وأنفاس العالم ، فيطرأ التعفين في الجو ، فيُذهب ذلك التعفينَ ما في البحر من الملوحة ، فيصفو الجو ، وذلك من رحمة الله بخلقه .

وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

هذه الآية دليل على أن الأيام كانت موجودة بوجود حركة فلك البروج ، وهي الأيام المعروفة عندنا لا غير ، فإذا دار فلك البروج دورة واحدة فذلك هو اليوم الذي خلق الله فيه السموات والأرض ، ثم أحدث الليل والنهار عند وجود الشمس ، لا الأيام ، واليوم أربع وعشرون ساعة ، وقد يسمى النهار وحده يوماً بحكم الاصطلاح واعلم أن الله خلق العالم في ستة أيام ، بدأ به يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، « ثم استوى على العرش » فلما كان اليوم السابع من الأسبوع وفرغ من العالم كان يشبه المستريح الذي مسه اللغوب ، فاستلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، وقال : أنا الملك ؛ كذا ورد في الأخبار النبوية ، فالفراغ الإلهي إنما كان من الأجناس في الستة الأيام ، وأما أشخاص الأنواع فلا « الرحمن فاسأل به » الضمير في به يعود على الاستواء « خبيراً » وهو العارف من عباد الله من نبي وغيره ، ممن شاء الله من عباده ، لأنه قال (يؤتي الحكمة من يشاء) والخبير المسؤول يعني كل من حصل له ذلك ذوقاً ، وصفته نزول القرآن على قلبه ، فكان قلبه عرشاً لاستواء القرآن ذوقاً ، يعلم لذوقه وخبرته اتصاف الرحمن بالاستواء على العرش ما معناه ، فإذا أردت أن تسأل عن حقيقة أمر ما ، فاسأل عنه مَنْ له فيه ذوق ، ومَنْ لا ذوق له في الأشياء فلا تسأله فإنه لا يخبرك إلا باسم ما سألت عنه لا بحقيقته .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾

لما كان المشركون لا يعلمون للحق إلا مسمى الله ، ولم يعلموا أنه عين الرحمن قيل : إن الاسم الرحمن لم يكن عندهم ، ولا سمعوا به قبل هذا ، فلما قال لهم ﷺ « اسجدوا للرحمن » وهو سجود إنعام لا سجود قهر ، قالوا : وما الرحمن ؟ على طريق الاستفهام ، وقد قيل : إنهم كانوا يعرفونه مركباً الرحمن الرحيم اسم واحد ، كبعلبك ورام هرمز ، فلما أفرده بغير نسب أنكروه ، ولم تنكر العرب كلمة الله ، فإنهم القائلون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فعلموه ، ولما كان الرحمن يعطي الاشتقاق من الرحمة ، وهي صفة موجودة فيهم ، خافوا أن يكون المعبود الذي يدلهم عليه من جنسهم ، فأنكروا وقالوا : وما الرحمن ؟ لما لم يكن من شرط كل كلام أن يفهم معناه ، ولهذا قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) لما كان اللفظان راجعين إلى ذات واحدة ، فما أنكره من أنكره ـــ أعني الاسم الرحمن ـــ إلا للقرب المفرط ، فإنه لا أقرب من الرحمة إلى الخلق ، وما ثَمَّ أقرب إليهم من وجودهم ، ووجودهم رحمة بلا شك ، ولم يقروا بالله إلا لما يتضمنه هذا الاسم من الرحمة والقهر ، فعُلِم ، وُجهِل الرحمن ، فتخيلوا في الرحمن أنه شريك لله الذي يقرون به ويتزلفون إليه ، فأنكروا ذلك ولم ينكروا ذلك فيمن نصبوه إلهاً ، لأنهم عالمون بأسماء من نصبوهم آلهة من دون الله ، فعلموا بأسمائهم أنهم ليسوا في الحقيقة في الأُلوهَةِ مثله ، وقد دلهم ﷺ بالسجود للرحمن على عبادة غيب ، فقالوا « وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً » فزادهم هذا الاسم نفوراً لجهلهم به ، فإنهم لا يعرفون إلا الله الذي بيده الاقتدار الإلهي والأخذ الشديد ، وهو الكبير عندهم المتعالي ، فهم لذلك يعبدون الشركاء ليقربوهم إلى الله زلفى ويشفعوا عنده ، وأخطأ الكفار حيث رأوا أن الرحمن يناقض التكليف ، ورأوا أن الأمر بالسجود تكليف ، فلا ينبغي أن يكون السجود لمن هو هذا الاسم الرحمن ، لما فيه من المبالغة في الرحمة ، فلو ذكره بالاسم الذي يقتضي القهر ، ربما سارع الكافر إلى السجود خوفاً ، كما صدر من الجبار عند رسول الله ﷺ من رؤساء الجاهلية حيث قال له : يا محمد اتل عَلَيَّ مِمَّا جئت به حتى أسمع ؛ فتلا عليه (حم السجدة) فلما وصل إلى قوله تعالى (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) وهما من العرب ،

وحديثهما مشهور عندهم بالحجاز ، فلما سمع هذه الآية ارتعدت فرائصه ، واصفر لونه ، وضرط من شدة ما سمع ومعرفته بذلك ، وقال : هذا كلام جبار ؛ فما زادهم نفوراً إلا اقتران التكليف بالاسم الرحمن لجهلهم به ، ولو علم هذا الجاهل أن أمره تعالى بالسجود للرحمن لا يناقض التكليف ، وإنما يناقض المؤاخذة ويزيد في الجزاء بالحسنى لبادر إلى ذلك ، كما بادر المؤمن ، كما أن الكفار ما علموا في الغيب إلا إلهاً واحداً ، قال الله لنبيه ﷺ (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) فتعجبوا من ذلك غاية العجب ، لأنهم تخيلوا أن مسمى الرحمن ليس هو الله ، وأن لكل واحد الأسماء الحسنى ، وذلك لمّا أعمى الله بصائرهم ، وكثّف أغطيتهم ، فلم يعقلوا عن الله ما أراد بما أنزله ــ وهذه السجدة للمؤمن تسمى سجدة الامتياز فإنه يسجدها عندما يتلو ليمتاز عن الكافر المنكر لاسمه الرحمن ، ويقع الامتياز بين الاسم الرحمن وبين العارفين به يوم القيامة بالسجود الذي كان منهم عند التلاوة .

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

اعلم أن لله عباداً من حيث اسمه الرحمن ، وهو قوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً » وذلك من أثر الوقار ، الذي هو من الوقر ، وهو الثقل ، وإذا حصل الثقل ضعف الإسراع والحركة ، فسمى ذلك السكون وقاراً أي سكون عن ثقل عارض لا عن مزاج طبيعي ، فإن السكون الكائن عن الأمر الذي يورث الهيبة والعظمة في نفس الشخص يسمى وقاراً وسكينة ، والسكون الطبيعي الذي يكون في الإنسان من مزاجه لغلبة البرد والرطوبة على الحرارة واليبس لا يسمى وقاراً ، إنما الوقار نتيجة التعظيم والعظمة ، وهذا لا يكون إلا إذا تجلى لهم الحق في جلال الجمال « وإذا خاطبهم الجاهلون » الجاهل من أشرك بالله ، خفياً كان الشرك أو جلياً « قالوا سلاماً » فلو أجابوهم لانتظموا معهم في سلك الجهالة ، فإن كل إنسان ما يكلم إنساناً بأمر ما من الأمور ابتداء أو مجيباً ، حتى ينصبغ

بصفة ذلك الأمر الذي يكلمه به ، كان ذلك ما كان ، فلم يتمكن هؤلاء أن يزيدوا على قولهم سلاماً شيئاً .

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾

شغلهم هول المعاد عن الرقاد ، فعاملوا الحق بالتعظيم والإجلال .

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾

أي مهلكاً ، فإن الغريم هو الذي لزمه الدَّيْن ، وبه سمي غريماً ، ومقلوبه أيضاً الرغام ، وهو اللصوق بالتراب ، فإن الرغام التراب ، يقال : رغم أنفه ؛ إذ كان الأنف محل العزة قوبل بالرغام في الدعاء ، فألصقوه بالتراب ، فيكون الغرام حكمه في المغرم من المقلوب ، فهو موصوف بالذلة ، لأن التراب أذل الأذلاء .

إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا » أي لم يوسعوا ما يخرج عن الحاجة « ولم يقتروا » لم ينقصوا مما تمس إليه الحاجة « وكان بين ذلك قواما » وهو العدل في الإنفاق ، فضمروا بطونهم بالصيام للسباق في حلبة النجاة .

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

اعْلَمْ أنه لما لم يتمكن للتائب أن يرد عليه وارد التوبة إلا حتى ينتبه من سنة الغفلة ، فيعرف ما هو فيه من الأعمال التي مآلها إلى هلاكه وعطبه ، خاف ورأى أنه في أسر هواه ، وأنه مقتول بسيف أعماله القبيحة ، فقال له حاجب الباب الإلهي : قد رسم الملك أنك إذا أقلعت عن هذه المخالفات ، ورجعت إليه ووقفت عند حدوده ومراسمه ، أنه يعطيك الأمان من عقابه ، ويحسن إليك ويكون من جملة إحسانه أن كل قبيح أتيته يرد صورته حسنة ، ثم أعطاه التوقيع الإلهي ، فإذا مكتوب فيه « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ... » الآيات ، إلى قوله « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » وذلك نتيجة العمل الصالح فيقع التبديل ، فيبدل الله سيئاته حسنات ، حتى يود لو أنه أتى جميع الكبائر الواقعة في العالم من العالم ، وهذا من الكرم الإلهي ، فلابد لطائفة من التبديل كبير بكبير ، ومن الناس من يبدله له بالتوبة والعمل الصالح ، ومن الناس من يبدله له بعد أخذ العقوبة حقها منه ، وسبب إنفاذ الوعيد في حق طائفة حكم المشيئة الإلهية ، فإذا انتهت المدة طلبت المشيئة في أولئك تبديل العذاب الذي كانوا فيه بالنعيم المماثل له ، فإن حكم المشيئة أقوى من حكم الأمر ، وقد وقع التبديل بالأمر فهو بالإرادة أحق بالوقوع ، ولولا ما بين السيء والحسن مناسبة تقتضي جمعهما في عين واحدة يكون بها حسناً سيئاً ما قبل التبديل ، ومثال ذلك : شخص في غاية الجمال طرأ عليه وسخ من غبار ، فنظف من ذلك الوسخ العارض ، فبان جماله ، ثم كسي بزة حسنة فاخرة ، تضاعف بها جماله وحسنه ، ولهذا وصف الذنوب بالمغفرة وهي الستر ، وما وصفها بذهاب العين ، وإنما يسترها بثوب الحسن الذي يكسوها به ، لأنه تعالى لا يرد ما أوجده إلى عدم ، بل يوجد على الدوام ولا يعدم . وستر الله هذا العلم عن بعض عباده ، وأطلع عليه من شاء من عباده ، وهو من علم الحكمة التي مَنْ أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً ، ولذلك قال الحق « وكان الله غفوراً » ـــ **الوجه الأول** ـــ أي يستر عمن يشاء الوقوف على مثل هذا كشفا ـــ **الوجه الثاني** ـــ غفوراً لذنوبهم السابقة ، أي سترها عنهم ، فإن الله تعالى إذا قبل توبة عبده أنساه ذنبه فلم يذكّره إياه ، فإنه إن ذكره أحضره بينه وبين الحق ، وهو قبيح الصورة ، فجعل بينه وبين الحق صورة قبيحة تؤذن بالبعد فهذا فائدة النسيان ، والستر من الحق على نوعين : إما أن يستر الذنوب جملة واحدة ، وإما أن تبدل بحسنة فتحسن صورة تلك السيئة بالتوبة ، فتظهر له حسنة ، وذلك ليسرع العبد

في الرجعة إلى الله « رحيماً » بذلك الستر ، رحمة به لمعنى علمه سبحانه لم يعيّنه لنا ، والتبديل على وجوه : ــ **الوجه الأول** ــ اعلم أنه ما من كلمة يتكلم بها العبد إلا ويخلق الله من تلك الكلمة مَلَكاً ، فإن كانت خيراً كان مَلَك رحمة ، وإن كانت شراً كان ملك نقمة ، فإن تاب إلى الله وتلفظ بتوبته خلق الله من تلك اللفظة مَلَك رحمة ، وخلع من المعنى الذي دل عليه ذلك اللفظ بالتوبة الذي قام بقلب ذلك التائب على ذلك الملك الذي كان خلقه من كلمة الشر خِلْعَةَ رحمة ، وواخى بينه وبين الملك الذي خلقه من كلمة التوبة ، وهو قوله : تبت إلى الله ؛ فإن كانت التوبة عامة ، خلع على كل ملك نقمة كان مخلوقاً لذلك العبد من كلمات شره خلع رحمة ، وجعل مصاحباً للملك المخلوق من لفظة توبته ، فإنه إذا قال العبد : تبت إليك من كل شيء لا يرضيك ؛ كان في هذه اللفظة من الخير جميعة كل شيء من الشر ، فخلق من هذا اللفظ ملائكة كثيرة بعدد كلمات الشر التي كانت منه ، فإن الإنسان أُعطي لفظاً يدل على الأفراد ، وأُعطي لفظاً يدل على الاثنين ، وأُعطي لفظاً يدل على الكثرة ، فلفظة كل تدل على الكثرة ، فعلم أن قوله « تبت إلى الله من كل شيء » ، أنه تبت إلى الله من كذا ، تبت إلى الله من كذا ، تبت إلى الله من كذا ، فلهذا خلق الله من كلمة الجمع ملائكة بعدد ما تعمه تلك الكلمة ، وإنما قلنا بأن الملائكة المخلوقة من كلمة الشر يخلع عليها خلع الخير ، وترجع ملائكة رحمة في حق هذا التائب ، ويصاحب بينها وبين الملائكة المخلوقة من لفظة التوبة عن ذلك الشر ، لقوله تعالى « أولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » فجعل التبديل في عين السيئة ــ **الوجه الثاني** ــ مَنْ أنسأ الله في أجله بعد توبته فعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، أيْ ما كان يتصرف به من السوء عاد يتصرف فيه حسناً ، فبدّل الله فعله بما وفقه إليه من طاعته ورحمته ، وغفر له جميع ما كان وقع منه قبل ذلك ، ولم يؤاخذه بشيء منه . ــ **الوجه الثالث** ــ في حق أهل الشهود الذي يرون ويشهدون الأفعال كلها لله ، فما كان من حسن أضافوه إليه تعالى خلقاً فيهم ، وأضافوه إليهم من كونهم محلاً لظهوره ، وإن كان سيئاً أضافوه إليهم بإضافة الله ، فيكونون حاكين قول الله ، فيريهم الله حسن ما في ذلك المسمى سوءاً بأن يريه عين ما كان يراه سيئة حسنة ، وقد كان حسنها غائباً عنه بحكم الشرع ، فلما وصل إلى موضع ارتفاع الأحكام ، وهو الدار الآخرة ، رأى عند كشف الغطاء حسن ما في الأعمال كلها ، لأنه ينكشف له أن العامل هو الله لا غيره ،

فهي أعماله تعالى ، وأعماله كلها كاملة الحسن ، لا نقص فيها ولا قبح ، فإن السوء والقبح الذي كان ينسب إليها إنما كان ذلك بمخالفة حكم الله لا أعيانها ، فبدل الله سيئاتهم حسنات ، وما هو إلا تبديل الحكم لا تبديل العين ، فمن حكم في نفسه لنفسه ، وندم في يومه على ما فرط فيه من أمسه ، ليجبر بذلك ما فاته ، ويحيي منه بالندم ما أماته ، فإذا أقامه من قبره ، فذلك أوان نَشْرِهِ ، وأوان حشره ، فيبدل الله سيئاته حسنات ، وينقل من أسفل درجاته إلى أعلى الدرجات ، حتى يود لو أنه أتى بقراب الأرض خطايا ، أو لو حمل ذنوب البرايا ، لما يعاينه من حسن التحويل ، وجميل صور التبديل ، فيفوز بالحسنيين ، وهنالك يعلم ما أخفى له فيه من قرة عين ، ففاز في الدنيا باتباع الهوى ، وفي الآخرة بجنة المأوى ، فمن الناس من إذا حُرِم رُحِم ، وجوزي جزاء من عُصِم ، فجزاء بعض المذنبين أعظم من جزاء المحسنين ، ولاسيما أهل الكبائر ، والمنتظرين حلول الدوائر ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . لما نزلت هذه الآية قال وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه : ومن لي بأن أوفق إلى العمل الصالح الذي اشترطه علينا في التبديل ؟ فجاءه الجواب : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فقال وحشي : وما أدري هل أنا ممن شاء أن يغفر له أم لا ؟ فجاءه الجواب : (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) فلما قرأ وحشي هذا قال : الآن فأسلم ، ولهذا قال حاجب الباب الإلهي وهو الشارع [إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له] فيبدل سيئاته حسنات بالتوبة والعمل الصالح .

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾

« والذين لا يشهدون الزور » شهادة الزور الميل إلى الباطل عن الحق ، فإن الزور هو الميل « وإذا مروا باللغو مروا كراماً » أي لم ينظروا لما أسقط الله النظر إليه ، فلم يتدنسوا بشيء منه ، فمروا به غير ملتفتين إليه « كراماً » فما أثر فيهم ، فإنه مقام تستحليه النفوس ، وتقبل عليه للمخالفة التي جبلها الله عليه ، وهذه هي النفوس الأبية أي التي تأبى الرذائل ،

فهي نفوس الكرام من عباد الله ، والتحقوا بهذه الصفة بالملأ الأعلى ، الذين قال الله فيهم : (بأيدي سفرة كرام بررة) فنعتهم بأنهم كرام ، فكل وصف يلحقك بالملأ الأعلى فهو شرف في حقك .

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

(٢٦) سورة الشعراء مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾

لما كان القرآن ــ وهو كلام الله القديم الأزلي ــ في حقنا نزل ، قال تعالى « وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث » فنعته بالحدوث لأنه نزل على محدث ، ولأنه حدث عنده ما لم يكن يعلمه ، فالذي جاءهم إنما هو المتكلَم به . واعلم أن الحديث قد يكون حديثاً في

نفس الأمر ، وقد يكون حديثاً بالنسبة إلى وجوده عندك في الحال ، وهو أقدم من ذلك الحدوث ، وذلك إن أردت بالقِدَم نفي الأولية فليس إلا كلام الله ، وإن أردت به غير نفي الأولية فقد يكون حادثاً في نفسه ذلك الشيء عندك ، وقد يكون حادثاً بحدوثه عندك ، أي ذلك زمان حدوثه . والذكر كلام الله ، والكلام صفته فله القِدَم وإن حدث الإتيان ، فوصف الحق الذكر بأنه محدث لأنه حدث عندهم ، وإن كان قديماً في نفس الأمر من حيث أنه كلام الله ، فقد كان له الوجود وعين المخاطَب مفقود ، فكان محدثاً عندهم لا في عينه ، فذكر القرآن أمان ، ويجب به الإيمان أنه كلام الرحمن ، مع تقطيع حروفه في اللسان ، ونظم حروفه فيما رقمه باليراع البنان ، فحدثت الألواح والأقلام ، وما حدث الكلام ، وحكمت على العقول الأوهام ، بما عجزت عن إدراكه الأفهام ، ذِكْر المخلوق ما يصح قِدَمُه ، ولو ثبت لاستحال عدمه ، فالحادث لا يخلو من الحوادث ، لو حل بالحادث الذكر القديم ، لصح قول أهل التجسيم ، القديم لا يَحُل ولا يكون مَحَلاً ، ولو كان مَحَلاً لكان مَحِلاً ، فلا يوصف بغير وصفه ، فالذكر القديم ذكر الحق ، وإن حكى ما نطق به الخلق ، كما أن ذكر الحادث ما نطق به لسان الخلق ، وإن تكلم بالقرآن الحقّ « إلا كانوا عنه معرضين » والإعراض هو ما يقوم بك ، أو بمن يخاطبك ، أو يجالسك ، فذكر الله إعراضهم عن ذكر الرحمن ، مع العلم منهم بأنه القرآن ، والقرآن كلامه وهو الذي حدث عندهم ، فذم تعالى من لم يتلقاه بالقبول . وكلامه علمه ، وعلمه ذاته ، فهو الذي حدث عندهم فعنه أعرضوا ــ **إشارة** ــ قال تعالى (ما يأتيهم من ذكر مِنْ ربهم محدث) وقال تعالى « وما يأتيهم من ذكر مِنَ الرحمن محدث » فلم يجر لاسم من أسماء الشقاء ذكر في الإتيان ، إنما هو رب أو رحمن ، ليعلمنا بما في نفسه لنا ، فالرحمة والنعمة والإحسان في البدء والعاقبة والمآل .

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾

وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾

قال هذا الكلام موسى عليه السلام لفرعون وآله ، فإنه لما وقع من موسى عليه السلام ما وقع من قتل القبطي فَفَرَّ إلى النجاة ، التي يمكن أن تحصل له بالفِرار ، فإنه علم أن الله وضع الأسباب ، وجعل لها أثراً في العالم بما يوافق الأغراض وبما لا يوافقها ، وبما يلائم الطبع وبما لا يلائمه ، فرأى أن الفِرارَ من الأسباب الإلهية الموضوعة في بعض المواطن لوجود النجاة ، فهو فرار طبيعي ، لأنه ذكر أن الخوف من السبب جعله يفر ، لكنه معرّى عن التعريف بما ذكرناه من الوضع الإلهي ، فإن هذا كان قبل نبوته ومعرفته بما يريده الحق به . ويحتمل أن يكون فرار موسى عليه السلام الذي علله بالخوف من فرعون وقومه ، ما كان خوفه إلا من الله أن يسلطهم عليه ، إذ له ذلك ، فإنه فعال لما يريد ، ولا يدري ما في علم الله ، فكان فراره إلى ربه ليعتز به « فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين » فلما فر خوفاً من فرعون ، تلقاه الحق بالنجاة ، وجمع بينه وبين رسول من رسله ، وهو شعيب عليهما السلام ، ثم أعطاه النبوة والحكم ، الذي خاطب الله به القبط وبني اسرائيل أن يكونوا عليه ، فوهبه ربه حكماً وعلماً ، وجعله من المرسلين إلى من خاف منهم ، بالاعتزاز بالله ، وأيده الله بالآيات البينات ، ليشد منه ما ضعف مما يطلبه حكم الطبيعة في هذه النشأة ، فجعله من المرسلين إلى مَنْ خاف أن يُسلَّط عليه ، وهو فرعون ، فكان موسى عليه السلام خليفة رسولاً ، لأن الرسول لا يكون حاكماً حتى يكون خليفة ، وكان ذلك نتيجة الفرار من

فرعون وآله ، فأنتج له ذلك الفرار الحكم الذي هو الإمامة والخلافة والرسالة ، مع كون السبب الموجب الذي ذكره ـ **تحقيق** ـ لا شيء ألطف من الخواطر والأوهام ، وهي الحاكمة على الكثائف ، لضعف الكثيف وقوة سلطان اللطيف ، الدليل التغير بالخوف ، والمخوف من حُلولِهِ ماله عين وجودية . وقد أحدث الخوف في جسم الخائف حركة الهرب ، وطلب الستر والمدافعة ، وما وقع شيء إلا عين الخوف وهو لطيف .

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

« وتلك نعمة » هو قول فرعون (ألم نربك فينا وليداً ؟) فتلك النعمة تربية فرعون ، والمنّ يبطل الإنعام ، لأنه استعجال الجزاء ، ولما كان من شأن فرعون إذلال بني إسرائيل ، وموسى عليه السلام منهم ، وكان قد أعزه وتبناه ، فهذا معنى قوله « أن عبدت بني إسرائيل » .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾

لما دعا موسى فرعون إلى الله رب العالمين ، فسأله فرعون : « وما رب العالمين ؟ » يسأله عن الماهية ، ولما كانت ذات الله لا يجوز أن تطلب « بما » كما طلب فرعون ، فأخطأ في السؤال ، لهذا عدل موسى عليه السلام عن جواب سؤاله ، لأن السؤال إذا كان خطأ لا يلزم الجواب عنه ، وكان المجلس مجلس عامة ، فلذلك تكلم موسى بما تكلم به ، وفي السؤال عن الحق بلفظ « ما » خلاف ، فإن الحق سبحانه ما نهى فرعون على لسان موسى عليه السلام عن سؤاله ، بل أجاب بما يليق به الجواب عن ذاك الجناب العالي ، وإن كان وقع الجواب غير مطابق للسؤال ، فذلك راجع لاصطلاح من اصطلح على أنه لا يُسأل بذلك إلا عن الماهية المركبة ، واصطلح عن أن الجواب بالأثر لا يكون جواباً لمن سأل « بما » وهذا الاصطلاح لا يلزم الخصم ، فلم يمنع هذا السؤال بهذه الصيغة عليه ، إذ كانت الألفاظ لا تطلب لنفسها ، وإنما تطلب لما تدل عليه من المعاني التي وضعت لها ، فإنها بحكم الوضع ، وما كل طائفة وضعتها بإزاء ما وضعتها الأخرى ، فيكون الخلاف في عبارة لا في حقيقة ، ولا يعتبر الخلاف إلا في المعاني ، ومذهبنا في ذلك هو : أن ما حجّر الشرع علينا حجّرناه ،

وما أوجب علينا أن نخوض فيه خضنا فيه طاعة أيضاً ، وما لم يرد فيه تحجير ولا وجوب فَهُوَ عافية ، إن شئنا تكلمنا فيه ، وإن شئنا سكتنا عنه ، وهذا ينطبق على أمهات المطالب الأربعة : هَلْ ، وما ، وكيف ، ولِمَ ؛ والنهي شرعاً لا يكون إلا ما يرد من الله ، أو من رسوله ﷺ ، فمن ادعى التحجير في إطلاق هذه العبارات فعليه بالدليل ، والأولى التوقف عن الحكم بالمنع أو الجواز ، إذ لا حكم إلا للشرع فيما يجوز أن يتلفظ به أو لا يتلفظ به ، يكون ذلك طاعة أو غير طاعة ، والحق سبحانه لا يقال فيه : إن له ماهية ، وإن سئل عنه « بما » فالجواب بصفة التنزيه ، أو صفة الفعل لا غير ذلك ، لذلك قال موسى عليه السلام :

قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

« إن كنتم موقنين » يقول إن استقر في قلوبكم ما يعطيه الدليل والنظر الصحيح من الدَّال ، فأخذ موسى عليه السلام ــ العالِمُ ــ في التعريف بماهية الحق ، ــ والرسل عندنا أعلم الخلق بالله ــ فقال فرعون ، وقد علم أن الحق مع موسى فيما أجابه به ، إلا أنه أوهم الحاضرين واستخفهم ، لأن السؤال منه إنما وقع بما طابقه الحق ، وهو قوله (وما رب العالمين) فما سأله إلا بذكر العالمين ، فقال موسى عليه السلام « رب السموات والأرض وما بينهما » فطابق الجواب السؤال ، فقال فرعون لقومه :

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾

أسأله عن الماهية ، فيجيبني بالأمور الإضافية ، فغالطهم وهو ما سأل إلا عن الرب المضاف ، فقال له موسى :

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾

فخصص الإضافة لدعوى فرعون في قومه أنه ربهم الأعلى .

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾

لما رأى فرعون أن موسى عليه السلام ما أجابه على حد ما سأل ، لأنه تخيل أن سؤاله هذا متوجه ، وما علم أن ذات الحق لا تدخل تحت مطلب « ما » ، وإنما تدخل تحت مطلب « هل » وهل سؤال عن وجود المسؤول عنه هل هو متحقق أمْ لا ؟ فقال فرعون وقد علم ما وقع فيه من الجهل ، إشغالاً للحاضرين لئلا يتفطنوا لذلك « إن رسولكم الذي أرسل إليكم » ولولا ما علم الحق فرعون ما أثبت في هذا الكلام أنه أرسله مُرْسِل ، وأنه ما جاء من نفسه ، لأنه دعا إلى غيره ، وكذا نسبه فرعون إلى ما كان عليه موسى بقوله « لمجنون » ــ **الوجه الأول** ــ أي مسْتورٌ عنكم فلا تعرفونه ، فعرفه موسى بجوابه إياه ، وما عرفه الحاضرون كما عرفه علماء السحرة ، وما عرفه الجاهلون بالسحر ــ **الوجه الثاني** ــ « إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون » أي قد ستر عنه عقله ، لأن العاقل لا يُسأل عن ماهية شيء فيجيب بمثل هذا الجواب ، فقال له موسى لقرينة حال اقتضاها المجلس ، ما قال إبراهيم عليه السلام لنمروذ .

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

المشرق لا يسمى لطلوع القمر ولا النجوم ، بل للشمس فقط ، ولذلك قال تعالى « رب المشرق والمغرب » أي طلوع الشمس وغروبها ، ولو لم يقل « وما بينهما » لجاز ، لأنه ليس بينهما شيء ، وذلك لأن عين حال الشروق في ذلك الحَيِّز هو عين استوائها وهو عين غروبها ، فكل حركة واحدة من الشمس في حَيِّز واحد شروق واستواء وغروب ، فما ثَمَّ ما ينبغي أن يقال ما بينهما ، لكنه قال « وما بينهما » لغموضه على الحاضرين ، فإنهم لا يعرفون ما فصلناه في إجمال « وما بينهما » فجاء بالمشرق والمغرب المعروف بالعرف ثم قال لهم « إن كنتم تعلمون » فأحالهم على النظر العقلي .

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

يظهر له المانع من تعديه عليه ، فلم يسع فرعون إلا أن يقول له :

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

حتى لا يظهر فرعون عند الضعفاء الرأي من قومه بعدم الإنصاف ، فكانوا يرتابون فيه ، وهي الطائفة التي استخفها فرعون فأطاعوه .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾

أي حية ظاهرة ، فجاءهم بما يناسب ما كانوا عليه ، وكذلك معجزة كل نبي هي ما يناسب قومه . ـــ **تفسير من باب الإشارة** ـــ « فألقى عصاه » وهي صورة ما عَصَى به فرعون موسى في إبائه عن إجابة دعوته « فإذا هي ثعبان مبين » .

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ـــ راجع سورة طه : آية ٦٩

فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾

لما علم سحرة فرعون أن الذي جاء به موسى من عند الله ، وأن الذي رأوه ليس في مقدور البشر ، فآمنوا بما جاء به موسى عن آخرهم ، وخروا سجداً عند هذه الآية ، و .

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾

أي الرب الذي يدعو إليه موسى وهارون ، حتى يرتفع الالتباس ، فإنهم لو وقفوا على العالمين ، لقال فرعون : أنا رب العالمين ، إياي عنوا ، فزادوا رب موسى وهارون ، أي الذي يدعو إليه موسى وهارون ، فارتفع الإشكال ، فَتَوَعَدهم فرعون بالعذاب .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾

ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

ومن أدب إبراهيم عليه السلام قوله : وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾

ولم يقل يجوعني . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾

ولم يقل أمرضني ، فأضاف الفعل المذموم والمكروه في الطبع والعادة والعرف إلى نفسه ، إيثاراً منه لجناب ربه ، حتى لا ينسب إليه ما جرى عليه لسان ذم ، كالذنْب ، ولسان كراهة الطبع ، كالمرض والجوع ، غَيْرَةً على الجناب الإلهي ، وفداء له بنفسه ، ثم قال « فهو يشفين » فأضاف الشفاء إليه تعالى ، والمرض لنفسه ، وإن كان الكل من عنده ، ولكنه تعالى هو أدّب رسله ، إذ كان المرض لا تقبله النفوس ، والمرض شغل شاغل عن أداء ما أوجب الله على العبد أداءه من حقوق الله لإحساسه بالألم ، وهو في محل التكليف ، وما يحس بالألم إلا الروح الحيواني ، فيشغل الروح المدبر لجسده عما دعي إليه في هذه الدنيا ، فلهذا أضاف المرض إليه ، والشفاء للحق ، وذلك من أدب الإضافة والألفاظ ، فالشافي مزيل الأمراض ، ومعطي الأغراض ، فإن الأمراض إنما تظهر أعيانها لعدم ما تطلبه الأغراض ، فلو زال الغرض ، لزال الطلب ، فكان يزول المرض ، وورد في الخبر عنه ﷺ أنه قال [أذهب الباس رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك] وما ثَمَّ شفاء إلا شفاؤه ، فإن الكل

خلقه ، ولهذا قال الخليل « فهو يشفين » فنص على الشافي ، وما ذكر شفاء لغيره ، فأزال إبراهيم عليه السلام الاحتمال ، لما جعل الله في الأدوية من الشفاء ، وإزالة الأمراض ، ويحتمل أن يريد محمد ﷺ بقوله [لا شفاء إلا شفاؤك] أن كل مزيل لمرض إنما هو شفاء الله الذي أودعه في ذلك المزيل ، فأثبت الأسباب ، وهذا كان غرض رسول الله ﷺ مع تقرير الأسباب ، لأن العالم ما يعرفون شفاء الله من غير سبب ، مع اعتقادهم أن الشافي هو الله ، ويحتمل لفظ النبي ﷺ إثبات أشفية ، لكن لا تقوم في الفعل قيام شفاء الله ، فقال لا شفاء إلا شفاؤك] والأول في التأويل أولى بمنصب رسول الله ﷺ ، فلما دخل الاحتمال ، كان البيان من هذا الوجه في خبر إبراهيم الخليل عليه السلام ، واقتضى مقام النبي ﷺ أن يبيّن أن الأشفية التي تكون عند الاستعمال أسبابها أنها شفاء الله ، إذ لا يتمكن رفع الأسباب من العالم عادة ، وقد ورد أن الله ما خلق داء إلا وخلق له دواء . وانظر إلى آداب النبوة التي لا يبلغها أدب ، عند قول الخليل « وإذا مرضت » فهو نهاية في الأدب ، ولم يقل : وإذا أمرضني ، لما كان المرض عيباً عرفاً أضاف المرض إلى نفسه ، إذ كان عيباً عنده ، فجمع عليه السلام في هذه المسئلة بين أدب نسبة المرض إلى نفسه ، وبين الأدب في التعريف أن ذلك المرض حكم لاسم إلهي من غير تصريح ، لكن بالتضمين والإجمال ، وأضاف الشفاء إلى ربه إذ كان حسناً فقال « فهو يشفين » فنسب الشفاء إلى ربه ، ولم ينسب إليه المرض ، لأنه شر في العرف بين الناس ، وإن كان في طيه خير في حق المؤمن ، ولما أوحى الله أن نتبع ملة إبراهيم ، أخبر نبيه بحديث إبراهيم وقوله هذا تعليماً له ﷺ ليتأدب بأدبه ، فقال رسول الله ﷺ [والشر ليس إليك] فقول الخليل « فهو يشفين » بداية التحقيق وقول النبي ﷺ [لا شفاء إلا شفاؤك] نهاية النهاية ، فهي أتمُّ والإتيان بالأمرين أولى وأعم ، ومع هذا القصد من الخليل عليه السلام في قوله « وإذا مرضت » فإن الظاهر في اللفظ الإضافة الحقيقية إليه فلذلك قال بعد قوله :

وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

يقول إنه أخطأ ، وإن كان القصد الأدب ، حيث نسب المرض لنفسه وما نسبه إلى الله ، وما قصد إلا الأدب معه ، حتى لا يضيف ما هو عيب عندهم عرفاً إلى الله ، ولذلك

عرّف من غير تصريح ، لكن بالتضمين والإجمال و لم يسم الخطيئة ما هي ، « يوم الدين » يقول : يوم الجزاء .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾

وهم أهل النار الذين هم أهلها ، الذين يقول الله فيهم : (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) .

فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾

أي شفيق ، فإن الحميم الصاحب الشفيق .

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾

جعل الله الإنسان لا يسعى إلا لنفسه ، ولهذا قرن بِسَعْيه الأجر حتى يسعى لنفسه ، بخلاف مَنْ لا أجر له من العالم الأعلى والأسفل ، وليس بعد الرسل ومرتبتهم في العلم بالله مرتبة ، فهم المطرقون والمنبهون ، ومع هذا فما منهم من رسول إلا قيل له : قل لأمَّتك « ما أسألكم عليه » أي على ما بلغتكم « من أجر ». ولما كان أداء الرسائل عملاً من المؤدي لأن المرسل استعمله في أداء رسالته لمن أرسله إليه ، فوجب أجره عليه ، لأن المرسل إليه ما استعمله حتى يجب عليه أجره ، ولهذا قالت الرسل لأممها عن أمر الله ، تعريفاً للأمم بما هو الأمر عليه « إن أجري إلا على رب العالمين » فإنه الذي استخدمه وأرسله ، فالأجر عليه ، فذكروا استحقاق الأجر على مَنْ يستعملهم ، ولم يقولوا ذلك إلا عن أمره ، فإنه قال لكل رسول « قل ما اسألكم عليه من أجر » .

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ * قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾

فإنه لا أحد من المخلوقين أشد بطشاً وانتقاماً من الإنسان الحيوان ، ولا مخلوق أعظم رحمة من الإنسان الكامل ، وإن كان ذا بطش شديد ، فالإنسان الحيواني أشد بطشاً منه ، لأنه يبطش بما لم يخلق ، فلا رحمة له فيه ، والحق يبطش بمن خلق ، فالرحمة مندرجة في بطشه حيث كان .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ

ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾
قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾

« قال هذه ناقة » يعني ناقة صالح .

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾

لما قال تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) فعلّم القرآن أين محله الذي ينزل عليه من العالم ، فنزل على قلب محمد ﷺ ، نزل به الروح الأمين الذي هو روح القدس ، والروح هو الملقي إلى القلب علم الغيب على وجه مخصوص ، فقال تعالى :

عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾

لما نزل القرآن نزل على قلب محمد ﷺ ، وعلى قلوب التالين له دائماً ، التي في صدورهم في داخل أجسامهم ، لا أعني اللطيفة الإنسانية التي لا تتحيز ولا تقبل الاتصاف بالدخول والخروج ، فيقوم للنفس الناطقة القلب الذي في الصدر ، ليصير لها مقام المصحف المكتوب للبصر ، فمن هنا تتلقاه النفس الناطقة . ـ راجع المائدة آية ٦٧ ـ فجعل الله القلب الذي في داخل الجسم في صدره مصحفاً وكتاباً مرقوماً ، تنظر فيه النفس الناطقة ، فهذا قوله تعالى « على قلبك » فظهر القرآن في قلبه ﷺ على صورة لم يظهر بها في لسانه ،

فإن الله جعل لكل موطن حكماً لا يكون لغيره ، وظهر في القلب أحدي العين ، فجسّده الخيال وقسّمه ، فأخذه أللسان فصيره ذا حرف وصوت ، وقيد به سمع الآذان ، ليترجم عن القرآن ، بما علمه الحق من البيان ، الذي لم يقبله إلا الإنسان ، فأبان أنه مترجم عن الله لا عن الرحمن ، لما فيه من الرحمة والقهر والسلطان ، فقال تعالى (فأجره حتى يسمع كلام الله) فتلاه رسول الله ﷺ بلسانه أصواتاً وحروفاً ، سمعها الأعرابي بسمع أذنه في حال ترجمته ، فالكلام لله بلا شك ، والترجمة للمتكلم به ، ولا يزال القرآن ينزل على قلوب أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة ، فنزوله في القلوب جديد لا يبلى ، فهو الوحي الدائم ، فلا يزال كلام الله من حين نزوله يتلى حروفاً وأصواتاً إلى أن يرفع من الصدور ، ويمحى من المصاحف ، فلا يبقى مترجم يقبل نزول القرآن عليه فلا يبقى الإنسان المخلوق على الصورة « لتكون من المنذرين » أي المعلمين ، فذكر الإنذار ، وهكذا في قوله (يلقي الروح على من يشاء من عباده لينذر) من الزجر حيث ساق الإعلام بلفظة الإنذار[1]، فهو إعلام بزجر ، وهو البشير النذير ، والبشارة لا تكون إلا عن إعلام ، فغلب في الإنزال الروحاني باب الزجر والخوف ، لما قام بالنفوس من الطمأنينة الموجبة إرسال الرسل ، ليعلموهم أنهم عن الدنيا إلى الآخرة منقلبون ، وإلى الله من نفوسهم راجعون .

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

ـــ **إشارة** ـــ انظر في القرآن بما أنزل على محمد ﷺ ، لا تنظر فيه بما أنزل على العرب ، فتخيب عن إدراك معانيه ، فإنه نزل بلسان رسول الله ﷺ لسان عربي مبين ، فإذا تكلمت في القرآن بما هو به محمد ﷺ متكلم ، نزلت عن ذلك الفهم إلى فهم السامع من النبي ﷺ ، فإن الخطاب على قدر السامع ، لا على قدر المتكلم ، وليس سمع النبي ﷺ ، وفهمه فيه فهم السامع من أمته فيه إذا تلاه عليه ـــ **الفرق بين نزول القرآن على قلب النبي ونزوله على قلب الولي** ـــ من جاءه القرآن عن ظهر غيب أعطي الرؤية من خلفه كما أعطيها من أمامه ، إذ كان القرآن لا ينزل إلا مواجهة ، فهو للنبي ﷺ من وجهين : وجه معتاد ، ووجه غير معتاد ، وهو للوارث من وجه غير معتاد ، فَسُمِّيَ ظهراً بحكم الأصل ، وهو وجه بحكم الفرع ، والذي ينزل القرآن على قلبه ينزل بالفهم ، فيعرف ما يقرأ وإن كان

(١) في الأصل الإنزال .

بغير لسانه ، ويعرف معاني ما يقرأ ، وإن كانت تلك الألفاظ لا يعرف معانيها في غير القرآن ، لأنها ليست بلغته ، ويعرفها في تلاوته إذا كان ممن ينزل القرآن على قلبه عند التلاوة .

وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾

العلماء هم الذين علموا الكائنات قبل وجودها ، وأخبروا بها قبل حصول أعيانها .

وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾

لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وقف على الصفا وجاء الناس يهرعون إليه ، فقال لأكرم الناس عليه : يا فاطمة بنت محمد انظري لنفسك ، لا أغني عنك من الله شيئاً ؛ وقال مثل هذه المقالة لجميع الأقربين ، وكان عمه أبو لهب حاضراً فنفخ في يده ، وقال : ما حصل بأيدينا مما قاله شيء ، وصدق أبو لهب ، فإنه ما نفعه الله بإنذاره ولا أدخل قلبه منه شيئاً ، لما أراد به من الشقاء .

وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾

فيعلم حركاتك وسكناتك على التعيين والتفصيل ، وعم جميع أحوالك بقوله تعالى :

وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾

إشارة منه تعالى إلى تنوع الحالات عليه ﷺ في حال السجود ، من غير رفع يتخلل ذلك ، ولقد رفع وقام وركع ، وثنّى السجود ، ولم يثن حالة من حالات صلاته إلا السجود ، لشرفه في حق العبد ، فأكد بالتثنية في كل ركعة فرضاً واجباً ، وركناً لا ينجبر إلا بالإتيان به . ــ **إشارة** ــ القلب إذا سجد لا يرفع أبداً ، لأن سجوده للأسماء الإلهية لا للذات ، فإنها هي التي جعلته قلباً ، فهي تقلبه من حال إلى حال دنيا وآخرة ، فلهذا سمته قلباً ، فإذا تجلى له الحق مقلباً ، فيرى أنه في قبضة مقلبه ، وهو الأسماء الإلهية التي لا ينفك مخلوق عنها ، فهي المتحكمة في الخلائق ، فمن مشاهد لها ــ وهو الذي سجد قلبه ــ ومن غير مشاهد لها ، فلا يسجد قلبه ، وهو المدعي الذي يقول : أنا ؛ وعلى من هذا صفته يتوجه الحساب والسؤال يوم القيامة والعقاب إن عوقب ، ومن سجد قلبه فلا دعوى له ، فلا حساب ولا سؤال ولا عقاب ، فلا صفة أشرف من صفة العلم ، فإنه المعطي السعادة في الدارين ، والراحة في المنزلتين . فإذا سجد القلب لم يرفع ، لأنه سجد لربه ، وقبلته ربه ، وربه لا يزول ، ولا ترتفع عن الوجود ربوبيته ، فالقلب لا يرفع رأسه من سجوده أبداً ، لأن قبلته لا ترتفع . اللهم اجعلنا ممن سجد قلبه وعرف ربه .

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾

فإن النظم المسمى شعراً من نَفْخ الشيطان .

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت ، لما أراد أن يهجو قريشاً ينافح بذلك عن رسول الله ﷺ ، لما هجته قريش ، وهو منها ، وعلم رسول الله ﷺ أن الذي انبعث إليه حسان ابن ثابت من هجاء قريش أن ذلك مما يرضي الله ، لحسن قصده في ذلك ، وما علم رسول الله ﷺ ذلك إلا لما رأى روح القدس الذي يجيئه ، قد جاء إلى حسان بن ثابت يؤيده من حيث لا يشعر ، ما دام ينافح عن عِرْض رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ [إني منهم ، فانظر ما تقول ، وكيف تقول ، وائت أبا بكر فإنه أعرف بالأنساب] فيخبرك حتى لا تقول كلاماً يعود على رسول الله ﷺ ، فتكون قد وقعت فيما وقعوا فيه ، فقال له حسان ابن ثابت : والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ؛ لأنها لا يعلق بها شيء من العجين ، قال تعالى « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدما ظلموا » فلم يجعل الحق تعالى للشيطان على حسان سبيلاً ، فإنه كان ينافح بنظمه عَنْ عِرْض رسول الله ﷺ بتأييد الروح القدسي « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » وغاية الأمر أن الله عنده حسن المآب ، وما قَرَنَ الله قط بالمآب إليه سوءاً تصريحاً ، وغاية ما ورد في ذلك في معرض التهديد في الفهم الأول « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » فسيعلمون من كرم الله ما لم يكونوا يحتسبون قبل المؤاخذة لمن غفر له ، وبعد المؤاخذة لانقطاعها عنهم ، فرحمة الله واسعة ، ونعمته سابغة جامعة ، وأنفس العالم فيها طامعة ، لأنه كريم من غير تحديد ، ومطلق الجود من غير تقييد .

(٢٧) سورة النمل مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾

جاء الحق بنون الكناية عن نفسه في قوله : « زينا »، ونسب الحيرة إليهم بقوله « يعمهون » أي يحارون بهذا التزيين لمن ينْسبونَهُ ، فلا فاعل إلا الله ، فهو تنبيه أن يُعْتَقَد ذلك ، وأنه بقضائه وقدره ، إذ كل شيء بيده

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾

لما خرج موسى عليه السلام ساعياً لأهله ، لما كانوا يحتاجون إليه من النار ، وشغل بطلبها الذي تقتضيه بشريته ، نودي في عين حاجته ، لافتقاره إليها ، فتجلى الله له في عين صورة حاجته « فلما جاءها » أي جاء إليها « نودي » ناداه منها « أن بورك من في النار ومن حولها » فبسعيه على عياله ، واستفراغه ، ناداه الحق وكلمه في عين حاجته وهي النار « وسبحان الله رب العالمين » ـــ **نصيحة** ـــ اعلم أن جُلّ الخير في السعي على الغير ، فمن أراد من الله قضاء مآربه ، فليقض حاجة صاحبه ، وإن لم يستند فيها إلى جانبه ، ولو ذهب غير مذاهبه .

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

فسبحان من علا في نزوله ، ونزل في علوه ، ثم لم يكن واحداً منهما ، ولم يكن إلا هما ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فيُعرَف معرفة لا يُشهَد معروفها ، فإنه سبحانه تجلى لموسى عليه السلام في عين حاجته ، فلم تكن ناراً ، فلا يُرى الحق إلا في الافتقار ، ولا يتجلى إلا في صور الاعتقادات وفي الحاجات ، وقلنا في ذلك من قصيدة لنا

كنار موسى يراها عين حاجته   وهي الإله ولكن ليس يدريه

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ـ **إشارة** ـ قلبت العصا ثعباناً لأن جزاء سيئة سيئة مثلها ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فجاءهم بما يناسب ما كانوا عليه ، وكذلك معجزة كل نبي هي ما يناسب قومه ، وخاف موسى وهو في حال التمكين ، عقاباً لقوله : إن معي ربي سيهدين ، فلما قدم نفسه كان الخوف مصاحباً له .

﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

« وجحدوا بها » الجاحد هنا هو الكاذب ، لأنه عالم بكذبه في المواطن التي كُلِّف أن يصدق فيها ، والإقرار في ذلك الأمر المطلوب منه المعلوم عنده « **واستيقنتها أنفسهم** » **التيقن : هو استقرار العلم في النفس ، فلولا ما علموا ، ما تيقنوا أنها آيات ، يعني براهين**

على صدق الرسل فيما أخبروا به عن الله ، فمع الدلالات التي نصبها الله للمرسل إليهم على صدق رسله واستيقنوها ، حملهم سلطان الحسد الغالب عليهم ، أن يجحدوا ما هم به عالمون موقنون بصدقهم ، من حيث الدلالة ، لا من حيث نور الإيمان المقذوف في القلب ، فإنه لم يحصل عندهم من ذلك النور شيء ، فعلم أن الإيمان لا تعطيه إقامة الدليل ، بل هو نور إلهي يلقيه الله في قلب من شاء من عباده ، وقد يكون عقيب الدليل ، وقد لا يكون هناك دليل أصلاً ، وهؤلاء عرفوا الحق ، وجحدوا بما دلهم عليهم ، فهؤلاء جاحدون معاندون ، ثم ذكر تعالى العلة فقال : « ظلماً » أي ظلموا بذلك أنفسهم « وعلواً » على من أرسل إليهم ، فاندرج في ذلك علوهم على الله فذم الله من طلب علواً في الأرض ، فإنه من رياسة النفوس ، فقال : « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ولما كان لا يلزم العالِمُ بالحق الإقرار به في الظاهر ، وإنما يستلزمه التصديق به في الباطن ، فهو مصدق به وإن كذّبه باللسان ، فقد عمل بما علم ، وهو التصديق ، لكن ما كل عمل يعطي عموم النجاة ، بل يعطي من النجاة قدراً مخصوصاً من عموم أو خصوص . وأي آية كانت للعرب معجزة مثل القرآن ؟ وقد قال تعالى فيه : (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

النطق سارٍ في العالم كله ، ولا يختص به الإنسان ، كما جعلوه فصله المقوم له بأنه حيوان ناطق ، فالكشف لا يقول بخصوص هذا الحدّ في الإنسان ، وإنما حد الإنسان بالصورة الإلهية خاصة ، ومَنْ ليس له هذا الحد فليس بإنسان ، وإنما هو حيوان يشبه في الصورة ظاهر الإنسان ، فاطلب لصاحب هذا الوصف حداً يخصه ، كما طلبته لسائر الحيوان

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

الأنبياء وإن كانوا صالحين في نفس الأمر عند الله ، فهم بين سائل في الصلاح ، مثل سليمان عليه السلام ، ومشهود له به من الحق بشرى من الله ، مثل يحيى وعيسى وإبراهيم ومحمد عليهم السلام ، فإن الاسم الصالح من خصائص العبودية ـ **إشارة** ـ « فتبسم ضاحكاً من قولها » الضعيف الذي ليس له قوة مقاومتك ، لا ترهب عليه .

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾

ـ **إشارة** ـ لا تعمل إلا عن بينة من ربك كما فعل سليمان ، وقد كان الحق مع الهدهد ، فلو عذبه قبل البينة لظلمه ، فلا تعجل أبداً بصفات القهر منك حتى يتبين لك موطنها ، وأما صفات الرحمة فأطلقها ولا تقيدها

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

المرأة هي بلقيس ، قيل : هي متولدةٌ بين الجن والإنس ، فإن أمها من الإنس وأباها من الجن ، ولو كان أبوها من الإنس وأمها من الجن لكانت ولادتها عندهم ، وكانت تغلب عليها الروحانية ، ولهذا ظهرت بلقيس عندنا « ولها عرش عظيم » فهو سرير ملكها وهو لها عظيم .

وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

فصدهم عن السبيل الذي هو قول الله وصراطه ، ولما كان الخبء النباتي تخرجه الشمس من الأرض بما أودع الله فيها من الحرارة ، ومساعدة الماء بما أعطى الله فيه من الرطوبة ، فجمع بين الحرارة ومنفعل البرودة ، حتى لا تستقل الشمس بالفعل ، فظهرت الحياة في الحي العنصري ، وكان الهدهد ــ دون الطير ــ قد خصه الله بإدراك المياه ، كان يرى للماء السلطنة على بقية العناصر تعظيماً لنفسه ، وحماية لمقامه ، حيث اختص بعلمه ليُشهَد له بالعلم بأشرف الأشياء ، حيث كان العرش المستوي عليه الرحمن على الماء ، فكان الهدهد يحامي عن مقامه ، ووجد قوماً يعبدون الشمس ، وهي على النقيض من طبع الماء ، الذي جعل الله منه كل شيء حي ، وعلم أنه لولا حرارة الشمس ما خرج الخبء ، وأنها مساعدة للماء ، فأدركته الغيرة في المنافر فوشى إلى سليمان عليه السلام بعابديها ، وزاد للتغليظ بقوله : « من دون الله » ينبه على موضع الغيرة ، والشمس وإن أخرجت خبء الأرض بحرارتها ، فهي تخبأ الكواكب بإشراقها ، وتظهر المحسوسات الأرضية بشروقها ، فلها حالة الخبء والإظهار ، وبها حد الليل والنهار ، فزاحمت من يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم ما يخفون وما يعلنون ، فابتلى الله الماء فأصبح غوراً ، وابتلى الشمس فأمست آفلة ، وفجر العيون فأظهر خبء الماء ، وفار التنور فأظهر خبء الشمس ، فأخرج الخبء في السموات والأرض فقال الهدهد .

أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾

يقول إن الشمس التي يسجدون لها ، وإن اعتقدوا أنها تعلم ما يعلنون ، فالسجود لمن يعلم ما يخفون وما يعلنون أولى ، ثم إنهم يسجدون للشمس لكونها تخرج لهم بحرارتها ما خبأت الأرض من النبات ، فقال الله لهم : ينبغي لكم أن تسجدوا للذي يخرج الخبء في

السموات ، وهو إخراجه ما ظهر من الكواكب بعد أفولها وخبئها ، ثم يظهرها طالعة من ذلك الخبء وفي « الأرض » ما يخرجه من نباتها ، فالشمس ليس لها ذلك ، بل لظهورها يكون خبء ما في السموات من الكواكب ، فالله أولى بأن يسجد له من سجودكم للشمس ، فإن حكمها عند الله كحكم الكواكب في الأفول والطلوع ، فطلوعها من الخبء الذي يخرجه الله في السماء ، مثل سائر الكواكب .

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

فوسع كل شيء رحمة وعلماً ، واستوى على العرش العظيم ، إذ حكم على فلك الشمس بدورته ، وعلى الماء باستقراره وجريته ، فهما في كل درجة في خبء وظهور ، فوحّده الظهور بظهوره ، ووحّده الخبء بِسَدْلِ ستوره ، فعلم سبحانه ما يخفون وما يعلنون ، فهو « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ». وهذا هو التوحيد الثاني والعشرون في القرآن ، وهو توحيد الخبء ، وهو من توحيد الهوية ، والسجدة مختلف في موضعها ، فقيل : عند قوله « تعلنون » وقيل : عند قوله « رب العرش العظيم » وهي سجدة رجحان ، فإن الدليل هنا في جناب الله أرجح منه في الدلالة على ألوهة الشمس حين اتخذتموها إلهاً لما ذكرناه .

* قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

فإن الأخبار تشهد للمؤمن بالإيمان والبهتان ، والدليل خبر الهدهد فيما أخبر به سليمان ، فإن شهد له العيان ، أو الضرورة من الجنان ، وقع الإيمان ، وإن كذبه ألحقه بالبهتان ، فالأخبار ، محك ومعيار ، تشهد لها الآثار الصادقة ، والأنوار الشارقة .

ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾

من حكمة بلقيس وعلو علمها كونها لم تذكر من ألقى إليها الكتاب ، وما عملت ذلك إلا لتعلم أصحابها أن لها اتصالاً إلى أمور لا يعلمون طريقها ، لأنه إذا جُهِل طريق الأخبار

الواصل إلى الملك ، خاف أهل الدولة على أنفسهم في تصرفاتهم ، فلا يتصرفون إلا في أمر إذا وصل إلى سلطانهم عنهم يأمنون غائلة ذلك التصرف ، فلو تعين على يد مَنْ تصل الأخبار إلى ملكهم لصادقوه وأعظموا له الرشا حتى يفعلوا ما يريدون ، ولا يصل ذلك إلى ملكهم ، فكان قولها « ألقي إلي » ولم تسم من ألقاه سياسة منها أورثت الحذر منها في أهل مملكتها وخواص مدبريها ، وبهذا استحقت التقدم عليهم « كتاب كريم » أي يكرم عليها .

إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾

قدم سليمان عليه السلام اسمه على قوله « وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » لأن ذلك أدب وقته وشرع وقته ، بالنسبة إلى أهل ملته وزمانه ، فكان ذلك اصطلاحهم في ذلك الزمان ، فلم تقتض الحكمة أن يخرج عن عادة أهل زمانه .

أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ

أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

« قال الذي عنده علم من الكتاب » وهو آصف بن برخيا ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، الذي يفعل بالخاصية ، ولولا الكتاب ما علم ذلك ، قال لسليمان عليه السلام : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » فظهر بهذا الأمر تعظيماً لقدر سليمان عليه السلام عند أهل بلقيس وسائر أصحابه وما طُوِيَ عن سليمان عليه السلام العلم بهذا الاسم ، وإنما طوي عنه الإذن في التصرف به ، تنزيهاً لمقامه ، فإنه رسول مصرف العين إلى من أرسل إليه ، فما ظهر آصف بالقوة على الإتيان بالعرش دون سليمان عليه السلام إلا ليعلم الحق أن شرف سليمان عظيم ، إذ كان لمن هو حسنة من حسناته هذا القدر ، فكان ذلك من آصف بن برخيا إعلام الغير ، بأن التلميذ التابع ، إذا كان أمره بهذه المثابة ، فما ظنك بالشيخ ؟ فيبقى قدر الشيخ مجهولاً في غاية التعظيم ، فلو ظهر على سليمان عليه السلام هذا الفعل ، لتوهم أن هذا غايته ، وظهور هذا الفعل على يد صاحبه أتم في حقه ، إذ كان هذا التابع مصدقاً به ، وقائماً في خدمته بين يديه تحت أمره ونهيه ، فيزيد المطلوب رغبة في هذا الرسول ، إذا رأى بركته قد عادت على تابعيه ، فيرجو هذا الداخل أن يكون له بالدخول في أمره ما كان لهذا التابع ، والنفس مجبولة على الطمع ، وحب الرياسة والتقدم « قبل أن يرتد إليك طرفك » فإنه معلوم بالقدر الزماني ، أن رجوع الطرف إلى الناظر به أسرع من قيام القائم من مجلسه ، لأن حركة البصر في الإدراك إلى ما يدركه أسرع من قيام حركة الجسم فيما يتحرك منه ، فإن الزمان الذي يتحرك فيه البصر عين الزمان الذي يتعلق بمُبْصَرِه مع بعد المسافة بين الناظر والمنظور ، فإن زمان فتح البصر زمان تعلقه بفلك الكواكب الثابتة ، وزمان رجوع طرفه إليه هو عين زمان عدم إدراكه ، والقيام من مقام الإنسان ليس كذلك ، أي ليس له هذه السرعة .

قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾

لما قامت لبلقيس شبهة بعد المسافة ، وقيل لها « أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو » وما كان إلا هو ، ولكن حجبها بعد المسافة ، وحكم العادة ، وجهلها بقدر سليمان عليه السلام عند ربه ، فهذا حجبها أن تقول : هو هو ؛ فقالت : « كأنه هو » وهو هو ، فجهلها أدخل كاف التشبيه فما شبهته إلا بنفسه وعينه لا بغيره ، وإنما شوش عليها بعد المسافة المعتاد ، ولو شاهدت الاقتدار الإلهي لعلمت أنه هو ، كما كان هو من غير زيادة ، فقولها : « كأنه هو » حصل لها من وقوفها مع الحركة المعهودة في قطع المسافة البعيدة ، وعلمت بعد ذلك أنه هو لا غيره ، وهذا القول الذي صدر منها يدل عندي أنها لم تكن كما قيل متولدة بين الإنس والجان ، إذ لو كانت كذلك لما بعد عليها مثل هذا ، من حيث علمها بأبيها ، وما تجده من نفسها من القوة على ذلك ، حيث كان أبوها من الجان على ما قيل . فهذا شهود حاصل ، وعين مشهودة ، وعلم ما حصل ، لأن متعلق العلم المطلوب هنا إنما هو نسبة هذا العرش المشهود إليها كما هو في نفس الأمر ، ولم تعلم ذلك .

وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾

فلو شاهدت الاقتدار الإلهي لعلمت أنه هو .

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

« قيل لها ادخلي الصرح » وكان الصرح أملس لا أمت فيه « فلما رأته حسبته لجة » أي ماء « وكشفت عن ساقيها » حتى لا يصيب الماء ثوبها « قال إنه صرح ممرد من قوارير » من زجاج « قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان » أي إسلام سليمان « لله رب العالمين » فما انقادت لسليمان ، وإنما انقادت لله رب العالمين ، وسليمان من العالمين ،

فكان إسلام بلقيس إسلام سليمان إذ قالت « مع سليمان » فما يمر بشيء من العقائد إلا مرت به معتقدة ذلك ــ **إشارة** ــ لما قالت بلقيس في عرشها « كأنه هو » عثور على علمها بتجديد الخلق في كل زمان فأتت بكاف التشبيه ، وأراها صرح القوارير كأنه لجة ، وما كان لجة ، كما أن العرش المرئي ليس عين العرش من حيث الصورة لقول سليمان عليه السلام « نكروا لها عرشها »، والجوهر واحد ، وهذا سار في العالم كله أي تجديد الخلق مع الأنفاس ــ **إشارة** ــ « وكشفت عن ساقيها » أي بينت أمرها ، ومنه كشف عن ساق الأمر .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾

« وهم لا يشعرون » أن عين ما اعتقدوه أنه مكرهم هو مكري بهم ، ووجود المكر الإلهي بالماكرين من حيث لا يشعرون لا يكون إلا في الدنيا ، فإنهم في الآخرة يعرفون أن الله مكر بهم في الدنيا ، بما بسط لهم فيها مما كان فيه هلاكهم ، فهنا في الدنيا وقع المكر بهم ، حيث وقع المكر منهم ، بل في بعض الوقائع أو أكثرها بل كلها أن عين مكرهم هو مكر الله بهم وهم لا يشعرون . واعلم أن كل ممكور به إنما يمكر الله به من حيث لا يشعر ، وقد يشعر بذلك المكر غير الممكور به ، فإنه تعالى قال : « وهم لا يشعرون » فَمُضَمَرُ « هم » هو المضمر في مكروا ، فكان مكر الله بهؤلاء هو عين مكرهم الذي اتصفوا به ، وهم لا يشعرون، وهذا المكر الإلهي إذا شعر به الممكور به زال كونه مكراً ، إلا في حال واحد ، وذلك إذا شعر بمكر الله في أمر أقامه فيه ، وأقام عليه ، وإقامته عليه بعد العلم أنه من مكر

الله مكر من الله ، ولم يزل اسم المكر عن الذي أقام على الأمر الذي كان لا يشعر به أنه مكر من الله في إقامته على ذلك الأمر في حقه ، ثم قد يمكر بهم بأمر زائد على مكرهم ، فإنه أرسله سبحانه نكرة فقال : « ومكرنا مكراً » فدخل فيه عين مكرهم ، ومكر آخر زائد على مكرهم ، ومن المكر الإلهي ما يقصد به ضرر العبد ، ومنه ما لا يقصد به ضرر العبد ، وإنما يكون لحكمة أخرى ، يكون فيها سعادة العبد ، فإنه لولا المكر الخفي لما صح تكليف ، ولا طلب جزاء ، فإنه من مكر الله المحمود في الممكور به ، تكليف الله إياه الأعمال والسمع والطاعة له فيما كلف به ، والأمر يعطي في نفسه أن الأعمال خلق لله في العبد ، وأن الله لا يكلف نفسه ، وليس العامل إلا هو وهذا قد شعر به بعض الناس ، وأقاموا على العمل وثابروا عليه ، أعني عمل الخيرات ــ **نصيحة** ــ من اعتمد على غير الحق ، جعل نصرته فيه مكراً من حيث لا يشعر .

فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَـٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيۡنَـٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَـٰهَا مِنَ ٱلۡغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾

« قل الحمد لله » اعلم أن الحمد والمحامد هي عواقب الثناء ، ولهذا يكون آخراً في

الأمور ، كما ورد أن آخر دعواهم (أن الحمد لله رب العالمين) وقوله ﷺ في الحمد : إنَّها تملأ الميزان ، أي هي آخر ما يجعل في الميزان ، وذلك لأن التحميد يأتي عقيب الأمور ، ففي السراء يقال : الحمد لله المنعم المفضل ، وفي الضراء يقال : الحمد لله على كل حال ؛ والحمد هو الثناء على الله ، وهو على قسمين ، ثناء عليه بما هو له ، كالتسبيح والتكبير والتهليل ، وثناء عليه بما يكون منه ، وهو الشكر على ما أسبغ من الآلاء والنعم ، وله العواقب فإن مرجع الحمد ليس إلا إلى الله ، فإنه المُثْني على العبد والمثنى عليه ، وهو قوله ﷺ : [أنت كما أثنيت على نفسك] وهو الذي أثنى به العبد عليه ، فرد الثناء له من كونه مثنياً اسم فاعل ، ومن كونه مثنياً عليه اسم مفعول ، فعاقبة الحمد في الأمرين له تعالى . وتقسيم آخر ، وهو أن الحمد يرد من الله مطلقاً ومقيداً في اللفظ ، وإن كان مقيداً بالحال ، فإنه لا يصح في الوجود إطلاق فيه ، لأنه لابد من باعث على الحمد ، وذلك الباعث هو الذي قيده وإن لم يتقيد لفظاً ، كأمره في قوله تعالى : « قل الحمد لله » فلم يقيد ، وأما المقيد فلابد أن يكون مقيداً بصفة فعل ، كقوله (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) وكقوله (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) (والحمد لله فاطر السموات) وقد يكون مقيداً بصفة تنزيه ، كقوله (الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً). واعلم أن الحمد لما كان يعطي المزيد للحامد ، علمنا أن الحمد بكل وجه شكر ، كذلك ما أعطى المزيد من الأذكار فهو شكر ، فهو حمد كله ، لأنه ثناء على الله ، ولا نحمده إلا بما أعلمنا أن نحمده به ، فحمده مبناه على التوقيف ، وقد خالفنا في ذلك جماعة من علماء الرسوم ، لا من العلماء الإلهيين ، فإن التلفظ بالحمد على جهة القربة لا يصح إلا من جهة الشرع ، فلا يتمكن أن يقال على جهة القربة وإن عقل أنه خير إلا حتى يقول الحق اذكروني ، فإما أن يطلق بكل ذكر ينسب إليه الحسن في العرف ، وهو من مكارم الأخلاق ، وإما أن يقيده فيعين ذكراً خاصاً فالثناء على الله بما هو فاعل ثناء عرفي يثني به المخلوق على الخالق ، ما لم ينه عنه إذا كان ذلك الثناء مما يعظم في العالم ، فقد يكون من حيث ما هو فاعل وليس بعظيم في العالم ، فإذا ذكر بما هذا مثله نُكِر ، ومثاله أن يقول : الحمد لله خالق كل شيء ، فيدخل فيه كل مخلوق معظّم ومحقّر ، ومثال المعظم في العرف أن تقول : الحمد لله الذي خلق السموات ، ومثل ذلك ، ولا ينبغي أن يعين في الثناء خلق المحقر عرفاً ، والمستقذر طبعاً ، وإن دخل في عموم كل

شيء ، ولكن إذا عين لا يقتضيه الأدب بل ينسب مُعيِّنه إلى سوء الأدب ، أو فساد العقيدة ، مع صحة ذلك ، والكل منه ونعمته ، ولولا حقارة ذلك بالعرف لم نقل به ، فإني ما أرى شيئاً ليس عندي بعظيم ، لأني أنظر بعين اعتناء الله به حيث أبرزه في الوجود ، فأعطاه الخير ، فليس عندنا أمر محتقر ، فالكل نعمته ظاهرة وباطنة ، فظاهرة ما شوهد مِنْها ، وباطنة ما علم ولم يشهد ، وظاهرة التعظيم عرفاً ، وباطنة التعظيم عند أهل الله وأهل النظر المستقيم مما ليس بعظيم في الظاهر « وسلام على عباده الذين اصطفى » الاصطفاء لا يكون إلا بعد الخلق ، فإنه ما كل خلق مصطفى ، كما أنه ما كل مصطفى نبي ، وكل نبي مصطفى ، والمصطفون بمنزلة الصفي من المغنم ، وهم نصيب الحق من الخلق .

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

إن المضطر هو الذي دعا ربه عن ظهر فقر إليه ، وما منع الناس الإجابة من الله في دعائهم إياه إلا كونهم يدعونه عن ظهر غنى ، لالتفاتهم إلى الأسباب وهم لا يشعرون ، وينتجه عدم الإخلاص . والمضطر المضمون له الإجابة مخلِص مخلَص ، ما عنده التفات إلى غير من توجه إليه ، فمن دعا عقيب عبودية الاضطرار فقمن أن يستجاب له ، فإن الله تعالى قد ضمن الإجابة لمن اضطر في سؤاله ــ **تحقيق** ــ كل مخلوق الاضطرار يصحبه دائماً لأنه حقيقته ، ومع اضطراره فقد كُلِّف ، فالذي ينبغي له أن يقف عندما كُلِّف ، فإن الاضطرار المطلق لا يرتفع عنه ، وإنما يرتفع عنه اضطرار خاص إلى كذا ، فجميع حركات الكون من جهة الحقيقة اضطرارية مجبور فيها ، وإن كان الاختيار في الكون موجوداً نعرفه ، ولكن ثَمَّ علم آخر علمنا به أن المختار مجبور في اختياره ، بل تعطي الحقائق أن لا مختار ، لأنا رأينا

الاختيار من المختار اضطرارياً ، أي لابد أن يكون مختاراً ، فالاضطرار أصل ثابت لا يندفع يصحب الاختيار ، ولا يحكم على الاضطرار الاختيارُ ، فالوجود كله في الجبر الذاتي ، لا أنه مجبور بإجبار من غير ، فإن المُجْبِر للمجبور ـــ الذي لولا جبره لكان مختاراً ـــ مجبور في اختياره لهذا المجبور

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

ـــ **من باب الإشارة** ـــ « أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر » الظلمات : هي الأكوان ، والبر هو الظاهر منها ، والبحر هو الباطن منها ، إشارة إلى المحسوس والمعلوم .

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ

رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

كون القرآن هدى من كُلِّ آية محكمة ، وكل نص ورد في القرآن مما لا يدخله الاحتمال ، ولا يفهم منه إلا الظاهر بأول وهلة ، مثل قوله : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقوله (ولكم في القصاص حياة) وقوله (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وأمثال هذه الآيات مما لا يحصى كثرة « ورحمة للمؤمنين » أما كونه رحمة فلما فيه مما أوجبه الحق على نفسه من الوعد لعباده بالخير والبشرى ، مثل قوله : (لا تقنطوا من رحمة الله) وقوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وكل آية رجاء .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

« وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » فأخبر تعالى أن هذه الدابة تكلمنا ، وذلك أنها إذا خرجت من أجياد ، وهي دابة أهلب كثيرة الشعر ، لا يُعرَف قُبُلها من دبرها ، يقال لها الجساسة ، فتنفخ فَتسِمُ بنفخها وجوه الناس شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ، براً وبحراً ، فيرتقم في جبين كل شخص ما هو عليه في علم الله من إيمان وكفر ، فيقول مَنْ سمته مؤمناً لمن سمته كافراً ، يا كافر أعطني كذا وكذا ، وما يريد أن يقول له ،

فلا يغضب لذلك الاسم ، لأنه يعلم أنه مكتوب في جبينه كتابة لا يمكنه إزالتها ، فيقول الكافر للمؤمن : نعم أو لا في قضاء ما طلب منه ، بحسب ما يقع ، فكلامها المنسوب إليها ما هو في العموم سوى ما وسمت به الوجوه بنفختها ، وإن كان لها كلام مع من يشاهدها أو يجالسها من أي أهل لسان كان ، فهي تكلمه بلسانه من عرب أو عجم ، على اختلاف اصطلاحاتهم ، يعلم ذلك كله ، وقد جاء حديثها في الخبر الصحيح الذي ذكره مسلم في حديث الدجال ، حين دلت تميماً الداري عليه ، وقالت له : إنه إلى حديثك بالأشواق ، وهي الآن في جزيرة في البحر الذي يلي جهة الشمال ، وهي الجزيرة التي فيها الدجال ، ثم أخبر تعالى أن طائفة من العباد لا توقن بذلك وتخرجه بالتأويل عن ظاهره فقال : « إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » أي لا يستقر الإيمان بالآيات التي هذه الآيات منها في قلوبهم ، بل يقبلون ذلك إيماناً ، وطائفة منهم تتأول ذلك على غير الوجه الذي قصد له .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

فكل شيء محكم ، لأنه صنعة حكيم ، ومن هنا نظر مَنْ نظر إلى جمال الكمال ، وهو جمال الحكمة ، فإن العالم خلقه الله في غاية الإحكام والإتقان ــ **إشارة** ــ من خصائص المحمديين من أهل الله ، أهل الأدب ، جلساء الحق على بساط الهيبة ، مع الأنس الدائم ،

الاعتدال والثبات والسكون ، غير أن لهم سرعة الحركات في الباطن في كل نفس « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » .

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾

قال ﷺ : [إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة] وخرج مسلم عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم فقتلوه ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ ، فركب راحلته ، فخطب فقال : [إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسولَهُ والمؤمنين ، ألا وإنها لا تحل لأحد قبلي ، ولن تحل لأحد بعدي ، ألا وإنها أحلت لي ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتي هذه ، وهي حرام ، لا يخبط شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا يلقط ساقطتها ، إلا لمنشد ، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، إما أن يعطى يعني الدية ، وإما أن يقاد أهل القتيل] ـ الحديث ـ فمكّةُ حمى الله وحرمه ، ولا موجود أعظم من الله ، فلا حمى ولا حرم أعظم من حرم الله ولا حماه في الأماكن ، فإن مكة حرمها الله و لم يحرمها الناس .

وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾

اعلم أن التالي إنما سمي تالياً لتتابع الكلام بعضه بعضاً ، وتتابعه يقضي عليه بحرف الغاية ، وهما من وإلى ، فينزل من كذا إلى كذا ، ولما كان القلب من العالم الأعلى قال تعالى فيه (نزل به الروح الأمين على قلبك) وكان اللسان من العالَمِ الأنزل ، والحرف من عالم اللسان ،

ففصل اللسان الآيات وتلا بعضها بعضاً ، فيسمى الإنسان تالياً من حيث لسانه ، فإنه المفصل لما أنزل مجملاً

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ مَكِّيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

لا يتصور المخالف إذا كان الكلام وحياً ، فإن سلطانه أقوى من أن يُقاوم ، وكذلك فعلت أم موسى و لم تخالف ، مع أن الحالة تؤذن أنها ألقته في الهلاك ، و لم تخالف ولا ترددت ولا حكمت عليها البشرية بأن إلقاءه في اليم في تابوت من أخطر الأشياء ، فدل ذلك على أن الوحي أقوى سلطاناً في نفس الموحى إليه من طبعه الذي هو عين نفسه ، وأرشد الحق

تعالى في وحيه هذا إلى أم موسى عليه السلام عند الخوف أن تلقيه من يدها وتخرجه عن حفظها ، فإن الله تعالى يتولاه بحفظه ويبقيه برحمته ، ألا ترى إلى قولِهِ تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا) الآية ، فعند زعم القدرة عليها أُخذت وزالت .

فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

« وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك » فبه قرت عينها بالكمال الذي حصل لها ، وكان قرة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا » وكذلك وقع ، فإن الله نفعهما به عليه السلام .

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » من الهم الذي أصابها ، فإن الله عصمه من فرعون .

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

* وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾

« وحرمنا عليه المراضع » ثم إن الله حرم عليه المراضع حتى أقبل على ثدي أمه فأرضعته ، ليكمل الله لها سرورها به .

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

« فرددناه إلى أمه كي تقر عينها » بتربيته وتشاهد انتشاءه في حجرها « ولا تحزن » .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

إذا ساعد الشيطانَ على الإنسان القدرُ السابق بالفعل فوقع منه الفعل ، ورأى أن ذلك من الشيطان مؤمناً مصدقاً كما قال موسى عليه السلام « هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » فعمل ، تاب إثر وعقيب وقوع الفعل ، والتوبة هنا الندم ، فإنه معظم أركان التوبة ، فقد ورد أن الندم توبة ، فإن الحضور مع الإيمان عند وقوع المخالفة يرد ذلك العمل حياً بحياة الحضور ، يستغفر لفاعله إلى يوم القيامة ، فالشيطان في هذه الحالة يكون قد سعى في تضعيف الخير للعبد وهو لا يشعر ، فإن الحرص أعماه ، ويحور الوبال وإثم تلك المعصية عليه ، وهذا من مكر الله تعالى بإبليس ، فإنه لو علم أن الله يسعد العبد بتلك اللمة من الشيطان سعادة خاصة ما ألقى إليه شيئاً من ذلك ، والأدب يقضي بأمر كلي أن ما حسن عرفاً وشرعاً نسبه العبد للحق ، فأظهر الحق فيه وجلاه للبصائر والأبصار ، وما قبح عرفاً وشرعاً نسبه إلى نفسه إن شاء وأظهر نفسه فيه وجلّاه ، أو نسبه إلى الشيطان إن شاء وأظهر عين الشيطان فيه وجلّاه .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

الظهير المعين ، وهو خبير بمن هو له نصير .

فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾

لما علم موسى عليه السلام قدر النساء ومنزلتهن استأجر نفسه في مهر امرأة عشر سنين ، وأعني بالنساء الأنوثة السارية في العالم ، وكانت في النساء أظهر .

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾

فلو نظرت فيما أنتج الله من الكلام لموسى عليه السلام ، حين خرج ساعياً لأهله لما كانوا يحتاجون إليه من النار ، فبسعيه على عياله واستفراغه ناداه الحق وكلمه في عين حاجته وهي النار ، فإنه عليه السلام قد استفرغه طلب النار لأهله ، وهو الذي أخرجه لما أُمِرَ به من السعي على العيال ، والأنبياء أشد الناس مطالبة لأنفسهم للقيام بأوامر الحق ، فلم يكن في نفسه سوى ما خرج إليه ، فلما أبصر حاجته وهي النار التي لاحت له من الشجرة من جانب الطور الأيمن ناداه الحق من عين حاجته بما يناسب الوقت ــ **إشارة** ــ إن سرت بأهلك ، أي إذا جئت إلى الحق فلا تترك منك مع الكون شيئاً ، بل احضر بجمعيتك ، فلا يكون لك خاطر تفرقة أبداً ، بل يكون مجموع الهم في دخولك على الله تعالى ، وإذا خرجت من عند الحق اترك الكون عنده ، وإخراج بالحق إلى الحق ، فإنك إن سرت بأهلك آنست ناراً ، وكلمك العزيز جهاراً

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

فثبته الخطاب الأول بالنداء لأنه خرج على أن يقتبس ناراً أو يجد على النار هدى ، وهو قوله : (لعلي آتيكم منها بخبر) أي من يدله على حاجته ، فكان منتظراً للنداء ، قد هيأ سمعه وبصره لرؤية النار ، وسمعه لمن يدله عليها فالشجرة ظهر النور فيها للمكَلَّم موسى عليه السلام ، فإنه كان طلب موسى عليه السلام النار لأهله ، ليصلح به عيشهم ، ونودي في شجرة واديه ، من التشاجر ، وهو مقام تداخل المقامات ، لأنه مشهد للكلام ، والكلام متداخل المعاني على كثرتها ، فأشبه الشجرة ، فنودي من الشجرة وفي النار لأنها مطلوبه ، فلا يتغير عليه الحال ، فيسرع بالإجابة من غير انتقال من حال إلى حال ، فإن النار تراءت له متعلقة بالشجرة ، وأهل الكشف الذين يرون الوجود لله بكل صورة ، جعلوا الشجرة هي صورة المتكلم ، كما كان الحق لسان العبد وسمعه وبصره بهويته لا بصفته ، كما يظهر في صورة تنكر ويتحول إلى صورة تعرف ، وهو هو لا غيره ، إذ لا غير ، فما تكلم من الشجرة إلا الحق فالحق صورة شجرة ، وما سمع من موسى إلا الحق فالحق صورة موسى من حيث هو سامع ، كما هو الشجرة من حيث هو متكلم ، والشجرة شجرة وموسى موسى لا حلول ، لأن الشيء لا يحل في ذاته ، فإن الحلول يعطي ذاتين ، وهنا إنما هو حكمان ــ **مسئلة** ــ إن الملائكة إذا تكلم الله بالوحي كأنه سلسلة على صفوان تصعق الملائكة ، ورسول الله ﷺ كان إذا أنزل عليه الوحي كسلسلة على صفوان يصعق ، وهو أشد الوحي عليه ، فينزل جبريل على قلبه فيفنى عن عالم الحس ويرغو ويسجى إلى أن يسرى عنه ، وإنه لينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيتفصد جبينه عرقاً ، وموسى ﷺ كلمه الله تكليماً بارتفاع الوسائط ، وما صعق ولا زال عن حسه ، وقال وقيل له ، وهذا المقام أعظم من مقام الوحي بوساطة الملك ، فهذا الملك يصعق عند الكلام ، وهذا أكرم البشر يصعق عند نزول الروح بالوحي ، وهذا موسى لم يصعق ولا جرى عليه شيء مع ارتفاع الوسائط ، وصعق لذلك الجبل ؟ اعلم أن موسى لما جاءه النداء بأمر مناسب لم ينكره وثبت ، فلما علم أن المنادي ربه وقد صح له الثبوت ، وجاء النداء من خارج لا من نفسه ثبت ليوفي الأدب حقه في

الاستماع ، فإنه لكل نوع من التجلي حكم ، وحكم نداء هذا التجلي التهيؤ لسماع ما يأتي به ، فلم يصعق ولا غاب عن شهوده ، فإنه خطاب مقيد بجهة ، مسموع بأذن ، وخطاب تفصيلي ، فالمثبت للإنسان على حسه وشهود محسوسه قلبه المدبر لجسده ، ولم يكن لهذا الكلام الإلهي الموسوي توجه على القلب ، فليس للقلب هنا إلا ما يتلقاه من سمعه وبصره وقواه حسبما جرت به العادة ، فلم يتعد الحال حكمه في موسى عليه السلام ، وأما أمر محمد ﷺ فهو نزول قلبي وخطاب إجمالي كسلسلة على صفوان ، فاجعل بالك لهذا التشبيه ، فاشتغل القلب بما نزل إليه ليتلقاه ، فغاب عن تدبير بدنه ، فسمي ذلك غشياً وصعقاً ، وكذلك الملائكة .

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾

هارون عليه السلام نبي بحكم الأصل ، وأخذ الرسالة بسؤال أخيه موسى عليه السلام ـــ **إشارة** ـــ لا تطلب رِدْءاً سواه ، فمَنْ توكّل على الله كفاه ، اطلب الردء من جنسك ، فإنه قد شاء أن يكون أقوى لنفسك ـــ فلا تطلب ردْءاً سواه ، أي معيناً ، واطلب الردْءَ من جنسك ، لخور الطبع ، فإذا كنت في مقام لا تقوى فيه على ما يقتضيه المقام الأول ، فانزل إلى المقام الثاني ، فهو بمنزلة قوله عليه السلام : [اعقلها وتوكل] ليكون القلب مطمئناً

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾

لما كان عند فرعون علم بالله ، لكن الرياسة وحبها غلب عليه في دنياه قال « ما علمت لكم » ولم يقل (ما عَلِمْتُ للعالم) لما علم أن قومه يعتقدون فيه أنه إله لهم ، فأخبر بما هو الأمر عليه وصدق في إخباره بذلك ، فإنه علم أنه ليس في علمهم أن لهم إلهاً غير فرعون ، لذلك قال « من إله غيري » أي في اعتقادكم ، وهو على أي حال قد تكبر على الله ، فإنه ادعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله بقوله لقومه (أنا ربكم الأعلى) وما في علمي أن أحداً يقع منه هذا القول وهو يجوع ويغوط وأمثال هذا إلا فرعون لمّا استخف قومه « فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى » ولم يقل إلى الله الذي يدعو إليه موسى عليه السلام ، فإن الله عصم لفظ الله أن يطلق على أحد وما عصم إطلاق إله فجعل قوله « ما علمت لكم من إله غيري » ظناً بعد شك أو إثباتاً في قوله : « لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين » .

وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ

﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾

فإن قيل كيف جعلهم أئمة وقد قال لإبراهيم عليه السلام لما سأله (ومن ذريتي) قال تعالى له (لا ينال عهدي الظالمين)؟ فاعلم أن من نصبه الناس إماماً فأئمتهم رجلان : ظالم وعادل ، فالعادل هو الذي يقوم فيهم بسنة نبيهم وهديه ، ويسلك بهم أوامر الحق المشروع لهم من عند الله ، وهم أئمة الهدى الذين يأمرون بالقسط من الناس فهم ممن ينال عهد الله ، وطائفة أخرى نصبهم الناس فظلموا وضلوا وأضلوا وعدلوا عن الحق ، فهؤلاء الذين لم ينالوا عهد الله بحكم تعيينهم بالأمر بالتقدم ، ولكن قال تعالى فيهم « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » بقضائنا لا بأمرنا « ويوم القيامة لا ينصرون » .

وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾

فإنه ليس حكم من شاهد الأمور حكم من لم يشاهدها إلا بالإعلام ، فللعيان حال لا يمكن أن يعرفه إلا صاحب العيان ، كما أن للعلم حالاً لا يعرفه إلا أولو العلم .

وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

« وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » موسى عليه السلام .

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

« وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » لما يئسوا من إرشادهم وفلاحهم سلموا الأمر إليه ، واشتغلوا بما يزلفهم لديه ، فأعرضوا شرعاً وسلموا حقيقة ، فأثنى الحق تعالى عليهم لنقتدي بهم ونعرف أنا إذا سلكنا مسلكهم كان لنا نصيب من ذلك الثناء .

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

لقد حرص رسول الله ﷺ بعمه أبي طالب أن يؤمن فلم يفعل ، ونفذت فيه سابقة علم الله وحكمه ، وقال تعالى لنبيه ﷺ « إنك لا تهدي من أحببت » المقصود بالهدى هنا الهدى التوفيقي ، وما توفيقي إلا بالله ، لا الهدى بمعنى البيان ، فالهدى التوفيقي « ولكن الله يهدي من يشاء » وهو الذي يعطي السعادة لمن قام به ، فهو اختصاص من الله (يختص برحمته من يشاء « وهو أعلم بالمهتدين » أي بالقابلين للتوفيق ــ **تحقيق** ــ لا يصح أن يكون كلام الإنسان مؤثراً في الأشياء مطْلَقاً في هذه الدار ، بل محله الجنان ، فإنه لا أكبر من محمد ﷺ وقد قال لعمه أبي طالب : قل لا إله إلا الله ، فما ظهرت عن نشأة أمره (لا إله إلا الله) في محل المأمور ، وإن كان على بصيرة فيه ، ولكنه مأمور أن يأمر ، وهو حريص على الأمة ، فكان قوله تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت » أي إنك لا تقدر على من تريد أن تجعله محلاً لظهور ما تريد إنشاءه فيه أن يكون محلاً لوجود إنشائك فيه ، فقد كان ﷺ يقول لعمه : قل لا إله إلا الله في أذني أشهد لك بها عند الله ؛ وهو يأبى .

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

« أوَ لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا » لا من الجهات ، فإن الحق ما أضاف الرزق إلى غيره مع قوله تعالى : « ثمرات كل شيء » فعمَّ ، ولم يقل ذلك في غير مكة « ولكن أكثرهم لا يعلمون » نسبوها إلى الجهات وما ذكروا الحق .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم

مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

احذر من فتنة الحياة الدنيا وزينتها ، وفرق بين زينة الله وزينة الشيطان وزينة الحياة الدنيا ، إذا جاءت الزينة مهملة غير منسوبة فإنك لا تدري مَنْ زيّنها لك ، فانظر ذلك في موضع آخر واتخذه دليلاً على ما انبهم عليك ، مثل قوله (زينا لهم أعمالهم) ومثل قولهم (أفمن زين له سوء عمله) و لم يذكر من زينه ، فتستدل على مَنْ زيّنه من نفس العمل ، فزينة الله غير محرمة ، وزينة الشيطان محرمة ، وزينة الدنيا ذات وجهين : وجه إلى الإباحة والندب ، ووجه إلى التحريم ، والحياة الدنيا وطن الابتلاء ، فجعلها الله حلوة خضرة ، واستخلف فيها عباده ، فناظر كيف يعملون فيها ، بهذا جاء الخبر النبوي ، فاتق فتنتها وميّز زينتها وقل رب زدني علماً ، « وما عند الله خير وأبقى » وما عند الله إلا العالَمُ فهو خير وأبقى ، من حيث أنه أعطى العلم بنفسه للعالِم به ، أي من حيث أن العِلْمَ تابع للمعلوم ، وهو حكم لا يزال باقياً ، فإن العلم تابع للمعلوم في الحادث والقديم ، فأعيان العالم محفوظون في خزائنه عنده ، وخزائنه علمه ، ومختزنه نحن ، فنحن أثبتنا له حكم الاختزان ، لأنه ما علمنا إلا منا ، ـ **تحقيق** ـ الزاهد في الدنيا مال إلى قوله : « وما عند الله خير وأبقى » والعارف مال إلى قوله تعالى : (والله خير وأبقى) .

أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ

﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾

« وربك يخلق » أي يُقدّر ويوجد « ما يشاء » لو كان وجود العالم لذات الحق لا للنسب الإلهية لكان العالم مساوقاً للحق في الوجود ، وليس كذلك ، فالنسب حكم لله أزلاً ، وهي تطلب تأخر وجود العالم عن وجود الحق ، فيصح حدوث العالم ، وليس ذلك إلا لنسبة المشيئة التي هي مفتاح الغيب ، وسَبْق العلم بوجوده ، فكان وجود العالم مُرَجّحاً على عدمه ، والوجود المرجح لا يساوق الوجود الذاتي الذي لا يتصف بالترجيح ، فكل ما سوى الحق عرض زائل وغرض مائل وإن اتصف بالوجود ، فهو في نفسه في حكم المعدوم « ويختار » كذا فعل سبحانه في جميع الموجودات ، فاختار من كل أمر في كل جنس أمراً ما ، كما اختار من الأسماء الحسنى كلمة الله ، واختار من الناس الرسل ، واختار من العباد الملائكة ، واختار من الأفلاك العرش ، واختار من الأركان الماء ، واختار من الشهور رمضان ، واختار من العبادات الصوم ، واختار من القرون قرن النبي ﷺ ، واختار من أيام الأسبوع يوم الجمعة ، واختار من أحوال السعادة في الجنة الرؤية ، واختار من الأحوال الرضى ، واختار من الأذكار لا إله إلا الله ، واختار من الكلام القرآن ، واختار من سور القرآن يس ، واختار من آي القرآن آية الكرسي ، واختار من قصار المفصل : قل هو الله أحد ، واختار من أدعية الأزمنة دعاء عرفة ، واختار من المراكب البراق ، واختار من الملائكة الروح ، واختار من الألوان البياض ، واختار من الأكوان الاجتماع ، واختار من الإنسان القلب ، واختار من الأحجار الحجر الأسود ، واختار من البيوت البيت المعمور ، واختار من الأشجار السدرة ، واختار من النساء مريم وآسية ، واختار من الرجال محمداً ﷺ ، واختار من الكواكب الشمس ، واختار من الحركات الحركة المستقيمة ، واختار من النواميس الشريعة المنزلة ، واختار من البراهين البراهين الوجودية ، واختار من الصور الصورة الآدمية ، لذلك أبرزها على الصورة الإلهية ، واختار من الأنوار ما يكون معه النظر ، واختار من النقيضين الإثبات ، ومن الضدين الوجود ، واختار الرحمة على الغضب ، واختار

من أحوال أفعال الصلاة السجود ، ومن أقوالها ذكر الله ، واختار من أصناف الإرادات النية ، والتحقيق أنه ما ثَمَّ حثالة ولا كناسة فإن ربك يخلق ما يشاء ويختار ، والمختار هو المصطفى ، فالنفوس نفايس ، فيختار الأنفس ويبقي النفيس ، فهذا ما كان من اختيار الله ــ **الوجه الأول** ــ « ما كان لهم الخيرة » بل هي لله ، والله فعال لما يريد ، فنفى أن تكون لهم الخيرة ، وعندنا أن [ما] هنا اسم ، وهو في موضع نصب على أنه مفعول بقوله : ويختار الذي كان لهم الخيرة ، يعني فيه ، فإذا علم العبد ذلك سلّم الحكم فيه لله واستسلم ، وكان بحكم وقت ما يمضيه الله فيه ، لا بحكم ما يختاره لنفسه في المنشط والمكره ، ويرى أن الكل له فيه خير ، فيعامله الله في كل ذلك بخير ، فإن كان وقته يعطي نعمة ــ وكان عقده مع الله مثل هذا ــ رزقه الشكر عليها والقيام بحق الله فيها وأعين عليها ، وإن كان بلاءً رُزِق الصبر عليه والرضا به وجعل الله له مخرجاً من حيث لا يحتسب ، فإذا اقتضى الحق أمراً وكان له بك عناية أجراه عليك ورزقك القيام بحقه ــ **الوجه الثاني** ــ لا ينبغي للعبد أن يكون له اختيار مع سيده قال تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » فيما يختاره لهم ، فليس لهم أن يختاروا ، بل يقفون عند المراسم الشرعية ، فإن الشارع هو الله تعالى ــ **تحقيق الجبر والاختيار** ــ العبد مجبور في اختياره ، ومع أن الله فاعل مختار فإن ذلك من أجل قوله : ويختار ، وقوله : ولو شئنا ، ولا يفعل إلا ما سبق به علمه ، وتبدل العلم محال ، وما رأيت أحداً تفطن لهذا القول الإلهي ، فإن معناه في غاية البيان ، ولشدة وضوحه خفي ، فإنه سر القدر ، ومن وقف على هذه المسئلة لم يعترض على الله في كل ما يقضيه ويجريه على عباده وفيهم ومنهم ، ولهذا قال : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فالعبد مجبور في اختياره الذي ينسب إليه ، وهو أصل يشمل كل موجود ، لا أحاشي موجوداً من موجود ــ **نسبة الاختيار إلى الحق تعالى** ــ يستحيل عندنا أن ينسب الجواز إلى الله تعالى حتى يقال : يجوز أن يغفر الله لك ويجوز أن لا يغفر الله لك ، ويجوز أن يخلق ويجوز أن لا يخلق ، هذا على الله محال ، لأنه عين الافتقار إلى المرجح لوقوع أحد الجائزين ، وما ثَمَّ إلا الله ، وأصحاب هذا المذهب قد افتقروا إلى ما التزموه من هذا الحكم إلى إثبات الإرادة حتى يكون الحق يرجح بها ، ولا خفاء بما في هذا المذهب من الغلط ، فإنه يرجع الحق محكوماً عليه بما هو زائد على ذاته ، وهو عين ذات أخرى ، وإن لم يقل فيها صاحب هذا المذهب إن تلك الذات

الزائدة عين الحق ولا غير عينه ، فالذي نقول به : إن هذه العين المخلوقة من كونها ممكنة تقبل الوجود وتقبل العدم ، فجائز أن تخلق فتوجد ، وجائز أن لا تخلق فلا توجد ، فإذا وجدت فبالمرجِّح وهو الله ، وإذا لم توجد فبالمرجِّح وهو الله ، يستقيم الكلام ويكون الأدب مع الله أتم ، بل هو الواجب أن يكون الأمر كما قلنا ، وأما احتجاجهم بقوله : (لو شاء الله) و (لو أراد الله) فهو عليهم هذا الاحتجاج لا لهم ، لزومية أن لو حرف امتناع لامتناع ولولا حرف امتناع لوجود ، فالإمكان للممكن هو الحكم الذي أظهر الاختيار في المرجَّح والذي عند المرجِّح أمر واحد ، وهو أحد الأمرين لا غير ، فما ثَمَّ بالنظر إلى الحق إلا أحدية محضة لا يشوبها اختيار ، ألا تراه يقول تعالى : لو شاء كذا لكان كذا ؛ فما شاء فما كان ذلك ، فنفى عن نفسه تعلق المشيئة ، فنفى الكون عن ذلك المذكور ، فالاختيار تعلق خاص للذات أثبته الممكن لإمكانه في القبول لأحد الأمرين على البدل ، ولولا معقولية هذين الأمرين ومعقولية القبول من الممكن ما ثبت للإرادة ولا للاختيار حكم ، فإن المشيئة الإلهية ما عندها إلا أمر واحد في الأشياء ، ولا تزال الأشياء على حكم واحد معيَّن من الحكمين ، فمشيئة الحق في الأمور عين ما هي الأمور عليه فزال الحكم ، فإن المشيئة إن جعلتها خلاف عين الأمر فإما أن تتبع الأمر وهو محال ، وإما أن يتبعها الأمر ، وهو محال ، وبيان ذلك أن الأمر هو أمر لنفسه كان ما كان ، فهو لا يقبل التبديل ، فهو غير مشاء بمشيئة ليست عينه ، فالمشيئة عينه ، فلا تابع ولا متبوع ، فتحفظ من الوهم ، فمحال على الله الاختيار في المشيئة ، لأنه محال عليه الجواز ، لأنه محال أن يكون لله مرجح يرجح له أمراً دون أمر ، فهو المرجح لذاته ، فالمشيئة أحدية التعلق لا اختيار فيها ، ولهذا لا يعقل الممكن أبداً إلا مُرَجَّحاً ، ولذلك أقول بالحكم الإرادي لكني لا أقول بالاختيار ، فإن الخطاب بالاختيار الوارد إنما ورد من حيث النظر إلى الممكن معرى عن علته وسببيته ــ **نصيحة** ــ لا يثبت العبد لنفسه ما نفاه الحق عنه ، ويختار ما لم يختره له الحق .

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

هذا هو التوحيد الثالث والعشرون في القرآن ، وهو توحيد الاختيار (وربك يخلق ما يشاء ويختار) وهو من توحيد الهوية ، فإن الدليل يعطي أن لا يكون في العالم تفاضل ، ولا مختار يفضل عند الله غيره من حيث نسبة العالم إلى الله ، فإن نسبته واحدة ، ورأينا الأمر على غير هذا خرج ، وفي القرآن كثير من تفضيل كل جنس بعضه على بعض ، حتى القرآن وهو كلام الله يفضل على سائر الكتب المنزلة وهي كلام الله ، والقرآن نفسه يفضل بعضه على بعض مع نسبته إلى الله أنه كلامه بلا شك ، فآية الكرسي سيدة آي القرآن ، وهي قرآن ، فعلمنا من هذا أن الحكمة التي يقتضيها النظر العقلي ليْسَت بصحيحة ، وأن حكمة الله في الأمور هي الحكمة الصحيحة التي لا تعقل ، وإن كانت لا تعلم فما تجهل ، لكن لا تعيّن بمجرد فكر ولا نظر ، فلما رأينا التفاضل والاختيار وقع في العالم حتى في الأذكار الإلهية المشروعة كما ذكرنا ، علمنا أن ثَمَّ أمراً معقولاً ما هو عين أعيان الكائنات ، فإذا بذلك عين المشيئة ، فيها ظهر هذا التفضيل في الواحد ، والتفضيل في المتساوي ، والواحد لا يتصف بالتفضيل ، والمتساوي لا ينعت بالتفضيل ، فعلمنا أن سر الله مجهول لا يعلمه إلا هو ، فوجدناه توحيد الاختيار في حضرة السر « لا إله إلا هو له الحمد في الأولى » وهو حمد الإجمال « والآخرة » وهو حمد التفصيل ، فتميزت المحامد في العين الواحدة فكان حمدها عينها « وله الحكم وإليه ترجعون » أي الحكم وهو القضاء ، فالضمير في « إليه » يعود على الحكم ، فإنه أقرب مذكور ، فلا يعود على الأبعد ويتعدى الأقرب إلا بقرينة حال ، هذا هو المعلوم في اللسان الذي أنزل به القرآن فالقضاء الذي له المضي في الأمور هو الحكم الإلهي على الأشياء بكذا ، والقدر ما يقع بوجوده في موجود معين المصلحة المتعدية منه إلى غير ذلك الموجود ، فالقضاء يحكم على القدر ، والقدر لا حكم له في القضاء ، بل حكمه في المقدر لا غير بحكم القضاء ، فالقاضي حاكم والمقدّر مؤقت ، ولما أوجد سبحانه كتابين من كونه سبحانه خلق من كل شيء زوجين ، فالقضاء وهو الحكم للكتاب الأول وهو الأم ، ويطلبه حكم الكتاب الثاني وهو القدر الذي به تقوم الحجة ، « وله الحكم » بالكتاب الأول « وإليه » إلى هذا الكتاب « ترجعون » .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ

إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

« ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه » فأعاد الضمير على الليل « ولتبتغوا من فضله » يريد في النهار ، فأضمر لما يتضمنه النهار غالباً من الحركات في المعاش وقوام النفوس ومصالح الخلق وتنفيذ الأوامر وإظهار الصنائع وإقامة المصنوعات في نشأتها وتحسين هيئاتها ، وإن كان الضميران يعودان على المعنى المقصود ، فقد يعمل الصانع بالليل ويبيع ويشتري بالليل ، كما أنه ينام أيضاً ويسكن بالنهار ، ولكن الغالب في الأمور هو المعتبر .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

« فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون » فعلموا أنهم كانوا من الذين لا يعلمون .

إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

« إن الله لا يحب الفرحين » ــ **الوجه الأول** ــ هذا ليس نهياً من الله تعالى وإنما حكى الله نهي قوم قارون له ، وهو فرح خاص من شأن النفوس أن تفرح به ، وأن الله لا يحب الفرح بذلك الفرح ، ومن فرح بهذا الأمر المعيّن مثل جمعه المال الذي يتركه بالموت في الدنيا ولا يقدمه عاد فرحه بذلك ترحاً ، فحزن لفرحه على قدر فرحه ، فإن كان عظيماً عظم

حزنه ، وإن كان دون ذلك كان الحزن والترح بحسبه ــ **الوجه الثاني** ــ الحزن إذا فقد من القلب في الدنيا خرب لحصول ضده ، إذ لا يخلو ، والدار الدنيا لا تعطي الفرح لما فيه من نفي المحبة الإلهية عمن قام به ، فلا يزال الحزن دائماً أبداً ، وهو مقام مستصحب للعبد ما دام مكلفاً وفي الآخرة ما لم يدخل الجنة ، فإنه ليس في الوسع الإمكاني تحصيل جملة الأمر ، فلابد من فَوْت فلابد من حزن .

الحزن مَرْكبه صعب وغايته	ذهابه فَوَلِّي الله مَنْ حزنا
قلب الحزين هنا تقوى قواعده	هناك والغرض المقصود منك هنا
دار التكاليف دار ما بها فرح	فالله ليس يحب الفارح اللسنا

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

« وأحسن كما أحسن الله إليك » الإحسان الذي يسمى به العبد محسناً هو أن يعبد الله كأنه يراه ، أي يعبده على المشاهدة ، وإحسان الله هو مقام رؤيته عباده في حركاتهم وتصرفاتهم ، فشهوده لكل شيء هو إحسانه ، فإنه بشهوده يحفظه من الهلاك ، فكل حال ينتقل فيه العبد فهو من إحسان الله ، إذ هو الذي نقله تعالى ، ولهذا سمي الإنعام إحساناً ، فإنه لا يُنعِم عليك بالقصد إلا مَنْ يَعْلَمُك ، ومَنْ كان علمه عَيْنَ رؤيته فهو محسن على الدوام ، فإنه يراك على الدوام لأنه يعلمك دائماً ، ولما كان سعي الإنسان في حق الغير إنما يسعى لنفسه في نفس الأمر ، لذا أُمِر بالإحسان ، فما زاد على ما يقوتُكَ ويقوت من كلفك الله السعي عليه مما فتح الله به عليك فأوصله إنعاماً منك إلى مَنْ شئت ، ممن تعلم منه أنه يستعمله في طاعة الله ، فإن جهلت فأوصله إلى مَنْ شئت ، فإنك لن تخيب من فائدته من كونك منعماً بما سمي مِلْكاً لك ، فأنت فيه كَربِّ النعمة ، فأنت نائبه وخليفته ، وقد رزق النبات والحيوان والطائع والعاصي ، فكن أنت كذلك ، وتحرى الطائع جهد استطاعتك ، فإن ذلك أوفر لحظك وأعلى ، وفي حقك أولى وأثنى « ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » الفساد هنا المراد به تغيير الحكم الإلهي ، لا تغيير العين ولا إبدال الصورة .

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

« تلك الدار الآخرة » يريد دار السعادة ، فإن في الآخرة منزل شقاوة ومنزل سعادة ، فالدار الآخرة هنا الجنة خاصة دون النار « نجعلها » اي نملكها مُلْكاً « للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » سواء حصل لهم ذلك المراد أو لم يحصل ، فقد أرادوه وحصل في نفوسهم ، فإن الأرض قد جعلها الله ذلولاً والعبد هو الذليل ، والذلة لا تقتضي العلو ، فمن جاوز قدره هلك ، فليس للعبد أن يتصف بأوصاف سيده لا في حضرته ولا عند إخوانه من العبيد وإن ولاه عليهم ، فالرب رب إلى غير نهاية ، والعبد عبد إلى غير نهاية ، فإن الصفات النفسية لا تكون مرادة للموصوف فيها ، فمن علا بغيره و لم يَكُنْ له حافظ يحفظ عليه علوه سقط وقوتل ، فالعالي من أعلى الله منزلته ، ولما كانت

الرفعة من الله ـــ الذي له العلو الذاتي ـــ حفظ على كل من أعلى الله منزلته علوه ، ومن علا بنفسه من الجبارين والمتكبرين قصمه الله وأخذه للكبرياء الذي كان عليه في نفسه ، ولهذا قال : « والعاقبة للمتقين » ، أي عاقبة العلو الذي علا به من أراد علواً في الأرض يكون للمتقين ، أي يعطيهم الله العلو في المنزلة في الدنيا والآخرة ، فأما في الآخرة فأمر لازم لابد منه ، لأن وعده صدق وكلامه حق ، والدار الآخرة محل تميز المراتب وتعيين مقادير الخلق عند الله ومنزلتهم منه تعالى ، فلابد من علو المتقين يوم القيامة ، وأما في الدنيا فإنه كل من تحقق صدقه في تقواه وزهده ، فإن نفوس الجبارين والمتكبرين تتوفر دواعيهم إلى تعظيمه ، لكونهم ما زاحموهم في مراتبهم ، فأنزلهم ما حصل في نفوسهم من تعظيم المتقين عن علوهم وقصدوا خدمتهم والتبرك بهم ، وانتقل ذلك العلو الذي ظهروا به إلى هذا المتقي ، وكان عاقبة العلو للمتقي والجبار لا يشعر ، ويلتذ الجبار إذا قيل فيه إنه قد تواضع ونزل إلى هذا المتقي ، فيتخيل الجبار أن المتقي هو الأسفل وأن الجبار نزل إليه ، بل علو الجبار انتقل إلى المتقي من حيث لا يشعر ، ونزل الجبار تحت علو هذا المتقي ، ولو سئل المتقي عن علوه ما وجد عنده منه شيء ، فثبت أن العلو في الإنسان إنما هو تحققه بعبوديته ، وعدم خروجه واتصافه بما ليس له بحقيقة ، فاحذر يا ولي أن تريد علواً في الأرض فإن مَنْ أراده أراد الولاية ، وقال عليه السلام : [إنها يوم القيامة حسرة وندامة] ، والزم الخمول وإن أعلى الله كلمتك فما أعلى إلا الحق ، وإن رزقك الرفعة في قلوب الخلق ، فذلك إليه عز وجل ، والذي يلزمك التواضع والذلة والانكسار ، فإنه إنما أنشأك من الأرض فلا تعلو عليها فإنها أمك ، ومن تكبر على أمه فقد عقّها ، وراقب الله فيما أعطاك ، من رفعة في الأرض ، بولاية وتَقَدُّمٍ تُخْدَم من أجله وُيغْشَى بابك ويُلْزَم ركابك ، فلا تبرح ناظراً لعبوديتك وأصلك ، واعلم أن تلك الرفعة إنما هي للرتبة والمنصب لا لذاتك ، فالذي أوصيك به أنك لا تريد علواً في الأرض ، وإن أعطاك الله لا تطلب أنت من الله إلا أن تكون في نفسك صاحب ذلة ومسكنة وخشوع .

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

« من جاء بالحسنة فله خير منها » وهو عشر أمثالها « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » قال ﷺ : [إنما هي أعمالكم ترد عليكم] .

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

« فلا تكونن ظهيراً للكافرين » أي معيناً للكافرين .

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

تفسير هذه الآية من وجوه ، وذلك راجع إلى الضمير في قوله تعالى : « إلا وجهه » فإنه من وجه يعود على الشيء ، ومن وجه يعود على الحق ، فمن الوجه الذي يعود فيه الضمير على الحق يقول تعالى : « ولا تَدْعُ مع الله إلهاً آخر » نهى تعالى أن يدعو مع الله إلهاً ، فَنَكَّرَ المنهي عنه ، إذ لم يكن ثَمَّ ، إذ لو كان ثَمَّ لتعين ، ولو تعين لم يتنكر ، فدل على أنه من دعا مع الله إلهاً آخر فقد نفخ في غير ضرم ، واستسمن ذا ورم ، وكان دعاؤه لحماً على وضم ، ليس له متعلق يتعين ، ولا حق يتضح ويتبين ، فكان مَدْلولُ دعائه العدم المحض ، فلم يبق إلا مَنْ له الوجود المحض « لا إله إلا هو » « كل شيء هالك » فكل شيء يتخيل فيه أنه شيء هالك في عين شيئيته عن نسبة الألوهية إليه لا عن شيئيته « إلا وجهه » فوجه الحق باق ، وهو ذو الجلال والإكرام والآلاء الجسام ، فالحق الخالص من كان في ذاته يُعلَم فلا يُجهَل ، ويُجْهَلُ فلا يُحَاط به علماً ، فعُلِم من حيث أنه لا يحاط به علماً ، وجُهِل من حيث أنه لا يحاط به علماً ، فعُلِمَ من حيث جُهِل ، فالعلم به عين الجهل به ، فإذا علمنا أن الحقيقة واحدة دونَ

أن تنسب إلى قديم أو حديث ، نقول : جعل الله نفسه عين كل شيء بقوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » لأن السبحات له ، فهي مهلكة ، والمهلك لا يكون هالكاً ، فكل شيء هو موجود تشاهده حساً وعقلاً ليس بهالك ، لأن وجه الشيء حقيقته ، فما في الوجود إلا الله ، فما في الوجود إلا الخير وان تنوعت الصور ، فكل ما ظهر فما هو إلا هو ، لنفسه ظهر ، فما يشهده أمر ولا يُكثّره غير ، ولذلك قال : « له الحكم وإليه ترجعون » أي من يعتقد أن كل شيء جعلناه هالكاً ، وما عرف ما قصدناه إذا رآه ما يهلك ، ويرى بقاء عينه مشهوداً له دنيا وآخرة ، علم ما أردنا بالشيء الهالك ، وأن كل شيء لم يتصف بالهلاك فهو وجهي ، فعلم أن الأشياء ليست غير وجهي فإنها لم تهلك ، فرد حكمها إلي ، فهذا معنى قوله : « وإليه ترجعون » وهو معنى لطيف يخفى على من لم يستظهر القرآن ، فالعالم لم يزل مفقود العين هالكاً بالذات في حضرة إمكانه ، وأحكامه يظهر بها الحق لنفسه بما هو ناظر من حقيقة حكم ممكن آخر ، فالعالم هو الممد بذاته ما يظهر في الكون من الموجودات ، وليس إلا الحق لا غيره ، وبعبارة أخرى « له الحكم » وهو ما ظهر في عين الأشياء ، ثم قال : « وإليه ترجعون » أي مردكم من كونكم أغياراً إليّ ، فيذهب حكم الغير ، فالأحكام في الحق صور العالم كله ، ما ظهر منه وما يظهر ، والأحكام منه ولهذا قال : « له الحكم » ثم يرجع الكل إلى أنه عينه ، فهو الحاكم بكل حكم في كل شيء حكماً ذاتياً لا يكون إلا هكذا ، فسمى نفسه بأسمائه ، فحكم عليه بها ، وسمى ما ظهر به من الأحكام الإلهية في أعيان الأشياء يميز بعضها عن بعض ، فأعيان العالم لا يقال : إنها عين الحق ولا غير الحق ، بل الوجود كله حق ، ولكن من الحق ما يتصف بأنه مخلوق ، ومنه ما يوصف بأنه غير مخلوق ، لكنه كلّ موجود ، فإنه موصوف بأنه محكوم عليه بكذا ، فالكل محكوم عليه ، كما حكمنا على كل شيء بالهلاك ، وحكمنا على وجهه بالاستثناء من حكم الهلاك ، ومن ذلك يكون وجه الشيء حقيقته ، فالشيء هنا ما يعرض لهذه الذات ، فإن كان للعارض وجه فما يهلك في نفسه ، وإنما يهلك بنسبته إلى ما عرض له ، فكل شيء وهو جميع صور العالم « هالك » موصوف بالهلاك يعني من حيث صوره ، فهو هالك بالصورة للاستحالات ، لأن هالك خبر المبتدأ الذي هو « كل شيء » أي كل ما ينطلق عليه اسم شيء ، فهو هالك في حال اتصافه بالوجود ، كما هو هالك في حال اتصافه بالهلاك الذي

هو العدم ، فلا يزال كل شيء هالك كما لم يزل ، لم يتغير عليه نعت ولا تغير على الوجود نعت ، والموصوف بأنه موجود موجود ، والموصوف بأنه معدوم معدوم ، فإن وُصِفَ الممكن بالوجود فهو مجاز لا حقيقة ، لأن الحقيقة تأبى أن يكون موجوداً ، فإن العدم للممكن ذاتي . أي من حقيقة ذاته أن يكون معدوماً « إلا وجهه » الاستثناء هنا استثناء منقطع ، والضمير في وجهه يعود على الشيء ، ووجهه ذاته وعينه وكونه وحقيقته ، فهي شيئية ذاته ، وهي المستثناة ولابد ، لأن الحقائق لا تتصف بالهلاك ، وإنما يتصف بالهلاك الأمور العوارض للحقائق من نسبة بعضها إلى بعض ، فكل شيء من صور العالم هالك من حيث صورته ، إلا من حقائقه فليس بهالك ، ولا يتمكن أن يهلك ، فهو غير هالك من حيث وجهه وحقيقته ، فتختلف عليه الأحكام باختلاف الصور ، فما ثَمَّ إلا هلاك وإيجاد في عين واحدة ، ومثال ذلك للتقريب ، أن صورة الإنسان إذا هلكت و لم يبق لها في الوجود أثر ، لم تهلك حقيقته التي يميزها الحد ، وهي عين الحد له ، فنقول : الإنسان حيوان ناطق ، ولا نتعرض لكونه موجوداً أو معدوماً ، فإن هذه الحقيقة لا تزال له وإن لم تكن له صورة في الوجود ، فالحقائق في العلم معقولات ، وهي للحق معلومات ، وللحق ولأنفسها معقولات ، ولا وجود لها في الوجود الوجودي ولا في الوجود الإمكاني ، فيظهر حكمها في الحق فتنسب إليه وتسمى أسماءً إلهية ، فينسب إليها من نعوت الأزل ما ينسب إلى الحق ، وتنسب أيضاً إلى الخلق بما يظهر من حكمها فيه ، فينسب إليها من نعوت الحدوث ما ينسب إلى الخلق ، فهي الحادثة القديمة ، والأبدية الأزلية ، فالعالم إن نظرت حقيقته وجدته عرضاً زائلاً ، أي في حكم الزوال ، وهو قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » وقال رسول الله ﷺ : [أصدق بيت قالته العرب قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل] يقول ماله حقيقة يثبت عليها من نفسه ، فما هو موجود إلا بغيره ، ولذلك قال ﷺ : [أصدق بيت قالته العرب : ألا كل شيء ما خلا الله باطل] ــ **وجه آخر** ــ « كل شيء هالك » فإنه لا يبقى حالة أصلاً في العالم كونية ولا إلهية ، وهو قوله تعالى : (كل يوم هو في شأن) « إلا وجهه » يريد ذاته ، إذ وجه الشيء ذاته ، فلا تهلك ، فكل ما سوى ذات الحق فهو في مقام الاستحالة السريعة والبطيئة ، وهو تبدله من صورة إلى صورة دائماً أبداً ، فالضمير في وجهه يعود على الشيء ، فالشيء هالك من حيث صورته ، غير هالكٍ من حيث وجهه

وحقيقته ، وليس إلا وجود الحق الذي ظهر به لِنَفْسه . « له الحكم » أي لذلك الشيء الحكم في الوجه ، فتختلف عليه الأحكام باختلاف الصور « وإليه ترجعون » في ذلك الحكم ، أي إلى ذلك الشيء يرجع الحكم الذي حكم به على الوجه ، فما ثم إلا هلاك وإيجاد في عين واحدة ، ومن هذه الآية لا نثبت إطلاق لفظ الشيئية على ذات الحق ، لأنها ما وردت ولا خوطبنا بها ، والأدب أولى ، « ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » هذا هو التوحيد الرابع والعشرون في القرآن ، وهو توحيد الحكم بالتوحيد الذي إليه رجوع الكثرة إذ كان عينها ، وهو توحيد الهوية « له الحكم » وهو القضاء « وإليه » الضمير في إليه يعود على الحكم فإنه أقرب مذكور ، فالقضاء الذي له المضي في الأمور هو الحكم الإلهي على الأشياء « ترجعون » أي إلى القضاء .

(٢٩) سُورَةُ العَنكَبُوتِ مَكِّيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

لما ادعى المؤمن الإيمان بوجود الله وأحديته ، وأنه لا إله إلا هو ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، وأن الأمر لله من قبل ومن بعد ، فلما ادعى بلسانه أن هذا مما انطوى عليه جنانه ، وربط عليه قلبه ، احتمل أن يكون صادقاً فيما ادعاه أنه صفة له ، ويحتمل أن يكون كاذباً في أنه صفة له ، فاختبره الله لإقامة الحجة له أو عليه بما كلفه به من عبادته على الاختصاص ، لا العبادة السارية بسريان الألوهية ، ونصب له وبين عينيه الأسباب ، وأوقف ما تمس حاجة هذا المدعي على هذه الأسباب ، فلم يقض له بشيء إلا منها وعلى يديها ، فإن رزقه الله نوراً يكشف به ويخترق به سدف الأسباب ، فيرى الحق تعالى من ورائها مسبباً اسم فاعل ، أو يراه خالقاً وموجداً لحوائجه التي اضطره إليها ، فذلك المؤمن الذي هو على نور من ربه وبينة من أمره ، الصادق في دعواه ، الموفي حق المقام الذي ادعاه ، بالعناية الإلهية التي أعطاه ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، قال بألوهية الأسباب التي رزقه الله منها ، وجعلها

حجاباً بينه وبين الله ، فأضاف الألوهة إلى غير مستحقها ، فكذب في دعواه لكثرة الأسباب ، والذي لم يقل بنسبةِ الألوهة للأسباب لكنه لم ير إلا الأسباب وما حصل له من الكشف ما يخرجه منها مع توحيد الألوهية ، كان ذلك شركاً خفياً لا يشعر به صاحبه أنه مشرك .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (٣)

الفتنة هي الاختبار ، وأصل هذا ما ركب فيهم من الدعاوى ، فجعل ما ابتلاهم به ليعلم الله الصادق في دعواه من الكاذب ، ابتلاء من الله لعباده الذين ادعوا الإيمان به بألسنتهم .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٤)

وجه ــ أي يسبقون بسيئاتهم مغفرتي وشمول رحمتي ، « ساء ما يحكمون » بل السبق لله بالرحمة لهم ، هذا غاية الكرم ، وهذا لا يكون إلا في الطائفة التي تقول بإنفاذ الوعيد فيمَنْ يموت على غير توبة ، فإذا مات العاصي تلقته رحمة الله في الموطن الذي يشاء الله أن تلقاه فيه ، فإن الإنسان إذا عصى فقد تعرض للانتقام والبلاء ، وأنه جار في شأو الانتقام بما وقع منه ، وأن الله يسابقه في هذه الحلبة من حيث ما هو غفار وعفو ومتجاوز ورحيم ورؤوف ، فالعبد يسابق بالمعاصي والسيئات الحق تعالى إلى الانتقام ، والحق أسبق فيسبق إلى الانتقام قبل وصول العبد بالسيئات إليه فيجوزه بالغفار وأخواته من الأسماء ، فإذا وصل العبد إلى آخر الشأو في هذه الحلبة وجد الانتقام قد جاوزه الغفار ، وحال بينه وبين العصاة ، وهم كانوا يحكمون على أنهم يصلون إليه قبل هذا ، ومن هذا يعلم جهل الإنسان عند مسابقته لله ، فإنه عمل في غير معمل ، وطمع في غير مطمع ، ومن كان في هذه الحال فلا خفاء بجهله لو عقل نفسه .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٥) ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٦)

اعلم أن الذات غنية عن العالمين ، المَلِك ما هو غني عن المُلْكِ إذ لولا المُلْك ما صح اسم الملك ، فالمرتبة تعطي التقييد لا ذات الحق فالمخلوق كما يطلب الخالق من كونه مخلوقاً ، كذلك الخالق يطلب المخلوق من كونه خالقاً ، لأنه لا يصح اسم الخالق وجوداً وتقديراً إلا بالمخلوق وجوداً وتقديراً ، وكذلك كل اسم إلهي يطلب الكون ، مثل الغفور والمالك والشكور والرحيم وغير ذلك من الأسماء ، ولما كان الحق من كونه إلهاً مرتبطاً بالمألوه ارتباط السيادة بوجود العبد ، فيلزم من حقيقة هذا الارتباط عقلاً ووجوداً تصور المتضايفين ، ولما لم يكن بين الحق والخلق مناسبة ولا إضافة ــ بل هو الغني عن العالمين ، فلا يكون ذلك إلا لذات الحق ــ فلا يربطها كون ، ولا تدركها عين ، ولا يحيط بها حد ، ولا يفيدها برهان ، وجدانها في العقل ضروري ، كما أن صفات التعلق التي تدخلها تحت القيد نظري « إن الله غني عن العالمين » فإن العالمين من العلامة ، والعلامة لا تدل إلا على محدود ، فالعالم لا يدل على العلم بذاته تعالى وإنما يدل على وجوده .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

ــ **إشارة لا تفسير** ــ لا تقف مع السبب الذي أوجدك وقرب منك حساً ، بل كن مع الذي أشهدك وأوجدك حقيقة ، ولا تكن ممن يعرف الله بواسطة السبب ، وإلى هذا ينظر قوله تعالى : « وإن جاهداك لتشرك بي » أي تنظرهما فتنحجب بهما في الإيجاد الطبيعي « ما ليس لك به علم فلا تطعهما » فإن كان لك بهما علم أنهما سببية ، فأثبتهما واشكرهما .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ

مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾

« إنهم لكاذبون » في هذا القول ، بل هم حاملون خطاياهم ، والذين أضلوهم يحملون أيضاً خطاياهم ، وخطايا هؤلاء مع خطاياهم ، ولا ينقص هؤلاء من خطاياهم من شيء ، يقول ﷺ : [من سن سنة سيئة فعلَيْهِ وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة دون أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً] وهو قوله تعالى :

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

وهو زمان مخصوص أقيموا فيه في حمل الأثقال التي هي الأوزار يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

نوح أول رسول أرسل ، ومن كان قبله إنما كانوا أنبياء ، كل واحد على شريعة من ربه ، فمن شاء دخل في شرعه معه ، ومن شاء لم يدخل ، فمن دخل ثم رجع كان كافراً ، ومن لم يدخل فليس بكافر ، ومن أدخل نفسه في الفضول ، وكذب الأنبياء كان كافراً ، ومن لم يفعل وبقي على البراءة لم يكن كافراً ، فكان نوح عليه السلام أول شخص استفتحت به الرسالة .

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ

ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

اعلم أن الذات الإلهية منزهة عن أن يكون لها بعالم الكون والخلق والأمر مناسبة أو تعلق بنوع ما من الأنواع ، لأن الحقيقة تأبى ذلك ، مع كون أصل الأشياء كلها وجود الحق تعالى ، إذ لو لم يكن هذا الأصل الإلهي موجوداً ، والحق المخلوق به معقولاً ، لما صح هذا الفرع المحدث الكائن بعد أن لم يكن ، ولما تصور ، فإذا نظرنا العالم على ما هو عليه ، وعرفنا حقيقته ومورده ومصدره ، ونظرنا ما الحاكم المؤثر في هذا العالم ، نجد أن الأسماء الحسنى ظهرت في العالم كله ظهوراً لا خفاء به كلياً ، وحصلت فيه آثارها وأحكامها لا بذواتها ولكن بأمثالها لا بحقائقها لكن برقائقها .

إيجاز البيان بضرب من الإجمال : بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية ، ولا أين يحصرها لعدم التحيز ــ ومم وجد ؟ وجد من الحقيقة المعلومة التي لا تتصف بالوجود ولا بالعدم ــ وفيم وجد ؟ في الهباء ــ وعلى أي مثال وجد ؟ على الصورة المعلومة في نفس الحق ــ ولم وجد ؟ لإظهار الحقائق الإلهية ، فأوجد العالم سبحانه ليظهر سلطان الأسماء ، فإن قدرة بلا مقدور ، وجوداً بلا عطاء ، ورَزَّاقاً بلا مرزوق ، ومغيثاً بلا مغاث ، ورحيماً بلا مرحوم ، حقائق معطلة التأثير ــ وما غايته ؟ التخلص من المزجة فيعرف كل عالم حظه من منشئه من غير امتزاج ، فغايته إظهار حقائقه ، ومعرفة أفلاك الأكبر من العالم وهو ما عدا الإنسان ، والعالم الأصغر يعني الإنسان ، روح العالم وعلته وسببه

وأفلاكه ومقاماته وحركاته وتفصيل طبقاته .

ونظمنا في ترتيب نضد العالم .

الحمد لله الذي بوجوده ظهر الوجود وعالم الهيمان
والعنصر الأعلى الذي بوجوده ظهرت ذوات عوالم الإمكان
من غير ترتيب فلا متقدم فيه ولا متأخر بالآن
حتى إذا شاء المهيمن أن يرى ما كان معلوماً من الأكوان
فتح القدير عوالم الديوان بوجود روح ثم روح ثان
ثم الهباء كذا الهيولى ثم جسم قابل لعوالم الأفلاك والأركان
فأداره فلكاً عظيماً واسمه العـ ـرش الكريم ومستوى الرحمن
يتلوه كرسي انقسام كلامه فتلوح من أقسامه القدمان
من بعده فلك البروج وبعده فلك الكواكب مصدر الأزمان
ثم النزول مع الخلاء لمركز ليقيم فيه قواعد البنيان
فأدار أرضاً ثم ماء فوقه كرة الهواء وعنصر النيران
من فوقه فلك الهلال وفوقه فلك يضاف لكاتب الديوان
من فوقه فلك لزهرة فوقه فلك الغزالة مصدر الملوان
من فوقه المريخ ثم المشتري ثم الذي يُعزَى إلى كيوان
ولكل جسم ما يشاكل طبعه خلق يسمى العالم النوراني
فهم الملائكة الكرام شعارهم حفظ الوجود من اسمه المحسان
فتحركت نحو الكمال فولدت عند التحرك عالم الشيطان
ثم المعادن والنبات وبعده جاءت لنا بعوالم الحيوان
والغاية القصوى ظهور جسومنا في عالم التركيب والأبدان
لما استوت وتعدلت أركانه نفخ الإله لطيفة الإنسان
وكساه صورته فعاد خليفة يعنو له الأملاك والثقلان
وبدورة الفلك المحيط وحكمه أبدى لنا في عالم الحدثان
في جوف هذا الأرض ماء أسوداً نتناً لأهل الشرك والطغيان

يجري على متن الرياح وعندها ظلمات سخط القاهر الديان
دارت بصخرة مركز سلطانه الروح الإلهي العظيم الشان

فهذا ترتيب الوضع الذي أنشأ الله عليه العالم ابتداءً ، واعلم أن التفاضل في المعلومات على وجوه ، أعمها التأثير ، فكل مؤثر أفضل من أكثر المؤثر فيه ، من حيث ذلك التأثير خاصة ، وقد يكون المفضول أفضل منه من وجه آخر ، وكذلك فضل العلة على معلولها ، والشرط على مشروطه ، والحقيقة على المحقق ، والدليل على المدلول من حيث ما هو مدلول لا من حيث عينه ، وقد يكون الفضل بعموم التعلق على ما هو أخص تعلقاً منه كالعالم والقادر ، ولما كان الوجود كله فاضلاً مفضولاً ، أدى ذلك إلى المساواة ، وأن يقال : لا فاضل ولا مفضول ، بل وجود شريف كامل ، تام لا نقص فيه ، ولا سيما وليس في المخلوقات على اختلاف ضروبها أمر إلا وهو مستند إلى حقيقة ونسبة إلهية ، ولا تفاضل في الله ، لأن الأمر لا يفضل نفسه ، فلا مفاضلة بين العالم من هذا الوجه ، وهو الذي يرجع إليه الأمر من قبل ومن بعد ، وعليه عوّل أهل الجمع والوجود وبهذا سموا أهل الجمع لأنهم أهل عين واحدة كما قال تعالى : (وما أمرنا إلا واحدة) فمن كشف الأمر على ما هو عليه علم ما ذكرناه في ترتيب العالم [راجع سورة الفرقان الآية ٢] .

يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ

وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

إسحق عليه السلام موهوب من غير سؤال ، وإسماعيل عليه السلام جمع له بين الكسب والوهب ، فهو مكسوب من جهة سؤال إبراهيم عليه السلام (رب هب لي من الصالحين) موهوب من جهة الفداء (وفديناه بذبح عظيم) « ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا » وهو قول كل نبي (إن أجري إلا على على الله) أجر التبليغ فآتاه الله أجره في الدنيا بأن نجاه من النار ، فجعلها عليه برداً وسلاماً « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » للأجر ما نقصه كونه في الدنيا قد حصله بما يناله في الآخرة شيء . ولما كان الصلاح من خصائص العبودية ، وذكر تعالى عن أنبيائه أنهم من الصالحين ، ذكر عن إبراهيم الخليل « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » من أجل الثلاثة الأمور التي صدرت منه في الدنيا ، وهي قوله عن زوجته سارة : إنها أخته بتأويل ، وقوله : إني سقيم اعتذاراً ، وقوله : بل فعله كبيرهم إقامة حجة ، فبهذه الثلاثة يعتذر يوم القيامة للناس إذا سألوه أن يسأل ربه فتح باب الشفاعة ، فلهذا ذكر صلاحه في الآخرة إذ لم يؤاخذه بذلك .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

وذلك مبالغة منهم في التكذيب ، إذ لو احتمل عندهم صدق الرسول ما قالوا مثل هذا القول ، فإن النفوس قد جبلت على جلب المنافع ودفع المضار عنها . .

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ

بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا

﴿ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (٤٣)

الأمثال ما جاءت مطلوبة لأنفسها ، وإنما جاءت ليعلم منها ما ضربت له ، وما نصبت من أجله ، فهي كآيات الاعتبار كلها من القرآن ، وما خلق الله العالم الخارج عن الإنسان إلا ضرب مثال للإنسان ، ليعلم أن كل ما ظهر في العالم هو فيه ، والإنسان هو العين المقصودة ، فهو مجموع الحكم ، ومن أجله خلقت الجنة والنار ، والدنيا والآخرة ، والأحوال كلها والكيفيات ، وفيه ظهر مجموع الأسماء الإلهية ، وآثارها « وما يعقلها إلا العالمون » اعلم أيدك الله أن العالِمَ مَنْ علم علم الظاهر والباطن ، ومن لم يجمع بينهما فليس بعالم خصوصي ولا مصطفى ، وسبب ذلك أن حقيقة العلم تمنع صاحبها أن يقوم في أحواله بما يخالف علمه ، فكل من ادعى علماً وعمل بخلافه في الحال الذي يجب عليه عقلاً وشرعاً العمل به فليس بعالم ، ولا ظاهر بصورة عالم ، ولا تغالط نفسك فإن وبال ذلك ما يعود على أحد إلا عليك ، فإن قلت : قد نجد من يعلم ولا يرزق التوفيق للعمل بعلمه ، فقد يكون العلم ولا عمل ، قلنا : هذا غلط من القائل به ، ولتعلم أن مسمى العلم ينطلق اسمه على ما هو علم وما ليس بعلم ، وما نرى أحداً يتوقف بالعمل فيما يزعم أنه عالم به إلا وفي نفسه احتمال ، ومن قام له في شيء احتمال فليس بعالم به ، ولا بمؤمن بمن أخبره بذلك إيماناً يوجب له العلم ، مع أنك لو سألته لقال لك : ما نشك أن ما جاء به هذا الشخص حق ، يعني الرسول عليه السلام ، وأنا به مؤمن ، فهذا قول ليس بصحيح إلا في وقت دعواه عند بعض الناس ، ثم إذ خلي بفكره قام معه الاحتمال فكان ذلك الذي تخيل أنه علم أمراً عرض له ، فالعلم يعطي العمل من خلف حجاب رقيق ، ألا ترى أن الله تعالى ما نصب الآيات وكثرها إلا ليحصل بها العلم ، لعلمه أن العلم إذا حصل لزم العمل فالعالم هو صاحب الفهم عن الله بحكم آيات الله وتفاصيلها ، وكل من ادعى علماً من غير عمل فدعواه كاذبة إن تعلق به خطاب عمل ، وما تلا عليك سبحانه كلامه إلا لتعقل عنه إن كنت عالماً .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٤)

اعلم أن الأشياء على ثلاث مراتب لا رابع لها ، والعلم لا يتعلق بسواها ، وما عداها

فعدم محض لا يُعلَم ولا يُجهَل ولا هو متعلق بشيء ، فإذا فهمت هذا فنقول إن هذه الأشياء الثلاثة منها ما يتصف بالوجود لذاته فهو موجود بذاته في عينه لا يصح أن يكون وجوده عن عدم ، بل هو مطلق الوجود لا عن شيء فكان يتقدم عليه ذلك الشيء ، بل هو الموجد لجميع الأشياء وخالقها ومقدرها ومفصلها ومدبرها ، وهو الوجود المطلق الذي لا يتقيد سبحانه ، وهو الله الحي القيوم العليم المريد القدير الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، ومنها موجود بالله تعالى وهو الوجود المقيد المعبر عنه بالعالم : العرش والكرسي والسموات العلى وما فيها من العالم والخلق والأرض وما فيها من الدواب والحشرات والنبات وغير ذلك من العالم ، فإنه لم يكن موجوداً في عينه ثم كان ، من غير أن يكون بينه وبين موجده زمان يتقدم به عليه فيتأخر هذا عنه ، فيقال فيه : بعد أو قبل ، هذا محال ؛ وإنما هو متقدم بالوجود كتقدم أمسٍ على اليوم ، فإنه من غير زمان لأنه نفس الزمان ، فعدم الزمان لم يكن في وقت ، لكن الوهم يتخيل أن بين وجود الحق ووجود الخلق امتداداً ، وذلك راجع لما عهده في الحس من التقدم الزماني بين المحدثات وتأخره ، وأما الشيء الثالث فما لا يتصف بالوجود ولا بالعدم ولا بالحدوث ولا بالقدم ، وهو مقارن للأزلي الحق أزلاً فيستحيل عليه أيضاً التقدم الزماني على العالم والتأخر ، كما **استحال على الحق وزيادة** لأنه ليس بموجود ، فإن الحدوث والقدم أمر إضافي يوصل إلى العقل حقيقة ما . وذلك أنه لو زال العالم لم نطلق على الواجب الوجود قديماً ، وإن كان الشرع لم يجيء بهذا الاسم أعني القديم وإنما جاء باسمه الأول والآخر ، فإذا زلت أنت لم يقل : أولاً ولا آخراً إذ الوسط العاقد الأولية والآخرية ليس ثَمَّ ، فلا أول ولا آخر ، وهكذا الظاهر والباطن وأسماء الإضافات كلها ، فيكون موجوداً مطلقاً من غير تقييد بأولية أو آخرية ، وهذا الشيء الثالث الذي لا يتصف بالوجود ولا بالعدم مثله في نفي الأولية والآخرية بانتفاء العالم كما كان الواجب الوجود سبحانه ، وكذلك لا يتصف بالكل ولا بالبعض ، ولا يقبل الزيادة والنقص وأما قولنا فيه **كما استحال على الحق وزيادة** ، فتلك الزيادة كونه لا موجوداً ولا معدوماً ، فلا يقال فيه : أول وآخر ، وكذلك لنعلم أيضاً أن هذا الشيء الثالث ليس العالم يتأخر عنه أو يحاذيه بالمكان ، إذ المكان من العالم ، وهذا أصل العالم وأصل الجوهر الفرد وفلك الحياة **والحق المخلوق به** وكل ما هو عالم من الموجود المطلق ، وعن هذا الشيء الثالث ظهر العالم ، فهذا

الشيء هو حقيقة حقائق العالم الكلية المعقولة في الذهن الذي يظهر في القديم قديماً ، وفي الحادث حادثاً ، فإن قلت : هذا الشيء هو العالم صدقت وإن قلت : إنه الحق القديم سبحانه صدقت ، وإن قلت : إنه ليس العالم ولا الحق تعالى وأنه معنى زائد صدقت ، كل هذا يصح عليه ، وهو الكلي الأعم الجامع الحدوث والقدم ، وهو يتعدد بتعدد الموجودات ، ولا ينقسم بانقسام الموجودات ، وينقسم بانقسام المعلومات ، وهو لا موجود ولا معدوم ، ولا هو العالم وهو العالم ، وهو غير ولا هو غير ، لأن المغايرة في الوجودين والنسبة انضمام شيء ما إلى شيء آخر ، فيكون منه أمر آخر يسمى صورة ما والانضمام نسبة ، فهذا الشيء الذي نحن بسبيله لا يقدر أحد أن يقف على حقيقته عبارة ، لكن نومىء إليه بضرب من التشبيه والتمثيل ، فنقول : نسبة هذا الشيء الذي لا يحد ولا يتصف بالوجود ولا بالعدم ، ولا بالحدوث ولا بالقدم ، إلى العالم كنسبة الخشبة إلى الكرسي والتابوت والمنبر والمحمل ، والفضة إلى الأواني والآلات التي تصاغ منها كالمكحلة والقرط والخاتم ، فبهذا تعرف تلك الحقيقة ، فخذ هذه النسبة ولا تتخيل النقص فيه كما تتخيل النقص في الخشبة بانفصال المحبرة عنها ، واعلم أن الخشبة صورة مخصوصة في العودية ، فلا تنظر أبداً إلا للحقيقة المعقولة الجامعة التي هي العودية ، فتجدها لا تنقص ولا تتبعض ، بل هي في كل كرسي ومحبرة على كمالها من غير نقص ولا زيادة ، وإن كان في صورة المحبرة حقائق كثيرة منها : الحقيقة العودية والاستطالية والتربيعية والكمية وغير ذلك ، وكلها فيها بكمالها ، وكذلك الكرسي والمنبر ، وهذا الشيء الثالث هو هذه الحقائق كلها بكمالها ، فسمه إن شئت حقيقة الحقائق ، فالمعقولات العشرة وهي الجوهر والعرض والحال والزمان والمكان والعدد والإضافة والوضع وأن يفعل وأن ينفعل ، تكوِّن الحقيقة التي أوجد الحق من مادتها الموجودات العلويات والسفليات ، فهو الأم الجامعة لجميع الموجودات ، وهي معقولة في الذهن غير موجودة في العين ، وهو أن تكون لها صورة ذاتية لكنها في الموجودات حقيقة من غير تبعيض ولا زيادة ولا نقص ، فوجودها عن بروز أعيان الموجودات قديمها وحديثها ، ولولا أعيان الموجودات ما عقلناها ، ولولاها ما عقلنا حقائق الموجودات ، فوجودها موقوف على وجود الأشخاص ، والعلم بالأشخاص تفصيلاً موقوف على العلم بها ، إذ من لا يعرفها لم يفرق بين الموجودات . وقال مثلاً : إن الجماد والملك والقديم شيء واحد ، إذ لا يعرف الحقائق

ولا بماذا تتميز الموجودات بعضها عن بعض ، فهي متقدمة في العلم ظاهرة في الموجودات ، فإن أطلق عليها تأخر فلتأخر وجود الشخص لا لعينها ، فهي بالنظر إلى ذاتها كلية معقولة لا تتصف بالوجود ولا بالعدم ، وهي المادة لجميع الموجودات ، فقد ظهرت بكمالها بظهور الموجودات ، وما بقي شيء يوجد بعد . ـــ راجع سورة الأنعام آية ٧٣ ، الحجر آية ٨٥ ، سورة النحل آية ٣ ـــ « إن في ذلك لآية لقوم يؤمنون » .

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » **الوجه الأول** يعني بصورتها ، فإن التكبيرة الأولى تحريمها ، والسلام منها تحليلها ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، هكذا أخبر تعالى إنباءً عن حقيقة لأجل ما فيها من الإحرام ، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر بسبب تكبيرة الإحرام ، فإنه حرم على المصلي التصرف في غير الصلاة ما دام في الصلاة ، فذلك الإحرام نهاه عن الفحشاء والمنكر ، فإن الإحرام المنع من التصرف في شيء مما يغاير كونه مصلياً ، فانتهى المصلي ، فصح له أجر من عمل بأمر الله وطاعته ، وأجر من انتهى عن محارم الله في نفس الصلاة وإن كان لم ينو ذلك ، فانظر ما أشرف الصلاة كيف أعطت هذه المسئلة العجيبة !! وهي أن الإنسان إذا تصرف في واجب ، فإن له ثواب مَنْ تصرف في واجب ويتضمن شغله بذلك الواجب عدم التفرغ لما نهي عنه أن يأتيه من الفحشاء والمنكر ، فيكون له ثواب من نوى أن لا يفعل فحشاء ولا منكراً ، فإن أكثر الناس تاركون ماهم هذا النظر ، لعدم الحضور باستحضار الأولى ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أعطى فائدة في قوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ولا تنهى عن غيرها من الطاعات فيها مما لا يخرجك فعله عن أن تكون مصلياً شرعاً . ـــ **الوجه الثاني** ـــ الصلاة فعل العبد ، فهو بصلاته ممن ينهى عن الفحشاء والمنكر ، فيكون له بالصلاة أجر من ينهى عن الفحشاء والمنكر وهو لم يتكلم فله أجر عبادتين : أجر الصلاة وهي عبادة ، وأجر النهي عن الفحشاء وهو عبادة ، فالصلاة بذاتها تنهى عن « الفحشاء » وهو ما ظهر من المخالفة

« والمنكر » وهو ما تنكره القلوب ، وذلك الظاهر للتحريم والتحليل الذي فيها . « ولذكر الله أكبر » ــ **الوجه الأول** ــ الصلاة تشتمل على أقوال وأفعال ، فتحريك اللسان بالذكر من المصلي من جملة أفعال الصلاة ، والقول المسموع من هذا التحريك هو من أقوال الصلاة ، وليس في أقوالها شيء يخرج عن ذكر الله ، في حال قيام وركوع وخفض ورفع إلا ما يقع به التلفظ من ذكر نفسك بحرف ضمير ، أو ذكر صفة تسأله أن يعطيكها ، مثل : اهدني وارزقني ، ولكن هو ذكر شرعاً لله ، فإن الله سمى القرآن ذكراً وفيه أسماء الشياطين والمغضوب عليهم ، والمتلفظ به يسمى ذكر الله ، فإنه كلام الله فذكرتهم بذكر الله ، فيكون قوله تعالى : « ولذكر الله » فيها « أكبر » يعني القول فيها أشرف أفعال المكلف ، فإنها تشتمل على أفعال وأقوال ، أي « ولذكر الله » فيها « أكبر » أعمالها وأكبر أحوالها ، أي ذكر الله أكبر ما فيها ، فهو أكبر من جملة أفعالها ، فإنها تشتمل على أقوال وأفعال ، فذكر الله في الصلاة أكبر أحوال الصلاة ، قال تعالى : (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) والفاتحة تجمع الذكر والشكر ، وهي التي يقرأها المصلي في قيامه ، فالشكر فيها قوله : (الحمد لله رب العالمين) وهو عين الذكر بالشكر ، إلى كل ذكر فيها وفي سائر الصلاة ، فذكر الله في حال الصلاة وشكره أعظم وأفضل من ذكره سبحانه في غير الصلاة ، فإن الصلاة خير موضوع العبادات ، فذكر الله في الصلاة أكبر من جميع أفعالها وأقوالها ، فإنك إن ذكرت الله فيها كان جليسك في تلك العبادة ، فإنه أخبر أنه جليس من ذكره ، فذكر الله في الصلاة أكبر فيها من أفعالها ، وفيه وقعت القسمة بين الله وبين المصلي في الصلاة ، فإن أفضل ما في الصلاة ذكر الله من الأقوال ، والسجودُ من الأفعال ، لأن الذكر جزء منها وهو أكبر أجزائها ، فذكر الله في الصلاة أشرف أجزاء الصلاة ، لا أن الذكر أشرف من الصلاة ، فما كل الصلاة ذكر ، فإن فيها الدعاء ، وقد فرق الحق بين الذكر والدعاء ، فقال : مَنْ شغله ذكري عن مسألتي ؛ وهي الدعاء ، فما هو الذكر هنا الذكر الخارج عن الصلاة حتى ترجحه على الصلاة ، إنما هو الذكر الذي في الصلاة ، فينبغي لكل من أراد أن يذكر الله تعالى ويشكره باللسان والعمل أن يكون مصلياً وذاكراً بكل ذكر نزل في القرآن لا في غيره ، وينوي بذلك الذكر والدعاء الذي في القرآن ليخرج عن العهدة ، فإنه من ذكره بكلامه فقد خرج من العهدة فيما ينسب في ذلك الذكر إلى الله ، ليكون في حال ذكره تالياً لكلامه ،

فيقول من التسبيحات ما في القرآن ، ومن التحميدات ما في القرآن ، ومن الأدعية ما في القرآن ، فتقع المطابقة بين ذكر العبد بالقرآن لأنه كلام الله وبين ذكر الله إياه في قوله : (فاذكروني أذكركم) فيذكر الله الذاكر له أيضاً ،« ولذكر الله أكبر » يعني في الصلاة ، أي الذكر الذي يكون من الله لعبده حين يجيب سؤاله والثناء عليه ، أكبر من ذكر العبد ربه فيها ، وذكره كلامه ، فتكون المناسبة بين الذكرين ، فإن ذكره بذكر يخترعه لم تكن له تلك المناسبة بين كلام الله في ذكره للعبد وبين ذكر العبد ، فإن العبد ما ذكره هنا بما جاء في القرآن ولا نواه ، وإن صادفه باللفظ ولكن هو غير مقصود ، ثم إن هذا الذكر بالقرآن جاء في الصلاة فالتحق بالأذكار الواجبة مثل قوله ﷺ صلى الله عليه وسلم لما نزلت (سبح اسم ربك الأعلى) اجعلوها في سجودكم وقوله في (فسبح باسم ربك العظيم) اجعلوها في ركوعكم ، والأذكار الواجبة عند الله أفضل ، فينبغي للمحقق أن يكون ذكره في الصلاة بالأذكار الواردة في القرآن ، حتى يكون في ذكره تالياً ، فيجمع بين الذكر والتلاوة معاً في لفظ واحد ، فيحصل على أجر التالين والذاكرين ، أعني الفضيلة ، وإذا ذكره من غير أن يقصد الذكر الوارد في القرآن فهو ذاكر لا غير ، فينقصه من الفضيلة على قدر ما نقصه من القصد ، ولو كان ذلك الذكر في القرآن غير أنه لم يقصده ، وقد ثبت أن الأعمال بالنيات ، وإنما لامرىء ما نوى ، فينبغي لك إن قلت : لا إله إلا الله ؛ أن تقصد بذلك التهليل الوارد في القرآن ، مثل قوله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وكذلك التسبيح والتكبير والتحميد ، وأنت تعلم أن أنفاس الإنسان نفيسة ، والنفس إذا مضى لا يعود ، فينبغي لك أن تخرجه في الأنفس والأعز ــ **الوجه الثاني** ــ أن قوله تعالى : « ولذكر الله أكبر » هذه الإضافة تكون من كونه ذاكراً ومن كونه مذكوراً ، فهو أكبر الذاكرين ، فذكره نفسه لنفسه بنفسه أكبر من ذكره نفسه بخلقه ، فإنه تعالى يذكر نفسه من كونه متكلماً ، ولما كانت كلمات الله ما تنفد ، فذكر الله لا ينقطع ، وهو ذكر مفصّل لأن الكلمات تفصيل لا إجمال فيها ، فذكره أكبر الأذكار ، والذكر وإن لم يخرج عنه فإن الله قد جعل بعضه أكبر من بعض ــ **الوجه الثالث** ــ ثم يتوجه فيه قصد آخر من أجل الاسم الله فيقول : « ولذكر الله » بهذا الاسم الذي ينعت ولا ينعت به ، ويتضمن جميع الأسماء الحسنى ولا يتضمنه شيء في حكم الدلالة « أكبر » من كل اسم تَذْكُرُهُ به سبحانه ؛ من رحيم وغفور ورب وشكور وغير ذلك ،

فإنه لا يعطي في الدلالة ما يعطى الاسم الله ، لوجود الاشتراك في جميع الأسماء كلها ، قال رسول الله ﷺ : [لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله] وهو الذكر الأكبر الذي قال الله فيه :« ولذكر الله أكبر » فما قال رسول الله ﷺ : من يقول لا إله إلا الله ؛ هذا إذا أخذنا أكبر بطريق أفعل من كذا ـــ راجع الذكر بالاسم المفرد سورة الأحزاب آية ٤١ ـــ فإن لم تأخذها على أفعل من كذا فيكون إخباراً عن كبر الذكر من غير مفاضلة بأي اسم ذكر ، وهو أولى بالجناب الإلهي ، وإن كانت الوجوه كلها مقصودة في قوله تعالى « ولذكر الله أكبر » فإنه كل وجه تحتمله كل آية من كلام الله من فرقان وتوراة وزبور وإنجيل وصحيفة عند كل عارف بذلك اللسان ، فإنه مقصود لله تعالى في حق ذلك المتأول لعلمه الإحاطي سبحانه بجميع الوجوه ـــ **الوجه الرابع** ـــ « ولذكر الله أكبر » ذكر الله هو القرآن ، فاذكره بالقرآن لا تكبره بتكبيرك ، إذ قد أمرك أن تكبره فقال : (وكبره تكبيراً) فإذا كبرت ربك فكبره كما كبر نفسه ولا تحكم على ربك بعقلك ـــ **مسألة** ـــ التكبير في الصلاة بلفظ « الله أكبر » اختلف علماء الشريعة في صفة لفظة التكبير في الصلاة ، فمن قائل لا يجزىء إلا لفظة الله أكبر ، ومن قائل يجزيء بغير الصيغة مثل الكبير ، ومن قائل يجوز التكبير على المعنى كالأجل والأعظم ، واتباع السنة أولى ، فإن رسول الله ﷺ يقول : [صلوا كما رأيتموني أصلي] وما نقل إلينا قط إلا هذا اللفظ « الله أكبر » تواتراً ، فلا نتحكم بسياق لفظ آخر ، فإنه لابد لمن يعدل عنه أن يحرم فائدة ذلك الاختصاص ، ويتصف بالمخالفة بلا شك ، يقول العبد « الله أكبر » في تكبيرة الإحرام لما خصص حالاً من الأحوال سماها صلاة ، فهو يقول : الله أكبر أن يقيد ربي حال من الأحوال ، بل الأحوال كلها بيده لم يخرج عنه حال من الأحوال ، فكبره عن مثل هذا الحكم ، وهو كبرياء لا يشاركه فيه كون من الأكوان ، ولذلك جاء رسول الله ﷺ ببنية المفاضلة ، لأن المشركين نسبوا الألوهة لغير الله تعالى ، ونسبتها إلى الله عندهم أتم وأعظم باعترافهم ، فالمفاضلة في الأسماء الإلهية إنما هي في المناسبة لا في الأعيان ، لا أن الحجارة أفضل ، ولا ما نحتوه ، ولا ما نسبوا إليه الألوهية من كوكب وغيره ، لأنه لا مفاضلة في الأعيان ، لأنه ليس بين العبد والسيد ، ولا الرب والمربوب ، ولا الخالق والمخلوق مفاضلة .

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾

فإنهم يسترونها وإن عرفوها حسداً منهم ونفاسة وظلماً .

وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

إن من رحمته ﷺ التي بعثه الله بها ما أبان الله على لسانه وأمره بتبليغ ذلك ، فبلغ أنه ليس من شرط الرسالة ظهور العلامات على صدقه ، إنما هو شخص منذر مأمور بتبليغ ما أمر بتبليغه ، هذا حظه لا يجب عليه غير ذلك ، فإن أتى بعلامة على صدقه فذلك فضل الله ليس ذلك بيده ، فأقام عذر الأنبياء كلهم في ذلك ، فكان رحمة للرسل في هذا ، فجاء في القرآن قوله : « وقالوا لولا أنزلت عليه آيات من ربه » وهذا قول غير العرب ما هو قول العرب ، لأنه جاء بالقرآن آية على صدقه للعرب ، إذ لا يعرف إعجازه وكونه آية غير العرب ، فلم يرد عنه أنه أظهر آية لكل من دعاه من غير العرب كاليهود والنصارى والمجوس ، ولكن أي شيء جاء من الآيات فذلك من الله لا بحكم الوجوب عليه ولا على غيره من الرسل ، فقيل له : « قل » لهم « إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » ثم قال له : .

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

« إن في ذلك لرحمة » بهم فإنا أرسلناك رحمة للعالمين ، فضمنا القرآن جميع ما تعرف الأمم أنه آية على صدق من جاء به ، إذ لم يعلموا منه بقرائن الأحوال أنه قرأ ولا كتب ولا طالع ولا عاشر ولا فارق بلده ، بل كان أمياً من جملة الأميين ، وأخبرهم عن الله بأمور يعرفون أنه لا يعلمها من هو بهذه الصفة التي هو عليها هذا الرسول إلا بإعلام من الله ، فكان ما جاء في القرآن من ذلك آية كما قالوا وطلبوا ، وكان إعجازه للعرب خاصة إذ نزل بلسانهم وصرفوا عن معارضته ، أو لم يكن في قوتهم ذلك من غير صرف حدث لهم ، فجاء القرآن بما جاءت به الكتب قبله ، ولا علم له بما جاء فيها إلا من القرآن ، وعلمت ذلك اليهود والنصارى وأصحاب الكتب ، فحصلت الآية من عند الله لأن القرآن من عند الله .

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

« والذين ءَآمنوا بالباطل » فسماهم الحق مؤمنين ، ولكن تحقق في إيمانهم بالباطل أنهم ما آمنوا به من كونه باطلاً ، وإنما آمنوا به من كونهم اعتقدوا فيه ما اعتقده أهل الحق في الحق ، فمن هنا نسب الإيمان إليهم ، وبما هو في نفس الأمر على غير ما اعتقدوه سماه الحق لنا باطلاً ، لا من حيث ما توهموه ، فأظهروا ما ليس بوجود وجوداً ، وأزالوا في عقدهم وجود ما هو وجود وهو الله ، فسماه الله ستراً ، فكان مستوراً عنهم وجود الحق بما ستروه ، إذ لم يستروه حتى تصوروه وبعد التصور ستروه ، فكانوا كافرين « أولئك هم الخاسرون » فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

« إن أرضي » فأضافها إليه أشد إضافة من قوله : (ألم تكن أرض الله) فهي إضافة خاصة ، ثم قال : « واسعة فإياي فاعبدون » يعني فيها ، ومما تعطيه هذه الآية من وجه من الوجوه لطبقة خاصة من المؤمنين أنهم نظروا ما هي أرض الله ؟ فقالوا : كل أرض موات لا يكون عليها مِلْك لغير الله ، فتلك أرضه الخاصة به ، المضافة إليه ، البرئة من الشركة فيها ، البعيدة عن المعمور ، فإن الأرض الميتة القريبة من العمران يمكن أن يصل إليها بعض الناس فيحييها فيملكها بإحيائها ، والبعيدة من العمران سالمة من هذا التخيل ، فقالوا ما أمرنا الله بالعبادة فيها إلا ولها خصوص وصف ، وليس فيها من خصوص الأوصاف إلا كونها ليس فيها نَفَسٌ لغير الله ، ففيها نَفَسُ الرحمن ، فإذا عبد الإنسان ربه في مثل هذه الأرض وجد أنساً من تلك الوحشة التي كانت له في العمران ، ووجد لذة وطيباً في قلبه وانفراده ، وذلك كله من أثر نفس الرحمن الذي نَفَّس الله به عنه ما كان يجده من الغم والضيق والحرج في الأرض المشتركة ، وهذا ما أدى بعض العباد إلى السياحة ، فرأوا في هذه الأرض من الآيات والعجائب والاعتبارات ما دعاهم إلى النظر فيما ينبغي لمالك هذه الأرض ، فأنار الله قلوبهم بأنوار العلوم ، وفتح لهم في النظر في الآيات ، وهي العلامات الدالة على عظمة من انقطعوا إليه وهو الله تعالى ــ **تفسير من باب الإشارة** ــ ثم لتعلم أيها الأخ الولي أن أرض بدنك هي الأرض الحقيقية الواسعة التي أمرك الحق أن تعبده فيها ، وذلك لأنه ما أمرك أن تعبده في أرضه إلا ما دام روحك يسكن أرض بدنك ، فإذا فارقها أسقط عنك التكليف مع وجود بدنك في الأرض مدفوناً فيها ، فتعلم أن الأرض ليست سوى بدنك ، وجعلها واسعة لما وسعته من القوى والمعاني التي لا توجد إلا في هذه الأرض البدنية الإنسانية ، وأما قوله : (فتهاجروا فيها) فإنها محل للهوى ومحل للعقل ، فتهاجروا من أرض الهوى منها إلى أرض العقل منها ، وأنت في هذا كله فيها ما خرجت عنها ، فإن استعملك هواك أرداك وهلكت ،

وإن استعملك العقل الذي بيده سراج الشرع نجوت وأنجاك الله به ؛ فإن العقل السليم المبرأ من صفات النقص والشبه هو الذي فتح الله عين بصيرته لإدراك الأمور على ما هي عليه ، فعاملها بطريق الاستحقاق ، فأعطى كل ذي حق حقه ، ومن لم يعبد الله في أرض بدنه الواسعة فما عبد الله في أرضه التي خلقه منها وما دمت في أرض بدنك الواسعة مع وجود عقلك وسراج شرعك فأنت مأمور بعبادة ربك ، فهذه الأرض البدنية لك على الحقيقة أرض الله الواسعة التي أمرك أن تعبده فيها إلى حين موتك ، وهو قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون » ــ **إشارة** ــ لما خلق الله أرض بدنك جعل فيها كعبة وهو قلبك ، وجعل هذا البيت القلبي أشرف البيوت في المؤمن ، فأخبر أن السموات وفيها البيت المعمور ، والأرض وفيها الكعبة ، ما وسعته وضاقت عنه ، ووسعه هذا القلب من هذه النشأة المؤمنة ، والمراد هنا بالسعة العلم بالله سبحانه ، فهذا يدلك على أنها الأرض الواسعة ، وأنها أرض عبادتك ، فتعبده كأنك تراه من حيث بصرك ، لأن قلبك محجوب أن يدركه بصرك ، فإنه في الباطن منك ، فتعبد الله كأنك تراه في ذاتك كما يليق بجلاله ، وعين بصيرتك تشهده ، فإنه ظاهر لها ظهور علم ، فتراه بعين بصيرتك ، وكأنك تراه من حيث بصرك ، فتجمع في عبادتك بين الصورتين ، بين ما يستحقه تعالى من العبادة في الخيال ، وبين ما يستحقه من العبادة في غير موطن الخيال ، فتعبده مطلقاً ومقيداً ، وليس ذلك لغير هذه النشأة ، فلهذا جعل هذه النشأة المؤمنة حرمه المحرّم ، وبيته المعظم المكرم ، فكل من في الوجود يعبد الله على الغيب إلا الإنسان الكامل المؤمن ، فإنه يعبده على المشاهدة ، ولا يكمل العبد إلا بالإيمان ، فله النور الساطع ، بل هو النور الساطع الذي يزيل كل ظلمة ، فإذا عبده على الشهادة رآه جميع قواه ، فما قام بعبادته غيره ، ولا ينبغي أن يقوم بها سواه ، فما ثَمَّ مَنْ حصل له هذا المقام إلا المؤمن الإنساني ، فإنه ما كان مؤمناً إلا بربه ، فإنه سبحانه المؤمن . واعلم أنك إذا لم تكن بهذه المنزلة ، وما لك قدم في هذه الدرجة ، فأنا أدلك على ما يحصل لك به الدرجة العليا ، وهو أن تعلم أن الله ما خلق الخلق على مزاج واحد ، بل جعله متفاوت المزاج ، وهذا مشهود بالبديهة والضرورة ، لما بين الناس من التفاوت في النظر العقلي والإيمان ، وقد حصل لك من طريق الحق أن الإنسان مرآة أخيه ، فيرى منه ما لا يراه الشخص من نفسه إلا بواسطة مثله ، واعلم أن المرائي مختلفة الأشكال ،

وأنها تصير المرئي عند الرائي بحسب شكلها من طول وعرض واستواء وعوج واستدارة ، ونقص وزيادة وتعدد ، وكل شيء يعطيه شكل تلك المرآة ، وقد علمت أن الرسل أعدل الناس مزاجاً لقبولهم رسالات ربهم ، وكل شخص منهم قبل من الرسالة قدر ما أعطاه الله في مزاجه من التركيب ، فما من نبي إلا بعث خاصة إلى قوم معينين ، لأنه على مزاج خاص مقصور ، وأن محمداً ﷺ ما بعثه الله إلا برسالة عامة إلى جميع الناس كافة ، ولا قبل هو مثل هذه الرسالة إلا لكونه على مزاج عام يحوي على مزاج كل نبي ورسول ، فهو أعدل الأمزجة وأكملها ، وأقوم النشآت ، فإذا علمت هذا وأردت أن ترى الحق على أكمل ما ينبغي أن يظهر به لهذه النشأة الإنسانية ، فاعلم أنك ليس لك ، ولا أنت على مثل هذا المزاج الذي لمحمد ﷺ ، وأن الحق مهما تجلى لك في مرآة قلبك ، فإنما تظهره لك مرآتك على قدر مزاجها وصورة شكلها ، وقد علمت نزولك عن الدرجة التي صحت لمحمد ﷺ في العلم بربه في نشأته ، فالزم الإيمان والاتباع ، واجعله أمامك مثل المرآة التي تنظر فيها صورتك وصورة غيرك ، فإذا فعلت هذا ، علمت أن الله تعالى لابد أن يتجلى لمحمد ﷺ في مرآته ، وقد أعلمتك أن المرآة لها أثر في ناظر الرائي في المرئي ، فيكون ظهور الحق في مرآة محمد ﷺ أكمل ظهور وأعدله وأحسنه ، لما هي مرآته عليه ، فإذا أدركته في مرآة محمد ﷺ فقد أدركت منه كمالاً لم تدركه من حيث نظرك في مرآتك ، ألا ترى في باب الإيمان وما جاء في الرسالة من الأمور التي نسب الحق لنفسه بلسان الشرع مما تحيله العقول ، ولولا الشرع والإيمان ما قبلنا من ذلك من حيث نظرنا العقلي شيئاً البتة ، بل نرده ابتداءً ونُجهّل القائل به ، فكما أعطاه بالرسالة والإيمان ما قصرت العقول التي لا إيمان لها عن إدراكها ذلك من جانب الحق ، كذلك قصرت أمزجتنا ومرائي عقولنا عند المشاهدة عن إدراك ما تجلى في مرآة محمد ﷺ أن تدركه في مرآتها ، وكما آمنت به في الرسالة غيباً ، شهدته في هذا التجلي النبوي عيناً ، فقد نصحتك وأبلغت لك النصيحة ، فلا تطلب مشاهدة الحق إلا في مرآة نبيك ﷺ ، واحذر أن تشهده في مرآتك ، أو تشهد النبي وما تجلى في مرآته في مرآتك ، فإنه ينزل بك عن الدرجة العالية ، فالزم الاقتداء والاتباع ، ولا تطأ مكاناً لا ترى فيه قدم نبيك ، فضع قدمك على قدمه ، إن أردت أن تكون من أهل الدرجات العلى ، والشهود الكامل في المكانة الزلفى ، وقد أبلغت لك النصيحة كما أُمرت .

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

من مات قامت قيامته ، وإن خفيت بالأرض قامته ، وما مات أحد إلا بحلول أجله ، وما قُبِض إلا دون أمله ، والفوت في الموت لكل ميت ، فإن الدار الدنيا محل بلوغ الأمل ، ما لم يخترمه الأجل ، هي مزرعة الآخرة فأين الزارع ؟ وفيها تكسب المنافع ، والموت للمؤمن تحفة ، والنعش له محفة ، ينقله من العدوة الدنيا ، إلى العدوة القصوى ، حيث لا فتنة ولا بلوى ، ليس بخاسر ولا مغبون ، من كان أمله المنون ، فإن فيه اللقاء الإلهي ، والبقاء الكياني « ثم إلينا ترجعون » فالكل إلى الله راجع ، لأنه الاسم الجامع .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

فسمى الحق الدار الآخرة دار الحيوان لحياتها ، فأهلها يتنعمون فيها حساً ومعنى ، والجنة أيضاً أشد تنعماً بأهلها الداخلين فيها ، ولهذا تطلب ملأها من الساكنين ، فالكل حيوان ، فإن الدار الآخرة دار ناطقة ظاهرة الحياة ، ثابتة العين ، غير زائلة ، بعكس الدار الدنيا فإنها

خفية الحياة ، فانية ذاهبة العين ، متبدلة الصورة والوضع والشكل ، فما سماها الله بدار الحيوان إلا لأن الأمر ينكشف فيها للعموم ، فما ترى فيها شيئاً إلا حياً ناطقاً ، بخلاف حالك في الدنيا ، فإنه في نفس الأمر لكل صورة من العالم روح أخذ الله بأبصارنا عن إدراك حياة ما تقول عنه إنه ليس بحيوان مما ليس له روح في الشاهد في نظر البصر في المعتاد .

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾

« فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » عندما بدت لهم آيات الله غير المعتادة ، ذهبت عنهم الغفلة « فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » فعادوا إلى شركهم بعد إخلاصهم لله .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

تهديد من الحق حيث يقولون في النار (يا ليتنا نرد) فيقول الحق تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) كما عاد أصحاب الفلك إلى شركهم وبغيهم بعد إخلاصهم لله

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾

فنسب الحق الجعل إليه ، وأطبق قلوب الكفار على ذلك ، فجعل في قلوبهم أن يشرعوا الأمان لكل من دخله ولاذ به ، جعل ذلك في قلوب المشركين وغيرهم .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

ـ **الوجه الأول** ـــ لما كان سبب الجهاد أفعالاً تصدر من الذين أمرنا بقتالهم وجهادهم ، وتلك الأفعال أفعال الله خلقاً وتقديراً ، فما جاهدنا إلا فيه لا في العدو ، وإذا لم يكن عدواً إلا بها ، فإذا جاهدنا فيه ، ولكن بامتثال أمره ، قال « لنهدينهم سبلنا » التي قال فيها : (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) يعني السبيل التي لكم فيها السعادة ، وسبيل السعادة هي المشروعة ، فبيّن لنا سبلها ، فندخلها فلا نرى مُجاهداً ومجاهداً فيه إلا الله ، فكان قوله تعالى : « لنهدينهم سبلنا » أي نبين لهم حتى يعلموا فيمن جاهدوا ، فيجاهدون عند ذلك أو لا يجاهدون ، ولذلك تمم الآية بقوله : « وإن الله لمع المحسنين » والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإذا رأيته علمت أن الجهاد إنما كان منه وفيه ـ **الوجه الثاني** ـ الرياضة لنفس الإنسان والمجاهدة لهيكله ، فبالرياضة تهذبت أخلاقه ، وسهل انقياده ، وبالمجاهدة قل فضوله فظهر له ما فيه من الأصول والفروع ، فعلم بالمجاهدة مَنْ هو ؟ ولمن هو ؟ وهذه هي السبل « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فمن علم أن الهداية إلى سبل الله في الجهاد هرب إلى السلم من الحرب ، ولا يجنح إلى السلم إلا من كان مشهوده ضعفه أو من كانت العين مشهوده ، ولذا قال « وإن الله لمع المحسنين » ـ **إشارة** ـــ « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فأين أنت ؟ بعد الجهاد تتضح السبل ، وعند ذلك يكون السلوك عليها ، وهو سفر ، والسفر قطعة من العذاب ، فإنه منتقل من عذاب إلى عذاب ، فلا راحة .

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾

وفي قراءة غلبت بفتح الغين واللام ، وكان رسول الله ﷺ إذا سمع أن الروم قد ظهرت على فارس يظهر السرور في وجهه ، مع كون الروم كافرين به ﷺ ، ولكن الرسول لعلمه

ﷺ كان منصفاً لأنه علم أن مستند الروم لمن استند إليه أهل الحق ، لأنهم أهل كتاب يؤمنون به ، لكنهم طرأت عليهم شبهة من تحريف أئمتهم ما أنزل عليهم حالت بينهم وبين الإقرار والإيمان بنبوة محمد ﷺ .

﴿ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (٣)

وفي قراءة غلبت بفتح الغين واللام « سيغلبون » بضم الياء وفتح اللام ، وهذه القراءة تشير إلى زمان فتح بيت المقدس ، حيث كان ظهور المسلمين في أخذ حج الكفار عام ثلاث وثمانين وخمسمائة هجرية ، أما الإشارة إلى زمان فتح بيت المقدس فهو يعرف من عدد حروف « الٓم » وهو علم الجُمّل ، وذلك بأن تأخذ عدد حروف « الٓم » بالجزم الصغير ، فتكون ثمانية فتجمعها إلى ثمانية (في بضع سنين) فتكون ستة عشر ، فتزيل الواحد الذي للألف للأس ، فيبقى خمسة عشر ، فتمسكها عندك ، ثم ترجع إلى العمل في ذلك بالجمل الكبير وهو الجزم ، فتضرب ثمانية البضع في أحد وسبعين ، واجعل ذلك كله سنين ، يخرج لك من الضرب خمسمائة وثمانية وستون ، فتضيف إليها الخمسة عشر التي رفعتها ، فتصير ثلاثة وثمانين وخمسمائة سنة ، وهو زمان فتح بيت المقدس ، وكان أبو الحكم عبد السلام ابن برجان قد ذكر ذلك في كتاب له ، فكان فتح بيت المقدس كما قال :

﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤)

« لله الأمر من قبل ومن بعد » القبل والبعد من صيغ الزمان ، فلابد أن يكون الزمان أمراً متوهماً لا وجوداً ، ولهذا أطلقه الحق على نفسه ، ولو كان الزمان أمراً وجودياً في نفسه ما صح تنزيه الحق عن التقييد ، إذ كان حكم الزمان يقيده ، فعرفنا أن هذه الصيغ ما تحتها أمر وجودي فالزمان هو ما يدخل الأزل من التقديرات الزمانية فيه ، بتعيين توجهات الحق لإيجاد الكائنات في الأزمان المختلفات التي يصحبها القبل والبعد والآن . « ويومئذ يفرح المؤمنون »

﴿ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٥) ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » فعملوا بما علموا « وهم عن الآخرة هم غافلون » فلم يعملوا لها ، فإنه أغفلهم عنها فنسوا آخرتهم وتركوا العمل لها ، ومنهم الفقهاء الذين يعلمون ولا يعملون ، ويقولون بالظاهر ولا يعرفون الباطن ، فإن الرجل الكامل هو الذي أحكم العلم والعمل ، فجمع بين الظاهر والباطن .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

اعلم أن الموجودات هي كلمات الله التي لا تنفد ، قال تعالى في وجود عيسى عليه السلام إنه كلمته ألقاها إلى مريم وهو عيسى ، واعلم أن الله سبحانه ما استوى على عرشه إلا بالاسم الرحمن ، إعلاماً بذلك أنه ما أراد بالإيجاد إلا الرحمة بالموجودين ، ولم يذكر غيره من الأسماء ، وذكر الاستواء على أعظم المخلوقات إحاطة من عالم الأجسام ، ولما ذكر الله عن نفسه أن له كلاماً ذكر أن له نَفَساً من الاسم الرحمن الذي به استوى على العرش ، فلما علمنا أن له نَفَساً وأن له كلاماً وأن الموجودات كلماته ، علمنا أن الله ما أعلمنا بذلك إلا لنقف على حقائق الأمور بأنا على الصورة « أو لم يتفكروا في أنفسهم » فنقبل جميع ما تنسبه الألوهة إليها على ألسنة رسلها وكتبها المنزلة ، فلما عرفنا الله أنه باطن وظاهر ، وله نَفَس وكلمة وكلمات ، نظرنا ما ظهر من ذلك ، ولِمَ ينسب إلى ذاته النَفَس وما يحدث عنه ؟ فقلنا : عين النَفَس هو العماء ، فهو نفس المتنفس المقصود بالعبارة عنه ما يتنزل منزلة الريح ، وإنما يتنزل منزلة البخار ، فالنفس هذا حقيقته حيث كان ، فكان عنه العماء ، فكان ربنا قبل خلق الخلق في عماء ، وهو النَفَس الإلهي ، وأبرز في هذا النَفَس الإلهي افتتاح الوجود بالكون ، إذ كان ولا شيء معه ، فأوجد العالم وفتح صورته في العماء ، وهو النفس الذي

هو الحق المخلوق به مراتب العالم وأعيانه ، وأبان منازله ، فجعل منه عالم الأجسام وعالم الأرواح ، وجعل في النَفَس الإلهي علة الإيجاد من جانب الرحمة بالخلق ، ليخرجهم من شر العدم إلى خير الوجود ، فلو تفكر الإنسان في نفسه وفي الصورة التي خُلِقَ عليها ، وكونه ذا نفس وحروف وكلمات ، ذا ظاهر وباطن ، وتفكَّر في كل ما يتعلق بعلم الحروف وما يتكون عنها من الكلمات ، لعلم أنه الحق وأن الإنسان الكامل أقامه الحق برزخاً بين الحق والعالم ، فيظهر بالأسماء الإلهية فيكون حقاً ، ويظهر بحقيقة الإمكان فيكون خلقاً ، وكما أن الحضرة الإلهية على ثلاث مراتب : باطن وظاهر ، ووسط وهو ما يتميز به الظاهر عن الباطن وينفصل عنه ، وهو البرزخ فله وجه إلى الباطن ووجه إلى الظاهر ، كذلك جعل الإنسان على ثلاث مراتب ، عقل وحس وهما طرفان ، وخيال وهو البرزخ الوسط بين المعنى والحس « أو لم يتفكروا في أنفسهم » فيروا الإنسان الكامل المختصر الظاهر بحقائق الكون كله حديثه وقديمه « ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما » الثلاث مراتب « إلا بالحق » ــ **الوجه الأول** ــ وهو نَفَس الرحمن ؛ ــ **الوجه الثاني** ــ باعتبار الإنسان هو المخلوق على الصورة الإلهية ، فيكون الإنسان الكامل هو الحق المخلوق به ، أي المخلوق بسببه العالم ، فإن الإنسان أكمل الموجودات وهو الغاية ، ولما كانت الغاية هي المطلوبة بالخلق المتقدم عليها ، فما خلق ما تقدم عليها إلا لأجلها وظهور عينها ، ولولاها ما ظهر ما تقدمها ، فالغاية هو الأمر المخلوق بسببه ما تقدم من أسباب ظهوره ، وهو الإنسان الكامل ؛ وإنما قلنا : الكامل لأن اسم الإنسان قد يطلق على المشبه به في الصورة ، وهو على الحقيقة حيوان في شكل إنسان ، ففي الإنسان الكامل قوة كل موجود في العالم وله جميع المراتب ، ولهذا اختص ، ومده بالصورة فجمع بين الحقائق الإلهية وهي الأسماء وبين حقائق العالم ، فإنه آخر موجود ، وما انتهى لوجوده النفس الرحماني حتى جاء معه بقوة مراتب العالم كله ، فيظهر بالإنسان ما لا يظهر بجزء جزء من العالم ولا بكل اسم اسم من الحقائق الإلهية ، فكان الإنسان أكمل الموجودات ، فكل ما سوى الإنسان خلق إلا الإنسان فإنه خلق وحق « وأجل مسمى » كل أمر حادث في الدنيا قيل أجله كذا في الدنيا ، لأن كل ما في الدنيا يجري إلى أجل مسمى فتنتهي فيه المدة بالأجل ، فخاتمة ذلك الشيء ما ينتهي إليه حكمه ، فانتهاء الأنفاس في الحيوان آخر نفس يكون منه عند انتقاله إلى البرزخ ، ثم تنتهي المدة في البرزخ إلى الفصل بينه وبين البعث ،

ثم تنتهي المدة في القيامة إلى الفصل بينها وبين دخول الدارين ، ثم تنتهي المدة في النار في حق مَنْ هو فيها من أهل الجنة إلى الفصل الذي بين الإقامة فيها والخروج منها بالشفاعة والمنة ، ثم تنتهي المدة في عذاب أهل النار الذين لا يخرجون منها إلى الفصل بين حال العذاب وبين حصول حكم الرحمة التي وسعت كل شيء ، فهم يتنعمون في النار باختلاف أمزجتهم ، ثم لا يبقى بعد ذلك أجل ظاهر بالمدة ، ولكن آجال خفية دقيقة ، وذلك أن المحدث الدائم العين ، من شأنه تقلب الأحوال عليه ليلزمه الافتقار إلى دوام الوجود له دائماً ، فلا تفارق أحواله الآجالِ ، فلا يزال في أحواله بين سابقة وخاتمة « وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

السير في الأرض هو السياحة في نواحيها ليرى آثار ربه فيما يراه منها « أو لم يسيروا » بأقدامهم وأفكارهم .

ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

« لله يبدؤا الخلق » إن الله هو الحكيم الخبير ، وهو على كل شيء قدير ، وأنه قبل كل شيء ، أوجد الأشياء لا من شيء ، ولكن مع اتصافه بهذه القدرة المحققة ، النافذة المطلقة ، لم يوجد المعادن ابتداءً حتى خلق سبحانه وتعالى الأفلاك العلوية ،والروحانيات السماوية ، واللمحات الأفقية ، وأودع كل فلك روحانية كوكبية ، تحتوي على خاصية ، وعند وجودها خلق الأرض والماء والهواء والأثير ، ثم أوجد فيها منها دائرة الزمهرير ، ثم أجرى الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، وخص كل متكون عن هذه الأجزاء بسرٍ

من مكنون سره ، فلما أكمل هذه الأركان ، لإنشاء ما يريد من المعادن والنبات والحيوان ، أقام النجوم الثابتة ، والبروج الحاكمة ، والكواكب السيارة وحركات أفلاكها ، وفتح مسالك أملاكها ، فأقامها فكانت الآباء العلويات والأمهات السفليات ، فتناكحا بالحقائق الروحانيات ، والرقائق السماويات ، فتولد بينهما بنات الحكم المعدنيات والنباتيات والحيوانيات ، ثم أنشأ الحق بستاناً ذا أفنان ، فيه من كل وليد وقهرمان ، ومن الجواري الحسان ، والنخيل والأعناب والرمان ، ضروب ألوان ، تنساب فيها الجداول انسياب الثعابين ، بين تلك الأزهار والبساتين ، وابتنى قصوراً من الذهب والفضة البيضاء ، وأسكنها من كل جارية غضاء ، وفرشها بالحرير من السندس والاستبرق ، والعبقري المرقق ، وجعل حصاها الياقوت والمرجان والزمرد والجوهر ، وترابها فتيت المسك وأكامها العنبر ، ثم أنشأ داراً أخرى ذات لهب وسعير ، وبرد وزمهرير ، وقيود وأغلال ، وسرابيل من قطران ، وأفاعي كأنها البخت ، وأساوِد عظيمة الشخت ، وعقارب مكونة من السحت ، وبيوت مظلمة ، ومسالك ضيقة ، وكروب وغموم ، ومصائب وهموم .

فإذا كان الله تعالى مع قدرته ونفوذ إرادته وقوة علمه ، لم يوجد شيئاً من المعادن إلا بعد خلق هذه الأدوات ، وأجرام هذه المسخرات ، فاعلم أن الله ما أسكنك هذه الدار ، إلا لتجعلها دار اعتبار ، فتتفكر وتعتبر ، وتذكر وتزدجر ، وتعظّم مَنْ سواك فعدلك ، وصورك فجمّلك ، وولاك وملّكك ، وعلمك وحنّكك ، فإن كنت مطيعاً لربك ، عادلاً في رعيتك ، فستصير إلى النعيم عند الله ، وإن كنت عاصياً جائراً في حكمك ظالماً ، فستصير إلى ضيق وعذاب وجحيم ، فخف ربك وذنبك ، وأصلح مع الله قلبك ، وأنذر قومك ، وطهر ثوبك ، ولا يحجبنك سلطان عادتك ، عن تحصيل أسباب سعادتك ، فإن الدنيا لمحة بارق ، وخيال طارق ، وكم من مَلِكٍ مثلك قد ملكها ، ثم رحل عنها وتركها ، ولابد لك من الرحلة عنها إلى الآخرة ، فإما أن تعمر درجها ، وإما أن تعمر دركها . واعلم أن الله تعالى ما جعلك مِلكاً على خلقه ، (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) وأقامك بين الباطل والحق في مقام حقه ، لقصور قدرته عن إصلاح الخلق وتدبيره ، وتصريفه في إظهار المُلْك وتسخيره ، وإنما ضرب لك بك مثلاً في عالم الفَناء ، لتستدلّ به على ترتيب المُلْكِ الإلهي في دار البقاء ، ولهذا جعل هذه الدنيا ظِلّاً زائلاً ، وعَرَضاً مائلاً ، وجعلك

عنها راحلاً ، فهي جسر منصوب على بحر الهلاك ، وميدان موضوع لمصارع الهُلاَّك ، كم أبادت من القرون الماضية ، والأمم الخالية ، والجبابرة المتألهين الطاغية ، والفضلاء والحكماء ، والأدباء والعقلاء ، والأولياء والأنبياء ، فهل ترى لهم من باقية ؟ وأنت على قارعة مذهبهم ، عن قريب تلحق بهم ، فإما إلى نعيم في دار الخلود بجوار الصمد ، وإما إلى عذاب الأبد « هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، ثم إليه ترجعون » فاجهد في تحصيل أدوات البقاء والنجاة ، فإن الدنيا متاع قليل والآخرة خير لمن اتقى ، والعارية مردودة ، وأعمالك بين يديك موجودة غير مفقودة ، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ولا علانية ولا سريرة (والله يعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) فالسعادة كل السعادة في المحافظة على الأمور الشرعية ، والقيام بالحدود الوضعية .

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾
فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾

فجمع الصلوات الخمس في هذه الآية قال تعالى : (وسبحوه) أي صلوا له (بكرة وعشيا) .

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

« وله الحمد » أي الثناء المطلق في السموات والأرض .

يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾

اعلم أن الحق سبحانه لا يعين لفظاً ولا يقيد أمراً إلا وقد أراد من عباده أن ينظروا فيه من حيث ما خصصه وأفرده لتلك الحالة ، أو عيّنه بتلك العبارة ، ومتى لم ينظر الناظر في هذه الأمور بهذه العين فقد غاب عن الصواب المطلوب ، فإن النفوس ما تنبعث وتهتز إلا للآيات الخارقة للعادة . والآيات الإلهية منها معتاد وغير معتاد ، والقرآن قد ورد في الآيات المعتادة كثير ، ومن آياته ، ومن آياتِهِ ويذكر أموراً معتادة ، ثم يقول إن في ذلك لآيات ، ولكن لا ترفَعُ العامة بها رأساً لجري العادة لاستيلاء الغفلة وعدم الحضور ..

إذا كانت الآيات تعتاد لم يكن	لها أثر في نفس كل جهول
وما لم تكن تعتاد فهي لديهمو	إذا نظـروا فيها أدل دليـل
وأما فحول القوم لا فرق عندهم	لقد خصصوا منها بأقوم قيل
إذا جاءت الآيات تترى تراهمو	سكارى لها خوفاً بكل سبيل
فسبحان من أحياهمو واصطفاهمو	وإنهمو فينا أقل قليل

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً » أَعَلَمَ أن الزوجة مخلوقة من عين الزوج ونفسه « لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » المودة المجعولة بين الزوجين هو الثبات على النكاح الموجب للتوالد ، والرحمة المجعولة هو ما يجده كل واحد من الزوجين من الحنان إلى صاحبه فيحن إليه ويسكن ، فمن حيث المرأة حنين الجزء إلى كله ، والفرع إلى أصله ، والغريب إلى وطنه ، وحنين الرجل إلى زوجته حنين الكل إلى جزئه ـــ لأنه به يصح عليه اسم الكل ، وبزواله لا يثبت له هذا الاسم ـــ وحنين الأصل إلى الفرع لأنه يمده ، فبالمودة والرحمة طلب الكل جزأه ، والجزء كله ، فالتحما فظهر عن ذلك الالتحام أعيان الأبناء ، وجعل الله ذلك آية ، أي علامة ودليلاً لقوم يتفكرون ، فقال : « إن في ذلك لآيات لقوم

يتفكرون » فإن من الآيات ما تغمض بحيث لا يدركها إلا من له التفكر السليم ، فيعلمون أنه الحق ، وفائدة هذا التفكر أن الإنسان إذا تزوج المرأة ووجد السكون إليها وأن الله جعل بينهما المودة والرحمة علم أن الله يريد التحامهما ، فإذا ارتفع السكون من أحدهما إلى صاحبه أو منهما وزالت المودة ــ وهي ثبوت هذا السكون وبهذا سمي الود حباً لثبوته ــ وزالت الرحمة من بينهما أو من أحدهما بصاحبه فأعرض عنه ، فيعلم أن الله قد أراد طلاقهما ، وما يعرف ما قُلْناه إلا أهل التفكر من عباد الله ، فإن الله ما جعله آية إلا لهم ، هذا المقصود بالتفكر هنا ، لأن التفكر في ذات الله محال ، فلا يبقى إلا التفكر في الكون ، ومتعلق الفكرة الأسماء الحسنى وسمات المحدثات ــ **لطيفة** ــ اعلم أن الجمال العرضي حجاب على الجمال المطلق ، والحسن البديع الفائق المحقق ، القائم بذات الحق ، الذي لا يتقيد بالوقت ، ولا يدرك بالنعت فقال : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » فتعشقت نفسها بنفسها ، حتى لا تتعلق بغير جنسها ، فكان يذهب عنها ما كان لها من العز بالأمس ، من حسن التقويم والنظام ، ويُظهر التيه عليها ممن نقص عن مقامها ، وتقاصر عن تمامها ، فبقيت بذلك عزتها عليها موقوفة ، وهم غير جنسها إليها بالخدمة مصروفة . لذلك قال تعالى : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » فمن انحجب عن هذه الأرواح المجسدة بهذا الحجاب عن هذا الجمال ، لم يزل في سفال العوال ، ومن لم ينحجب به صح له المقام العال : .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

« واختلاف ألسنتكم وألوانكم » التي جعل الله فيها من الآيات في خلقه ، فكان منها التشاجر الموجود في العالم لاختلاف الألسنة والألوان ، « إن في ذلك لآيات للعالمين » .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

من نظر إلى حسن نظم القرآن وجمعه ، ولماذا قدم ما كان ينبغي في النظر العقلي في ظاهر الأمر أن يكون على غير هذا النظم ، فإن النهار لابتغاء الفضل والليل للمنام ، تبين له من خلف ستار هذه الآية وحسن العبارة عنها الرافعة سترها ، وهو قوله : « منامكم بالليل والنهار » أمر زائد على ما يفهم منه في العموم بقرائن الأحوال في ابتغاء الفضل للنهار والمنام لليل ، وهو أن الله نبه بهذه الآية على أن نشأة الآخرة الحسية لا تشبه هذه النشأة الدنياوية ، وأنها ليست بعينها ، بل تركيب آخر ومزاج آخر ، كما وردت به الشرائع والتعريفات النبوية في مزاج تلك الدار ، وإن كانت هذه الجواهر عينها بلا شك ، فإنها التي تبعثر في القبور وتنشر ، ولكن يختلف التركيب والمزاج بأعراض وصفات تليق بتلك الدار لا تليق بهذه الدار ، وإن كانت الصورة واحدة في العين والسمع والأذن والفم واليدين والرجلين بكمال النشأة ، ولكن الاختلاف بيّن ، فمنه ما يشعر به ويحس ومنه ما لا يشعر به ، ولما كانت صورة الإنشاء في الدار الآخرة على صورة هذه النشأةِ ، لم يشعر بما أشرنا إليه ، ولما كان الحكم يختلف عرفنا أن المزاج اختلف ، فهذا الفرق بين حظ الحس والعقل ، فقال تعالى « ومن آياته منامكم بالليل والنهار » ولم يذكر اليقظة وهي من جملة الآيات ، فذكر المنام دون اليقظة في حال الدنيا ، فدل على أن اليقظة لا تكون إلا عند الموت ، وأن الإنسان نائم أبداً ما لم يمت ، فذكر أنه في منام بالليل والنهار في يقظته ونومه ، وفي الخبر [الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا] ألا ترى أنه لم يأت بالباء في قوله تعالى : « والنهار » واكتفى بباء الليل ، ليحقق بهذه المشاركة أنه يريد المنام في حال اليقظة المعتادة ، فحذفها مما يقوي الوجه الذي أبرزناه في هذه الآية ، فالمنام هو ما يكون فيه النائم في حال نومه ، فإذا استيقظ يقول : رأيت كذا وكذا ، فدل أن الإنسان في منام ما دام في هذه النشأة في الدنيا إلى أن يموت ، فلم يعتبر الحق اليقظة المعتادة عندنا في العموم ، بل جعل الإنسان في منام في نومه ويقظته كما أوردناه في الخبر النبوي من قوله ﷺ : [الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا] فوصفهم بالنوم في الحياة الدنيا ، والعامة لا تعرف النوم في المعتاد إلا ما جرت به العادة أن يسمى نوماً ، فنبه النبي ﷺ بل صرح أن الإنسان في منام ما دام في الحياة الدنيا حتى ينتبه في الآخرة ، والموت أول أحوال الآخرة ، فصدّقه الله بما جاء به في قوله تعالى : « ومن آياته منامكم بالليل » وهو النوم العادى « والنهار » وهو هذا المنام الذي صرح به رسول الله ﷺ ،ولهذا

جعل الدنيا عِبْرَةً جسراً يعبر ، أي تعبر كما تعبّر الرؤيا التي يراها الإنسان في نومه ، فكما أن الذي يراه الرائي في حال نومه ما هو مراد لنفسه إنما هو مراد لغيره ، فيعبُر من تلك الصورة المرئية في حال النوم إلى معناها المراد بها في عالم اليقظة إذا استيقظ من نومه ، كذلك حال الإنسان في الدنيا ما هو مطلوب للدنيا ، فكل ما يراه من حال وقول وعمل في الدنيا إنما هو مطلوب للآخرة ، فهناك يعبر ويظهر له ما رآه في الدنيا ، كما يظهر له في الدنيا إذا استيقظ ما رآه في المنام ، فالدنيا جسر يُعبَر ولا يُعمَر ، كالإنسان في حال ما يراه من نومه يُعَبَّر ولا يُعَمَّر ، فإنه إذا استيقظ لا يجد شيئاً مما رآه ، من خير يراه أو شر ، وديار وبناء وسفر ، وأحوال حسنة أو سيئة ، فلابد أن يعبِّر له العارف بالعبارة ما رآه فيقول له : تدل رؤياك لكذا ، على كذا ، فكذلك الحياة الدنيا منام ، إذا انتقل إلى الآخرة بالموت لم ينتقل معه شيء مما كان في يده وفي حسه ، من دار وأهل ومال ، كما كان حين استيقظ من نومه لم ير شيئاً في يده مما كان له حاصلاً في رؤياه في حال نومه ، فلهذا قال تعالى : إننا في منام بالليل والنهار ، وفي الآخرة تكون اليقظة ، وهناك تعبر الرؤيا ، فمن نور الله عين بصيرته وعبر رؤياه هنا قبل الموت أفلح ، ويكون فيها مثل مَنْ رأى رؤيا ثم رأى في رؤياه أنه استيقظ ، فيقص ما رآه وهو في النوم على حاله على بعض الناس الذين يراهم في نومه فيقول : رأيت كذا وكذا ، فيفسره ويعبره له ذلك الشخص بما يراه في علمه بذلك ، فإذا استيقظ حينئذ يظهر له أنه لم يزل في منام ، في حال الرؤيا وفي حال التعبير لها ، وهو أصح التعبير ، وكذلك الفطن اللبيب في هذه الدار مع كونه في منامه يرى أنه استيقظ ، فيعبر رؤياه في منامه لينتبه ويزدجر ويسلك الطريق الأسَدّ ، فإذا استيقظ بالموت حمد رؤياه ، وفرح بمنامه وأثمرت له رؤياه خيراً ، فلهذه الحقيقة ما ذكر الله في هذه الآية اليقظة وذكر المنام ، وأضافه إلينا بالليل والنهار ، وكان ابتغاء الفضل فيه في حق مَنْ رأى في نومه أنه استيقظ في نومه فيعبر رؤياه ، وهي حال الدنيا ، فهذا تفصيل آيات المنام بالليل والنهار والابتغاء من الفضل ، وجعله « آيات لقوم يسمعون » أي يفهمون عن الله ، فهم أهل الفهم عن الله ، فإن الله تعالى قال : (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) أي لا يفهمون .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ

ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

للعقل نور يدرك به أموراً مخصوصة ، وللإيمان نور به يدرك كل شيء ما لم يقم مانع ، فبنور العقل تصل إلى معرفة الألوهية وما يجب لها وما يستحيل ، وما يجوز منها فلا يستحيل ولا يجب ، وبنور الإيمان يدرك العقل معرفة الذات وما نسب الحق إلى نفسه من النعوت ، فإن للعقول حداً تقف عنده من حيث ما هي مفكرة لا من حيث ما هي قابلة ، فنقول في الأمر الذي يستحيل عقلاً : قد لا يستحيل نسبة إلهية كما نقول فيما يجوز عقلاً : يستحيل نسبة إلهية .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

« وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده » إن الله هو المبدىء ، فهو يبدىء كل شيء خلقاً ، ثم يعيده أي يرجع الحكم إليه بأن يخلق ، فقوله : « يعيده » أي يعيد الخلق أي يفعل في العين التي يريد إيجادها ما فعل فيمن أوجدها ، وليس إلا الإيجاد ، فإن الخلق يراد به المخلوق في موضع مِثْل قوله : (هذا خلق الله) ويراد به الفعل مثل قوله : (ما أشهدتهم خلق السموات) فقوله تعالى : « هو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده » إنما يراد به هنا الفعل لا المخلوق ، فإن عين المخلوقات ما زالت من الوجود من قوله : « هو الذي يبدؤ الخلق » وأعني به الذات القائمة بنفسها ، وإنما انتقلت من الدنيا إلى البرزخ ، كما تنتقل من البرزخ إلى الحشر إلى الجنة أو إلى النار ، وهي هي من حيث جوهرها ، لا أنها عدمت ثم وجدت ، فتكون الإعادة في حقها ، فهو انتقال من وجود إلى وجود ، من مقام إلى مقام ، من دار إلى دار ، لأن النشأة التي تخلق عليها في الآخرة ما تشبه نشأة الدنيا إلا في اسم النشء ، فنشأة الآخرة

ابتداءً ، فلو عادت هذه النشأة لعاد حكمها معها ، لأن حكم كل نشأة لعينها ، وحكمها لا يعود فلا تعود ، والجوهر عينه لا غيره ، موجودٌ من حين خلقه الله لم ينعدم ، فإن الله يحفظ عليه وجوده بما يخلق فيه مما به بقاؤه ، فالإعادة إنما هي في كون الحق يعود إلى الإيجاد بالنظر إلى حكم ما فرغ من إيجاده من هذا المخلوق ، فكلما فرغ ابتداءً عاد إلى حكم الابتداء ، هذا حكم إلهي لا يزول ، فحكم الإعادة ما خرج حكمها عن الحق ، فحكمها فيه لا في الخلق الذي هو المخلوق ، فالعالم بعد وجوده ينتقل في أحوال جديدة يخلقها الله له ، فلا يزال الحق يخلق ويعود إلى الخلق فيخلق « وهو أهون عليه » وليس هذا الهين عن صعوبة في الابتداء ، **ولهذا القول بالمفهوم ضعيف في الدلالة** ، لأنه لا يكون حقاً في كل موضع « وله المثل الأعلى في السموات والأرض » ــ **الوجه الأول** ــ هو قوله : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) ابتداءً ، وإعادتهم أهون من ابتدائهم ، وابتداؤهم أهون من خلق السموات والأرض ــ **الوجه الثاني** ــ « وله المثل الأعلى » في التجلي الصوري « في السموات والأرض » وما ثَمَّ إلا سماء وأرض ، وله المثل الأعلى ، فله صورة في كل سماء وأرض « وهو العزيز » الذي لا يُرى من حيث هويته « الحكيم » في تجليه حتى يقال إنه رُئِيَ .

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

« تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » أي كخيفتكم أمثالكم ، لا عين نفس الخائف .

بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

فحرمان الجهل أوقع بهم .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠)

« فأقم وجهك للدين حنيفاً » أي مائلاً في جميع أحوالك من الله إلى الله عن مشاهدة وعيان ، ومن نفسك إلى الله عن أمر الله وإيثار لجناب الله ، ومن كل ما ينبغي أن يحال عنه عن أمر الله « فطرة الله التي فطر الناس عليها » إن الإيمان الأصلي هو الفطرة التي فطر الناس عليها ، وهو شهادتهم له سبحانه بالوحدانية في الأخذ الميثاقي ، فكل مولود يولد على ذلك الميثاق ، ولكن لما حصل في حصر الطبيعة بهذا الجسم محل النسيان جهل الحالة التي كان عليها مع ربِّهِ ونسيها ، فافتقر إلى النظر في الأدلة على وحدانية خالقه ، إذا بلغ إلى الحالة التي يعطيها النظر ، وإن لم يبلغ هذا الحد فحكمه حكم والديه ، فإن كانا مؤمنين أخذ بتوحيد الله تعالى منهما تقليداً ، وإن كانا على أي دين كان ألحق بهما ، فالفطرة التي فطر الناس عليها هي (ألست بربكم قالوا بلى) فكل مولود يولد على هذه الفطرة ؛ وفطرة كل شيء هو ما يقع به الفصل بين الصور فيقال : هذا ليس هذا ، إذ قد يقال : هذا عين هذا من حيث ما يقع به الاشتراك ، ففطرة الله التي فطر الناس عليها كونهم عبيده ، فمن أحوال الفطرة التي فطر الله الخلق عليها أن لا يعبدوا إلا الله ، فبقوا على تلك الفطرة في توحيد الله ، فما جعلوا مع الله مسمى آخر هو الله ، بل جعلوا آلهة على طريق القربة إلى الله ، ولهذا قال : سموهم ؛ فإنهم إذا سموهم بان أنهم ما عبدوا إلا الله ، فما عبد كل عابد إلا الله في المحل الذي نسب الألوهية له ، فصح بقاء التوحيد لله الذي أقروا به في الميثاق وأن الفطرة مستصحبة « لا تبديل لخلق الله » ـــ **الوجه الأول** ـــ وهو الفطرة وهو ما شهد به لله في أول مرة ـــ **الوجه الثاني** ـــ « لا تبديل لخلق الله » أي التبديل لله ليس للخلق تبديل ، وقد يكون معناه لا تبديل لخلق الله من كونه أعطى كل شيء خلقه ، وخلق الله كلماته فلا تبديل لخلق ، لا تبديل لكلمات الله ، وإنما التبديل لله ، فيسوغ في هذه الآية أن خلق الله هي كلمات الله ، فهي عبارة عن الموجودات ، كما قال في عيسى عليه السلام إنه كلمته ألقاها إلى مريم ، فنفى أن يكون للموجودات تبديل ، بل التبديل لله ، ولا سيما وظاهر الآية يدل على هذا التأويل ،

أي ليس لهم في الفطرة تبديل ، وهذه بشرى من الله بأن الله ما فطرنا إلا على الإقرار بربوبيته ، فما يتبدل ذلك الإقرار بما ظهر من الشرك بعد ذلك في بعض الناس ، لأن الله نفى عنهم أن يكون لهم تبديل في ذلك بل هم على فطرتهم ، وإليها يعود المشرك يوم القيامة عند تبري الشركاء منهم ، وإذا لم يضف التبديل إليهم فهي بشرى في حقهم بمآلهم إلى الرحمة ، وإن سكنوا النار فبحكم كونها داراً لا كونها دار عذاب وآلام ، بل يجعلهم الله على مزاج يتنعمون به في النار ، بحيث لو دخلوا الجنة بذلك المزاج تألموا لعدم موافقة مزاجهم لما هي عليه الجنة من الاعتدال .

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ

وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

« ظهر الفساد في البر » من خسف وغير ذلك وقحط ووباء وقتل وأسر « والبحر » وكذلك في البحر مثل هذا مع غَرَقٍ وتجرع غصص لزعزع ريح متلفة « بما كسبت أيدي الناس » أي بما عملوا « لنذيقهم بعض الذي عملوا » وهو عين الجزاء وهو في الدنيا ، فيوم الدنيا أيضاً هو يوم الدين أي الجزاء ، لما فيه من إقامة الحدود لذلك قال تعالى : « لنذيقهم بعض الذي عملوا » وهو عين الجزاء ، وهو أحسن في حق العبد المذنب من جزاء الآخرة ، لأن جزاء الدنيا مُذَكِّر وهو يوم عمل ، والآخرة ليست كذلك ، ولهذا قال في الدنيا « لعلهم يرجعون » يعني إلى الله بالتوبة ، فيوم الجزاء أيضاً يوم الدنيا كما هو يوم الآخرة ، وهو في الدنيا أنفع ، فما ابتليت البرية وهي برية ، إنما هو جزاء ، ما هو ابتداء .

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » لم يقيد الحق مؤمناً من مؤمن ، بل أوجب على نفسه نصر المؤمنين ، ولم يقل بمَنْ ، بل أرسلها مطلقة وجلاها محققة ، فالمؤمنون في كلام الله نوعان وهم الكافرون ، فنوع آمن بالله وكفر بالطاغوت وهو الباطل فهم أهل الجنة المعبر عنهم بالسعداء ، والنوع الآخر آمن بالباطل وكفر بالله وهو الحق فهم أهل النار المعبر عنهم بالأشقياء ، فقال عز وجل في حق السعداء (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) وهؤلاء هم الذين حق على الله نصرهم ، والألف واللام للعهد والتعريف ، وقال تعالى في حق الأشقياء (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، ولكن قد أطلق الحق نصرته هنا للمؤمنين ولم يخصص ، وهنا سر من أسرار الله تعالى في ظهور المشركين على المؤمنين في أوقات ، فتدبره تعثر عليه إن شاء الله ، فما ورد حتى نؤمن به ، إلا أن الإيمان إذا قَوِيَ في صاحبه بما كان ، فله النصر على الأضعف ، والميزان يخرج ذلك ، وقولي هذا ما كان لقوله (والذين آمنوا بالباطل) فسماهم مؤمنين ، ولكن تحقق في إيمانهم بالباطل أنهم ما آمنوا به من كونه باطلاً ، وإنما من كونهم اعتقدوا فيه ما اعتقد أهل الحق في الحق ، فمن هنا نسب الإيمان إليهم ، وبما هو في نفس الأمر على غير ما اعتقدوه سماه الحق لنا باطلاً ، لا من حيث ما توهموه ، فالنصر أجر الإيمان لذاته ، ولكن يقتضيه المؤمن وهو الذي صفته الإيمان ، وهو سبحانه وفيّ ، فلابد من نصر الإيمان ، ولا يظهر ذلك إلا في المؤمن ، والمؤمن لا يتبعض فيه الإيمان ، فاعلم ذلك ، وكل من تبعض فيه الإيمان لأجل تعداد الأمور التي يؤمن بها ، فآمن المؤمن ببعضها وكفر ببعضها فليس بمؤمن ، فما خذل إلا من ليس بمؤمن ، فإن الإيمان حكمه أن يعم ولا يخص ، فلما لم يكن له وجود عين في الشخص لم يجب نصره على الله ، فإذا ظهر الكافر على المؤمن في صورة الحكم الظاهر ، فليس ذلك بنصر الكافر عليه ، وإنما الذي يقابله لما ولّى ، وأخلى له موضعه ، ظهر فيه الكافر ، وهذا ليس بنصر ، وإذا جعلت الألف واللام في نصر المؤمنين للجنس ، فمن اتصف بالإيمان فهو منصور ، ومن هنا يظهر المؤمنون بالباطل في أوقات على الكافرين بالطاغوت ، فيجعلون ذلك الظهور نصراً ، لأن النصر عبارة عَمَّنْ ظهر على خصمه ، فمن جعل الألف واللام للجنس جعل إيمان أهل الباطل بالباطل أقوى من إيمان أهل الحق بالحق ، فالمؤمن من لا يولي الدبر ويتقدم ويثبت حتى يظفر أو يقتل ، ولهذا ما

انهزم نبي قط لقوة إيمانه بالحق ، وقد توعد الله المؤمن إذا ولّى دبره في القتال لغير قتال أو انحياز إلى فئة تعضده ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله) فخاطب أهل الإيمان ، وبقرائن الأحوال علمنا أنه تعالى أراد المؤمنين بالحق ، وأرسل الآية في اللفظ دون تقييد بمن وقع الإيمانُ به ، لكن قرائن الأحوال تخصص وتعطي العلم المقصود من ذلك ، غير أن الحق ما أرسلها مطلقة إلا ليقيم الحجة على الذين آمنوا بالباطل إذا هزمهم الكافرون بالطاغوت لما دخلهم من خلل في إيمانهم بالباطل ، وهو عندنا ليس بنصر ذلك الظهور الذي للمؤمنين بالباطل على الكافرين بالطاغوت ، وإنما المؤمنون بالحق لما تراءى الجمعان ، كان في إيمانهم خلل ، فأثر فيه الجبن الطبيعي ، فزلزل أقدامهم فانهزموا في حال حجابٍ عن إيمانهم بالحق ، ولا شك أن الخصم إذا رأى خصمه انهزم أمامه وفر وأخلى له مكانه ، لابد أن يظهر عليه ويتبعه ، فإن شئت سميت ذلك نصراً من الله لهم ، فما انتصروا على المؤمنين بالحق وإنما انتصروا على وجه الخلل الذي دخل في إيمانهم واستتر عنهم بالخوف الطبيعي ، فكانوا كفاراً من ذلك الوجه ، فكان نصرهم نصر الكفار بعضهم على بعض وهم المؤمنون بالباطل ، لأن هؤلاء المؤمنين بالحق آمنوا بما خوفهم به الطبع من القتل وهو باطل ، فآمنوا بالباطل لخوفهم من الموت ؛ والشهيد ليس بميت فإنه حيٌّ يرزق ، فلمَّا آمنوا به أنه موت آمنوا بالباطل ، فهزم أهل الباطل أهل الباطل ، وهذا يسمى ظهوراً لا نصراً ، إلا إذا جعلت الألف واللام للجنس فتشمل كل مؤمن بأمر ما من غير تعيين ، وليس المؤمن إلا مَنْ لم يدخل إيمانه بأمر ما خلل يقدح في إيمانه ، ومن ذلك يعلم أن الصدق سيف الله في الأرض ، ما قام بأحد ولا اتصف به إلا نصره الله ، لأن الصدق نعته والصادق اسمه ، فينصر الله المؤمن الذي لم يدخله خلل في إيمانه على من دخله خلل في إيمانه ، فإن الله يخذله على قدر ما دخله من الخلل ، أي مؤمن كان من المؤمنين ، فالمؤمن الكامل منصورٌ أبداً ، ولهذا ما انهزم نبي قط ولا ولي ، ألا ترى يوم حنين لما ادعت الصحابة رضي الله عنهم توحيد الله ، ثم رأوا كثرتهم فأعجبتهم كثرتهم فنسوا الله عند ذلك فلم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، مع كون الصحابة مؤمنين بلا شك ، ولكن دخلهم الخلل باعتمادهم على الكثرة ، ونسوا قول الله (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) فما أذِنَ الله هنا إلا للغلبة ، فأوجدها

فغلبتهم الفئة القليلة بها عن إذْنِ الله ، ومن هنا نكون في راحة مع الله إذا كانت الغلبة للكافرين على المسلمين ، فتعلم أن إيمانهم تزلزل ودخله الخلل ، وأن الكافرين فيما آمنوا به من الباطل والمشركين لم يتخلخل إيمانهم ولا تزلزلوا فيه ، فالنصر أخو الصدق حيث كان تبعه ، ولو كان خلاف هذا ما انهزم المسلمون قط ، كما أنه لم ينهزم نبي قط ، وأنت تشاهد غلبة الكفار ونصرتهم في وقت ، وغلبة المسلمين ونصرتهم في وقت ، والصادق من الفريقين لا ينهزم جملة واحدة ، بل لا يزال ثابتاً حتى يقتل أو ينصرف من غير هزيمة ، ومن تفسير هذه الآية بوجه عام أن الموحد إذا أخلص في إيمانه وثبت نصر على قرنه بلا شك ، فإذا طرأ عليه خلل ولم يكن مصمت الإيمان وتزلزل خذله الحق ، وما وَجَدَ في نفسه قوة يقف بها لعدوه من أجل ذلك الخلل فانهزم ، فلما رآه عدوه منهزماً تبعه وظهرت الغلبة للعدو على المؤمن ، فما نصر الله العدو وإنما خذل المؤمن لذلك الخلل الذي داخله ، فلما خذله لم يجد مؤيداً فانهزم بالضرورة يتبعه عدوه ، فما هو نصر للعدو وإنما هو خذلان للمؤمن لما ذكرناه . وأما من جهة التحقيق في هذه الآية فإنه لما تقرر في نفس المشرك أن الحجر أو الكوكب أو ما كان من المخلوقات أنه إله ، وهو مقام محترم لذاته ، تعيّن على المشرك احترام ذلك المنسوب إليه ، لكون المشرك يعتقد أن تلك النسبة إليه صحيحة ولها وجه ، ولما علم سبحانه أن المشرك ما احترم ذلك المخلوق إلا لكونه إلهاً في زعمه ، نظر الحق إليه لأنه مطلوبه ، فإذا وفّى بما يجب لتلك النسبة من الحق والحرمة ، وكان أشد احتراماً لها من الموحد ، وتراءى الجمعان كانت الغلبة للمشرك على الموحد ، إذ كان معه النصر الإلهي لقيامه بما يجب عليه من الاحترام لله وإن أخطأ النسبة ، وقامت الغفلة والتفريط في حق الموحد فخذل ، ولم تتعلق به الولاية لأنه غير مشاهد لإيمانه ، إذ يقول تعالى : (الله ولي الذين آمنوا) وإنما قاتل ليقال ، فما قاتل لله ، فأي شخص صدق في احترام الألوهية واستحضرها وإن أخطأ في نسبتها ولكن هي مشهوده كان النصر الإلهي معه ، فما جعل الله نصره واجباً عليه للموحد ، وإنما جعله للمؤمنين بما ينبغي للألوهية من الحرمة ووفّى بها ، فالمؤمن منصور بلا شك غير مخذول ، فمن خذل فلينظر من أين خذل ، فسيعدم من ذلك الأين الإيمان فإن قوله تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » قول صدق .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

« الله الذي خلقكم من ضعف » فالله تعالى خلقنا من ضعف وما خلقنا إلا عليه ، فما أنشأ العالم إلا منه وعليه ، فخلق الإنسان فقيراً إلى ربه ، مسكيناً ظاهر الضعف والحاجة بلسان الحال والمقال ، وهكذا الطفل عند ولادته لا يقدر على القيام ، فهو طريح قريب إلى أصله وهو الأرض ، وكذا المريض الذي لا يقدر على القيام والقعود ، ويبقى طريحاً لضعفه وهو رجوعه إلى أصله ، فالضعف أصل الإنسان لكونه ممكناً ، والممكن لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الترجيح على كل حال ، ثم جعل الله له قوة عارضة وهو قوله : « ثم جعل من بعد ضعف قوة » لما نقلنا من حال الطفولة إلى حال الشباب والتكليف ، فهي قوة الشباب ، وذلك حال الفتوة وفيها يسمى فتى ، وما قرن معها شيئاً من الضعف ، فإن الفتوة ليس فيها شيء من الضعف ، إذ هي حالة بين الطفولة والكهولة ، وهو عمر الإنسان من زمان بلوغه إلى تمام الأربعين من ولادته ، إلا أنه مع هذه القوة لا يستقل ، فأمر بطلب المعونة ،

ثم رَدَّ الله تعالى الإنسان إلى أصله من الضعف ، فإن القوة لله جميعاً ، والعبد موطنه الضعف والعبودية ، والضعف مرتبته ، فإنه خلق من ضعف ابتداء ، ورُدَّ إلى الضعف انتهاء ، فقال عز وجل : « ثم جعل من بعد قوة » قوة الشباب « ضعفاً » يعني ضعف الكهولة إلى آخر العمر « وشيبةً » يعني وقاراً أي سكوناً لضعفه عن الحركة ، فإن الوقار من الوقر وهو الثقل ، فقرن مع هذا الضعف الثاني الشيبة التي هي الوقار ، فإن الطفل وإن كان ضعيفاً فإنه متحرك جداً ، رُوِيَ أن إبراهيم عليه السلام لما رأى الشيب قال : يا رب ما هذا ؟ قال : الوقار ، قال : اللهم زدني وقاراً ؛ فالضعف هو أول العالم وآخره ، فإنا ما وجدنا للقوة ذكراً في الأول ولا في الآخر ، بل جاءت في الوسط وهي محل الدعوى الواقعة في الإنسان ، وإذا نظرنا في معنى هذا الضعف الذي خلقنا منه لوجدْناهُ عدم الاستقلال بالإيجاد ، فشرع لنا الاستعانة به في الاقتدار ، ثم جعل لنا قوة غير مستقلة ، فإنه لولا أن للمكلف نسبة وأثراً في العمل ما صح التكليف ولا صح طلب المعونة من ذي القوة المتين ، فهو وإن خلقنا من ضعف فإنه جعل فينا قوة لولاها ما كلفنا بالعمل والترك ، لأن الترك منع النفس من التصرف في هواها ، وبهذا عمت القوة العمل والترك ، وقرن الشيب بالضعف الذي رجعنا إليه ، ليرينا بذلك الشيب وهو نور أن ذلك الضعف ما هو ضعف ثان من أجل ما نكرّه ، فهو رجع إلى الضعف الأول ، فكان الضعف الثاني رجوعاً إلى الأصل ، فسمي هرماً ، والشيب للشيخوخة ، وهذا الضعف الأخير إنما أعده الله لإقامة النشأة الآخرة عليه كما قامت النشأة الدنيا على الضعف ، وإنما كان هذا ليلازم الإنسان ذاته الذلة والافتقار وطلب المعونة والحاجة إلى خالقه ، ومع هذا كله يذهل عن أصله ويتيه بما يعرض له من القوة ، فإذا استوى قائماً وبَعُد عَنْ أصله (وهو الأرض) تَفرْعَنَ وتجبَّر وادعى القوة ، وقال : أنا ؛ فالرجل من كان مع الله في حال قيامه وصحته ، كحاله في اضطجاعه من المرض والضعف وهو عزيز ـ **نصيحة** ـ الاعتناء بالصغير رحمة به لضعفه ، فإذا كبر وكِلَ إلى نفسه ، فإن بقي في كبره على أصله من الضعف صحبته الرحمة ، وإن تكبر عن أصله وادعى القوة المجعولة فيه بعد ضعفه أضاعه الله في كبره برد الضعف إليه ، فاستقذره وليه وتمنى مفارقته ، وفي ضعف صغره كان يشتهي حياته ويرغب في تقبيله ولا يستقذره ـ **إشارة** ـ « الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة » هذا حال وقت نظرك إن نظرت « ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبةً » فنكصت على عقبك ، فانظر كيف تكون ؟ .

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(٣١) سُورَةُ لُقْمَانَ مَكِّيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

« كأن في أذنيه وقراً » وهو ثقل الأسباب الدنيوية التي تصرفه عن الآخرة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾

« خلق السموات بغير عمد ترونها » الإنسان قطب الفلك وهو العمد ، ألا تراه إذا انتقل من الدنيا خربت ، وزالت الجبال وانشقت السماء وانكدرَت النجوم ، فالإنسان هو العين المقصودة ، فهو مجموع الحكم ، ومن أجله خلقت الجنة والنار ، والآخرة والأحوال كلها والكيفيات ، وفيه ظهر مجموع الأسماء الإلهية وآثارها ، وهو المكلف المختار ، وهو المجبور في اختياره ، وله يتجلى الحق بالحكم والقضاء والفصل ، وعليه مدار العالم كله ، ومن أجله كانت القيامة ، وبه أخذ الجان ، وله سخر ما في السموات والأرض ، ففي حاجته يتحرك العالم كله علواً وسفلاً دنياً وآخرة ، فالإنسان الكامل عمد السماء الذي يمسك الله بوجوده السماء أن تقع على الأرض ، فإذا زال الإنسان الكامل وانتقل إلى البرزخ هوت السماء وانشقت « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » خلق الله الأرض مثل الكرة أجزاء ترابية وحجرية ، وضم الله بعضها إلى بعض ، فلما خلق الله السماء بسط الأرض بعد ذلك ليستقر عليها من خلقت له مكاناً ، ولذلك مادت ، فخلق سبحانه الجبال فقال بها عليها دفعة واحدة ، فكل ما تراه عالياً شامخاً فيها فهو جبل ووتد ، ثقّلها الله به ليسكن ميدها .

هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

إن الخلق يراد به المخلوق في موضع مثل قوله : « هذا خلق الله » فإن الفعل قد يكون نفس المفعول بالشيئية والأشياء ، فقوله تعالى : « هذا خلق الله » أي مخلوق الله .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » وهنا تظهر عناية الله بعبده إذا أنزل كل حكمة في موضعها .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

لما علم لقمان أن الشرك ظلم عظيم للشريك مع الله أوصى بها ابنه ، فإن الله آتاه الحكمة ، وتصغير لقمان اسم ابنه تصغير رحمة ، ولهذا وصاه بما فيه سعادته إذا عمل بذلك فقال « لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » وما ظهر هذا الظلم العظيم من موجود إلا من هذا النوع الإنساني ، فإنه تقع أمور كثيرة يعظم في النفوس قدرها بحيث لا تتسع النفس لغيرها ، ولاسيما في الأمور الهائلة التي تؤثر الخوف في النفوس ، ومنها الشرك بالله ، فقال تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » في نفس الموحد ، يشاهد عظمته في نفس المشرك لا في نفسه ، فيشاهده ظلمة عظيمة ، والمشركون هم الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ، وهو الظلم العظيم الذي ظلموا به هذا المقول عليه إنه إله مع الله ، فظلموا الله في وحدانية الألوهية له ، وظلموا الشريك في نسبة الألوهية إليه ، فاتخاذ الشريك من مظالم العباد ؛ فإن من اتُّخِذَ إلهاً من غير دعوى منه ، بل هو في نفسه عبد غير راضٍ بما نسب إليه ، وعاجز عن إزالة ما ادُّعِي فيه ، فإنه مظلوم حيث سلب عنه هذا المدعي ما يستحقه ، وهو كونه عبداً ، فظلمه ، فينتصر الله له لا لنفسه ، فيأخذ الله المشركين بظلم الشريك لا بظلمه في أحديته ، فإن الذي جعلوه شريكاً يتبرأ منهم يوم القيامة ، حيث تظهر الحقوق إلى أربابها المستحقين لها .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

« وفصاله في عامين » وقال تعالى : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) على أقل ما يولد من زمن الحمل ويعيش ، وهو ستة أشهر حملاً وسنتان رضاعاً على التمام ، وإن أتم الحمل المعتاد في الغالب وهو تسعة أشهر ، كانت مدة الرضاع حولين إلا ربع حول ، وهي إحدى وعشرون شهراً « أن اشكر لي » من الوجه الخاص ، فقدم نفسه سبحانه ليعرفك أنه السبب الأول والأولى ، ثم عطف وقال « ولوالديك » وذلك في مقام إيجاد عين العبد ، حيث كان إيجاده عند سبب اجتماع والديه بالنكاح وتعبهما في إيجاده ، فقال « ولوالديك » من الوجه السببي وهي الأسباب التي أوجدك الله عندها لتنسبها إليه سبحانه ، ويكون لها عليك فضل التقدم بالوجود خاصة ، لا فضل التأثير ، لأنه في الحقيقة لا أثر لها وإن كانت أسباباً لوجود الآثار ، فبهذا القدر صح لها الفضل ، وطلب منك الشكر ، وشكرهما هو أن تنسبهما إلى مالكهما وموجدهما ، « أن اشكر لي » هو قوله (أو أشد ذكراً) في قوله (فاذكروا الله) « ولوالديك » هو قوله « كذكركم آباءكم » ففي هذه الآية شكر الله حقيقة ، وشكر السبب عن أمر الله عبادة من حيث أمرهم بشكره قال ﷺ : [لا يشكر الله من لم يشكر الناس] فمن علم أن الله هو المعطي لم يشكر غيره إلا بأمره ، ولذلك تمم فقال « إلّي المصير » فالعامل في الكل حقاً وخلقاً الله ، ولذلك قال بعد أن شرك « إلي المصير » فوحد بعد أن شرَّك في الشكر .

وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾

أمر الإنسان بالإحسان لأبويه والبر بهما ، وامتثال أوامرهما ما لم يأمره أحد الأبوين بمخالفة أمر الحق فلا يطيعه ، كما قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلّي » فأمر باتباع المنيبين إلى الله ومخالفة نفوسهم إن أبت ذلك « إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

ينبه الحق بهذه الآية على أن الرزق مضمون ، لابد أن يوصله للعبد ، فإن رزقه ورزق عياله لابد أن يأت به الله ، قال ﷺ : [لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها] كما أنه لن تموت نفس حتى يأتيها أجلها المسمى ، وسواء كان الرزق قليلاً أو كثيراً ، فيقول لقمان لابنه : « يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل » أي أينما كانت مثقال هذه الحبة من الخردل لقلتها بل خفائها « فتكن في صخرة » أي عند ذي قلب قاس لا شفقة له على خلق الله ، قال تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) روي في النبوة الأولى أن لله تعالى تحت الأرض صخرة صماء ، في جوف تلك الصخرة حيوان لا منفذ له في الصخرة ، وأن الله قد جعل له فيها غذاء ، وهو يسبح الله ويقول : سبحان من لا ينساني على بعد مكاني ؛ يعني من الموضع الذي تأتي منه الأرزاق ، لا على بعد مكانها من الله « أو في السموات » بما أودع الله في سباحة الكواكب في أفلاكها من التأثيرات في الأركان لخلق أرزاق العالم أو الأمطار أيضاً ، فإن السماء في لسان العرب : المطر ، قال الشاعر : إذا سقط السماء بأرض قوم ؛ يعني بالسماء هنا المطر « أو في الأرض » بما فيها من القبول والتكوين للأرزاق ، فإنها محل ظهور الأرزاق ، كذلك الكوكب يسبح في الفلك وعن سباحته يكون ما يكون في الأركان الأمهات من الأمور الموجبة للولادة ، فأينما كان مثقال هذه الحبة « يأت بها الله » و لم يقل يأت إليها ، ومن هذا يستدل أن صاحب الرزق من يأكله لا من يجمعه ، فإن الله يأتي به ، فهو تعالى الآتي برزقك إليك حيث كنت وكان رزقك ، فهو يعلم موضعك ومقرك ويعلم عين رزقك « إن الله لطيف » أي هو أخفى أن يعلم ويوصل إليه ـــ أي إلى العلم به ـــ من حبة الخردل « خبير » للطفه بمكان من يطلب تلك الخردلة منه ، لما له من الحرص على دفع ألم الفقر عنه ، فإن الحيوان ما يطلب الرزق إلا لدفع الآلام لا غير ـــ **تنبيه** ـــ نبهنا الله بهذا التعريف لتأتيه أنت بما كلفك أن تأتيه به ، فإنك ترجوه فيما تأتيه به ولا يرجوك فيما أتاك به ، فإنه غني عن العالمين وأنت من الفقراء إليه ، فإتيانك إليه بما

كلفك الإتيان به آكد في حقك أن تأتي به ، لافتقارك وحاجتك لما يحصل لك من المنفعة بذلك .

يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾

فإنه لا يظهر بهذه الصفة إلا من هو جاهل ، فإنه لا يخلو أن يفتخر على مثله أو على ربه وخالقه ، فإن افتخر على مثله فقد افتخر على نفسه ، والشيء لا يفتخر على نفسه ، ففخره واختياله جهل ، ومحال أن يفتخر على خالقه ، لأنه لابد أن يكون عارفاً بخالقه أو غير عارف بأن له خالقاً ، فإن عرف وافتخر عليه فهو جاهل بما ينبغي أن يكون لخالقه من نعوت الكمال ، وإن لم يعرف كان جاهلاً ، فما أبغضه الله إلا لجهله ، فإن الجهل مذموم .

وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات » من ملك وكوكب سابح في فلك ، فمن الملائكة الموكل بالوحي والإلقاء ، ومنهم الموكل بالأرزاق ، ومنهم الموكل بقبض الأرواح ، ومنهم الموكل بإحياء الموتى ، ومنهم الموكل بالاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم ، ومنهم الموكلون بالغراسات في الجنة جزاء لأعمال العباد ، « وما في الأرض » وما بينهما من الخلق جميعاً منه ، قال تعالى في سورة الجاثية (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً

منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فأدخل الحق العالم كله أجمع تحت تسخير هذا الإنسان الأرفع ، فما من ملأ أعلى إلا به مستعل ، وما من ملأ أدنى إلا يتضرع إليك ويبتهل ، فهم بين مستغفر لك ومُصَلّ عليك ، وملك سلام يوصله من الحق تعالى إليك ، وإذا كان السيد الحق يصلي عليك فكيف بملائكته ؟ وإذا كان ناظراً إليك فما ظنك بخليقته ؟ وما من فاكهة ونعمة عند تناهيها إلا متضرعة لك خاضعة أن تؤدي لك ما أودع الله من المنافع فيها ، فما في الوجود كله حقيقة ولا دقيقة إلا ومنك إليها ومنها إليك رقيقة ، فانظر أين مرتبتك في الوجود ؟ فالعالم كله على الحقيقة أيها الإنسان تحت تسخيرك ، إذْ سلم من نظرك وتدبيرك ، فإن كل شيء خلقه الله للإنسان ومن أجله وسخر له ، لما علم الله من حاجته إليه ، فهو فقير إلى كل شيء ليس له غنى عنه ، ولذلك استخدم الله له العالم كله ، فما من حقيقة صورية في العالم الأعلى والأسفل إلا وهي ناظرة إلى هذا الإنسان نظر كمال ، أمينة على سر أودعها الله إياه لتوصله إليه « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » كل نعم الله عظيمة ظاهرة وباطنة ، فظاهرة ما شوهد منها ، وباطنة ما علم ولم يشهد ، وظاهرة التعظيم عرفاً وباطنة التعظيم عند أهل الله وأهل النظر المستقيم مما ليس بعظيم في الظاهر ، فلا أرى شيئاً ليس عندي بعظيم ، لأني أنظر بعين اعتناء الله به حيث أبرزه في الوجود ، فأعطاه الخير ، فليس عندنا أمر محتقر ، فالكل نعمته ظاهرة وباطنة ، وقد أسبغها على عباده ، وكم من نعمة لله أخفاها شدة ظهورها ، واستصحاب كرورها على المنعم عليه ومرورها ، ومن النعم الباطنة المعارف والعلم به .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

« ومن يسلم » وهو الإسلام والانقياد الذاتي للعبد ، لأنه تعالى قال « وجهه » ووجه الشيء حقيقته وذاته « إلى الله » وجاء هنا بالاسم الله ، لأن الله قد عصم هذا الاسم أن يسمى به غير الله ، فلا يفهم منه عند التلفظ به وعند رؤيته مرقوماً إلا هوية الحق لا غير « وهو محسن » أي فعل ذلك عن شهود منه ، لأن الإحسان أن ترى ربك في عبادتك ،

فإن العبادة لا تصح من غير شهود ، وإن صح العمل فالعمل غير العبادة ، فإن العبادة ذاتية للخلق ، والعمل عارض من الحق عرض له ، فتختلف الأعمال منه وفيه والعبادة واحدة العين « فقد استمسك بالعروة الوثقى » أي التي لا تتصف بالانخرام ، فكان عمل العبد في مقام الشهود من حيث قوله تعالى : [كنت سمعه وكنت بصره وكنت يده] وقوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فأرجع الحق هذا التفصيل كله إلى عين واحدة فقال : « وإلى الله عاقبة الأمور » .

وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

« إن الله هو الغني الحميد » أي المثنى عليه بالغنى ، لأن صفة الغنى لا شيء أعلى منها ، وهي صفة ذاتية للحق تعالى .

وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا : إنا أوتينا التوراة فيها موعظة وتفصيل كل شيء ، فلا حاجة إلى ما جاء به محمد ﷺ ؛ فأنزل الله تعالى « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ... » الآية ، أي لو كان كلُّ ما في الأرض من الأشجار تفيد من كلام الله تعالى ما أفادته شجرة موسى ﷺ ما نفدت كلمات الله ولا حصل الاستغناء عنها . واعلم أن الممكنات هي كلمات الله التي لا تنفد ، وهي تحدث أي تظهر دائماً ، فالوجود والإيجاد لا يزال دائماً ، فمخلوقاته لا تزال توجد ولا يزال خالقاً . وليست كلمات الله سوى صور

الممكنات وهي لا تتناهى ، وما لا يتناهى لا ينفد ولا يحصره الوجود ، من حيث ثبوته لا ينفد ، فإن خزانة الثبوت لا تعطي الحصر ، فإنه ليس لاتساعها غاية تدرك ، فكلما انتهيت في وهمك في اتساعها إلى غاية فهو من وراء تلك الغاية ، ومن هذه الخزانة تظهر كلمات الله في الوجود على التتالي والتتابع أشخاصاً بعد أشخاص ، وكلمات إثر كلمات ، والبحار والأقلام من جملة الكلمات ، والمادة التي ظهرت فيها كلمات الله التي هي العالم هي نَفَس الرحمن ، ولهذا عبّر عنه بالكلمات ، فقيل في عيسى عليه السلام : إنه كلمة الله ، وصدرت هذه الكلمات عن تركيب يعبر عنه في اللسان العربي بلفظة كن ، فكلمات الله كلها عن كلمة الله كن ، وعنها تنشأ الكائنات ، وقد أخبر الله أنه ما من شيء يريد إيجاده إلا يقول له كن ، وجاء بلفظة كن لأنها لفظة وجودية ، فنابت مناب جميع الأوامر الإلهية ، فتظهر أعيان الكلمات وهو المعبر عنها بالعالم بكلمة كن ، فالكلمة ظهورها في النَفَس الرحماني ، والكون ظهورها في العماء ، فما هو للنَفَس يسمى كلمة وأمراً ، وبما هو في العماء يسمى كوناً وخلقاً وظهور عين ؛ فكلمات الله لا تنفد وهي أعيان موجوداته ، والوجود كله كلمات الله التي لا تنفد أبداً . واعلم أن فائدة الكلام الإفهام بالمقاصد للسامعين ، والأحوال مفهمةٌ وهي الكلام ، ولا يخلو موجود أن يكون على حال ما ، فحاله عين كلامه ، لأنه المفهم الذي ينظر إليه ما هو عليه في وقته ، فلا لسان أفصح من لسان الأحوال ، وقرائن الأحوال تفيد العلوم التي تجيء بطريق العبارات ، والعبارات من جملة الأحوال ، فانطلق في الاصطلاح اسم الكلام على العبارات .

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

راجع سورة الحج آية ـــ ٦١ ـــ « كل » يثبت إلى وقت معين ثم يزول حكمه لا عينه ، فإنه تعالى قال : « يجري إلى أجل مسمى » فإذا بلغ جريانه الأجل زال جريانه وإن بقي عينه . واعلم أن الله تعالى جعل لكل صورة في العالم أجلاً تنتهي إليه في الدنيا والآخرة ،

إلا الأعيان القابلة للصور فإنه لا أجل لها ، بل لها منذ خلقها الله الدوام والبقاء ، قال تعالى : « كل يجري إلى أجل مسمى » فجاء بكل وهي تقتضي الإحاطة والعموم ، وقد قلنا : إن الأعيان القابلة للصور لا أجل لها ، فبماذا خرجت عن حكم « كل » ؟ قلنا : ما خرجت وإنما الأجل الذي للعين إنما هو ارتباطها بصورة من الصور التي تقبلها ، فهي تنتهي في القبول لها إلى أجل مسمى ، وهو انقضاء زمان تلك الصورة ، فإذا وصل الأجل المعلوم عند الله في هذا الارتباط انعدمت الصورة وقبلت العين صورة أخرى ، فقد جرت الأعيان إلى أجل مسمى في قبول صورة ما ، كما جرت الصورة إلى أجل مسمى في ثبوتها لتلك العين الذي كان محل ظهورها ، فقد عم الكل الأجل المسمى ، فقد قدر الله لكل شيء أجلاً ، في أمر ما ينتهي إليه ، ثم ينتقل إلى حالة أخرى يجري فيها أيضاً إلى أجل مسمى ، فإن الله خلّاق على الدوام مع الأنفاس ، فمن الأشياء ما يكون مدة بقائه زمان وجوده وينتهي إلى أجله في الزمان الثاني من زمان وجوده ، وهي أقصر مدة في العالم ، وفعل الله ذلك ليصح الافتقار مع الأنفاس من الأعيان إلى الله تعالى ، فلو بقيت زمانين فصاعداً لاتصفت بالغنى عن الله في تلك المدة ، وهذه مسئلة يقول بها الأشاعرة من المتكلمين ، وموضع الإجماع من الكل في هذه المسئلة التي لا يقدرون على إنكارها الحركة ، إلا طائفتين : من يجعل الحركة نسبة لا وجود لها وهو الباقلاني من المتكلمين ، وأصحاب الكمون والظهور القائلون به ، وإن قال القائلون بالكمون والظهور بذلك فإنهم تحت حيطة « كل » بهذا المذهب ، فإنه قد جرى في كمونه إلى أجل مسمى ، وهو زمان ظهوره ، فقد انقضت مدة كمونه ، وجرى في ظهوره إلى أجل مسمى ، وهو زمان كمونه ، فقد انقضت مدة ظهوره ، ولا يلزم من جريانهم إلى الأجل أن المراد عدمهم ، بل يجوز أن يكون له العدم ، ويجوز أن يكون الانتقال مع بقاء العين الموصوفة بالجري ، ويجوز أن يكون منه أجل يعدمه ، ومنه ما يكون له أجل بانتقاله يعدمه ، وهو الذي نذهب إليه ونقول به ، فإنه لابد لكل شيء من غاية ، والأشياء لا يتناهى وجودها فلا تنتهي غاياتها ، فالله يجدد في كل حين أشياء ، وكل شيء له غاية تلك الغاية أجله المسمى ، فليس الأجل إلا لأحوال الأعيان ، والأعيان غايتها عين لا غاية .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

« وأن الله هو العلي » في شأنه وذاته عما يليق بسمات الحدوث وصفات المحدثات « الكبير » بما نصبه المشركون من الآلهة ، ولهذا قال الخليل في معرض الحجة على قومه ، مع اعتقاده الصحيح أن الله هو الذي كسر الأصنام المتخذة آلهة حتى جعلها جذاذاً ، مع دعوى عابديها بقولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فنسبوا الكبر له تعالى على آلهتهم ، فقال إبراهيم عليه السلام (بل فعله كبيرهم فاسئلوهم إن كانوا ينطقون) فلو نطقوا لاعترفوا بأنهم عبيد ، وأن الله هو الكبير العلي العظيم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

« ليريكم من آياته » آياته هي الدلائل عليه ، ولما كانت الدار دار بلاء لا يخلص فيها النعيم عن البلاء وقتاً واحداً ، وأقله طلب الشكر من المنعم بها عليها ، وأي تكليف أشق منه على النفس ؟ يؤيد ذلك قوله تعالى في حق راكب البحر « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » إذا اشتد الريح عليه وبرد ، فبما فيها من النعمة يطلب منه الشكر عليها ، وبما فيها من الشدة والخوف يطلب منه الصبر .

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

يا ربنا أسمعتنا فسمعنا ، وأعلمتنا فعلمنا ، فاعصمنا ، وتعطف علينا ، فالمنصور من نصرته ، والمؤيد من أيدته ، والمخذول من خذلته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ

مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى « ويعلم ما في الأرحام » فإنه الخالق ما فيها وهو قوله تعالى (يعلم السر) فإن السر النكاح .

(٣٢) سُورَةُ السَّجْدَةِ مَكِّيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

« تنزيل الكتاب » أنزله بصفة العلم ، وقلوب كلمات الحق محله ، وهو نزول يتنزه عن أن تدرك ذاته « لا ريب فيه » عند أهل الحقائق « من رب العالمين » .

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

راجع الأعراف آية ــ ٥٤ ــ .

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾

« من ماء مهين » وهو الماء الذي استقر في رحم المرأة .

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

« ثم سواه » فبعد تسوية أرض البدن وقبوله للاشتعال بما فيه من الرطوبة والحرارة ، نفخ الله فيه فاشتعل ، فكان ذلك الاشتعال روحاً لـه « وجعل لكـم السمـع والأبصار والأفئدة » وهي القوى والمعاني التي لا توجد إلا في هذه الأرض البدنية الإنسانية « قليلاً ما تشكرون » .

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يُحشَر المجرمون وهم أصحاب الشمال منكوسين ، أما السعداء فيحشرون على حال الاستقامة .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

لا حكم لأداة لو ، فإن كلمة لو لو زرعت ما نبت عنها شيء ويخسر البذر ، فمتى سمعت ــ لو ــ حيث سمعتها فلا تنظر إلى ما تحتها ، فإن ما تحتها ما يوجد ، فلا تخف منها ولا من دلالتها ، وليكن مشهودك الواقع خاصة .

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)﴾

« إنما » إن حرف تحقيق وتنكير « يؤمن بآياتنا » يقول : إن الذي يصدق بآياتنا أنها آيات نصبن ، لها دلالات على وجودنا وصدق أرسالنا ، ما هي عن همم نفوسهم هم « الذين إذا ذكروا بها » والتذكر لا يكون إلا عن علم غفل عنه أو نسيان من عاقل ، يقول : إنها مُدرَكة بالنظر العقلي أنها دلالات على ما نصبناها عليه « خروا سجداً » فإذا ذكروا بها وقعوا على وجوههم « وسبحوا بحمد ربهم » فنزهوا ربهم بما نزه به نفسه على ألسنة رسلهم « وهم لا يستكبرون » ولم يعطهم العلم الأنفة عن ذلك ، فيفرق بين مدارك عقله وما يعطيه نظره وبين ما يعطيه إيمانه ، فينزه ربه إيماناً وعقلاً ، ويأخذ العلم والحكمة حيث وجدها .

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع » فإن الثواب لهم مشهود ، والقيامة وأهوالها والجنة والنار مشهودتان ، شغلهم هول المعاد عن الرقاد ، فياليت شعري مَنْ أقامهم من المضاجع حين نَوّم غيرهم ؟ أترى ذلك من نفوسهم ؟ لا والله ، بل هو خلق فيهم طاعته ، وأثنى عليهم بأنهم أطاعوه ، فقال : « ومما رزقناهم ينفقون » فمما رزقهم التجافي عن المضاجع وعن دار الغرور ، ومما رزقهم الدعاء والابتهال ، ومما رزقهم الخوف منه والطمع فيه ، فأنفقوا ذلك كله عليه فقبله منهم ــ **إشارة** ــ من باب (يحبهم ويحبونه) .

نادى الحبيب : من الذي	بالباب ؟ قلت : فتى دعي
قال : ادعى هل شاهد	يدريه ؟ قلت له : معي
إن كنت أكذب سيدي	حسبي شهادة أدمعي
وتسهدي وتبلدي	وتوجعي وتفجعي
وتلهفي وتحيري	وتسرعي بتشرعي

مــا زلت أسهــر باكيــاً	حتــى بَكــاني مضجعــي
شهِــدت بــذلك زفــرتي	وسنــا النجــوم الطُلَّـــع

قوله : « وتسرعي بتشرعي » أي إنك ناديتني بالإسراع فيما شرعت ، وقد فعلته ، فهو أيضاً من شهودي على صدق دعواي ، وقوله : « حتى بكاني مضجعي » أي ومن الشهود مضجعي حيث تجافى جنبي عنه ، فكنت ممن قيل فيهم في معرض الثناء الإلهي « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾

« فلا تعلم نفس » فنكّر ونفى العلم « ما أخفي لهم » أي هؤلاء الذين بهذه المثابة « من قرة أعين » يعني فيها ، فعلمنا على الإجمال أنه أمر مشاهد ، لكونه قرنه بالأعين و لم يقرنه بالأذن ولا بشيء من الإدراكات ، فتقر أعينهم بما شاهدوه ، فيعلمون ما أخفي لهم فيهم مما تقر به أعينهم ، ومتعلق الرؤية إدراك عين المرئي ــ **تفسير من باب الإشارة** ــ قال تعالى في صلاة الليل « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين » يعني فيها ، قال ﷺ : [وجعلت قرة عيني في الصلاة] لأنه مناج ربه من حيث ما هو مصل ، وجليس من حيث ما هو ذاكر .

مــا قــرة العــين غــير عينــي	فبينــــي كان الهوى وبينــــي
والله لــــولا وجــود كــوني	مــا لاح عينــي لغــير عينــي
فكونـــــه مــــا رأيت فيــــه	أكمــل مــن صورتي وكــوني
بـالبيــن أوصلــت كــل بيــن	فقــام شكــر البيــن بينــي
قــد أحسن الله في وجــودي	عنــد أداء الفــروض عــوني
أشهــدني فيــه علــم ذاتي	في هــذه الــدار قبــل حينــي
لا فــرّق الله يــا حبيبــي	مــا بين أنفــاسه وبينــي

أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

الإعراض عن الآيات التي نصبها الحق دلائل عليه دليل على عدم الإنصاف واتباع الهوى المردي ، وهو علة لا يبرأ منها صاحبها بعد استحكامها حتى يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، فعند ذلك يريد استعمال الدواء فلا ينفع ، كالتوبة عند طلوع الشمس من مغربها ، لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، والإيمان عند حلول البأس وعند الاحتضار والتيقن بالمفارقة .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

اعلم أن الله ما ذكر أخبار القرون الماضية إلا لنكون على حذر من الأسباب التي أخذهم الله بها أخذته الرابية ، وبطش بهم البطش الشديد ، وأما الموت فأنفاس معدودة وآجال محدودة ، وليس الخوف إلا من أخذه وبطشه لا من لقائه ، فإن لقاءه يسر الولي ، والموت سبب اللقاء ، فهو أسنى تحفة يتحفها المؤمن ، فكيف به إذا كان عالماً ؟ بخ على بخ .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

إن العين لا تخطىء أبداً ، لا هي ولا جميع الحواس ، فإن إدراك الحواس إدراك ذاتي ، ولا تؤثر العلل الظاهرة العارضة في الذاتيات ، وإدراك العقل على قسمين : إدراك ذاتي هو فيه كالحواس لا يخطىء ، وإدراك غير ذاتي ، وهو ما يدركه بالآلة التي هي الفكر وبالآلة التي هي الحس ، فالخيال يقلد الحس فيما يعطيه ، والفكر ينظر في الخيال فيجد الأمور مفردات فيحب أن ينشىء منها صورة يحفظها العقل ، فينسب بعض المفردات إلى بعض ، فقد يخطىء في النسبة الأمر على ما هو عليه وقد يصيب ، فيحكم العقل على ذلك الحد فيخطىء ، فالعقل مقلد ، ولهذا اتصف بالخطأ ، وقد حصرت الآيات في السمع والبصر ، فإما شهود وإما خبر

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

(٣٣) سُورَةُ الأَحْزَابِ مَدَنِيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ وَمَا

جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

« وهو يهدي السبيل » أي يبينه لتمشي عليه فإنه الكفيل .

ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

لا يقال ابن إلا لبنوة الصلب وإن جازت بنوة التبني ولكن قول الله أولى ، جاء في الخبر النبوي [من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله] فبنوة التبنّي بالاصطفا والمرتبة واللفظ ، ولفظة الابن هي المنهي عنها .

ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

« النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » ـــ **إشارة** ـــ فإنه ﷺ الأب في الولادة الدينية ، فلذلك كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه في هذه الولادة المعنوية النفوس الطاهرات الصالحات لأن تكون مورداً لأسراره ، وهم الرجال العلماء ، والمؤمنون ليسوا رجالاً بهذا الاعتبار لأنهم أطفال في الرضاع ، فأَعطِ الطين حقه وإن جاهدك على أن تشرك بالله ما ليس لك به علم فلا تطعه ، وصاحبه في الدنيا معروفاً ، وانفِرْ إلى رحمك الديني الذي هو أولى بك من نفسك ، قال تعالى في الرحم الديني : « النبي أولى بالمؤمنين من

أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » وقال : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ــ **إشارة ثانية** ــــ الحق أولى بعباده المضافين إليه المميزين من غيرهم ، وهم الذين لم يزالوا عباده في حالة الاضطرار والاختيار ، من نفوسهم ، وما هو مع من لم يضف إليه بهذه المثابة ، فلكل عالم حظ معلوم من الله لا يتعدى قسمه .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

وكان هذا الميثاق قبل وجود جسد آدم وهو الميثاق الأول فإن الرسل خلفاء الله في الأرض ، فلابد لهم من ميثاق خاص في التبليغ ، حتى يمتاز التابع من المتبوع ، والميثاق الثاني لما وجد آدم وقبض الحق على ظهره واستخرج منه بنيه كأمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم .

﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

« ليسأل الصادقين عن صدقهم » ــ **الوجه الأول** ــ ليسأل الصادقين فيما صدقوا فيه ، هل صدقوا فيما أمروا به وأبيح لهم ؟ أو هل صدقوا في إتيان ما حرم عليهم إتيانه مع كونهم صادقين ؟ فيقال لهم : فيما صدقتم ؟ فإن النمامين صادقون ، والمغتابين صادقون ، وقد ذمّهم الله وتوعد على ذلك مع كونه صادقاً ، فيسأل الصادق عن صدقه ولا يسأل ذو الحق إذا قام به ، فالغيبة والنميمة وأشباههما صدق لا حق إذ الحق ما وجب ، والصدق ما أخبر به على الوجه الذي هو عليه ، وقد يجب فيكون حقاً وقد لا يجب ويكون صدقاً لا حقاً ، فلهذا يسأل الصادق عن صدقه إن كان وجب عليه نجا ، وإن كان لم يجب عليه بل منع من ذلك هلك فيه ، فمن علم الفرق بين الحق والصدق تعيّن عليه أن يتكلم في الاستحقاق ، فإن الله يسأل الصادقين عن صدقهم فيما صدقوا ــ **الوجه الثاني** ــــ سؤال الصادقين عن صدقهم من حيث إضافة الصدق إليهم ، لأنه قال « عن صدقهم » وما قال عن الصدق ، فإن أضاف الصادق إذا سئل صدقه إلى ربه لا إلى نفسه ، وكان صادقاً في هذه الإضافة أنها وجدت منه في حين صدقه في ذلك الأمر في الدنيا ، ارتفع عنه الاعتراض ،

فإن الصادق هو الله ، وهو قوله المشروع : [لا حول ولا قوة إلا بالله] فإذا كانت القوة به ــ وهي الصدق ــ فإضافتها إلى العبد إنما هو من حيث إيجادها فيه وقيامها به ، وإن قال عند سؤال الحق إياه عن صدقه : إنه لما صدق في فعله أو قوله في الدنيا ، لم يحضر في صدقه أن ذلك بالله كان منه ، كان صادقاً في الجواب عند السؤال ، ونفعه ذلك عند الله في ذلك الموطن وحشر مع الصادقين ، وصدق في صدقه ، لهذا قال تعالى : « ليسأل الصادقين عن صدقهم » فإذا ثبت لهم جازاهم به وهو قوله تعالى : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم » ــ **إشارة** ــ مَنْ لا قدم له عند الحق لا صدق له ، ومن لا صدق له سقط حظه من الحق ، والصدق مسؤول عنه ، فكيف غير الصدق ؟! .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

حقيقة العورة الميل ، فقالوا : « إن بيوتنا عورة » أي مائلة تريد السقوط لما استنفروا ، فأكذبهم الله عند نبيه بقوله : « وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً » يعني بهذا القول مما دعوتهم إليه ــ **إشارة** ــ « يا أهل يثرب لا مقام لكم » « أهل يثرب » هم المحمديون من العارفين ، ولكن من باب الإشارة لا من باب النص والتفسير ، « لا مقام لكم » لا نهاية لما تطلبون « فارجعوا » بالعجز عن الوصول أصلاً ، لتحقق المعرفة بالجناب الأعز ، وهو

قول الصديق الأكبر : العجز عن درك الإدراك إدراك ؛ فما رأى شيئاً عند ذلك إلا ورأى الله قبله ، فرجوعهم سفر لاقتناص علوم لم ينالوها في العروج ، فما لهم غاية يقفون عندها ، فهم يظهرون في كل مرتبة بما تقتضيه تلك المرتبة ، وإذا تكمل العبد كانت المراتب عنده على السواء ، ومتى نسبت الشخص إلى مقام بعينه فقد رجحته في ذلك المقام ، وإذا كان حكمه في كل مقام حكمه في الباقي كان ذلك عظيماً .

نفي المقام هو المكان وإنه	لليثربي بسورة الأحزاب
من كان فيه يكون مجهولاً لذا	ما ناله أحدٌ بغير حجاب
رب المكان هو الذي يدعى إذا	دعي الرجال بسيد الأحباب
وله الوسيلة لا تكون لغيره	وهو المقدّم من أولي الألباب
وهو الإمام وما له مِنْ تابع	وهو المصرف حاجب الحجاب

اعلم أن عبور المقامات والأحوال هو من خصائص المحمديين ، ولا يكون إلا لأهل الأدب ، جلساء الحق على بساط الهيبة مع الأنس الدائم ، لأصحابه الاعتدال والثبات والسكون ، غير أن لهم سرعة الحركات في الباطن في كل نَفَسٍ ، فترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب ، إن تجلّى لهم الحق في صورة محدودة أطرقوا ، فرأوه في إطراقهم مقلباً أحوالهم على غير الصورة التي تجلى لهم فيها فأورثهم الإطراق ، فهُمْ بين تقييد وإطلاق ، لا مقام يحكم عليهم ، فإنه ما ثَمَّ ، فهم أصحاب مكان في بساط النشأة ، وهم أصحاب مكانة في عدم القرار ، فهم من حيث مكانتهم ومن حيث مكانهم ثابتون ، فهم بالذات في مكانهم وهم بالأسماء في مكانتهم ، والمكان ثبوت في المكانة ، فمن الأسماء لهم المقام المحمود ، والمكانة الزلفى في اليوم المشهود ، والزور والوفود ، ومن الذات لهم المكان المحدود والمعنى المقصود والثبات على الشهود وحالة الوجود ، ورؤيته في كل موجود ، في سكون وخمود ، والأمر الحقيقي للمكانة فإنه لا يصح الثبوت على أمر واحد في الوجود ، فالمكان ثبوت في المكانة كما نقول في التمكين : إنه تمكين في التلوين ، لا أن التلوين يضاد التمكين . **ــ نصيحة ــ** لا راحة مع الخلق ، فارجع إلى الحق فهو أولى بك ، إن عاشرتهم على ما هم عليه بعدت منه ، فإنهم على ما لا يرضاه ، وإن لم تعاشرهم وقعوا فيك ، فلا راحة .

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » لمن سمع القول فاتبع أحسنه ، وبهذه الآية ثبتَتْ وتأيّدت عصمة رسول الله ﷺ ، فإنه لو لم يكن معصوماً ما صح التأسي به ، فنحن نتأسّى برسول الله ﷺ في جميع حركاته وسكناته وأفعاله وأحواله وأقواله ، ما لم ينهَ عن شيء من ذلك على التعيين في كتاب أو سنّة ، فإن الله جعله أسوة يتأسى به ، فلو لم يقمه الله في مقام العصمة للزمنا التأسي به فيما يقع منه من الذنوب إن لم ينص عليها ، كما نصّ

على نكاح الهبة أن ذلك خالص له مشروع ، وهو حرام علينا ، وقال رسول الله ﷺ [خذوا عني مناسككم] فإن الله تعالى يقول : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » وقال : [من رغب عن سنتي فليس مني] فأبان بفعله ﷺ عن مراد الله منا في العبادات ، وقال رسول الله ﷺ : [العلماء ورثة الأنبياء] فاعلم أن الورث على نوعين : معنوي ومحسوس ، فالمحسوس منه ما يتعلق بالألفاظ والأفعال وما يظهر من الأحوال ، فأما الأفعال فأن ينظر الوارث إلى ما كان رسول الله ﷺ يفعله مما أبيح للوارث أن يفعله اقتداءً به ـــ لا مما هو مختص به عليه السلام مخلص له في نفسه ومع ربه ـــ وفي عشرته لأهله وولده وقرابته وأصحابه وجميع العالم ، ويتبع الوارث ذلك كله في الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ ، الموضحة لما كان عليه في أفعاله من صحيحها وسقيمها ، فيأتيها كلها على حَدّ ما وردت لا يزيد عليها ولا ينقص منها ، وإن اختلفت فيها الروايات فليعمل بكل رواية ، وقتاً بهذه ووقتاً بهذه ولو مرة واحدة ، ويدوم على الرواية التي ثبتت ، ولا يخلًّ بما رُوي من ذلك وإن لم يثبت من جهة الطريق فلا يبالي ، إلا أن يتعلق بتحليل أو تحريم فيغلب الحرمة في حق نفسه فهو أولى به ، فإنه من أولي العزم ، وما عدا التحليل أو التحريم فليفعل بكل رواية ، وإذا أفتى ـــ إن كان من أهل الفتيا ـــ وتتعارض الأدلة السمعية بالحكم من كل وجه ، ويجهل التاريخ ولا يقدر على الجمع ، فيفتي بما هو أقرب لرفع الحرج ، ويعمل هو في حق نفسه بالأشد فإنه في حقه الأسَدّ ، وهذا من الورث اللفظي فإنه المفتى به ، فيصلي صلاة رسول الله ﷺ في ليله ونهاره ، وعلى كيفيتها في أحوالها وكمياتها في أعدادها ، ويصوم كذلك ، ويعامل أهله من مزاح وجدّ كذلك ، ويكون على أخلاقه في مأكله ومشربه وما يأكل وما يشرب ، كأحمد بن حنبل فإنه كان بهذه المثابة ، روينا عنه أنه ما أكل البطيخ حتى مات ، وكان يقال له في ذلك فيقول : ما بلغني كيف كان يأكله رسول الله ﷺ ، وكُلُّ ما كان من فعل لم يجد فيه حديثاً يبين فيه أن رسول الله ﷺ فعله بكيفية خاصة ، وإن كان من الكميات بكمية خاصة ولكن ورد فيه حديث فاعمل به ، كصومه ﷺ ، كان يصوم حتى نقول : إنه لا يفطر ، ويفطر حتى نقول : إنه لا يصوم ، ولم يوقت الراوي فيه توقيتاً ، فصم أنت كذلك وأفطر كذلك ، وأكثر من صوم شعبان ولا تتمَّ صوم شهر قط بوجه من الوجوه إلا شهر رمضان ، وكل صوم أو فعل مأمور به وإن لم يرو فيه فعله فاعمل به لأمره ، وهذا معنى قول الله :

(إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فلتتبعه في كل شيء لأن الله يقول : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ما لم يخصص شيئاً من ذلك بنهي عن فعله ، وقال ﷺ : [صلوا كما رأيتموني أصلي] وقال في الحج [خذوا عني مناسككم] وإن حججت فإن قدرت على الهدي فادخل به محرماً بالحج أو العمرة ، وإن حججت مرة أخرى فادخل أيضاً إن قدرت على الهدي محرماً بالحج ، وإن لم تجد هدياً فاحذر أن تدخل محرماً بالحج ، ولكن ادخل متمتعاً بعمرة مفردة ، فإذا طفت وسعيت فحل من إحرامك الحل كله ، ثم بعد ذلك أحرم بالحج وانسك نسيكة كما أمرت ، واعزم على أن لا تُخِلَّ بشيء من أفعاله وما ظهر من أحواله مما أبيح لك من ذلك ، والتزم آدابه كلها جهد الاستطاعة ، لا تترك شيئاً من ذلك إذا ورد مما أنت مستطيع عليه ، فإن الله ما كلفك إلا وسعك ، فابذله ولا تترك منه شيئاً ، فإن النتيجة لذلك عظيمة لا يقدر قدرها ، وهي محبة الله إياك ، وقد علمت حكم الحب من المحب ـــ الحديث ـــ وأما الورث المعنوي فما يتعلق بباطن الأحوال من تطهير النفس من مذام الأخلاق وتحليتها بمكارم الأخلاق ، وما كان عليه ﷺ من ذكر ربه على كل أحيانه ، وليس إلا الحضور والمراقبة لآثاره سبحانه في قلبك وفي العالم ، فلا يقع في عينك ولا يحصل في سمعك ولا يتعلق بشيء قوة من قواك ، إلا ولك في ذلك نظر واعتبار إلهي ، تعلم موقع الحكمة الإلهية في ذلك ، فهكذا كان حال رسول الله ﷺ فيما روت عنه عائشة ، وكذلك إن كنت من أهل الاجتهاد في الاستنباط للأحكام الشرعية ، فأنت وارث نبوة شرعية ، فإنه تعالى قد شرع لك في تقرير ما أدى إليه اجتهادك ودليلك من الحكم ، أن تشرعه لنفسك وتفتي به غيرك إذا سئلت ، وإن لم تسأل فلا ، فإن ذلك أيضاً من الشرع الذي أذن الله لك فيه ، ما هو من الشرع الذي لم يأذن به الله ، ومن الورث المعنوي ما يفتح عليك به من الفهم في الكتاب وفي حركات العالم كله ، فالرسول ﷺ ما بعثه الله تعالى إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، فأحواله كلها مكارم أخلاق ، فهو مبين لها بالحال وهو أتم وأعدل وأمضى في الحكم من القول :

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟

ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾

« وما بدلوا تبديلاً » في أخذ الميثاق الذي أخذ عليهم ، فوفوا به ، وقيل فيهم : صدقوا ، لأنهم غالبوا فيه وفي الوفاء به الدعاوى المركوزة في النفوس ، التي أخرجت بعض من أخذ عليه الميثاق أو أكثره عن الوفاء بما عاهد عليه الله ، فليس الرجل إلا من صدق مع الله في الوفاء بما أخذ عليه ، والصدق سيف الله في الأرض ، ما قام بأحد ولا اتصف به إلا نصره الله ، لأن الصدق نعته ، والصادق اسمه ، فقوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه » أي من وفى بعهده ، وهو العهد الخالص في أخذ الميثاق ، فإن النحب العهد « ومنهم من ينتظر » لأن العبد ما دام في الحياة الدنيا لا يأمن التبديل ، فإن الله يفعل ما يريد ، فلا يأمن مكر الله لعلمه بالله « وما بدلوا تبديلا » فلله رجال بهذه المثابة جعلنا الله منهم ، فما أعظم بشارتها من آية ، ولا بلغ إلينا تعيين أحد من أهل هذه الصفة إلا طلحة بن عبيد الله من العشرة ، صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : [هذا ممن قضى نحبه] وهو في الحياة الدنيا فأمن من التبديل .

لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾

« ليجزي الله الصادقين بصدقهم » بعد أن يسأل الصادقين عن صدقهم ، فإذا ثبت لهم جازاهم به ، وجزاؤهم به هو صدق الله فيما وعدهم به ، فجزاء الصدق الصدق الإلهي ، وجزاء ما صدق فيه من العمل والقول بحسب ما يعطيه ذلك العمل أو القول ، فهذا معنى الجزاء .

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾

إذا كانت اليد بالنواصي أنزلت العَصِمَ من الصياصي ، ولم تغنها ما عندها من الصياصى .

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

لما جرى من نساء رسول الله ﷺ ما جرى ، أداه ذلك إلى الانفراد مع الله وهجرهن ، فآلى من نسائه شهراً ، فلما فرغ الشهر ناجاه الحق بآية التخيير ، فَخَيَّر نساءَهُ ، فإنه كان المطلوب بذلك التوقيت ما فتح له به ، فإن الحق يجري مع العبد في فتحه على حسب قصده والسبب الذي أداه إلى الانفراد به .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

« يضاعف لها العذاب ضعفين » وذلك لمكانة رسول الله ﷺ ولفعل الفاحشة .

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

القنوت هو الطاعة لله ورسوله ، والأجر هنا للعمل الصالح الذي عملته ، وكان مضاعفاً للعمل الصالح ومكانة رسول الله ﷺ ، في مقابلة قوله تعالى في حقهن : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » .

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾

كلام المرأة يثير الشهوة بالطبع ، ولا سيما إن كان في كلامها خضوع وانكسار ، وفي خيال السامع أنها أنثى وفي قلبه مرض ، والله قد نهاهن عن الخضوع في القول ، ففي هذه الآية إباحة كلام النساء الرجال على وصف خاص .

وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾

« يا نساء النبي » أعلمهن أن ذلك كله مما ورد في هذه الآية وما قبلها بكونهن أزواجه ﷺ حتى لا ينسبن إلى قبيح ، فيعود ذلك العار على بيت رسول الله ﷺ « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » الرجس هو القذر عند العرب ، هكذا حكى الفراء ، والمعني به هنا الفُحْشُ « ويطهركم تطهيراً » من دنس الأقوال المنسوبة إلى الفحش ، فطهر الله رسوله ﷺ وأهل بيته تطهيراً ليذهب عنهم الرجس وهو كل ما يشينهم ، فلا يضاف إليهم إلا مطهر ، مثل سلمان الفارسي الذي قال فيه رسول الله ﷺ [سلمان منا أهل البيت] وشهد الله لهم بالتطهير وذهاب الرجس عنهم ، وإذا كان لا يضاف إليهم إلا مطهر مقدس ، وحصلت لهم العناية الإلهية بمجرد الإضافة ، فما ظنك بأهل البيت في نفوسهم ؟ فهم المطهرون بل هم عين الطهارة ، فهذه الآية تدل على أن الله قد شرك أهل البيت مع رسول الله ﷺ في قوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وأي وسخ وقذر أقذر من الذنوب وأوسخ ، فلا رجس أرجس من المعاصي ، وقد طهر الله أهل البيت تطهيراً ، وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، وخبر الله صدق وقد سبقت به الإرادة الإلهية ، فكل ما ينسب إلى أهل البيت مما يقدح فيما أخبر الله به عنهم من التطهير وذهاب الرجس ،

فإنما ينسب إليهم من حيث اعتقاد الذي ينسبه ، لأنه رجس بالنسبة إليه ، وذلك الفعل عينه ارتفع حكم الرجس عنه في حق أهل البيت ، فطهر الله سبحانه نبيه ﷺ بالمغفرة من الذنوب ودخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسي إلى يوم القيامة في حكم هذه الآية من الغفران ، فهم المطهرون اختصاصاً من الله وعنايةً بهم ، لشرف محمد ﷺ وعناية الله به ، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلا في الدار الآخرة ، فإنهم يحشرون مغفوراً لهم ، وأما في الدنيا فمن أتى منهم حداً أقيم عليه ، وينبغي لكل مسلم مؤمن بالله وبما أنزله أن يصدق الله تعالى في قوله : « ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » فأخبر الله تعالى أنه طهرهم وأذهب عنهم الرجس ، وخبره صدق ، وهذا يدل على عصمة أهل البيت في حركاتهم ، وحفظ الله لهم في ذلك ، وليس ذلك لغيرهم ، فيعتقد في جميع ما يصدر من أهل البيت أن الله قد عفا عنهم فيه ، فلا ينبغي لمسلم أن يلحق المذمة بهم ، ولا ما يشنأ أعراض من قد شهد الله بتطهيره وذهاب الرجس عنه ، لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه ، بل سابق عناية من الله بهم ، فبالنسبة لحقوقنا وما لنا أن نطالبهم به ، فنحن مخيرون إن شئنا أخذنا وإن شئنا تركنا ، والترك أفضل عموماً ، فكيف في أهل البيت ؟ فإذا نزلنا عن طلب حقوقنا وعفونا عنهم في ذلك ، أي فيما أصابوا منا كانت لنا بذلك عند الله اليد العظمى والمكانة الزلفى ، فإن النبي ﷺ ما طلب منّا عَنْ أمر الله إلا المودة في القربى ، وفيه سر صلة الرحم ، ومن لم يقبل سؤال نبيه فيما سأل فيه مما هو قادر عليه بأي وجه يلقاه غداً أو يرجو شفاعته ؟ وهو ما أسعف نبيه ﷺ فيما طلب منه من المودة في قرابته ، فكيف بأهل بيته ؟ فهم أخصّ قرابته ، وأرجو أن يكون عقب علي بن أبي طالب وسلمان تلحقهم العناية كما ألحقت أولاد الحسن والحسين وعقبهم وموالي أهل البيت لقوله ﷺ : [مولى القوم منهم] فإن رحمة الله واسعة واعلم أن الشياطين ألقت إلى أهل البدع والأهواء أصلاً صحيحاً لا يشكون فيه ، ثم طرأت عليهم التلبيسات من عدم الفهم حتى ضلوا ، وأكثر ما ظهر ذلك في الشيعة ولا سيما الإمامية منهم ، فدخلت عليهم شياطين الجن أولاً بحب أهل البيت واستفراغ الحب فيهم ، ورأوا أن ذلك من أسنى القربات إلى الله ، وكذلك هو ، لو وقفوا ولا يزيدون عليه ، إلا أنهم تعدوا من حب أهل البيت إلى طريقين : منهم من تعدّى إلى بغض الصحابة وسبهم حيث لم يقدموهم ، وتخيلوا أن أهل البيت أولى بهذه المناصب

الدنيوية ، فكان منهم ما قد عرف واستفاض ، وطائفة زادت إلى سب الصحابة القدح في رسول الله ﷺ وفي جبريل عليه السلام وفي الله جل جلاله ، حيث لم ينصوا على رتبتهم وتقديمهم في الخلافة ، حتى أنشد بعضهم [ما كان مَنْ بعث الأمين أميناً] وهذا كله واقع من أصل صحيح ، وهو حبّ أهل البيت ، أنتج في نظرهم فاسداً فضلوا وأضلوا ، فانظر ما أدى إليه الغلو في الدين ، أخرجهم عن الحدّ فانعكس أمرهم إلى الضد ــ **إشارة** ــ إذا كانت عناية الله بأهل البيت النبوي المحمدي كما ذكر الله في كتابه لنا ، فما ظنك بأهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ؟ وأقل الأهلية في ذلك حمل حروفه محفوظة في الصدور ، فإن تخلّق بما حمل وتحقق به وكان من صفاته فبخ على بخ ، ومن عناية الله تعالى بسلمان الفارسي أن قال فيه رسول الله ﷺ : [سلمان منّا أهل البيت] وإذا كانت منزلة مخلوق عند الله بهذه المثابة بأن يشرف المضاف إليهم بشرفهم ، وشرفهم ليس لأنفسهم ، وإنما الله تعالى هو الذي اجتباهم وكساهم حلة الشرف ، كيف يا ولي بمن أضيف إلى من له الحمد والمجد والشرف لنفسه وذاته ؟ فهو المجيد سبحانه وتعالى ، فالمضاف إليه من عباده الذين هم عباده ، وهم الذين لا سلطان لمخلوق عليهم في الآخرة ، وما تجد في القرآن عباداً مضافين إليه سبحانه إلا السعداء خاصة ، وجاء اللفظ في غيرهم بالعباد ، فما ظنك بالمعصومين المحفوظين منهم القائمين بحدود سيدهم الواقفين عند مراسمه ؟ فشرفهم أعلى وأتم .

﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (٣٤)

مَنْ أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وكان الله به لطيفاً خبيراً ، لطيفاً من حيث أنه عَلَّمَه من حيث لم يعلم فعَلِمَ ، وما علم أن الله هو المعلم ، ثم اختبره فكان خبيراً ، وكان الله على كل شيء قديراً ، فمن سأل الحكمة ، فقد سأل النعمة ، ومَنْ أعطي الحكمة ، فقد أوتي الرحمة ، فإن سرمد العذاب بعد ذلك هذا المالك ، فما هو مِمّن عمت وجودَه الرحمة ، ولا كان من أهل الحكمة ، فإن قال بالرجوع إليها ، وحكم بذلك عليهم وعليها ، فذلك الحكيم العليم ، المسمى بالرؤوف الرحيم ، وهو الشديد العقاب ، لأنه لشدته في ذلك أعقب أهل النار حسن المآب .

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

نعت الله أقواماً من النساء والرجال بصفات ومنزلة ، فما نعتهم الله بهذه النعوت سدًى ، والمتصفون بهذه الأوصاف قد طالبهم الحق بما تقتضيه هذه الصفات ، وما تثمر لهم من المنازل عند الله ، فقال تعالى : « إن المسلمين والمسلمات » وهؤلاء تولاهم الله بالإسلام وهو انقياد خاص لما جاء من عند الله لا غير ، فإذا وفّى العبد الإسلام بجميع لوازمه وشروطه وقواعده فهو مسلم ، وإن انتقص شيئاً من ذلك فليس بمسلم فيما أخلّ به من الشروط ، قال رسول الله ﷺ : [المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده] واليد هنا بمعنى القدرة ، أي سلم المسلمون مما هو قادر على أن يفعل بهم مما لا يقتضيه الإسلام ، من التعدي لحدود الله فيهم ، فأتى بالأعم ، وذكر اللسان لأنه قد يؤذي بالذكر من لا يقدر على إيصال الأذى إليه بالفعل ، وهو البهتان هنا خاصة لا الغيبة ، فإنه قال : المسلمون ولو قال : الناس لدخلت الغيبة وغير ذلك من سوء القول ، فلم يثبت الشارع الإسلام إلا لمن سلم المسلمون ، وهم أمثاله في السلامة ، فالمسلمون هم المعتبر في هذا الحديث ، وهم المقصود ، فإن المسلمين لا يسلمون من لسان من يقع فيهم إلا حتى يكونوا أبرياء مما نسب إليهم ، ولذلك فسرناه بالبهتان ، فإن النبي ﷺ قال : [إذا قلت في أخيك ما ليس فيه فذلك البهتان ، وفي رواية فقد بهته] فخاب سهمك الذي رميته به ، فإنه ما وجد منفذاً ، فإنك نسبت إليه ما ليس هو عليه ، فسماهم الله مسلمين ، فمن وقع فيمن هذه صفته فليس بمسلم ، لأن ذلك الوصف الذي وصف المسلم به ورماه به ولم يكن المسلم محلاً له عاد على قائله ، فلم يكن الرامي له بمسلم ، فإنه ما سلم مما قال إذ عاد عليه سهم كلامه الذي رماه به ، قال ﷺ : [مَنْ قال لأخيه كافر فقد باء به أحدهما] وقال تعالى في حق قوم قيل لهم : (آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن

كما آمن السفهاء) قال الله فيهم (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) فأعاد الصفة عليهم لما لم يكن المسلمون المؤمنون أهل سفه ، فليس المسلم إلا من سلم من جميع العيوب الأصلية والطارئة ، فلا يقول في أحد شراً ولا يؤثر فيه إذا قدر عليه شراً أصلاً ، وليس إقامة الحدود بِشَرٍ فإنه خيرٌ فلا يخرجه ذلك عن الإسلام ، فإن النبي ﷺ اشترط سلامة المسلمين ، ومَنْ آذاك ابتداء عن قصد منه فليس بمسلم ، فإنك ما سلمت منه ، والنبي ﷺ يقول : [من سلم المسلمون] فلا يقدح القصاص في الإسلام ، فإنك ما آذيت مسلماً من حيث آذاك ، فإن المسلم لا يؤذي المسلم ، بل أسقط القصاصُ في الدنيا القصاصَ في الآخرة ، فقد أنعم عليه بضرب من النعم ، فإن عفا وأصلح و لم يؤاخذه وتجاوز عن سيئته فذلك المقام العالي وأجره على الله ، بشرط ترك المطالبة في الآخرة ، وحق الله ثابت قبله لأنه تعدى حده ، فقدح في إسلامه قدر ما تعدى ، فإن قيل : إن عصى المسلم ربه في غير المسلم هل يكون مسلماً بذلك أم لا ؟ قلنا : لا يكون مسلماً ، فإن الله يقول : (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة) والمسلم لا يكون ملعوناً ، فلقائل أن يقول : هنا بالمجموع كانت اللعنة ، ونحن إنما قلنا : من آذى الله وحده ، قلنا : كل من آذى الله وحده في زعمه فقد آذى المسلمين ، فإن المسلم يتأذى إذا سمع في الله من القول ما لا يليق به ، فهو مؤاخذ من جهة ما تأذى به المسلمون ، من قولهم(١) في الله ما لا يليق به ، فإن قيل : فإن لم يعرف ذلك المسلمون منه حتى يتأذوا من ذلك ، قلنا : حكم ذلك حكم الغيبة ، فإنه لو عرف من اغتيب تأذى ، وهو مؤاخذ بالغيبة فهو مؤاخذ بإيذائه الله وإن لم يعرف بذلك مسلم ، قال ﷺ : [لا أحد أصبر على أذى من الله] ، فالمسلم من كان بهذه المثابة ، وهو السعيد المطلق وقليل ما هم : « والمؤمنين والمؤمنات » المؤمنون والمؤمنات تولاهم الله بالإيمان الذي هو القول والعمل والاعتقاد ، وحقيقته الاعتقاد شرعاً ولغة ، وهو في القول والعمل شرعاً لا لغة ، فالمؤمن من كان قوله وفعله مطابقاً لما يعتقده في ذلك الفعل ، فأولئك من الذين أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ، قال رسول الله ﷺ : [المؤمن من أمنه النـاس على أموالهم] وقال ﷺ : [المؤمن من أمن جاره بوائقه] و لم يخصّ مؤمناً ولا مسلماً ، بل قال : الناس والجار من غير تقييد ، فإن المسلم قيّده بسلامة المسلمين ، ففرق بين المسلم

(١) الضمير هنا يعود على غير المسلمين الذين آذاهم المسلم .

والمؤمن بما قيده به وبما أطلقه ، فعلمنا أن للإيمان خصوص وصف ، وهو التصديق تقليداً من غير دليل ، ليفرق بين الإيمان والعلم ، والمؤمن الذي اعتبره الشرع من أهل هذه الآية له علامتان في نفسه إذا وجدهما كان من المؤمنين ، العلامة الواحدة أن يصير الغيب له كالشهادة ، من عدم الريب فيما يظهر على المشاهد لذلك الأمر الذي وقع به الإيمان ، من الآثار في نفس المؤمن كما يقع في نفس المشاهد له ، فيعلم أنه مؤمن بالغيب ، والعلامة الثانية أن يسري الأمان منه في نفس العالم كله ، فيأمنوه على القطع على أموالهم وأنفسهم وأهليهم ، من غير أن يتخلل ذلك الأمان تهمة في أنفسهم من هذا الشخص ، وانفعلت لأمانته النفوس ، فذلك هو المشهود له بأنه من المؤمنين ، ومهما لم يجد هاتين العلامتين فلا يغالط نفسه ولا يدخلها مع المؤمنين ، قال تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) فمن ادعى الإيمان وزعم أن له نفساً يملكها فليس بمؤمن « والقانتين والقانتات » هم الذين تولاهم الله بالقنوت ، وهو الطاعة لله في كل ما أمر به ونهى عنه ، وهذا لا يكون إلا بعد نزول الشرائع ، قال تعالى : (وقوموا لله قانتين) أي طائعين فأمر بطاعته ، والساجدون لله على قسمين : منهم من يسجد طوعاً ، ومنهم من يسجد كرهاً ، فالقانت يسجد طوعاً ، وتصحيح طاعتهم لله وقنوتهم أن يكون الحق لهم بهذه الموازنة ، كما قال : (اذكروني أذكركم) [ومن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً] فالحق مع العبد على قدر ما هو العبد مع الحق ، ومن شرط القانت أن يطيع الله من حيث ما هو عبد الله ، لا من حيث ما وعده الله به من الأجر والثواب لمن أطاعه ، وأما الأجر الذي يحصل للقانت ، فذلك من حيث العمل الذي يطلبه لا من حيث الحال الذي أوجب له القنوت ، قال الله تعالى في القانتات من نساء رسول الله ﷺ : (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين) فالأجر هنا للعمل الصالح الذي عملته ، وكان مضاعفاً في مقابلة قوله تعالى في حقهن : (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) لمكانة رسول الله ﷺ ولفعل الفاحشة ، كذلك ضوعف الأجر للعمل الصالح ومكانة رسول الله ﷺ ، وبقي القنوت معرى عن الأجر ، فإنه أعظم من الأجر فإنه ليس بتكليف ، وإنما الحقيقة تطلبه ، وهو حال يستصحب العبد في الدنيا والآخرة ، والقنوت مع العبودية في دار التكليف لا مع الأجر ، ذلك هو القنوت المطلوب ، والحق إنما ينظر للعبد في طاعته بعين باعثه على تلك الطاعة ، ولهذا قال تعالى آمراً :

(وقوموا لله قانتين) ولم يُسَم أجراً ، ولا جعل القنوت إلا من أجله لا من أجل أمر آخر « والصادقين والصادقات » هم الذين تولاهم الله بالصدق في أقوالهم وأفعالهم فقال تعالى : (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) فهذا من صدق أحوالهم ، والصدق في القول معلوم وهو ما يخبر به ، وصدق الحال ما يفي به في المستأنف ، وهو أقصى الغاية في الوفاء لأنه شديد على النفس فلا يقع الوفاء به في الحال والقول إلا من الأشداء الأقوياء ، ولا سيما في القول ، فإنك لو حكيت كلاماً عن أحد كان بالفاء فجعلت بدله واواً لم تكن من هذه الطائفة ، فانظر ما أغمض هذا المقام وما أقواه ، فإن نقلت الخبر على المعنى تعرّف السامع أنك نقلت على المعنى ، فتكون صادقاً من حيث إخبارك عن المعنى عند السامع ، ولا تسمى صادقاً من حيث نقلك لما نقلته ، فإنك ما نقلت عين لفظ مَنْ نقلت عنه ، ولا تسمى كاذباً فإنك قد عرفت السامع أنك نقلت المعنى ، فأنت مخبر للسامع عن فهمك لا عمن تحكي عنه ، فأنت صادق عنده في نقلك عن فهمك ، لا عن الرسول أو من تخبر عنه أن ذلك مراده بما قال ، فالصدق في المقال عسير جداً ، قليل من الناس من يفي به ، إلا من أخبر السامع أنه ينقل على المعنى فيخرج من العهدة ، فالصدق في الحال أهون منه إلا أنه شديد على النفوس ، فإنه يراعي جانب الوفاء لما عاهد مَنْ عاهد عليه ، وقد قرن الله الجزاء بالصدق والسؤال عنه فقال : (ليجزي الصادقين بصدقهم) ولكن بعد أن يسأل الصادقين عن صدقهم ، وجزاؤهم به هو صدق الله فيما وعدهم به « والصابرين والصابرات » هؤلاء تولاهم الله بالصبر ، وهم الذين حبسوا نفوسهم مع الله على طاعته من غير توقيت ، فجعل الله جزاءهم على ذلك من غير توقيت ، فقال تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فما وقّت لهم فإنهم لم يوقتوا ، فعم صبرهم جميع المواطن التي يطلبها الصبر ، فكما حبسوا نفوسهم على الفعل بما أمروا به ، حبسوها أيضاً على ترك ما نهوا عن فعله ، فلم يوقتوا فلم يوقّت لهم الأجر ، وهم الذين أيضاً حبسوا نفوسهم عند وقوع البلايا والرزايا بهم عن سؤال ما سوى الله في رفعها عنهم ، بدعاء الغير أو شفاعة أو طب ، إن كان من البلاء الموقوف إزالته على الطب ، ولا يقدح في صبرهم شكواهم إلى الله في رفع ذلك البلاء عنهم ، ألا ترى إلى أيوب عليه السلام سأل ربه رفع البلاء عنه بقوله : (مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) ومع هذا أثنى عليه بالصبر وشهد له به ، فلو كان الدعاء إلى الله في رفع الضرر

ورفع البلاء يناقض الصبر المشروع المطلوب لم يثن الله به على أيوب بالصبر وقد أثنى عليه به ، بل من سوء الأدب مع الله أن لا يسأل العبد رفع البلاء عنه ، لأن فيه رائحة من مقاومة القهر الإلهي بما يجده من الصبر وقوته ، وهذا لا يناقض الرضا بالقضاء ، فإن البلاء إنما هو عين المقضي لا القضاء ، فيرضى بالقضاء ويسأل الله في رفع المقضي عنه ، فيكون راضياً صابراً « والخاشعين والخاشعات » قوم تولاهم الله بالخشوع من ذل العبودية القائم بهم ، لتجلي سلطان الربوبية على قلوبهم في الدار الدنيا ، فينظرون إلى الحق سبحانه من طرف خفي ، يوجده الله لهم في قلوبهم في هذه الحالة ، خفي عن إدراك كل مدرك إياه ، بل لا يشهد ذلك النظر منهم إلا الله ، فمن كانت حالته هذه في الدار الدنيا من رجل أو امرأة فهو الخاشع وهي الخاشعة ، فيشبه القنوت من وجه إلا أن القنوت يشترط فيه الأمر الإلهي ، والخشوع لا يشترط فيه إلا التجلي الذاتي ، وكلتا الصفتين تطلبهما العبودية ، فلا يتحقق بهما إلا عبد خالص العبودية والعبودة ، وله حال ظاهر في الجوارح التي لها الحركات ، وحال باطن في القلوب ، فيورث في الظاهر سكوناً ويؤثر في الباطن ثبوتاً ، والقنوت يورث في الظاهر بحسب ما ترد به الأوامر من حركة وسكون ، فإن كان القانت خاشعاً فحركته في سكون ولابد إن ورد الأمر بالتحرك ، ويورث القنوت في الباطن انتقالات أدق من الأنفاس ، متوالية مع الأوامر الإلهية الواردة عليه في عالم باطنه ، فالخاشع في قنوته في الباطن ثبوته على قبول تلك الأوامر الواردة عليه من غير أن يتخللها ما يخرجها عن أن تكون مشهودة لهذا الخاشع ، فالخاشع والقانت خشوعه وقنوته أخوان متفقان في الموفقين من عباد الله « والمتصدقين والمتصدقات » وهم الذين تولاهم الله بجوده ليجودوا بما استخلفهم الله فيه مما افتقر إليه خلق الله ، فأحوج الله الخلق إليهم لغناهم بالله ، فالكلمة الطيبة صدقة ، ولما كان حالهم التعمل في الإعطاء لا العمل ، دل على أنهم متكسبون في ذلك ، لنظرهم أن ذلك ليس لهم وإنما هو لله ، فلا يدعون فيما ليس لهم ، فلا منة لهم في الذي يوصلونه إلى الناس أو إلى خلق الله من جميع الحيوانات ، وكل متغذ عليهم لكونهم مؤدين أمانة كانت بأيديهم أوصلوها إلى مستحقيها ، فلا يرون أن لهم فضلاً عليهم فيما أخرجوه ، وهذه الحالة لا يمدحون بها إلا مع الدوام والدؤوب عليها في كل حال « والصائمين والصائمات » قوم تولاهم الله بالإمساك الذي يورثهم الرفعة عند الله تعالى عن كل شيء أمرهم الحق أن يمسكوا

عنه أنفسهم وجوارحهم ، فمنه ما هو واجب ومندوب ، والصوم المعهود داخل فيه ، والمقام الأكمل لمن تحقق بهذ الإمساك ، فأورثه الرفعة عند الله ، فإن الصوم هو الرفعة ، قال الشاعر : إذا صام النهار وهجر ؛ أي ارتفع النهار « والحافظين فروجهم والحافظات » وهو خصوص من عموم حفظ حدود الله ، ولهذا قال فيهم : « أعد الله لهم مغفرة » أي ستراً ، لأن الفرج عورة تطلب الستر ، فهو إنباء عن حقيقة والحافظون فروجهم على طبقتين : منهم من يحفظ فرجه عما أمر بحفظه منه ولا يحفظه مما رغب في استعماله ، لأمور إلهية وحكم ربانية أظهرُها إبقاء النوع على طريق القربة ، ومنهم من يحفظ فرجه إبقاء على نفسه لغلبة عقله على طبعه ، وغيبته عما سنه أهل السنن من الترغيب في ذلك ، فإن انفتح له عين وانفرج له طريق إلى ما تعطيه حقيقة الوضع المرغب في النكاح فذلك صاحب فرج فلم يحفظه الحفظ الذي أشرنا إليه ، وأما صاحب الشرع الحافظ به فلابد له من الفتح ، ولكن إذا اقترنت مع الحفظ الهمة « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » وهم الذين تولاهم الله بإلهام الذكر ليذكروه فيذكرهم ، قال تعالى : (فاذكروني أذكركم) وقال : [من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه] والذكر أعلى المقامات كلها ، ولما كان الذاكرون أعلى الطوائف لأن الله جليسهم ، لهذا ختم الله بجلسائه وبذكرهم صفات المقربين من أهل الله ، ذكرانهم وإناثهم ، فالذاكر هو الرجل الذي له الدرجة على غيره من أهل المقامات ، فإن الله تعالى مع الذاكرين له بمعية اختصاص ، وما ثمَّ إلا مزيد علم ، به يظهر الفضل ، فكل ذاكر لا يزيد علماً في ذكره بمذكوره فليس بذاكر ، وإن ذكر بلسانه ، لأن الذاكر هو الذي يعمه الذكر كله ، فذلك هو جليس الحق ، فلابد من حصول الفائدة ، لأن العالم الكريم الذي لا يتصور فيه بخل لابد أن يهب جليسه أمراً لم يكن عنده ، إذ ليس هنالك بخل ينافي الجود ، فلم يبق إلا المحل القابل ، ولا يجالس إلا ذو محل قابل ، فذلك هو جليس الحق ، وهم على الحقيقة جلساء الله من حيث الاسم الذي يذكرونه به ، وهذه مسئلة لا يعرفها كثير من الناس ، وما ذكر الله بعد الذاكرات شيئاً ، فالذاكرون الله كثيراً والذاكرات آخر الطوائف ، ليس بعدهم أحد له نعت يذكر ، فختم بهم جلساءه ، وقوله تعالى : « كثيراً » أي في كل حال ، هذا معنى الكثير ، فإنه من الناس من يكون له هذه الحالة في أوقات ما ، ثم ينحجب ، ومن ذلك أن كل صفة علوية إلهية لا تنبغي إلا لله ويكون

مظهرها في المخلوقين (مثل الغنى والعزة والجبروت) ، فإن العلماء بالله يذلون تحت سلطانها ولا تحجبهم المظاهر عنها ولا يعرف ذلك إلا العلماء بالله ، وأعلى الذكر أن نذكره بكلامه من حيث علمه بذلك لا من حيث علمنا ، فيكون هو الذي يذكر نفسه لا نحن « أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » هؤلاء أعد الله لهم المغفرة والأجر العظيم قبل وقوع الذنب المقدر عليهم عناية منه ، فدلّ ذلك على أنهم من العباد الذين لا تضرهم الذنوب التي وقعت منهم بالقدر المحتوم ، لا انتهاكاً للحرمة الإلهية ، وقد ورد في الصحيح في الخبر الإلهي [اعمل ما شئت فقد غفرت لك] .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

ولم يقل تعالى : ومن يعص الرسول فقد عصى الله ، كما أنزله في الطاعة ، لأن طاعة المخلوق لله ذاتية وعصيانه بالواسطة ، فلو أنزل الرسول هنا كما أنزله في الطاعة لم يكن إلهاً ، وهو إله ، فلا يعصى إلا بحجاب ، وليس الحجاب سوى عين الرسول ، ونحن اليوم أبعد في المعصية للرسول من أصحابه إلى من دونهم إلينا ، فنحن ما عصينا إلا أولي الأمر منا في وقتنا ، وهم العلماء منا بما أمر الله به ونهى عنه ، فنحن أقل مؤاخذة وأعظم أجراً ، لأن للواحد منا أجر خمسين ممن يعمل بعمل الصحابة ، يقول ﷺ : [للواحد منهم أجر خمسين يعملون مثل عملكم] « فقد ضل ضلالاً مبيناً » الضلال هو الحيرة وقال تعالى : « مبيناً » لأنهم أوقعوا أنفسهم في الحيرة لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم ، وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم من الله شيئاً ، فهي شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم .

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ

أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

ابتلى الله نبيه ﷺ بنكاح زوجة من تبناه ، وكان لو فعله عند العرب مما يقدح في مقامه ، وهو رسول الله ، وما بعثه الله تعالى إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، فأحواله كلها مكارم أخلاق ، فهو مبين لها بالحال ، والرجل الكامل واقف مع ما تمسك عليه المروءة العرفية حتى يأتي أمر الله الحتم ، فإنه بحسب ما يؤمر ، فإن كان عَرْضاً نظر إلى قرائن الأحوال ، فإن كانت قرينة الحال تخيره بقي على الأمر العرفي الذي يشهد له بمكارم الأخلاق ، ولذلك قال : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) فهو واقف مع حكم الله ، وكانت خشيته ﷺ حتى لا ترد دعوة الحق ، فأبان الله لهم عن العلة في ذلك ، وهو رفع الحرج عن المؤمنين في مثل هذا الفعل ، وكل معلل عَلَّه الحق فإنه واقع ، كما أنه كل ترج من الله واقع .

مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

الكامل له الوجود والجلال والهيبة ، لأن موطن الحكم عند المتحقق الكامل لا ينبغي أن يلحظ فيه الإرادة العاصية ، وإنما ينبغي أن يلحظ فيه الإرادة الآمرة ، ومرتبة الآمر من كونه آمراً لا من كونه مريداً ، فالنبي واقف مع حكم الله « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » وهكذا المؤمن الكامل الإيمان ما هو مع الناس ، وإنما هو مع ما يحكم الله به على لسان رسوله ﷺ الذي بالإيمان به ثبت الإيمان له .

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

لما ادّعي في رسول الله ﷺ أنه أبو زيد بن حارثة ، نفى الله تعالى عنه أن يكون أباً لأحدٍ من رجالنا ، لرفع المناسبة وتمييزاً للمرتبة ، ففصل بينه وبينهم بالرسالة والختم ، ألا تراه ﷺ ما عاش له ولد ذكر من ظهره تشريفاً له ، لكونه سبق في علم الله أنه خاتم النبيين . ـــ أولاده ﷺ : الذكور منهم : القاسم ، وبه كان يكنّى ، ثم الطيب ، ثم الطاهر ، وعبد الله ، وجميع أولاده عليهم السلام من خديجة رضي الله عنها ، غير سيدنا ابراهيم عليه السلام فأمه مارية القبطية ، سريته ﷺ « وخاتم النبيين » فثبت بهذه الآية أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء ، قال ﷺ : [كنت نبياً وآدم بين الماء والطين] فبطن كونه خاتم النبيين في هذا الحديث ، وكان من ظهوره نبياً وآدم بين الماء والطين أن استفتح به مراتب البشر ، فقال [أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر] وختم الله به النبيين بعد بعثته ﷺ ببشريته ، فظهر كونه خاتم النبيين بقوله : [إنَّ الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا نبي بعدي ولا رسول] يعني أن الرسالة ـــ وهي البعثة إلى الناس بالتشريع لهم ـــ والنبوة قد انقطعت ، أي ما بقي من يشرع له من عند الله حكم يكون عليه ليس هو شرعنا الذي جئنا به ، فلا رسول بعدي يأتي بشرع يخالف شرعي إلى الناس ، ولا نبي فلا نبوة تشريع بعده ولا نبي يكون على شرع ينفرد به عند ربه يكون عليه ، فصرح أنه خاتم نبوة التشريع ، ولو أراد غير ما ذكرناه لكان معارضاً لقوله : [إن عيسى عليه السلام ينزل فينا حكماً مقسطاً يؤمنا بنا] أي بالشرع الذي نحن عليه ، ولا نشك فيه أنه رسول ونبي ، فعلمنا أنه ﷺ أراد أنه لا شرع بعده ينسخ شرعه ، ودخل بهذا القول كل إنسان في العالم من زمان بعثته إلى يوم القيامة ، فإن كان عيسى عليه السلام بعده ، وهو من أولي العزم والرسل وخواص الأنبياء ولكن زال حكمه عن هذا المقام لحكم الزمان عليه الذي هو لغيره ، فينزل فينا ولياً وارثاً خاتماً ذا نبوة مطلقة ، يشركه فيها الأولياء المحمديون ، قد حيل بينه وبين نبوة التشريع والرسالة ، ولا ولي بعده أي عيسى عليه السلام بنبوة مطلقة ، كما أن محمداً ﷺ خاتم النبوة نبوة التشريع خاصة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

أي في كل حال .

فالحمــد لله الــذي قــد وقــى ... مــن شر مــا يمكــن أن يُحْــذَرا

لــولا كتــاب سابــق فيكمــو ... نُبِـــذْتمو لفعلكـــم بالعَـــرا
مـــا شـــرع الرحمـــن أذكـــاره ... إلا لكـــي تعصمكـــم كالعُـــرَى
لأنها أعصم مـــــا يتقـــــى ... لما بـــه الـــرحمن قـــد قـــدّرا
تعـــوذوا منـــه بـــه أسوة ... بسيـــد يعلـــم مـــا قـــررا

واعلم أن كلام الله لا يضاهيه شيء من كل كلام مقرب إلى الله ، فينبغي للذاكر إذا ذكر الله متى ذكره أن يحضر في ذكره ذلك ذكراً من الأذكار الواردة في القرآن ، فيذكر الله به ليكون قارئاً في الذكر ، وإذا كان قارئاً فيكون حاكياً للذكر الذي ذكر الله به نفسه ، فلا يحمد الله ولا يسبحه ولا يهلله إلا بما ورد في القرآن عن استحضار منه لذلك ــ **بحث في الذكر بالاسم المفرد** ــ ما أمر الله بالكثرة من شيء إلا من الذكر ، فقال : « اذكروا الله ذكراً كثيراً » وقال : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) وما أتى الذكر قط إلا بالاسم الله خاصة معرى عن التقييد ، فقال « اذكروا الله » وما قال : بكذا وقال : (ولذكر الله أكبر) وما قال : بكذا ، ومثل ذلك من الآيات التي أمر فيها بالذكر ، وقال تعالى : في الحديث القدسي [من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » فقوله تعالى : « اذكروا الله ذكراً كثيراً » هو تكرار هذا الاسم ولم يذكر إلا الاسم الله خاصة ، وقد قال ﷺ : [لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله] فأتى به مرتين ولم يكتف بواحدة ، وأثبت بذلك أنه ذكر على الانفراد ، ولم ينعته بشيء ، وسكّن الهاء من الاسم ، وهو ﷺ مأمور أن يبيّن للناس ما نزّل إليهم ، فلولا أن قول الإنسان الله الله له حفظ العالم الذي يكون فيه هذا الذكر ، لم يقرن بزواله زوال الكون الذي زال منه ، وهو الدنيا ، وقال تعالى : (ولذكر الله أكبر) فلهذا الذكر المفرد إنتاج أمر عظيم في قلب الذاكر به لا ينتجه غيره وما قيد رسول الله ﷺ الاسم الله في هذا الحديث بأمر زائد على هذا اللفظ ، لأنه ذكر الخاصة من عباد الله الذين يحفظ الله بهم عالم الدنيا ، وكل دار يكونون فيها ؛ فإذا لم يبق منهم أحد لم يبق للدنيا سبب حافظ يحفظها الله من أجله ، فتزول وتخرب وكم من قائل الله باق في ذلك الوقت ، ولكن ما هو ذاكر باستحضار ، فلا يعتبر اللفظ دون استحضار ، وقد قال بعض العلماء بالرسوم : إنه لم ير هذا الذكر لارتفاع الفائدة عنده فيه ، إذ كل مبتدأ لابد له من خبر ، فيقال له : لا

يلزم ذلك في اللفظ ، بل له خبر ظاهر لا في اللفظ ، كإضافة إلى تنزيه أو ثناء بفعل ، ومعلوم أنه إذا ذُكِرَ أمر ما ، وكرر على طريق التأكيد له ، أنه يعطي من الفائدة ما لا يعطيه من ليس له هذا الحكم ، فمن هذه الآية وأمثالها ومن الحديث الذي ذكرناه ، رجَّح أهل الله ذكر لفظة الله الله ، وذكر لفظه (هو) على الأذكار التي تعطي النعت ، ووجدوا لها فوائد ؛ واعلم أن الذكر ليس بأن تذكر اسمه ، بل لتذكر اسمه من حيث ما هو مدح له وحمد ، إذ الفائدة ترتفع بذكر الاسم من حيث دلالته على العين ، وما قصد أهل الله بذكرهم الله الله نفس دلالة اللفظ على العين ، وإنما قصدوا هذا الاسم أو الهو ، من حيث أنهم علموا أن المسمى بهذا الاسم أو هذا الضمير هو من لا تقيده الأكوان ومن له الوجود التام ، فإحضار هذا في نفس الذاكر عند ذكر الاسم بذلك وقعت الفائدة ، فإنه ذكر غير مقيد ، فإذا قيده بلا إله إلا الله لم ينتج له إلا ما تعطيه هذه الدلالة ، وإذا قيده بسبحان الله لم يتمكن أن يحضر إلا مع حقيقة ما يعطيه التسبيح ، وكذلك الله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وكل ذكر مقيد لا ينتج إلا ما تقيد به ، لا يمكن أن يجني منه ثمرة عامة ، فإن حالة الذاكر تقيده ، وقد عرفنا الله أنه ما يعطيه إلا بحسب حاله في قوله : [إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي] ـ الحديث ـ فلهذا رجحت الطائفة ذكر لفظة الله وحدها أو ضميرها من غير تقييد ، فما قصدوا لفظة دون استحضار ما يستحقه المسمى ، وبهذا يكون ذكر الحق عبده باسم عام لجميع الفضائل اللائقة به ، التي تكون في مقابلة ذكر العبد ربه بالاسم الله ، فالذكر من العبد باستحضار والذكر من الحق بحضور ، لأنا مشهودون له معلومون ، وهو لنا معلوم لا مشهود ، فلهذا كان لنا الاستحضار وله الحضور ـ **شروط الذكر** ـ قوله تعالى : اذكروا الله ذكراً كثيراً . ما قيّد حال طهارة من حال ، فكما قال النبي ﷺ : [إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر ، أو قال : على طهارة] فقد قال ﷺ : [الحمد لله على كل حال] وقالت عائشة رضي الله عنها : [كان النبي ﷺ يذكر الله على جميع أحواله لا تمنعه إلا الجنابة] لذلك فإن الذكر في طريق الله لا يختص بالقول فقط ، بل تصرف العبد إذا رزق التوفيق في جميع حركاته ، لا يتحرك إلا في طاعة الله تعالى من واجب أو مندوب إليه ، ويسمى ذلك ذكراً لله ، أي لذكره في ذلك الفعل أنه لله بطريق القربة سُمي ذكراً ، لذلك قالت عائشة عن رسول الله ﷺ : [إنه كان يذكر الله على كل أحيانه] فعمّت جميع أحواله

في يقظة ونوم وحركة وسكون ، تريد أنه ما تصرف ولا كان على حال من الأحوال إلا في أمر مقرب إلى الله فجميع الطاعات كلها من فعل وترك إذا فعلت أو تركت لأجل الله ، فذلك من ذكر الله أي الله ذكر فيها ومن أجله فعلت أو تركت على حكم ما شرع فيها ، وهذا هو ذكر الموفقين من العلماء بالله ـ **إشارة للعارفين** ـ يغار أكثر أهل الطريق ولا سيما أهل الورع منهم أن يذكر الله بين العامة ، فيذكرونه بقلوب غافلة عن الحضور عما يجب لله من التعظيم ، وقد أخطؤوا في ذلك ، فإن القلب وإن غفل عن الذكر الذي هو حضوره مع المذكور ، فإن الإنسان من كونه سميعاً قد سمع ذكر الله من لسان هذا الذاكر ، فخطر بالقلب ووعى ما جاء به هذا الذاكر ، و لم يجيء إلا بذكر اللسان الذي وقع بالسمع ، فجرد له هذا القلب ما يناسبه من الذاكرين منه وهو اللسان ، فذكر الله بلسانه موافقة لذكر ذلك المذكّر له ، والقلب مشغول في شأنه الذي كان فيه ، مع أنه لم يشتغل عن تحريك اللسان بالذكر ، فلم يشغله شأن عن شأن ، فما ذكر أحد الله عن غفلة قط ، وما بقي إلا حضور باستفراغ له أو حضور بغير استفراغ ، بل بمشاركة ، ولكن زمان أمره اللسان بالذكر ما هو زمان اشتغاله بغيره ، فما ذكره غافل قط أي عن غفلة في حال أمر القلب اللسان بالذكر إلا في حال ذكر اللسان ، ثم إن اللسان قد وفّى حقه في العلانية من الذكر ، فإنه من الأشياء المسبحة لله ، فمن غار على الله لم يعرفه ، وإنما يغار له لا عليه .

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

« وسبحوه » أي صلوا له ، ولهذا قال : « بكرة وأصيلا » يعني صلاة الغداة والعشي ، فأمرنا هنا بالصلاة بكرة وأصيلاً ، فإن في ذلك غذاء العقول والأرواح ، كما أن غذاء الجسم في هذه الأوقات في قوله : (لهم رزقهم فيها بكرة وعشياً) ورزق كل مخلوق بحسب ما تطلبه حقيقته ، فالأرواح غذاؤها التسبيح ، فقيل لها : سبحه أي صل له في هذه الأوقات واذكره على كل حال ، فقيد التسبيح وما قيد الذكر ، فعلمنا أن التسبيح ذكر خاص مربوط بهذه الأوقات .

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

مسمى الصلاة يضاف إلى ثلاثة وإلى رابع ثلاثة بمعنيين ، بمعنى شامل وبمعنى غير شامل ، فتضاف الصلاة إلى الحق بالمعنى الشامل ، والمعنى الشامل هو الرحمة ، فإن الله وصف نفسه بالرحيم ووصف عباده بها فقال : (أرحم الراحمين) وقال رسول الله ﷺ : [إنما يرحم الله من عباده الرحماء] قال تعالى : « هو الذي يصلي عليكم » أي يرحمكم بأن يخرجكم من الظلمات إلى النور ، يقول من الضلالة إلى الهدى ، ومن الشقاوة إلى السعادة ، وتضاف إلى الملائكة بمعنى الرحمة والاستغفار والدعاء للمؤمنين ، قال تعالى : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته » فصلاة الملائكة ما ذكرناها ، قال الله عز وجل في حق الملائكة (ويستغفرون للذين آمنوا) ويقولون : (اغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم وقهم السيئات) اللهم استجب فينا صالح دعاء الملائكة ، وتضاف الصلاة إلى البشر بمعنى الرحمة والدعاء والأفعال المخصوصة المعلومة شرعاً ، فجمع البشر هذه المراتب المسماة صلاة ، قال تعالى آمراً لنا : (وأقيموا الصلاة) وتضاف الصلاة إلى كل ما سوى الله من جميع المخلوقات ملك وإنسان وحيوان ونبات ومعدن بحسب ما فرضت عليه وعيّنت له ، قال تعالى : (ألم تر أن الله يسبح له من في السموات ومن في الأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) فأضاف الصلاة إلى الكل والتسبيح ، أما قوله تعالى هنا : « هو الذي يصلي عليكم » فتفسيره من وجوه ــ **الوجه الأول** ــ « هو الذي يصلي عليكم » الصلاة المنسوبة إلى الحق هي رحمته بعباده ، فأخبر أنه يصلي علينا ، والمفهوم من هذا أمران : الأمر الواحد أنه يصلي علينا فينبغي لنا أن نذكره بالمدح والثناء ونصلي له بكرة وأصيلاً ، والأمر الآخر أنكم إذا صليتم وذكرتم الله فإنه يصلي عليكم ، فإنه لما أمرنا بالذكر والصلاة قال : « هو الذي يصلي عليكم » فصلاتنا وذكرنا له سبحانه بين صلاتين من الله تعالى ، صلى علينا فصلينا فصلى علينا ، فمن صلاته الأولى علينا صلينا له ، ومن صلاته الثانية علينا كانت السعادة لنا بأن جنينا ثمرة صلاتنا له وذكرنا ، لذلك جاءت إقامة الصلاة المفروضة بالفعل الماضي [قد قامت الصلاة] أراد قيام صلاة الله على العبد ليقوم العبد إلى الصلاة ، فيقيم بقيامه نشأتها ــ **الوجه الثاني** ــ « هو الذي يصلي عليكم » أي يؤخر ذكره عن ذكركم

حتى تذكروه ، قال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ وقال ﷺ مخبراً عن ربه : [من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه] فهو المصلي عن سابق ذكر العبد ، ولا تذكرونه حتى يوفقكم ويلهمكم ذكره ، فيذكركم بذكره إياكم ، فتذكرونه به أو بكم ، فيذكركم بكم وبه ــ **الوجه الثالث** ــ لما وصل الرسول ﷺ في عروجه إلى المقام الذي لا يتعداه البراق وليس في قوته أن يتعداه ، تدلى إلى الرسول ﷺ الرفرف ، فنزل عن البراق واستوى على الرفرف ، وصعد به الرفرف وفارقه جبريل ، فسأله الصحبة فقال : إنه لا يطيق ذلك ؛ وقال له : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ ولما وصل المعراج الرفرفي بالرسول ﷺ إلى مقامه الذي لا يتعداه الرفرف ، زجّ به في النور زجة غمره النور من جميع نواحيه ، ولم ير معه أحداً يأنس به ولا يركن إليه ، وقد أعطته المعرفة أنه لا يصح الأُنس إلا بالمناسب ، ولا مناسبة بين الله وعبده ، فأعطته ﷺ هذه المعرفة الوحشة لانفراده بنفسه ، وهذا مما يدلك أن الإسراء كان بجسمه ﷺ ، لأن الأرواح لا تتصف بالوحشة ولا الاستيحاش ، فلما علم الله منه ذلك وكيف لا يعلمه وهو الذي خلقه في نفسه ؟! وطلب عليه السلام الدنو بقوة المقام الذي هو فيه ، فنودي بصوت يشبه صوت أبي بكر ، تأنيساً له إذ كان أنيسه في المعهود ، فحنّ لذلك وأنس به ، وتعجب من ذلك اللسان في ذلك الموطن ، وكيف جاءه من العلو وقد تركه بالأرض ؟ وقيل له في ذلك النداء : [يا محمد قف ، إن ربك يصلي] فأخذه لهذا الخطاب انزعاج وتعجب ، كيف تنسب الصلاة إلى الله تعالى فتلا عليه في ذلك المقام « هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور » فعلم ما المراد بنسبة الصلاة إلى الله ، فسكن روعه مع كونه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن قد وصف نفسه بأنه لا يفعل أمراً حتى يفرغ من أمر آخر فقال : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ فمن هذه الحقيقة قيل له : [قف إن ربك يصلي] أي لا يجمع بين شغلين ، يريد بذلك العناية بمحمد ﷺ ، حيث يقيمه في مقام التفرغ له ، فهو تنبيه على العناية به ، والله أجل وأعلى في نفوس العارفين به من ذلك ، فإن الذي ينال الإنسان من المتفرغ إليه أعظم وأمكن من الذي يناله ممن ليس له حال التفرغ إليه ، لأن تلك الأمور تجذبه عنه ، فهذا في حال النبي عليه السلام وتشريفه ، فكان معه في هذا المقام بمنزلة مَلِكٍ استدعى بعض عبيده ليقربه ويشرفه ، فلما دخل حضرته وقعد في منزلته طلب أن ينظر إلى

الملك في الأمر الذي وجه إليه فيه ، فقيل له : تربص قليلاً فإن الملك في خلوته يعزل لك خلعة تشريف يخلعها عليك ، فما كان شغله عنه إلا به ، ولذلك فسَّر له صلاة الله بقوله تعالى : « هو الذي يصلي عليكم » فشرف بأن قيل له : إنما غاب عنك من أجلك وفي حقك ــ **الوجه الرابع** ــ « هو الذي يصلي عليكم وملائكته » عموماً وقال : (إن الله وملائكته يصلون على النبي) خصوصاً بخصوص صلاة ، وقد جاء بالملائكة في قوله : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته » بعدما ذكرنا وفصل بنا بين صلاته وبين الملائكة ، بقوله « عليكم » ثم قال : « ليخرجكم » فأفرد الخروج إليه ، وما جاء بضمير جامع يجمع بين الله وبين الملائكة في الصلاة على المؤمنين كما فعل في قوله : (يصلون على النبي) فعمنا كلنا والنبي ﷺ من جملتنا بقوله : « هو الذي يصلي عليكم » وأفرد نفسه في ذلك ثم قال : « وملائكته » فأفرد الملائكة بالصلاة على العباد وفيهم النبي ﷺ ، فلجميع الخلق توحيد الصلاة من الله وتوحيد الصلاة من الملائكة ، وخصّ النبي ﷺ وحده فيما أخبرنا به ، وأما قوله « وملائكته » أي أيضاً يصلون عليكم بما قد شرع لها من ذلك وهو قوله (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) الآية فصلاة الملائكة علينا كصلاتنا على الجنازة سواء لمن عقل ، فهي شفاعة ، ثم قال : « ليخرجكم » بلام السبب « من الظلمات إلى النور » ابتداء منه ومنّة ، وبدعاء الملائكة وهو قولهم : (وقهم السيئات) فإن السيئات ظلمات ، فمنهم من يخرج من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات المخالفة إلى نور الموافقة ، ومن ظلمات الضلال إلى نور الهدى ، ومن ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، ومن ظلمات الشقاء والتعب إلى نور السعادة والراحة ، فكما أن الصلاة الإلهية وهي عموم رحمته بمخلوقاته ، كذلك صلاة الملائكة تامة الخلقة ، فإنها دعت للذين تابوا وقالت أيضاً (وقهم السيئات) فعمت ، فما بقي أمر إلا دخل في صلاة الملائكة من طائع وعاص على أنواع الطاعات والمعاصي ، ثم قال : « وكان بالمؤمنين » أي المصدقين « رحيماً » أي رحمهم لما صدقوا به من وجوده الذي هو أعم من التصديق بالتوحيد ، فإنه يندرج بعد الإيمان بالوجود الإلهي كل ما يجب به الإيمان على طبقاته ثم قال :

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

« تحيتهم يوم يلقونه سلام » أي إذا وقع اللقاء بشر بالسلامة أنه لا يشقى بعد اللقاء أبداً ، فلله رجال يلقونه في الحياة الدنيا ويبشرون بالسلام ، وثَمَّ من يلقاه إذا مات ، وثَمَّ من يلقاه عند البعث ، وثَمَّ من يلقاه في تفاصيل مواقف القيامة على كثرتها ، ومنهم من يلقاه بعد دخول النار وبعد عذابه فيها ، ومتى وقع اللقاء حيّاه الله بالسلام فلا يشقى بعد ذلك اللقاء ، فلهذا جعل السلام عند اللقاء ، ولم يعين وقتاً مخصوصاً لتفاوت الطبقات في لقائه ، فآخر لاق يلقاه المؤمن بوجوده خاصة ، فإنه قال : (بالمؤمنين) ولم يقيد فلا نقيد ، ثم قال : « وأعد لهم أجراً كريماً » كل أجر على قدر ما عنده من الإيمان ، وأقلهم أجراً ، المؤمن بوجود الله إلهاً إلى ما هو أعظم في الإيمان ، فصلاة الله رحمته بخلقه ، وصلاة الحق كائنة على كل موجود وهي عموم رحمته بمخلوقاته .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾

من شرط من يدعى الإجابة إلى ذلك ، وجعله بإلى في قوله « إلى الله » وهو حرف غاية ، وهو انتهاء المطلوب ، فتضمنت حرف إلى أن المدعو لابد أن يكون له سعي من نفسه إلى الله ، فقال تعالى « بإذنه » أي بأمره ، لم يكن ذلك من نفسك ولا من عقلك ونظرك ، فافتقر المدعو إلى نور يكشف به ما يصده عن مطلوبه ، ويحرمه الوصول إليه لما دعاه ، مثل الشبه المضلة للإنسان في نظره إذا أراد القرب من الله بالعلم من حيث عقله ، فجعل الحق شرعه سراجاً منيراً ، يتبين لذلك المدعو بالسراج الطريق الموصلة إلى من دعاه إليه ؛ وجعل الرسول ﷺ « سراجاً منيراً » أي يُظهر به للمدعو ما يمنعه من الوصول فيجتنبه على بصيرة ، ولما كان السراج مفتقراً إلى الإمداد بالدهن لبقاء الضوء ، كان الرسول سراجاً منيراً للإمداد الإلهي الذي هو الوحي ، وجعله منيراً أي ذا نور لما فيه من الاستعداد لقبول هذا الإمداد ، فهو ﷺ سراج منير ، لأن الله يمده بنور الوحي الإلهي في دعائه إلى الله عباده ، فهو نور ممدود بإمداد إلهي لا بإمداد عقلي ، وهذا إجابة الله لرسوله ﷺ في دعائه بقوله لربه : [واجعلني نوراً] .

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

هذه الآية نص على نكاح الهبة أن ذلك خالص لرسول الله ﷺ ، وهو له مشروع وهو حرام علينا ، فهذا مما اختص به محمد ﷺ ، لأنه لما لم يكن في الأنكحة أفضل من نكاح الهبة ، لأنه لا عن عوض كالاسم الواهب الذي يعطي لينعم ، اختص به لفضله أفضل الخلق وهو محمد ﷺ ، فنكاح الهبة خاص لرسول الله ﷺ حرام على الأمة بلا خلاف .

تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

زوجات النبي اللاتي كان يساوي بينهن في القسمة أربع : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينت بنت جحش .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

نزلت هذه الآية جبراً لأزواج رسول الله ﷺ وإيثاراً لهن ومراعاتهن بعد أن خيّرهن رسول الله ﷺ فاختاروه ، وكانت هذه الآية . من أشق آية نزلت على رسول الله ﷺ لقوله ﷺ : [حبب إليَّ من دنياكم ثلاث : النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة] فأبقى عليه تعالى رحمة به لما جعل في قلبه من حب النساء ملك اليمين ، وقوله تعالى : « ولو أعجبك حسنهن » تقوية للحكم بتحريم ذلك عليه ، قالت عائشة [ما كان الله ليعذب قلب نبيه ﷺ ، والله ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ له النساء] « إلا ما ملكت يمينك » جواريه ﷺ : مارية بنت شمعون القبطية ، وولدت له سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وريحانة بنت زيد من بني قريظة من بني النضير « وكان الله على كل شيء رقيباً » ـــ **الوجه الأول** ـــ هو معنى قوله تعالى (ولا يؤده حفظهما) أي العالم الأعلى والأسفل ، فلا يزال الحق مراقباً لعالم الأجسام والجواهر العلوية والسفلية ، كلما انعدم منها عَرَضٌ به وجوده خلق في ذلك الزمان عَرَضاً مثله أو ضده يحفظه به من العدم في كل زمان ، فهو خلّاق على الدوام ، والعالم مفتقر إليه تعالى على الدوام افتقاراً ذاتياً ، من عالم الأعراض والجواهر ، وهذه مراقبة الحق خلقه لحفظ الوجود عليه ، وهذه هي الشؤون التي عبر عنها في كتابه أنه كل يوم في شأن ، ولا يشغله شأن عن شأن ـــ **الوجه الثاني** ـــ ومراقبة أخرى للحق في عباده ، وهي نظره إليهم فيما كلفهم من أوامره ونواهيه ورسم لهم من حدوده ، وهذه مراقبة كبرياء ووعيد ، فمنهم من وكل به من يحصي عليهم جميع ما يفعلونه ، مثل قوله : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ومثل قوله : (كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) وقوله (سنكتب ما قالوا) (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) (وما الله بغافل عما تعملون) فهو سبحانه لا يغفل عن حالات عبده في حركاته وسكناته ، ولا يشغله عن مراقبته شيء ،

وليس في الحضرات من يعطي التنبيه على أن الحق معنا بذاته في قوله : (وهو معكم أينما كنتم) إلا هذا الاسم الرقيب وهذه الحضرة ، لأنه على الحقيقة من الرقبى ، والرقبى أن تملك رقبة الشيء بخلاف العمرى ، فإذا ملكت رقبة الشيء تبعته صفاته كلها وما ينسب إليه ، والرقيب اسم فاعل « على كل شيء » وهو المرقب عليه ، فإنه المشهود لكل شيء ، فيرقب العبد في جميع حركاته وسكناته ، ويرقبه العبد في جميع آثاره في قلبه وخواطره وحركاته وحركات ما خرج عنه من العالم ، فأسعد العبيد من يراقب سيده مراقبة سيده إياه ، فيراقب الحق مراقبة عبده لمن يراقب ، فيكون معه بحيث يرى منه ، ومن ملك المراقبة كان له التصرف كيف شاء في المراقب ، فإن الله مع عبده حيث كان ، فالعبد وإن كان مقيداً بالشرع ، فإن الشرع قد جعله مُسَرَّح العينِ في تصرفه ، ويحمده الميزان ويذمه ، والمراقب معه أينما كان من محمود ومذموم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

« والله لا يستحي من الحق » وذلك ليس من صفات الخلق ، من لا يكون إلا ما يريد لا يستحي من العبيد ، فإن استحى في حال ما ، فلطلب الاسم المسمى .

إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ

ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

وهو رؤية عباده في حركاتهم وتصرفاتهم ، فشهوده لكل شيء هو إحسانه ، فإنه بشهوده يحفظه من الهلاك .

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾

قال الله تعالى: « هو الذي يصلي عليكم وملائكته » فعمنا كلنا والنبي ﷺ من جملتنا ، وأفرد نفسه في ذلك كما أفرد ملائكته بالصلاة على العباد وفيهم النبي ، فلجميع الخلق توحيد الصلاة من الله وتوحيد الصلاة من الملائكة ، وخصّ النبي ﷺ وحده فيما أخبرنا به بقوله : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » فهي خصوص صلاة فإن الضمير في قوله : « يصلون » يجمع الحق والملائكة ، فتميز النبي ﷺ على سائر البشر بمرتبة لم يعطها أحد سواه ، بأن جمع له بصلاة جامعة اشترك فيها الله وملائكته ، ومعلوم أن الصلاة في الجمعية ما هي الصلاة في حال الإفراد فإن الحالتين متميزتان ، ففاز النبي ﷺ بهذه الصلاة ، فثبت شرفه ﷺ على سائر البشر في هذه المرتبة ، فإنه شرف محقق الوجود بالتعريف ، وإن ساواه أحد ممن لم نعرَّف به فذلك شرف إمكاني ، فتعين فضله بالتعيين على من لم يتعين ، وإن كان قد صلى عليه مثل هذا في نفس الأمر و لم نخبر ، فثبت له الفضل بكل حال ، ويتضح في قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » أنه لو لم يكن من شرف الملائكة على سائر المخلوقات إلا جمع الضمير في « يصلون » بينهم وبين الله لكفاهم ، وما احتيج بعد ذلك إلى دليل آخر ، ونصب الملائكة بالعطف حتى يتحقق أن الضمير جامع للمذكورين قبل ، ولا يتمكن للملائكة أن تلحق صلاة الله على عبده ، فإنها لا تتعدى مرتبتها ، فيكون الحق ينزل في هذه الصلاة إلى صلاة الملائكة لأجل الضمير الجامع ، فتكون صلاة الله على

النبي من مقام صلاة الملائكة على النبي ، ثم أمرنا تعالى أن نصلي عليه ﷺ فقال : « يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليماً » فأمرنا أن نصلي عليه بمثل هذه الصلاة الجامعة بصلاتنا عليه ، والصلاة على النبي في الصلاة وغيرها دعاء من العبد المصلي لمحمد ﷺ بظهر الغيب ، وقد علّمنا كيف نصلي عليه أي كيف ندعو له ، وقد أمرنا أن ندعو له بالوسيلة والمقام المحمود ، وقد ورد في الصحيح عنه ﷺ [أنه من دعا بظهر الغيب قال له الملك ولك بمثله وفي رواية ولك بمثليه] فشرع ذلك رسول الله ﷺ وأمر بها ليعود هذا الخير من الملك على المصلي عليه من أمته ﷺ ، وأمر بالسلام عليه بقوله : « وسلموا تسليما » فأكده بالمصدر ، فقد يحتمل أن يريد بذلك السلام المذكور في التشهد ، ويحتمل أن يريد به السلام من الصلاة ، أي إذا فرغتم من الصلاة على النبي ﷺ فسلموا من صلاتكم تسليماً(١) ، فالصلاة على النبي ﷺ في التشهد فرض ، والتعوذ من الأربع المأمور بها في التشهد واجب ، وهي أن يتعوذ من عذاب القبر ومن عذاب جهنم ومن فتنة المحيا وفتنة الممات ومن فتنة المسيح الدجال ، ولو لم يأمر النبي ﷺ بالتعوذ منها لكان الاقتداء برسول الله ﷺ أولى ، إذ كان التعوذ منها من فعله ، فكيف وقد انضاف إلى فعله أمره أمته بذلك ؟ وأما التسليم من الصلاة فهو واجب ، والثابت عن رسول الله ﷺ أنه كان يسلم تسليمتين ، سأل المؤمنون رسول الله ﷺ عن كيفية الصلاة التي أمرهم الله أن يصلوها عليه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : [قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم] أي مثل صلاتك على إبراهيم وعلى آل ابراهيم ، ويظهر من هذا الحديث فضل إبراهيم عليه السلام على رسول الله ﷺ ، إذ طلب أن يصلي عليه مثل الصلاة على إبراهيم ، فاعلم أن الله أمرنا بالصلاة على رسول الله ﷺ ، ولم يأمرنا بالصلاة على آله في القرآن ، وجاء الإعلام في تعليم رسول الله ﷺ إيانا الصلاة عليه بزيادة الصلاة على الآل ، فما طلب ﷺ الصلاة من الله عليه مثل صلاته على ابراهيم من حيث أعيانهما ، فإن العناية الإلهية برسول الله ﷺ أتم ، إذ قد خُصَّ بأمور لم يخصّ بها نبي قبله لا إبراهيم ولا غيره ، وذلك من صلاته تعالى عليه ، فكيف يطلب الصلاة من الله عليه مثل صلاته على إبراهيم من حيث عينه ؟ إنما المراد من ذلك أن الصلاة على الشخص قد تصلى عليه من حيث عينه

---

(١) راجع الإشارة في نهاية البحث .

ومن حيث ما يضاف إليه غيره ، فكأن الصلاة عليه من حيث ما يضاف إليه غيره هي الصلاة من حيث المجموع ، إذ للمجموع حكم ليس للواحد إذا انفرد . واعلم أن آل الرجل في لغة العرب هم خاصته الأقربون ، وخاصة الأنبياء وآلهم هم الصالحون ، العلماء بالله المؤمنون به ، وقد علمنا أن إبراهيم كان من آله أنبياء ورسل الله ، ومرتبة النبوة والرسالة قد ارتفعت في الشاهد في الدنيا ، فلا يكون بعد رسول الله ﷺ في أمته نبي يشرع الله له بخلاف شرع محمد ﷺ ولا رسول ، وما منع المرتبة ولا حجرها من حيث لا تشريع ولا سيما وقد قال ﷺ فيمن حفظ القرآن ، إن النبوة قد أدرجت بين جنبيه أو كما قال ﷺ ، وقال في المبشرات إنها جزء من أجزاء النبوة ، فوصف بعض أمته بأنهم قد حصل لهم المقام وإن لم يكونوا على شرع يخالف شرعه ، وقد علمنا ــ بما قال لنا ﷺ ــ أنّ عيسى عليه السلام ينزل فينا حكماً مقسطاً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولا نشك قطعاً أنه رسول الله ونبيه ، وهو ينزل بعده ، فله عليه السلام مرتبة النبوة بلا شك عند الله ، وما له مرتبة التشريع عند نزوله ، فعلمنا بقوله ﷺ إنه [لا نبي بعدي ولا رسول] وأن النبوة قد انقطعت والرسالة ، إنما يريد بهما التشريع ، فلما كانت النبوة أشرف مرتبة وأكملها ، ينتهي إليها من اصطفاه الله من عباده ، علمنا أن التشريع في النبوة أمر عارض بكون عيسى عليه السلام ينزل فينا حكماً من غير تشريع ، وهو نبي بلا شك ، فخفيت مرتبة النبوة في الخلق بانقطاع التشريع ، ومعلوم أن آل إبراهيم من النبيين والرسل الذين كانوا بعده ، مثل إسحق ويعقوب ويوسف ومن انتسل منهم من الأنبياء والرسل بالشرائع الظاهرة الدالة على أن لهم مرتبة النبوة عند الله ، أراد رسول الله ﷺ أن يلحق أمته ــ وهم آله العلماء الصالحون منهم ــ بمرتبة النبوة عند الله وإن لم يشرعوا ، ولكن أبقى لهم من شرعه ضرباً من التشريع ، فقال : [قولوا : اللهم صلِ على محمد وعلى آل محمد] أي صل عليه من حيث ما له آل [كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم] أي من حيث أنك أعطيت آل إبراهيم النبوة تشريفاً لإبراهيم ، فظهرت نبوتهم بالتشريع ، وقد قضيت أن لا شرع بعدي ، فصلِّ عليَّ وعلى آلي بأن تجعل لهم مرتبة النبوة عندك ، وإن لم يشرعوا ، فكان من كمال رسول الله ﷺ أن ألحق آله بالأنبياء في المرتبة ، وزاد على إبراهيم بأن شرعه لا ينسخ ، وبعض شرائع إبراهيم ومن بعده نسخت الشرائع بعضها بعضاً ، وما علَّمنا رسول الله ﷺ الصلاة عليه على هذه الصورة إلا بوحي من الله ،

وبما أراه الله ، وأن الدعوة في ذلك مجابة ، فقطعنا أن في هذه الأمة من لحقت درجته درجة الأنبياء في النبوة عند الله لا في التشريع ، ولهذا بيّن رسول الله ﷺ وأكد بقوله : [فلا رسول بعدي ولا نبي] فأكد بالرسالة من أجل التشريع ، فأكرم الله رسوله ﷺ بأن جعل آله شهداء على أمم الأنبياء ، كما جعل الأنبياء شهداء على أممهم ، ثم أنه خصّ هذه الأمة أعني علماءها ، بأن شرع لهم الاجتهاد في الأحكام ، وقرر حكم ما أداه إليه اجتهادهم ، وتعبدهم به وتعبد من قلدهم به ، كما كان حكم الشرائع للأنبياء ومقلديهم ، ولم يكن مثل هذا لأمة نبي ما لم يكن بوحي منزل ، فجعل الله وحي علماء هذه الأمة في اجتهادهم ، كما قال لنبيه ﷺ : (لتحكم بين الناس بما أراك الله) فالمجتهد ما حكم إلا بما أراه الله في اجتهاده ، فهذه نفحات من نفحات التشريع ما هو عين التشريع ، فلآل محمد ﷺ ، وهم المؤمنون من أمته العلماء ، مرتبة النبوة عند الله ، تظهر في الآخرة ، وما لها حكم في الدنيا إلا هذا القدر من الاجتهاد المشروع ، فلم يجتهدوا في الدين والأحكام إلا بأمر مشروع عند الله ، فإن اتفق أن يكون أحد من أهل البيت بهذه المثابة من العلم والاجتهاد ولهم هذه المرتبة كالحسن والحسين وجعفر وغيرهم من أهل البيت ، فقد جمعوا بين الأهل والآل ، فلا تتخيل أن آل محمد ﷺ هم أهل بيته خاصة ، ليس هذا عند العرب ، فإن الآل لا يضاف بهذه الصفة إلا للكبير القدر في الدنيا والآخرة ، فلهذا قيل لنا قولوا : [اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم] أي من حيث ما ذكرناه لا من حيث أعيانهما خاصة دون المجموع ، فهي صلاة من حيث المجموع ، وذكرناه لأنه تقدم بالزمان على رسول الله ﷺ ، فرسول الله ﷺ قد ثبت أنه سيد الناس يوم القيامة ، ومن كان بهذه المثابة عند الله ، كيف تحمل الصلاة عليه كالصلاة على إبراهيم من حيث أعيانهما ؟ فلم يبق إلا ما ذكرناه ، روي عن النبي ﷺ أنه قال : [علماء هذه الأمة كأنبياء سائر الأمم] وفي رواية [أنبياء بني إسرائيل] وإن كان إسناد هذا الحديث ليس بالقائم ، ولكن أوردناه تأنيساً للسامعين أن علماء هذه الأمة قد التحقت بالأنبياء في الرتبة ، وتلخيص ما ذكرناه هو أن يقول المصلي [اللهم صل على محمد] بأن تجعل آله من أمته [كما صليت على إبراهيم] بأن جعلت آله أنبياء ورسلاً في المرتبة عندك ، [وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم] بما أعطيتهم من التشريع والوحي ، فأعطاهم الحديث فمنهم المحدثون ، وشرع لهم الاجتهاد وقرره حكماً شرعياً ،

فاشبهت الأنبياء في ذلك ــ وهذا التفسير عن واقعة إلهية ، يقول رضي الله عنه (أي الشيخ الأكبر) . وهذه مسئلة عظيمة جليلة القدر ، لم نر أحداً ممن تقدمنا تعرض لها ولا قال فيها مثل ما وقع لنا في هذه الواقعة ، إلا إن كان وما وصل إلينا ، فإن لله في عباده أخفياء لا يعرفهم سواه ــ **وجه آخر** ــ لكي ننال ما ناله إبراهيم عليه السلام من الخلـة على قـدر ما يعطيه حالنا ، قال لنا : [قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد] والمؤمنون آله [كما صليت على إبراهيم] وما اختص به إلا الخلة ، فلما دعونا بها لرسول الله ﷺ أجاب الله دعاءنا فيه لنتخذ عنده يداً بذلك ، فصلى الله عنه علينا عشراً ، فقام تعالى عن نبيه ﷺ بالمكافأة ، عناية منه به عليه السلام وتشريفاً لنا ، حيث لم تكمل المكافأة في ذلك لملك ولا غيره ، فقال النبي ﷺ عن ذلك لما حصلت الإجابة من الله فيما دعوناه فيه لنبيه ﷺ : [لو كنت متخذ خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم] يعني نفسه [خليل الله] ولو صحت له هذه الخلة من قبل دعاء أمته له بذلك لكان غير مفيد صلاتنا عليه ، أي دعاءنا له بذلك ، وحكم الخلة ما ظهر هنا ، وإنما يظهر ذلك في الآخرة ، ففي الآخرة تنال الخلة لظهور حكمها هناك ، وأما الذي يظهر منها هنا لوامع تبدو وتؤذن بأنه قد أُهِّل لها واعتني به ــ **تحقيق** ــ من غيرة الله أن تكون لمخلوق على مخلوق منة لتكون المنة لله ، فما خلق مخلوقاً إلا وجعل لمخلوق عليه يداً بوجه ما ، فإن أراد الفخر مخلوق على مخلوق لما كان منه إليه ، نكس رأسه ما كان من مخلوق آخر إليه ، والأنبياء والرسل والكمل من العلماء بالله لا يخطر لهم ذلك ، لمعرفتهم بحقائق الأمور وما ربط الله به العالم ، وما يستحقه جلاله مما ينبغي أن يُفرَد به ولا يُشَارك فيه ، فنصب الأسباب وأوقف الأمور بعضها على بعض لما تقتضيه الحكمة ، فقال لرسوله ﷺ (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) فهذا فخر ويد ومنة ، يتعرض فيها علة ومرض ، ولكن عصم الله نبيه من ذلك ، فجعل سبحانه في مقابلة هذه العلة دواء كما هي أيضاً دواء لما هو لها دواء ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه » فإن افتخرنا بالصلاة عليه على طريق المنة ، وجدناه قد صلى علينا حين أُمر بذلك ، وان تصوّر في الجواز العقلي أن يمتن بصلاته علينا ، منعته من ذلك صلاتنا عليه أن يذكر هذا ، مع كونه السيد الأعظم ، ولكن لم يترك له سبحانه المنة على خلقه ، ليكون هو سبحانه المنعم الممتن على عباده بجميع ما هم فيه ، وما يكون منهم في حق الله من الوفاء

بعهوده ــ **إشارة** ــ من قوله تعالى : « وسلموا تسليماً » يريد به السلام من الصلاة . اعلم أن المُسَلِّم من صلاته رجلان ، لهما طريقان ، فإن كانا في شخص واحد فقد جُمعت له الحقيقتان ، فالعالي من سلَّم لكونه انفصل عن أمر ما إلى أمر ما ، إلى اسم ما ، عن اسم آخر ، فيكون سلام توديع وإقبال ، إما من جليل إلى جلال ، أو من جميل إلى جمال ، والدون من سلَّم على الرحمن وعلى الأكوان ، فسلامه على الرحمن لانفصاله ، وسلامه على الأكوان لرجوعه إليهم واتصاله ، ولهذا لا يسلم المصلي على يساره إلا إذا جاوره مثله ، فيظهر فيه ظلّه ، ومن خرج عن هاتين الحقيقتين لم يصح سلامه ، ولا قُبل كلامه ، فإنه لم يكن عند الحق فينفصل عنه بسلام ، و لم يغب عن الكون فيسلِّم عليه عند الإلمام ، وهذه صلاة العوام ، بريئة من الكمال والتمام ، ليس لها انتظام ولا التحام .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾

« إن الذين يؤذون الله » بالتكلم فيه بما لا ينبغي ، فوصف الله نفسه بأنه يؤذى ، و لم يؤاخذ عن أذاه في الوقت من آذاه ، فأمهلهم و لم يؤاخذهم ، وجعل له ذلك الأذى الاسم الصبور ، فوصف نفسه بالصبور ، وذكر لنا مَنْ يؤذيه وبماذا يؤذيه ، وطلب من عباده رفع الأذى مع قدرته على أن لا يخلق فيهم ما خلق ، مع بقاء اسم الصبور عليه ، ليعلمنا أنا إذا شكونا إليه ما نزل بنا من البلاء ، أن تلك الشكوى إليه لا تقدح في نسبة الصبر إلينا ، فنحن مع هذه الشكوى إليه في رفع البلاء عنا صابرون ، كما هو صابر مع تعريفنا وإعلامه إيانا بمن يؤذيه وبما يؤذيه ، لننتصر له وندفع عنه ذلك وهو الصبور ، فمن كان عدواً لله فهو عدو للمؤمن ، وقد ورد في الخبر [ليس من أحد أصبر على أذى من الله] لكونه قادراً على الأخذ وما يأخذ ، ويمهل باسمه الحليم ، وقد كُذّب وشُتِم ورد في الصحيح [شتمني ابن آدم و لم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم و لم يكن ينبغي له] (الحديث) فقوله و لم يكن ينبغي له ذلك لما له عليه تعالى من فضل إخراجه من الشر الذي هو العدم إلى الخير الذي بيده تعالى وهو الوجود ، فكان التعريف بذلك ليرجع المكذب عن تكذيبه ، والشاتم عن شتمه ، فإن الدنيا موطن الرجوع والقبول منه ، والآخرة وإن كانت موطن الرجوع ولكن ليست بموطن قبول ، واتصف الحق بالصبر على أذى العبد ، وعرَّف أهل الاعتناء من المؤمنين بذلك

ــ صورة الشاكي ــ ليدفعوا عنه ذلك الأذى ، فيكون لهم من الله أعظم الجزاء ، فلا أرفع ممن يدفع عن الله أذى « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة » أي أبعدهم ، واللعنة البعد ، وسببه وقوع الأذى منهم ، فوجبت عليهم اللعنة « وأعد لهم عذاباً مهيناً » لو كان الأمر كما يتوهمه من لا علم له من عدم مبالاة الحق بأهل الشقاء ، ما وقع الأخذ بالجرائم ، ولا وصف الله نفسه بالغضب ، ولا كان البطش الشديد ، فهذا كله من المبالاة والتهمم بالمأخوذ ، إذ لو لم يكن له قدر ما عذب ولا استعدّ له ، وقد قال في أهل الشقاء : « وأعد لهم عذاباً مهيناً »

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ البهت أعظم من الجور .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

العورة في المرأة السوأتان فقط ، كما قال تعالى : (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) فسوّى بين آدم وحواء في ستر السوأتين وهما العورتان ، وإن أُمرت المرأة بالستر فهو مذهبنا ، لا من كونها عورة وإنما ذلك حكم مشروع ورد بالستر ، ولا يلزم أن يستر الشيء لكونه عورة . **أزواج النبي ﷺ** : منهن **خديجة** بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، ماتت قبل الهجرة ، **وعائشة** بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، ومنهن **حفصة** بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ومنهن **أم سلمة** واسمها هند بنت أمية بن المغيرة ابن عبد الله ابن مخزوم ، وهي آخر من مات من أزواجه بعده ، ومنهن **سودة** بنت زمعة ابن عبد شمس بن عبد ودّ بن نضر بن مالك بن جابر بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر ، ومنهم **أم حبيبة** واسمها رملة بنت أبي سفيان بن الحارث بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب ، ومنهن **زينت بنت جحش** بن رباب بن أسد بن خزيمة ، وأمها عمة رسول الله ﷺ بنت عبد المطلب ، وهي أول من مات من أزواجه بعده ، وهي أول من

حملت جنازتها على نعش ، ومنهن **زينب بنت خزيمة** وهي أم المساكين ، وهي من عبد مناف ابن هلال بن عامر بن صعصعة ، توفيت في حياته عليه السلام ، ومنهن **ميمونة** بنت الحارث ابن حرب بن بحر بن الحرص بن رومية بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة ، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وقيل الواهبة نفسها خولة بنت حكيم السلمي ، وقيل : أم شريك ، وقيل : زينب بنت جحش ، ومنهن **جويرية** بنت الحارث بن أبي ضرار بن الحارث بن عابد بن مالك بن المصطلق بن خزاعة ، سباها النبي ﷺ في غزوة المريسيع وتزوج بها ، ومنهن **صفية** بنت حُيَيّ بن أخطب ، من بني النضير ، سباها يوم خيبر **فهؤلاء** إحدى عشر امرأة دخل بهن ﷺ بلا خلاف ، ومات ﷺ عن تسع منهن : ميمونة ، وسودة ، وصفية ، وجويرية ، وأم حبيبة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وزينب بنت جحش ، ومات في حياته منهن : خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين .
بناته ﷺ : أكبرهن رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾

سيد القوم هو رئيسهم الذي له الرياسة عليهم .

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

كانت براءة موسى بفرار الحجر بثوب موسى عليه السلام حتى بدت لقومه سوأته ، ليعلموا كذبهم فيما نسبوه إليه ، أترى فرار الحجر هل كان عن غير أمر الله إياه بذلك ؟ بل كان بوحي من الله « فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله » لهذه البراءة « وجيها » .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾

يا رب وهل لمخلوق حول أوقوة إلا بك ؟ وأي قول لنا إلا ما تقولنا ؟ فاجعل نطقنا ذكرك ، وقولنا تلاوة كتابك ، وهنا أمر الله عباده المؤمنين أن يقولوا عند الشهود بنور الإيمان : لا فاعل إلا الله ؛ فقالوا قولاً سديداً ، فإذا قالوه أصلح لهم أعمالهم وغفر لهم ذنوبهم ، فقال تعالى : .

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

فالسعيد من حال الله بينه وبين ربوبيته ، وأقامه عبداً في جميع أحيانه ، يخاف ويرجو إيماناً ، ولا يخاف ولا يرجى عياناً .

إنما العبد من يخاف ويرجو ليس بالعبد من يُخاف ويُرجى

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

« إنا عرضنا الأمانة ، وأي أمانة أعظم من النيابة عن الحق في عباده ، فلا يصرفهم إلا بالحق ، فلابد من الحضور الدائم ومن مراقبة التصريف « على السموات والأرض والجبال » كان عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال بوحي يناسبها ، مثل قوله تعالى : (وأوحى في كل سماء أمرها) « فأبين أن يحملنها » لأنها كانت عرضاً لا أمراً ، فلهذا أبت السموات والأرض القبول ، لعلمها أنها تقع في الخطر ، فلا تدري ما يؤول إليها أمرها في ذلك ، وأبين أن يحملنها من أجل الذم الذي كان من الله لمن حملها ، وهو أن الله وصف حاملها بالظلم والجهل ببنية المبالغة ، فإن حاملها ظلوم لنفسه ، جهول بقدر الأمانة « وأشفقن منها » أي خفن أن لا يقمن بحقها ، فاستبرأن لأنفسهن ، فهل ترى إباية السموات والأرض والجبال عن حمل الأمانة وإشفاقهن منها ، عن غير علم بقدر الأمانة وما يؤول إليه أمر من حملها فلم يحفظ حق الله فيها ؟ وعلمهم بالفرق بين العَرْض والأمر ، فلما كان عرض تخيير احتاطوا لأنفسهم وطلبوا السلامة ، ولما أمرهم الحق تعالى بالإتيان فقال للسموات والأرض (ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) طاعة لأمر الله ، وحذراً أن يؤتى بهما على كره ، أترى إباية مَنْ ذكر الله لجهلها ؟ لا والله ، بل الحمل للأمانة كان لمجرد الجهل من الحامل ، وهل نعت الله بالجهل على المبالغة فيه والظلم لنفسه فيها لغيره إلا الحامل لها وهو الإنسان ، فعلمت الأرض ومَنْ ذُكِر قدر الأمانة وأن حاملها على خطر ، فإنه ليس على يقين من الله أن يوفقه لأدائها إلى أهلها ، وعلمت مراد الله بالعرض أنه يريد ميزان العقل ، فكان عقل الأرض والجبال والسماء أوفر من عقل الإنسان ، حيث لم يدخلوا أنفسهم فيما لم يوجب الله عليهم ، فإن طلب حمل الأمانة كان عرضاً لا أمراً ، وجعل بعض علماء الرسوم هذه الإباية والإشفاق حالاً لا حقيقة ، وكذلك قوله عنهما (قالتا أتينا طائعين) قول حال لا خطاب ، وهذا كله ليس بصحيح ، ولا مراد في هذه الآيات ، بل الأمر على ظاهره كما ورد ، وهكذا يدركه أهل الكشف « وحملها الإنسان » عرضاً أيضاً لما وجد في نفسه من قوة الصورة التي خلق عليها ، لأنه لما خلق الله آدم على صورته أطلق عليه جميع أسمائه الحسنى ، وبقوتها حمل الأمانة المعروضة ، وما أعطته هذه الحقيقة أن يردها كما أبت السموات والأرض والجبال حملها « إنه كان ظلوماً جهولاً » ـــ **الوجه الأول** ـــ « إنه كان ظلوماً » لو لم يحملها « جهولاً » لأن العلم بالله عين الجهل به ، فالعجز عن درك الإدراك إدراك

ــ **الوجه الثاني** ــ « إنه كان ظلوماً » لنفسه حيث عَرّض بنفسه إلى أمر عظيم إذا كان عارفاً بقدر الأمانة ، وإذا لم يوفق لأدائها كان ظالماً لنفسه ولغيره « جهولا » وذلك لجهل الإنسان ذلك من نفسه وبقدر ما تحمل وحُمِل ، وإن كان عالماً بقدرها فما هو عالم بما في علم الله فيه من التوفيق إلى أدائها ، بل هو جهول كما شهد الله فيه ، لأنه جَهِل هل يؤدي الأمانة إلى أهلها أم لا ؟ فكان قبول الإنسان الأمانة اختياراً لا جبراً ، فخان فيها لأنه وكِلَ إلى نفسه وخُذِل ، قال رسول الله ﷺ : [من طلب الإمارة وكل إليها ، ومن أعطيها من غير طلب بعث الله أو وكل الله به ملكاً يسدده] فقال لنا تعالى لما حملنا الأمانة (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فما حملها أحد من خلق الله إلا الإنسان ، ولا يخلو إما أن يحملها عرضاً أو جبراً ، فإن حملها عرضاً فقد خاطر بنفسه ، وإن حملها جبراً فهو مؤد لها على كل حال ، ومن ذلك نعلم أن من العالم ما هو مجبور فيما كُلّف حمله ، وهو المعبر عنه بفرائض الأعيان وفرائض الكفاية ، ما لم يقم به واحد فيسقط الفرض عن الباقي ، ومن العالم ما لم يجبر في الحمل وإنما عرض عليه ، فإن قبله فما قبله إلا لجهله بقدر ما حمل من ذلك ، كالإنسان لما عُرِضت عليه الأمانة وحملها ، كان لذلك ظلوماً لنفسه جهولاً بقدرها ، والسموات والأرض والجبال لما عُرِضت عليهن أبين أن يحملنها وأشفقن منها ، لمعرفتهن بقدر ما حملوا ، فلم يظلموا أنفسهم ، فما وصف أحد من المخلوقات بظلمه لنفسه إلا الإنسان ، فكان خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس في المنزلة ، فإنهن كن أعلم بقدر الأمانة من الإنسان فبهذا كن أيضاً أكبر من خلق الناس في المنزلة من العلم ، فإنهن ما وصفن بالجهل كما وصف الإنسان ، فإن الله لما عرض عليه الأمانة وقبلها كان بحكم الأصل ظلوماً جهولاً ، فإنه خوطب بحملها عرضاً لا أمراً ، فإن حملها جبراً أعين عليها ، فكان الإنسان ظلوماً لنفسه جهولاً ، يعني بقدر الأمانة ، فهي ثقيلة في المعنى وإن كانت خفيفة في التحمل ، فكانت السموات والأرض والجبال في هذه المسئلة أعلم من الإنسان ، ولم تكن في الحقيقة أعلم ، وإنما الإنسان لما كان مخلوقاً على الصورة الإلهية ، وكان مجموع العالم ، اغتر بنفسه وبما أعطاه الله من القوة بما ذكرناه ، فهان عليه حملها ، ثم إنه رأى الحق قد أهّله للخلافة من غير عرض عليه مقامها ، فتحقق أن الأهلية فيه موجودة ، ولم تقو السموات على الانفراد ولا الأرض على الانفراد ولا الجبال على الانفراد قوة جمعية الإنسان ، فلهذا أبين أن يحملنها وأشفقن منها ،

وما علم الإنسان ما يطرأ عليه من العوارض في حملها ، فسمي بذلك العارض خائناً ، فإنه مجبول على الطمع والكسل ، وما قبلها إلا من كونه عجولاً ، فلو فسح الحق له في الزمان حتى يفكر في نفسه ، وينظر في ذاته وفي عوارضه ، لبان له قدر ما عرض عليه ، فكان يأبى كما أبته السماء وغيرها ممن عرضت عليه ، ومن الأمانة التي حملها الإنسان الصفات الإلهية ، وهي على قسمين : صفة إلهية تقتضي التنزيه ، كالكبير والعلي ، وصفة إلهية تقتضي التشبيه ، كالمتكبر والمتعالي ، وما وصف الحق به نفسه مما يتصف به العبد ، فمن جعل ذلك نزولاً من الحق إلينا جعل الأصل للعبد ، ومن جعل ذلك للحق صفة إلهية لا تعقل نسبتها إليه لجهلنا به ، كان العبد في اتصافه بها يوصف بصفة ربانية في حال عبوديته ، فيكون جميع صفات العبد التي يقول فيها لا تقتضي التنزيه ، هي صفات الحق تعالى لا غيرها ، غير أنها لما تلبس بها العبد انطلق عليها لسان استحقاق للعبد ، والأمر على خلاف ذلك ، وهذا هو الذي يرتضيه المحققون ، وهو قريب إلى الأفهام إذا وقع الإنصاف ، وذلك أن العبد ما استنبطه ولا وصف الحق به ابتداء من نفسه ، وإنما الحق وصف بذلك نفسه على ما بلّغت رسله وما كشفه لأوليائه ، ونحن ما كنا نعلم هذه الصفات إلا لنا لا له بحكم الدليل العقلي ، فلما جاءت الشرائع بذلك ، وقد كان هو ولم نكن نحن ، علمنا أن هذه الصفات هي له بحكم الأصل ، ثم سرى حكمها فينا منه ، فهي له حقيقة وهي لنا مستعارة ، إذ كان ولا نحن ، فالإنسان ظلوم بما غصب من هذه الصفات من حيث جعلها لنفسه حقيقة ، جهول بمن هي له وبأنها غَصبٌ في يده ، فمن أراد أن يزول عنه وصف الظلم والجهالة فليرد الأمانة إلى أهلها ، والأمر المغصوب إلى صاحبه ، والأمر في ذلك هين جداً ، والعامة تظن أن ذلك صعب وليس كذلك .

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾

(٣٤) سورة سبأ مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾

- **إشارة لا تفسير** - على الإنسان أن يعلم ما يلج في أرض طبيعته من بذر ما بذر الله فيها حين سواها وعدلها ، وما يخرج منها من العبارات عما فيها ، والأفعال العملية الصناعية على مراتبها ، لأن الذي يخرج عن الأرض مختلف الأنواع ، وذلك زينة الأرض ، فما يخرج عن أرض طبيعة الإنسان وجسده فهو زينة له ، من فصاحة في عبارة وأفعال صناعية محكمة ، كما يعلم ما ينزل من سماء عقله ، بما ينظر فيه من شرعه في معرفة ربه ، وذلك هو التنزيل الإلهي على قلبه ، وما يعرج فيها من كلمه الطيب على براق العمل الصالح الذي يرفعه إلى الله ، كما قال تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب) وهو ما خرج من الأرض (والعمل الصالح يرفعه) وهو ما أخرجته الأرض أيضاً ، فالذي ينزل من السماء هو الذي يلج في الأرض ، والذي يخرج من الأرض ، وهو ما ظهر عن الذي ولج فيها ، هو الذي يعرج في السماء ، فعين النازل هو عين الوالج ، وعين الخارج هو عين العارج .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾

« ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق » .

وانسب إلى الباري ما قال وما	جاء به شرع ولكن ابتدا
مما لو أن العقل يبقى وحده	ما قاله معتقداً وقدّا
فإن يكن بعد سؤال قاله	فهو دواء وهو بالبرهان دا
فالحق ما قرره الشرع ولو	دل على كل محال وبدا
فالمؤمن الحق بهذا مؤمن	وكل من أوله قد اعتدى
لأنه ظن وبعض الظن قد	يكون إثماً قائداً نحو الردى

« ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » فإن معاملة الحق وعبادته لا تدرك بالاجتهاد ، بل بما يشرعه الحق ويبيّنه ، لما كان قدره مجهولاً وما ينبغي لجلاله غير معلوم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

« ولقد آتينا داود منا فضلاً ـــ **الوجه الأول** ـــ لما كانت عطاياه تعالى للأنبياء والرسل عليهم السلام اختصاصاً إلهياً ، فهي مواهب ليست جزاء ، ولا يطلب عليها منهم جزاء فإعطاؤه إياهم على طريق الإنعام والإفضال ، قال تعالى في حق داود « ولقد آتينا داود منا فضلاً » فلم يقرن به جزاء يطلبه منه ، ولا أخبر أنه أعطاه هذا الذي ذكره جزاء ، ـــ **الوجه الثاني** ـــ « ولقد آتينا داود منا فضلاً » أي معرفة به سبحانه لا يقتضيها عمله ، فلو اقتضاها عمله لكانت جزاءً ، ووهب له فضلاً سليمان عليه السلام فقال (ووهبنا لداود سليمان) « يا جبال أوبي معه والطير » ـــ لغة : لا يكون ما بعد النداء أبداً إلا منصوباً ، إما لفظاً وإما معنى ، ولهذا عطف بالمنصوب على الموضع في قوله تعالى : « والطير » بالنصب ، عطفاً على موضع الجبال وإن كان مرفوعاً في اللفظ في أوقات ، ولهذا قرىء أيضاً والطير بالرفع ؛ قال تعالى في حق داود فيما أعطاه على طريق الإنعام عليه ترجيع الجبال معه بالتسبيح ، فتسبح لتسبيحه ليكون له عملها ، وكذلك الطير « وألنا له الحديد » ـــ **إشارة** ـــ « وألنا له الحديد » القلوب القاسية يلينها الزجر والوعيد تليين النار الحديد ، وإنما الصعب قلوب أشد قساوة من الحجارة ، فإن الحجارة تكسرها وتكلسها النار ولا تلينها ، وما ألان له الحديد إلا لعمل الدروع الواقية ، تنبيهاً من الله ، أي لا يُتّقى الشيء إلا بنفسه ، لأن الدرع يُتّقى بها السنان والسيف والسكين والنصل ، فاتقيت الحديد بالحديد ، فجاء الشرع المحمدي بـ [أعوذ بك منك] فهذا روح تليين الحديد ، فهو المنتقم الرحيم .

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾

لما طلب الحق الشكر على العمل طلبه من آل داود و لم يتعرض لذكر داود ، ليشكر الآل على ما أنعم به على داود ، فهو في حق داود عطاء نعمة وإفضال ، وفي حق آله غير ذلك لطلب المعاوضة ، فقال تعالى : « اعملوا آل داود شكراً » هذا هو الشكر العملي ببذل ما عندهم من نعم الله على المحتاجين من عباده ، فإن الشكر منه لفظي وعلمي وعملي . « وقليل من عبادي الشكور » يعني المبالغة في الشكر لجهلهم بالنعم أنها نعم يجب الشكر عليها ، والشكور من عباد الله ببنية المبالغة هم خاصة الله ، الذين يرون جميع ما يكون من الله في حقهم وفي حق عباده نعمةً إلهية ، سواء سرّهم ذلك أم ساءهم فهم يشكرون على كل حال ، وهذا الصنف قليل بالوجود وبتعريف الله إيانا بقلتهم ، فإنهم يعملون ما تعيّن على جميع الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة في كل حال بما يليق به ، وفي كل زمان بما يليق به ، مما أمر به الله تعالى ، والمبالغة في الشكر هو أن يشكر الله حق الشكر ، وذلك بأن يرى النعمة منه ، ذكر ابن ماجة في سننه حديثاً وهو [أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى اشكرني حق الشكر ، فقال موسى عليه السلام : ومن يقدر على ذلك يا رب ؟ فقال له : إذا رأيت النعمة مني فقد شكرتني] فمن لا يرى النعمة إلا منه فقد شكره حق الشكر ، ألا تراها من الأسباب التي سدها بينك وبينه عند إرداف النعم ، وهذا هو الشكر العلمي ، وأما الشكر اللفظي فهو الثناء على الله بما يكون منه ، وأما الشاكرون من العباد فهم الذين يشكرون الله على المسمى نعمة في العرف خاصة ، لما بُشِّر رسول الله ﷺ بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر تنفل حتى تورمت قدماه ، فسئل في ذلك فقال : [أفلا أكون عبداً شكوراً] وعبادة الشكر عبادة مغفول عنها ، ولهذا قال تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » وما بأيدي الناس من عبادة الشكر على النعماء إلا قولهم : الحمد لله والشكر لله ، لفظ ما فيه كلفة ، وأهل الله يزيدون على مثل هذا اللفظ العمل بالأبدان والتوجه بالهمم ، قال تعالى : « اعملوا آل داود شكراً » ولم يقل قولوا ، والأمة المحمدية أولى بهذه الصفة من كل أمة ، إذ كانت خير أمة أخرجت للناس فقال تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » ببنية المبالغة ، ليعم شكر التكليف وشكر التبرع ، فشكر التبرع [أفلا أكون عبداً شكورا] قول النبي ﷺ ، وشكر التكليف ما وقع به الأمر مثل (واشكروا لله) (واشكروا نعمة الله) وبين الشكرين ما بين الشكورين .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

« ومزقناهم كل ممزق » هم أهل سبأ ، وتفرقهم معلوم .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

« وربك على كل شيء حفيظ » الحفظ الذي يعلمه الله ، لا الحفظ العرضي ، فإن الله تعالى ما رأيناه يحفظ على كل عين صورتها ، بل الواقع غير ذلك وهو مطلق الحفظ ، فليس الحفظ ما يتخيل من حفظ الصور على أعيانها ، ولكنه حفظ التغيير والاستحالات ، فالحافظ

يحفظ على كل شيء حكم التغيير ، وحفظ الله للعالم إنما هو لبقاء الثناء عليه بلسان المحدثات ، بالتنزيه عما هي عليه من الافتقار ، فلم يكن الحفظ للاهتمام به ولا للعناية ، بل ليكون مجلاه ، وليظهر أحكام أسمائه ، والحفظ لا يكون إلا ممن لا يغالب على محفوظه ولا يقاوى على حفظه ، فلا يزال العالم محفوظاً بالله ، ولا يزال حافظاً له ، فلو انقطع الحفظ لزال العالم .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾

« ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » وقد أذن الله تعالى لنا بالصلاة على الميت ، وهو لا يأذن وفي نفسه أن لا يقبل سؤال السائل ، فقد أذن لنا أن نشفع فيه بالصلاة عليه ، فقد تحققنا الإجابة بلا شك ، والصلاة على الميت شفاعة من المصلي عليه عند ربه ، ولا تكون الشفاعة إلا لمن ارتضى الحق أن يشفع فيه ، ولم يرتض سبحانه من عباده إلا العصاة من أهل التوحيد ، سواء كان عن دليل أو إيمان ، ولهذا شرع تلقين الميت ليكون الشفيع على علم بتوحيد من يشفع فيه ، وكل من قال إن الميت إذا كان من أهل الصلاة عليه وصلي عليه لا تقبل الشفاعة فما عنده خبر جملة واحدة ، لا والله ، بل ذلك الميت سعيد بلا شك ، ولو كانت ذنوبه عدد الرمل والحصى والتراب ، أما المختصة بالله من ذلك فمغفورة ، وأما ما يختص بمظالم العباد فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة ، فعلى كل حال لا بد من الخير ولو بعد حين ، ولهذا ينبغي للمصلي على الميت إذا شفع في صلاته عند الله أن لا يخص جناية بعينها ، وليعم ذكره ما ينطلق عليه به أنه مسيء إساءة تحول بينه وبين سعادته ، وليسأل الله التجاوز عن سيئاته مطلقاً ، وأن يعترف عن الميت بجميع السيئات ، وإن لم يحضر المصلي التعميم في ذلك فإن الله إن شاء عمه بالتجاوز ، وإن شاء عامل الميت بحسب ما وقعت فيه الشفاعة من الشافع ، ولهذا ينبغي للمصلي على الميت أن يسأل الله له في التخليص من العذاب ،

لا في دخول الجنة ، لأنه ما ثَمَّ دار ثالثة ، إنما هي جنة أو نار ، وذلك أنه إن سأل في دخول الجنة لا غير فإن الله يقبل سؤاله فيه ، ولكن قد يرى في الطريق أهوالاً عظاماً ، فلهذا ينبغي أن تكون شفاعة المصلي في أن ينجي الله من صلى عليه مما يحول بينه وبين العافية واستصحابها له ، فإن ذلك أنفع في حق الميت ، والله أسأل لنا ولإخواننا إذا جاء أجلنا أن يكون المصلي علينا عبداً محبوباً عند ربه ، يكون الحق سمعه وبصره ولسانه ، لنا ولإخواننا وأولادنا وآبائنا وأهلينا ومعارفنا وجميع المسلمين من الجن والإنس ، آمين بعزته وكرمه . واعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الملائكة أرواح في أنوار أولو أجنحة ، وأن نزول الوحي على قلوب الملائكة ، والقلب هو المدبر للجسد ، فاشتغل القلب بما نزل إليه ليتلقاه فغاب عن تدبير بدنه ، فسمي بذلك غشياً وصعقاً ، فإذا تكلم الله بالوحي على صورة خاصة وتعلقت به أسماعهم كأنه سلسلة على صفوان ، وهو وحي إجمالي ، وقد أخبر النبي ﷺ عن الملائكة في طريان هذا الحال فقال : [إن الملائكة إذا تكلم الله بالوحي كأنه سلسلة على صفوان ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً ــ أي لهذا التشبيه ــ فتصعق الملائكة ، وهو أشد الوحي ، فيصعقون ما شاء الله ثم ينادون فيفيقون] وهو قوله تعالى في حقهم : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) وهو إفاقتهم من صعقتهم ، وهنا يقع التفصيل فيما أجمل ، فأخبر الله عنهم ــ **الوجه الأول** ــ « قالوا ماذا قال ربكم » وهنا وقف ، فيقول بعضهم لبعض وهو قوله تعالى « قالوا الحق » وهو من قول الملائكة . ــ **الوجه الثاني** ــ « قالوا ماذا ؟» وهنا وقف ، فاستفهموا بعد صعقتهم أي يقول بعضهم لبعض « ماذا ؟ » « قال » أي فيقول بعضهم أو قال القائل : « ربكم » وهنا وقف ، إعلاماً بأن كلامه عين ذاته ، فيقول بعضهم وهو قوله : « قالوا » لهذا القائل « الحق » أي الحق يقول ، بالنصب ، أي قال الحق كذا علمناه ــ **الوجه الثالث** ــ لما أفاقوا وزال الخطاب الإجمالي المشبه وزالت البديهة « قالوا ماذا ؟ » وهنا وقف ، ثم يجيبهم فقال لهم : « ربكم » وهو قوله : « قال ربكم »، فما صعقوا عند هذا القول بل ثبتوا و (قالوا الحق) أي قال الحق ، أي قال ربنا القول الحق ، يعنون ما فهموه من الوحي أو قوله « قال ربكم » أو هما معاً وهو الصحيح « وهو العلي الكبير » ــ **الوجه الأول** ــ أن يكون هذا من قول الملائكة قالوا « وهو العلي » عن هذا النزول « الكبير » عن هذا التشبيه في هذه النسبة ، وهي كسلسلة على صفوان ، أي « وهو العلي الكبير » عن هذا

التشبيه ، ولكن هكذا نسمع ، فجاؤوا في ذكرهم بالاسم العلي في كبريائه إن كان من قولهم ، فإنه محتمل أن يكون قول الله « وهو العلي الكبير » أو يكون حكاية الحق عن قولهم ، والعالون الذين قال الله فيهم لإبليس لما أبى السجود (أستكبرت أم كنت من العالين) هم الذين قالوا لهؤلاء الملائكة الذين أفاقوا « ربكم » وهم الذين نادوهم ، وهم العالون ، فلهذا جاء بالاسم العلي ، فمن علم أن للملائكة قلوباً أو علم القلوب ما هي علم أن الله تعالى ما أسمعهم في الوحي الذي أصعقهم إلا ما يناسب من الوحي (كل يوم هو في شأن) ومن هذه الآية علمنا بتفاضل الملائكة في العلم بالله على بعضهم ، وهو قولهم : (وما منا إلا له مقام معلوم) أي في العلم بالله ، وذلك لما ورد من الاستفهام في قول من قال منهم « ماذا » وقد رفعت التهمة عنهم فيما بينهم ، وتصديق بعضهم بعضاً ، وانصباغ بعضهم بما عند بعض مما يكون عليه ذلك البعض من صورة العلم بالله ، فيفيد بعضهم بعضاً ، وذلك قوله عنهم : « قالوا الحق » ابتداء ، ولم ينازعوا عندما قال لهم المسؤول « ربكم » ، ثم أقيموا في (ليس كمثله شيء) فلم يروه إلا في الهوية ، وهي ما غاب عنهم من الحق في عين ما تجلى ، وتلك الهوية هي روح صورة ما تجلى ، فنسبوا إليها أعني إلى الهوية من (ليس كمثله شيء) العلو فقالوا : « وهو العلي » عن التقييد في صورة ما تجلى لهم « الكبير » من الكبرياء عن الحصر ، فهو العظيم بذاته ، بخلاف الأسباب المعظمة ، وهو الكبير واضع الأسباب ، وأمرنا بتعظيمها ، ومن لا عظمة له ذاتية لنفسه فعظمته عرض في حكم الزوال ، فالكبير على الإطلاق من غير تقييد ولا مفاضلة هو الله ـــ **الوجه الثاني** ـــ في هذه الآية انتهى كلام الملائكة عند قوله : « ماذا قال ربكم قالوا الحق » ثم يقول تعالى : أي فقال الله : « وهو العلي الكبير » فهو من قول الله لا من قول الملائكة ، أي هذه النسبة من حيث هويته ، ومن هذه الآية يظهر عجز الملائكة عن معرفة الله تعالى .

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

من الفتح الإلهي النصر على الأعداء والقهر لهم ، والرحمة بالأولياء والعطف عليهم .

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

« وما أرسلناك إلا كافة » من الكفت وهو الضم « للناس » فضمت شريعته جميع الناس ، فلا يسمع به أحد إلا لزمه الإيمان به ، وضمت شريعته الجن والإنس فعم بشريعته الإنس والجن ، وكانت باللسان العربي فعم كل لسان ، فنقل شرعه بالترجمة فعم اللغات ، ولم يكن ذلك لغيره ﷺ ، وكانت الأنبياء في العالم نواب رسول الله ﷺ ، لأن الناس من آدم إلى آخر إنسان ، وقد أبان ﷺ عن هذا المقام بأمور ، منها قوله ﷺ [والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني] وقوله في نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان : إنه يؤمنا ـــ أي يحكم فينا ـــ بسنة نبينا عليه السلام ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولو كان محمد ﷺ قد بعث في زمان آدم لكانت الأنبياء وجميع الناس تحت حكم شريعته إلى يوم القيامة حساً ، فجميع الأنبياء هم أرساله ونوابه في الأرض لغيبة جسمه ، ولو كان جسمه موجوداً ما كان لأحد شرع معه ، ولهذا لم يبعث عامة إلا هو خاصة ، فهو الملك والسيد ، وكل رسول سواه فبعث إلى قوم مخصوصين ، فلم تعم رسالة أحد من الرسل سوى رسالته ﷺ ، فمن زمان آدم عليه السلام إلى زمان بعث محمد ﷺ إلى يوم القيامة ملكه ، وتقدمه في الآخرة على جميع الرسل وسيادته فمنصوص على ذلك في الصحيح عنه ، مثل قوله : [أنا سيد الناس يوم القيامة] بإخباره إيانا بالوحي الذي أوحي به إليه ، وقوله : [أنا سيد ولد آدم ولا فخر] بالراء وفي رواية بالزاي وهو التبجح بالباطل ، فثبتت له السيادة والشرف على أبناء جنسه من البشر ، فمحمد ﷺ بعث إلى الناس كافة بالنص ، ولم يقل : أرسلناك إلى هذه الأمة خاصة ، ولا إلى أهل هذا الزمان إلى يوم القيامة خاصة ، وإنما أخبره أنه مرسل إلى الناس كافة ، والناس من آدم إلى يوم القيامة ، فقال ﷺ : [كنت نبياً وآدم بين الماء

والطين] فأعلم بنبوته ، فكان الرسل والأنبياء عليهم السلام نوابه حتى ظهوره بجسمه ﷺ ، فإنه لمّا لم يتقدم في عالم الحس وجود عينه ﷺ أولاً ، نسب كل شرع إلى من بُعِث به ، وهو في الحقيقة شرع محمد ﷺ ، وإن كان مفقود العين من حيث لا يعلم ذلك ، كما هو مفقود العين الآن وفي زمان نزول عيسى عليه السلام ، والحكم بشرعه ، فجميع الشرائع التي كانت في الأمم فهي شرائع محمد ﷺ بأيدي نوابه ، فإنه المبعوث إلى الناس كافة ، وما يلزم رؤية شخصه ، فكما وجّه في زمان ظهور جسمه علياً ومعاذاً إلى اليمن لتبليغ الدعوة ، كذلك وجّه الرسل والأنبياء إلى أممهم من حين كان نبياً وآدم بين الماء والطين ، فدعا الكل إلى الله تعالى ، فالناس أمته من آدم إلى يوم القيامة ، وجميع الرسل نوابه بلا شك ، فلما ظهر بنفسه لم يبق حكم إلا له ، ولا حاكم إلا رجع إليه ، وأما نسخ الله بشرعه جميع الشرائع فلا يُخرج هذا النسخ ما تقدم من الشرائع أن تكون من شرعه ، فإن الله قد أشهدنا في شرعه الظاهر المنزل به ﷺ في القرآن والسنة النسخ ، مع إجماعنا واتفاقنا على أن ذلك المنسوخ شرعه الذي بُعِث به إلينا ، فنسخ بالمتأخر المتقدم ، فكان تنبيهاً لنا هذا النسخ الموجود في القرآن والسنة على أن نسخه لجميع الشرائع المتقدمة لا يخرجها عن كونها شرعاً له ، وكان نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان حاكماً بغير شرعه أو بعضه الذي كان عليه في زمان رسالته ، وحكمه بالشرع المحمدي المقرر اليوم دليلاً على أنه لا حكم لأحد اليوم من الأنبياء عليهم السلام مع وجود ما قرره ﷺ في شرعه ، ويدخل في ذلك ما هم عليه أهل الذمة من أهل الكتاب ، ما داموا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإن حكم الشرائع على الأحوال فخرج من هذا المجموع كله أنه مَلِكٌ وسيدٌ على جميع بني آدم ، وأن جميع من تقدمه كان مُلْكاً له وتبعاً ، والحاكمون فيه نواب عنه ، فبعثته العامة إشعار بأن جميع ما تقدمه من الشرائع بالزمان إنما هو من شرعه ، فنسخ ببعثته منها ما نسخ وأبقى منها ما أبقى ، كما نسخ ما قد كان أثبته حكماً ، فإن قيل فقوله ﷺ : [لا تفضلوني] فالجواب : نحن ما فضلناه بل الله فضله ، فإن ذلك ليس لنا ، وإن كان قد ورد (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) لما ذكر الأنبياء عليهم السلام فهو صحيح ، فإنه قال فبهداهم وهداهم من الله ، وهو شرعه ﷺ ، أي الزم شرعك الذي ظهر به نوابك من إقامة الدين ولا تتفرقوا فيه ، فلم يقل : فبهم اقتده ، وفي قوله : (ولا تتفرقوا فيه) تنبيه على أحدية الشرائع ،

وقوله : (اتبع ملة ابراهيم حنيفاً) وهو الدين ، فهو مأمور باتباع الدين ، فإن الدين إنما هو من الله لا من غيره ، وانظر قوله عليه السلام : [لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني] فأضاف الاتباع إليه ، وأمر ﷺ باتباع الدين وهدى الأنبياء لا بهم ، فإن الإمام الأعظم إذا حضر لا يبقى لنائب من نوابه حكم إلا له ، فإذا غاب حكم النواب بمراسمه ، فهو الحاكم غيباً وشهادة ، ومن ذلك كونه ﷺ أوتي جوامع الكلم ، والعالم كلمات الله ، فقد آتاه الله الحكم في كلماته ، وعَمّ وختم به الرسالة والنبوة ، كما بدأ به باطناً ختم به ظاهراً ، فله الأمر النبوي من قبل ومن بعد ـــ **نصيحة** ـــ اعلم أن الرسل أعدل الناس مزاجاً لقبولهم رسالات ربهم ، وكل شخص منهم قبل من الرسالة قدر ما أعطاه الله في مزاجه من التركيب ، فما من نبي إلا بعث خاصةً إلى قوم معينين ، لأنه على مزاج خاص مقصور وإن محمداً ﷺ ما بعثه إلا برسالة عامة إلى جميع الناس كافة ، ولا قبل مثل هذه الرسالة إلا لكونه على مزاج يحوي على مزاج كل نبي ورسول ، فهو أعدل الأمزجة وأكملها وأقوم النشآت ، فإذا علمت هذا وأردت أن ترى الحق على أكمل ما ينبغي أن يظهر به لهذه النشأة الإنسانية ، فاعلم أنك ليس لك ولا أنت على مثل هذا المزاج الذي لمحمد ﷺ ، وأن الحق مهما تجلى لك في مرآة قلبك فإنما تظهره لك مرآتك على قدر مزاجها وصورة شكلها ، وقد علمت نزولك عن الدرجة التي صحت لمحمد ﷺ في العلم بربه في نشأته ، فالزم الإيمان والاتباع ، واجعله أمامك مثل المرآة التي تنظر فيها صورتك وصورة غيرك ، فإذا فعلت هذا علمت أن الله تعالى لا بد أن يتجلى لمحمد ﷺ في مرآته ، والمرآة لها أثر في ناظر الرائي في المرئي ، فيكون ظهور الحق في مرآة محمد ﷺ أكمل ظهور وأعدله وأحسنه ، لما هي مرآته عليه ، فإذا أدركته في مرآة محمد ﷺ فقد أدركت منه كمالاً لم تدركه من حيث نظرك في مرآتك ، ألا ترى في باب الإيمان وما جاء في الرسالة من الأمور التي نسب الحق لنفسه بلسان الشرع مما تحيله العقول ؟ ولولا الشرع والإيمان به لما قبلنا من ذلك من حيث نظرنا العقلي شيئاً البتة ، بل نرده ابتداءً ونُجهّل القائل به ، فكما أعطاه بالرسالة والإيمان ما قصرت العقول التي لا إيمان لها عن إدراكها ذلك من جانب الحق ، كذلك قصرت أمزجتنا ومَرَائي عقولنا عند المشاهدة عن إدراك ما تجلى في مرآة محمد ﷺ أن تدركه في مرآتها ، وكما آمنت به في الرسالة غيباً شهدته في هذا التجلي النبوي عيناً ، فقد نصحتك وأبلغت لك في النصيحة ، فلا تطلب مشاهدة الحق

إلا في مرآة نبيك ﷺ ، واحذر أن تشهده في مرآتك ، أو تشهد النبي وما تجلى في مرآته من الحق في مرآتك ، فإنه ينزل بك ذلك عن الدرجة العالية ، فالزم الاقتداء والاتباع ، ولا تطأ مكاناً لا ترى فيه قدم نبيك ، فضع قدمك على قدمه إن أردت أن تكون من أهل الدرجات العلى والشهود الكامل في المكانة الزلفى ، وقد أبلغت لك في النصيحة كما أُمِرت ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾

القربات إلى الله لا تعلم إلا من الله ، ليس للعقل فيها حكم بوجه من الوجوه ، فإذا شرع الشارع القربات فهي على حد ما شرع ، وما منع من ذلك أن يكون قربة فليس للعقل أن يجعلها قربة ، لذلك قال تعالى : « إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » ـ **إشارة** ـ لم يحصل له أمان الغُرفة ، إلا من قنع في شربه بالغَرفة ، فمن اغترف نال الدرجات ، ومن شرب ليرتوي عمّر الدركات ، فما ارتوى من شرب ، وروي من اغترف غرفة بيده وطرب .

وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

ـ **الوجه الأول** ـ الإنفاق إهلاك ، ومن أهلك شيئاً فقد فقده ، وفي « يَخلفه » قراءتان : بفتح الياء وضمها ، فبالفتح ما أنفقتم من شيء فإن الله يَخلُفه بهويته ، فإنه ما ينفق حتى يشهد العوض ، فهو إذا فَقَد الشيء لم يجده ، وإذا لم يجده وجد الله عنده ، فهو يَخْلُفُه ، وهو قوله : (وجد الله عنده) فحيث فنيت الأسباب يوجد الله ، وبالضم كما عاد الضمير على الشيء من يُخلفه لا يُخلف إلا مثله لا عينه ، فإذا أنفق الإنسان فالله مخلف ، ومن أيقن بالخلف جاد بالأعطية ، وحتى على قراءة الضم فإنه يفيد المعنى الأول ، فأي سبب يكون للمنفق بعد الإنفاق يسد مسد ما أنفقه ، من أمر ظاهر أو باطن ، حتى اليقين أو الاستغناء عن الأمر الذي كان يصل إليه بذلك الذي أنفقه في عين تحصيله لذلك الشيء ، فهو مجعول من هوية الحق ، أو هوية الحق ، فانظر يا أخي كيف جعل هويته خلفاً من نفقتك ، وإنك أحييت من تصدقت عليه فأحياك الله به حياة أبدية ، لأنه إن لم يكن الحق حياتك فلا حياة ، فإن قلت : لو كان ذلك لنصب الياء ورفع اللام ، قلنا : الهوية عين الذات ، والهوية تخلف الشيء المتصدق به باسم إلهي تكون به حياة ذلك المنفق ، وأسماؤه

ليست غيره ، ولكن هكذا تقع العبارة عنها لما يعقل في ذلك من اختلاف النسب ، خرّج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً] ومعنى ذلك الحديث أن الملك الآخر الذي يقول : اللهم أعط ممسكاً تلفاً ، أي ما(١) أعطيت المنفق حتى يتلف ماله مثل صاحبه ، فكأنه يقول : اللهم ارزق الممسك الإنفاق حتى ينفق ، فإن كنت لم تُقدِّر في سابق علمك أن ينفقه باختياره ، فاتلف ماله حتى تأجره فيه أجر المصاب فيصيب خيراً ، فإن الملائكة لسان خير ، فلا تدعو الملائكة بالشر على المؤمنين ، فهو دعاء خير بكل وجه ــ **الوجه الثاني** ــ « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » إن أنفق ليبتني مجداً في ألسنة الخلق فهو لما أنفق .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟

---

(١) ما : هنا اسم موصول أي الذي .

مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

« قل إنما أعظكم بواحدة » وهي أن تقوم من أجل الله ، إذا رأيت من فعل الله في كونه ما أمرك أن تقوم له فيه ، إما غيرة وإما تعظيماً « أن تقوموا لله مثنى وفرادى » فقوله في القيام مثنى ، بالله ورسوله ، فإنه من أطاع الرسول قد أطاع الله ، فقمت لله بكتاب أو سنة ، لا تقوم عن هوى نفس ولا غيرة طبيعية ولا تعظيم كوني « وفرادى » إما بالله خاصة أو لرسوله خاصة ، كما قال ﷺ : [لا أرى أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الحديث عني فيقول : اتل به عليّ قرآناً ؛ إنه والله لمثل القرآن أو أكثر] فقوله ﷺ [أو أكثر] في رفع المنزلة ، فإن القرآن بينه وبين الله فيه الروح الأمين ، والحديث من الله إليه ، ومعلوم أن القرب في الإسناد أعظم من البعد فيه ، ولو بشخص واحد ينقص في الطريق ، فبهذا كان الحديث أكثر من القرآن ، وغايته أن يكون إذا نزل عن هذه الطبقة مثله ، وما عدل رسول الله ﷺ إلى الأكثرية إلا والأمر أكثر بلا شك ، فلا ينبغي لواعظ أن يخرج في وعظه عن الكتاب أو السنة وقد يكون قوله : « مثنى » يريد به التعاون في القيام لله تعالى في ذلك الأمر ، وصورة التعاون أن الشرع في نفس الأمر أنكر هذا الفعل ممن صدر عنه عليه ، فينبغي للعالم المؤمن أن يقوم مع المشرِّع في ذلك فيعينه ، فيكون اثنان هو والشرع ، وفرادى أن يكون هذا المنكر لا يعلم أنه مُعين للشرع في إنكاره ووعظه ، فيقول قد انفردت بهذا الأمر ، وما هو إلا مُعين للشرع وللمَلَك الذي يقول بلمته للفاعل لا تفعل ، إذ يقول له الشيطان بلمته افعل ، فيكون مع الملك مثنى ، فإن الملك مكلّف بأن ينهى العبد الذي قد ألزمه الله به أن ينهاه فيما كلفه الله به أن ينهاه عنه ، فيساعده الإنسان على ذلك ، فيكون ممن قام لله في ذلك مثنى ، ويكون هذا الواعظ مع وعظ رسول الله ﷺ مثنى « ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ولا تكون الفكرة إلا في دليل على صدقه أنه رسول من عند الله ، وهذا يعني أنه يوصل إلى معرفة الرسول بالدليل .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

ـ **الوجه الأول** ـ « قل ما سألتكم من أجر » فيما بلغه عن الله إليهم « فهو لكم » « إن أجري إلا على الله » فإنه تعالى هو الذي استخدمه في التبليغ . واعلم أن أجر التبليغ على قدر ما ناله في البلاغ من المشقة من المخالفين له من أمته التي بعث إليها ، ولما قاساه ، ولا يعلم قدر ذلك من كل رسول إلا الله ، واعلم أن الله تعالى له المنة على عباده بأن هداهم للإيمان برسله ، فوجب شكر الله وحلاوة الرسول ، فيَضْمنها الله عنهم بأن جعل أجر رسوله ﷺ عليه ، وضم في ذلك الأجر ما يجب على المؤمنين من الحلاوة لما هداهم الله به ، وذلك على نوعين : النوع الواحد على قدر معرفتهم بمنزلته ممن أرسله إليهم وهو الله ، فإن الله تعالى فضّل بعضهم على بعض ، والنوع الثاني على قدر ما جاء به في رسالته ، مما هو بشرى لصاحب تلك الصفة التي من قامت به كان سعيداً عند الله ، فما كان ينبغي أن يقابله به ذلك الرجل هو الذي يعطيه الحق ، فإن ساوى حال المؤمن قدر الرسالة كان ، وإن قصر حاله عما تقتضيه تلك الرسالة من التعظيم فإن الله يكرمه ، لا ينظر إلى جهل الجاهل بتعظيم قدرها ، فيوفيه الحق تعالى على قدر علمه فيها ، فانظر ما للرسول عليه السلام من الأجور ، فأجر التبليغ أجر استحقاق ، وأما من سأل من الصحابة عن أمر من الأمور ، مما لم ينزل فيه قرآن ، فنزل فيه قرآن من أجل سؤاله ، فإن للرسول على ذلك السائل أجر استحقاق ينوب الله عنه فيه ، زائداً على الأجر الذي له من الله ، وأما من رد رسالته من أمته التي بعث إليها فإن له عند الله أيضاً أجر المصيبة ، وللمصاب فيما يحب أجر ، فأجره على الله أيضاً على عدد من رد ذلك من أمته ، بلغوا ما بلغوا ، وله من أجر المصاب أجر مصائب العصاة ، فإنه نوع من أنواع الرزايا في حقه ، فإنه ما جاء بأمر يطلب العمل به ، إلا والذي يترك العمل به قد عصى ، فللرسول أجر المصيبة والرزية ، وهذا كله على الله الوفاء به لكل رسول ــ **الوجه الثاني** ــ « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم » فإن الله تعالى اختص محمداً ﷺ بفضيلة لم ينلها غيره من الرسل ، فإنه تعالى قال لكل رسول (قل ما أسألكم عليه من أجر) وعاد فضل هذه الفضيلة على أمته ، ورجع حكمه ﷺ إلى حكم الرسل قبله في إبقاء أجره على الله ، فأمره الحق أن يأخذ أجره الذي له على رسالته من أمته ، وهو أن يوادوا قرابته ، فبعد أن قال تعالى لنبيه ﷺ أن يقول لأمته (لا أسألكم عليه أجراً) أي على تبليغ ما جئت به إليكم (إلا المودة في القربى) ولم يقل إنه ليس له أجر على الله ولا إنه

بقي له أجر على الله ، وذلك ليجدد له النعم بتعريف ما يُسَرّ به فقيل له بعد هذا : قل لأمتك أمراً ما قاله رسول لأمته « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله » فما أسقط الأجر عن أمته في مودتهم للقربى ، وإنما رد ذلك الأجر بعد تعيينه عليهم ، فعاد ذلك الأجر عليهم الذي كان يستحقه رسول الله ﷺ ، فيعود فضل المودة على أهل المودة ، فما يدري أحد ما لأهل المودة في قرابة رسول الله ﷺ من الأجر إلا الله .

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

« الحمد لله فاطر السموات والأرض » ــ **الوجه الأول** ــ الفطر الفتق قال تعالى : (أو لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) ــ **الوجه الثاني** ــ « الحمد لله

فاطر السموات والأرض » هو قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض) إذ الفطرة هي النور الذي تشق به ظلمة الممكنات ويقع به الفصل بين الصور ، فيقال : هذا ليس هذا ، إذ قد يقال : هذا عين هذا من حيث ما يقع به الاشتراك ، والعالم كله سماء وأرض ليس غير ذلك ، وبالنور ظهرت ، والله مظهرها . فهو نورها ، ففطر السماء والأرض به ، فبه تميزت الأشياء وانفصلت وتعينت في ظهورها ، فما تميزت الأعيان في وجودها إلا بالفطرة التي فصلت بين العين ووجودها ، وهو من أغمض ما يتعلق به علم العلماء بالله ، كشفه عسير وزمانه يسير « جاعل الملائكة رسلاً » الملائكة من المألكة وهي الرسالة « أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء » الملائكة أولو أجنحة على طبقاتها في الأجنحة ، فأعلاهم أقلهم أجنحة ، وأقلهم أجنحة من له جناحان ، فمن الملائكة من له جناحان إلى ستمائة جناح إلى ما فوق ذلك ، وأجنحة الملائكة للنزول لا للصعود ، وأجنحة الأجسام العنصرية للصعود لا للنزول ، لأن الملائكة تجري بطبعها الذي عليه صورة أجسامها إلى أفلاكها التي عنها كان وجودها ، فإذا نزلت إلى الأرض نزلت طائرة بتلك الأجنحة ، وهي إذا رجعت إلى أفلاكها ترجع بطبعها بحركة طبيعية وإن حركت أجنحتها ، حتى إنّها لو لم تحرك أجنحتها لصعدت إلى مقرها ومقامها بذاتها ، وأجسام الطير العنصري يحرك جناحه للصعود ، ولو ترك تحريك جناحه أو بسطه لنزل إلى الأرض بطبعه ، فما يبسط جناحه في النزول إلا للوزن في النزول ، لأنه إن لم يزن في نزوله وبقي على طبعه تأذى من نزوله لقوة حكم الطبع ، فحركة الجناح في النزول حركة حفظ . واعلم أن الله تعالى ما جعل للأرواح أجنحة إلا للملائكة منهم ، لأنهم السفراء من حضرة الأمر إلى خلقه ، فلابد لهم من أسباب يكون لهم بها النزول والعروج ، فإن موضوع الحكمة يعطي هذا ، فجعل لهم أجنحة على قدر مراتبهم في الذي يَسْرون به من حضرة الحق أو يعرجون إليه من حضرة الخلق ، فهم بين الخلق والأمر يترددون ، ولذلك قالوا : (وما نتنزل إلا بأمر ربك) فإذا نزلت هذه السَفَرة على القلوب فإن رأتها قلوباً طاهرة قابلة للخير أعطتها من علم ما جاءت به على قدر ما يسعها استعدادها ، وإن رأتها قلوباً دنسة ليس فيها خير نهتها عن البقاء على تلك الحال وأمرتها بالطهارة بما نص لها الشارع ، إن كان في العلم بالله فبالعلم به مما يطلبه الفكر وجاء به الخبر النبوي عن الله ، وإن كان في الأكوان فبعلم الأحكام واعتقاداتها ، واعلم أنه ليس

لمخلوق كسب ولا تعمل في تحصيل مقام لم يخلق عليه ، بل قد وقع الفراغ من ذلك ، فجميع الأحوال اختصاص ، والكسب اختصاص ، فإذا علمت هذا علمت أن الملائكة ما لها كسب بل هي مخلوقة في مقاماتها لا تتعداها ، فلا تكتسب مقاماً وإن زادت علوماً ولكن ليس عن فكر واستدلال ، لأن نشأتهم لا تعطي ذلك مثل ما تعطيه نشأة الإنسان ، والقوى التي هم عليها الملائكة المعبر عنها بالأجنحة ، وقد صح في الخبر أن جبريل له ستمائة جناح ، فهذه القوى الروحانية ليس لها في كل مَلَك تصرف فيما فوق مقام صاحبها ، مثل الطائر عندنا الذي يهوي سفلاً ويصعد علواً ، وأجنحة الملائكة إنما تنزل بها إلى من هو دونها ؛ وليس لها قوة تصعد بها فوق مقامها ، فإذا نزلت بها من مقامها إلى ما هو دونه رجعت علواً من ذلك الذي نزلت إليه إلى مقامها لا تتعداه ، فما أعطيت الأجنحة إلا من أجل النزول كما أن الطائر ما أعطي الجناح إلا من أجل الصعود ، فإذا نزل نزل بطبعه وإذا علا علا بجناحه ، والملك على خلاف ذلك ، إذا نزل نزل بجناحه وإذا علا علا بطبعه ، وأجنحة الملائكة للنزول إلى ما دون مقامها والطائر جناحه للعلو إلى ما فوق مقامه ، وذلك ليعرف كل موجود عجزه وأنه لا يتمكن له أن يتصرف بأكثر من طاقته التي أعطاه الله إياها ، فالكل تحت ذل الحصر والتقييد والعجز ، لينفرد جلال الله بالكمال في الإطلاق ، لذلك قال تعالى متمّماً « إن الله على كل شيء قدير » .

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

« ما يفتح الله للناس من رحمة » وهو العطاء الإلهي « فلا ممسك لها وما يمسك » وهو المنع الإلهي « فلا مرسل له من بعده » واعلم أن الله ما أمسك شيئاً عن إرساله إلا وإمساكه عطاء من وجه لا يعرفه صاحب ذلك الغرض ، مثل المستسقي ، فقد أعطاه الغرض وأمسك عنه الغيث ليستسقيه ، فيقام في عبادة ذاتية من افتقار ، فأعطاه ما هو الأولى به ، وهذا عطاء الكرم ، فلا تنظر إلى جهلك ، وراقب علمه بالمصالح فيك فتعرف أن إمساكه عطاء ، فمن مَسْكُهُ عطاء ، كيف تنظره مانعاً ولا تنظره معطياً ؟ وما تسمى بالمانع إلا لكونك جعلته مانعاً حيث لم تنل منه غرضك ، فما منع إلا لمصلحة .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾

أجمع الرب والمربوب على أن الله خالق والعبد مخلوق ، ولما كان العابد في أصل كونه مفتقراً إلى سبب فلم يخرج عن حقيقته ، وسببه رزقه الذي به بقاء عينه ، فتخيله المحجوب في الأسباب الموضوعة ، وهو تخيل صحيح أنه في الأسباب الموضوعة ، لكن بحكم الجعل لا بحكم ذاتها ، فجاعل كونها رزقاً هو الله الذي يرزقكم « من السماء » بما ينزل منها من أرزاق الأرواح « والأرض » بما يخرج منها من أرزاق الأجسام ، فهو الرزاق الذي بيده الرزق ، فقال تعالى منبهاً « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون » فهذا هو التوحيد الخامس والعشرون في القرآن ، وهو توحيد العلة ، وهو من توحيد الهوية ، لو لم يُوحَّد بالعلة كما يُوحَّد بغيرها لم يكن إلهاً ، لأن من شأن الإله أن لا يخرج عنه وجود شيء ، إذ لو خرج عنه لم يكن له حكم فيه ، فلما أرسل الله الحجب على بعض أبصار عباد الله و لم يدركوا إلا مسمى الرزق لا مسمى الرزاق ، قالوا هذا ، فقيل لهم ما هو هذا ، هو في هذا مجعول من الذي خلقكم ، فكما خلقكم هو رزقكم ، فلا تعدلوا به ما هو له ومنه ، فأنتم ومن اعتمدتم عليه سواء ، فلا تعتمدوا على أمثالكم .

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾

ـــ **إشارة** ـــ وقفت على واحد من عقلاء المجانين ، والناس قد اجتمعوا عليه وهو ينظر

إليهم ، وهو يقول لهم : أطيعوا الله يا مساكين ، فإنكم من طين خلقتم ، وأخاف أن تطبخ النار هذه الأواني فتردها فخّاراً ، فهل رأيتم قط آنية من طين تكون فخاراً من غير أن تطبخها نار ؟ يا مساكين لا يغرنكم إبليس بكونه يدخل النار معكم ، وتقولون : الله يقول (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) إبليس خلقه الله من نار ، فهو يرجع إلى أصله ، وأنتم من طين تتحكم النار في مفاصلكم ، يا مساكين انظروا إلى إشارة الحق في خطابه إبليس بقوله : (لأملأن جهنم منك) وهنا وقف ، ولا تقرأ ما بعدها ، فقال له : (جهنم منك) وهو قوله : (خلق الجان من مارج من نار) فمن دخل بيته وجاء إلى داره واجتمع بأهله ما هو مثل الغريب الوارد عليه ، فهو راجع إلى ما به افتخر ، قال : (أنا خير منه خلقتني من نار) فسروره رجوعه إلى أصله ، وأنتم يا مناحيس تتفخر بالنار طينتكم ، فلا تسمعوا من إبليس ، ولا تطيعوا واهربوا إلى محل النور تسعدوا ، يا مساكين أنتم عمي ما تبصرون الذي أبصره أنا .

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

قال تعالى موعداً ومبيناً « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » الآية ـــ الحد الضابط للإحسان في العمل أن تعبد الله كأنك تراه ، وما عدا هذا فهو سوء عمل فيراه حسناً ، إما ببذل الوسع في الاجتهاد فيكون وفّى الأمر حقه ولكنه أخطأ ، وهو صاحب عمل ، فيكون رؤية سوء العمل حسناً بعد الاجتهاد ، وإما أن يكون في المشيئة فلا يدري بما يُخْتَم له ، إذا لم يكن عن استيفاء الاجتهاد بقدر الوسع ورآه حسناً عن غير اجتهاد ، وهذه الآية موطن حيرة ، فقد قال تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » ببنية ما لم يسم فاعله ، فلا يدري من زيّنه ؟ هل هو تزيين الله ؟ أو تزيين الشيطان ؟ أو تزيين الحياة الدنيا ؟ ولكن من قوله تعالى : « سوء عمله » عرفت من زينه وإن لم يذكره ، ومع هذا فالاحتمال لا يرتفع عنه تعالى ، فإن الله يقول في مثل هذا (زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) فجاء بنون الكناية

عن نفسه ، ولذا قال تعالى : « فإن الله يضل من يشاء » أي يحيره في مثل هذا ، حيث وصفه بالسّيّء والحسن ، فإن سوء العمل ما كان يتصف بالحسن بالرؤية حتى قَبِل العمل صفة الحسن في وجه من الوجوه الوجودية ، فهو سوء بالخبر حسن بالرؤية ، فكأن الرؤية لا تصدق الخبر ، وشاهد الرؤية أقطع ، والناس يطلبون أن يصدِّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ والخَبَرَ الرؤيةُ ، ولم نر أحداً يطلب أن يصدق الخُبْر الرؤيةَ كما يصدق الخُبْرُ الخَبَرَ ، وهنا كان موطن الحيرة ، فإنه من المكر الإلهي الذي يعطي الحسن في السوء ، فقال تعالى : « ويهدي من يشاء » أي يوفق للإصابة في معنى السوء والحسن لهذا العمل ما معناه ، وكيف ينبغي أن يأخذه ، فإذا جاءت الزينة مهملة غير منسوبة فإنك لا تدري مَنْ زينها لك ، فانظر ذلك في موضع آخر واتخذه دليلاً على ما انبهَم عليك ، مثل قوله : (زينا لهم أعمالهم) ومثل قوله : « أفمن زين له سوء عمله » ولم يذكر مَنْ زينه ، فتستدل على مَنْ زينه من نفس العمل ، فزينةُ الله غير محرمة ، وزينة الشيطان محرمة ، وزينة الدنيا ذات وجهين : وجه إلى الإباحة والندب ووجه إلى التحريم ، فمن أراد أن يعتصم من التزيين فليقف عند ظاهر الكتاب والسنة ، لا يزيد على الظاهر شيئاً ، فإن التأويل قد يكون من التزيين ، فما أعطاه الظاهر جرى عليه ، وما تشابه وكِلَ علمه إلى الله وآمن به ، فهذا متبع ليس للتزيين عليه سبيل ، ولا يقوم عليه حجة عند الله « فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » فهو الذي يرزق الإصابة في النظر والذي يرزق الخطأ « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » أي فلا تكترث لهم حسرة عليهم ، فهي بشرى من الله بسعادة الجميع ، فإنه ما حيل بينه ﷺ وبين إنسانيته ، فهو إنسان في كل حال ، ولا تزول الحسرات عنه ــ وهو إنسان كامل ــ إلا باطلاعه على سعادتهم في المآل ، فلا يبالي من العوارض ، فإن السوء للعمل عارض بلا شك والحسن له ذاتي ، وكل عارض زائل وكل ذاتي باقٍ لا يبرح « إن الله عليم » أي خبير عَنْ ابتلاء « بما يصنعون » من كل ما يظهر فيكم من الأعمال وعنكم ، وفي هذه الآية لطيفة وسر خفي من لطف الله ، يلقن الله فيها عبده المؤمن الحجة إذا كان فطناً ، فإن المحب ما أحب إلا ما هو جمال عنده ، لابد من حكم ذلك ، ففي هذه الآية ما رأى العبد سوء عمله حسناً ، وإنما رأى الزينة التي زين له بها ، فإذا كان يوم القيامة ورأى قبح العمل فر منه ، فيقال له : هذا الذي كنت تحبه وتتعشق به وتهواه ، فيقول المؤمن : لم يكن حين أحببته بهذه الصورة ولا بهذه الحلية ، أين

الزينة التي كانت عليه وحببته إليَّ ؟ ترد عليه ، فإني ما تعلقت إلا بالزينة لا به ، لكن لما كان محلها كان حبي له بحكم التبع ، فيقول الله : صدق عبدي لولا الزينة ما استحسنه ، فردوا عليه زينته ، فيبدل الله سوءه حسناً ، فيرجع حبه فيه إليه ويتعلق به (أولئك الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات) فلا ينبغي للمؤمن الكيس أن يهمل شيئاً من كلام الله ولا كلام المبلغ عن الله ، فإن الله تعالى يقول فيه (وما ينطق عن الهوى) فإن كلام المبلغ عن الله ما جاء به إلا رحمة بالسامع ، وهو إن كان فطناً كان له ، وإن كان حماراً كان عليه ــ **نصيحة** ــ إن الإنسان إذا كان في شيء لم ير حقيقته ومعناه ، وإذا صار عنه أجنبياً رآه ، والنفس إذا التبست بشهوتها وغرضها ، وتعشقت بعلّتها ومرضها ، لا ترى سوى ما هي فيه ، ولهذا تصطنعه وتصطفيه ، فانظر إلى ما يستقبحه الشرع فاجتنبه ، وإلى ما يستحسنه فبادر إليه وامتثله ، ولا يغرنك غدّار ، مدخول النصيحة غرار ، فعليك باتباع العلم ، والاستسلام للشيخ فيما وجّه عليك من الحكم ، وطهارة النفس ، ومحاسن الأخلاق ، وجميل الوفاق

وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)

« إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ــ **الوجه الأول** ــ « إليه يصعد الكلم الطيب » وهو عين شكل الكلمة من حيث ما هو شكل مسبح لله تعالى ، ولو كانت كلمة كفر ، فإن ذلك يعود وباله على المتكلم بها لا عليها ، فإن الحروف اللفظية تتشكل في الهواء ، فإذا تشكلت قامت بها أرواحها ، فيكون شغلها تسبيح ربها ، وتصعد علواً إليه ، فقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب » أي الأرواح الطيبة فإنها كلمات الله مطهرة ، هذا كلام الله سبحانه يُعظَّمُ ويمجَّد ويقدَّس ــ المكتوب في المصاحف ــ ويقرأ على جهة

القربة إلى الله ، وفيه جميع ما قالت اليهود والنصارى في حق الله من الكفر والسب ، وهي كلمات كفر عاد وبالها على قائلها ، وبقيت الكلمات على بابها تتولى يوم القيامة عذاب أصحابها أو نعيمَهم ــ **الوجه الثاني** ــ إن الكلمة إذا خرجت تجسدت في صورة ما هي عليه من طيب وخبث ، فالخبيث يبقى فيما تجسد فيه ما له من صعود ، والطيب من الكلم إذا ظهرت صورته وتشكلت ، فإن كانت الكلمة الطيبة تقتضي عملاً وعمل صاحبها بذلك العمل ، أنشأ الله من عمله بُرَاقاً ــ أي مركوباً ــ لهذه الكلمة ، فيصعد به هذا العمل إلى الله صعود رفعة يتميز بها عن الكلم الخبيث ، فقوله تعالى : « والعمل الصالح يرفعه » أي الأعمال تظهر في صورة مراكب للأرواح الطيبة ، فهو بُراق الكلم الطيب الذي يسري به إليه تعالى وينزل به عليه ، فإن كانت الأعمال صالحة صعدت ورفعت الروح الطيبة إلى درجاتها حيث كانت من عليين ــ **إشارة** ــ ما ثَمَّ إلا عبد ورب ، فإليه تصعد وإليك ينزل كما قال : « إليه يصعد الكلم الطيب » وقال : [ينزل ربنا إلى السماء الدنيا] .

وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

راجع سورة الفرقان آية رقم ٥٣ « عذب فرات » عذبٌ من اللذة ، فهو صفة الماء « ومن كل تأكلون لحماً طرياً » اعلم أن الله عز وجل ما جعل التكوينات التي هي دواب البحر في البحر الملح إلا في العذب منه خاصة ، فلولا وجود الهواء فيه والماء العذب ما تكون فيه حيوان « وتستخرجون حلية تلبسونها » يكون الجوهر في الصدف عن ماء فرات في ملح أجاج ، فصدفته جسمه وملحه طبيعته ، ولهذا ظهر حكم الطبيعة في صدفته فإن الملحة

البياض ، وهو بمنزلة النور الذي يكشف به .

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾

بالفَلَك المُدَار ظهرت الدهور والأعصار ، وبالشمس ظهر الليل والنهار ، من خفايا الأمور المد والجزر في الأنهار والبحور ، أمِن القمر مدّه وجزره ؟ أم من غير ذلك فكيف أمره ؟ هو عبد مأمور مثل سائر الأمور ، مدَّه ماد الظل ، ونزّله مُنزل الوبل والطل ، لا شك أن الأمور معلولة ، والكيفية من الله مَجْهولة ، والنفوس على طلب العلم به مجبولة .

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾

لما سبق في علمه تعالى أنه يخلق قوماً ويخلق فيهم السؤال إلى الأغيار ، ويحجبهم عن العلم به أنه هو المسؤول في كل عين مسؤولة يُفْتَقَر إليها ، من جماد ونبات وحيوان وملك وغير ذلك ، أخبر أن الناس فقراء إلى الله ، أي هو المسؤول على الحقيقة ، فإنه بيدهِ ملكوت كل شيء ، فالفقر إلى الله هو الأصل فقال : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله » فنحن فقراء إلى أسمائه ، ولذلك أتى بالاسم الجامع للأسماء الإلهية ، والافتقار في كل ما سوى الله أمر ذاتي لا يمكن الانفكاك عنه ، ولذلك كان الافتقار إلى الله حالاً وعقداً دون غيره سبحانه ، ففي هذا الخطاب تسمية الله بكل اسم هو لمن يُفْتَقَر إليه فيما يُفْتَقَر إليه ، وهو من باب الغيرة الإلهية حتى لا يفتقر إلى غيره ، والشرف فيه إلى العالم بذلك ، فإن من الناس من افتقر إلى الأسباب الموضوعة كلها ، وقد حجبتهم في العامة عن الله ، وهم على الحقيقة ما افتقروا في نفس الأمر إلّا إلى مَنْ بيده قضاء حوائجهم وهو الله ، ولهذا قال بعض العلماء بأن الله

قد تسمى بكل ما يفتقر إليه في الحقيقة ، ودليلهم هذه الآية ، وهي تنبيه من الله إلى الناس لعلمه بفقرهم إليه ، فإن أحداً ما افتقر إلا إلى الله ، فمن فتح الله عين فهمه في القرآن وعلم أنه الصدق والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، علم أن الأسباب التي يفتقر إليها الإنسان إنما هي صورُ تجلٍ حجبت الخلائق عن الله تعالى ، وقد تسمى الله في هذه الآية بكل ما يفتقر إليه ، فكل ما يفتقر إليه فهو اسم الله تعالى ، إذ لا فقر إلا إليه ، وإن لم يطلق عليه لفظ من ذلك فنحن إنما نعتبر المعاني التي تفيد العلوم ، وأما التحجير في الإطلاق عليه سبحانه فذلك إلى الله ، فما اقتصر عليه من الألفاظ في الإطلاق اقتصرنا عليه ، فإنا لا نسميه إلا بما سمى به نفسه ، وما منع من ذلك منعناه أدباً مع الله ، فالحق تعالى يقبل صفات الخلق لا أسماءه بالتفصيل ، ولكن يقبلها بالإجمال ، وكونه لا يقبل أسماء العالم بالتفصيل ، أعني بذلك أسماء الأعلام ، وما عدا الأسماء الأعلام فيقبلها الحق على التفصيل ، فإن الحق ما له اسم علم لا يدل على معنى سوى ذاته ، فكل أسمائه مشتقة تنزلت له منزلة الأعلام ، وتدل هذه الآية على سر الاقتدار الإلهي في كل شيء ، فلا شيء ينفع إلا به ، ولا يضر إلا به ، ولا ينطق إلا به ، ولا يتحرك إلا به ، وحجب العالم بالصور فنسبوا كل ذلك إلى أنفسهم وإلى الأشياء ، وكلام الله حق وهو خبر ، ومثل هذه الأخبار لا يدخلها النسخ ، فلا فقر إلا إلى الله ، فإن في فِطْرة كل إنسان افتقاراً لموجود يستند إليه وهو الله ، فيقول الحق للناس : ذلك الافتقار الذي تجدونه في أنفسكم متعلقه الله لا غيره ، وفي هذه الآية تسمى الحق لنا باسم كل ما يفتقر إليه غَيْرَةً منه أن يُفْتَقَر إلى غيره ، وكان في هذا الخطاب هجاء للناس ، حيث لم يعرفوا ذلك إلا بعد التعريف الإلهي في الخطاب الشرعي على ألسنة الرسل عليهم السلام ، ومع هذا أنكر ذلك خلق كثير ، وخصوه بأمور معينة يفتقر إليه فيها ، لا في كل الأمور من اللوازم التابعة للوجود ، التي تعرض مع الآنات للخلق ، وكان ينبغي لنا لو كنا متحققين بفهم هذه الآية أن نبكي بدل الدموع دماً ، حيث جهلنا هذا الأمر من نفوسنا إلى أن وقع به التعريف الإلهي ، فكيف حال من أنكره وتأوله وخصصه ؟ فإن الإنسان وإن كان في نفس الأمر عبداً ، ويجد في نفسه ما هو عليه من العجز والضعف ، والافتقار إلى أدنى الأشياء ، والتألم من قرصة البرغوث ، ويعرف هذا كله من نفسه ذوقاً ، ومع هذا فإنه يظهر بالرياسة والتقدم ، وكلما تمكن من التأثير في غيره فإنه يؤثر ، ويجد

في نفسه طلب ذلك كله وحبه ذلك ، لأنه خلقه الله على صورته ، وله تعالى العزة والكبرياء والعظمة ، فسرت هذه الأحكام في العبد ، فإنها أحكام تتبع الصورة التي خلق عليها الإنسان وتستلزمها ، فرجال الله هم الذين لم يصرفهم خلقهم على الصورة عن الفقر والذلة والعبودية ، وإذا وجدوا هذا الأمر الذي اقتضاه خلقهم على الصورة ولابد ، ظهروا به في المواطن التي عيّن لهم الحق أن يظهروا بذلك فيها ، فإن المقرَّب لا يُبقي له القرب والجلوس مع الحق والتحدث معه اسماً إلهياً من الأسماء المؤثرة في العالم ولا من أسماء التنزيه ، وإنما يدخل عليه بالذلة لشهود عزّه ، وبالفقر لشهود غناه ، وبالتهيؤ لنفوذ قدرته « والله هو الغني » ـــ **الوجه الأول** ـــ هو الغني عنكم ، فالغنى لله ، وهو المثنيُّ عليه بهذه الصفة ، فكان الاسم الغني لله ، والإنسان فقير ، وفقره لا يكون إلا إلى الله الغني ـــ **الوجه الثاني** ـــ « والله هو الغني » اعلم أن الله تعالى لا يُعلَم بالدليل أبداً ، لكن يُعلَم أنه موجود ، وأن العالم مفتقر إليه افتقاراً ذاتياً لا محيص عنه البتة ، إذْ لا مناسبة بين الله تعالى وبين خلقه من جهة المناسبة التي بين الأشياء ، وهي مناسبة الجنس أو النوع أو الشخص ، فليس لنا علم متقدم بشيء فندرك به ذات الحق لما بينهما من المناسبة ، فليس بين الباري والعالم مناسبة فيعلم بعلم سابق بغيره أبداً ، كما يزعم بعضهم من استدلال الشاهد على الغائب بالعلم والإرادة والكلام وغير ذلك ، ثم يقدسه بعدما قد حمله على نفسه وقاسه بها « الحميد » يعني بأسمائه ، وجاء بالحميد على وزن فعيل ، فعَمَّ اسم الفاعل بالدلالة الوضعية واسم المفعول ، فهو الحامد المحمود ، وإليه ترجع عواقب الثناء كلها ، وما يُثنَى عليه إلا بنا من حيث وجودنا ، فهو المثنى عليه بكل ما يفتقر إليه ، فمن كونه محموداً وهو قول : [الحمد لله] لا لغيره ، فإنه ما في العالم لفظ لا يدل على ثناء البتة ، أعني ثناء جميلاً ، وأن مرجعه إلى الله ، فإنه لا يخلو أن يثني المثني على الله أو على غير الله ، فإذا حمد الله فحمد مَنْ هو أهل الحمد ، وإذا حمد غير الله فما يحمده إلا بما يكون فيه من نعوت المحامد ، وتلك النعوت مما منحه الله إياها وأوجده عليها ، إما في جبلته أو في تخلقه فتكون مكتسبة له ، وعلى كل وجه فهي من الله ، فكان الحق معدن كل خير وجميل ، فرجع عاقبة الثناء على المخلوق بتلك المحامد على من أوجدها وهو الله ، فلا محمود إلا الله ، وما من لفظ يكون له وجه إلى مذموم إلا وفيه وجه إلى محمود ، فهو من حيث أنه محمود يرجع إلى الله ، ومن حيث ما هو مذموم لا حكم له ، لأن مستند

الذم عدم ، فلا يجد متعلقاً ، فيذهب ويبقى الحمد لمن هو له ، فلا يبقى لهذا اللفظ المعيَّن إلا وجه الحمد عند الكشف ، ويذهب عنه وجه الذم ، أي ينكشف له أن لا وجه للذم ، فعادت عواقب الثناء إلى الله عز وجل ، وأما من كونه حامداً فمن حيث أنه حمد نفسه بنفسه ، فالله هو الغني الذي لا يفتقر ، الحميد الذي ترجع إليه عواقب الثناء من الحامد والمحمود . ومبدأ الحمد غنى الحق عن العالمين ، وقدَّم الفقر على الغنى في اللفظ ، لأن مبدأ الحمد من الخلق هو الافتقار إلى الحق تعالى ، وغنى الحق مقدَّم في المعنى على فقر الخلق إليه ، فإن الغنى عن الخلق لله أزلاً ، والفقر للممكن في حال عدمه إلى الله من حيث غناه أزلاً ،واعلم أن الحمد لله تملأ الميزان ، لأنه كل ما في الميزان فهو ثناء على الله وحمد لله ، فما ملأ الميزان إلا الحمد ، فالتسبيح حمد وكذلك التهليل والتكبير والتمجيد والتعظيم والتوقير والتعزيز ، وأمثال ذلك كله حمد ، فالحمد لله هو العام الذي لا أعم منه ، وكل ذكر فهو جزء منه ، والحمد على ثلاثة أنحاء في التمام والكمال ، وأتمها واحد منها ، وذلك حمد الحامد نفسه يتطرق إليه الاحتمال ، فلا يكون له ذلك الكمال ، فيحتاج إلى قرينة حال وعلم يصدق الحامد فيما حمد به نفسه ، فإنه قد يصف واصف نفسه بما ليس هو عليه ، وكذلك حكمه إذا حمده غيره يتطرق أيضاً إليه الاحتمال ، حتى يستكشف عن ذلك ، فينقص عن درجة الإبانة والتحقيق ، والحمد الثالث حمد الحمد ، وما في المحامد أصدق منه ، فإنه عين قيام الصفة به ، فلا محمود إلا مَنْ حمده الحمد ، لا مَنْ حمد نفسه ولا مَنْ حمده غيره ، فإذا كان عين الصفة عين الموصوف عين الواصف كان الحمد عين الحامد والمحمود ، وليس إلا الله ، فهو عين حمده سواء أضيف ذلك الحمد إليه أو إلى غيره ــ **بحث في الغنى بالله** ــ يرى البعض أن الغنى بالله تعالى من أعظم المراتب ، وحجبهم ذلك عن التحقيق بالتنبيه على الفقر إلى الله الذي هو صفتهم الحقيقية ، فجعلوها في الغنى بالله بحكم التضمين ، لمحبتهم في الغنى الذي هو خروج عن صفتهم ، والرجل إنما هو من عرف قدره ، وتحقق بصفته ولم يخرج عن موطنه ، وأبقى على نفسه خلعة ربه ولقبه واسمه الذي لقبه به وسماه ، فقال : « أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد » وكان غاية الغنى في العبد أن يستغني بالله عما سواه ، وليس ذلك عندنا مقاماً محموداً ، فإن في ذلك قدراً لما سوى الحق ، وتميزاً عن نفسه ، فلرعونة النفس وجهالتها أرادت أن تشارك ربها في اسم الغني ، فرأت أن تتسمى بالغني بالله ، وتتصف

به حتى ينطلق عليها اسم الغني ، وتخرج عن اسم الفقير ، وهذا من غوائل النفوس المبطونة فيها ، وصاحب مقام العبودة يسري ذوقه في كل ما سوى الله أنه عبد كهو لا فرق ، ويرى أن كل ما سوى الله محل جريان تعريفات الحق له ، فيفتقر إلى كل شيء فإنه ما يفتقر إلا إلى الله ، ولا يرى أن شيئاً يفتقر إليه في نفسه ، وإن أفاد الله الناس على يديه فهو عن ذلك في نفسه بمعزل ، ويرى أن كل اسم تسمى به شيء مما يعطيه فائدة أن ذلك اسم الله ، غير أنه لا يطلقه عليه حكماً شرعياً وأدباً إلهياً ، فما خلق الله العالم على قدم واحدة إلا في شيء واحد وهو الافتقار ، فالفقر له ذاتي والغنى له أمر عرضي ، فالعبد له الفقر المطلق إلى سيده ، والحق له الغنى المطلق عن العالم ، فالعالم المحقق لا يزال الأمر الذاتي من كل شيء ومن نفسه مشهوداً له دائماً دنيا وآخرة ، فلا يزال عبداً فقيراً تحت أمر سيده ، لا يستغني عن ربه ، فإن الحقيقة تأبى أن يفتقر إلى غير الله ، وقد أخبر الله أن الناس فقراء إلى الله على الإطلاق ، والفقر حاصل منهم ، فعلمنا أن الحق قد ظهر في صورة كل ما يفتقر إليه فيه ، والفقير من يتناول الأسباب على أوضاعها الحكمية لا يخل بشيء منها ، وهو الذي يفتقر إلى كل شيء وإلى نفسه ولا يفتقر إليه شيء ، وهو العبد المحض عند المحققين فإن الله يقول من باب الغيرة الإلهية « يا أيها الناس » وما خص مؤمناً ولا غيره « أنتم الفقراء إلى الله » فكنّى عن نفسه في هذه الآية بكل ما يُفْتَقَر إليه ، أي فما افتقرتم إليه من الأشياء هو لنا وبأيدينا ، وما هو لنا لا يطلب إلا منا ، فإلينا الإفتقار لا إليه ، إذ هو غير مستقل إلا بنا ، فما افتقر فقير إلا إلى الله ، عرف ذلك الشخص أو لم يعرفه ، وهذا الفقير المتحقق بفقره إلى الله لا تظهر عليه صفة غنى بالله ولا بغير الله ، فيفتقر إليه من ذلك الوجه فصح له مطلق الفقر ، فإن الذلة والافتقار لا تكون من الكون إلا لله تعالى ، فكل من تذلل وافتقر إلى غير الله تعالى واعتمد عليه وسكن في كل أمره إليه فهو عابد وثن ، والمُفتَقَر إليه يسمى وثناً ، ويسميه المفتقر إلهاً « والله هو الغني الحميد » أي المثنى عليه بصفة الغني عن العالم .

خزائن الجود ما انسدت مغالقها ... لو انتهت لانتهى في العالم الفقر
وفقره دائم لا ينتهي أبداً ... كذاك نائله لا ينقضي عمر
الفقر بالذات ذاتي لصاحبه ... ولو يدوم له من ربه اليسر
ما قلت إلا الذي قال الإله لنا ... فينا ففي كل يسر مدرج عسر

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾

« إن يشأ يذهبكم » إعدام الموجود « ويأتِ بخلق جديد » إيجاد المعدوم ، فإن له الاقتدار والاقتدار لا يكون عنه إلا الوجود ، فأبى الاقتدار إلا الوجود ، وعلق الإرادة بالإعدام ، والله تعالى لا يعدم الأشياء القائمة بأنفسها بعد وجودها ، ولا يتصف بإعدام أحوالها ولا أعراضها بعد وجودها ، وإنما الأشياء تكون على أحوال ، فتزول تلك الأحوال عنها فيخلع الله عليها أحوالاً غيرها ، أمثالاً كانت أو أضداداً ، مع جواز إعدام الأشياء بمسكه الإمداد بما به بقاء أعيانها ، لكن قضى القضية أن لا يكون الأمر إلا هكذا ، ولذلك قال : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » ولكن ما فعل .

وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ بممتنع .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » في الآخرة لأنها دار تمييز ، فلا تصيب العقوبة إلا أهلها .

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾

أي لا يستوي الأعمى وهو الذي لا يفهم فيعلم ، ولا البصير الذي يفهم فيعلم .

وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾

ولا ظلمات الضلال ولا نور الهدى ، ولا ظلمات الشرك ولا نور التوحيد ، ولا ظلمات الشقاء والتعب ولا نور السعادة والراحة ، ولا ظلمات الجهل ولا نور العلم ، ولا ظلمات

المخالفة ولا نور الموافقة .

وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

« وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » كل أمة على حسب ما تعطيه حقيقتها وتقبل رقيقتها ، فإن الله تعالى يقول : (ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) فألحق البهائم بالأمم وحكم بذلك وعَمَّ ، وكل أمة في أفقها ناطقة وفي أوجها عاشقة ، فليس في الوجود جماد ولا حيوان إلا ناطق بلسان ، لسان ذات لا لسان حال ، والقائل بخلاف هذا قائل محال ، وفي كل أمة من الأمم نذير من جنسها على حسب نفسها ، فعمت الشرائع جميع الخلائق ، فنكّر الأمة ونكّر النذير ، والنذير قد يكون لكل واحد منهم نذير في ذاته ، وقد يكون للنوع من جنسه ، لابد من ذلك ، من حيث لا يعلمه ولا يشهده إلا من أشهده الله ، وهذه الآية ليست بنص في الرسالة إنما هي نص في أن في كل أمة عالماً بالله وبأمور الآخرة ، وذلك هو النبي لا الرسول ، ولو كان الرسول لقال : إليها ، ولم يقل : فيها ، ونحن نقول : إنه كان فيما قبل نوح عليه السلام ــ وهو أول رسول ــ أنبياء عالمون بالله ، ومَنْ شاء وافقهم ودخل معهم في دينهم وتحت حكم شريعتهم كان ، ومَنْ لم يشأ لم يكلف ذلك ، وكان إدريس عليه السلام منهم ، وما من شيء في الوجود إلا وهو أمة من الأمم ، فإنه تعالى ما يعذب ابتداء ولكن يعذب جزاءً ، فإن الرحمة لا تقتضي في العذاب إلا الجزاء للتطهير ، ولولا التطهير ما وقع العذاب ، وقد [قال ﷺ في الكلاب : إنها أمة من الأمم] فعمت الرسالة الإلهية جميع الأمم ، صغيرهم وكبيرهم ، فما من أمة إلا وهي تحت خطاب إلهي على لسان نذير بعث إليها منها وفيها ، فإن كل جنس من خلق الله أمة من الأمم ، فطرهم الله على عبادة تخصهم أوحى بها إليهم في نفوسهم ، فرسولهم من ذواتهم ، إعلام من الله بإلهام خاص جبلهم عليه ، كعلم بعض الحيوانات بأشياء يقصر عن إدراكها المهندس النحرير ، وعلمهم على الإطلاق بمنافعهم فيما يتناولونه من الحشائش والمآكل وتجنب ما يضرهم من ذلك ، كل ذلك

في فطرتهم ، أما قوله تعالى : « نذير » أي يقوم بسياستها لبقاء المصلحة في حقها ، سواء كان ذلك الشرع إلهياً أو سياسياً ، على كل حال تقع المصلحة به ، في القرن الذي يظهر فيه ، وذلك بالنسبة للبشر ، فهو إما نذير بأمر الله وإرادته ، أو نذير بإرادة الله لا بوحي نزل عليه يعلم به أنه من عند الله ، فما من طائفة إلا وهي تحت ناموس شرعي حكمي أو وضع حكمي ، فلا تخلو أمة من مخالفة تقع منها لناموسها كان ما كان ، فقد عمت النواميس جميع الأمم .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾

ولما أراد الله إصلاح خلقه ... وكان بهم داء الطمأنينة اصطفى
إماماً كريماً منهم متطلعاً ... لأسرار أرواح العلا متشوفا
فأنزله فيهم طبيباً محكماً ... أميناً عليماً بالسقام وبالشفا
وجاء بآيات تؤيد صدقه ... تراها برأي العين إن كنت منصفاً
فأنقذنا من لفح نار تسعرت ... وكنا لعمر الله منها على شفا
وأظهر أسراراً وأبدى سبيلها ... لتحصيلها من بعد ما كان قد عفا

سبب وضع الشريعة في العالم أمران فيهما سران : الأمر الواحد صلاح العالم ، وهو منهج الأنبياء ، ويؤيده قوله تعالى : (ولكم في القصاص حياة) ، وسره أن نصر المؤمنين حق عليه ، والأمر الآخر ، إثبات ذل العبودية ، وظهور عز الربوبية ، وسره حكم سلطان اسميه (المعز المذل) ، فتنبه لما رمزناه ، وفك المعمّى الذي لغزناه ، الطمأنينة بما لا حقيقة له توجب التكليف ، وما ثَمَّ شيء إلا وله حقيقة فقد لزمك الوقوف ، ما من أمة إلا قد اطمأنت ، فلما جاءتها الرسالة أنّت لعبئها ثم حنّت ، لولا الوعيد والوعد ، ما سُعي في الوفاء بالعهد ، فالحقائق لها رقائق ، غاب عنها أهل العلائق والعوائق ، والحال علاقة المريد ، وحب الكشف نهاية مَنْ لم يذق لذة المزيد ، وكل مَنْ شاهد أمراً ليس ذلك المشهود عليه ، فذلك

الأمر فيه وراجع إليه ، فليحذر أن يقول : إنه في الكون الخارج لا محالة ، فيثبت عند المحققين مُحَاله ، ومن لم يفرق بين نفسه وغيره ، فلا يميز بين شره وخيره ، فهذا سبب وضع الشرع ، الموافق للعقل والطبع .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

إن الزرقة التي ننسبها إلى السماء ونصفها بها فتلك اللونية لجرم السماء لبعدها عنك في الإدراك البصري ، كما ترى الجبال إذا بعدت عنك زرقاً ، وليس الزرقة إلا لبعدها عن نظر العين ، كما ترى الجبل البعيد عن نظرك أسود ، فإذا جئته قد لا يكون كما أبصرته ، فإن الألوان على قسمين : لون يقوم بجسم المتلون ، ولون يحدث للبصر عند نظره إلى الجسم لأمر عارض يقوم بين الرائي والمرئي ، مثل هذا ومثل الألوان التي تحدث في المتلون باللون الحقيقي ، لهيئات تطرأ فيراها الناظر على غير لونها القائم بها الذي يعرفه .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

الخشية من خصائص العلماء بالله المرضي عنهم المطلوب منهم الرضى ، قال تعالى : (رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) فالخشية من صفات العلم الذي يعطي الخشية اللازمة له ، وعلى قدر العلم بها تكون الخشية المنسوبة إلى العالم ، فالعلم يورث الخشية والخشية تعطي الخشوع ، وهذه صفة العلماء العارفين بالله ، لعلمهم بأنه يعلم حركاتهم وسكناتهم على التعيين والتفصيل ، وكل عالم عندنا لم تظهر عليه ثمرة علمه ولا حكم عليه علمه فليس بعالم ، وإنما هو ناقل ، وأتم الله هذه الآية بقوله : « إن الله عزيز » وعزته

امتناعه ، فهو الذي يُخاف ويُرجى ويُسأل ويُجيب إن شاء وإن شاء ، فهو عزيز عن أن يتصف بالخوف والرجاء وعن مثل هذا ، وهو أيضاً عزيز أي يمتنع أن يؤثر فيه أمر يحول بينه وبين عموم مغفرته على عباده ، ولذلك قال « غفور » بما ستر ، وجاء ببنية المبالغة في الغفران بعمومها ، فهي رجاء مطلق للعصاة على طبقاتهم ، فإنه لما كانت علوم الله وأسراره الراجعة إليه تعالى وإلى أسمائه وإلى العالم قد سترها عن الخلق كلهم بالمجموع ، فلا يعلم المجموع ولا واحد من الخلق ، لكن له العلم بالآحاد ، فعند واحد ما ليس عند الآخر ، فهو بالمجموع حاصل لا حاصل ، فهو حاصل عند المجموع غير حاصل عند واحد ، فعند واحد من العلم بالله ما ليس عند الآخر ، فلذلك قال : « إن الله عزيز غفور » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾

« وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » خرج مسلم عن جرير بن عبد الله قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار فجاءه قوم حفاة عراة ، مجتابي النمار متقلدين السيوف ، عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن ، وأقام فصلى بهم ثم خطب فقال : [يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة ، قال : فجاء رجل بصرة من الأنصار تكاد كفه تعجز عنها ، بل عجزت ، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أوزارهم شيئاً] وإخفاء الصدقة شرط في نيل

المقام العالي ، ومنها أن تخفي كونها صدقة فلا يعلم المتصدق عليه أنه بين يدي المتصدق ، خرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل وشاب نشأ في (طاعة) عبادة الله ، ورجل قلبه متعلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه] والكامل من الناس يعلن في وقت في الموضع الذي يرى أن الحق رجح فيه الإعلان ، ويسر بها في وقت في الموضع الذي يرى أن الحق يرجح فيه الإسرار .

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

نسبة الشكر إليه تعالى ببنية المبالغة في حق من أعطاه من العمل ما تعين على جميع أعضائه وقواه الظاهرة والباطنة ، في كل حال بما يليق به ، وفي كل زمان بما يليق به ، فيشكره الحق على كل ذلك بالاسم الشكور .

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

« ثم أورثنا الكتاب » هو القرآن المحفوظ من التحريف والزيادة « الذين اصطفينا من عبادنا » المصطفى من عباد الله لا يتقدم له نظر عقلي في العلم بالله ، فإنه ما تقدم لنبي قط قبل نبوته نظر عقلي في العلم بالله ، ولا ينبغي له ذلك ، وكذلك كل ولي مصطفى ، وسبب ذلك أن النظر يقيده في الله بأمر ما يميزه به عن سائر الأمور ، ولا يقدر على نسبة عموم

الوجود لله ، فما عنده سوى تنزيه مجرد ، فإذا عقد عليه ، فكل ما أتاه من ربه فخالف عقده ، فإنه يرده ويقدح في الدلالة التي تعضد ما جاءه من عند ربه ، فمن اعتنى الله به عصمه قبل اصطفائه من علوم النظر ، واصطنعه لنفسه وحال بينه وبين طلب العلوم النظرية ، ورزقه الإيمان بالله وبما جاء من عند الله على لسان رسول الله ﷺ ، هذا في هذه الأمة التي عمت دعوة رسولها ، وإن سعد صاحب النظر العقلي فإنه لا يكون أبداً في مرتبة الساذج الذي لم يكن عنده علم بالله إلا من حيث إيمانه وتقواه ، وهذا هو وارث الأنبياء في هذه الصفة ، فهو معهم وفي درجتهم هذه ، فالمصطفى هو الولي ، ثم قال في المصطفين : « فمنهم ظالم لنفسه » ومن ظلم لنفسه حمل الأمانة « فمنهم ظالم لنفسه » وهو آدم ومن كان بهذه المثابة . واعلم أن للنفس حقاً فإذا جُنِيَ عليها وعفوت فأنت الظالم المصطفى ، وهو الأول من الثلاثة ، لم يأخذ لها حقها ممن ظلمها ، وعاد أجرها على الله ، ومنهم ظالم لنفسه ، وهو أن يمنعها حقها من أجلها ، أي الحق الذي لك يا نفسي عليَّ في الدنيا نؤخره لك إلى الآخرة ، وبادر هنا إلى الكد والاجتهاد وأخذ بالعزائم ، واجتنب الميل إلى الرخص ، وهذا كله حق لها ، فهو ظالم لنفسه نفسه من أجل نفسه ، ولهذا قال فيمن اصطفاهم « فمنهم ظالم لنفسه » أي من أجل نفسه ليسعدها ، فما ظلمها إلا لها ، فمن ورثة الكتاب الظالم لنفسه بما يجهدها عليه ، فهو يظلم نفسه فيما لها من الحق لنفسه ، فهو في الوقت صاحب عذاب وألم لا يريد دفعه عنه ، لأنه استعذبه وهان عليه حمله في جنب ما يطلبه ، فإنه يطلب سعادته ، وهو ظالم لنفسه أي من أجل نفسه بأنه لا يوفيها حقها ، لنزوله في العلم عن رتبة من يعلم أن حقائقه التي هو عليها لا تتداخل ، ولا تتعدى كل حقيقة مرتبتها ، ولا تقبل إلا ما يليق بها ، فإن الإنسان مجموع أمور أنشأه الله عليها ، طبيعية وروحانية وإلهية ، فلا تقبل العين إلا السهر والنوم وما يختص بها ، ولا تقبل من الثواب إلا المشاهدة والرؤية ، والأذن لا تقبل في الثواب إلا الخطاب ، إذ ليس الشهود للسمع ، والكامل يسعى لقواه على قدر ما تطلبه ، وهو إمام ناصح لرعيته ليس بغاش لها ، فإن ظلمها فإنما يظلمها لها في زعمه ، وذلك لجهله بما علم غيره من ذلك ، كسلمان الفارسي وأخيه في الله أبي الدرداء في حالهما ، فرجح رسول الله ﷺ سلمان ، فإنه كان يعطي كل ذي حق حقه ، فيصوم ويفطر ، ويقوم وينام ، وكان أبو الدرداء مع كونه مصطفى ظالماً لنفسه ، يصوم فلا يفطر ، ويقوم فلا ينام ، هذا هو

ظلم المصطفين من عباد الله ، لا ظلم يتعدى الحدود الإلهية ، فإن مَنْ يتعدى حدود الله فقد ظلم نفسه ، وأما الظالم لنفسه فلعلمه بقدرها عند الله ، فهو يظلم لها لا يظلمها ، فيعطى كل ذي حق حقه إلا الحق ، فإنه لا يعطيه كل حقه ، بل يعطيه من حقه تعالى ما يسمى به أدبياً ، وما لا يسمى به أدبياً يظلمه فيه من أجل نفسه ، حتى يلحق برتبة الأنبياء ، فمثل هذا الظلم من الفضل الإلهي على عبده ، فمن كان مشهده هذا سمي ظالماً لنفسه مع أنه مصطفى ، وما أوقفه على ذلك إلا علمه بالكتاب ، فهو يحكم به ، « ومنهم مقتصد » وهو الذي اقتصد في كل موطن على ما يقتضيه حكم الموطن لا بحكم نفسه ، وهم أهل الله السابقون إلى الخيرات على طريق الاقتصاد من إعطاء كل ذي حق حقه ، فمشهد الظالم ما يجب للحق فلا ينسبه إليه ، ومشهد المقتصد المواطن وما تستحق ، فالظالم يدخل في حكم المقتصد ، ولهذا كان المقتصد وسطاً ، لأنه على حقيقة ليست للطرفين ، وفيه حكم الطرفين ، ما يحتاج إليه أو يندرج فيه « ومنهم سابق بالخيرات » وأما السابق بالخيرات فهو الذي يتهيأ لحكم المواطن قبل قدومها عليه ، وتجتمع هذه الأحوال في الشخص الواحد ، فيكون ظالماً مقتصداً سابقاً بالخيرات « بإذن الله » أي كل ذلك بأمر الله « ذلك هو الفضل الكبير » الضمير من « هو » يعود على السبق الذي يدل عليه اسم الفاعل ، فالمصطفون عند أولي الألباب ، ثلاثة بنص الكتاب ، ظالم لنفسه في أبناء جنسه ، والثاني مقتصد وعليه المعتمد ، فإنه حكيم الوقت بعيد عن المقت ، والثالث سابق بالخيرات إلى الخيرات ، وهو الساعي صاحب السمع الواعي ، وأما المقتصد فما زاد على زاده على قدر اجتهاده ، وأما الظالم فهو المحكوم عليه للحاكم ، فمن ظلم ما حكم ، ومن اقتصد ما اعتضد ، وقنع واكتفى ، ومن سبق حاز الأمر وظفر ، والكتاب قد شمل الجميع ، وإن كان فيهم الأرفع والرفيع ، فالكل وارث فإنه حارث ، وأصحاب السهام متفاضلون ، فمنهم المقلون ومنهم المكثرون ، فما تميز الرجال إلا بالأحوال في الأعمال ، فكن من شئت من هؤلاء ، وهؤلاء الثلاثة هم الورثة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ [العلماء ورثة الأنبياء] والوارث الكامل من ورث رسول الله ﷺ علماً وعملاً وحالاً ، فقوله تعالى في الوارث المصطفى إنه ظالم لنفسه يريد حال أبي الدرداء وأمثاله من الرجال ، الذين ظلموا أنفسهم لأنفسهم ، أي من أجل أنفسهم حتى يسعدوها في الآخرة ، وذلك أن رسول الله ﷺ قال : [إن لنفسك

عليك حقاً ، ولعينك عليك حقاً] فإذا صام الإنسان دائماً وسهر ليله ولم ينم ، فقد ظلم نفسه في حقها وعينه في حقها ، وذلك الظلم لها من أجلها ، ولهذا قال : « ظالم لنفسه » فإنه أراد بها العزائم وارتكاب الأشد ، لما عرف منها ومن جنوحها إلى الرخص والبطالة ، وجاءت السّنة بالأمرين لأجل الضعفاء ، فلم يرد الله تعالى بقوله : « ظالم لنفسه » الظلم المذموم في الشرع ، فإن ذلك ليس بمصطفى ، وأما الصنف الثاني من ورثة الكتاب فهو المقتصد ، وهو الذي يعطي نفسه حقها من راحة الدنيا ، ليستعين بذلك على ما يحملها عليه من خدمة ربها ، في قيامه بين الراحة وأعمال البر ، وهو حال بين حالين ، بين العزيمة والرخصة ، ففي قيام الليل يسمى المقتصد متهجداً ، لأنه يقوم وينام ، وعلى مثل هذا تجري أفعاله ، وأما السابق بالخيرات وهو المبادر إلى الأمر قبل دخول وقته ليكون على أهبة واستعداد ، وإذا دخل الوقت كان متهيأً لأداء فرض الوقت ، لا يمنعه من ذلك مانع ، كالمتوضىء قبل دخول الوقت ، والجالس في المسجد قبل دخول وقت الصلاة ، فإذا دخل الوقت كان على طهارة وفي المسجد ، فيسابق إلى أداء فرضه وهي الصلاة ، وكذلك إن كان له مال أخرج زكاته وعيّنها ليلة فراغ الحول ، ودفعها لربها في أول ساعة من الحول الثاني للعامل الذي يكون عليها ، وكذلك في جميع أفعال البر كلها يبادر إليها ، كما قال النبي ﷺ لبلال : [بم سبقتني إلى الجنة ؟] فقال : بلال ما أحدثت قط إلا توضأت ، ولا توضأت إلا صليت ركعتين ، فقال رسول الله ﷺ : بهما] فهذا وأمثاله من السابق بالخيرات ، وهو كان حال رسول الله ﷺ بين المشركين في شبابه وحداثة سنه ، ولم يكن مكلّفاً بشرع ، فانقطع إلى ربه وتحنث وسابق إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ، حتى أعطاه الله الرسالة .

القلب بيت وإن العلم يسكنه	بالعلم يحيى فلا تطلب سوى العلم
ما ثم علم يكون الحق يمنحه	إلا الكتاب لمن قد خص بالفهم
فيه فتبدو علوم كلها عجب	لكل قلب سليم حائز الحكم
أو سابق أو إمام ظل مقتصداً	يرجو النجاة فما ينفك عن وهم
إن النجاة لتأتي القوم طائعة	وتأت قوماً إذا جاءت على الرغم

ـــ **إشارة** ـــ قال النبي ﷺ [العلماء ورثة الأنبياء] وقال [علماء هذه الأمة أنبياء سائر

الأمم] : الولي يخرج بصورة النبي ، لا ينسخ شريعة ، ولا يثبت أخرى ، ولا يسأل على تعليمه أجراً ، وإنما صح لنا ورث الكتاب ، لكونه أعطاه لنا من غير اكتساب ، وكل وارث مصطفى ، ومَنْ سواه على شفا ، وإنما ألحق الوارث منا بالنبي السالف ، لأنه للإلقاء النبوي ذائق ولمقامه العلي كاشف ، فهي موهوبة ومكسوبة ، وطالبة ومطلوبة .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾

ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

سميت منزلُ الكرامة دار المقامة ، لأنها مقيمة على العهد لا تقبل الضد « لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » فإن الراحة والرحمة مطلقة في الجنة كلها ، فكل مَنْ في الجنة متنعم ، وكل ما فيها نعيم ، فحركتهم ما فيها نصب ، وأعمالهم ما فيها لغوب ، إلا راحة النوم ما عندهم لأنهم ما ينامون .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

« وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » فإنهم في هذه الحال علموا صدق الله في إنفاذ الوعيد فيهم .

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

« هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » وهي محل الخفض ، إذ الخفض لا يليق بالجناب العالي ، فلهذا أقام له نائباً فيه ليعلم أنه عبد ، فمن الخلافة ثبت أنه عبد فقير ، ما له قوة من استخلفه ، بل الخلافة خلعت عليه ، يزيلها متى شاء ويجعلها على غيره ، ولو استخلف الإنسان في السماء مع وجوده على الصورة لم يشاهد عبوديته في رفعته ، للصورة والمكان والمكانة ، فربما طغى .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾

« فلما جاءهم نذير » يعني دعاء الحق على لسان الرسول ﷺ « ما زادهم إلا نفوراً »

ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ

تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

(٣٦) سورة يس مكية

سورة يس من القرآن قلب القرآن ، ومن قرأها كان كمن قرأ القرآن عشر مرات ، فهي تقوم مقام القرآن عشر مرات .



يس ﴿١﴾

نداء مرخم ، أراد يا سيد ، فرخّم ، كما قال : يا أبا هر يا أبا هريرة ، فأثبت له السيادة بهذا الاسم ، وجعله مرخماً للتسليم الذي تطلبه الرحمة ، والقطع مما بقي منه في الغيب الذي لا يمكن خروجه ، فصورته في الغيب صورة الظل في الشخص الذي امتد عنه الظل ، ألا ترى الشخص إذا امتد له ظل في الأرض ، أليس له ظل في ذات الشخص الذي يقابله ذلك الظل الممتد ؟ فذلك الظل القائم بذات الشخص المقابل للظل الممتد ، ذلك هو الأمر الذي بقي من الإنسان ، الذي هو ظل الله الممدود في الغيب ، لا يمكن خروجه أبداً ، وهو باطن الظل الممتد ، والظل الممدود هو الظاهر ، فلا غيب أكمل من غيب الإنسان الكامل الذي هو ظل الله في كل ما سوى الله ، فأظهره من النفس الرحماني الخارج من قلب القرآن سورة

يس ، فلا غيب أكمل من غيب الإنسان وهو على صورة موجده ، فلما أبرزه الله للوجود ، أبرزه على الاستقامة وأعطاه الرحمة ، ففتح به مغاليق الأمور علواً وسفلاً ، فأمد الأمثال بذاته ، وأمد غير الأمثال بمثله .

وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

وذلك لأنهم قالوا (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فكأن الله حكى لنبيه ﷺ وعرفه بأن حالهم ما ذكروه عن نفوسهم .

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

« وكل شيء » له شيئية وجودية « أحصيناه » فإن الإحصاء لا يكون إلا في الموجود « في إمام مبين » ـــ **الوجه الأول** ـــ فقوله تعالى : أحصيناه ، دليل على أنه ما أُودع في الإمام المبين إلا علوماً متناهية ، والإمام المبين هو اللوح المحفوظ الحاوي على المحو والإثبات ، فكل شيء فيه ، وكاتبه القلم الأعلى ، ثم تنزل الكتبة مراتبها في الديوان الإلهي ، فاللوح

المحفوظ لا محو فيه ، كل أمر فيه ثابت ، وهو الذي يرفع إلى الحق ، وأما الذي بأيدي الكتبة ــ وهو قوله ﷺ لما ذكر حديث الإسراء فقال : [حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام] ففيه ما يمحو الله وفيه ما يثبت ، على قدر ما تأتي به إليهم رسل الله من عند الله ، من إثبات ما شاء ومحو ما شاء ، ثم ينقل إلى الدفتر الأعلى ، فيقابل باللوح المحفوظ فلا يغادر حرفاً ، فتعلم الكتبة عند ذلك أن الله قد أحاط بكل شيء علماً ــ **الوجه الثاني** ــ الإمام المبين هو كتاب فيه ما يتكون عن المكلفين خاصة ، فلا تزال الكتابة فيه ما دام التكليف ، وبه تقوم الحجة لله على المكلفين ، وبه يطالبهم ، لا بأم الكتاب الذي فيه القضاء ، فهذا الإمام هو الحق المبين الذي يحكم به الحق تعالى ، الذي أخبرنا الله في كتابه أنه أمر نبيه أن يقول لربه : احكم بالحق ، يريد هذا الكتاب ، وهو كتاب الإحصاء ، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وكل صغير وكبير مستطر ــ **إشارة لا تفسير** ــ إن الإمام على الحقيقة المبين مَنْ كان كل شيء مأموماً به ، وهذا لا يصح في موجود ما لم يصح له المثلية اللغوية الفرقانية ، فإذا صحت المثلية صح وجود الإمام ، وإذا صح وجود الإمام بطلت الإمامة في حق غيره ، قال تعالى : (ليس كمثله شيء) وجاء في الخبر [خلق الله آدم على صورته] وقال تعالى : (إني جاعل في الأرض خليفة) فالعالم أسفله وأعلاه محصي في الإنسان ، فسماه البعض الإمام المبين .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

الطائر الحظ « قالوا طائركم معكم » أي حظكم ونصيبكم معكم من الخير والشر

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

سميت مدة استنارة الجو من مشرق الشمس إلى مغربها نهاراً لاتساع النور فيه ، مأخوذ من النهر الذي هو اتساع الماء في المسيل الذي يجري فيه ، ومدة الظلمة من غروب الشمس إلى طلوعها هو الليل ، واليوم مجموع الليل والنهار معاً ، وأبان سبحانه أن الليل أم النهار ، وأن النهار متولد عنه ، كما ينسلخ المولود من أمه إذا اخرج منها ، والحية من جلدها فقال : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » فجعل الليل أصلاً ، والنهار كان غيباً فيه ، ثم سلخ منه النهار كما نسلخ الشاة من جلدها ، فكان الظهور لليل والنهار مبطون فيه ، وليس معنى السلخ معنى التكوير ، فالنهار متأخر عن الليل لأنه مسلوخ منه ، ولذلك فإن العرب في الزمان العربي وفي اصطلاحهم وما تواطؤوا عليه يقدمون الليل على النهار ، على عكس العجم الذين حسابهم بالشمس يقدمون النهار على الليل ، ولهم وجه بهذه الآية وهو قوله : « فإذا هم مظلمون » وإذا حرف يدل على زمان الحال أو الاستقبال ، ولا يكون الموصوف بأنه مظلم إلا بوجود الليل في هذه الآية ، فكان النهار غطاءً عليه ثم سلخ منه أي أزيل ، فإذا هم مظلمون ، أي ظهر الليل الذي حكمه الظلمة ، فإذا الناس مظلمون ، وأعلم الحق تعالى بهذه الآية أن النور مبطون في الظلمة ، فلولا النور ما كانت الظلمة ، فإنه تعالى لم يقل « نسلخ منه النور » إذ لو أخذ منه النور لانعدم وجود الظلام ، إن كان أُخِذَ عدم ، وإن كان أخذ انتقال تبعه حيث ينتقل ، إذ هو عين ذاته ، والنهار من بعض الأنوار المتولدة عن شروق الشمس ، فلولا أن للظلمة نوراً ذاتياً لها ما صح أن تكون ظرفاً للنهار ، ولا صح أن تدرك ، وهي مدركة ، ولا يُدرَكُ الشيء إن لم يكن فيه نور ، ويدرك به من ذاته ، وهو عين وجوده واستعداده بقبول إدراك الأبصار بما فيها من الأنوار له ، واختص الإدراك بالعين عادة ، ومن ذلك نعلم أن الليل ظل النور ، والنهار لما سُلِخَ من الليل ظهر نوراً ، فظهرت الأشياء التي كانت مستورة بالليل ، ظهرت بنور النهار ، فلم يشبه النهار الليل وأشبه النور ، فإنه لو سُلِخَ من الظل جميعه أمرٌ ما لخرج على صورة الظل ، والظل على صورة ما هو ظل له ، فالخارج من الظل المسلوخ منه على صورة الشخص ، فلذلك خرج النهار لما سلخ من الليل على صورة النور ، ـــ تنبيه هذه هي عملية التصوير الشمسي ـــ .

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

قرأ ابن مسعود « والشمس تجري لا مستقر لها » وهذا من حكم التقليب ، فترى الشمس التي هي علة الليل والنهار تجري لا مستقر لها ، ليلاً ولا نهاراً ، فإن الشمس لا مستقر لها عند مَنْ علمها وما جهلها ، فيقال : الشمس رجعت في زيادة النهار ونقصه وما عندها رجوع ، بل هي على طريقها ، فمن أغاليط النفس ، القول برجوع الشمس ، وما رجعت ، ولا نزلت ولا ارتفعت ، هي في فلكها سابحة ، غادية رائحة ، غدوها ورواحها حكم البصر ، وما يعطيه في الكرة النظر ، وقرأ غير ابن مسعود « لمستقر لها » فلها مستقر يراه عين المؤمن في الإيمان بالخبر ، وكل ذلك صحيح .

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

« والقمر » ولم يسمه بدراً ولا هلالاً ، فإنه في هاتين الحالتين ما له سوى منزلة واحدة بل اثنتين ، فلا يصدق قوله « منازل » إلا في القمر ، فللقمر درج التداني والتدلي ، وله الأخذ بالزيادة والنقص ، فهو يتغير في أحواله « قدرناه منازل » مقادير التقاسيم التي في فلك البروج ، عيّنها الحق تعالى لنا ، إذ لم يميزه البصر بهذه المنازل المعينة في الفلك المكوكب ، واسمه فلك المنازل ، وهو من تقدير العزيز العليم ، وجعلها ثماني وعشرين منزلة ، مقسمة على اثني عشر برجاً ، فلكل برج منزلتان وثلث ، والقمر أحد السبعة الجواري التي في السموات السبع ، والتي تقطع في فلك البروج بين سريع وبطيء ، ويوم كل كوكب منها بقدر قطعه فلك البروج ، فأسرعها قطعاً القمر ، فإن يومه ثمانية وعشرون يوماً من أيام الدورة الكبرى التي تقدر بها هذه الأيام ، وهي الأيام المعهودة عند الناس ، فأقصر أيام لكواكب يوم القمر ، ومقداره ثمانية وعشرون يوماً مما تعدون ــ **بحث في فلك المنازل** ــ هو في جوف الفلك الأطلس الذي هو السماء ذات البروج كحلقة في فلاة ، وهذا الفلك أرض الجنة ، والأطلس سماؤها ، وبينهما فضاء لا يعلم منتهاه إلا من أعلمه الله ، وعيّن الله في مقعر هذا الفلك ثماني وعشرين منزلة مع ما أضاف إلى هذه الكواكب التي سميت منازل لقطع السيارة فيها ، ولا فرق بينها وبين سائر الكواكب الأخرى التي ليست بمنازل في سيرها ، وفيما يختص به من الأحكام في نزولها الذي ذكرناه في البروج قال تعالى : « والقمر قدرناه منازل » يعني هذه المنازل المعينة في الفلك المكوكب ، وهي كالمنطقة بين الكواكب

من الشرطين إلى الرشا ، وهي تقديرات وفروض في هذا الجسم ، ولا تعرف أعيان هذه المقادير إلا بهذه الكواكب ، كما أنه ما عرفت أنها منازل إلا بنزول السيارة فيها ، ولولا ذلك ما تميزت عن سائر الكواكب إلا بأشخاصها ، وكواكب المنازل تتكون من كوكب واحد كالصرفة ، إلى اثنين كالذراع ، إلى ثلاثة كالبطين والشرطين ، إلى أربعة كالجبهة ، إلى خمسة كالعوالي ، إلى ستة كالدبران ، إلى سبعة كالثريا ، إلى تسعة كالنعائم ، وليس للثمانية وجود في المنازل ، والسيارة لا نزول لها ولا سكون ، بل هي قاطعة أبداً ، وقد يكون مرورها على عين كواكب المنزلة ، وقد يكون فوقها وتحتها ، على الخلاف الذي في حد المنزلة ما هو ، فسميت منزلة مجازاً ، فإن الذي يحل فيها لا استقرار له ، وإنه سابح كما كان قبل وصوله إليها في سباحته ، فراعى المسمي ما يراه البصر من ذلك ، فإنه لا يدرك الحركة ببصره إلا بعد المفارقة ، فبذلك القدر يسميها منزلة ، لأنه حظ البصر فغَلَّبه وجعل الله لكل كوكب من هذه الكواكب قطعاً في الفلك الأطلس ، ليحصل من الخزائن التي في بروجه وبأيدي ملائكته الاثني عشر من علوم التأثير ما تعطيه حقيقة كل كوكب ، وجعلها على طبائع مختلفة ، والنور الذي فيها وفي سائر السيارة من نور الشمس ، وبسباحة هذه الكواكب تحدث أفلاكاً في هذا الفلك أي طرقاً ، وجعل الله في جوف هذا الفلك سبع سموات طباقاً ، أجساماً شفافة ، وجعل في كل سماء منها كوكباً وهي الجواري ، منها القمر في السماء الدنيا ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وجعل إمضاء الأمور التي أودعها السموات في عالم الأركان عند سباحة هذه الجواري ، وجعلهم نواباً متصرفين بأمر الحق لتنفيذ هذه الأمور التي أخذوها من خزائن البروج في السنة بكمالها ، وقدّر لها المنازل المعلومة التي في الفلك المكوكب ، وجعل لها اقترنات وافتراقات ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم ، وجعل الله بين السماء السابعة والفلك المكوكب كراسي عليها صور كصور الثقلين ، وستور مرفوعة بأيدي ملائكة مطهرة ليس لهم إلا مراقبة تلك الصور ، وبأيديهم تلك الستور ، فإذا نظر الملك إلى الصورة قد سمجت وتغيرت عما كانت عليه من الحسن أرسل الستر بينها وبين سائر الصور ، فلا يعرفون ما طرأ ، ولا يزال المَلَك من الله مراقباً تلك الصورة ، فإذا رأى تلك الصورة قد زال عنها ذلك القبح وحسنت رفع الستر فظهرت في أحسن زينة ، وتسبيح تلك الصور وهؤلاء الأرواح الملكية الموكلة بالستور [سبحان من

أظهر الجميل وستر القبيح] وخلق تعالى في كل سماء عالماً من الأرواح والملائكة يعمرونها ، فأما الملائكة فهم السفراء النازلون بمصالح العالم ، وما يحدث عن حركات الكواكب كلها وعن حركة الأطلس لا علم لهؤلاء السفرة بذلك حتى تحدث ، فلكل واحد منهم مقام معلوم لا يتعداه ، وباقي العالم شغلهم التسبيح والصلاة والثناء على الله تعالى ، كل ذلك تقدير من العزيز العليم .

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

الفلك لا يكون إلا مستديراً ، ففي كل سماء فلك وهو الذي تحدثه سباحة كوكب ذلك السماء ، فالكواكب تسبح في أفلاكها ، لكل فلك كوكب ، فعدد الأفلاك بعدد الكواكب ، لذلك قال تعالى : « وكل في فلك يسبحون » والأفلاك لولا سباحة الكواكب ما ظهر لها عين في السموات ، فهي فيها كالطرق في الأرض ، يحدث كونها طريقاً بالماشي فيها ، فهي أرض من حيث عينها ، وطريق من حيث المشي فيها ، ودل ذلك على أن الكواكب السابحة تقطع في الثابتة ، والثابتة والسابحة تقطع في الفلك المحيط ، فدل على أن الكواكب الثابتة تقطع في فلك البروج الأطلس ، والفلك الشيء المستدير ، فالكواكب تقطع في فلك واحد وهو فلك البروج ، ولكل واحد منها فلك يخصه يسبح فيه ، لا يشاركه فيه غيره ، وهكذا كل موجود له طريق يخصه لا يسلك عليها أحد غيره روحاً وطبعاً ، فلا يجتمع اثنان في مزاج واحد أبداً ، ولا يجتمع اثنان في منزلة واحدة أبداً ، فالأمر في جميع المخلوقات وإن جمعهم مقام فإنه يفرقهم مقام ــ **إشارة لا تفسير** ــ « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر » في علو المرتبة والشرف ، فالشمس تشير إلى عالم الشهادة والقمر إلى عالم الغيب ، فإن آية القمر ممحوة عن العالم الظاهر ، وآية الشمس ظاهرة ، فكان ذلك للعارفين تقوية لكتم آياتهم التي أعطاهم الله في بواطنهم وأجراها فيهم .

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا

رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾

اعلم أن الصُور أوجده الله على صورة القرن ، وسمي بالصور من باب تسمية الشيء باسم الشيء ، إذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب ، فإن الروح إذا أعرض عن هذا الجسم الذي كانت حياته به ، تجلى على صورة من الصور الذي هو البرزخ ، وهو بالصاد جمع صورة ، فحييت به تلك الصورة في البرزخ ، فلما كان هذا القرن محلاً لجميع الصور البرزخية التي تنتقل إليها الأرواح بعد الموت وفي النوم ، سمي صوراً جمع صورة ، وشكله شكل القرن أعلاه واسع وأسفله ضيق ، على شكل العالم ، أين سعة العرش من ضيق الأرض ؟ وتنتقل القوى مع الروح إلى تلك الصورة البرزخية نوماً وموتاً ، ولهذا تكون درّاكة بجميع القوى سواء ، ومن هنا زل القائلون بالتناسخ لما رأوا أو سمعوا أن الأنبياء قد نبهت على انتقال الأرواح إلى هذه الصور البرزخية ، وتكون فيها على صورة الأخلاق ، كقوله ﷺ في نسمة المؤمن : إنه طير أخضر ، فرأى أهل التناسخ تلك الأخلاق في الحيوانات ، فتخيلوا في قول الأنبياء والرسل والعلماء أن ذلك راجع إلى هذه الحيوانات التي في الدار الدنيا ، وأنها ترجع إلى التخليص ، وذكروا ما قد علمت من مذهبهم ، فأخطؤوا في النظر وفي تأويل أقوال الرسل وما جاء في ذلك من الكتب المنزلة ، فما أتي عليهم إلا من سوء التأويل في القول الصحيح .

قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

« هذا » لها وجه تعلق إلى « ما »، ووجه إلى « مرقدنا » .

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾

لولا حشر الأجسام في الآخرة لقامت بنفوس الزهاد والعارفين في الآخرة حسرة الفوت ، ولتعذبوا لو كان الاقتصار على الجنات المعنوية لا الحسية ، فخلق الله في الآخرة جنةً حسيةً وجنةً معنوية ، وأباح لهم في الجنة الحسية ما تشتهي أنفسهم ، ورفع عنهم ألم الحاجات ، فشهواتهم كالإرادة من الحق إذا تعلقت بالمراد تكون ، فما أكل أهل السعادة لدفع ألم الجوع ، ولا شربوا لدفع ألم العطش ولما اشتغلوا هنا بالله من حيث ما كلفهم ــ فهم يجزون في الأمور بالميزان الذي حُدَّ لهم ، خائفين من أن يطففوا أو يخسروا الميزان ــ جعل لهم سبحانه الاشتغال في الآخرة بالجنة الحسية لأجسامهم الطبيعية ، والعارفون وغير العارفين في هذه الصورة الحسية على السواء ، ويفوز العارفون بما يزيدون عليه من جنات المعاني ، والاشتغال بالشهوات هنا منع العامة وعلماء الرسوم في الدنيا والآخرة ، وأهل الله معهم من حيث نفوسهم النباتية والحيوانية في هذا الشغل ، وهم مع الله من وجه آخر ، فكما أنه ما حجبهم في الدنيا ما هم عليه من الحاجة إلى الغذاء مع قوة سلطانه في الدنيا لدفع الآلام ، آلام الجوع والعطش والإحساس بأنواع الأشياء المؤلمة ، كذلك لا يحجبهم في الآخرة نعيم الجنان المحسوس عن الله في الاتصاف بأسمائه التي تليق بالدار الآخرة ، لأن لها أسماء لا يعلمها اليوم أحد أصلاً

سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

المجرمون هم الذين يدخلون النار بالاستحقاق خاصة ، بأن يكونوا أهلاً لسكنى هذه الدار التي هي جهنم ، من جن وإنس ، وهم أهلها الذي يعمرونها فلا يخرجون منها أبداً ، ولهذا يقال لهم يوم القيامة « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » أي أهل الاستحقاق الذين يستحقون سكنى هذه الدار ، يمتازون عن الذين يخرجون منها بشفاعة الشافعين وسابق العناية الإلهية في الموحدين إلى الدار الآخرة وهي الجنة ، فإنه ما عدا المجرمين وإن دخلوا النار فلابد أن يخرجوا منها بشفاعة الشافعين ، أو بمنة الله عليهم ، وهم الذين ما عملوا خيراً قط ، وهؤلاء المجرمون أربع طوائف ، كلها في النار لا يخرجون منها ، وهم المتكبرون على الله كفرعون وأمثاله ممن ادعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله ، وكذلك نمروذ وغيره ، والطائفة الثانية المشركون ، وهم الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ، والطائفة الثالثة المعطلة وهم الذين نفوا الإله جملة واحدة فلم يثبتوا إلهاً للعالم ، والطائفة الرابعة المنافقون وهم الذين أظهروا الإسلام من إحدى هذه الطوائف للقهر الذي حكم عليهم ، فخافوا على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، وهم في نفوسهم على ما هم عليه من اعتقاد ، فهؤلاء أربعة أصناف هم الذين هم أهل النار لا يخرجون منها من جن وإنس ، قالت عائشة : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث بالمدينة ، فيعم الهلاك الصالح والطالح ، ويمتازون في القيامة .

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾

كن في كل زمان صاحب علم وعمل ، وهو الذي حرضك الشرع عليه وأمرك به ، وندبك إليه ، فاسع في نجاة نفسك ونجاة رعيتك بتمشيتهم على الطريقة الواضحة الشرعية ، فإن الله تعالى يقيمهم يوم القيامة شهداء لك بالعدل وحسن النقيبة والسيرة والمعاشرة ، وإن عدلت بهم إلى طريق المخالفات والمحظورات انعكس عليك ، وأوقفهم الحق يوم القيامة شهداء عليك بقبح السيرة وسوء المعاشرة ، فالجوارح شاهد مُصَدَّق يوم القيامة لمن تشهد عليه أو له ، فإن الجسم الذي تولدت عنه النفس الناطقة له من الحق أنها ما دامت مدبرة له لا تحرك جوارحه إلا في طاعة الله تعالى ، في الأماكن والأحوال التي عيّنها الله على لسان الشارع لها ، فهذا ما يستحقه الجسم على النفس الناطقة لما له عليها من حق الولادة ، فمن النفوس من هو ابن بار فيسمع لأبويه ويطيع ، وفي رضاهما رضى الله ، ومن النفوس ما هو ابن عاق فلا يسمع ولا يطيع ، فالجسم لا يأمر النفس إلا بخير ، ولهذا يشهد على ابنه يوم القيامة جلود الجسم وجميع جوارحه ، فإن هذا الابن قهرها وصرفها حيث يهوى ، فلولا شهادة المرء على نفسه بما شهدت به جلوده وجوارحه ما ثبت كتاب ولا كان حكم ، وما عذب من اعترف ، فإن الكرم الإلهي لا يقتضيه ، والجوارح رعية ما هي الوالي فشكت الوالي .

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

« وما علمناه الشعر » لأنه أُرسِل مبيّناً مفصّلاً ، والشعر من الشعور ، فمحله الإجمال لا التفصيل وهو خلاف البيان ، وقال تعالى : « وما علمناه الشعر » لقولهم هو شاعر ، فإن الشعر محل الإجمال والرموز والألغاز والتورية ، أي ما رمزنا له شيئاً ولا لغزناه ، ولا خاطبناه بشيء ونحن نريد شيئاً آخر ، ولا أجملنا له الخطاب ، لأنه تعالى بعثه بالبيان الشافي ، ووضع الشعر ليس على هذا البناء ، وإن كان يقع فيه البيان « وما ينبغي له إن هو » يعني هذا الذي

بعثناه به « إلا ذكر » لأنه أخذه عن مجالسة من الحق لما شاهده ، حين جذبناه وغيبناه عنه وأحضرناه بنا عندنا ، فكنا سمعه وبصره ، ثم رددناه إليكم لتهتدوا به في ظلمات الجهل والكون ، فكنا لسانه الذي يخاطبكم به ، ثم أنزلنا عليه مُذكّراً يذكره بما شاهده ، فهو ذكر له لذلك « وقرآن » أي جمع أشياء كان شاهدها عندنا « مبين » أي ظاهر له ، ما فيه لغز ولا رمز كما هو في الشعر ، فهو مفصَّلٌ ، في عين الجمع ، لعلمه بأصل ما شاهده وعاينه في ذلك التقريب الأنزه الأقدس الذي نال منه ﷺ ، فما أخذه عن شعور ، فإنه كل ما عيّنه صاحب الشعور في المشعور به فإنه حدس ـــ ولو وافق الأمر ويكون علماً ـــ فما هو على بصيرة ، وهذا هو الفرق بين العلم والشعور ، فحظ الشعور من العلم أن تعلم أن خلف الباب أمراً ما على الجملة ، لا يعلم ما هو ، وأما العلم فلا يكون حصوله إلا عن كشف بعد فتح الباب ، يعطيه الجود الإلهي ويبديه ويوضحه .

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٧٠)

المستغرقون بهذه الدار الدنيا أموات غير أحياء وما يشعرون ، والمؤمنون قد تهيؤوا للحياة فلابستهم ، فانسحب عليهم اسم الحياة وإن لم يتحققوا بها ، ولذلك وعدوا مهلة بسوف والسين ، قال سبحانه وتعالى : (فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) فبملابسة الحياة يسمعون من النبي ﷺ لأنه قد صار حياة محضة لا موت فيها ، وحكمة الله جارية بالمناسبة ، فلا يسمع من الحي إلا حي ، ولذلك قيل له ﷺ « لتنذر من كان حياً » وقيل له (إنك لا تسمع الموتى) وقيل له (وما أنت بمسمع من في القبور) وقد نادى قتلى مشركي بدر وأخبر أنهم يسمعون قوله ، فمن لابسته الحياة سمع من الحي وأسمع الميت ، لأنه بجزئه الحي ناسب الحي فاستمد منه ، وبجزئه الميت ناسب الميت فأمده .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ (٧١)

زاد الله في تشريف خلق آدم عليه السلام باليدين قوله معرفاً الأناسي الحيوانيين بكمال الأناسي المكملين « أو لم يروا » الضمير في يروا يعود على الأناسي الحيوانيين ، « أنا خلقنا لهم » أي من أجلهم ، الضمير في « لهم » يعود على الأناسي الكمل المقصودين من العالم بالخطاب

الإلهي « مما عملت أيدينا » والأيدي ليست سوى أيدي الأسباب ، فهي إضافة تشريف ، لا بل تحقيق ، يقال : ضرب الأمير اللص ، وقطع الأمير يد السارق ، وإنما وقع القطع من يد بعض الوزعة ، والأمر بالقطع من الأمير ، فنسب القطع إلى الأمير ، فأضاف هنا عمل الخلق إلى الأيدي الإلهية وعمَّ الأسماء الإلهية بالنون من أيدينا ، وذلك لتمام التشريف الذي شرف به آدم عليه السلام في إضافة خلقه إلى يديه « أنعاماً » وهي من إنعامه عليهم « فهم لها مالكون » فملكوها بتمليك الله ، بخلاف الإنسان الحيواني ، فإنه يملكها عند نفسه بنفسه ، غافلاً عن إنعام الله عليه بذلك ، فيتصرف في المخلوقات الإنسان الحيوان بحكم التبعية ، ويتصرف الإنسان الكامل فيها بحكم التمليك الإلهي ، فتصرفه فيها بيد الله ، فكل مخلوق في العالم فمضاف خلقه إلى يد إلهية ، لأنه قال : « مما عملت أيدينا » فجمع كل يد خالقة في العالم ، فهي يده ، يد ملك وتصريف .

وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

اختص الحيوان في هذه الآية ، بالإذلال لظهور حكم القصد فيه ، ولأنه مستعد للإباية لما هو عليه من الإرادة ، فلما توجه عليه الاسم المذل صار حكمه تحت حكم من لا إرادة له ولا قدرة ، لما تعطي هاتان الصفتان من العز لمن قامتا به ، فالحيوان مُسَخَّر بطريق الإذلال لحمل الأثقال ، أثقال الإنسان وركوبه واستخدامه إياها في مصالحه . واعلم أن البهائم وإن كانت مسخرة مذللة من الله للإنسان ، فلا تغفل عن كونك مسخراً لها بما تقوم به من النظر في مصالحها ، في سقيها وعلفها ، وما يصلح لها من تنظيف أماكنها ، ومباشرة القاذورات والأزبال من أجلها ، ووقايتها من الحر والبرد المؤذيات لها ، فهذا وأمثاله من كون الحق سخرك لها ، وجعل في نفسك الحاجة إليها ، فلا فضل لك عليها بالتسخير ، فإن الله أحوجك إليها أكثر مما أحوجها إليك ، وجعل فيك الحاجة إليها ، وجميع البهائم تفر منك ممن لها آلة الفرار ، وما هذا إلا لاستغنائها عنك ، وما جبلت عليه من العلم بأنك ضار لها ، ثم طلبك لها وبذل مجهودك في تحصيل شيء منها دليل على افتقارك إليها ، فبالله من تكون البهائم أغنى منه كيف

يحصل في نفسه أنه أفضل منها ؟! فوالله ما يعرف الأمور إلا من شهدها ذوقاً وعاينها ، قال رسول الله ﷺ : [لو تعلم البهائم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً] فانظر في تنبيهه ﷺ على حسن استعدادهم وسوء استعدادنا ، حتى أنه من كان بهذه المثابة من الفكرة من الموت فغايته أن يحصل له استعداد البهائم ، وهو ثناء على من حصل في هذا المقام وارتفاع في حقه ، وكيف ينظر البهائم دون الإنسان في الاحتقار ، وغاية الثناء عليك من الله أن تشاركها في صفتها

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

« فهو خصيم مبين » أي بيّن الخصومة ظاهر بها ، وذلك لدعواه في الربوبية ، وما خلقه الله إلا عبداً ، فلا يتجاوز قدره ، فنازع ربه في ربوبيته ، وما نازعه مخلوق إلا هو ، ووصف خصومته بالإبانة ، فإنه ما من خصام يكون من مخلوق في أمر ما ـــ خلاف دعوى الربوبية ـــ إلا وهو ممكن أن الحق بيده في ذلك ، ويخفى على السامع والحاكم ، فلا يدري هل الحق معه أو مع خصمه ؟ وهل هو صادق في دعواه أو هو كاذب ؟ للاحتمال المتطرق في ذلك ، إلا دعواه في الربوبية فإنه يعلم من نفسه ويعلم كل سامع من خلق الله أنه كاذب في دعواه ، وأنه عبد ، ولذلك خلقه الله ، فلهذا قيل فيه « خصيم مبين » أي ظاهر الظلم في خصومته ، فمن نازع ربه في ربوبيته كيف يكون حاله ؟ ثم إن هذا الإنسان ليته يسعى في ذلك في حق نفسه ، فإنه يعلم من نفسه أنه ليس له حظ في الربوبية ، ثم يعترف بالربوبية لخلق من خلق الله ، من حجر أو نبات أو حيوان أو إنسان مثله أو جان أو ملك أو كوكب ، فإنه ما بقي صنف من المخلوقات إلا وقد عُبِد منه ، وما عبده إلا الإنسان الحيوان ، فأشقى الناس من باع آخرته بدنيا غيره ، ومن هلك فيما لا يحصل بيده منه شيء ، فيشهد على نفسه أنه أجهل الناس بغيره ، وأعلم الناس بنفسه ، لأنه ما ادعاها لنفسه ، ومن ادعاها لنفسه فإنما استخف قومه ، فجميع المخلوقات عبدوا الله إلا بعض الناس ، فالإنسان ألد الخصام ،

حيث خاصم فيما هو ظاهر الظلم فيه ، وليس إلا الربوبية ، وهل رأيتم عبداً يخاصم ربه إلا إذا خرج عن عبوديته وزاحم سيده في ربوبيته ؟

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

« إنما أمره » الأمر أمران : أمر بواسطة ، وأمر برفع الوسائط ، فأمره سبحانه برفع الوسائط لا يُتَصَوّر أن يُعْصَى ، لأنه بكن ، إذ كن لا تقال إلا لمن هو موصوف بلم يكن ، وما هو موصوف بلم يكن ما يتصور منه الإباية ، وإذا كان الأمر الإلهي بالواسطة فلا يكون بكن ، فإنها من خصائص الأمر العدمي الذي لا يكون بواسطة ، وإنما يكون الأمر بما يدل على الفعل ، فيؤمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فيقال له : أقم الصلاة ، وآت الزكاة ، فاشتق له من اسم الفعل اسم الأمر ، فيطيعه مَنْ شاء منهم ويعصيه مَنْ شاء منهم ، والإنسان لا يقدر على رفع ما تكون في نفسه ، فإن كن إنما تعلقت بما تكون في نفس الإنسان ، فكان الحكم لما تكون فيمن تكون ، فآمن ولابد ، أو صلى ولابد ، أو صام ولابد ، على حسب ما تعطيه حقيقة الأمر الذي تعلق به كن ، وقد يرد أمر الواسطة ولا يرد الأمر الإلهي ، فلا يجد المخاطب آلة يفعل بها ، فيظهر كأنه عاص ، وإنما هو عاجز فاقد في الحقيقة ، لأنه ما تكون فيه ما أمر به أن يتكون عنه ، فلا أطوع من الخلق لأوامر الحق ، أي لقبول ما أمر الحق بتكوينه فيه ، ولكن لا يشعرون ، وليست الأوامر التي أَوْجَبْنا طاعتها ، إلا الأوامر الإلهية ، لا الأوامر الواردة على ألسنة الرسل ، فإن الآمر من الخلق طائع فيما أمر ، لأنه لو لم يؤمر بأن يأمر ما أمر ، فلو أن الذي أمره يسمع المأمور بذلك الأمر أمره لامتثل ،

فإن أمر الله لا يُعصَى إذا ورد بغير الوسائط ، فالأمر الإلهي لا يخالف الإرادة الإلهية ، فإنها داخلة في حَدِّه وحقيقته ، وإنما وقع الالتباس من تسميتهم صيغة الأمر – وليست بأمر – أمراً ، والصيغة مرادة بلا شك ، فأوامر الحق إذا وردت على ألسنة المبلغين فهي صيغ الأوامر لا الأوامر ، فتُعصَى ، وقد يأمر الآمر بما لا يريد وقوع المأمور به ، فما عصى أحد قط أمر الله « إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » لم يكن للأعيان في حال عدمها شيء من النسب إلا السمع ، فكانت الأعيان مستعدة في ذواتها في حال عدمها لقبول الأمر الإلهي إذا ورد عليها بالوجود ، فلما أراد بها الوجود قال لها « كن » فكانت وظهرت في أعيانها ، فكان الكلام الإلهي أول شيء أدركته من الله تعالى ، بالكلام الذي يليق به سبحانه ، والأصل ثبوت العين لا وجودها ، ولم تزل بهذا النعت موصوفة ، وبقبولها سماع الخطاب إذا خوطبت منعوتة ، فهي مستعدة لقبول نعت الوجود ، مسارعة لمشاهدة المعبود ، فلما قال لها في حال عدمها « كن » كانت ، فبانت بنفسها وما بانت – **بحث** – السماع الإلهي هو أول مراتب الكون ، وبه يقع الختام ، فأول وجود الكون بالسماع ، وآخر انتهائه من الحق السماع ، ويستمر النعيم في أهل النعيم والعذاب في أهل العذاب ، فأما في ابتداء كون كل مكوَّن فإنما ظهر عن قول كن ، فأسمعه الله فامتثل ، فظهر عينه في الوجود وكان عدماً ، فسبحان العالم بحال مَنْ قال له : كن فكان ، فأول شيء ناله الممكن مرتبة السماع الإلهي ، فإن كن صفة قول ، قال تعالى : (إنما قولنا) والسماع متعلقه القول . وأما في الانتهاء في حق الكفار (اخسئوا فيها ولا تكلمون) فخاطبهم وهم يسمعون ، وأما في حق أهل الجنة فبعد الرؤية والتجلي الذي هو أعظم النعم عندهم في علمهم ، فيقول : [هل بقي لكم شيء ؟ فيقولون : يا ربنا وأي شيء بقي لنا ؟ نجيتنا من النار ، وأدخلتنا الجنة ، وملكتنا هذا الملك ، ورفعت الحجاب بيننا وبينك فرأيناك ، وأي شيء بقي يكون عندنا أعظم مما نلناه ؟ فيقول سبحانه : رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً] فأخبرهم بالرضا ودوامه وهم يسمعون ، فذلك أعظم نعيم وجدوه ، فختم بالسماع كما بدأ ، ثم استصحبهم السماع دائماً ما بين بداياتهم وغاية مراتب نعيمهم ، فطوبى لمن كانت له أذن واعية لما يورده الحق في خطابه .

فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٣٧) سورة الصافات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴿١﴾

أقسم الله تعالى بالملائكة التي تصف عند الله تعالى ، فقال : « والصافات صفاً » وهم الملائكة عمّار السماء الرابعة ، أوْ هم أصناف الملائكة التي أسكنها الله الأفلاك المستديرات ، فهي الصافات التاليات ، فمنها القائمات والقاعدات ، ومنها الراكعات الساجدات ، كما قال تعالى إخباراً عنهم (وما منا إلا له مقام معلوم) فهم عمار السموات .

فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾

وهم من الملائكة المسخرات الموكلين بالأرجاء وهم الملائكة عمّار الهواء .

فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾

والتاليات يتلو بعضها بعضاً ، فالرسالة يتلو بعضها بعضاً ، وهم الملائكة عمّار فلك الثوابت ، وكلُّ هؤلاء أنبياء ملكيون عبدوا الله بما وصفهم به فهم في مقامهم لا يبرحون .

إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾

فلك الكواكب الثابتة هو أكبر فلك يقطع في الفلك الأطلس ، وإنما سميت الكواكب ثابتة لأن الأعمار لا تدرك حركتها لقصر الأعمار ، لأن كل كوكب منها يقطع الدرجة من الفلك الأقصى في مائة سنة ، فيحسب ثلثمائة وستين درجة ، كل درجة مائة سنة ، ولما فتق

الله السموات من رتقها ودارت ، كانت شفافة في ذاتها وجرمها حتى لا تكون ستراً لما وراءها ، فأدركنا بالأبصار ما في الفلك الثامن وهو فلك الكواكب الثابتة ، فيتخيل أنها في السماء الدنيا لأن البصر لا يدركها إلَّا فيها ، فوقع الخطاب بحسب ما تعطيه الرؤية .

وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ وهو أعظم الشياطين .

لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾

كل ما تولد من نور فهو الملأ الأعلى ، وكل ما تولد من الطبيعة فهو الملأ الأسفل ، وأكمل العالم مَنْ جمع بينهما ، وهو البرزخ الذي بجهاته ميزهما أو بجمعيته ميزهما بالعلو والسفل .

دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

« فأتبعه شهاب ثاقب » فيعطي الضوء العظيم الذي تراه في أثره ، ويبقي ذلك الضوء في أثره طريقاً ، والشهب هي ذوات الأذناب تبدو لسرعة اندفاعها من الأثير الذي هو هواء محترق لا مشتعل ، وهو متصل بالهواء ، فإذا اتصل الأثير بالهواء بسرعة تحرك ذوات الأذناب ، أثرت في أجزاء الهواء الرطبة اشتعالاً ، فبدت الكواكب ذوات الأذناب ، وذلك لسرعة اندفاعها تظهر في رأي العين تلك الأذناب .

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ

ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

هذا هو التوحيد السادس والعشرون في القرآن ، وهو توحيد التعّجب ، وهو توحيد الله لا الهوية ، فقوله « يستكبرون » أي يستعظمون ذلك ويتعجبون منه ، فقالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) أي الكثرة في عين الواحد ، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، فما أنكروه ولا ردوه بل استعظموه واستكبروه ، وتعجبوا كيف تكون الأشياء شيئاً واحداً ؟ واستكبروا مثل هذا الكلام من مثل هذا الشخص ، حيث علموا أنه منهم وما شاهد إلا ما شاهدوه ، فمن أين له هذا الذي ادعاه ؟ فحجبهم الحس عن معرفة الاختصاص الإلهي .

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾

فبالحياء قصر الطرف ، فهن قاصرات الطرف ، فلا يشاهدن في نظرهن أحسن من أزواجهن .

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾

هذه قصة الرجلين اللذين ذكرهما الله في سورة الكهف المضروب بهما المثل ، وهو قوله تعالى : (واضرب لهم مثلاً رجلين) إلى آخر الآيات في قصتهما في الدنيا ، وذكر في الصافات حديثهما في الآخرة في قوله تعالى : « قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أءِنّك لمن المصدقين » وفيها ذكر المعاتبة وفي قوله : « تالله إن كدت لتردين » لما اطلع فرآه في سواء الجحيم ، وهو قوله : (ما أظن الساعة قائمة) فاعلم وفقنا الله وإياك أن درجات الجنة على عدد دركات النار ، فما من درج إلا ويقابله درك من النار ، وذلك أن الأمر والنهي لا يخلو الإنسان إما أن يعمل بالأمر أو لا يعمل ، فإذا عمل به كانت له درجة في الجنة معينة لذلك العمل خاصة ، وفي موازنة هذه الدرجة المخصوصة لهذا العمل الخاص إذا تركه الإنسان درك في النار ، لو سقطت حصاة من تلك الدرجة من الجنة لوقعت على خط استواء في ذلك

الدرك من النار ، فإذا سقط الإنسان من العمل بما أمر فلم يعمل ، كان ذلك الترك لذلك العمل عين سقوطه إلى ذلك الدرك ، قال تعالى : « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » فالاطلاع على الشيء من أعلى إلى أسفل ، والسواء حد الموازنة على الاعتدال ، فما رآه إلا في ذلك الدرك الذي في موازنة درجته ، فإن العمل الذي نال به هذا الشخص تلك الدرجة تركه هذا الشخص الآخر الذي كان قرينه في الدنيا بعينه .

قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾

معاتبة على قوله له في الدنيا (ما أظن الساعة قائمة) .

وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾

ــ **نصيحة** ــ لا تصاحب أحداً إلا من ترى معه الزيادة في دينك ، فإن نقص منه فاهرب منه كهروبك من الأسد بل أشد ، فإن الأسد يهدم دنياك فيعطيك الدرجات ، وقرين السوء يحرمك الدنيا والآخرة .

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾

اعلم أن أحداً لا يؤاخذه على ما جناه سوى ما جناه ، فهو الذي آخذ نفسه ، فلا يلومن إلا نفسه ، ومن اتقى مثل هذا فقد فاز فوزاً عظيماً .

لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

إذ ولابد من إضافة العمل إلينا ، فإن الله أضاف الأعمال إلينا ، وعيّن لنا محالها وأماكنها وأزمنتها وأحوالها ، وأمرنا بها وجوباً وندباً وتخييراً ، كما أنه نهانا عز وجل عن أعمال معينة عيّن لها محالها وأماكنها وأزمانها وأحوالها ، تحريماً وتنزيهاً ، وجعل لذلك كله جزاء بحساب

وبغير حساب ، من أمور ملذة وأمور مؤلمة ، دنياً وآخرة ، وخلقنا وخلق فينا من يطلب الجزاء الملذ وينفر بالطبع عن الجزاء المؤلم .

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾

ما ذكر الله تعالى في القرآن إلا ثمرات الجنة ، فإنه جعلها منزل موافقة ، وذكر الشجرة في النار فقال : « إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم » فإنها دار نزاع وتشاجر .

طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾

أهل النار يجوعون ويظمئون ، لأن المقصود منهم أن يتألموا ، فإنهم في دار بلاء فيأكلون عن جوع ويشربون عن عطش .

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ

مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾

إشارة إلى حكمة علوية صدرت من الاسم الحكيم .

فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾

وقع التوبيخ بهذه الآية ، وأخذوا بجهلهم حيث عبدوا من يعلمون أنه ليس بفاعل ، فإن إضافة الفعل إلى المخلوقين فيه إشكال ولَبس ، وإن كانت القدرة التي للمخلوقين ذوي الأفعال لا تزيد على قدرة العابد إياهم ، فهي قاصرة عن سريانها في جميع الأفعال ، فإن القدرة الحادثة لا تخلق المتحيّزات من أعيان الجواهر والأجسام ، فعبدوا مَنْ لم يخلق أعيانهم ، ولهذا وبخهم بقوله تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) وبهذا القدر أُخذ عبدة المخلوقين ذوي الأفعال .

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

رد الحق كل صورة في العالم تظهر عن الأسباب المنشئة لها إلى نفسه في الخلق ، فقال في كل عامل « والله خلقكم وما تعملون » فهو خالقك وخالق ما أضاف عمله إليك ، فأنت العامل لا العامل ، كما قال : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) والعمل ليس لجسم

الإنسان بما هو جسم ، وإنما العمل فيه لقواه ، وقد أخبر أن العمل الذي يظهر من الإنسان المضاف إليه أنه لله خَلْق ، فالأعمال خلق لله مع كونها منسوبة إلينا ، فلم ينسبها إليه من جميع الوجوه ، وأضاف العمل إلينا بهذا الحكم مع كون ذلك العمل خلقاً له وإبداعاً ، ومن ذلك تعْلَم أن ظاهر الشريعة ستر على حقيقة حكم التوحيد بنسبة كل شيء إلى الله ، فأنت مكلَّف من حيث وجود عينك ، محلٌ للخطاب ، وهو العامل بك من حيث أنه لا فعل لك ، إذ الحدث لا أثر له في عين الفعل ، ولكن له حكم في الفعل ، إذ كان ما كلفه الحق من حركة وسكون لا يعمله الحق إلا بوجود المتحرك والساكن ، فإن الحق تعالى عن الحركة والسكون أو يكون محلاً لتأثيره في نفسه ، فقوله تعالى : « وما تعملون » أثبت بالضمير ، ونفى بالفعل الذي هو خَلَق ، أي خلق ما تعملون ، فالعمل لك والخلق لله ، فنسب العمل إليهم وإيجاده لله تعالى ، فإن أفعال العباد وإن ظهرت منهم لولا الله ما ظهر لهم فعل أصلاً ، والخلق قد يكون بمعنى الإيجاد ويكون بمعنى التقدير ، كما أنه قد يكون بمعنى الفعل ، وما أضاف الحق إليه تعالى عين ما أضافه إليك إلا لتعلم أن الأمر الواحد له وجوهٌ ، فمن حيث ما هو عمل أضافه إليك ويجازيك عليه ، ومن حيث هو خلق هو لله تعالى ، فالعمل لك والخلق لله ، وبين الخلق والعمل فرقان في المعنى واللفظ ، فنسب الله الفعل للعبد ونسب الناس الفعل للمخلوق ، وإن كان الحق أصاره إلى ذلك فصار ، فنسبة صار تجعل الفعل للعبد ، ونسبة أصار تجعل الفعل لله ، وظهور الفعل من العبد المخلوق بالاختيار والقصد والمباشرة حقيقة مشهودة للبصر ، والفعل من المخلوق من كون الحق أصاره إلى ذلك فكان له كالآلة للفاعل ، والآلة هي المباشرة للفعل ، وينسب الفعل لغير الآلة بصراً وعقلاً ، وبهذا القدر تعلق الجزاء والتكليف لوجود الاختيار من الآلة ، وهي مسئلة دقيقة في غاية الغموض ، ولا دليل في العقل يخرج الفعل عن العبد ، ولا جاء به نص من الشارع لا يحتمل التأويل ، فالأفعال من المخلوقين مقدرة من الله ، ووجود أسبابها كلها بالأصالة من الله ، وليس للعبد ولا لمخلوق فيها بالأصالة مدخل إلا من حيث ما هو مظهر لها ، ومظهر اسم فاعل واسم مفعول ، فما عمل أحد إلا ما أهّل له ، ممن كبّره أو هلله ، وما هو إلا من حيث أنه محل لظهوره ، وفتيلة لسراجه ونوره ، يقول الله تعالى : (فأجره حتى يسمع كلام الله) ويقول وهو القائل على لسان عبده : [سمع الله لمن حمده] ويقول : [كنت سمعه الذي يسمع به

وبصره ولسانه ويده ورجله وغير ذلك] قولاً شافياً ، لأنه ذكر أحكامها فقال : [الذي يبطش بها ويسعى بها ويتكلم به ويسمع به ويبصر به ويعلم] ومعلوم أنه يسمع بسمعه أو بذاته يسمع ، وعلى كل حال فجعل الحق هويته عين سمع عبده وبصره ويده وغير ذلك ، والمَلَكُ مع علمه بذلك يقول : (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) والجن يقول : (أنا خير منه) والرسول يقول : (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به) ومن الناس من يقول : (أئنا لمردودون في الحافرة) والسموات والأرض والجبال تأبى وتشفق من حمل الأمانة وتقول : (أتينا طائعين) وقال الهدهد : (أحطت) علماً (بما لم تحط به) وقالت نملة : (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده) وقال الله : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) وقالت الجلود : (أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) وقال : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) فما ترك شيئاً من المخلوقات إلا وأضاف الفعل إليه ، فما في العالم إلا مَنْ نسب الفعل إليه ، أي إلى نفسه ، مع علم العلماء بالله أن الفعل لله لا لغيره ، والله يقول : « والله خلقكم وما تعملون » فأضاف العمل إليهم وهو خالقه وموجده ، أعني العمل ، فهذه المسئلة لا يتخلص فيها توحيد أصلاً ، لا من جهة الكشف ولا من جهة الخبر ، فالأمر مربوط بين حق وخلق ، وما ثَمَّ عقل يدلّ على خلاف هذا ، ولا خبر إلهي في شريعة تخلص الفعل من جميع الجهات إلى أحد الجانبين ، **وما ثَمَّ إلا كشف وشرع وعقل** ، وهذه الثلاثة ما خلصت شيئاً ولا يخلص أبداً دنياً ولا آخرة ـــ **من باب الإشارة لا التفسير** ـــ قال أهل الإشارة « ما » هنا نافية . فمن كرم الله سبحانه وتعالى أن يخلق في عباده طاعته ويثني عليهم بأنهم أطاعوا الله ورسوله ، وما بأيديهم من الطاعة شيء ، غير أنهم محل لها ، فمن كرمه أنه أثنى عليهم بخلق هذه الصفات والأفعال فيهم ومنهم ، ثم أثنى عليهم بأن أضاف ذلك كله إليهم ، إذ كانوا محلاً للصفات المحمودة شرعاً ، فهذه أعظم آية وردت في ثبوت الحيرة في العالم ، فمن وقف مع المقالة المشروعة وجعل لها الحكم على ما أعطاه النظر العقلي من نقيض ما دل عليه الشرع ، فذلك السالم الناجي ، ومن زاد على الوقوف العمل بالتقوى ، جعل الله له فرقاناً يفرق به بين أصحاب النحل والملل وما تعطيه الأدلة العقلية ، التي تزيل حكم الشرع عند القائل بها ، فيتأولها ليردها إلى دليل عقله ، فهو على خطر وإن أصاب ، فعليك بفرقان التقوى فإنه عن شهود وصحة وجود ـــ **لطيفة** ـــ « والله خلقكم وما

تعملون » فهو العامل ، فالعارف يبذل المجهود وهو على بينة من ربه أن الله هو العامل لما هو العبد له عامل ، ولولا ذلك ما كان التكليف ، فلابد من نسبة في العمل للعبد ، فالنسبة إلى الخلق والعمل للحق ، فهو تشريف ، أعني إضافة العمل إليه ، سواء شعر بذلك العبد أو لم يشعر . واعلم أنه ما من عمل إلا وهو أمر وجودي ، وما من أمر وجودي إلا وهو دلالة على وجود الله وتوحيده ، سواء كان ذلك الأمر مذموماً عرفاً وشرعاً أو محموداً عرفاً وشرعاً ، والتوحيد المؤثر في إزالة حكم الشريعة كمن ينسب الأفعال كلها إلى الله من جميع الوجوه ، فلا يبالي فيما يظهر عليه من مخالفة أو موافقة ، فمثل هذا التوحيد يجب التنزيه منه لظهور هذا الأثر ، فإنه خرق للشريعة ورفع لحكم الله ، فالأعمال خلق لله مع كونها منسوبة إلينا ، فلم تنسب إليه من كل الوجوه ، فإن الله تعالى خلق الأفعال كلها ، ثم قسمها إلى محمود ومذموم ، فانظر حيث يقيمك ، فإن أقامك في مذموم فاعلم أنك في الوقت ممقوت ، فاستدرك بالإزالة والتفرغ والإنابة ، وإذا أقامك في محمود فاعلم أنك في الوقت محبوب ، فإن فعلت ما لا يرضي الحق منك فارجع على نفسك بالمذمة والتقصير ، فأنت مأجور في هذه الشركة ، بل هو حقيقة التوحيد ، فإن توحيداً بغير أدب ليس بتوحيد ، فإن لم تر العيب من نفسك ، ولا رجعت عليها بالذم ، ولا ندمت على فعلك ، لم يصح لك توبة ، وإذا لم تتب لم تكن محبوباً ولا تنفعك تلك الحقيقة في الدنيا ولا في الآخرة ـ **إشارة** ـ كما أن الإنسان إذا ترك ما للناس عند الناس أحبه الناس ، كذلك إذا تركت ما لله عند الله ولم تطمع فيه ، ولا أضفت شيئاً إلى نفسك من جميع أفعالك ، كنت على الحقيقة زاهداً وعلى التوحيد راشداً .

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ

ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

اعلم أن رؤيا الأنبياء وحي ، ولكنه إذا رأى صاحب الرؤيا سواء كان نبياً أو غير نبي الأمر كما هو في نفسه فليس بحلم ، وإنما ذلك كشف لا حلم ، سواء كان في نوم أو يقظة ، كما أن الحلم قد يكون في اليقظة كما هو في النوم ، كصورة دحية التي ظهر بها جبريل عليه السلام في اليقظة ، فدخلها التأويل ، ولا يدخل التأويل النصوص ، فالحلم في النوم يفسد المعنى عن صورته ، لأنه ألحقه بالحس وليس بمحسوس حتى يراه من لا علم له بأصله فيحكم عليه بما رآه من الصورة التي رآه عليها ، ويجيء العارف بذلك فيعبر تلك الصورة إلى المعنى الذي جاءت له وظهر بها ، فيردها إلى أصلها ، كما أفسد الحلم العلم فأظهره في صورة اللبن وليس بلبن ، فرده رسول الله ﷺ بتأويل رؤياه إلى أصله وهو العلم ، فجرد عنه تلك الصورة ، كذلك قول إبراهيم لابنه وقد رأى أنه يذبح ابنه ، فأخذ بالظاهر على أن الأمر كما رآه ، وما كان إلا الكبش ، وهو الذبح العظيم ظهر في صورة ابنه ، فرأى أنه يذبح ابنه فذبح الكبش ، فهو تأويل رؤياه على غير علم منه قال إبراهيم عليه السلام لابنه « إني أرى في المنام أني أذبحك » والمنام حضرة الخيال ، فلم يعبرها وكان كبشاً ظهر في صورة ابن إبراهيم عليه السلام في المنام ، فصدق إبراهيم الرؤيا ، لأن الأنبياء يُعْطَوْنَ العلم في مرائيهم ، العلم في نفس الرؤيا ، فيَستَغْنون عن التأويل لوجود النص في الخطاب البرزخي ، ولذلك لم يحتج إبراهيم إلى تأويل ، بل قال : « إني أرى في المنام أني أذبحك » ولذلك قال تعالى : (وفديناه) يعني تلك الصورة ، وهي ابنه التي رآها إبراهيم عليه السلام ، ولما بشر إبراهيم عليه السلام في إجابة دعائه في قوله : (رب هب لي من الصالحين) ابتلي فيما بُشِّر به لأنه سأل من الله سواه ، والله غيور ، فابتلاه بذبحه وهو أشد عليه من ابتلائه بنفسه ، وذلك أنه ليس له في نفسه منازع سوى نفسه ، فبأدنى خاطر يردها فيقل جهاده ، وابتلاؤه بذبح ابنه ليس كذلك ، لكثرة المنازعين فيه ، فيكون جهاده أقوى ، ولما ابتلي بذبح ما سأله من ربه ، وتحقق نسبة الابتلاء وصار بحكم الواقعة ، فكأنه قد ذبح وإن كان حياً ، بُشِّر بإسحاق عليه السلام من غير سؤال ، فجمع له بين الفداء وبين البدل مع بقاء المبدل منه ، فجمع له بين الكسب والوهب ، فالذِبْحُ مكسوب من جهة السؤال وموهوب من جهة الفداء ، فإن فداءه لم يكن

مسؤولاً ، وإسحاق موهوب ، فلما كان إسماعيل قد جمع له بين الكسب والوهب في العطاء ، فكان مكسوباً موهوباً لأبيه فكانت حقيقة كاملة ، لذلك كان محمد ﷺ في صلبه ، فكانت في شريعتنا ضحايانا فداء لنا من النار .

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ــ **إشارة** ــ اتخذ إبراهيم عليه السلام ابنه قُرباناً ، ليصح كرمه حقيقة وبرهاناً ، فإنه قصد قرى الواحد المالك ، وذلك أنه لما نزل إلى قلبه ، تعينت عليه ضيافة ربه ، ولم يضفه بنفسه دون غيره ، لأنه لم يكن له فيها منازعون ينازعونه ، فإن نفسه لم يكن له فيها منازع ، وأما الولد فكانت أمه تنازعه فيه ، والنفس تنازع فيه من نسبة الأبوة ، والعجلة من الشيطان إلا في خمسة ، منها تقديم الطعام للضيف ، لذا بادر إبراهيم إلى ضيافة ربه بولده .

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وما قال له : صدقت في الرؤيا أنه ابنك ، لأنه ما عبّرها ، بل أخذ بظاهر ما رأى ، والرؤيا تطلب التعبير ، فلو صدق في الرؤيا لذبح ابنه ، وإنما صدق الرؤيا في أن ذلك عين ولده ، وما كان عند الله إلا الذبح العظيم في صورة ولده .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾

أي الاختبار المبين ، أي الظاهر ، ويعني الاختبار في العلم ، هل يعلم ما يقتضيه موطن الرؤيا من التعبير أم لا ؟ لأنه يعلم أن موطن الخيال يطلب التعبير ، فما وفّى الموطن حقه وصدّق الرؤيا ، وكل عذاب في الدنيا يكون بلاء ، إذ كانت دار اختبار .

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

« وفديناه » من أسر الهلاك يعني تلك الصورة وهي ابنه التي رآها إبراهيم عليه السلام « بذبح عظيم » وهو الكبش ففداه ربه بالذبح العظيم الذي هو تعبير رؤيا إبراهيم عليه السلام

عند الله وهو لا يشعر ، فالتجلي الصوري في حضرة الخيال يحتاج إلى علم آخر ، فجعل الله الكبش قيمة روح نبي مكرم ، وعظّمه وجعله فداء ولد إبراهيم ، نبي ابن نبي ، فليس في الحيوان بهذا الاعتبار أرفع درجة من الغنم ، وهي ضحايا هذه الأمة .

فداء نبي ذبح ذبح لقربان وأين ثؤاج كبش من نوس إنسان
وعظّمه الله العظيم عناية بنا أو به لم أدر من أي ميزان
ولا شك أن البُدْن أعظم قيمة وقد نزلت عن ذبح كبش لقربان
فياليت شعري كيف ناب بذاته شخيص كبيش عن خليفة رحمان

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ

عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

أي تعلمون منهم في الصباح ما تعلمون منهم في الليل ، فالليل والصباح عندهم سواء في العبرة ، فهذا معنى قوله « أفلا تعقلون » .

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

* فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾

استجاب الله ليونس عليه السلام دعاءه ، فنجاه من الغم من ظلمة بطن الحوت والبحر ، فقذفه الحوت من بطنه ، فلم يولد أحد من ولد آدم ولادتين سوى يونس عليه السلام ، فخرج ضعيفاً كالطفل كما قال : « وهو سقيم » ورباه باليقطين ، فإن ورقه ناعم ولا ينزل عليه الذباب فقال .

وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾

فإن ورق اليقطين مثل القطن في النعومة ، بخلاف سائر ورق الأشجار كلها ، فإن فيها خشونة ، فمن لطفه تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين ، إذ خرج كالفرخ ، فلو نزل عليه الذباب آذاه .

وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾

فجاء بأو التي للشك ، وهذا محال على الله تعالى ، فلما نزل الحق في جماله في هذه الآية مباسطة معنا ، والشك منوط بِنَا ، فقام للعبد ضرب من المناسبة ، فإن كان العبد جاهلاً حمل ربه على نفسه ووصفه بالشك فَضَلَّ ، وإن كان محققاً هرب إلى قوله تعالى (وأحصى كل شيء عدداً) فوقف على سر ذلك ، وألحق الشك بالرؤية البشرية المعتادة على الخطاب المتعارف بين العرب بالكثرة ، فيعود الشك على المخلوق ، وإن أراد إحصاء العدد وأراد أن ينزه نفسه من غير الوجه الذي نزه بارئه ، فليأخذها على إرادة الكثرة لا عن العدد ، وإن كانت لا تخلو عن عدد محقق ، ولكن لم يرد القائل هنا الإعلام بتعيين العدد ، وإنما تعلقت الإرادة بالإعلام بالكثرة ، فهذه الصيغة إذا كانت المتعارفة بين المرسل إليهم لا يريدون بها الوقوف على عدد محقق .

فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

« فآمنوا » أرضى الله تعالى يونس عليه السلام في أمته فنفعها إيمانها و لم يفعل ذلك مع أمة قبلها « فمتعناهم إلى حين » لما اشتد البلاء على قوم يونس ، وكانت اللحظة الزمانية عندهم في وقت رؤية العذاب كالسنة أو أطول ؛ ذكر أنه تعالى جعل في مقابلة هذا الطول الذي وجدوه في نفوسهم أن متعهم إلى حين ، فبقوا في نعيم الحياة زمناً طويلاً لم يكن يحصل لهم لولا هذا البلاء ، فانظر ما أحسن إقامة الوزن في الأمور ، وقد قيل إن الحين الذي جعله غاية تمتعهم أنه القيامة والله أعلم .

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾

أنكر الله على المشركين نسبة الأنوثة إلى الملائكة بقوله : « أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون » .

أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

جعلت هذه الطائفة لله ما يكرهون ، فقالوا الملائكة بنات الله ، فحكموا عليه بأنه اصطفى البنات على البنين ، فتوجه عليهم الحكم بالإنكار في حكمهم ، مع كونهم يكرهون ذلك لنفوسهم .

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

يعني بالجنة هنا الملائكة ، فإن الله تعالى لما خلق الأرواح النورية والنارية أعني الملائكة والجان ، شرّك بينهما في أمر وهو الاستتار عن أعين الناس ، مع حضورهم معهم في مجالسهم وحيث كانوا ، ولهذا سمى الله الطائفتين من الأرواح جناً ، أي مستورين عنا فلا نراهم ، فقال تعالى في الذين قالوا إن الملائكة بنات الله « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً » والجنة من الملائكة هم الذين يلازمون الإنسان ويتعاقبون فينا بالليل والنهار ولا نراهم عادة ، وإذا أراد الله عز وجل أن يراهم مَنْ يراهم من الإنس من غير إرادة منهم لذلك ، رفع الله الحجاب عن عين الذي يريد الله أن يدركهم ، فيدركهم ، وقد يأمر الله المَلَك والجن بالظهور لنا فيتجسدون لنا فنراهم ، أو يكشف الله الغطاء عنا فنراهم رأي العين ، فقد نراهم أجساداً على صور ، وقد نراهم لا على صور بشرية بل نراهم على صور أنفسهم « ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » الجنة هنا قد تكون الملائكة والشياطين ، فإن الملائكة رسل من الله إلى الإنسان موكلون به ، حافظون كاتبون أفعالنا ، والشياطين مسلطون على الإنسان بأمر الله ، فهم مرسلون إلينا من الله .

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا

تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾

فمنهم أهل العروج بالليل والنهار ، من الحق إلينا ومنا إلى الحق ، في كل صباح ومساء ، وما يقولون إلا خيراً في حقنا ، ومنهم المستغفرون لمن في الأرض ، ومنهم المستغفرون للمؤمنين لغلبة الغيرة الإلهية عليهم كما غلبت الرحمة على المستغفرين لمن في الأرض ، ومنهم الموكلون بإيصال الشرائع ، ومنهم أيضاً الموكلون باللمات ، ومنهم الموكلون بالإلهام وهم الموصلون العلوم إلى القلوب ، ومنهم الموكلون بالأرحام ، ومنهم الموكلون بتصوير ما يكوّن الله في الأرحام ، ومنهم الموكلون بنفخ الأرواح ، ومنهم الموكلون بالأرزاق ، ومنهم الموكلون بالأمطار ، وما من حادث يحدث الله في العالم إلا وقد وكّل الله بإجرائه ملائكة ، كما منهم أيضاً الصافات والزاجرات والتاليات والمقسمات والمرسلات والناشرات والنازعات والناشطات والسابقات والسابحات والملقيات والمدبرات ، وهم جميعاً تحت سلطان الولاة الاثني عشر ، ملائكة البروج ، فإنهم ينفذون أوامر الله في خلقه ، ومن ذلك في عروج الرسول ﷺ لما وصل إلى المقام الذي لا يتعداه البراق ، وليس في قوته أن يتعداه ، تدلى إلى الرسول الرفرف فنزل عن البراق واستوى على الرفرف وصعد به الرفرف ، وفارقه جبريل ، فسأله الصحبة فقال : إنه لا يطيق ذلك ، وقال له « وما منا إلا له مقام معلوم » فبالمقامات فضل الله كل صنف بعضه على بعض ، فاعترفت الملائكة بأن لهم حدوداً يقفون عندها لا يتعدونها ، وذلك أن كل واحد منهم على شريعة من ربه متعبد بعبادة خاصة ، ومن ذلك يعلم أن الملائكة مع كونها لها مقامات معلومة لا تتعداها ، لها الترقي بالعلم لا بالعمل ، وقد عرفنا الله تعالى أنه علّمهم الأسماء على لسان آدم عليه السلام ، فزادهم علماً إلهياً لم يكن عندهم ــ **إشارة** ــ اعلم أن الملائكة قالت « وما منا إلا له مقام معلوم » وهكذا كل موجود ما عدا الثقلين ، وإن كان الثقلان أيضاً مخلوقين في مقامهما ، غير أن الثقلين لهما في علم الله مقامات معينة مقدرة عنده غيبت عنهما ، إليها ينتهي كل شخص منهما بانتهاء أنفاسه ، فآخر نفس هو مقامه المعلوم الذي يموت عليه ، ولهذا دعوا إلى السلوك فسلكوا

علواً بإجابة الدعوة المشروعة ، وسفلاً بإجابة الأمر الإرادي من حيث لا يعلمون إلا بعد وقوع المراد ، فكل شخص من الثقلين ينتهي في سلوكه إلى المقام المعلوم الذي خلق له ، ومنهم شقي وسعيد ، وكل موجود سواهما فمخلوق في مقامه فلم ينزل عنه ، فلم يؤمر بسلوك إليه لأنه فيه ، من مَلَك وحيوان ونبات ومعدن ، فهو سعيد عند الله لا شقاء يناله ، فقد دخل الثقلان في قول الملائكة « وما منا إلا له مقام معلوم » عند الله ، ولا يتمكن لمخلوق من العالم أن يكون له علم بمقامه إلا بتعريف إلهي ، لا بكونه فيه ، فإن كل سوى الله ممكن ، ومن شأن الممكن أن لا يقبل مقاماً معيناً لذاته ، وإنما ذلك لمرجحه بحسب ما سبق في علمه به ، ولذلك يقال في الثقلين : إن المقامات مكاسب ، وهي استيفاء الحقوق المرسومة شرعاً على التمام ، فإذا قام العبد في الأوقات بما تعين عليه من المعاملات وصنوف المجاهدات والرياضات التي أمره الشارع أن يقوم بها ، وعيّن نعوتها وأزمانها وما ينبغي لها ، وشروطها التمامية والكمالية الموجبة صحتها ، فحينئذ يكون صاحب مقامٍ .

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

أثنت الملائكة على أنفسهم بعد معرفتهم وتعريفهم بمقامهم .

وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾

بما سبقت به المشيئة ، فقد سبقت المشيئة بما سبقت ، وما تعلقت المشيئة الإلهية بكونه فلابد من كونه ، فالخاتمة هي عين السابقة ، وإنما سميت سابقة من أجل تقديمها على الخاتمة .

إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾

« لهم الغالبون » لمن نازعه في ملكه ، وهنا أضاف الحق الجند إلى نفسه بضمير الكناية

عن ذاته ، و لم يصرح باسم إلهي معيّن منصوص عليه ، اكتفاء بتسميتهم جنداً ، والأجناد لا تكون إلا لَلْمَلِكِ ، فالإضافة إليه سبحانه من اسمه الملك ، فهم عبيد الملك ، وبيّن أنهم أهل عدة ، إذ كانت العدة من خصائص الأجناد التي تقع بها الغلبة على الأعداء ، والأعداء الذين في مقابلة هؤلاء الأجناد الشياطين والأهواء والمصارف المذمومة كلها ، وسلطانهم الهوى ، وعدة هؤلاء الجند التقوى والمراقبة والحياء والخشية والصبر والافتقار ، والميدان الذي يكون فيه المصاف والمقابلة إذا تراءى الجمعان بينهم وبين الأعداء ، هو العلم في حق بعض الأجناد ، والإيمان في حق بعضهم ، والعلم والإيمان معاً في حق الطبقة الثالثة من الجند ، والآلة التي يدفع بها العدو المنازع هو الدليل القطعي من جهة النظر عند العلماء بتوحيد الله ، أو بخرق العادة عند أهل الإيمان الذين لهم علم ضروري يجدونه في أنفسهم ، فتقوم لهم خرق العوائد مقام الأدلة للعالم ، فيدفعون بخرق العوائد أعداء الله وأعداءهم كما يدفعه صاحب الدليل ، وكل شخص يقدر على دفع عدو بآلة تكون عنده فهو من جنده سبحانه وتعالى ، الذين لهم الغلبة والقهر ، وهو التأييد الإلهي الذي به يقع ظهورهم على الأعداء ، وأما قوله تعالى : « لهم الغالبون » الذين لا يُغْلَبون ؛ فمنهم الريح العقيم ، ومنهم الطير التي أُرْسِلَت على أصحاب الفيل ، وكذلك كل جند ليس لمخلوق فيه تصرف ، قال ﷺ : [نصرت بالصبا] وقال : [نصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر] وتختلف الجند ، فإن جند الرياح ما هي جند الطير ، ما هي جند المعاني الحاصلة في نفوس الأعداء كالروع والجبن ، ومنتهى كل جند إلى فعله الذي وجّه إليه من حصار قلعة وضرب مصاف أو غارة أو كبسة ، كل جند له خاصية في نفس الأمر لا يتعداها ، قال تعالى في الطير (ترميهم بحجارة) وقال في الريح (ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) وقال في الرعب (وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم) .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾

كان النبي ﷺ لا يغير على مدينة إذا جاءها ليلاً حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك

وإلا أغار ، وكان يتلو إذا لم يسمع أذاناً [إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين] فلو أجمع أهل مدينة على ترك سنة وجب قتالهم ، ولو تركها واحد لم يقتل .

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾

ـــ **الوجه الأول** ـــ الخطاب لمحمد ﷺ في حق كل ناظر في صفات الله ، فيقول له « سبحان ربك » لمحمد ﷺ ضمير هذا الكاف ، أي ربك الذي أرسلك إليهم ، لتعرفهم بما أرسلك به إليهم وأنزله بوساطتك عليهم « رب العزة » العزة الامتناع ، والتسبيح تنزيه ، والتنزيه بُعْدٌ عما نسب إليه من الصاحبة والولد ، فذكر سبحانه أنّه امتنعت ذاته أن تكون محلاً لما وصفه به الملحدون ، فإن العزة المنع ، فالحق منزه الذات لنفسه ، ما تنزه بتنزيه عبده إياه ، وتنزيه الخلق الحق إنما هو علم لا عمل ، إذ لو كان التنزيه من الخلق إلهَهم عملاً لكان الله الذي هو المنزَّه سبحانه محلاً لأثر هذا العمل ، فكان قوله تعالى : « سبحان ربك رب العزة » أي هو الممتنع لنفسه أن يقبل ما وصفوه به في نظرهم وحكموا عليه بعقولهم ، وأن الحق لا يحكم عليه الخلق ، والعقل والعاقل خلق ، وإنما يعرف الحق من الحق بما أنزله إلينا أو أطلعنا عليه كشفاً وشهوداً ، بوحي إلهي ، أو برسالة رسول ثبت صدقه وعصمته فيما يبلغه عن الله ، فدخل تحت قوله تعالى في تنزيه نفسه « عما يصفون » العياذ برب العزة عما يصفون ، يريد مما يطلق عليه مما لا ينبغي لجلاله من الصاحبة والولد والأنداد ، وعما يصفه به عباده مما تعطيهم أدلتهم في زعمهم بالنظر الفكري ، فالفيلسوف نفى عن الحق العلم بمفردات العالم الواقعة في الحس ، لأن حصول هذا العلم على التعيين إنما هو للحس والله منزه عن الحواس ، وأما المتكلم الأشعري فانتقل من تنزيهه عن التشبيه بالمحدث إلى التشبيه بالمحدث ، فقال مثلاً في استوائه على العرش : إنه يستحيل عليه أن يكون استواؤه استواء الأجسام لأنه ليس بجسم ، لما في ذلك من الحد والمقدار وطلب المخصص المرجح للمقادير ، فيثبت له الافتقار ، بل استواؤه كاستواء المَلِك على ملكه ، وأنشدوا في ذلك استشهاداً على ما ذهبوا إليه من الاستواء .

قد استوى بشر على العراق　　من غير سيف ودم مهراق

فشبهوا استواء الحق على العرش باستواء بشر على العراق ، واستواء بشر محدث ، فشبهوه بالمحدث ، والقديم لا يُشْبِه المحدث ، فقال تعالى تنزيهاً « عما يصفون » من حيث نظرهم ، واستدلوا بعقولهم أن العلم بالله لا يقبل التحول إلى الجهل ولا الدخول عليه ، وما من دليل عقلي إلا ويقبل الدخل والشبهة ، ولهذا اختلف العقلاء ، فكل واحد من المخالفين عنده دليل مخالفه شبهة لمخالفه ، لكونه خالف دليل هذا الآخر ، فعين أدلتهم هي عين شبهاتهم ، فأين الحق ؟ وأين الثقة ؟ وأصل الفساد إنما وقع من حيث حكّموا الخلق على الحق الذي أوجدهم ، فمن وصف الحق إنما وصف نفسه ، ولا يعرف منه إلا نفسه ، لأن رب العزة لا يعيّنه وصف ، ولا يقيده نعت ، ولا يدل على حقيقته اسم خاص ، وإن لم يكن الحكم ما ذكرناه فما هو رب العزة ، فإن العزيز هو المنيع الحمى ، ومن يوصل إليه بوجه ما من وصف أو نعت أو علم أو معرفة فليس بمنيع الحمى ، ولذلك عمم بقوله « عما يصفون » فالعلم بالسلب هو العلم بالله سبحانه ، ولله الأسماء ما له الصفات ، فإنه تنزه عن الصفة لا عن الاسم ، فالحق سبحانه لا يُعْرَف في ليس كمثله شيء ، وفيما ذكره في سورة الإخلاص ، وفي عموم قوله بالتسبيح الذي هو التنزيه « رب العزة عما يصفون » والعزة تقتضي المنع أن يوصل إلى معرفته ، وإن كان تعبدنا بما وصف به نفسه شرعاً ، فنقرره في موضعه ونقوله كما أمرنا به على جهة القربة إليه ، وما ظفر بالأمر إلا مَنْ جمع بين التنزيه والتشبيه ، فقال بالتنزيه من وجه عقلاً وشرعاً ، وقال بالتشبيه من وجه شرعاً لا عقلاً ، والشهود يقضي بما جاءت به الرسل إلى أممها في الله ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فكل واصف فإنما هو واقف مع نعت مخصوص ، فينزه الله نفسه عن ذلك النعت من حيث تخصيصه ، لا من حيث أنه له ، فإن له أحدية المجموع لا أحدية كل واحد من المجموع ، والواصف إنما يصفه بأحدية كل واحد من المجموع ، فهو المخاطب أعني مَنْ نعته بذلك ، بقوله « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » لذلك ما ورد خبر بالصفات ، لما فيها من الآفات ، ألا ترى مَنْ جعله موصوفاً ، كيف يقول : إن لم يكن كذلك كان مؤوفاً ، وما علم أن الذات إذا قام كمالها على الوصف ، فإنه حكم عليها بالنقص الخالص الصرف ، من لم يكن كماله لذاته ، افتقر بالدليل في الكمال إلى صفاته ، وصفاته ما هي عينه ، فقد جهل

القائل : إن الصفة كونه ، فقال تعالى : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » فأوقف العالَم في مقام الجهل والعجز والحيرة ، ليعرف العارفون ما طلب منهم من العلم به ، وما لا يمكن أن يُعلَم ، فيتأدبون ولا يتجاوزون مقاديرهم ، كما قالت اليهود في الخبر النبوي المشهور : من كون الحق يضع الأرض يوم القيامة على أصبع والسموات على أصبع ــ الحديث ــ فقرأ النبي ﷺ (ما قدروا الله حق قدره) فصاحب علم النظر الواقف مع عقله ، المتحكم على الحق بدليله ، هيهات أن يدرك الألوهية ، وأين الألوهية من الكون ؟! وأين المحدث من حضرة العين ؟! كيف يدرك مَنْ له شبه مَنْ لا شبه له ؟ للعقل عقل مثله ، وليس للحق حق مثله ، محال وجود ذاتين وإلهين ، لا يشبه شيئاً ، ولا يتقيد بشيء ، ولا يحكم عليه شيء ، بل ما يضاف إليه إلا بقدر ما تمس حاجة الممكن المقَيَّد إليه ، فالعقل ما عرفه ، كيف يُلتَمس بأمر هو خلقه عاجزاً فقيراً مستمداً ؟ تعالى الله عن إدراك المدركين علواً كبيراً « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فلا يُطلَب بالعقول ، ما لا يصح إليه الوصول ــ **الوجه الثاني** ــ اعلم أن عين العبد لا تستحق شيئاً من حيث عينه ، لأنه ليس بحق أصلاً ، والحق هو الذي يستحق ما يستحق ، فجميع الأسماء التي في العالم ويتخيل أنها حق للعبد حق لله ، فالاستحقاق بجميع الأسماء الواقعة في الكون الظاهرة الحكم إنما يستحقها الحق ، والعبد يتخلق بها ، وليس للعبد سوى عينه ، ولا يقال في الشيء : إنه يستحق عينه ، فإن عينه هويته ، فلا حق ولا استحقاق ، وكل ما عرض أو وقع عليه اسم من الأسماء إنما وقع على الأعيان من كونها مظاهر ، فما وقع اسم إلا على وجود الحق في الأعيان ، والأعيان على أصلها لا استحقاق لها ، فالوجود لله وما يوصف به من أية صفة كانت إنما المسمى بها هو مسمى الله ، فهو المسمى بكل اسم والموصوف بكل صفة والمنعوت بكل نعت ، ولذلك قال : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » من أن يكون له شريك في الأسماء كلها ، فالكل أسماء الله ، أسماء أفعاله أو صفاته أو ذاته ، فما في الوجود إلا الله ، والأعيان معدومة في عين ما ظهر فيها ، فالصفات لله حقيقة جهلنا معناها بالنسبة إليه ، وعرفنا معناها بالنسبة إلينا ، من وجه معرفتنا بمعناها إذا نسبت إلينا ، ومن كون الباري اتصف بها على طريقة مجهولة عندنا ، فلا نعرف كيف ننسبها إليه لجهلنا بذاته ، فتكون أصلاً فيه عارضة فينا ، فلا نستحق شيئاً لا

من أسمائه ولا مما نعتقد فيها أنها أسماؤنا ، وهذا موضع حيرة ومزلة قدم ، إلا لمن كشف الله عن بصيرته ، فقوله تعالى فيما وصف به نفسه مما هو عند النظار صفة للخلق حقيقة وأخذوه في الله تجوزاً ، من جوع وظمأ ومرض وغضب ورضى وسخط وتعجب وفرح وتبشبش ، إلى قدم ويد وعين وذراع ، وأمثال ذلك ، مما وردت به الأخبار عن الله على ألسنة الرسل ، وما ورد من ذلك في الكلام المنسوب إلى الله المعبر عنه بصحيفة وقرآن وفرقان وتوراة وإنجيل وزبور ، فالأمر عند المحققين أن هذه كلها صفات حق لا صفات خلق ، وأن الخلق اتصف بها مزاحمة للحق ، كما اتصف العالم أيضاً بجميع الأسماء الإلهية الحسنى ، فالكل أسماؤه من غير تخصيص ، هذا مذهب المحققين فيه فإنه صادق ، ولهذا نحن في ذلك على التوقيف ، فلا نصفه إلا بما وصف به نفسه ، ولا نسميه إلا بما سمى به نفسه ، لا نخترع له اسماً ، ولا نحدث له حكماً ، ولا نقيم به صِفَةً ــ **الوجه الثالث** ــ « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » هي حضرة لا تقبل التنزيه ولا التشبيه ، فيتنزه عن الحد بنفي التنزيه الذي كان يتخيله المنزه ، فإن التنزيه يحدّه ويشير إليه ويقيده ، ويتنزه عن المقدار بنفي التشبيه ــ **الوجه الرابع** ــ التسبيح تنزيهٌ ما هو ثناء بأمر ثبوتي ، لأنه لا يثنى عليه إلا بما هو أهل له ، وما هو له لا يقع فيه المشاركة ، وما أُثنِيَ عليه إلا بأسمائه ، وما من اسم له سبحانه عندنا معلوم إلا وللعبد التخلق به والاتصاف به على قدر ما ينبغي له ، فلما لم يتمكن في العالم أن يُثْنَى عليه بما هو أهله ، جعل الثناء عليه تسبيحاً من كل شيء ، ولهذا أضاف الحمد إليه فقال (يسبح بحمده) أي بالثناء الذي يستحقه وهو أهله ، وليس إلا التسبيح ، فإنه سبحانه يقول « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » والعزة المنع من الوصول إليه بشيء من الثناء عليه الذي لا يكون إلا له ، عما يصفون ، وكل مثنٍ واصف ، فذكر سبحانه تسبيحه على كل حال ومن كل عين .

وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾

وهم المرحومون السالمون ، فما جاءت الرسل عليهم السلام إلا بما أحالته الأدلة النظرية وبما أثبتته ، فصدَّق أهل النظر في نظرهم ، وأكذبهم في نظرهم ، فوقعت الحيرة عند أرباب النظر ، فإذا سلّموا له ما قاله عن نفسه على ألسنة رسله ، وانقادوا إليهم ، فإن انقيادَهم

ينزلهم منزلتهم ، فإنهم ما انقادوا إليهم من حيث أعيانهم ، فإنهم أمثالهم ، وإنما انقادوا إلى الذي جاؤوا من عنده ، ونقلوا عنه ما أخبر به عن نفسه على ما يَعلَم نفسه ، لا على تأويل من وصل إليه ذلك ، فلا يُعلَم مرادُ الله فيه إلا بإعلام الله ، فيقف الناظر موقف التسليم لما ورد ، مع فهمه فيه أنه على موضوع ما ، هو في ذلك اللسان الذي جاء به هذا الرسول لابد من ذلك ، لأنه ما جاء به بهذا اللسان إلا لنعرف أنه على حقيقة ما وضع له ذلك اللفظ في ذلك اللسان ، ولكن تُجهل النسبة ، فنسلم إليه علم النسبة مع عقلنا الأدلة بالوضع الاصطلاحي في ذلك اللحن الخاص ، فننقاد إليه كما انقاد المرسلون ، ولهذا قال « على المرسلين » أي واجب عليهم الانقياد بقوله « وسلام » فنكون أمثالهم ، ثُمَّ قال :

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

« والحمد لله » أي عواقب الثناء إذ كل ما جاؤوا به إنما قصدوا به الثناء على الله ، فعواقب الثناء على الله بما نزه نفسه عنه وبما نزهه العباد به ، فإن الحمد العاقب ، فعواقب الثناء ترجع إلى الله ، وعاقب الأمر آخره « رب العالمين » من حيث ثبوته في ربوبيته بما يستحقه الرب من النعوت المقدسة ، وهو سيد العالم ومربيهم ومغذيهم ومصلحهم ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، ومن سياق الآيات دل على أن رسول الله ﷺ حمد الله رب العالمين عقيب نصره وظفره بخيبر ، فهو حمد نعمة ــ **إشارة** ــ « الحمد لله رب العالمين » جاءت في أول سورة الفاتحة ، وفي وسط سورة يونس ، وفي آخر سورة الصافات ، فعمت الطرفين والواسطة .

(٣٨) سورة ص مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾

أقسم الحق تعالى عند ذكر حرف الصاد بمقام جوامع الكلم ، فإن الصاد حرف من حروف الصدق ، والصون ، والصورة ، فهو حرف شريف عظيم ، وتضمنت هذه السورة

من أوصاف الأنبياء عليهم السلام ومن أسرار العالَم كله الخفية عجائب وآيات ، وكل من له نصيب من هذه السورة يحصل له من بركات الأنبياء عليهم السلام المذكورين في هذه السورة ، ويلحق الأعداء الكفار ما في هذه السورة من البؤس لا من المؤمنين .

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾

فإن العطاء عام والنفع خاص ، عم التنادي وما عمت الإبابة ، لما لم تقع هنا الإنابة .

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾

ــ **إشارة** ــ في حق الرسول ﷺ ومنة الله تعالى عليه : كأن الحق تعالى يقول له : عبدي خرقت لك الحجاب ، وأظهرت لك الأمر العجاب ، حتى أتيت قومك باللباب ، فقالوا : ساحر كذاب . عبدي وهبتك أسرار الأخلاق ، وملكتك مفتاح اسمي الخلّاق ، فقال الكافرون : إن هذا إلا اختلاق . عبدي ملكتك سر النون من قولي كن فيكون ، فقالوا : ساحر مجنون ، عبدي أتيتهم بأسرار الكوثر ، فقالوا : إن هذا إلا سحر يؤثر . عبدي أعطتك القوافي زمامها ، ورفعت لك المعاني معارفها وأعلامها ، فجريت سابقاً ، في حلبة الناظم والناثر ، فقالوا : ما هذا رسول بل هو شاعر . عبدي كشفت لهم عن النور المبين ، وأطلعتهم على علم اليقين ، فقالوا : إن هذا إلا أساطير الأولين . أما شرح ما في هذه الإشارة ، فقوله : « خرقت لك الحجاب » أي أشهدتك أسرار الغيب ، حتى عرفت ما تعطيه خواص الأشياء في أزمنة مخصوصة ، وقوله : « وهبتك أسرار الأخلاق » هو ما أعطي من جوامع الكلم ، إذ كان القرآن معجزته ، وقوله : « ملكتك سر النون » هو ما يظهر من الرسول من الاقتدار الذي لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى ، من إحياء الموتى وأشباهه ، ويريد « بأسرار الكوثر » علماً خاصاً ، كما أن الكوثر خاصة مائه أنه مَنْ شرب منه لا يظمأ ، فكذلك هذا العلم الذي هو بهذه المثابة ، مَنْ شرب منه ما يروى ، قوله : « أعطتك القوافي زمامها والمعاني » إلى آخر الفصل ، يريد دلالة الألفاظ بحكم التطابق على المعاني على طريق الإعجاز

بعدم المعارضة ، وقوله « النور المبين » و « علم اليقين » يريد قوله تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) .

أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

قال المشركون لما دعوا إلى توحيد الإله في ألوهته بقوله تعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) أكثروا التعجب وقالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً » فهي حكاية الله لنا عن المشرك أنه قال هكذا ، إما لفظاً وإما معنى ، والمشرك هو من جعل مع الله إلهاً آخر من واحد فما زاد ، وكان ذلك من أجل اعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله ، المشهود له عندهم بالعظمة على الجميع ، والذي قالوا فيه (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) « إن هذا لشيء عجاب » فالناس يحملون هذا القول على أنه من قول الكفار ، حيث دعاهم إلى توحيد إله وهم يعتقدون كثرتها ، وما علموا أن جعل الألوهية من الكثيرين أعجب ، ففي الحقيقة ليس العجب ممن وَحّد ، وإنما العجب ممن كثر الآلهة بلا دليل ولا برهان ، وهذا القول عندنا من قول الحق ، أو قول الرسول ، وأما قول الكفار فانتهى في قوله « إلهاً واحداً » والتعجب أنه بأول العقل يعلم الإنسان أن الإله لا يكون بجعل جاعل ، فإنه إله لنفسه ، ولهذا وقع التوبيخ بقوله تعالى : (أتعبدون ما تنحتون) والإله في ضرورة العقل لا يتأثر ، وقد كان هذا خشبة يلعب بها أو حجراً يستجمر به ، ثم أخذه وجعله إلهاً يذل ويفتقر إليه ويدعوه خوفاً وطمعاً ، فمن مثل هذا يقع التعجب مع وجود العقل عندهم ، فوقع التعجب من ذلك ، ليعلم مَنْ حجب العقول عن إدراك ما هو لها بديهي وضروري ، ذلك لتعلموا أن الأمور بيد الله ، وأن الحكم فيها لله ، وأن العقول لا تعقل بنفسها ، وإنما تعقل ما تعقله بما يلقي إليها ربها وخالقها ، ولهذا تتفاوت درجاتها ، فمن عقل مجعول عليه قفل ، ومن عقل محبوس في كِنّ ، ومن عقل طلع على مرآته صدأ ، فلو كانت العقول تعقل لنفسها ، لما أنكرت توحيد موجدها في قوم وعقلته في قوم ، والحد والحقيقة فيها على السواء ، فلهذا جعلنا قوله تعالى « إن هذا لشيء عجاب » ليس من قول الكفار بل قال الله عند قولهم « أجعل الآلهة إلهاً واحداً » « إن هذا لشيء عجاب » حيث جعلوا الإله الواحد آلهة ، وخصوص وصفه أنه إله ، وبه يتميز ، فلا يتكثر بما به يتميز ، ويشهد لهذا النظر قولهم فيما

حكى الله عنهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فهم يعلمون أنهم نصبوهم آلهة ، ولهذا وقع الذم عليهم بقوله (أتعبدون ما تنحتون ؟) والإله من له الخلق والأمر من قبل ومن بعد . واعلم أنَّ الله تعالى عصم لفظ « الله » أن يطلق على أحد ، وما عصم لفظ إله ، فكثرت الآلهة في العالم لقبولها التنكير ، والله واحد معروف لا يُجهَل ، أقرت بذلك عبدة الآلهة فقالت : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وما قالت : إلى إله كبير هو أكبر منها ؛ ولهذا أنكروا ما جاء به ﷺ في القرآن والسنة من أنه إله واحد من إطلاق الإله عليه ، وما أنكروا الله ، ولو أنكروه ما كانوا مشركين ، فبمن يشركون إذا أنكروه ؟ فما أشركوا إلا بإله لا بالله ، فقالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ » وما قالوا : أجعل الآلهة الله ؟ فإن الله ليس عند المشركين بالجعل . ومن ذلك قول السامري (هذا إلهكم وإله موسى) في الجعل ، ولم يقل : هذا الله الذي يدعوكم إليه موسى ؛ وقول فرعون (لعلي أطلع إلى إله موسى) ولم يقل : إلى الله الذي يدعو إليه موسى عليه السلام ؛ وقال : (ما علمت لكم من إله غيري) .

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾

لما جاءهم التعريف على يدي واحد منهم ، ولم يعرفوا العناية الإلهية والاختصاص الرباني والاختلاق لم يكن فيما تعجبوا منه ، لأنه لو أحالوه بالكلية ما تعجبوا ، وإنما نسبوا الاختلاق لمن جاء به إذ كان من جنسهم ومما يجوز عليه ذلك ، حتى يتبين لهم برؤية الآيات فيعلمون أنه ما اختلق هذا الرسول ، وأنه جاءه من عند الله الذي عبد هؤلاء هذه المسماة آلهة عندهم على جهة القربة إلى الله الكبير المتعال ، والاختلاق الكذب لهذا قالوا :

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾

الاسم الوهاب أول اسم يطلب أن يظهر أثره في الأعيان لفقرها ، والوهب امتنان على

الموهوب له ، ويبتدىء بإعطاء الوجود لكل عين ، ولما كان الوهب له تعالى ذاتياً فإنه لا يقدح في غناه عن كل شيء ، فكان العزيز الوهاب ، فإنه عز أن يكون غناه علة لشيء ، لأن العلة تطلب معلولها ، والوهب ليس كذلك ، فإنه امتنان على الموهوب له ، والوهاب هو الذي يعطي لينعم لا لطلب شكر ولا عِوَض .

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾ فوحد الصيحة .

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

« وقالوا ربنا عجل لنا قطنا » أي نصيبنا « قبل يوم الحساب » قالوا ذلك سخرية .

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾

« ذا الأيد » أي صاحب القوة ، ما هو جمع يد ، فكان فيما أعطاه الحق على طريق الإنعام عليه القوة ، ونعته بها

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾

السبحة صلاة النافلة ، يقول عبد الله بن عمر وهو عربي في النافلة في السفر : لو كنت مسبحاً أتممت ؛ والإشراق أول النهار ، وصلاة الإشراق أربع ركعات ، وهي غير صلاة الضحى ، فإنها ثمان ركعات بعد صلاة الإشراق .

وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

الحكمة علم تفصيلي عملي ، والعلم بالمجمل علم تفصيلي ، فإنه فصله عن العلم التفصيلي ، ولولا ذلك لم يتميز المجمل من المفصل ، فمن الحكمة العلم بالمجمل والتجميل والمفصل والتفصيل ، والحكمة صفة تحكم ويحكم بها ولا يحكم عليها ، فإن الحكيم مَنْ حكمته الحكمة فصرّفته ، لا من حكم الحكمة ، فإنه مَنْ حكم الحكمة له المشيئة فيها ، ومَنْ حكمته الحكمة فهي المصرفة له ، وإذا قامت الصفة بالموصوف أعطته حكمها عطاءً واجباً ، فامتن الله تعالى على داود بأن آتاه الحكمة فقال : « وآتيناه الحكمة » عملاً بإعطاء كل ذي حق حقه ، ولا يفعل ذلك حتى يعلم ما يستحقه كل ذي حق من الحق ، وليس إلا بتبيين الحق له ذلك ، ولذلك أضافه إليه تعالى فقال : « وآتيناه الحكمة » وهي هبة من الله تعالى فأعطاه الحكمة « وفصل الخطاب » في المقال ، وهو من الحكمة ، والأمر كله مفصّل في علم الله ، ما عند الله إجمال ، وإنما وقع الإجمال عندنا وفي حقنا وفينا ظهر ، فمن كشف التفصيل في عين الإجمال علماً أو عيناً أو حقاً فذلك الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وليس إلا الرسل والورثة خاصة ، فإنه من أوتي الفهم عن الله من كل وجه فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، وهو تفصيل الوجوه والمرادات من الكلام ، وفصل الخطاب من المقال ، وسلطانه في قلت وقال ، والقول يطلب السمع ، ويؤذن بالجمع ، فالحكيم يجري مع كل حال وموطن بحسب ذلك الحال وذلك الموطن ، فإنه لفصل الخطاب موطن ، تُعطي الحكمة لصاحبها أن لا يظهر منه في ذلك الموطن إلا فصل الخطاب ، وهو الإيجاز في البيان في موطنه ، لسامع خاص لذي حال خاص ؛ والإسهاب في البيان في موطنه ، لسامع خاص ذي حال خاص ، ومراعاة الأدنى أولى من مراعاة الأعلى ، فإن ذلك من الحكمة ، فإن الخطاب للإفهام ، فإذا كرر المتكلم الكلام ثلاث مرات حتى يفهم عنه ، كما كان كلام رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن الله للناس يراعي الأدنى ، ما يراعي مَنْ فهم من أول مرة ، فيزيد صاحب الفهم في التكرار أموراً لم تكن عنده ، أفادها إياه التكرار ، والأدنى الذي لم يفهم فهم الأول فهم بالتكرار ما فهمه الأول بالقول الأول ، ألا ترى العالم الفهم المراقب

أحواله يتلو المحفوظ عنده من القرآن ، فيجد في كل تلاوة معنى لم يجده في التلاوة الأولى ، والحروف المتلوة هي بعينها ما زاد فيها شيء ، ولا نقص ، وإنما الموطن والحال تجدد ، ولابد من تجدده ، فإن زمان التلاوة الأولى ما هو زمان التلاوة الثانية ، فالحكماء على الحقيقة هم أهل الله الرسل والأنبياء والأولياء ، لا الحكماء باللقب ، إلا أن الحكماء باللقب أقرب إلى العلم من غيرهم .

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

« وقليل ما هم » ـ **الوجه الأول** ـ يقول : ما هم قليل ، يعني كثير ، أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو قوله تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) ـ **الوجه الثاني** ـ [ما] من وجه قد تكون زائدة ، فيكون القليل هم مَنْ آمن بالله ، فإن الموحدين هم الذين وحدوا الله بالله ، وأما الموحدون الذين وحدوا الله لا بالله بل بأنفسهم فهم الذين أشركوا في توحيده ، قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ومن رحمة الله بخلقه أن خلق الظن فيهم وجعله من بعض وزعة الوهم ، والله ما يُوجَد إلا عند ظن العبد به فليظن به خيراً ، ولولا الظن ما عصى الله مخلوق أبداً ، قال تعالى : « وظن داود » والظن هنا على

بابه « أنّما فتناه » أي اختبرناه ، فإن الفتنة في اللسان الاختبار ، تقول العرب : فتنت الفضة على النار أي اختبرتها ؛ والفتنة الابتلاء ، وليس الابتلاء مما يحط درجة العبد عند الله ، بل ما يبتلي الله إلا الأمثل فالأمثل من عباده ، فإن الحق أوصى داود بقوله : (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) « فاستغفر ربه » فاستغفر داود ربّهُ أي طلب الستر من الله الحائل بينه وبين الهوى المضل ليتصل به ، فيؤثر في الحكم الذي أرسل به ، فطلب طلباً مؤكداً الستر من ربه ، فإن الاستفعال يؤذن بالتوكيد « وخر راكعاً » ووقع خاضعاً « وأناب » ورجع إلى الله فيما طلب لا لحوله وقوته ، فكان سقوطه إلى الأرض اختياراً قبل أن تسقطه الأهواء ، فكان ركوعه رجوعاً إلى أصله من نفسه ، فهو عين الستر الذي طلبه في الاستغفار ، فعصمه الله وستره ، فما خر داود عن زلة أتى بها ، بل رجوعاً إلى أسّه .

فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

« فغفرنا له ذلك » فقضينا حاجته فيما رجع إلينا فيه ، وسترناه عن الأغيار ، فَجُهِل قدرُه ، مع تصريحنا بخلافته عنا في الحكم في عبادي والتحكم والتصريف « وإن له عندنا لزلفى » تقريب مما هو له منا ، لا يرجع من ذلك إلى الأكوان والأغيار شيء « وحسن مآب » وخاتمة حسنة ، والسجدة هنا ليست من عزائم السجود ، وقد سجدها داود عليه السلام توبةً وشكراً معاً ، وهي لمن سجدها سجدة شكر ــ **إشارة** ــ لما كان آدم أول من ظهر فيه أحكام الأسماء الإلهية ، ولم يزل يرتقي في أطوار بنيه ، لأن خلافته لم تكن منبسطة تماماً لقلة عدد هذا النوع معه ، ولذلك كان نوح عليه السلام أول الرسل حتى بلغ ذلك إلى داود عليه السلام ، ومن ثَمَّ وقع النص على خلافته في الأرض ، وتزوج تسعاً وتسعين امرأة ضرب مثال من الأسماء ، فلما طمع في الظهور باسم الذات ، ضُرِب له المثل المعروف السابق ذكره .

يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ

شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

« يا داود إنا جعلناك خليفـة في الأرض » لمن تقـدمك أو نيابـة عنـا ؛ وصرح الحق بالخلافتين على التعيين في حق آدم وداود عليهما السلام ، فقال تعالى في خلافة آدم : (إني جاعل في الأرض خليفة) يريد آدم وبنيه ، وقال تعالى في داود عليه السلام « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض » وسبب ذلك لما لم يجعل في حروف اسم داود حرفاً من حروف الاتصال جملة واحدة ، فما في اسمه حرف يتصل بحرف آخر من حروف اسمه ، فكان داود عليه السلام في دلالة اسمه عليه ، أشبه بني آدم بآدم في دلالة اسمه عليه ، فصرح الله بخلافته في القرآن في الأرض كما صرح بخلافة آدم في الأرض ، فإن حروف آدم غير متصلة بعضها ببعض ، وحروف داود كذلك ، إلا أن آدم فرق بينه وبين داود بحرف الميم الذي يقبل الاتصال القبلي والبعدي ، فأتى الله به آخراً حتى لا يتصل به حرف سواه ، وجعل قبله واحداً من الحروف الستة التي لا تقبل الاتصال البعدي ، فأخذ داود من آدم ثلثي مرتبة الأسماء (الألف والدال)، وأخذ محمد ﷺ ثلثيه أيضاً ، وهو الميم والدال . وشرف الله داود في هذه الآية بتعيينه باسمه في الخلافة في الأرض ، وجمع له بين أداة المخاطب وبين ما شرفه به ، وهذا شرف لم يجمع لأبيه آدم لا في تعيينه بالاسم ، ولا جمع له بين أداة المخاطب وبين ما شرفه به كما حصل لداود عليه السلام في هذه الآية ، وذلك جبراً لقلب داود عليه السلام بعد أن جحد آدم الستين سنة التي أعطاها له ، ورغم ذلك فإن الله أراد تأديب داود عليه السلام لما يعطيه الذكر الذي سماه الله به من النفاسة على أبيه ، ولاسيما وقد تقدم من أبيه في حقه ما تقدم من الجحد لما امتن الله به عليه ، فلما جبره الله بذكر اسمه في الخلافة ، قال له من أجل ما ذكرناه من تطرق النفاسة التي في طبع هذه النشأة « فاحكم بين الناس بالحق » الذي أوحيت به إليك وأنزلته عليك ، أي احكم بما يقتضيه أمر الحق المشروع ، وهو تمشية أوامر الله وإنفاذ كلماته لا غير « ولا تتبع الهوى » وهو ما خالف شرعك ، وهو إرادة النفوس التي يخالفها حكم الحق ، فيحتمل قوله تعالى « ولا تتبع الهوى » يعني هوى نفسه ، أي لا تحكم بكل ما يخطر لك ، ويحتمل لا تتبع هوى أحد يشير عليك بخلاف ما أوحى الله به إليك ، فإنه تعالى قال « ولا تتبع الهوى » و لم يقل تعالى : هواك ، أي لا تحكم بما يهوى

كل أحد منك ، فإنه لو كان هوى غيره نُهِيَ أن يتبعه ، فاتبعه ، فما يتبعه إلا بهوى نفسه ، فطاوع نفسه في ذلك ، فلذلك تعين أنه أراد بالهوى نفسه لا غيره ، وهو أن يأمره بمخالفة ما أمره الله به أن يفعله أو ينهاه عنه ، فقوله تعالى : « ولا تتبع الهوى » يعني محابك ، بل اتبع محابي وهو الحكم بما رسمته لك ، فشغله ذلك الحذر عن الفرح بما حصل له من تعيين الله له باسمه ، ولكن حصل له الفرح وأخذ حظه منه قبل أن يصل إليه زمان « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » لا عن الله ، فأمره بمراقبة سبيل الله ، وهو ما شرعه لدار القرار التي هي محل سعادتك ، فكان قوله تعالى لخليفته داود عليه السلام : « فيضلك عن سبيل الله » وهو ما شرعه الله لك على الخصوص ، فإن الله تعالى يقول : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) والهوى يحيرك ويتلفك ، ويعمّي عليك السبيل الذي شرعته لك وطلبت منك المشي عليه ، وهو الحكم به ، فالهوى هنا محاب الإنسان ، فأمره الحق بترك محابه إذا وافق غير الطريق المشروعة له ، لأن الهوى يهوي بمتبعه عن درجة الخلافة التي أُهِّلتَ لها وأُهِّلَتْ لك ، فالرجل هو الذي رأى الحق حقاً فاتبعه ، وحَكَم الهوى وقَمعَه ، « إن الذين يضلون عن سبيل الله » وهو ما شرعه لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله ، والضلال عن سبيل الله اتباع الهوى « لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » يحتمل والله أعلم يوم الدنيا ، حيث لم يحاسبوا نفوسهم فيه ، فإن النسيان الترك ، يقول رسول الله ﷺ : [حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا] فإن يوم الدنيا أيضاً هو يوم الدين ، أي يوم الجزاء لما فيه من إقامة الحدود ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ، و لم يقل تعالى لداود عليه السلام : فإنك إن ضللت عن سبيل الله لك عذاب شديد ؛ فتلطف به في الخطاب ثانياً .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

« وما خلقنا » أي قدَّرنا « السموات والأرض وما بينهما باطلاً » فما هي عبث فإن الخالق حكيم ، فإذا قدرها فما تكون عبثاً ولا باطلاً ، فإن ذلك لحكمة فيها يعلمها من علَّمه الله ، لذلك قال : « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » .

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾

يقول الله في حق ما أنزل من القرآن إن رسول الله ﷺ يخاطب به ثلاث طبقات من الناس ، فهو في حق طائفة (بلاغ) يسمعون حروفه إيماناً بها أنها من عند الله لا يعرفون غير ذلك ـ سورة إبراهيم آية ٥٢ ـ وطائفة تلاه عليها « ليدبروا آياته » أي يتفكروا فيها وفي معاني القرآن ، حتى يعلموا أن الآتي بها لم يأت بها من نفسه ، بل هي من عند مرسله سبحانه ، وتدبر القرآن من كونه قرآناً وفرقاناً ، فللقرآن موطن ، وللفرقان موطن ، فقم في كل موطن باستحقاقه تحمدك المواطن ، والمواطن شهداء عدل عند الله ، فإنها لا تشهد إلا بصدق ، وطائفة ثالثة قال فيها « وليتذكر أولوا الألباب » أرباب العقول ما كانوا قد علموه قبل ، فإن التذكر لا يكون إلا عن علم غفل عنه أو نسيان من عاقل ، أي ما جاؤوا بما تحيله الأدلة الغامض إدراكها ، فإنها لب الدلالات ، فينتبهون من نوم غفلتهم ويتذكرون بعقولهم ما كانوا قد نسوه ، وهذا يدلك على أنهم كانوا على علم متقدم في شيئية الثبوت وأخذ العهد ، فمن باب الإشارة سمي هذا الجنس بالناس ، اسم فاعل من النسيان معرفاً بالألف واللام ، لأنه نسي أن الحق سمعه وبصره وجميع قواه في حال كونه كله نوراً ، وهو المقام الذي سأله رسول الله ﷺ من ربه أن يقيم فيه أبداً ، فقال : [واجعلني نوراً] فإن الله من أسمائه النور ، بل هو النور ، للحديث الثابت [نور أنّى أراه] فلما لم يتذكر الناسي هذه الحال ، وهو في نفسه عليها غافل عنها ، خاطبه الحق مذكراً له بها في القرآن الذي تعبده بتلاوته « ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » ما كانوا قد نسوه .

وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾

سليمان هبة الله تعالى لداود ، والهبة عطاء الواهب بطريق الإنعام ، لا بطريق الوفاق أو الاستحقاق ، فهو النعمة السابغة ، والحجة البالغة ، والضربة الدامغة .

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾

يقول سليمان عليه السلام « إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي » لأنه سماه خيراً ، والخير منسوب إلى الله فقال : « عن ذكر ربي » إياه بالخيرية أحببته ، فأحب عليه السلام حب الخير ، وحب الخير إما أن يريد حب الله إياه ، أو حب الخير من حيث وصف الخير بالحب ، والخير لا يحب إلا الأخيار ، فإنهم محل وجود عينه ، فكذلك سليمان عليه السلام قال : « أحببت حب الخير » أي أنا في حبي كالخير في حبه ، ولهذا لما توارت بالحجاب ، أعني الصافنات الجياد ، اشتاق إليها ، لأنه فقد المحل الذي أوجب له هذه الصفة الملذوذة ، فإنها كانت مجلى له فقال .

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

فطفق يمسح بيده على أعرافها وسوقها فرحاً وإعجاباً بخير ربه :

إن الفتى من رأى الأفراس توصله	به فيمسح بالأعناق والسوق
حباً لها عندما كانت أدلته	عليه لم يرها جاءت لتشقيق
وكيف جاءت لتشقيق وإن لها	تسبيح خالقها حقاً بتصديق
الله كرمها جوداً وأهلها	لكل صالحة تأهيل معشوق

وأما المفسرون الذي جعلوا التواري للشمس ، فليس للشمس هنا ذكر ، ولا للصلاة التي يزعمون ، ومساق الآية لا يدل على ما قالوه بوجه ظاهر البتة .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

ـــ **الوجه الأول** ـــ وأما استرواح المفسرين فيما فسروه بقوله : « ولقد فتنا سليمان » ليس تلك الفتنة وهو الاختبار إذا كان متعلقه الخيل ولابد ، فيكون اختبار سليمان عليه السلام

إذا رآها هل يحبها عن ذكر ربه لها ؟ أو هل يحبها لعينها ؟ فأخبر ﷺ أنه أحبها عن ذكر ربه إياها ، لا نفسها ، مع حسنها وجمالها وحاجته إليها ، وهي جزء من الملك الذي طلب أن لا ينبغي لأحد من بعده ، فأجابه الحق إلى ما سأل في المجموع ، ورفع الحرج عنه فقال له : « هذا عطاؤنا » ــ **الوجه الثاني** ــ « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً » فأقام إبليس لعنه الله صورة الجنة في الخيال المنفصل لسليمان عليه السلام ، ليفتنه بها ولا علم لسليمان عليه السلام بذلك ، لأن الصورة المحسوسة التي تظهر فيها الروحانيات تسمى أجساداً ، فصنعت سحرة الجان لسليمان عليه السلام أرضاً من الذهب الأصفر ورصعتها بالدر والياقوت والجوهر ، تريد فتنته و لم يعلم ، فحسن ظنه بربه واعتقدها من عوائد أفضاله وبشائر إقباله ، فسجد شكراً لله حيث أتحفه بها ، وزاد في معاملته صبراً وهو قوله تعالى : « ثم أناب فأبقاها الله له جنة محسوسة يتنعم بها ، وأثبتها له جنة قدس معجلة يراها مكاشفة عين ، وخصّه بها مدة ما أمهله ، ورجع إبليس خاسراً لأنه أراد بذلك فتنته ــ **بحث الفرق بين الأجسام والأجساد** ــ الأجسام هي هذه المعروفة في العموم لطيفها وشفافها وكثيفها ، ما يرى منها وما لا يرى ، والأجساد هي ما يظهر فيها الأرواح في اليقظة الممثلة في صور الأجسام ، وما يدركه النائم في نومه من الصور المشبهة بالأجسام فيما يعطيه الحس ، وهي في نفسها ليست بالأجسام .

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

قوله « لا ينبغي » أنه يريد لا ينبغي ظهوره في الشاهد للناس لأحد ، وإن حصل بالقوة لبعض الناس ، كمسئلة رسول الله ﷺ مع العفريت الذي فتك عليه ، فأراد أن يقبضه ويربطه بسارية من سواري المسجد حتى ينظر الناس إليه ، فتذكر دعوة أخيه سليمان فرده الله خاسئاً ؛ فعلمنا من هذه القصة أنه أراد الظهور في ذلك لأعين الناس ، ويحتمل أن الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، الظهورُ بالمجموع على طريق التصرف فيه ، ثم إن الله أجاب سليمان عليه السلام إلى ما طلب منه بأن ذكر رسول الله ﷺ بدعوة أخيه سليمان حتى لا يمضي ما قام بخاطره من إظهار ذلك ، ومن هذه الآية نعلم أن حب العارف للمال والدنيا لا يقدح في حبه لله والآخرة ، فإنه ما يحبه منه لأمر ما إلا ما يناسب ذلك الأمر في الإلهيات ،

أترى سليمان عليه السلام سأل ما يحجبه عن الله ؟ أو سأل ما يبعده عن الله ؟ هيهات ، بل هي صفة كمالية سليمانية « إنك أنت الوهاب » فما أليق هذا الاسم بهذا السؤال ـــ **إشارة** ـــ ارغب في ملك لا ينبغي لسواك ، أي لا يكون ملكك سواك ، بل يكون ملكك عبوديتك ، فتكون أنت عين ملكك ، وتكون نفسك في ملكك تردها وتحكم عليها ، فهذا هو الملك الذي لا يشارك فيه ، فلمثل هذا فليعمل العاملون ، وفي مثله فليتنافس المتنافسون ـــ **لطيفة** ـــ لا يعرف لذة الاتصاف بالعبودية إلا من ذاق الآلام عند اتصافه بالربوبية واحتياج الخلق إليه ، مثل سليمان عليه السلام حين طلب أن يجعل الله أرزاق العباد على يديه حساً ، فجمع ما حضره من الأقوات في ذلك الوقت ، فخرجت دابة من دواب البحر فطلبت قوتها ، فقال لها : خذي من هذا قدر قوتك في كل يوم ، فأكلته حتى أتت على آخره ، فقالت : زدني فما وفيت برزقي ، فإن الله يعطيني كل يوم مثل هذا عشر مرات ، وغيري من الدواب أعظم مني وأكثر رزقاً ، فتاب سليمان عليه السلام إلى ربه ، وعلم أنه ليس في وسع المخلوق ما ينبغي للخالق تعالى ، فإنه طلب من الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فاستقال من سؤاله حين رأى ذلك ، واجتمعت الدواب عليه تطلب أرزاقها من جميع الجهات ، فضاق لذلك ذرعاً ، فلما قبل الله سؤاله وأقاله ، وجد من اللذة لذلك ما لا يقدر قدره ، ثم إن الله تمم هذه النعمة لسليمان عليه السلام بدار التكليف فقال .

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾

فجعل الله الريح مأمورة ، يعلمنا أنها تعقل ، ولا يسمى الهواء ريحاً إلا إذا تحرك وتموج ، فإذا اشتدت حركته كان زعزعاً ، وإن لم يشتد كان رخاءً أي ريحاً ليناً . والريح ذو روح يعقل كسائر أجسام العالم ، وهبوبه تسبيحه ، والتسخير الذي اختص به سليمان وفضل به على غيره ، وجعله الله له من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، هو كونه عن أمره ، فإن الله يقول في حقنا كلنا من غير تخصيص (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) وقد ذكر تسخير الرياح والنجوم وغير ذلك ، ولكن لا عن أمرنا ، بل عن أمر الله ، فما اختص سليمان إن عقلت إلا بالأمر من غير جمعية ولا همة ، بل بمجرد الأمر ، فكان من سليمان مجرد التلفظ بالأمر لمن أراد تسخيره من غير همة ولا جمعية .

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

ثم قال تعالى لسليمان عليه السلام إتماماً لنعمته عليه .

هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾

« هذا عطاؤنا » ولم يقل لك ولا لغيرك « فامنن » أي أعط « أو أمسك » فرفع عنه الحجر في التصريف بالاسم المانع والمعطي ، وما حجب هذا الملك سليمان عليه السلام عن ربه عز وجل ، أما قوله تعالى « بغير حساب » يعني لست محاسباً عليه ، ولله عباد سليمانيون يقول الله لهم : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » وهم سبعون ألفاً في هذه الأمة ، قد نعتهم النبي ﷺ في الخبر الصحيح ، وعكاشة منهم بالنص عليه .

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾

« وإن له عندنا » يعني في الآخرة « لزلفى وحسن مآب » أي ما ينقصه هذا الملك من ملك الآخرة شيء ، كما يفعله مع غيره حيث أنقصه من نعيم الآخرة على قدر ما تنعم به في الدنيا ، قال تعالى في حق قوم (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) .

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

« اركض برجلك هذا مغتسل » يعني ماء « بارد » لما كان عليه من فرط حرارة الألم ، فسكّنه الله ببرد الماء « وشراب » لإزالة العطش الذي هو من النَصَب والعذاب الذي مسه به الشيطان ركض أيوب برجله عن أمر ربه ، فأزال بتلك الركضة آلامه ، ونبع الماء الذي هو سر الحياة السارية في كل حي طبيعي ، فمن ماء خلق ، وبه بريء ، فجعله رحمة له ، وهو قوله تعالى .

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾

لما لم يناقض الصبر الشكوى إلى الله ، ولا قاوم الاقتدار الإلهي بصبره ، وعلم الله هذا من أيوب عليه السلام ، أعطاه الله أهله ومثلهم معهم ، وجعل الحق تعالى ذكرى لنا وله عليه السلام ، ورفق الله تعالى بأيوب عليه السلام فيما نذره تعليماً لنا ، ليتميز في الموفين بالنذر فقال .

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

« وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث » لا تعود لسانك الحنث ، وبر يمينك ولو بالضغث ، وهو قبضة الحشيش ، وجعلت الكفارة في أمة محمد ﷺ لسترهم عما يعرض لهم من العقوبة في الحنث ، والكفارة عبادة والأمر بها أمر بالحنث إذا رأى خيراً مما حلف عليه ، فراعى الإيمان « إنا وجدناه صابراً » لا يرفع اسم الصبر عن العبد إذا حل به بلاء فسأل الله تعالى في رفع ذلك البلاء ، كما فعل أيوب عليه السلام فقال : (مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وأثنى الله عليه فقال : « إنا وجدناه صابراً نعم العبد » فما قص الحق عليك أمر أيوب عليه السلام إلا لتهتدي بهداه ، إذا كان الرسول سيد البشر يقال له (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فما ظنك بالتابع ؟ ولذلك إذا ابتلاك الحق بضر فاسأله رفعه عنك ، ولا تقاومه بالصبر عليه ، وما سماك صابراً إلا لكونك حبست نفسك عن سؤال غير الحق في كشف الضر الذي أنزله بك « إنه أواب » أي رجّاع إلينا فيما ابتليناه به ، وأثنى عليه بالعبودية ، وهذا يدل على أن الشكوى إلى الله لا تقدح في الصبر ، بل من آداب العبودية الشكوى إلى الله في رفع الضر والبلاء ، فليس الصبر حبس النفس عن الشكوى إلى الله في رفع البلاء أو دفعه ، وإنما الصبر حبس النفس عن الشكوى إلى غير الله ، والركون إلى ذلك الغير ـــ **إشارة** ـــ أعظم الفتن التي فتن الله بها الإنسان تعريفه إياه بأن خلقه على صورته ، ليرى هل يقف مع عبوديته وإمكانه ؟ أو يزهو من أجل مكانة صورته ؟ إذ ليس له من الصورة إلا حكم الأسماء ، فيتحكم في العالم تحكم المستخلَف القائم بصورة الحق على الكمال وكذلك

من تأييد هذه الفتنة ، قول النبي ﷺ يحكيه عن ربه : إن العبد إذا تقرب إلى الله بالنوافل أحبه ، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، وذكر اليد والرجل ـ الحديث ـ وإذا علم العبد أنه بهذه المثابة يسمع بالحق ويبصر بالحق ويبطش بالحق ويسعى بالحق لا بنفسه ، وبقي مع هذا النعت الإلهي عبداً محضاً فقيراً ، ويكون شهوده من الحق وهو بهذه المثابة ، كون الحق ينزل إلى عباده بالفرح بتوبتهم ، والتبشيش لمن يأتي إلى بيته ، والتعجب من الشاب الذي قمع هواه ، واتصافه بالجوع نيابة عن جوع عبده ، وبالظمأ نيابة عن ظمأ عبده ، وبالمرض نيابة عن مرض عبده ، مع علمه بما تقتضيه عزة ربوبيته وكبريائه في ألوهيته ، فما أثر هذا النزول في جبروته الأعظم ولا في كبريائه الأنزه الأقدم ، كذلك العبد إذا أقامه الحق نائباً فيما ينبغي للرب تعالى يقول العبد : ومن كمال الصورة التي قال إنه خلقني عليها أن لا يغيب عني مقام إمكاني ، ومنزلة عبوديتي ، وصفة فقري وحاجتي ، كما كان الحق في حال نزوله إلى صفتنا حاضراً في كبريائه وعظمته ، فيكون الحق مع العبد إذا وفّى بهذه الصفة ، يثني عليه بأنه نعم العبد إنه أواب ، حيث لم يؤثر فيه هذه الولاية الإلهية ولا أخرجته عن فقره واضطراره ؛ ومن تجاوز حدّه في التقريب انعكس إلى الضد ، وهو البعد من الله والمقت ، فاحذر نفسك فإن الفتنة بالاتساع أعظم من الفتنة بالحرج والضيق ، فإن كنت صاحب غرض ، وتحس بمرض وألم فاحبس نفسك عن الشكوى لغير من آلمك بحكمه عليك ، كما فعل أيوب عليه السلام ، وهو الأدب الإلهي الذي علمه أنبياءه ورسله ، فإنه ما آلمك وحكم عليك بخلاف غرضك إلا لتسأله في رفع ذلك عنك ، فإن مَنْ لم يشك إلى الله مع الإحساس بالبلاء وعدم موافقة الغرض فقد قاوم القهر الإلهي ، فالأدب كل الأدب في الشكوى إلى الله في رفعه لا إلى غيره ، ويبقى عليه اسم الصبر كما قال تعالى في رسوله أيوب عليه السلام « إنا وجدناه صابراً » في وقت الاضطراب والركون إلى الأسباب ، فلم يضطرب ولا ركن إلى شيء غير الله ، إلا إلينا ، لا إلى سبب من الأسباب . فإنه لابد طبعاً عند الإحساس من الاضطراب وتغير المزاج ، بخلاف الآلام النفسية إذا وردت الأمور التي من شأنها أن تتألم النفوس عند ورودها ، فقد يتلقاها بعض العباد ولا أثر لها فيه على ظاهره ، والأمور المؤلمة إذا أحسّ بها تحرك لها طبعاً ، إلا إن شغله عنها أمر يزيل إحساسه ، وكلامنا في ذلك مع الإحساس كأيوب وذي النون سلام الله عليهما .

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

المصطفون من بين الخلائق باجتبائه « الأخيار » وهم الذين تولاهم الله بالخيرة قال تعالى : (أولئك لهم الخيرات) جمع خيرة وهي الفاضلة من كل شيء ، والفضل يقتضي الزيادة على ما يقع فيه الاشتراك مما لا يشترك فيه من ليس من ذلك الجنس . فالأخيار كل من زاد على جميع الأجناس بأمر لا يوجد في غير جنسه ، من العلم بالله على طريق خاص لا يحصل إلا لأهل ذلك الجنس ، ثم في هذا الجنس العالم بهذا العلم الخاص الذي به سموا أخياراً منهم من أُعطي الإفصاح عما علمه ، ومنهم من لم يعط الإفصاح عما علمه في نفسه ، فالذي أعطي الإفصاح أخير ممن هو دونه ، وهو المستحق بهذا الاسم ، فإن الخير بالكسر الكلام ، يقال : في فلان كَرَم وخير ، أي كرم وفصاحة ، فإذا أعطي الفصاحة عما عنده اهتدى به من سمع منه فكانت المنفعة به أتم ، فكان أفضل من غيره ، ولهذا ورد في أوصاف المرسلين ، لأن الرسول لابد أن يكون مؤيداً بالنطق ، ليبين لمن أُرسِل إليه ما أُرسِل به إليه ، فهم الأخيار أصحاب هذه الفضيلة .

وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ

مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾

يقول أهل النار هذا القول عندما لا يرون من كانوا يعدونهم من الأشرار ، وهو من دخل النار من أمة محمد ﷺ التي بعث إليها في مشارق الأرض ومغاربها ، فلا تخلد أمة محمد ﷺ في النار ، فلا يبقى في النار موحد ممن بعث إليه رسول الله ﷺ .

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾

فوصفهم بالمخاصمة وهي المشاجرة ، ومنها (قالت أولاهم لأخراهم) (وقالت أخراهم لأولاهم) وغير ذلك مما ورد في القرآن ، وذلك الخصام هو نفس عذابهم في تلك الحال .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾

« وما من إله إلا الله الواحد » في ألوهيته « القهار » للمنازعين له في ألوهيته من عباده ، والمزاحمين له في أفعاله ، والقهار لمن نازعه من عباده بجهالة و لم يتب .

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾

الخلاف فيما علا عن رتبة المولد من الأركان أقل وإن كان لا يخلو ، ألا ترى إلى الملأ الأعلى كيف يختصمون ؟ وما كان لرسول الله ﷺ علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون حتى أعلمه الله بذلك ، فقال تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ « ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون » وقال النبي ﷺ : [إن اختصام الملأ الأعلى في الكفارات ، ونقل الأقدام إلى

الصلاة في الجماعات ، وإسباغ الوضوء في المكاره ، والتعقيب[1] في المساجد إثر الصلوات] فمعنى ذلك أي هذه الأعمال أفضل ؟ ومعنى أفضل على وجهين : الواحد أي الأعمال أحب إلى الله من هذه الأعمال ، والوجه الآخر أي الأعمال أعظم درجة في الجنة للعامل بها ، فنزاع الملائكة هنا في الأُولى ؛ وقد ورد اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في الشخص الذي مات بين القريتين ؛ ومن اختصام الملأ الأعلى أن ملائكة التوحيد والوحدات ــ وهم من ملائكة العرش الذين لا يرون إلا الكلمة الواحدة وهي الرحمة العامة ــ إذا جمعهم مع المقسمات ــ وهم من ملائكة الكرسي أي المقسمات أمراً الذين لا يشهدون إلا انقسام الكلمة إلى رحمة وغضب ــ إذا جمعهم مجلس واحد وجرت بينهما مفاوضات في الأمر اختصما ، لأنهما على النقيض ، وهذا من جملة ما يختصم فيه الملأ الأعلى ، فيقول الصنف الواحد بالوحدة ، ويقول الآخر بالانقسام والثنوية . فالخصام من حكم الملائكة لأنها تحت حكم الطبيعة ، ولولا أن الملأ الأعلى له جزء من الطبيعة ، ومدخل من حيث هيكله النوري ، ما وصفهم الحق بالخصام ، ولا يختصم الملأ الأعلى إلا من حيث المظهر الطبيعي الذي يظهر فيه ، كظهور جبريل في صورة دحية ، وكذلك ظهورهم في الهياكل النورية المادية ، وهي هذه الأنوار التي تدركها الحواس ، فإنها لا تدركها إلا في مواد طبيعية عنصرية ، وأما إذا تجردت عن هذه الهياكل فلا خصام ولا نزاع ، إذ لا تركيب . ولنبين أولاً سبب الاختصام فنقول : هذه الآية مما يدل على أن الملائكة من عالم الطبيعة مخلوقون ، مثل الأناسي غير أنهم ألطف ، كما أن الجن ألطف من الإنسان مع كونهم من نار من مارجها ، والنار من عالم الطبيعة ، فكذلك الملائكة عليهم السلام من عالم الطبيعة ، وهم عُمَّار الأفلاك والسموات ، فإنهم يختصمون ، والخصام من الطبيعة لأنها مجموع أضداد ، والمنازعة والمخالفة هي عين الخصام ، ولا يكون إلا بين ضدين ، فلولا أن الملائكة في نشأتها على صورة نشأتنا ، أي أن نشأتها عنصرية ، ما ذكر الله عنهم أنهم يختصمون ، والخصام لا يكون إلا مع الأضداد ، فالملائكة عليهم السلام لو لم تكن الأنوار التي خلقت منها موجودة من الطبيعة ، مثل السموات التي عمرتها هؤلاء الملائكة ، فإنها كانت دخاناً ، فكانت السموات أجساماً شفافة ، لأن كمية الحرارة واليبس فيه أكثر من الرطوبة ، وخلق الله عُمَّار كل فلك من طبيعة فلكه ، فلذلك

---

(١) التعقيب هو الجلوس في المسجد بعد الفراغ من الصلاة لذكر الله .

كانت الملائكة من عالم الطبيعة ، وإن كانت أجسامهم نورية فمن نور الطبيعة ، كنور السراج ، فأثر فيهم حكم الطبيعة الخصام لما فيها من التقابل والتضاد ، والضد والمقابل منازع لمقابله ، فهذه هي الحقيقة التي أورثتهم الخصومة ، ونعتوا بأنهم يختصمون لأن الخصام لا يكون إلا فيمن ركب من الطبائع لما فيها من التضاد ، فلابد فيمن يتكون عنها أن يكون على حكم الأصل ، فالنور الذي خلقت منه الملائكة نور طبيعي ، فكانت فيها الموافقة من وجه والمخالفة من وجه ، فهذا سبب اختلاف الملأ الأعلى فيما يختصمون فيه . ومما دعا الملأ الأعلى إلى الخصام التخيير في الكفارات ، والتخيير حيرة فإنه يطلب الأرجح أو الأيسر ، ولا يعرف ذلك إلا بالدليل ، فلو أن الله يعلمهم بما هو الأفضل عنده من هذه الأعمال والأحب إليه ما تنازعوا ، ولو أنهم يكشفون ارتباط درجات الجنان بهذه الأعمال لحكموا بالفضيلة للأعلى منها ، وإنما الله سبحانه غيَّب عنهم ذلك ، فهم في هذه المسئلة بمنزلة علماء البشر إذا قعدوا في مجلس مناظرة فيما بينهم في مسئلة من الحيض الذي لا نصيب لهم فيه ، بخلاف المسائل التي لهم فيها نصيب ، وإنما قلنا ذلك لأن الكفارات إنما هي لإحباط ما خالف فيه المكلف ربه من أوامره ونواهيه ، والملائكة قد شهد الله لهم بالعصمة أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون به ، وما بلغنا أن عندهم نهي ، وإذا لم يعصوا وكانوا مطيعين فليس لهم في أعمال الكفارات قَدَم ، فهم يختصمون فيما لا قَدَم لهم فيه ، وكذلك ما بقي من الأعمال التي لا قدم لهم فيها ، فهم مطهرون فلا يتطهرون فلا يتصفون في طهارتهم بالإسباغ والإبلاغ في ذلك وغير الإسباغ ، وكذلك المشي إلى مساجد الجماعات لشهود الصلوات ليس لهم هذا العمل ، فإن قلت : فإنهم يسعون إلى مجالس الذكر ، ويقول بعضهم لبعض : هلموا إلى بغيتكم . فاعلم أن الذكر ما هو عين الصلاة ، ونحن إنما نتكلم في عمل خاص في الجماعة ليس لهم فيه دخول مثل ما لبني آدم ، فإنهم ليسوا على صور بني آدم بالذات ، وإنما لهم التشكل فيهم ، وقد علم جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ الصلوات بالفعل ، وتلك من جبريل حكاية يحكيها للتعليم والتعريف بالأوقات ؛ وأما التعقيب إثر الصلوات فإنما ذلك للمصلين على هذه الهيئة المخصوصة التي ليست للملائكة ، فما اختصموا في أمر هو صفتهم ، فلهذا ضربنا مسئلة الحيض مثلاً ، وسبب ذلك أن الملائكة تدعو بني آدم في لماتها إلى العمل الصالح وترغبهم في الأفضل ، فلهذا اختصمت في الأفضل حتى تأمرهم به . وأما

قوله ﷺ كفارات جمع كفَّارة ببنية المبالغة ، إنباء بذلك على أنه لصورة العمل الواحد أنواع كثيرة من البلاء ، وأن الكفارات إنما شرعت لتكون حجاباً بين العبد وبين ما عرَّض إليه نفسه من حلول البلايا بالمخالفات التي عملها ، مأموراً كان بذلك العمل أو منهياً عنه ، فكانت الكفارات عواصم من القواصم ، كما أن للشيء الواحد وإن لم يكن معصية كفارات مختلفة ، مثل الحاج يحلق رأسه لأذى يجده ، أو المتمتع أو المظاهر أو من حلف على يمين فرأى خيراً منها ، فإن مثل هذا له كفارات مختلفة ، أيَّ عمل مكفر فَعَلَ سقط عنه الآخر ، فقام هذا العمل الواحد مقام ما بقي مما سقط عنه ، فيتصور خطاب الملائكة أي كفارات التخيير أولى بأن يفعل ، أو لماذا تكون كفارة وما عمل شيئاً تجب أن تتوجه فيه العقوبة حتى تكون هذه الكفارة تدفعه ، فالملأ الأعلى يختصْمون في مثل هذا أيضاً ، ولكي تخرج من الحيرة فإذا خيركِ الحق في أمور فانظر إلى ما قدم منها بالذكر فاعمل به ، فإنه ما قدمه حتى تهمم به وبك ، فكأنه نبَّهك على الأخذ به ، فما تزول الحيرة عن التخيير إلا بالأخذ بالمتقدم ، تلا رسول الله ﷺ حين أراد السعي في حجة الوداع (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ثم قال : [أبدأ بما بدأ الله به] فبدأ بالصفا ، وهذا عين ما أمرتك به لإزالة حيرة التخيير ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، والظاهر من هذه الآية في هذا الأمر أن الملائكة لهم نظر فكري يناسب خلقهم ، فإنه لما نبهت الشريعة باختصام الملأ الأعلى علمنا أنه من عالم الطبيعة ، وأن للطبيعة في الملائكة أثراً كما أن للأركان في أجسام المولدات أثراً ، فإن أردت أن ترفعه عنها ، وتنزله منزلتها منها ، فقل : لاختلاف الأسماء ، وهذا أوضح ما يكون من الإيماء .

إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾

سمي الإنسان بشراً من المباشرة ، لمباشرة الحق خلقه بيديه بحسب ما يليق بجلاله ، فإن الله خلقه برفع الوسائط مع المباشرة فقال (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) واختص الإنسان بهذا الاسم مع مباشرة الحق لخلق الموجودات ، لأن الإنسان أكمل الموجودات خلقاً ، وكل نوع من الموجودات ليس له ذلك الكمال في الوجود ، فالإنسان أتم المظاهر ،

فاستحق اسم البشر دون غيره من الأعيان ، وسرت هذه الحقيقة في البنين فلم يوجد أحد منهم إلا عن مباشرة ، حتى في وجود عيسى عليه السلام لما تمثّل لها الروح بشراً سوياً ، فجعله واسطة بينه تعالى وبين مريم في إيجاد عيسى ، تنبيهاً على المباشرة بقولـه : (بشراً سوياً) .

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾

اعلم أنه لما أقام الحق تعالى الإنسان بهذا المقام الأكمل ، ورداه برداء المعلم الأجمل ، فنظرت إليه الروحانيات العلى بعين التعظيم ، وذلك قبل وجود مركبه البهيم ، فإنه تعالى قال لهم : (إني جاعل في الأرض خليفة) فلم يزل عالي الكلمة بعلم الأسماء ، مميزاً لتفاصيل الأشياء ، إلى أن أخذت مقاماتها الأملاك ، ودارت بأشواقها الأفلاك ، وانفعلت الأكوان لذلك الدور ، وانعطف المكور عليها بعد الكور ، وظهرت المولدات الجسمانيات والجسميات ، ذوات الكميات والكيفيات ، كالمعدن والنبات والحيوان ، وليس للإنسان وجود في الأعيان ، حتى إذا بلغت الدورة المخصوصة ، وتوجهت الكلمة المنصوصة ، من الحضرة العلية المأنوسة ، بإيجاد هذه الكلمة الهوية المحروسة ، قبض الحق سبحانه ـــ كما روي ـــ من الأرض قبضة من حيث لا يعلمون ، وخمر طينته بيديه من غير تشبيه ولا تكييف وهم لا يشعرون ، وسواه متجاور الأضداد ، وميّزه بالحركة المستقيمة من بين سائر الأولاد ، وأعطته قوى هذه البنية التصرف بالحركة المنكوسة والأفقية ، ثم أنطق الفهوانية في الروحانيات بخلافته ، فطعنت من فورها في نيابته ، ولو عاينت تشريف اليدين ، ما حجبتهم مجاورة الضدين ، ولأنه سبحانه ما ذكر لملائكته إلا خلافته في الأرض ، وما تعرض للملائكة ، فلما ظهر من الملائكة في حق آدم ما ظهر ، قام ذلك الترجيح منهم لأنفسهم ، وكونهم أولى من آدم بذلك ، ورجحوا نظرهم على علم الله في ذلك ، فقام لهم ذلك مقام خطايا بني آدم ، فكان سبباً لسيادة آدم على الملائكة ، فأمروا بالسجود له لتثبيت سيادته عليهم ، فقال تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » فأمر الله سبحانه الملائكة بالسجود لمعلمهم سجود أمر ـــ كسجود الناس إلى الكعبة ـــ وتشريف ، لا سجود عبادة ، فهذا السجود كالتواضع والخضوع ، والإقرار بالسبق والفخر والشرف

والتقدم له ، كتواضع التلميذ لمعلمه ، وذلك تشريف من الله سبحانه ، ودليل قاطع على ثبوت إرادته ، يختص برحمته من عباده من يشاء ، فلما نفخ فيه الروح الأنزه ، والسر الحاكم المتأله ، عرفت الملائكة حينئذ قدر هذا البيت الأعلى ، والمحل الأشرف الأسنى ، فأوقفهم الحق بين يديه طالبين ، وأمرهم فوقعوا له ساجدين .

فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾

ــ **تحقيق** ــ اعلم أن الأمر حق وخلق ، وأنه وجود محض لم يزل ولا يزال ، وإمكان محض لم يزل ولا يزال ، وعدم محض لم يزل ولا يزال ، فالوجود المحض لا يقبل العدم أزلاً وأبداً ، والعدم المحض لا يقبل الوجود أزلاً وأبداً ، والإمكان المحض يقبل الوجود لسبب ، ويقبل العدم لسبب أزلاً وأبداً ، فالوجود المحض هو الله ليس غيره ، والعدم المحض هو المحال وجوده ليس غيره ، والإمكان المحض هو العالم ليس غيره ، ومرتبته بين الوجود المحض والعدم المحض ، فبما ينظر منه إلى العدم يقبل العدم ، وبما ينظر منه إلى الوجود يقبل الوجود ، فمنه ظلمة وهو الطبيعة ، ومنه نور وهو النَفَس الرحماني الذي يعطي الوجود لهذا الممكن ؛ فالعالم حامل محمول ، فبما هو حامل هو صورة وجسم وفاعل ، وبما هو محمول هو روح ومعنى ومنفعل ، فما من صورة محسوسة أو خيالية أو معنوية إلا ولها تسوية من جانب الحق وتعديل ، كما يليق بها وبمقامها وحالها ، وذلك قبل التركيب ، أعني اجتماعها مع المحمول الذي تحمله ، فإذا سواها الرب بما شاء ــ من قول أو يد أو يدان أو أيد ، وما ثَمَّ سوى هذه الأربعة ، لأن الوجود على التربيع قام ــ وعدله ، وهو التهيؤ والاستعداد للتركيب والحمل ، تسلمه الرحمن فوجه عليه نَفَسه وهو روح الحق في قوله (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) وهو عين هذا النفس قبلته تلك الصورة ، واختلف قبول الصور بحسب الاستعداد ، فإذا كانت الصورة عنصرية واشتعلت فتيلتها بذلك النَفَس ، سميت حيواناً عند ذلك الاشتعال ، وإن لم يظهر لها اشتعال وظهر لها في العين حركة وهي عنصرية سميت نباتاً ، وإن لم يظهر لها اشتعال ولا حركة أعني في الحس وهي عنصرية سميت معدناً وجماداً . وقد عرفنا الحق أن سبب الحياة في صور المولدات إنما هو النفخ الإلهي ، وهو النفس الذي أحيى الله به الإيمان فأظهره ، قال ﷺ : [إن نفس الرحمن يأتيني من قبل اليمن] فحييت بذلك

النفس الرحماني صورة الإيمان في قلوب المؤمنين والأحكام المشروعة ، وهذا الروح المنفوخ هو السر الذي عند المخلوق من الله ، فلا يراه إلا به ، ولا يسمع كلامه إلا به ، فإنه يتعالى ويتقدس أن يُدرَك إلا به ، فكل العناصر تجتمع على هذا السر الإلهي وتشتمل عليه ، وبه سبّحت الصورة بحمده ، وحمدت ربها إذ لا يحمده سواه ، ولو حمدته الصورة من حيث هي لا من حيث هذا السر لم يظهر الفضل الإلهي ولا الامتنان على هذه الصورة ، وقد ثبت الامتنان له على جميع الخلائق ، فثبت أن الذي كان من المخلوق لله من التعظيم والثناء إنما كان من ذلك السر الإلهي ، ففي كل شيء من روحه ، وليس شيء فيه ، فالحق هو الذي حمد نفسه ، وسبح نفسه ، وما كان من خير إلهي لهذه الصورة عند ذلك التحميد والتسبيح فمن باب المنة لا من باب الاستحقاق الكوني ، فإن جعل الحق له استحقاقاً فمن حيث أنه أوجب ذلك على نفسه . ــ **إشارة** ــ الأرواح المنفوخة في الأجسام من أصل مقدس نقي ، فإن كان المحل طيب المزاج زاد الروح طيباً ، وإن كان غير طيب خبّثه وصيّره بحكم مزاجه ، فرسل الله الذين هم خلفاؤه أطهر الناس محلاً ، فهم المعصومون ، فما زادوا الطيب إلا طيباً ، وما عداهم من الخلفاء منهم مَنْ يلحق بهم ، وهم الورثة في الحال والفعل والقول ، ومنهم من يختل بعض اختلال وهم العصاة ، ومنهم من يكثر منه ذلك الاختلال وهم المنافقون ، ومنهم المنازع والمحارب وهم الكفار والمشركون ، فيبعث الله إليهم الرسل ليعذروا من نفوسهم إذا عاقبهم بخروجهم عليه واستنادهم إلى غيره الذي أقاموه إلهاً فيهم من أنفسهم ، والأرسال من الله إنما أرسلهم من كونه مَلِكاً إلى النفوس الناطقة من عباده لكونهم مدبرين مدائن هياكلهم ، ورعاياهم جوارحهم الظاهرة ، وقواهم الباطنة ، فيبعث الله رسله إلى هذه النفوس الناطقة ، وهي التي تنفذ في الجوارح ما تنفذ من طاعة ومخالفة ، ولها قبول الرسالة والإقبال على الرسول والتحفي به أو الإهانة ، وقد يكون الرد بحسب ما أعطاها الله من الاستعداد من توفيق أو خذلان ، فجعل النفوس ملوكاً على أبدانها ، وآتاها ما لم يؤت أحداً من العالمين ، وهو طاعة رعاياها لها ، فالجوارح والقوى لا تعصي لها أمراً بوجه من الوجوه ، وسائر الملوك الذين رعاياهم غير متصلين بهم قد يعصون أوامر ملوكهم ، كما أن من هؤلاء الملوك مَنْ قد يعصي ما أمره به الملك الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله إليهم وقد يطيع ، فتوجيه الرسل وبَعْثُ الله إليهم ، أثبت لهم كونهم ملوكاً ، فإن الرسل عرفاء لا تمشي إلا بين

الملوك لا بين الرعايا ، فلما أنزلهم الحق منزلته في الملك ، علمنا أنه لولا ثَمَّ مناسبة تقتضيه ما كان هذا ، فإذا المناسبة في أصل الخلقة ، وهي قوله تعالى : (ونفخت فيه من روحي) فهو ولّاه وملّكه وجعله خليفة عنه ، فما كانت الرسل إلا إلى ولاته ، فهذه إشارة إلى أن النفس الناطقة هي المخاطبة من الحق بواسطة الرسول ، ولما كانت صورة الإنسان الأول المخلوق باليدين على الصورة الإلهية الجامعة ، وتوجه عليها الرحمن بنَفَسه ، ونفخ فيها روحاً من أمره ، فحمل الإنسان الأول في تلك النفخة علم الأسماء الإلهية التي لم يحملها صورة العقل أول مخلوق ، فخرج على صورة الحق ، وفيه انتهى حكم النَفَس ، إذ لا أكمل من صورة الحق ، فقال تعالى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » .

إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

سمى الله إبليس كافراً ، لأنه يستر عن العباد طريق سعادتهم التي جاء بها الشرع في حق كل إنسان بما يقدر عليه من ذلك ، ولم يقل من المشركين ، لأنه يخاف الله رب العالمين ، ويعلم أن الله واحد ـــ راجع البقرة آية ٣٤ ـــ .

قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾

إن الله خلق آدم بيديه على جهة التشريف لقرينة الحال ، حين عرّف بذلك إبليس لما ادعى الشرف على آدم بنشأته ، فما توجهت اليدان إلا على طينة آدم وطبيعته ، فقال تعالى : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » فما أضاف الحق آدم إلى يديه إلا على جهة التشريف والاختصاص على غيره ، والتنويه لتعلم منزلته عند الله ، فإنه لم يجمع سبحانه لشيء مما خلقه من أول موجود إلى آخر مولود وهو الحيوان بين يديه تعالى إلا الإنسان وهذه النشأة البدنية الترابية ، بل خلق كل ما سواها إما عن أمر إلهي ، أو عن يد واحدة ، قال تعالى : (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) فهذا عن أمر إلهي ، وورد في الخبر [إن

الله عز وجل خلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده ، وخلق آدم الذي هو الإنسان بيديه] فلما جمع الله لآدم في خلقه بين يديه ، علمنا أنه قد أعطاه صفة الكمال فخلقه كاملاً جامعاً ، ولهذا قبل الأسماء كلها ؛ وقد وردت الأخبار والآيات بتوحيد اليد الإلهية وتثنيتها وجمعها ، وما ثنّاها إلا في خلق آدم عليه السلام وهو الإنسان الكامل ، ولا شك أن التثنية برزخ بين الجمع والإفراد ، بل هي أول الجمع ، والتثنية تقابل الطرفين بذاتها ، فلها درجة الكمال ، لأن المفرد لا يصل إلى الجمع إلا بها ، والجمع لا ينظر إلى المفرد إلا بها ، فبالإنسان الكامل ظهر كمال الصورة ، فهو قلب لجسم العالم الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله ، وهو البيت المعمور بالحق لما وسعه ولا يسوغ هنا حمل اليدين على القدرة لوجود التثنية ، ولا على أن تكون اليد الواحدة النعمة ، والأخرى يد القدرة ، فإن ذلك سائغ في كل موجود ، فلا شرف لآدم بهذا التأويل ، فلابد أن يكـون لقولـه « بيدي » خلاف ما ذكرناه مما يصح به التشريف ، فإنه لما أراد الله كمال هذه النشأة الإنسانية جمع لها بين يديه ، وأعطاها جميع حقائق العالم ، وتجلى لها في الأسماء كلها ، فحازت الصورة الإلهية ، والصورة الكونية وجعلها روحاً للعالم ، وجعل أصناف العالم له كالأعضاء من الجسم للروح المدبر له ، فلو فارق العالَم هذا الإنسان مات العالمُ ، كما تتعطل الدنيا بمفارقة الإنسان ، فالدار الدنيا جارحة من جسد العالم الذي الإنسان روحه ، ولكونه جامعاً قابل الحضرتين بذاته ، فصحت له الخلافة ، وتدبيرُ العالم وتفصيلُه ، فإذا لم يحز إنسان رتبـة الكمال فهو حيوان ، تشبه صورته الظاهرة صورة الإنسان ، فإن الله ما خلق أولاً مِن هذا النوع إلا الكامل وهو آدم عليه السلام « أستكبرت » في نظرك ؟ بقوله : (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وكذلك كان ، فإن الله أخبر عنه أنه استكبر فقوله تعالى « أستكبرت » ؟ على من هو مثلك يعني عنصرياً « أم كنت من العالين » أي أنك في نفس الأمر خير منه فكنت من العالين عن العنصر ، ولست كذلك ، ويعني بالعالين من علا بذاته عن أن يكون عنصرياً في نشأته النورية العنصرية وإن كان طبيعياً ، فهو علو المكانة عند الله ، فهنا ظهر جهل إبليس ، وقد يريد بالعالين الملائكة المهيمة في جلال الله الذين لم يدخلوا تحت الأمر بالسجود ، فهم المهيمون الكروبيون ، وهم أرواح ما هم ملائكة ، فإن الملائكة هم الرسل من هذه الأرواح ، كجبريل عليه السلام وأمثاله ، فإن الألوكة هي الرسالة في

لسان العرب ، ولم تدخل الأرواح المهيمة فيمن خوطب بالسجود ، فإن الله ما ذكر أنه خاطب إلا الملائكة ، فقال : « أم كنت من العالين » وهم هذه الأرواح المهيمة في جلال الله ، لا تعلم أن الله خلق آدم ولا شيئاً لشغلهم بالله ، أي هل أنت من هؤلاء الذين ذكرناهم فلم تؤمر بالسجود ؟ فالعالون هم العابدون بالذات لا بالأمر ، ما أمروا بالسجود لأنهم ما جرى لهم ذكر في تعريف الله إيانا ، ومن العالين اللوح والقلم فلا يتمكن لهم إنكار آدم الإنسان الكامل ، والقلم قد سطره ، واللوح قد حواه ، فإن القلم لما سطره سَطَّر رتبته وما يكون منه ، واللوح قد علم علم ذوق ما خطه القلم فيه ، وأما الأرواح المهيمة فإن الله خلقها في العماء وهيّمها في جلاله ، ثم خلق الخلق فشغلهم هيمانهم في جلال جماله أن يروا سواه ، فهم الذين لا يعرفون أن الله خلق أحداً ، فأعلاهم الحق أن يكون شيء من الخلق لهم مشهوداً ولا نفوسهم ، فهم عبيد اختصهم الله لذاته ، والتجلي لهم دائم ، وهم فيه هائمون لا يعلمون ما هم فيه ، فهم لا يشهدون علو الحق ، لأنه لا يشهد علو الحق إلا من شهد نفسه ، وهم في أنفسهم غائبون ، فهم أرفع الأرواح العلوية ، وكل روح لا يعطي رسالة فهو روح ، لا يقال فيه : مَلَك إلا مجازاً . فالعالون ليسوا بملائكة من حيث الاسم ، فإنه موضوع للرسل منهم خاصة ، فمعنى الملائكة الرسل ، وهو من المقلوب وأصله مألكة ، والألوكة الرسالة والمألكة الرسالة ، فما تختص بجنس دون جنس ، ولهذا دخل إبليس في الخطاب بالأمر بالسجود لما قال الله للملائكة (اسجدوا) لأنه ممن كان يستعمل في الرسالة فهو رسول ، فأمره الله فأبى ، فالرسالة جنس حكم يعم الأرواح الكرام البررة السفرة والجن والإنس ، من كل صنف مَنْ أرسل ، فكان قوله تعالى لإبليس « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » بحسب ما يليق بجلاله على جهة التشريف الإلهي الذي خص به آدم بخلقه بيديه ، إذ اليد بمعنى القدرة لا شرف فيها على من شرف عليه ، واليد بمعنى النعمة مثل ذلك ، فإن النعمة والقدرة عمت جميع الموجودات ، فلابد أن يكون لقوله بيدي أمر معقول له بخصوص وصف بخلاف هذين وهو المفهوم من لسان العرب الذي نزل القرآن بلغتهم ، فإذا قال صاحب اللسان : إنه فعل هذا بيده ، فالمفهوم منه رفع الوسائط « أستكبرت أم كنت من العالين » على طريق الاستفهام بما هو به عالم ، ليقيم شهادته على نفسه بما ينطق به .

ــ **مسئلة** ــ هذه الآية من أدل الأدلة على إثبات الأسباب عند الله ، فإن الله قادر أن يكون

آدم ابتداء من غير تخمير ولا توجه يديه ولا تسوية ولا تعديل لنفخ روح ، بل يقول له : كن فيكون ، ومع هذا خمر طينته بيديه وسواه وعدله ، ثم نفخ فيه الروح ، وعلمه الأسماء ، وأوجد الأشياء على ترتيب . فقال إبليس .

قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾

فاستكبر على آدم لا على أمر الله ، وما كان من العالين ، فأخذه الله بقوله ، وكان من الكافرين نعمة الله عليه حين أمر بالسجود لآدم ، وألحقه بالملأ الأعلى في الخطاب بذلك ، فحرمه الله لشؤم النشأة العنصرية ــ راجع سورة الأعراف آية ١١ ــ .

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾

كأن إبليس يُري الحق أنه يعلم من نشأة الإنسان قبوله لكل ما يلقى إليه ، فأقسم بالله تعالى فقال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » وهو مجبور في الإغواء وإن كان من اختياره إبراراً لقسمه بربه ، فإنه وإن سبق له الشقاء فله شبهة يستند إليها في امتثال أمر سيده ، بعد أن حقت الكلمة كلمة العذاب عليه بقوله تعالى : اذهب ، واستفزز ، وأجلب ، وعدهم . فإنه يجد لذلك تنفيساً

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

يعني الذين اصطنعهم الحق لنفسه ، فهم الذين أخلصهم الله إليه مما ألقى إليهم ، وفيهم من نور الحفظ والعصمة ، ولذلك قال تعالى : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) أي قوة وقهر وحجة ، لأن الله تولى حفظهم وتعليمهم بما جعل فيهم من التقوى ، فلما اتخذوا الله جل جلاله وقاية لم يجد اللعين من أين يدخل عليهم بشيء ، فإنه أينما تولى منه ليدخل

عليه بما يخرجه عن دينه وعلمه ، وجد في تلك الجهة وجه الله يحفظه ، فلا يستطيع الوصول إليه بالوسوسة . ولما سأل إبليس ذلك أجاب الله سؤاله فقال له : (اذهب) الآية رقم ٦٣ سورة الإسراء ـــ يعني إلى ما سألته مني ، وذكر له جزاءه وجزاء من اتبعه من الإنس ، فكان جزاء الشيطان أن رده إلى أصله الذي منه خلقه ، والذي اتبعه كذلك ، فقال .

قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

فغلَّب جزاء الإنسان على جزاء إبليس ، فإن الله ما جعل جزاءهما إلا جهنم وفيها عذاب إبليس ، فإن جهنم برد كلها ما فيها شيء من النارية ، فهو عذاب لإبليس أكثر من متبعه ، وإنما كان ذلك لأن إبليس طلب أن يُشْقِيَ الغير ، فحار وباله عليه لما قصده ، فهو تنبيه من الحق لنا أن لا نقصد وقوع ما يؤدي إلى الشقاء لأحد ، فعذاب الشياطين من الجن في جهنم أكثر ما يكون بالزمهرير لا بالحرور ، وقد يعذب بالنار ، وبنو آدم أكثر عذابهم بالنار ، وسميت جهنم جهنماً لأنها كريهة المنظر ، والجهام السحاب الذي هرق ماءه ، والغيث رحمة الله فلما أزال الله الغيث من السحاب بإنزاله أطلق عليه اسم الجهام ، لزوال الرحمة الذي هو الغيث منه ، كذلك الرحمة أزالها الله من جهنم ، فكانت كريهة المنظر والمخبر ، وسميت أيضاً جهنم لبعد قعرها يقال : ركية جهنام ، انظر الإشارة سورة فاطر آية رقم ٦

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

كل ما ينسب إلى الله تعالى فهو بحسب ما يليق بجلاله من غير تكييف ولا تشبيه ولا تصور ، بل كما تعطيه ذاته وما ينبغي أن ينسب إليها من ذلك (لا إله إلا هو) « العزيز » فلا يصل أحد إلى العلم ولا إلى الظفر بحقيقته « الحكيم » الذي نزل لعباده في كلماته فقرّب البعيد في الخطاب لحكمة أرادها تعالى .

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾

« فاعبد الله مخلصاً له الدين » أي طهر عبادتك من العلل حتى تعبد الله عبداً خالصاً محضاً ، لا تشوبه علة ولا مرض في عبادته ولا عبوديته ، فإن الموحد يعبد الله من طريقين : من طريق الذات من كونها تستحق وصف الألوهية ، ومن طريق الألوهية ، فالسعيد الجامع بينهما ، لأن العبد مركب من حرف ومعنى ، فالحرف للحرف والمعنى للمعنى ، فلذلك لا نعبد الذات معراة عن وصفها بالألوهية ، و لم تعبد الألوهية من غير نسبتها إلى موصوف بها ، فلم تقم العبادة إلا على ما تقتضيه حقيقة العبد وهو التركيب ، لا على ما تقتضيه حقيقة الحق وهو الأحدية ، التي لا تتعلق ولا يتعلق بها فإنها للذات ، فلَبِّ إذا دعاك الحق إليه ، لا رغبة فيما في يديه ، فإنك إن أحببته لذلك ، فأنت هالك ، وكنت لمن أجبت ، وأخطأت وما أصبت ، واستعبدك الطمع واسترقك ، وأنت تعلم أن الله لابد أن يوفيك حقك ، فمن كان عبداً لغير الله فما عبد إلا هواه ، وأخذ به العدو عن طريق هداه ، ما اختزن الأشياء إلا لك ، فقصر أملك وأخلص لله عملك .

أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

« ألا لله الدين الخالص » ــ **الوجه الأول** ــ ألا إنه العهد الذي خلص لنفسه في وفاء العبد به ، ما استخلصه العبد من الشيطان ، ولا من الباعث عليه من خوف ولا رغبة ولا جنة ولا نار ، فقد يكون الباعث للمكلف مثل هذه الأمور في الوفاء بعهد الله ، فيكون

العبد من المُخلِصِين ، ويكون الدين بهذا الحكم مستخلصاً من حد من يعطي المشاركة فيه ، فيميل العبد به عن الشريك ، والعهد الخالص هو الذي لما أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ثم ولد كل بني آدم على الفطرة ، وهو قوله ﷺ : [كل مولود يولد على الفطرة] وهو الميثاق الخالص لنفسه ، الذي ما ملكه أحد غصباً فاستخلص منه ، بل لم يزل خالصاً لنفسه في نفس الأمر طاهراً مطهراً ، فإذا ولد المولود ونشأ محفوظاً قبل التكليف ، و لم يرزء في عهده هذا بشيء مما ذكرناه آنفاً ، فبقي عهده على أصله خالصاً ، وهو الدين الخالص ـ لا المخلص ـ من غير شوب خالطه حتى يستخلصوه منه ، فهو صاحب العهد الخالص فلا يشقى ، وأهل العهد الخالص على منابر لا يحزنهم الفزع الأكبر على نفوسهم ولا على أحد ، لأنهم لم يكن لهم تبع في الدنيا ، وكل مَنْ كان له تبع في الدنيا فإنه وإن أمن على نفسه فإنه لا يأمن على من بقي وعلى تابعه ، لكونه لا يعلم هل قصر وفرط فيما أمر به أم لا ؟ فيحزنه الفزع الأكبر عليه ـ **الوجه الثاني** ـ « الدين الخالص » أي المستخلص من أيدي ربوبية الأكوان ، ولا يكون ذلك إلا من المخلَصين بفتح اللام ، فإن الله إذا اعتنى بهم استخلصهم من ربوبية الأسباب ، فإذا استخلصهم كانوا مخلِصين بكسر اللام فالدين الخالص لا يشوبه شيء من عمل لأجل ثواب أو خوف عقاب ، وإنما يقصد امتثال أمر الله إن كان واجباً ، أو إتيان ما رغب الله في إتيانه إن كان تطوعاً « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وهم الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر .

اعلم أيدك الله أن عبادة الله بالغيب عين عبادته بالشهادة ، فإن الإنسان وكل عابد لا يصح أن يعبد معبوده إلا عن شهود ، إما بعقل أو ببصر أو بصيرة ، فالبصيرة يشهده العابد بها فيعبده ، وإلا فلا تصح له عبادة ، فما عبد إلا مشهوداً لا غائباً ، لذلك قال ﷺ : [اعبد الله كأنك تراه] فأمره بالاستحضار وأمره بتصوره في الخيال مرئياً ، فما حجر الله على العباد تنزيهه ولا تخيله ، وإنما حجر عليه أن يكون محسوساً له ، وأعظم من الشرك لا يكون ، وقد قال المشرك « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فما عبدوا الشركاء لأعيانهم ، فإن العبادة لله لا تكون لغير الله أبداً ، فما أخذوا لكونهم عبدوهم ، فإن المشرك ما جحد الله تعالى ، بل أقر به وأقر له بالعظمة والكبرياء على من اتخذه قربة إليه ، فلولا وضع اسم الألوهية على الشريك ما عبدوه ، فإن نفوس الأناسي بالأصالة تأنف من عبادة المخلوقين ، ولاسيما

من أمثالها ، فأصحبوا عليها الاسم الإلهي حتى لا يتعبدهم غير الله ، لا يتعبدهم مخلوق ، فما جعل المشرك يشرك بالله في وضع هذا الاسم على المخلوق إلا التنزيه لله الكبير المتعالي ، ولكن لابد من أخذ المشركين لتعديهم بالاسم غير محله وموضعه ، و لم يرد عليه أمر بذلك من الله ، ومن المحال أن ترد عبادة وإن ورد سجود ، فإن الله لا يأمر خلقه ولا يصح أن يأمر خلقه بعبادة مخلوق ، ويجوز أن يأمرنا بالسجود للمخلوق ، فمن سجد عبادة لمخلوق عن أمر الله أو عن غير أمر الله فقد شقي ، ومن سجد غير عابد لمخلوق عن أمر الله كان طاعة وسعد ، فإن المشرك وإن أفرد عِظَمَ عظمة الله في قلبه إلى الله فما وقعت المؤاخذة إلا لكون ما وقع من ذلك عن غير أمر الله ، في حق أشخاص معينين ، ونقل الاسم إلى أولئك الأشخاص ، فمن هذا يعلم أنه لا يصح شرك عام ولا تعطيل عام ، وإنما هي أسماء سموها أطلقوها على أعيان محسوسة وموهومة عن غير أمر الله ، فأخذوا بعدم التوقيف ، والسبب في نسبة الألوهية لهذه الصور المعبودة ، هو أن الحق لما تجلى لهم في أخذ الميثاق تجلى لهم في مظهر من المظاهر الإلهية ، فذلك الذي أجرأهم على أن يعبدوه في الصور ، ومن قوة بقائهم على الفطرة أنهم ما عبدوه على الحقيقة في الصور ، وإنما عبدوا الصور لما تخيلوا فيها من رتبة التقريب كالشفعاء ، ومن ذلك نعلم أن العالَمَ لم يزل في حال عدمه مشاهداً لواجب الوجود ، ولهذا لم ينكره أحد من الممكنات في حال وجوده ، إلا أن هذا الموجود الإنساني وحده من بين العالم أشرك بعضه به ممن غلب عليه حجاب الطبع ، وهو ما اعتاد أن يسمع ويطيع ويعبد بالأصالة إلا لرب يشهده ، وقد صير ذلك المعبود حجاب الطبع غيباً له ، فاتخذ ما اتخذ من الموجودات التي يشهدها ويراها ، إما من العالم السماوي كالكواكب ، وإما من العالم الأسفل كالعناصر أو ما تولد عنها ، ربـاً يعبـده على المشاهـدة التـي اعتادهـا ، وسكنت نفسه بها إليه ، وتوهم في نظره أن ذلك المتخذ إلهاً يشهد الحق ، وأنه أقرب إليه منه ، فعبَّد نفسه له خدمةً ليقربه إلى الله عز وجل ، كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا « ما نعبدهم » يعني الآلهة التي اتخذوها للعبادة « إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فأكدوه بزلفى ، واتخذوهم شهداء ولذا قال تعالى : (فادعوا شهداءكم إن كنتم صادقين) حيث زعموا أنها تشهد لهم أنهم على الحق ، ورغم أن المشركين جعلوا العظمة والكبرياء لله ، وجعلوا الآلهة التي اتخذوها كالسدنة والحجاب ، فإن قرائن الأحوال تدل على القطع بمؤاخذتهم ، لكونهم اتخذوها عن

نظرهم لا عن وضع إلهي ، ولم يفرقوا بين ما هو وضع لله في خلقه وبين ما وضعوه لأنفسهم من أنفسهم ، مثال ذلك ، ما وضعه الحق لعباده من تقبيل الحجر الأسود والسجود ، وجعل الكعبة قبلة ، إلى غير ذلك ، فيقال للمشركين : وإن كنتم ما عبدتم كل من عبدتموه إلا بتخيلكم أن الألوهة صفته ، فما عبدتم غيرها ، ليس الأمر كذلك ، فإنكم شهدتم على أنفسكم أنكم ما تعبدونها إلا لتقربكم إلى الله زلفى ، فأقررتم مع شرككم أن ثَمَّ إلهاً كبيراً ، هذه الآلهة خدمتكم إياها تقربكم من الله ، فهذه دعوى بغير برهان ، فإذ وقد اعترفوا أنهم عبدوا الشريك ليقربهم إلى الله زلفى ، فتح القائل على نفسه باب الاعتراض عليه ، بأن يقال له : ومن أين علمتم أن هذه الحجارة أو غيرها لها عند الله هذه المكانة بحيث أن جعلها معبودة لكم ؟ ـ راجع سورة يونس آية ـ ١٨ ـ ـ **تحقيق** ـ إن الله نصب الأسباب وأزال حكم الأرباب قال المشركون « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فلو قالوا « ما نتخذهم » وأبقوا العبودية لجناب الله تعالى ، لكان لهم في ذلك مندوحة بوضع الأسباب الإلهية المقررة في العالم . واعلم أن الله لا يدخله تنكير ، والإله يدخله التنكير ، فيقال : إله ؛ ففرق بين قولك : الله ، وقولك : إله ، فكثرت الآلهة في العالم لقبولها التنكير ، والله واحد معروف لا يُجْهَل ، أقرت بذلك عبدة الآلهة قالت « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وما قالت : إلى إله كبير هو أكبر منها ، ولهذا أنكروا ما جاء به ﷺ في القرآن والسنة من أنه إله واحد ، من إطلاق الإله عليه ، وما أنكروا الله ، ولو أنكروه ما كانوا مشركين ، فبمن يشركون إذا أنكروه ؟! فما أشركوا إلا بإله لا بالله .

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (٤)

« لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى » فجعله من قبيل الإمكان ، فأجاز التبني وجوَّز ذلك ، والاصطفاء جَعْلٌ ، والمجعول ينافي الكفاءة للجاعل ، فجعل ذلك استدلالاً بالتنبيه على موضع الدلالة ، « مما يخلق ما يشاء » بقي تعلق الاصطفاء ، بمَنْ يتعلق ؟ هل بالصاحبة ؟ مثل قوله تعالى : (لو أردنا أن نتخذ لهواً) يعني الولد (لاتخذناه من لدنا)

وما له ظهور إلا من الصاحبة التي هي الأم ، فيكون الاصطفاء في حق الصاحبة ، أو يكون يعلق الاصطفاء للبنوة ؟ فذلك التبني لا البنوة ، فنفى تعلق الإرادة باتخاذ الولد ، والإرادة لا تتعلق إلا بمعدوم ، فإن لو حرف امتناع ، ولكنه امتناع شيء لامتناع غيره ، فإذا جاء حرف لا بعد لو كان لو حرف امتناع لوجود ، ولم يأت في هذه الآية لا ، فنفى أن تتعلق الإرادة باتخاذ الولد ، ولم يقل : أن يلد ولداً ؛ فإنه يقول (لم يلد) والولد المتخذ يكون موجود العين من غير أن يكون ولداً ، فيتبنى بحكم الاصطفاء ، والتقريب في المنزلة أن ينزله من نفسه منزلة الولد من الوالد الذي يكون عليه ولادة ، والحقيقة تمنع الولادة والتبني ، لأن النسبة مرتفعة عن الذات ، والنسبة الإلهية من الله لجميع الخلق نسبة واحدة لا تفاضل فيها ، إذ التفاضل يستدعي الكثرة ، فلهذا أتى بلفظة لو ولم يجعل بعدها لفظة لا ، فكان حرف امتناع ، أي لم يقع ذلك ولا يقع ، لامتناع الذات أن توصف بما لا تستحقه ، ولهذا قال (ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) بعد قوله (وأنه تعالى جد ربنا) فوصفه بالعلو عن قيام هذا الوصف لعظمة الرب المضاف إلى المربوب بالذكر ، فكيف بالرب من غير إضافة لفظية ؟ فكيف بالاسم الله ؟ فكيف بالذات من غير اسم ؟ فجاء بحرف لو فدل على الامتناع ، فلم يكن من الوجهين : لا التبني ولا اصطفاء الصاحبة ، وأعظم من هذا التنزيه لا يكون ، وهذه الآية دليل على أن قدرة الحق مطلقة على إيجاد المُحَال لو شاء وجوده ، كما ذكره عن نفسه ما هو محال في العقل بما يعطيه دليله ، فقال تعالى : « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء » فألحقه بالنسبة إلى المشيئة الإلهية بدرجة الإمكان ، والعقل قد دل على أن ذلك محال ، لا من كونه لم يرده ، فكانت هذه الآية أولها جرح ، جرح به العقل في صحة دليله ليبطله ، ثم داوى ذلك الجرح في آخر الآية بقوله « سبحانه » أي هو المنزه « هو الله الواحد القهار » ــ **الوجه الأول** ــ أن يكون لأحديته ثان ــ **الوجه الثاني** ــ ذهب بعض الناس إلى أن الله تعالى لو أراد إيجاد ما هو مُحَال الوجود لنفسه لأوجده ، وإنما لم يوجده لكونه ما أراد وجود المحال الوجود ، فصاحب هذا القول يقول : إن الحق أعطى المحال محاله والواجب وجوبه والممكن إمكانه ، فهذا القائل لا يدري ما يقول ، فإنه سبحانه واجب الوجود لنفسه ، فهو كما قال القائل : أراد أن يعربه فأعجمه ، فإنه أراد أن ينسب إليه تعالى نفوذ الاقتدار ، ولم يعلم متعلق الاقتدار ما هو ؟ فعلّقه بما لا يقتضيه ، وصير الحق

من قبيل الممكنات من حيث لا يشعر ، فإن قلت : فما فائدة إخبار الله تعالى « لو أراد أن يتخذ ولداً » فعلق الإرادة بالمحال لنفسه ؟ فكيف أدخله تحت نفي تعلق الإرادة التي لا يدخل تحتها إلا الممكن ، وهو الذي أشار إليه هذا الذي جهلناه وخطأناه في قوله ؟ فاعلم أن هذا من غاية الكرم الإلهي ، حيث أنه قد سبق في علمه إيجاد مثل هذا الشخص من فساد العقل الذي قد قضى به له في قسمه ، فلما قضى بهذا ، علم أن عقله لابد أن يعتقد مثل هذا ، وهو غاية الجهل بالله ، فأخبر الله تعالى بنفي تعلق الإرادة بالمحال الوقوع لنفسه ، فيأخذ الكامل العقل من ذلك نفي تعلق الإرادة بما لا يصح أن تتعلق به ، ويأخذ منه هذا الضعيف العقل أنه سبحانه لولا ما قال : لو ، وإلا كان يفعل ، فيستريح إلى ذلك ولا ينكسر قلبه ، حيث أراد نفوذ الاقتدار الإلهي وقصد خيراً ، وليعلم الكامل العقل ما فضله الله به عليه فيزيد شكراً ، حيث لم يجعل الله عقله مثل هذا الناقص العقل ، فيعلم أن الله قد فضله عليه بدرجة لم ينلها من قصر عقله هذا القصور ، ولذلك قالت جماعة : إن الله يقدر على المحال ، والذي ينبغي أن يقال : إن الله على كل شيء قدير ، كما قال الله ، والقدرة تطلب محلها الذي تتعلق به ، فالعالم العاقل يعلم متعلق كل نسبة فيضيفها إليها

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

لما كان زمان الليل والنهار دورياً ، لهذا قال تعالى : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » من كوّر العمامة ، فيخفي كل واحد منهما بظهور الآخر ، فالتكوير بتسخير الأنوار ، وتحريك الأكوار بضروب الأدوار ، واختلاف الأحوال والأطوار ، على عالم الانشقاق والانفطار ، لإيجاد الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم ، لذلك قال تعالى .

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ

﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (٦)

« يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق » وهو الخلق في الرحم « في ظلمات ثلاث » ظلمة الرحم وظلمة المشيمة وظلمة البطن . ـــ **إشارة** ـــ إذا ولد الإنسان اندرجت ظلمته فيه ، فكان ظاهره نوراً وباطنه ظلمة ، فلا يتمكن له المشي في ظلمة باطنه إلا بسراج العلم ، إن لم يكن له هذا السراج فإنه لا يهتدي « ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنّى تصرفون » هذا هو التوحيد السابع والعشرون في القرآن ، وهو توحيد الإشارة ، فما في الكون مشار إليه إلا هو « فأنى تصرفون » لأن الإشارة لا تقع من المشير إلا لأمر حادث عنده ، وإن لم يكن في عينه في نفس الأمر حادثاً ، ولكنه يعلم أنه حدث عنده ، وما يحدث أمر عند من يحدث عنده ، إلا ولابد أن يجهل أمره عندما يحدث عنده ، لشغله بحدوثه عنده وأثره فيه ، فيشير إليه في ذلك الوقت وفي تلك الحالة رفيقه ، وهو على نوعين : ـــ إذ ما له رفيق سوى اثنين ـــ إما عقله السليم وإما شرعه المعصوم ، وما ثَمَّ إلا هذا ، لأنه ما ثَمَّ من يقول له في هذه الإشارة « ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو » إلا أحد هذين القرينين ، إما العقل السليم أو الشرع المعصوم ، وما عدا هذين فإنه يقول له خلاف ما قال هذان القرينان ، فيقول له : هذا الدهر وتصرفه ، ويقول الآخر : هذه الطبيعة وأحكامها ، ويقول الآخر : هذا حكم الدور ، فيصرفه كل قائل إلى ما يراه ، فهو قول هذين القرينين « فأنى تصرفون » فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء بالقرآن .

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (٧)

« ولا يرضى لعباده الكفر » لما كان العلم تابعاً للمعلوم ، والرضا إرادة ، فلا تناقض بين الأمر والإرادة ، وإنما النقض بين الأمر وما أعطاه العلم التابع للمعلوم ، فهو فعال لما يريد ، وما يريد إلا ما هو عليه المعلوم ، والحكم للعلم لا للأمر ، فصح قوله تعالى : « ولا

يرضى لعباده الكفر » وكذا كل عمل لا يرضي الله من سفساف الأخلاق ، وما لنا من الأمر الإلهي إلا صيغة الأمر ، وهي من جملة المخلوقات في لفظ الداعي إلى الله ، فهي مرادة معلومة كائنة في فم الداعي إلى الله ، فتنبه واعتبر « وإن تشكروا يرضه لكم » وكذا كل عمل يرضي الله من مكارم الأخلاق ، فتتبع الشرع تعلم كل صفة علق الذم بها فاجتنبها .

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

إن الإنسان لو نشأ على الخير والنعم طول عمره ، لم يعرف قدر ما هو فيه حتى يُبتلى ، فإذا مسّه الضر عرف قدر ما هو فيه من النعم والخيرات ، عند ذلك عرف قدر المنعم .

أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

اعلم أن أول الأمر خوف والرجاء يتلوه ، فإن تقدمه الرجاء فقد فاته الخوف ، فإن الماضي لا يُستَرجع ، فالتقدم للخوف وقد فاته وذهب عنه ، ومَنْ له بردّه ؟ والرجاء في المحل قد منعه سلطانه ، فالمؤمن من تساوى خوفه ورجاؤه ، بحيث أنه لا يفضل واحد صاحبه عنده ، لأنه استعمل كل شيء في محله ، وأول نشء الإنسان ضعف ، ولضعفه يتقدمه الخوف على نفسه ، ثم تكون له القوة بعد هذا الضعف ، فيأتيه الرجاء بقوته ، فإنه يتقوى نظره في العلوم والتأويلات ، فيعظم رجاؤه في جانب الحق ، ولكن العاقل لا يتعدى به موطنه ، فإذا خطر له من قوة الرجاء ما يوجب استعمال الخوف عند العاقل العارف ، عزل الرجاء عن الانفراد بالحكم وأشرك معه الخوف ، فذلك المؤمن ، فلا يزال كذلك إلى أن تكمل ذاته الكمال الذي ينتهي إليه أولياء الله في الورث النبوي ، في هذا الزمان المحمدي الذي أغلق فيه باب نبوة التشريع والرسالة ، وبقي باب حكم الاختصاص بالعلوم الإلهية والأسرار

مفتوحاً ، يدخل عليه أهل الله ، وأول داخل عليه أهل الذكر ، جعلنا الله ممن استوى خوفه ورجاؤه في الحياة الدنيا إلى حين موته عند الاحتضار ، فيغلب رجاؤه على خوفه « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وهو قوله تعالى : (كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) اعلم أن العلم بالله أسنى الكرامات ، لأن موطنه الدنيا وهو المطلوب ، وبه تقع المنفعة ولو لم يعمل به ، فالعلماء هم الآمنون من التلبيس ، فإن العلم أسنى تحفة وأعظم كرامة ، ولو قامت عليك به الحجة ، فإنه يجعلك تعترف ولا تحاجج ، فإنك تعلم ما لك وما عليك وما له ، وما أمَرَ الله تعالى نبيه ﷺ أن يطلب منه الزيادة من شيء إلا من العلم ، لأن الخير كله فيه ، وهو الكرامة العظمى ، والبطالة مع العلم أحسن من الجهل مع العمل ، ولا أعني بالعلم إلا العلم بالله والدار الآخرة ، وما تستحقه الدار الدنيا وما خلقت له ولأي شيء وضعت ، حتى يكون الإنسان من أمره على بصيرة حيث كان ، فلا يجهل من نفسه ولا من حركاته شيئاً ، والعلم صفة إحاطية إلهية ، فهي أفضل ما في فضل الله وهو السعادة ، وإذا أراد الله شقاوة العبد أزال عنه العلم ، فإنه لم يكن العلم له ذاتياً بل اكتسبه ، وما كان مكتسباً فجائز زواله ، ويكسوه حلة الجهل ، فإن عين انتزاع العلم جهل ، ولا يبقى عليه من العلم إلا العلم بأنه قد انتزع عنه العلم ، فلو لم يبقِ الله تعالى عليه هذا العلم بانتزاع العلم لما تعذب ، فإن الجاهل الذي لا يعلم أنه جاهل فارح مسرور ، لكونه لا يدري ما فاته ، فلو علم أنه قد فاته خير كثير ما فرح بحاله ولتألم من حينه ، فما تألم إلا بعلمه ما فاته أو مما كان عليه فسلبه ، لذلك لم يسوِّ تعالى بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فإنه ما وضع حكماً إلا ليستعمل في محكوم عليه ولو لم يرد استعماله لكان عبثاً ، ولو لم يوجد مَنْ يستعمل فيه ذلك الحكم ومَنْ يعمل به لكان أيضاً عبثاً وقد أخبر سبحانه وتعالى عباده بشرف العلم حيث وصف به نفسه ، فبالعلم الشرف التام ، وليس في الصفات أعم تعلقاً منه ، لتعلقه بالواجبات والجائزات والمستحيلات ، وغيره من الصفات ليس كذلك ، واعلم أن الشرف الذي للعلم شرفان : من حيث ذاته ، ومن حيث معلومه ، فالذي له من حيث ذاته ، كونه يوصلك إلى حقيقة الشيء على ما هي عليه ، ويزيل عنك أضداده إذا قام بك ، كالجهل بذلك المعلوم والظن والشك والغفلة وما ضاده ، والذي له من حيث معلومه فمعلومه يكسبه ذلك الشرف ، فكما أن بعض المعلومات أشرف من بعض ، كذلك بعض العلوم

أشرف من بعض ، فكثير بين مَنْ قام به العلم بأوصاف الحق تعالى وأفعاله ، وبين مَنْ قام به العلم بأن زيداً في الدار وخالداً في السوق ، فكما أنه ليس بين المعلومين مناسبة في الشرف ، كذلك العلمان ، فهذا هو الشرف الطارىء على العلم من المعلوم ، ثم إن الله سبحانه وتعالى مدح مَنْ قامت به صفة العلم وأثنى عليه ، ووصف بها عباده كما وصف نفسه في غير موضع من الكتاب العزيز ، كقوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط) فأخبر تعالى أن العلماء هم الموحدون على الحقيقة ، والتوحيد أشرف مقام يُنتهى إليه ، وليس وراءه مقام إلا التشبيه والتعطيل ، فمن زَلّت قدمه عن صراط التوحيد رسماً أو حالاً وقع في الشرك ، فمن زلت قدمه في الرسمي فهو مؤبد الشقاء لا يخرج من النار أبداً ، لا بشفاعة ولا بغيرها ، ومن زلت قدمه في الحالي فهو صاحب غفلة ، يمحوها الذكر وما شاكله ، فإن الأصل باق يُرجَى أن يجبر فرعه ، بمَنِّ الله وعنايته ، وليس الفرع كذلك ، وكقوله أيضاً جل ثناؤه في صاحب موسى عليه السلام (وعلمناه من لدنا علماً) وهو علم الإلهام ، فالعالم أيضاً صاحب إلهام وأسرار ، وكقوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فالعالم صاحب الخشية ، وكقوله تعالى : (وما يعقلها إلا العالمون) فالعالم أيضاً صاحب الفهم عن الله العالم بحكم آيات الله وتفاصيلها ، وكقوله تعالى : (والراسخون في العلم) فالعالم هو الراسخ الثابت الذي لا تزيله الشبه ولا تزلزله الشكوك ، لتحققه بما شاهده من الحقائق بالعلم ، وكقوله تعالى : (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) فالعلماء هم الذين علموا الكائنات قبل وجودها ، وأخبروا بها قبل حصول أعيانها ، وهي الصفة الشريفة التي أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بالزيادة منها ، فقال تعالى : (وقل رب زدني علماً) و لم يقل له ذلك في غيره من الصفات ، وإنما أكثرنا هذا في العلم ، لأن في زماننا قوماً لا يُحصَى عددهم ، غلب عليهم الجهل بمقام العلم ، ولعبت بهم الأهواء حتى قالوا : إن العلم حجاب ؛ ولقد صدقوا في ذلك لو اعتقدوه ، أي والله حجاب عظيم ، يحجب القلب عن الغفلة والجهل وأضداده ، فما أشرفها من صفة ، حبانا الله بالحظ الوافر منها ، وكيف لا يُفرح بهذه الصفة ويُهجر من أجلها الكونان ، ولها شرفان كبيران عظيمان ؟ الشرف الواحد أن الله سبحانه وصف بها نفسه ، والشرف الآخر أنه مدح بها أهل خاصته من أنبيائه وملائكته ، ثم مَنَّ علينا سبحانه و لم يزل مانّاً بأن جعلنا ورثة أنبيائه فيها ، فقال

ﷺ : [العلماء ورثة الأنبياء] واعلم أن حد العلم وحقيقته المطلقة معرفة الشيء على ما هو عليه ، والمفيدة العمل به ، وهو الذي يعطيك السعادة الأبدية ، ولا تخالف فيه ، وكل من ادعى علماً من غير عمل بهِ ، فدعواه كاذبة إن تعلق به خطاب للعمل ، وإذا تحقق ما أردناه وما أشرنا إليه ، فليقل من شاء ما شاء ، وكل حجة تناقض لما أشرنا إليه فداحضةٌ ، وعلى قائلها توبة من الله ومغفرة ، والله غفور رحيم . واعلم أن العلم نور من أنوار الله تعالى يقذفه في قلب من أراده من عباده ، قال تعالى (أو مَنْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس) وهو العلم ، وهو معنى قائم بنفس العبد ، يطلعه على حقائق الأشياء ، وهو للبصيرة كنور الشمس للبصر مثلاً ، بل أتم وأشرف ، وأجناس العلوم كثيرة : منها علم النظر وعلم الخبر وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الرصد إلى غير ذلك من العلوم ، ولكل جنس من هذه العلوم وأمثالها فصول تقومها وفصول تقسمها ، فلننظر ما نحتاج إليه في أنفسنا مما تقترن به سعادتنا ، فنأخذه ونشتغل به ، ونترك مالا نحتاج إليه احتياجاً ضرورياً ، مخافة فوت الوقت ، حتى تكون الأوقات لنا إن شاء الله تعالى ، والذي نحتاج إليه من فصول هذه الأجناس فصلان : فصل يدخل تحت جنس النظر وهو علم الكلام ، ونوع آخر يدخل تحت جنس الخبر وهو الشرع ، والمعلومات الداخلة تحت هذين النوعين التي نحتاج إليها في تحصيل السعادة ثمانية : وهي الواجب والجائز والمستحيل والذات والصفات والأفعال وعلم السعادة وعلم الشقاوة ، فهذه الثمانية واجب طلبها على كل طالب نجاة نفسه ، وعلم السعادة والشقاوة موقوف على معرفة ثمانية أشياء أيضاً ، منها خمسة أحكام : وهي الواجب والمحظور والمندوب والمكروه والمباح ، وأصول هذه الأحكام ثلاثة لابد من معرفتها : الكتاب والسنة المتواترة والإجماع ، ومعرفة هذه الأشياء لابد منها ، والناس في تحصيلها على مرتبتين : عالم ومقلد لعالم ، فإذا علمها الطالب وصح نظره فيها توجهت عليه وظائف التكليف ، فاختصت من الإنسان بثمانية أعضاء : العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب ، والعلم بتكليفات هذه الأعضاء هو العلم بالأعمال القائدة إلى السعادة إذا عمل بها ، ولما كان أصل السعادة موافقتنا للحق تعالى فيما أمر به ونهى ، وموافقته التوحيد في باطن العبد بنفي الأغيار ، فإن أول ما يجب عليك ــ إن رزقت الموافقة والتوفيق ــ العلم بالأمور التي مهدناها ، فإذا علمتها توجه عليك العمل بها ، وإن كان طالب العلم في عمل من حيث

طلبه ، ولكن يعطيك العلم العمل بأمور أخر توجه عليك بها خطاب الشارع ، كما أن العلم لم يصح طلبه إلا بالعلم ، فمن حصل له العلم بالأحكام التي يحتاج إليها في مقامه ، فلا يكثر مما لا يحتاج إليه ، فإن التكثير مما لا حاجة فيه سبب في تضييع الوقت عما هو أهم ، وذلك أنه مَنْ لم يعوّل أن يلقي نفسه في درجة الفتيا في الدين ــ لأن في البلد من ينوب عنه في ذلك ــ حتى لا يتعين عليه طلب الأحكام كلها في حق الغير ، طلبَ فضولَ العلم ؛ فيأخذ منها ما توجه عليه في الوقت من علم تكليف ذلك الوقت ، والعلم الذي يعم كل إنسان في الحال عند البلوغ على أحد أنواعه وشروطه من الإسلام وسلامة العقل ، علم العقائد بواضحات الأدلة وإن كانت فطرته تعطي النظر والنجح فيه ، ومَنْ لم يكن ذلك في فطرته ــ وكان جامداً ــ يخاف عليه إن فتح له باب النظر لإيراد شبهات الملحدة ، فمثل هذا يعطى العقائد تقليداً مسلمة ، ويزجر عن النظر إن أراده في ذلك العلم بأشد الزجر ، فإذا صحت عقيدتُهُ بالعلم أو التقليد ، يُعرَّف بقواعد الإسلام ، فإذا عُرِّف ترتب عليه أن يعرف أوقات العبادات ، فإذا دخل وقت الصلاة مثلاً تعين عليه أن يعرف الطهارة وما تيسر من القرآن ، ثم يعلم الصلاة ، لا يحتاج إلى غير هذا ، فإذا أدركه رمضان وجب عليه أن ينظر في علم الصيام ، فإن أخذه الحج وجب عليه حينئذ علمه ، فإن كان له مال وحال عليه الحول تعين عليه علم زكاة ذلك الصنف من المال لا غير ، فإن باع واشترى وجب عليه علم البيوع والمصارفة ، وهكذا سائر الأحكام لا تجب عليه إلا عندما يتعلق به الخطاب ، فذلك وقت الحاجة إليها ، فإن قيل : يضيق الوقت عن نيل علم ما خوطب به في ذلك الوقت ، قلنا : لسنا نريد عند حلول الوقت المعيّن ، وإنما نريد بقربه بحيث أن يكون له من الزمان قدر ما يحصل ذلك العلم المخاطب به ، ويدخل عقيبه وقت العمل ، وهكذا ينبغي أن تقرأ العلوم وتنظر المعارف ، ويربط الإنسان نفسه بما فيه سعادته ونجاته ، وليعمر أوقاته بما هو أولى به ، وليحذر العبد أن تفتح له خزائن الغفلات تصرفه في المباحات ، وليملأها بالذكر وأشباه المندوبات ، وهذا لا يصح له ما لم يعرف الواجبات حتى يسرع إليها ويؤديها ، والمحظورات حتى يجتنبها ، والمندوبات حتى يرغب فيها والمكروهات حتى يحفظ نفسه منها ، والمباحات حتى يتعوذ بالله من الغفلة ، وتحقيق هذه المعاني التي هي أم الأحكام أصول الفقه ، ويعرف أيضاً ما تحت كل واحد منها على التشخيص مما يلزمه كما تقدم ، ومعرفة هذا من كتاب الله

تعالى وسنة رسول الله ﷺ وإجماع العلماء ، فإذا عرفت هذا ولازمت العمل فأنت الموفق السعيد فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون « إنما يتذكر أولوا الألباب » هذا إعلام بأنهم علموا ثم طرأ النسيان على بعضهم ، فمنهم من استمر عليه حكم النسيان ، فنسوا الله فنسيهم ، ومنهم من ذُكِّر فتذكَّر ، وهم أولوا الألباب وهم أرباب العقول التي لها ألباب ، وهو الفهم فيما يرد على العقول ، بما فيها من صفة القبول لما يرد من الله ، مما لا يقبله العقل الذي لا لب له من حيث فكره ، فمن رزق الفهم فقد رزق العلم ، وما كل من رزق العلم كان صاحب فهم .

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

« بغير حساب » معيّن علمه عندنا ، وعند الله مقيد معلوم ، فالأجور المقيدة عندنا من عشر إلى سبعمائة ضعف ، والصبر يعم جميع الأعمال ، لأنه حبس النفس على الأعمال المشروعة ، فلهذا لم يأخذه المقدار ، والأعمال تأخذها المقادير ، فعلى قدر ما يقام فيه المكلّف من الأعمال إلى حين موته ، فهو يحبس نفسه عليها ، حتى يصح له حال الصبر واسم الصابر ، فيكون أجره غير معلوم ولا مقدَّر عنده جملة واحدة ، وإن كان معلوماً عند الله ، فإن الصابرين لما حبسوا أنفسهم مع الله على طاعته ، وعند وقوع البلايا والرزايا بهم من غير توقيت ، جعل الله جزاءهم على ذلك من غير توقيت ، فقال : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » فما وقَّت لهم فإنهم لم يوقّتوا ، فعمَّ صبرهم جميع المواطن التي يطلبها الصبر .

قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾

قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ وهو ما تعبَّده به في هذا الموضع .

﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾

الإنسان ما دام حياً إذا كان كافراً يُرجَى له الإسلام ، وإذا كان مسلماً يُخاف عليه الكفر ، فإن الدنيا ما هي دار طمأنينة لمخلوق ما لم يُبَشَّر ، ومع البشرى يرتفع الخوف لصدق المخبر ، ويبقى الحكم للحياء والخشوع ، والبشرى إظهار علامة حصولها في البشرة .

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

« الذين يستمعون القول » فهي بشرى من الحق لِمَنْ تحقق بهذا السمع ، بأنه من أهل الهداية والعقل عنِ الله تعالى ، وهي الكرامة الكبرى ، والقول ما بين حسن وأحسن « فيتبعون أحسنه » والاتباع إنما هو فيما حدّه لك في قوله ورسمه ، فتمشي حيث مشى بك ، وتقف حيث وقف بك ، وتنظر فيما قال لك انظر ، وتسلم فيما قال لك سلّم ، وتعقل فيما قال لك اعقل ، وتؤمن فيما قال لك آمن ، فإن الآيات الإلهية الواردة في الذكر الحكيم متنوعة ، وتنوع لتنوعها وصف المخاطب ، فمنها آيات لقوم يتفكرون ، وآيات لقوم يعقلون ، وآيات لقوم يسمعون ، وآيات للمؤمنين ، وآيات للعالمين ، وآيات للمتقين ، وآيات لأولي النهى ، وآيات لأولي الألباب ، وآيات لأولي الأبصار ، ففصِّل كما فصَّل ولا تتعد إلى غير ما ذكر بل نَزِّل كل آية وغيرها بموضعها ، وانظر فيمن خاطب بها فكن أنت المخاطب بها ، فإنك مجموع ما ذكر ، فإنك المنعوت بالبصر والنهى واللب والعقل والفكر والعلم والإيمان والسمع والقلب ، فاظهر بنظرك بالصفة التي نعتك بها في تلك الآية

الخاصة ، تكُنْ ممن جمع له القرآن فاجتمع عليه ، وتكن من الذين هداهم الله « أولئك الذين هداهم الله » أي وفقهم بما أعطاهم من البيان إلى معرفة الحسن والأحسن ، وبيّن لهم الحسن من ذلك من القبيح ، فشهد لهم الوهاب « وأولئك هم أولوا الألباب » بما حفظهم من الاستمداد لبقاء نوره ، فعقلوا ما أردنا ، وهو من لب الشيء المصون بالقشر ، فيعني بأولي الألباب المستخرجين لُبَّ الأمر المستور بالقشر صيانة له ، فإن العين لا تقع إلا على الحجاب ، والمحجوب لأولي الألباب ، فهم الغواصون على خفايا الأمور وحقائقها ، المستخرجون كنوزها ، والحالّون عقودها ورموزها ، والعالمون بما تقع به الإشارات في الموضع الذي لا تسمح فيه العبارات ، فَحَسَنُ القول يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ويقف بك على المعاني الغامضة فيوضحها لك ، وعلامة من علم أحسن القول الاتباع لما دل عليه ذلك القول ، فيقابل الطَوْلَ بالطَول ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

حَقَّ وجب وسقط ، يقال : وجب الحائط إذا سقط « أفمن حق عليه كلمة العذاب » أي إذا سقط العذاب على المعذَّب به ، وهو الذي آذى الله ورسوله « أفأنت تنقذ من في النار » خاطب الحق بذلك أكرم المكلفين عليه فإنه ما يبدل القول لديه ، ولا يكون عنه إلا ما سبق به علمه ، فمشيئته واحدة ، لأنه إذا أسلم فليس من أهل النار .

لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾

اعلم أن الماء ماءان : ماء ملطف مقطر في غاية الصفاء والتخليص وهو ماء الغيث ، فإنه

ماء مستحيل من أبخرة كثيفة ، قد أزال التقطير ما كان تعلق به من الكثافة ، والماء الآخر ماء لم يبلغ من اللطافة هذا المبلغ ، وهو ماء العيون والأنهار ، فإنه ينبع من الأحجار ممتزجاً بحسب البقعة التي ينبع بها ويجري عليها ، ويختلف طعمه فمنه عذب فرات ومنه ملح أجاج ومنه مر زُعافٌ ، وماء الغيث على حالة واحدة ، ماء نمير خالص سلسال سائغ شرابه .

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

يسمى الإيمان ـــ الذي هو نور ـــ بحكم سرايته في الظاهر وتليينه إياه وانقياد الظاهر له ولأحكامه إسلاماً ، قال تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » فالصدر حقيقة ما يصلح أن يصدر منه الأحكام وتتعين منه الآثار ، كما يقال لمن يصدر منه الأمر والنهي من الأناسي أنه صدر ؛ ولما يتعيّن منه حكم اليمنة واليسرى والأقصى والأدنى صدر الدار ، وكذلك يسمى نحر الإنسان صدراً لأنه يتعين به حكم يمنته ويسرته ، فيسمى ظاهر الجوهر الإنساني المتعلق بروحه الحيوانية صدراً ، باعتبار ما يصدر من الأحكام الروحانية كالعلوم والأخلاق الجميلة المعتدلة ، والأحكام والصفات الجسمانية كالغضب والشهوة والأخلاق المنحرفة الرذيلة بغلبتها عليه ، وشرحه فتحه وفتقه وإخراجه عن تمام أحكام الهوى الشيطانية وظلام الطبيعة الحيوانية ، بعد أن كان هو والروح الحيوانية وجميع أحكامهما وصفاتهما رتقاً غير متميز ، بل أحكامه مستورة مغلوبة ممتزجة بأحكامها ، وبهذا الشرح والفتق المذكور تظهر آثاره ، فتظهر النفس لوامة ، أو تغلب على آثارها فتصير مطمئنة ، بعد أن كانت عند غلبة الحيوانية أمارة بالسوء ، فبهذا الشرح والفتق المذكور تقبل سراية نور الإيمان ، فيحس بأن له خالقاً ، منه مبدؤه وإليه معاده ومنتهاه ، يلزمه الانقياد لأوامره وزواجره ، حتى يصير بذلك أهلاً للرجوع ، فتنقاد النفس وتستسلم ظاهراً وباطناً ، إما رغبة فيه أو فيما عنده ، والإشارة إلى ما قلنا : إن الصدر شرحه معنوي ، ما ورد في حديث المعراج أن جبريل نزل ففرج عن صدري ثم غسله ، ثم جاء بطست ممتلىء حكمة فأفرغه في صدري ، ولما كان الإيمان والحكمة غير محسوسين يكون محلهما معنوياً غير

محسوس ، وتحقيق ذلك ما قررناه ، ويؤكد ذلك وضع الوزر ، الذي معناه إزالة أثر الانحراف الذي هو من خصائص الشيطان عنه على أثر ذلك ، وشرح الصدر في سورة ألم نشرح « فهو على نور من ربه » من سلك على شرع الأنبياء والرسل ، ولم يتعد حدود ما قرروه ، واتقوا الله ولزموا الأدب مع الله ، فهم على نور من ربهم .

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

لما طهر الله سبحانه كتابنا هذا وقدسه عن التحريف سماه قرآناً مهموزاً ، ولما جمع فيه ما تفرق في سائر الصحف والكتب وجميع ما يحتاج إليه من المعارف والعلوم سماه قراناً بغير همز ، ولما أبان به عن الحق المطلوب وحسن نظمه وبلاغته وجعله مغايراً لسائر الكتب بما حفظه به من التحريف جعله عربياً

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾

انظر إلى أدب الرسول ﷺ مع الحق سبحانه تعالى مع قطعه بأنه يموت ، فإن الله يقول له : « إنك ميت وإنهم ميتون » كيف استثنى لما أتى البقيع ووقف على القبور وسلّم عليهم قال : [وإنا إن شاء الله بكم لاحقون] فاستثنى في أمر مقطوع به ، فبقي على الأصل أدباً مع الله ، لما أتى في قوله [لاحقون] باسم الفاعل استثنى امتثالاً لأمر الله تعالى لقوله : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) والموت أشرف من القتل ، فإنه صفة الأشرف ﷺ ، لأن الأكابر لا يتميزون بخرق العوائد ، فهم مع الناس عموماً في جميع أحوالهم بظواهرهم ، وصحبة الرفيق الأعلى أولى ، والرفيق بعبده أرفق ، وهو عليه أشفق ، اختار الرفيق ، من أبان الطريق ، وهو بالفضل حقيق ، خُيِّر فاختار ، ورحل عنا وسار ، ليلحق بالمتقدم السابق ، ويلتحق به المتأخر اللاحق ، فلعلمه بأنه لابد من الاجتماع ، اختار الخروج من الضيق إلى الاتساع ــ **تحقيق** ــ قال ﷺ : [كنت نبياً وآدم بين الماء والطين] يريد أن العلم بنبوته حصل له وآدم بين الماء والطين ، واستصحبه ذلك إلى أن أوجد جسمه ، فلم يشرك كما أشرك أهله حتى بعث للناس كافة ، فكان يذكر الله على كل أحيانه ، وقال ﷺ عن نفسه وهو الصادق [إنه تنام عينه ولا ينام قلبه] فأخبر عن قلبه أنه لا ينام عند نوم عينه عن حسه ، فكذلك موته إنما مات حساً كما نام حساً ، فإن الله يقول له : « إنك ميت » وكما أنه لم ينم قلبه لم يمت قلبه ، فاستصحبته الحياة من حين خلقه الله ، وحياته إنما هي مشاهدة خالقه دائماً لا تنقطع ، فهذه حياته من غير موت معنوي وإن مات حساً

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾

كنَّى سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ في هذه الآية بالذي جاء بالصدق ، فهو الأول الصادق « وصدق به » وهو الآخر الصديق ، فالخبر لا يكون أبداً إلا من الأول ، والتصديق لا يكون أبداً إلا من الآخر ، فالصدق متعلقه الخبر ومحله الصادق ، وليس بصفة لأصحاب الأدلة ، ولا للعلماء الذين آمنوا بما أعطتهم الآيات والمعجزات من الأدلة على صدق دعواه ،

فذلك علم ، والصدق نور يظهر على قلب العبد ، يصدق به هذا المخبر ، ويكشف بذلك النور أنه صدق ، ويرجع عنه برجوع المخبر ، لأن النور يتبع المخبر حيث مشى ، والصدق بالدليل ليس هذا حكمه ، إن رجع المخبر لم يرجع لرجوعه ، فإن الأحكام المشروعة أخبار إلهية يدخلها النسخ ، والتصديق يتبع الحكم ، فيثبت ما دام المخبر يثبته ، ويرفعه ما دام المخبر يرفعه ، والمخبر صادق في الحالتين ، ولذلك تمم فقال : « أولئك هم المتقون » المفلحون الباقون بهذا الحكم .

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا

ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

« الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها » وهو من توفاه الله في حياته في دار الدنيا ، أي آتاه من الكشف ما يأتي الميت عند الاحتضار ، إذ كانت الوفاة عبارة عن إتيان الموت « فيمسك التي قضى عليها الموت » فالله يمسك نفس الذي قضى عليه الموت في النوم إذا هو نام (وهي النفس الإنسانية الناطقة) « ويرسل الأخرى » وهي النفس الحيوانية « إلى أجل مسمى » وهو وقت قبض الروح « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » المتفكر ناظر إلى قوة مخلوقة فيصيب ويخطىء ، وإذا أصاب يقبل دخول الشبهة عليه بالقوة التي أفادته الإصابة ، فهو بين البصر والبصيرة ، لم يبق مع البصر ولا يخلص للبصيرة .

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة » وما قال بالله ، أي انقبضت لما وجدت من ألم نسبة الوحدة لله في الألوهية ، ومما يدل على جهلهم بالتوحيد قولهم (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) « وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » ـــ **تحقيق** ـــ هذه الآية من الله إيثار لجناب المؤمنين الذين لم يروا فاعلاً إلا الله ، وأن القدرة الحادثة والأمور الموقوفة على الأسباب لا أثر لها في الفعل ، فإن الذين أشركوا جعلوا الشريك كالوزير لله ، معيناً على ظهور بعض الأفعال الحاصلة في الوجود ، فلما ذكر الله وحده رأوا أن هذا الذاكر لم يوف الأمر حقه ، فأداهم ذلك إلى الاشمئزاز ، لأنهم لم يقبلوا توحيد الأفعال فذمهم الله تعالى

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)﴾

البدا هو أن يظهر ما لم يكن ظهر ، فقال تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » فعَمَّ ، فبدا لكل طائفة تعتقد أمراً ما مما الأمر ليس عليه نفي ذلك المعتقد ، وما تعرض في الآية بما انتفى ذلك ، هل بالعجز أو بمعرفة النقيض ؟ وكلا الأمرين كائن في الدار الآخرة ففي الهوية فإن بعض العباد يجزم في اعتقاده أن الله كذا وكذا ، فإذا انكشف الغطاء ، رأى صورة معتقده وهي حق فاعتقدها ، وانحلت العقدة فزال الاعتقاد وعاد علماً بالمشاهدة ، وبعد احتداد البصر لا يرجع كليل النظر ، فيبدو لبعض العبيد باختلاف التجلي في الصور عند الرؤية خلاف معتقده ، لأنه لا يتكرر ، فيصدق عليه في الهوية « وبدا لهم من الله » في هويته « ما لم يكونوا يحتسبون » فيما قبل كشف الغطاء ، أما في الجزاء فقوله تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » شائعة في الشقي والسعيد ، ففي السعيد ، فيمن مات على غير توبة وهو يقول بإنفاذ الوعيد ، فيغفر له فكان الحكم للمشيئة ، فسبقت بسعادتهم ، فتبين لهم عند ذلك أنهم اعتقدوا في ذلك خلاف ما هو ذلك الأمر عليه ، فإن الله تعالى عندما يلقاه المؤمنون يَسْتحيون منه لما عاملوه به من المخالفة لأوامره تعالى ، فبدا لهم من الله من الخير ما لم يكونوا يحتسبون من مكارم الأخلاق ، فإن الأدلة الشرعية أتت بأمور تقرر عندنا منها : أنه يعامل عباده بالإحسان ، وعلى قدر ظنهم به ، فإن الحق هو الخير المحض الذي لا شر فيه ، وما يبدو من الخير إلا الخير ، فحسّنوا ظنكم برب هذه صفته ، وحققوا رجاءكم بمعروف هذه معرفته ، وأما المجرمون فعندما يلقَوْنَهُ يخافون منه ، فلقوه على كره فكره الله لقاءهم ، ومع هذه الكراهة فلابد من اللقاء للجزاء ، كان الجزاء ما كان ، فإنهم لما استيقظوا من نوم غفلتهم ، ووصلوا إلى منزل وحطوا عن رحالهم ، طلبوا ما

قصدوه ، فقيل لهم : من أول قدم فارقتموه ، فما ازددتم منه إلا بعداً ، فيقولون : يا ليتنا نرد ، ولا سبيل إلى ذلك ، فلهذا وصفوا بالحجاب عن ربهم الذي قصدوه بالتوجه على غير الطريق الذي شرع لهم ، فقال تعالى :

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

يختلف البسط لاختلاف المحال والأحوال ، فأما في محل الدنيا فلو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، فأنزل بقدر ما يشاء ، وأطلق في الجنة البسط لكونها ليست بمحل تعن ولا تعد .

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

ثبت عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه أنه عز وجل يقول [أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً] فاجعل ظنك بالله علماً بأنه يعفو ويغفر ويتجاوز ، وليكن داعيك الإلهي إلى هذا الظن قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » فهذه الآية إشارة إلى عموم الرحمة الإلهية ، وأن المآل إليها ، فإنه تعالى قالها للمسرفين على أنفسهم ، ولم يخص مسرفاً من مسرف ، فقال تعالى لنبيه « قل يا عبادي » فأضافهم إلى نفسه كما أضاف إلى نفسه نفوسهم في خلقها ، فهم عبيد العموم ،

لأنه أضافهم إليه مع كونهم مسرفين ، على الإطلاق في الإسراف ، ونهاهم أن يقنطوا من رحمة الله ، فهؤلاء العبيد المذكورون ذكرهم الله بالإضافة إليه ، والإضافة إليه تشريف « الذين أسرفوا على أنفسهم » وما ذكر سرفاً من سرف ، فعَمَّ جميع حالات المسرفين في السرف ، والإسراف خروج عن الحد والمقدار ، فأسرفوا على أنفسهم وتجاوزوا حدود سيدهم ، وجاء بالاسم الناقص الذي يعم كل مسرف مع إضافة العباد إليه ، لأنهم عباده ، وكفى شرفاً شرف الإضافة إلى الله تعالى « لا تقنطوا من رحمة الله » فإن الذي أزاغكم أصبع الرحمن ، فإن قلب العبد بين أصبعي الرحمن يقلبه كيف يشاء ، فإن الله للرحمة خلقكم ولهذا تسمى بالرحمن ، واستوى به على العرش ، وأرسل أكمل الرسل وأجلهم قدراً وأعمهم رسالة رحمة للعالمين ، ورحمة الله وسعت كل شيء ، وأنتم من الأشياء ، فنهاك عن القنوط ، وما نهاك عنه يجب عليك الانتهاء عنه ، ثم أخبر وخبره صدق لا يدخله نسخ ، فإنه لو دخله نسخ لكان كذباً ، والكذب على الله محال ، فقال : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » وصف الله الذنوب بالمغفرة وهي الستر ، وما وصفها بذهاب العين ليظهر فضل الله وكرمه على عبيده ، فهو يسترها بثوب الحسن الذي يكسوها به ، لأنه تعالى لا يرد ما أوجده إلى عدم ، بل يوجد على الدوام ولا يعدم ، فالقدرة فعالة دائماً ، فهو لا يمحو الذنوب بل يبدلها بالحسنى ، فيكسو الذنب حلة الحسن ، وهو هو بعينه ، واعلم أن الذنوب من حكم الاسم الآخر ، لأن ذلك الأمر بمنزلة الذَنَب من الرأس ، متأخرة عنه ، لأن أصله طاعة ، فإنه ممتثل للتكوين إذ قيل له كن ، فما وُجِدَ إلا مطيعاً ، ثم عَرَض له بعد ذلك مخالفة الأمر المسمى ذنباً ، فأشبه الذَنَبَ في التأخر ، والعَرَضُ لا بقاء له ، وإن كان له حكم في خال وجوده ولكن يزول ، فهذا يدلك على أن المآل إلى السعادة إن شاء الله ، ولو بعد حين ، ثم إن للذنب من معنى الذَنَبِ صفتين شريفتين ، إذا علمها الإنسان عرف منزلة الذنب عند الله ، وذلك أن ذنب الدابة له صفتان شريفتان : ستر عورتها ، وبه تطرد الذباب عنها بتحريكها إياه ، وكذلك الذنب فيه عفو الله ومغفرته ، وشبه ذلك مما لا يشعر به ، ممّا يتضمنه من الأسماء الإلهية يطرد عن صاحبه أذى الانتقام والمؤاخذة ، وهما بمنزلة الذباب الذي يؤذي الدابة ، قال تعالى في الحديث القدسي [لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم] ولم يقل فيعاقبهم ، فغلّب المغفرة وجعل لها الحكم ، فقال : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » وما خص

ذنباً من ذنب ، كما لم يخص إسرافاً من إسراف ، كما لم يخص في إرسال محمد ﷺ عالماً من عالم ، فكما جاء بالمغفرة والرحمة في حق التائب وصاحب العمل الصالح ، جاء بهما في حق المسرفين الذين لم يتوبوا ، ونهاهم عن القنوط ، وما قرن الله تعالى مغفرته هنا حين أطلقها بتوبة ولا عمل صالح ، وأكد ذلك بقوله « جميعاً » مع ارتفاع القنوط أو مع وجوده ، فما أبقى شيئاً من الذنوب ، فلا يتسرمد العذاب ، وهذا عموم رحمة وعفو ومغفرة ، وهو خبر لا يدخله النسخ ، فيجمع بين قوله هذا وبين قوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به) فيؤاخذ على الشرك ما شاء الله ، ثم يحكم عليه أصبع الرحمن فيؤول إلى الرحمن ، وأمور أخر من الزيغ مما دون الشرك يغفر منها ما يغفر بعد العقوبة ، وهم أهل الكبائر الذين يخرجون من النار بالشفاعة بعدما رجعوا حمماً ، مع كونهم ليسوا بمشركين ، والإيمان بذلك واجب ، ومنها ما يغفر ابتداء من غير عقوبة ، فلابد من المآل إلى الرحمة ، ولو قال تعالى هنا : إن الرحمن لم يعذب أحداً من المسرفين . فلما جاء بالاسم الله قد تكون المغفرة قبل الأخذ وقد تكون بعد الأخذ ، ولذلك ختم الله بقوله « إنه هو » فجاء بالضمير الذي يعود عليه « الغفور الرحيم » ـــ **الوجه الأول** ـــ من كونه سبقت رحمته غضبه ، فبالغ وما خص إسرافاً من إسراف ولا داراً من دار ، فلابد من شمول الرحمة والمغفرة على من أسرف على نفسه ، فالذي غفر هو الغفور الرحيم لذاته ، فإنه جاء بالألف واللام للشمول في عمارة الدارين ، فلابد من شمول الرحمة ، وجاء بالرحيم آخراً أي مآلهم وإن أخذوا إلى الرحمة ، فجمع الحق لهؤلاء العبيد الذين أسرفوا على أنفسهم ، الذين نهاهم سبحانه أن يقنطوا من رحمة الله ، بين شرف الإضافة إليه وبشرهم أنه يغفر الذنوب جميعاً ، و لم يعين وقتاً ، فقد تكون المغفرة سابقة لبعض العبيد ، لاحقة لبعض العبيد ، هذا إذا قصد العبد فعل الذنب معتقداً أنه ذنب ، فكيف حال من لم يتعمد إتيان الذنب ؟ ومن حكم الرحمة اجترأ من اجترأ على مخالفة أوامر الله من المؤمنين ، فإنهم لا يقنطون من رحمة الله ـــ **الوجه الثاني** ـــ « إنه هو الغفور الرحيم » لما كان عذر العالم مقبولاً في نفس الأمر ، لكونهم مجبورين في اختيارهم ، لذلك جعل الله مآل الجميع إلى الرحمة ، فهو الغفور لما ستر من ذلك عن قلوب من لم يعلمه بصورة الأمر ، رحمة به لأنه الرحيم في غفرانه ، لعلمه بأن مزاجه لا يقبل ـــ **تحقيق** ـــ هذا وأمثاله أطمع إبليس في رحمة الله من عين المنة ، ولو قنط من رحمة الله لزاد عصيانه عصياناً ، وإن كانت

دار النار مسكنه لأنه من أهلها ، وإن حارت عليه أوزار من اتبعه ممن هو من أهل النار ، فما حمل إلا ما هو منقطع بالغ إلى أجل ، وفضل الله لا انقطاع له ، لأنه خارج عن الجزاء الوفاق ، ورحمة الله لا تخص محلاً من محل ولا داراً من دار ، بل وسعت كل شيء ، وأكثر من هذا الإفصاح الإلهي في مآل عباده إلى الرحمة ما يكون ، مع عمارة الدارين الجنة وجهنم ، وأن لكل واحد منهما ملأها ، لا يخرجون منها ، فعطاء الله لا مانع له ، وإنما الاسم المانع إنما متعلقه أن نعيم زيد ممنوع عن عمرو ، كما أن نعيم عمرو ممنوع عن زيد ، فهذا حكم المانع لا أنه يمنع شمول الرحمة ، والإيمان يقطع بصدق هذا القول الذي جاء في هذه الآية ، ولكن لا يظهر حكمه مشاهدة عين إلا في المسرفين وهم المذنبون ، فكأنه تعالى قال لهم : اعصوا حتى تعرفوا ذوقاً صدق قولي في مغفرتي ؛ وإذا كان أمير المؤمنين المأمون يقول : لو علم الناس حبي في العفو لتقربوا إلي بالجرائم ، وهو مخلوق ، فما ظنك بالكريم المطلق الكرم ؟ فثَمَّ قوم يغفر الله لهم من غير توبة ، وثَمَّ قوم يعطيهم الله التوبة ، وإياك والدعوى ، فحيث كانت الدعوى كان الاختبار ، ومن وصف نفسه بأمر توجه عليه الاختبار ، وإذا ادعيت فليكن دعواك بحق ، وانتظر البلاء أي الاختبار ، وإن لم تدع فهو أولى بك .

عم بالغفران أصحاب الذنوب	بعد أخذ وابتداء للعموم
غير أن الأمر قد قسمه	بين سكنى في جنان وجحيم
وكلا الصنفين في رحمته	في التذاذ دائم فيه مقيم
زمهرير عِنْدَ محرور جدى[1]	وحرور عند مقرور نعيم
ليكون الكل في رحمته	إنه قال هو البر الرحيم

فقد يكون غفرانه ابتداءً ، وبعد أخذ ، وهذا يجب الإيمان به .

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً

(١) جدى : عطاء .

وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾

النفس عند العرب تذكر وتؤنث ، كما قال تعالى : « أن تقول نفس يا حسرتى » الآية ، فأنث ، فقال (بلى قد جاءتكِ) بكاف مكسورة خطاب المؤنث (آياتي فكذبتَ بها) بتاء مفتوحة خطاب المذكر والعين واحدة « أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله » فتعلم ما فاتها من الإيمان بالرسول واتباع سنَّتِهِ ، فإنه إذا كانت الصورة التي يتجلى فيها الحق هي ظلة غمام الشريعة ، فرأسها كتاب الله ، وجنبها سنة رسول الله ﷺ ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) مع قوله في أثناء السورة (الله نزل أحسن الحديث) فعلم أنه كتاب الله وكذا سنة رسوله ﷺ ، لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، فلما مهد الأمر بالمتابعة لكتابه وسنة رسوله ﷺ حذر من إتيان عذابه قبل ذلك ومن قول النفس « يا حسرتى على ما فرطتُ في جنب الله » وذلك كالصريح في أن الجنب هو سنة رسوله ﷺ . والجنب جنبان : جنب حسي وجنب معنوي حقيقي ، وقد روى أبو عبد الله الحكيم الترمذي بسنده إلى عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ يجلسه الله معه على العرش ، وذلك يتخرج على أن الصورة التي يتجلى الله تعالى فيها ظلة غمامة ، وهي أنوار آياته ، وفي تلك الصورة يتجلى على العرش ، ونبينا ﷺ يتجلى لأمته في ظل سنته ، وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يفترقان ، كما لا تفارق لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فمن ها هنا صحت المجالسة له مع ربه على عرشه ، ووضح بهذا حسرة النفوس التي شقيت بمخالفته على تفريطها في جنب الله تعالى ، لأنها تشهد هنالك حقيقة معية ربه له تعالى ومجالسته . ولأنهم كانوا يسخرون من الذين آمنوا في اتباعهم لرسوله ﷺ ، أردفت حسرتها بقولها « وإن كنت لمن الساخرين » وبقولها :

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فرد الله عليها بقوله :

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ
أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

هذا مآل المتكبرين وصفتهم ، ذكر الله تعالى ذلك دواء للأرواح ، لتقف مع ضعف مزاجها الأقرب في ظهور عينها وهو البدن ، ولا تظهر في قوتها الأصلية التي لها من النفخ الإلهي ، فإنها إن فعلت ذلك لم يكن شيء أشد تكبراً منها ، فخوّفها الله بما ذكر من وصف المتكبرين ومآلهم واسوداد وجوههم .

وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾
ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾

وقد بين تعالى ما خلق بالآلة وبغير الآلة ، وبكن وبيده وبيديه وبأيد ، وفصّل وأعلم وقدر وأوجد وجمع ووحد ، فقال : إني ونحن وأنا وإنا

لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

النكاح المقلاد ، والإقليد الذي يكون به الفتح ، فيظهر ما في خزائن الجود ، ولما كان وجود العالم عن نكاح زماني ليلي ونهاري (يولج الليل في النهار) و (يغشي الليل النهار) قال تعالى : « له مقاليد السموات » وهو الناكح « والأرض » وهو المنكوح ، فمن علا من هذين الزوجين فله الذكورية وهو السماء ، ومن سفل من هذين الزوجين فله الأنوثة وهو الأرض ، ونكاحهما المقلاد ، ويظهر عن ذلك الأرواح الفاعلة والجثث الطبيعية القابلة للانفعال المنفعلة « والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » .

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾

« لئن أشركت » وقد علم أنه ﷺ لا يشرك ، فالمقصود من أشرك من أمته فهذه صفته ، فإنه المخاطب والمقصود أمته ، وهذا مثل قولهم : إياك أعني فاسمعي يا جارة ، فإنه معلوم أنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهو على بينة من ربه في مآله ، فعلمنا بقرائن الأحوال أنه المخاطب ، والمراد غيره لا هو ، والوحي كان قبل رسول الله ﷺ و لم يجيء خبر إلهي أن بعده وحياً ، كما ذكر في هذه الآية ولم يذكر وحياً بعده ، وإن لم يلزم هذا فسبيل الوحي انقطع بموت رسول الله ﷺ « ليحبطن عملك » كسائر العبادات من الصوم والصلاة ، لم يكن ذلك مشروعاً لعدم الشرط المصحح وهو الإيمان .

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

« ما قدروا الله حق قدره » لما كان الأمر العظيم يُجهَل قدره ولا يُعلَم ويعز الوصول إليه ، تنزلت الشرائع بآداب التوصل فقبلها أولوا الألباب ، قالت اليهود في الخبر النبوي المشهور ، من كون الحق يضع الأرض يوم القيامة على إصبع ، والسموات على إصبع ــ الحديث ــ فقرأ النبي ﷺ هذه الآية « وما قدروا الله حق قدره » « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة » اعلم أن كل جسم أرض لروحه ، وما ثَمَّ إلا جسم وروح ، غير أن الأجسام على قسمين عنصرية ونورية ، وهي أيضاً طبيعية ، فربط الله وجود الأرواح بوجود الأجسام ، وبقاء الأجسام ببقاء الأرواح ، فالأرواح تابعة للأجسام ليست الأجسام تابعة للأرواح ، فإذا قبض على الأجسام فقد قبض على الأرواح فإنها هياكلها ، فأخبر أن الكل قبضته ليستخرج ما فيها ، ليعود بذلك عليها ، وهو قوله تعالى (والله بكل شيء محيط) ومن أحاط بك فقد قبض عليك ، لأنه ليس لك منفذ مع وجود الإحاطة ــ **القبضة واليمين** ــ نظر العقل بما يقتضيه الوضع ، أنه منع أولاً أن يقدر قدره ، لما يسبق إلى العقول

الضعيفة من التشبيه والتجسيم ، عند ورود الآيات والأخبار التي تعطي من وجه ما من وجوهها ذلك ، ثم قال بعد هذا التنزيه الذي لا يعقله إلا العالمون « والأرض جميعاً قبضته » عرفنا من وضع اللسان العربي أن يقال : فلان في قبضتي ، يريد أنه تحت حكمي . وإن كان ليس في يدي منه شيء البتة ، ولكن أمري فيه ماض وحكمي عليه قاض ، مثل حكمي على ما ملكته يدي حساً وقبضت عليه ، وكذلك أقول : مالي في قبضتي ، أي في ملكي وأني متمكن في التصرف فيه ، أي لا يمنع نفسه مني ، فإذا صرفته ففي وقت تصرفي فيه ، كان أمكن لي أن أقول : هو في قبضتي ، لتصرفي فيه ، وإن كان عبيدي هم المتصرفون فيه عن إذني ، فلما استحالت الجارحة على الله تعالى ، عدل العقل إلى روح القبضة ومعناها وفائدتها ، وهو ملك ما قبضت عليه في الحال وإن لم يكن لها ، أعني للقابض فيما قبض عليه شيء ، ولكن هو في ملك القبضة قطعاً ، فهكذا العالم في قبضة الحق تعالى « والأرض » في الدار الآخرة تعيين بعض الأملاك ، كما تقول : خادمي في قبضتي ، وإن كان خادمي من جملة مَنْ في قبضتي ، فإنما ذكرته اختصاصاً لوقوع نازلة « واليمين » عندنا محل التصريف المطلق القوي ، فإن اليسار لا يقوى قوة اليمين ، فكنى باليمين عن التمكن في الطي ، فهي إشارة إلى تمكن القدرة من الفعل ، فوصل إلى إفهام العرب بألفاظ تعرفها وتسرع بالتلقي لها ، قال الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد　　　تلقاها عرابة باليمين

وليس للمجد راية محسوسة ، فلا تتلقاها جارحة يمين ، فكأنه يقول : لو ظهر للمجد راية محسوسة ، لما كان محلها أو حاملها إلا يمين عرابة الأوسي ، أي صفة المجد به قائمة وفيه كاملة ، فلم تزل العرب تطلق ألفاظ الجوارح على ما لا يقبل الجارحة لاشتراك بينهما من طريق المعنى .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

لا يزال كلام الله من حين نزوله يتلى حروفاً وأصواتاً إلى أن يُرفَع من الصدور ويُمحَى

من المصاحف ، فلا يبقى مترجم يقبل نزول القرآن عليه من قوله تعالى : (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) فإذا بقيت صورة جسم الإنسان مثل أجسام الحيوان ، وزالت الصورة الإلهية بالتجريد ، وهي صورة الإنسان الكامل الذي قال فيه الحق [إن الله خلق آدم على صورته] نفخ في الصور ، فصعق من في السموات والأرض إلى يوم النشور ، وهو يوم الظهور ، الذي لا ضد له ، وأما قوله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات » يحتمل أن تكون الملائكة ، ويحتمل أن تكون الأرواح « والأرض » فالصعق يقع على من في السموات والأرض ، بما في ذلك أرواح البشر التي سبق أن فارقت الأجساد ، فيصعق العالم أصحاب السماع « إلا من شاء الله » من خلقه ومن هذه الأرواح ، لذلك لم يكن الأجل المسمى في قوله تعالى : (وأجل مسمى عنده) هو الموت ، لأنه استثنى طائفة لا يصعقون فلا يموتون ، فإما أن يكونوا على حقائق لا تقبل الموت ، فيكون استثناء منقطعاً ، وإما أن يكونوا على مزاج يقبل الموت ولكن لم يسمعوا النفخ ، فلم يدركهم فلم يصعقوا ، فيكون استثناء متصلاً « ثم نفخ فيه أخرى » فثنّى النفخ ، وتسمى نفخة البعث ونفخة الفزع ، فيفيقون ويفزعون إلى ربهم ، والملائكة ليست لهم آخرة ، فإنهم لا يموتون فيبعثون ، ولكن صعق وإفاقة « فإذا هم قيام ينظرون » ــ **بحث في الصور** ــ سئل رسول الله ﷺ عن الصور : ما هو ؟ فقال ﷺ : [هو قرن من نور ألقمه إسرافيل] فأخبر أن شكله شكل القرن ، فوصف بالسعة والضيق ، فإن القرن واسع ضيق ، ولتعلم أن الله سبحانه إذا قبض الأرواح من هذه الأجسام الطبيعية ــ حيث كانت ــ والعنصرية ، أودعها صوراً جسدية في مجموع هذا القرن النوري ، فجميع ما يدركه الإنسان بعد الموت في البرزخ من الأمور ، إنما يدركه بعين الصورة التي هو فيها في القرن وبنورها ، وهو إدراك حقيقي ، ومن الصوَر هنالك ما هي مقيدة عن التصرف ، ومنها ما هي مطلقة كأرواح الأنبياء كلهم وأرواح الشهداء ، ومنها ما يكون لها نظر إلى عالم الدنيا في هذه الدار ، ومنها ما يتجلى للنائم في حضرة الخيال التي هي فيه ، وهو الذي تصدق رؤياه أبداً ، وكذلك قوم فرعون يعرضون على النار في تلك الصور غدوة وعشية ، ولا يدخلونها ، فإنهم محبوسون في ذلك القرن وفي تلك الصورة ، ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب ، وهو العذاب المحسوس لا المتخيل ، الذي كان لهم في حال موتهم بالعَرْض ، وكل إنسان في البرزخ مرهون بكسبه محبوس في صور

أعماله إلى أن يبعث يوم القيامة من تلك الصور في النشأة الآخرة ــ **بحث في الحشر** ــ اعلم أن الروح الإنساني أوجده الله حين أوجده مدبراً لصورة طبيعية حسية له ، سواء كان في الدنيا أو في البرزخ أو في الدار الآخرة أو حيث كان ، فأول صورة لبستها الصورة التي أخذ عليه فيها الميثاق بالإقرار بربوبية الحق عليه ، ثم إنه حشر من تلك الصورة إلى هذه الصورة الجسمية الدنياوية ، وحبس بها في رابع شهر من تكوين صورة جسده في بطن أمه إلى ساعة موته ، فإذا مات حشر إلى صورة أخرى من حين موته إلى وقت سؤاله ، فإذا جاء وقت سؤاله حشر من تلك الصورة إلى جسده الموصوف بالموت ، فيحيا به ويؤخذ بأسماع الناس وأبصارهم عن حياته بذلك الروح ، إلا مَنْ خصه الله تعالى بالكشف عن ذلك من نبي أو ولي من الثقلين ، وأما سائر الحيوان فإنهم يشاهدون حياته وما هو فيه عيناً ، ثم يحشر بعد السؤال إلى صورة أخرى في البرزخ يمسك فيها ــ بل تلك الصورة هي عين البرزخ ، والنوم في ذلك على السواء ــ إلى نفخة البعث ، فيبعث من تلك الصورة ويحشر إلى الصورة التي كان فارقها في الدنيا إن كان بقي عليه سؤال ، فإن لم يكن من أهل ذلك الصنف حشر إلى الصورة التي يدخل بها الجنة ، والمسؤول يوم القيامة إذا فرغ من سؤاله حشر في الصورة التي يدخل بها الجنة أو النار ، وأهل النار كلهم مسؤولون ، فإذا دخل السعداء الجنة واستقروا فيها ثم دعوا إلى الرؤية وبادروا ، حشروا في صورة لا تصلح إلا للرؤية ، فإذا عادوا حشروا في صورة تصلح للجنة ، وفي كل صورة ينسى صورته التي كان عليها ، ويرجع حكمه إلى حكم الصورة التي انتقل إليها وحشر فيها ، فإذا دخل سوق الجنة ورأى ما فيه من الصور ، فأية صورة رآها واستحسنها حشر فيها ، فلا يزال في الجنة دائماً يحشر من صورة إلى صورة إلى ما لا نهاية له ، ليعلم بذلك الإتساع الإلهي ، ولو تفطنت لعرفت أنك الآن كذلك ، تحشر في كل نفس في صورة الحال التي أنت عليها ، ولكن يحجبك عن ذلك رؤيتك المعهودة ، وإن كنت تحس بانتقالك في أحوالك التي عليها تتصرف في ظاهرك وباطنك ، ولكن لا تعلم أنها صور لروحك تدخل فيها في كل آن وتحشر فيها ، واعلم أن الأرواح لما كانت حياتها ذاتية لها لم يصح فيها موت البتة ، ولما كانت الحياة في الأجسام بالعَرَض قام بها الموت والفناء ، فإن حياة الجسم الظاهرة من آثار حياة الروح كنور الشمس الذي في الأرض من الشمس ، فإذا مضت الشمس تبعها نورها وبقيت الأرض مظلمة ،

كذلك الروح إذا رحل عن الجسم إلى عالمه الذي جاء منه ، تبعته الحياة المنتشرة منه في الجسم الحي ، وبقي الجسم في صورة الجماد في رأى العين ، فيقال : مات فلان ؛ وتقول الحقيقة : رجع إلى أصله (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) كما رجع الروح أيضاً إلى أصله حتى البعث والنشور ، ويكون من الروح تجل للجسم بطريق العشق ، فتلتئم أجزاؤه وتتركب أعضاؤه بحياة لطيفة جداً ، تحرك الأعضاء للتأليف ، اكتسبته من التفات الروح ، فإذا استوت البنية وقامت النشأة الترابية ، تجلى له الروح بالرقيقة الإسرافيلية في الصُور المحيط ، فتسري الحياة في أعضائه ، فيقوم شخصاً سوياً كما كان أول مرة « ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » .

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

« وأشرقت الأرض بنور ربها » ــ **الوجه الأول** ــ (كما بدأكم تعودون) (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) فإما شقي وإما سعيد ــ **الوجه الثاني** ــ يعني أرض المحشر ، يقول تعالى : ما ثَمَّ شمس ، وعدم النور ظلمة ، ولابد من الشهود فلابد من النور ، وهو يوم يأتي فيه الله للفصل والقضاء ، فلا يأتي إلا في اسمه النور ، فتشرق الأرض بنور ربها ، وتعلم كل نفس بذلك النور ما قدمت وأخرت ، لأنها تجده محضراً ، يكشف لها هذا النور .

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾

« فتحت أبوابها » أبواب جهنم سبعة هي : باب الجحيم ، وباب سقر ، وباب السعير ،

وباب الحطمة ، وباب لظى ، وباب الحامية ، وباب الهاوية ، وسميت الأبواب بصفات ما وراءها مما أعدت له ، ووصف الداخلون فيها بما ذكر الله .

﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾

ـ **لغة** ـ قيل في حق الأشقياء « فتحت أبوابها » وقيل في حق السعداء « وفتحت أبوابها » إذا جاء بواو العطف راعى ما يقع به الاشتراك في الصورة الظاهرة ، وإذا أزال الواو راعى ما يقع به التمييز والانفراد الذي به حقيقة ذلك الشيء .

وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

« نتبوأ من الجنة حيث نشاء » لا حيث يُمشى بهم ، فإنه في الجنة ارتفع عنه الافتقار العرضي إلى الأشياء ، وما بقي عنده إلا الفقر إلى الله خاصة ، يسكن حيث شاء ويأكل من حيث يشاء من ثمرها ، فقد ارتفع التحجير ، وذلك في جنات الأعمال التي هي ما بين الثمانين إلى السبعين ، لا تزيد ولا تنقص ، على عدد شعب الإيمان ، ولذلك قال « فنعم أجر العاملين » فلم يحجر بهذا لمن عمل بكل عمل ، فإن الإنسان في الدنيا أي عمل عمله من الأعمال ـ أعمال الإيمان ـ لا يحجر عليه إذا شاء عمله ، فيتبوأ من الجنة حيث يشاء من حيث العمل بجميع شعب الإيمان كلها ، التي هي بعدد الجنات العملية .

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

ــ **الوجه الأول** ــ الملائكة الحافون حول العرش ما لهم سباحة إلا في العماء الذي ظهر فيه العرش ، وهؤلاء الملائكة خلقهم الله تعالى من نور العرش الذي استوى عليه الرحمن ، فإنهم إليه يتوجهون وعليه يعولون ، وحوله يحومون وبه يطوفون ، وحيثما كانوا فإليه يشيرون ، فمتى حدث في الكون حادثة أو نزلت به نازلة ، رفعوا أيدي المسئلة والتضرع إلى جهة عرشه ، يطلبون الشفا ويستعفون عن الخطا ، لأن موجد الكون لا جهة له يُشَار إليها ، ولا أينية له يقصدونها ، ولا كيفية له يعرفونها ، فلو لم يكن العرش جهة يتوجهون إليه للقيام بخدمته ، ولأداء طاعته ، لضلوا في طلبهم ، فهو سبحانه إنما أوجد العرش إظهاراً لقدرته ، لا محلاً لذاته ، وأوجد الوجود لا لحاجة إليه ، وإنما هو إظهار لأسمائه وصفاته

ــ **الوجه الثاني** ــ هذا العرش الذي تحف به الملائكة ما هو العرش الذي استوى عليه الرحمن ، فإن الثاني قد عمر الخلاء ، وإنما العرش الذي تحف به الملائكة هو العرش الذي يأتي الله به للفصل والقضاء يوم القيامة ، ولذلك تمم الآية بقوله « وقيل الحمد لله رب العالمين » عند الفراغ من القضاء ، فذلك العرش يوم القيامة تحمله الثمانية الأملاك ، وذلك بأرض المحشر ونسبة العرش إلى تلك الأرض نسبة الجنة إلى عرض الحائط في قبلة رسول الله ﷺ ، من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع ، « وقضي بينهم بالحق » اعلم أن الحكم للرحمة ، ويوم القيامة يوم العدل في القضاء ، وإنما تأتي الرحمة في القيامة لِيُشهَد الأمر ، حتى إذا انتهى حكم العدل وانقضت مدته في المحكوم عليه ، تولت الرحمة الحكم فيه إلى غير نهاية « وقيل الحمد لله رب العالمين » ــ **إشارة** ــ من قام باللام وحده ، ووقف على ما حصل عنده ، وجاوزه إلى مطلعه وحده ، ولم ير مثله ولا ضده ، وملك وعيده ووعده ، وأمن قربه وبعده ، وعرف أنه لا يأتي أحد بعده ، قال : الحمد لله الذي صدقنا وعده ــ شرح هذه الإشارة ــ قوله « من قام باللام وحده » يريد أن اللام للفناء ، فيكون القائم الحق لا هو ، لأنك تقول « الحمد لله » فجعلته حامداً لنفسه ، قائماً بحمده ، وإذا قلت « الحمد بالله » فقد جعلت الباء للاستعانة ، فاللام له ، والباء لنا ، ولذلك قال : العلماء لي والعارفون بي[1] ــ قوله « ووقف على ما حصل عنده » يعني تميزت له نفسه بما كشف الحق له من المراتب ، قوله « ولم ير مثله ولا ضده » يعني لشغله بربه ، أو بموازنة نفسه مع ربه فيما

---

(١) راجع كتابنا شرح كلمات الصوفية ، « أبو العباس بن العريف الصنهاجي » ص ٣١٠

وجّه عليها ، قوله « وملك وعيده ووعده » أي لم يؤثر فيه لا رغبة ولا رهبة ، أي لا صفة حكمت عليه ، فهو عبد ذات لا عبد صفة ، قوله « وأمن قربه وبعده » أي لم يتأثر للأسماء المؤثرات في القرب والبعد ، وأما الوعد والوعيد فلآثار الأسماء ، وقوله « وعرف أنه لا يأتي أحد بعده » أي لا يأتي أحد بعد بأكمل من هذا المقام ، وإنما يتفاوتون في استصحابه أو عدم استصحابه ، قال : الحمد لله الذي صدقنا وعده .

المراجع

١ – كتاب الفتوحات المكية – طبعة الميمنية
٢ – كتاب الشاهد
٣ – كتاب تلقيح الأذهان
٤ – إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن
٥ – كتاب عنقاء مغرب
٦ – كتاب النجاة من حجب الاشتباه
٧ – كتاب ذخائر الأعلاق ترجمان الأشواق
٨ – كتاب التنزلات الموصلية
٩ – كتاب عقلة المستوفز
١٠ – كتاب التدبيرات الإلهية
١١ – كتاب المشاهد القدسية
١٢ – كتاب فصوص الحكم
١٣ – كتاب نقش الفصوص .
١٤ – كتاب روح القدس في محاسبة النفس
١٥ – كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى .
١٦ – كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار
١٧ – كتاب القسم الإلهي
١٨ – كتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام
١٩ – كتاب رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات .
٢٠ – كتاب مواقع النجوم .

٢١ ـ كتاب التراجم
٢٢ ـ كتاب الجلال والجمال
٢٣ ـ كتاب الشأن
٢٤ ـ ديوان الشيخ الأكبر
٢٥ ـ كتاب الوصية .
٢٦ ـ كتاب إنشاء الجداول والدوائر
٢٧ ـ كتاب الأمر المحكم المربوط .
٢٨ ـ كتاب مسامرة الأبرار ومحاضرة الأخيار .
٢٩ ـ كتاب تاج الرسائل .
٣٠ ـ كتاب شعب الإيمان .
٣١ ـ كتاب شجرة الكون (المعراج) .
٣٢ ـ كتاب المسائل .
٣٣ ـ كتاب الكتب
٣٤ ـ كتاب مسائل ابن سودكين .

مراجع جمع آيات رحمة من الرحمن

سورة الكهف

(١) ف ح ٩٣/٣ (٦) ف ح ٤١٠/٣ (٧) ف ح ٤٣٣/٤ (١٠) ف ح ٢٣٣/٢ (١٣) ف ح ٢٣٣/٢ ـ ح ٢٤١/١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ـ كتاب الشاهد (١٧) ف ح ٢٥٢/٢ (١٨) ف ح ٥٤٦/٣ (٢٢) ف ح ٥٤٥/٣ ـ ح ٣٣٦/٤ ـ ح ٣٤٥/٣ ـ كتاب تلقيح الأذهان (٢٤) ف ح ٢٦١/٢ ـ ح ٨٥/٣ (٢٥) ف ح ٩/٢ (٢٨) ف ح ١٨/٣ ـ ح ١٤٩/٢ ـ ح ١٨/٣ ـ ح ١٤٩/٢ ـ ح ١٨/٣ ، ٢٠ ـ ح ١٧٠/٤ ـ ح ٢٢٠/٣ ـ ح ١٥٢/٤ ـ كتاب الشاهد (٢٩) ف ح ١٨/٣ ـ إيجاز البيان آية ١٢١ ـ ح ٢٢٠/٣ ـ ح ٢٦٥/٢ (٣٠) ف ح ٣٨٨/٣ ـ ح ١١٧/٤ ، ٣٤ ـ إيجاز البيان آية ١٤٥ (٣٢) ف ح ٦٧٩/٢ (٣٦) ف ح ٦٧٩/٢ (٤٢) كتاب الشاهد (٤٥) ف ح ٢٩٧/٤ ـ ح ٣٠٢/٢ (٤٦) ف ح ١٢٥/٤ (٤٧) ف ح ٤٩٢/٣ (٤٨) ف ح ٣٠٩/١ (٤٩) ف ح ٤٠٦/٣ (٥٠) ف ح ٣٦٧/٣ ـ ح ١٣٤/١ ـ إيجاز البيان آية ٣٥ (٥١) كتاب عنقاء مغرب ـ ف ح ٧٠/٢ ، ٦٠٦ ـ ح ٢٩٦/٤ ـ ح ٧٠/٢ ـ ح ١٩٥/١ ـ ح ٢٨٩/٤ ـ إيجاز البيان آية ١٦٤ ـ ف ح ٥٥٧/٣ ـ ح ١٣٧/٢ (٥٤) ف ح ٢١٧/٣ ، ٤٣٦ ، ٢١٧ (٥٧) ف ح ٤٤٠/٤ (٦٠) ف ح ٢٤/٢ ، ٤٣٩ ـ كتاب النجاة (٦٢) ف ح ٣٩٧/١ ـ كتاب النجاة (٦٣) ف ح ٣٩٣/١ ـ كتاب النجاة (٦٤) ف ح ٣٩٧/١ (٦٥) ف ح ٣٩٣/١ ـ ح ٦٤٤/٢ ـ ح ٣٣٦/٣ ـ ح ٥٥/٤ ، ١٥٣ ـ ح ٧٦/٢ ، ١٥٨ ـ كتاب ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٥٥٨/٣ ـ ح ٤١/٢ ، ١٥٨ ـ ح ١٥٣/٤ ـ ح ٤٢٠/٢ ـ ح ١٥٣/٤ ـ ح ١١٤/٢ ، ٦٤٤ ـ ح ٥٥٨/٣ ـ ح ٤٠٦/٣ ـ ح ٤٢٠/٢ ـ ح ٣١/١ (٦٦) ف ح ٢٦٢/٢ (٦٧) ف ح ١٩/٢ (٦٨) ف ح ٤١/٢ ـ ح ١٩٩/١ ـ ح ٥١/٢ ـ ح ١٩٩/١ ـ ح ١٩/٢ ـ ح ١٩٩/١ ـ ح ١٩/٢ ، ٢٦١ ، ٤٨٩ ، ٢٦١ (٧٠) ف ح ٤٢٧/٤ (٧٣) ف ح ٣٤٥/٤ (٧٤) ف ح ٧٩/٢ ـ ح ٤٣٢/٤ ـ ح ٢٦٠/٢ ، ٦٠٥ (٧٧) ف ح ٢٦١/٢ (٧٨) ف ح ٢٦٢/٢ (٧٩) ف ح

٤٨١/٢ (**٨٠**) ف ح ٥٩/٤ (**٨١**) ف ح ٣٩٣/١ (**٨٢**) ف ح ٣٨٦/٤ ـ ح ٣٩٣/١ ـ ح ٢٦١/٢ ، ٧٩ ، ٢٦١ ، ٤٨٩ ، ٢٦١ ـ ح ٣١٩/٤ ـ ح ٢٠٥/١ ـ كتاب النجاة ـ ف ح ٤٠٣/٤ ـ ح ٤٥٠/٣ (**٨٦**) كتاب ذخائر الأعلاق (**٨٩**) كتاب ذخائر الأعلاق (**٩٨**) ف ح ٣٣٠/٣ (**١٠٤**) ف ح ٢٥٠/٤ ـ كتاب التنزلات الموصلية (**١٠٥**) ف ح ٣١٥/١ ـ ح ٢٦٦/٢ ـ كتاب عقلة المستوفز (**١٠٧**) ف ح ١٤٢/٣ (**١٠٩**) ف ح ٩٠/٢ ـ كتاب التدبيرات الإلهية ـ ف ح ٣٩٠/٢ ، ٤٥٩ (**١١٠**) ف ح ٢٢٥/٣ ، ٥٠ ـ ح ٦٦٤/١ ـ ح ٢٢٥/٣ ، ١٩١ ، ٣٣٧ ، ٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣ ـ كتاب النجاة ـ كتاب المشاهد ـ ف ح ٢٢١/٢ ـ ح ٤٧٨/٣ ، ٣٥٥ ـ ح ٢٢١/١ ـ ح ٤٧٨/٣ ، ٣٥٥ ـ ح ٥٣٦/٤ ـ ح ٢٢١/٢ ـ ح ٤٧٧/٣ ـ ح ٥٨١/٢

سورة مريم

(**٢**) ف ح ١٥٣/٤ (**٣**) ف ح ٤١٧/٢ (**٤**) ف ح ٤٧٥/٢ (**٥**) فصوص الحكم فص ٢٠ (**٦**) فصوص الحكم فص ٢٠ (**٧**) نقش الفصوص ـ ف ح ٤١٧/٢ ـ ح ٣٤٦/٣ ـ فصوص الحكم فص ٢٠ ـ ح ٤١٥/٤ ـ نقش الفصوص ـ ح ٣٤٦/٣ (**٨**) ف ح ٥٠٩/٣ (**٩**) ف ح ٢٥٤/٣ ـ ح ١٦٧/٤ ـ ح ٢٥٤/٣ ـ روح القدس ـ ف ح ٢٠٢/١ ـ ح ٦٧٢/٢ ـ ح ٢٥٤/٣ ـ ح ٦٧٢/٢ ـ ح ١٠/٤ (**١١**) كتاب تلقيح الأذهان (**١٢**) ف ح ٤٤٦/١ ـ ح ٢٣٥/٤ ، ١١٧ ، ٤١٥ (**١٥**) ف ح ٨٩/٣ ، ٣٤٧ (**١٧**) ف ح ٢٢٣/١ ـ ح ٤٧٠/٢ ، ٤٧٢ ـ ح ٣٩٠/٣ ـ ح ٧٠/٢ ـ ح ٢٢٣/١ (**١٨**) فصوص الحكم فص ١٥ (**١٩**) فصوص الحكم فص ١٥ ـ ف ح ٤٠٥/٢ ـ ح ١٨٢/٣ ـ ح ١٣٨/١ ـ ح ١٨٢/٣ ـ ح ٤٠٥/٢ ـ ح ٢٣٧/١ (**٢٠**) كتاب النجاة ـ كتاب الإسراء (**٢١**) ف ح ٤٥٨/١ ـ ح ٥٦/٢ ـ ح ٤٥٨/١ (**٢٢**) ف ح ٦٨٩/٢ (**٢٣**) ف ح ٥١٤/٣ ـ ح ٤٩١/٢ ـ ح ١١/٣ (**٢٥**) ف ح ٤١٧/٢ ـ ح ١١٦/٤ ـ كتاب النجاة ـ كتاب الإسراء (**٢٨**) ف ح ٣٤٧/٣ (**٢٩**) ف ح ٢٧٩/١ ، ٢٨٠ ـ ح ٣٣٦/٤ ، ٤١١ ، ١١٦ (**٣٠**) ف ح ٣٨٧/٢ ـ ح ١١٦/٤ ـ ح ٣٨٧/٢ (**٣١**) ف ح ١١٦/٤ ـ ح ١١٦/١ ـ ح ٣٨٧/٢ ـ ح ١١٦/٤ ـ ح ٥٩٦/١ ـ ح ٣٨٧/٢ ـ ح ١١٦/٤ ـ ح ٣٨٧/٢ ـ ح ١١٦/٤ ـ ح ٣٨٧/٢ (**٣٢**) ف ح ٥٩٦/١ ـ ح ١١٦/٤ ـ ح ٥٩٦/١ ـ ح ٣٨٧/٢ ـ ح ١١٦/٤ ـ ح ٣٨٧/٢ ـ ح ٨٩/٣ (**٣٣**) ـ كتاب الأعلاق ـ كتاب التنزلات الموصلية/الباب ٤٩ ـ ف ح ٣٤٧/٣ ـ ح ٢٨٧/٢ ـ ح

١١٦/٤ ـ ح ٣٨٧/٢ ـ كتاب التنزلات الموصلية (**٣٩**) ف ح ٣١٦/١ ـ ح ٣٥٢/٤ ـ ح ٣١٦/١ ، ٦٤١ ، ٣٠٠ ـ ح ٤٦٨/٣ ، ٤٨١ (**٤٠**) ف ح ٣١٧/٤ ـ ح ٥٠٣/٣ ، ٥١٦ (**٤١**) ف ح ٩١/٢ ـ ح ١٠٦/٤ (**٤٤**) ف ح ٢٠٧/٣ (**٤٥**) ف ح ٥١١/١ ـ ح ٤٨/٤ ـ ح ٢٠٧/٣ (**٥٢**) ف ح ٣٧٥/٢ ـ ح ٤٠٦/٤ (**٥٣**) فصوص الحكم فص ٢٤ ـ ف ح ٢٦٣/٤ ، ٢١٧ ـ ح ٥٨٥/١ (**٥٦**) ف ح ٥٠/٣ ـ كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار ـ ف ح ٣٤٨/٣ ـ كتاب الإسفار (**٥٧**) ف ح ٤٤٥/٢ ـ ح ٣٤١/٣ ـ ح ١٧٠/٢ ـ ح ٣٤٨/٣ ـ كتاب النجاة ـ كتاب الإسراء (**٥٨**) ف ح ٥١١/١ (**٦١**) كتاب ذخائر الأعلاق (**٦٢**) ف ح ٧٢٤/١ ـ ح ٥٦٤/٣ ـ كتاب الأعلاق (**٦٣**) ف ح ٣٠٢/١ ـ ح ٤٠٢/٤ (**٦٤**) ف ح ٢٥٦/٢ ـ إيجاز البيان آية ٩٩ ـ ف ح ١٨٧/١ ـ ح ٣٣٤/٣ ـ ح ٦٣٨/٢ ـ ح ٤٠٠/٣ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح ٦٨٥/٢ (**٦٧**) ف ح ٤١٥/٣ ـ ح ٦٨٦/٢ ، ٩٥ ، ٦٨٦ ، ٩٥ ، ٦٢ ، ٩٥ ، ١٣ ـ كتاب القسم الإلهي ـ ف ح ٤٣٣/٤ ـ ح ٧٣٦/١ (**٦٨**) كتاب القسم الإلهي (**٧١**) ف ح ٣١٥/١ ـ ح ٤٤٠/٣ ـ ح ٦٢٣/١ ـ ح ٤٤٠/٣ (**٨٥**) ف ح ٤١/٣ ـ ح ٣٧/٤ ـ ح ١٥٦/٢ ـ ح ٢٦٩/١ ـ ح ٤١/٣ ، ٢١٣ ـ ح ٢١٠/١ ـ ح ٢١٣/٣ ـ ح ٢١٠/١ ـ ح ٨٧/٢ ـ ح ٧٣٦/١ ـ ح ٢١٠/١ ـ ح ٣١/٣ ـ ح ٢٦٩/١ ـ ح ٢١٠/١ (**٨٦**) فصوص الحكم/فص ١٠ (**٩١**) ف ح ١٦٦/٣ (**٩٣**) ف ح ٢٧/٢ ، ٥١٦ ، ٦١٧ ـ ح ٥٣٩/٣ (**٩٦**) ف ح ٣٣٧/٢

سورة طه

ف ح ٨٦/٤ ، ٢٠٦ (**٥**) ف ح ٨٨/١ ـ ح ٦٩٢/٢ ـ ح ٦١/٣ ـ ح ٤٤/١ ـ ح ٤٤٤/٣ ـ ح ٤٠٨/٤ ـ ح ٢٤٢/٢ ـ كتاب التنزلات الموصلية ـ ف ح ١٠٢/٢ ـ ح ٤٣١/٣ ، ٢٣٢ ـ كتاب عقلة المستوفز ـ كتاب التدبيرات الإلهية ـ ف ح ٣٩٠/٢ ـ ح ١٠١/٣ ، ١٠٩ ـ ح ٥٤٠/١ ـ ح ١٠١/٣ ، ٤٢٠ ، ٣٦٣ ـ كتاب الإعلام (**٦**) ف ح ٢٤٣/٤ ـ ح ٤٣٧/٢ ـ ح ٥٢٦/٣ ـ ح ٢٧٤/٤ (**٧**) إيجاز البيان آية ٣٤ ـ ف ح ٤١٢/٢ ، ٦٨٦ ـ ح ٣٧٢/٤ ـ ح ٤١٢/٢ ، ٦٨٦ ، ١٢٨ ـ ح ٣٥٣/٤ ـ ح ٣٧٣/٣ ـ ح ٤١٢/٢ (**٨**) ف ح ٤١٢/٢ ـ ح ٣٢٣/١ ـ ح ٣٢٥/٣ ، ٤٦٥ ـ ح ٩٩/١ ـ ح ٤٤٧/٣ ـ ح ٩٩/١ ـ ح ١٦٣/١ ، ٤٢ ، ١٦٣ ـ ح ٤٤١/٣ ـ ح ١٦٣/١ ـ ح ٤٤١/٣ ـ ح ٣٤٤/٤ (**١٠**) ف ح ٣٠١/٣ ـ كتاب الإسفار ـ ح ٣٣٦/٣ (**١١**) ف ح

٢٦٩/٢ (**١٢**) ف ح ١١٩/٣ – ح ١٩٢/١ – كتاب رد الآيات المتشابهات – ف ح ١٩٣/١ (**١٣**) ف ح ٤١٣/٢ (**١٤**) ف ح ٤١٣/٢ – ح ٤١/٤ ، ٤١٢ ، ٥٠ (**١٧**) ف ح ٢٧٧/٢ (**١٨**) ف ح ٢٧٧/٢ (**١٩**) ف ح ٢٧٧/٢ (**٢٠**) ف ح ٢٧٧/٢ – ح ٢٣٤/١ (**٢١**) ف ح ٢٧٧/٢ – ح ٢٣٤/١ – ح ٢٧٧/٢ – ح ٢٣٤/١ – كتاب الإسراء – كتاب النجاة (**٢٢**) كتاب الإسراء – كتاب النجاة (**٢٥**) ف ح ١٣٢/٣ (**٣٥**) ف ح ١٣٤/٣ (**٣٩**) كتاب رد الآيات المتشابهات – كتاب الإسراء – كتاب النجاة (**٤٠**) كتاب فصوص الحكم/فص٢٥ (**٤١**) ف ح ٣٢/٣ (**٤٤**) ف ح ٤٧٢/٣ ، ٤٠٦ – ح ٢٧٦/٢ – ح ٢٦٤/٣ – ح ٢٧٦/٢ – ح ٢٦٤/٣ ، ٥٣٣ – ح ٤١١/٢ ، ٢٧٦ – ح ٢٦٤/٣ – ح ٤١١/٢ ، ٢٧٦ ، ٤١١ – ح ٢٦٤/٣ – ح ٤٣٠/٢ ، ٤٦ (**٤٥**) ف ح ٢٦٤/٣ ، ٥٣٣ (**٤٦**) ف ح ٤٨٦/٢ – ح ٣٢٣/٤ – ح ٥٣٣/٢ ، ١١٨ (**٤٨**) ف ح ٥٣٣/٣ (**٤٩**) ف ح ٩٠/٢ – ح ٥٣٣/٣ (**٥٠**) ف ح ٩٠/٢ – ح ٢٩١/٤ ، ٢٧٤ – ح ٢٢٠/٣ – ح ٢٧٤/٤ – ح ٩٥/٢ – ح ٥٠٥/٣ – ح ٦٧٩/١ – ح ٤٤٩/٣ – ح ٢٤٤/٢ – ح ٤٠٥/٣ – ح ١٠٩/٢ ، ٤٥٤ – ح ١٨٤/١ – ح ٩٦/٢ ، ٩٧ ، ٢١٧ ، ٦٠ ، ٤٥ – ح ٢٧٤/٤ – ح ٤٤٦/٣ – ح ٦٧٢/٢ – ح ٣٠٦/١ – ح ٦٠/٢ ، ٩٦ ، ٦٠ – ح ٤٠٥/٣ – ح ٢٦٣/٤ – ح ٢٦٩/٢ – ح ٣٩٨/٣ – ح ٦٥٤/٢ ، ٢٩٩ – ح ٥٣٣/٣ (**٥٢**) ف ح ٥٣٣/٣ ، ٣١٧ (**٥٣**) ف ح ٢٤٨/٣ (**٥٤**) ف ح ٤٦٥/٢ ، ٣٩ – ح ٣٤٧/٤ (**٥٥**) كتاب عقلة المستوفز – ف ح ٤١٥/٤ – ح ٥٢٦/١ – ح ٢٥٠/٣ – ح ٥٢٦/١ ، ٥٢٧ (**٦٦**) ف ح ٢٣٤/١ – ح ٣١١/٢ – ح ١٠٩/٤ – ح ٥٧٦/٢ – ح ٥٠٧/٣ ، ٢٨٨ – ح ٣١١/٢ – ح ٢٨٨/٣ – ح ١٠٩/٤ – ح ١٠٨/٣ (**٦٧**) ف ح ٢٣٥/١ ، ١٥٨ (**٦٨**) كتاب رد الآيات المتشابهات – ف ح ٢٣٥/١ (**٦٩**) ف ح ٢٣٥/١ ، ١٥٨ ، ٢٣٥ – ح ٥٦٧/٢ – ح ١٥٨/١ ، ٢٣٥ – كتاب مواقع النجوم (**٧٠**) ف ح ٢٣٥/١ – ح ٤١٠/٢ (**٧٢**) كتاب فصوص الحكم/فص ٢٥ (**٧٣**) ف ح ٦٨٦/١ – ح ١٠٧/٤ (**٧٤**) ف ح ٢٤٥/٣ (**٧٥**) ف ح ٣١٤/٤ (**٧٧**) إيجاز البيان آية ٥١ (**٧٨**) إيجاز البيان آية ٥١ (**٧٩**) ف ح ٦١٢/٢ – كتاب رد الآيات المتشابهات (**٨١**) ف ح ٢٩٧/١ – ح ١٦٩/٢ (**٨٢**) ف ح ٤٧٦/١ (**٨٣**) كتاب الإسفار (**٨٤**) كتاب الإسفار – كتاب الإسراء – كتاب النجاة (**٨٥**) كتاب الإسفار – ف ح ٥٨٤/١ (**٨٦**) كتاب الإسفار (**٨٨**) كتاب الإسفار – كتاب الإسراء – كتاب النجاة (**٨٩**) ف ح ٤١٣/٢ (**٩٠**) كتاب الإسفار (**٩١**) كتاب الإسفار (**٩٣**) كتاب الإسفار (**٩٤**) ف ح ٢٧٧/٢ –

فصوص الحكم/فص ٢٤ ـ كتاب الإسفار ـ ف ح ٢/٢٧٧ **(٩٥)** كتاب الإسفار **(٩٦)** كتاب الإسفار ـ ف ح ١/١٦٨ ، ٢٣٧ ـ ح ٣/٣٤٦ ـ فصوص الحكم/فص ١٥ ـ ف ح ١/٢٣٧ **(٩٧)** ف ح ٢/٤١٣ ـ فصوص الحكم/فص ٢٤ **(٩٨)** ف ح ٢/٤١٣ **(٩٩)** ف ح ٣/٩٤ **(١٠١)** ف ح ٣/٧٧ **(١٠٢)** ف ح ١/٣٠٥ ، ٣٠٦ **(١٠٧)** ف ح ٢/٢١٩ ـ ح ٣/٤٨٦ ، ٤٣٩ **(١٠٨)** ف ح ٢/٥١١ ـ ح ٣/٤٣٩ ـ ح ١/٤٥٣ ، ٣١٣ ، ٤٩٣ ـ ح ٤/٤٣١ **(١١٠)** كتاب الأعلاق ـ ف ح ٢/٣٠٧ ـ ح ١/٣٤٥ ـ ح ٣/٣٧٦ ـ ح ٢/٦٧١ **(١١١)** ف ح ٢/١٨٢ ، ٦٧١ ـ ح ١/١٦٦ ـ كتاب التنزلات الموصلية **(١١٤)** ف ح ١/٨٣ ـ ف ح ٤/٤٠٠ ـ ح ١/٨٣ ـ ح ٤/٤٠٠ ـ ح ١/٨٣ ، ١٦٦ ـ ح ٣/٥٤ ، ٤٠٠ ـ ح ١/٨٣ ـ كتاب مواقع النجوم ـ ف ح ٢/٦١٢ ، ١١٧ ، ٦١٢ ـ ح ١/١٦٦ ـ ح ٢/١١٧ ـ ح ٣/١٥١ ـ ح ٢/٦٧١ ـ ح ٤/٢٢ ، ٤٣٠ ـ ح ٣/١٥١ ، ٣٩٩ ـ ح ٢/٤٤ ـ ح ١/١٦٦ ـ ح ٢/٤٩٨ ـ ح ١/٥٧ ـ ح ٢/٥٥٢ ، ٢١٣ ، ٥٥٢ ـ ح ١/٦٧٦ ـ ح ٢/٢٠٣ ـ ح ١/٧٢٩ ـ ح ٣/٤٥٧ ـ ح ١/١٦٦ ـ ح ٣/٥٦٢ ـ ح ٢/٥٣١ ـ ح ٣/٣٥١ ـ ح ٤/٤٣٠ **(١١٥)** ف ح ٣/٣٨١ ، ١٥٦ ، ٣٨١ ـ كتاب الإسفار ـ ف ح ٢/٤٠٧ ـ ح ١/٦٦٣ **(١١٩)** كتاب الإسراء **(١٢٠)** ف ح ٢/٤٦٧ ، ٥٦٥ **(١٢١)** ف ح ٤/٤٣٠ ـ ح ٣/٣٨١ ـ كتاب الإسفار ـ ف ح ٤/٣٨١ ـ ح ٢/٤٠٧ ـ ح ٣/٣٥١ ـ ح ١/٥٢٣ ـ ح ٤/٣٠٦ ـ ح ٢/٨٦ **(١٢٢)** ف ح ١/٧٥١ ـ ح ٢/١٤١ ـ ح ١/٦٥٦ ـ ح ٢/١٤١ ـ ح ٤/٢٣٠ ـ ح ١/٦٥٦ ـ ح ٤/٢٣٠ ـ ح ٢/١٤١ ـ ح ١/٦٥٦ ـ ح ٤/٣٦٥ ـ كتاب الإسراء ـ كتاب النجاة **(١٢٥)** كتاب رد الآيات المتشابهات **(١٢٦)** كتاب رد الآيات المتشابهات **(١٣٠)** ف ح ٤/٤١٩ ، ٩٥ ، ٤١٩ **(١٣١)** ف ح ٤/١٢٥ ، ٤٨١ **(١٣٢)** ف ح ١/٥٤٢ **(١٣٤)** ف ح ٤/١٦ **(١٣٥)** كتاب المشاهد .

سورة الأنبياء

(١) ف ح ٣/٣٨٠ ـ ٤٨ ـ كتاب التراجم **(٢)** ف ح ٤/٢٢٦ ـ إيجاز البيان ـ ف ح ٣/٣٦٥ ـ ح ٢/٢٣٩ ـ ح ٤/٣١٥ ـ ح ٢/٢٣٩ ـ ح ٤/٣١٥ ـ ح ١/٣٦٧ ـ ح ٤/٢٢٦ ـ ح ١/٥٥١ ، ٣٦٧ ـ ح ٢/٦٣ ـ ح ٣/٣٦٥ ـ ح ٤/٤٠٢ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح ٢/٦٣ ، ٤٢٨ ـ ح ٤/٣٦٣ ـ ح ٢/١٩٠ ـ ح ٣/١٢٧ **(٧)** ف ح ٢/١٩٠ **(٨)** ف ح ١/١٣٣ ، ١٤٩ **(١٦)** ف ح ٢/٤١٥ **(١٧)** ف ح ٣/١٦٣ ـ ح

٩٣/٤ **(١٩)** ف ح ٩٣/٤ **(٢٠)** ف ح ٦٧/٣ ـ كتــاب عقلــة المستوفز ـ ف ح ٥٠٠/١ ـ ح ٨٩/٢ ، ١٠٨ **(٢٢)** إيجاز البيان ـ ف ح ٦١٩/٢ ـ ح ٦٨٠/١ ـ ح ٦١٩/٢ ـ ح ٢٦٢/١ ـ ح ١٣/٤ ـ ح ٢٨٩/٢ ـ ح ١٣/٤ ـ كتــاب التــدبيرات الإلهية ـ ف ح ٨٠/٣ ، ١٣٧ **(٢٣)** ف ح ٢٤٠/٤ ـ ح ٤٠٥/١ ـ كتــاب الجلال والجمال ـ ف ح ٦٤/٢ ، ٥٦٠ ـ ح ٣٦٤/٤ **(٢٥)** ف ح ٤١٤/٢ **(٢٨)** ف ح ٤١٤/٢ **(٢٩)** ف ح ١٣٦/٤ ، ٤٣٧ ، ١٣٦ ، ١٣٧ **(٣٠)** ف ح ٢٩٣/١ ـ إيجاز البيان ـ ف ح ٤٥٥/٢ ـ ح ١٤٠/١ ـ إيجاز البيان ـ ف ح ٢٩٣/١ ـ ح ٣٢٤/٣ ، ٢٩٣/١ ، ٣٣٢ ـ ح ١٧٤/٢ ـ ح ١٣٣/١ ـ ح ٤٥٢/٢ ، ٢١٩ ، ١٧٤ ، ٢١٩ ـ ح ٣٥٦/٤ ـ ح ٤٦٢/٢ ـ ح ٢١٩/٤ ـ ح ٤٣٦/٢ **(٣١)** عقلة المستوفز **(٣٣)** ف ح ٢٩١/١ ، ٢٦٥ ـ ح ٤٣٨/٣ ـ ح ٢٦٥/١ ـ ح ٤٣٣/٢ ـ ح ١٢١/١ **(٣٥)** ف ح ٣٥١/٢ ـ ح ١٢٦/٤ **(٣٧)** ف ح ٤٢٧/٤ **(٤٧)** ف ح ١٨٣/٢ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ـ ح ٣١٥/١ ، ٢٩٤ **(٤٨)** ف ح ١٠٧/٢ **(٤٩)** ف ح ٣٧٥/٣ ـ ح ٦٥/٢ **(٥٠)** ف ح ٦٥/٢ **(٥٨)** كتاب الإسراء ـ كتاب النجاة **(٦٠)** ف ح ٢٤٣/١ ـ ح ٢٣٣/٢ ـ ح ٣٥٧/٤ **(٦٣)** ف ح ٢٤٣/١ ـ ح ٣٢٣/٤ ـ ح ٢٤٣/١ ـ ح ٣٢٣/٤ ـ ح ٣٥٠/٣ ـ ح ٢٤٣/١ ـ ح ٣٥٠/٣ ـ ح ٢٤٣/١ ـ ح ٣٥٠/٣ ـ ح ٣٢٣/٤ ـ ح ٢٤٣/١ **(٦٥)** ف ح ٤٠٩/٢ **(٦٧)** ف ح ٣١٠/٣ **(٦٨)** ف ح ٢٤٣/١ **(٦٩)** ف ح ٤٥/١ ، ٧٢٣ ، ٧٤٦ ـ ح ٣٠٧/٤ **(٧٣)** ف ح ١٧/٢ **(٧٨)** كتاب الإسراء ـ كتاب النجاة **(٧٩)** فصوص الحكم ـ كتاب تلقيح الأذهان ـ ف ح ١٢١/٣ ـ كتاب نقش الفصوص **(٨٣)** ف ح ٢٩/٢ ـ ح ٢١٦/٤ ـ ح ٣٤٣/٢ **(٨٤)** ف ح ٢٩/٢ ـ ح ١٤٣/٤ ـ كتــاب الإعــلام **(٨٧)** ف ح ٤١٤/٢ ـ ح ٢١٠/١ ـ ح ٤١٤/٢ ـ ح ٢١٢/١ ـ ح ٤١٢/٢ **(٨٨)** كتاب نقش الفصوص ـ ف ح ٣٥٦/٤ ـ ح ٤١٢/٢ ـ كتاب نقش الفصوص **(٨٩)** ف ح ٢٧/٤ **(٩١)** ف ح ١٩٩/٤ **(٩٦)** ف ح ٣٣٠/٣ **(٩٨)** ف ح ٥٩١/٢ ـ ح ١١٨/٣ ـ إيجاز البيان آية ٢٥ **(٩٩)** ف ح ٧٢٥/١ **(١٠٠)** ف ح ٧٢٥/١ **(١٠١)** ف ح ٧٢٥/١ ـ ح ١١٨/٣ **(١٠٢)** ف ح ٥٠٦/٣ ، ١١٨ ـ ح ٢٥٩/١ ، ٦٤١ **(١٠٣)** ف ح ٥٤٦/١ ـ ح ٥١/٣ ـ ح ٥٤٦/١ ـ ح ٥١٠/٢ ، ٨١ ـ ح ٥٤٦/١ ـ ح ١٢٥/٢ ـ ح ٥١/٣ ـ ح ٦٥٥/١ ـ ح ٥٣٢/٢ ـ ح ٥٤٦/١ ـ ح ١٢٥/٢ **(١٠٤)** كتاب تلقيح الأذهان ـ ف ح ٤٧١/٢ **(١٠٥)** كتاب التراجم ـ ح ٢٧/٢ **(١٠٧)** ف ح ٤١١/٢ ـ ح ٥١٩/٣ ، ٥٦٧ ـ ح ١٢٧/٢ ـ ح

٥٦٧/٣ ، ٥١٩ - ح ٢١٥/١ - ح ١٦٣/٤ - ح ١٢٧/٢ - ح ١١٦/٣ ، ٩٣ ، ٣٩٨ - ح ٢١٠/١ - ح ٥٦٧/٣ ، ٥٦٨ ، ٥١٩ - ح ١٢٧/٢ - ح ١٤٣/٣ ، ١٤٤ ، ٥١٩ - ح ٤١١/٢ ، ٤٢٠ (١٠٨) ف ح ٧٣٥/١ (١١٢) ف ح ٥٢/٢ ، ٩٢ - ح ٢٣٥/٤ - ح ٩٢/٢ - ح ٥٧٩/١ - ح ٢٣٥/٤ - ح ٥٧٩/١ - ح ٣٦٤/٣ ، ٧٦ ، ٣٦٤ - ح ٢٦/٤ - ح ٥٩٧/١ - ح ٤٧٦/٣ - ح ٥٤/٤ - ح ١١٢/٣

سورة الحج

(٢) ف ح ٣٣٧/٤ ، ٣٨٨ **(٥)** ف ح ٢٤٨/٣ ، ٢٤٧ - ح ١٠٩/٢ - ح ٣٣٢/١ ، ٥٣٦ - ح ٤٠/٢ - ح ٤١٥/٤ - إيجاز البيان - ف ح ٥١٧/٣ - إيجاز البيان آية ٢٣ - ف ح ٤١٥/٤ - ح ٥١٧/٣ **(٧)** إيجاز البيان آية ٦٧ **(٨)** ف ح ١٥٢/٣ **(١٠)** ف ح ٤٥٣/٤ ، ٥٤٣ **(١٨)** ف ح ٣٦٨/١ ، ٥١١ - ح ٣٢٨/٢ - ح ٥١١/١ - ح ٣٠٥/٢ - ح ١٣٠/٣ - ح ٢٤٧/١ ، ٥١١ - ح ١٣٠/٣ - ح ٣٠٥/٢ - ح ٣٠٦/٤ - ح ٥١١/١ - ح ٣٢٨/٢ - ح ٤٠٧/٤ - ح ٣٠٥/٢ - ح ٥١١/١ **(٢٥)** ف ح ٤٨٠/٤ - ح ٣٨٠/٣ - ح ٥٢١/٤ ، ٣٥ - كتاب التنزلات الموصلية **(٢٦)** ف ح ٥٠/١ ، ٦٦٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٦٦ ، ٦٩٩ ، ٧٠٢ **(٢٧)** ف ح ٧٤٧/١ - ح ٩/٤ **(٢٨)** ف ح ٧٣٥/١ - ح ٤٨٨/٣ **(٢٩)** ف ح ٧٢١/١ ، ٦٨٥ ، ٥٩٠ - ح ٢٣٠/٣ - ح ٧١٨/١ - ح ٥٢٠/٣ - ح ٧١٨/١ ، ٧٠٨ ، ٧٠٢ **(٣٠)** ف ح ١١٥/٤ - ح ٥٢٧/٣ - ح ٣٩٩/١ - ح ١١٥/٤ - ح ٢٢٩/٣ **(٣١)** ف ح ٥٧/٤ - ح ٤٨٥/٣ **(٣٢)** ف ح ١٠٩/٤ ، ٤١٣ ، ١٠٩ - ح ٥٢٧/٣ - ح ٦٧٢/٢ - ح ٣٩٨/١ - ح ٦/٤ - ح ٦٧٢/٢ - ح ٥٢٧/٣ - ح ٥٨٩/١ - ح ٥٢٧/٣ - ح ٥٤٠/٢ - ح ٥٢٧/٣ - ح ٦٧٢/٢ - ح ٥٢٧/٣ - ح ٣٩٨/١ - ح ٤١٣/٤ **(٣٣)** ف ح ٥٨٨/١ **(٣٤)** إيجاز البيان آية ٤ - ف ح ٣٦/٢ **(٣٥)** ف ح ٣٦/٢ **(٣٦)** ف ح ٥٦٤/١ - ح ٣٣٩/٤ - ح ٥٨٨/١ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ **(٣٧)** ف ح ٥٨٨/١ ، ٧٥٤ ، ٥٨٨ - ح ٦/٤ - ح ٥٩٨/٢ **(٤٠)** كتاب التنزلات الموصلية **(٤١)** ف ح ٣٢/٢ **(٤٦)** ف ح ٦/٤ - ح ٩١/١ ، ١٢٥ - إيجاز البيان آية ٨ - ف ح ١٣/٣ ، ١٠١ - إيجاز البيان - ف ح ٨٣/٤ - كتاب التدبيرات الإلهية - ف ح ٦٥٢/٢ - ح ٣٤٠/٤ ، ١٨٥ - ح ١٣/٣ - ح ٣٨٩/٤ - ح ٢١٣/٣ **(٤٧)** ف ح ٦٢/٣ - ح ٤٤١/٢ - ح ٥٤٨/٣ ، ٦٢ **(٥٢)** ف ح ٥١٥/١ ، ٦٥٥ - ٣٧٩/٣ **(٥٤)** ف ح ٩٢/٣ **(٥٥)** ف ح ٥٦٤/٣ **(٦٠)** ف ح ٣٧٩/٤ - ح ١٢٢/٣ **(٦١)** ف ح ٥٦١/٣ ، ٥٤٨ -

كتاب الشأن (**٦٢**) كتاب فصوص الحكم ـ ف ح ٥٤/٣ ـ فصوص الحكم (**٦٥**) ف ح ٤٣٦/٣ ، ٤٣٨ (**٧٤**) كتـاب الجلال والجمال ـ ف ح ٤٠٧/٤ ـ ح ٥١٥/٣ ـ ح ٤٠٧/٤ (**٧٥**) ف ح ٢٥٤/٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ (**٧٧**) ف ح ٥١١/١ ـ الديوان/٢١٧ ـ ف ح ٥١١/١ (**٧٨**) ف ح ١٤٨/٢ ـ كتـاب القسم الإلهي ـ ف ح ٦٢٠/١ ـ ح ٦٨٥/٢ ـ كتاب القسم الإلهي ـ ف ح ٥٠/٣ ـ ح ٨٥/٤ .

سورة المؤمنون

(**٢**) ف ح ١٩٣/٢ ـ ح ٥٠١/١ (**٣**) ف ح ٣٨/٢ (**٨**) ف ح ٣٩/٢ (**١٠**) ف ح ٢٧/٤ (**١١**) ف ح ٢٧/٤ (**١٢**) ف ح ٣٣١/١ (**١٣**) ف ح ٣١٠/٢ ـ ح ٣٣١/١ (**١٤**) كتاب روح القدس ـ ف ح ٣٣١/١ ـ ح ٤٧٣/٣ ـ ح ٣٤٥/٢ ـ ح ٤٣٤/١ ـ روح القدس ـ ف ح ٣٩/٢ ـ ح ١٠١/٣ ـ ح ٨٦/٤ ـ ح ٥١١/٢ ، ٤٧١ ، ٥١١ ـ كتاب الشاهد ـ كتاب نقش الفصوص (**١٨**) ف ح ٣٦٥/٣ (**٢٧**) ف ح ٤٩٣/١ (**٥٣**) كتاب المشاهد ـ ف ح ٤٠٢/٤ (**٥٧**) ف ح ٣٧/٢ (**٦٠**) ف ح ١٦٤/٤ (**٦١**) ف ح ٤٢١/٤ ـ ح ٤/١ ـ ح ٣٩/٢ ـ ح ٤٢١/٤ ـ ح ٤٥٣/١ ، ٢٨٤ ، ٤٥٣ ـ ح ٥٥٦/٣ (**٨٠**) ف ح ٤٤/١ (**٨٦**) ف ح ٤٣٦/٢ (**٨٨**) ف ح ٢٨٤/٣ ، ٥٢٨ ، ٤٠٥ (**٩١**) ف ح ٥٧٩/٢ (**٩٦**) ف ح ٢٤/٤ (**١٠١**) ف ح ٢٣٧/٤ (**١٠٧**) ف ح ٣٥١/٣ (**١٠٨**) كتاب عقلة المستوفز ـ إيجاز البيان آية ١٧٤ ـ ف ح ٤/٣ (**١٠٩**) ف ح ٥٥٣/٣ (**١١٥**) ف ح ٤١٥/٢ ـ ح ٣٠٦/٣ ، ٣٧٤ (**١١٦**) ف ح ٤١٥/٢ ، ٤٣٦ (**١١٧**) ف ح ٧١/٣ ـ ح ٤٠٩/٢ ـ ح ٣٠٩/٣ ـ ح ٤٠٥/١ ـ ح ٦١٢/٢ ، ٥٥٩ ، ٤١٢ ، ٤٧٧ ، ٤١٢ ـ ح ٢٨٥/٣ ، ٩٤ ، ٣٠٩ ، ٩٤ (**١١٨**) ف ح ٢٨٥/٣ ، ٥٥٣

سورة النور

(**٢**) ف ح ٦٣٥/١ ـ ح ٣٠٤/٤ ـ ح ٣٣٤/٣ ـ ح ٢٣٤/٤ ، ٣٠٤ ـ إيجاز البيان آية ٥٥ ـ ف ح ٣٠٤/٤ ـ ح ٣٣٤/٣ (**٤**) ف ح ٥٦٢/٢ (**٩**) ف ح ٥٢٤/١ ـ ح ١٨٠/٣ ، ١٨١ ـ ح ٦٥٤/١ (**١٠**) ف ح ٣٠٢/٤ (**١١**) ف ح ٥١٠/٣ ـ ح ٤٢٥/٤ (**١٣**) ف ح ٥٦٢/٢ (**١٥**) ف ح ٥٤٠/٢ (**١٦**) ف ح ٦٨/٤ (**٢٢**) ف ح ٤٧/٤ ـ إيجاز البيـان آيـة ٢٢٤ ـ ف ح ٤٧/٤ ـ ح ٢٨٥/١ (**٢٤**) كتـاب التراجم ـ ف ح ١٧١/٣ ـ ح ٤٥١/٢ ، ٥٦٠ ـ ح ٤٣٦/٤ ـ ح ٥١٠/٣ ، ٧٥ ـ ح ٦٢/٤ ـ ح ٧٥/٣ ـ ح ٤٧٤/٤ ـ ح ٧٥/٣ ـ ح ٤٧٤/٤ ـ ح ٧٥/٣ ـ ح ٤٧٤/٤ ـ ح

٥٥٩/١ ـ ح ٥١٠/٣ ـ ح ٥٥٩/١ ـ ح ٧٥/٣ (**٢٥**) ف ح ٣٨٠/٢ ـ ح ٤٣٦/٤
(**٢٦**) ف ح ٢٦٤/٤ ـ كتاب مواقع النجوم (**٢٧**) ف ح ٤٧٣/٤ (**٢٨**) ف ح ٤٧٣/٤
(**٣٠**) ف ح ٥٣١/١ ـ ح ١٢٥/٤ ـ ح ٣٣٩/١ ، ٣٣٨ (**٣١**) كتاب مواقع النجوم ـ
ف ح ١٣٩/٢ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ـ ح ٤٠٨/١ ، ٥٢٣ ، ٤٠٨ (**٣٣**) ف ح ٤٨٧/٤ (**٣٥**)
ف ح ٣٩/٤ ـ ح ٤٣٢/٢ ـ ح ٢١٧/١ ـ ح ٦٤٧/٢ ـ ح ٣٩٢/٣ ـ ح ٧٤٠/١ ـ
ح ٣٩٢/٣ ، ٦٥ ـ ح ١٥٤/٢ ـ ح ٦٥٩/١ ـ ح ١٥٤/٢ ـ ح ٣٩٤/١ ، ٣٩٣ ـ ح
١٩٨/٣ ـ ح ١٩٣/١ ـ ح ١٩٨/٣ ـ ح ١٩٣/١ ـ كتاب التدبيرات الإلهية ـ ف ح
٣٥٧/٣ ـ ح ٣١٣/٤ ـ ح ٦٨٧/٢ ـ ح ١٩٢/١ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح
٤٣٤/١ ـ الديوان/١٣٦ ـ ف ح ٣٤٥/٤ ـ ح ٤٢١/٤ ـ كتاب المبشرات (**٣٦**) ف ح
٥٤١/١ ـ إيجاز البيان آية ١١٦ (**٣٧**) إيجاز البيان آية ٣ ـ ف ح ١٠/٤ ـ ح ٥٤١/١ ـ
ح ١٠/٤ ـ ح ٥٤١/١ ـ ح ٦١١/٢ ، ٣٨ ـ كتاب التدبيرات الإلهية (**٣٨**) ف ح
٣٠٩/١ ـ كتاب نقش الفصوص (**٣٩**) ف ح ٣٣٨/٢ ، ٢٦٨ ، ٤٥٥ ـ كتاب
الأعلاق ـ ف ح ٢٦٨/٢ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح ٤٥٥/٢ ، ٥٣١ ـ ح ٥٧٣/١ ـ
كتاب الأعلاق ـ ف ح ٣٣٨/٢ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح ٣٣٨/٢ ، ١٢٧ ـ ح
٤٥٤/٣ (**٤٠**) ف ح ٦٦٠/٢ ، ٦١٩ ـ ح ٢٤٣/٣ ـ ح ٦٥٩/٢ ، ٦٦٠ ـ ح
٢٧٦/٣ ـ ح ٣١٢/٤ ـ ح ٣٥٧/٣ (**٤١**) ف ح ٢٧٦/٣ ـ ح ٣٢٨/٢ ـ ح
٣٨٦/١ ـ ح ٣٢٨/٢ ـ ح ٤٨٨/٣ ـ ح ٧٢١/١ ، ٥٤٠ ، ٣٨٦ ـ ح ٢٠٠/٢ ـ ح
٥٤٠/١ (**٤٣**) ف ح ٤٠٢/٢ ـ ح ٣٩٦/٤ ـ ح ٤٠٢/٢ ، ٦٣٢ (**٤٤**) ف ح
١٥٩/٤ ، ٣٩٦ (**٤٥**) ف ح ١٧١/٢ ـ كتاب الأعلاق (**٥٠**) ف ح ٤٣٤/٤ (**٥٨**)
ف ح ٥٩٤/١ ـ ح ٦٩١/٢ (**٦١**) ف ح ٤٢٩/١ ـ ح ١٢٦/٢ ـ ح ٤٣٥/٤

سورة الفرقان

(**١**) ف ح ٩٤/٣ (**٢**) ف ح ٤٤٣/٣ ، ٤٤٤ (**٣**) ف ح ٢٤١/٣ (**١٣**) ف ح
٣٩١/٣ ـ كتاب عقلة المستوفز ـ كتاب الأعلاق (**١٧**) كتاب الأعلاق (**١٩**) ف ح
١٨٥/٤ (**٢٣**) ف ح ٥٨٩/١ (**٢٤**) ف ح ٣٢٢/١ (**٢٥**) ف ح ٤/٣ ـ إيجاز البيان آية
٢١٠ (**٢٦**) كتاب عقلة المستوفز ـ ف ح ٢٧٠/٣ (**٢٩**) ف ح ٢٧٠/٣ (**٤٣**) ف ح
٢٢٦/٢ ، ٤٥١ ، ٥٨٣ (**٤٤**) ف ح ٤٨٩/٣ ـ ح ١٤٩/٤ ـ ح ٤٨٩/٣ (**٤٥**) ف ح
٢٣٨/٤ ـ ح ٦٠٧/٢ ـ ح ٢٢٤/٤ ـ ح ٤٥٨/١ ـ ح ٦٠٧/٢ ، ٦٠٦ ـ ح
٢٢٤/٤ ـ ح ٤٥٨/١ ـ ح ٤٧/٣ ، ٢٦٩ ـ كتاب التراجم ـ ف ح ٣٧٤/٤ ، ٤٣٥ ـ

ح ٢٧٩/٣ ـ ح ١٩٠/٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٨١ ـ ح ٣٧٤/٤ ـ كتاب الشاهد **(٤٧)** ف ح ٢٣٧/١ **(٤٨)** ف ح ٥١٨/٣ **(٥٣)** ف ح ٤٥٣/٣ **(٥٩)** ف ح ١٤٠/١ ـ ح ١١/٤ ، ١٢ ـ ح ٤٣١/٣ ـ ح ٣٩١/٢ ـ ح ١٢٨/٣ ، ٣٠٠ **(٦٠)** ف ح ٣١٠/٣ ـ ح ٤١١/٢ ـ ح ٥١٢/١ ـ ح ٤١١/٢ ـ ح ١٠٨/١ ـ ح ٤٣٠/٣ ، ٣١٠ ـ ح ٤١١/٢ ـ ح ٥١٢/١ ـ ح ٣١٠/٣ ـ ح ٥١٢/١ **(٦٣)** ف ح ٢٦٧/١ ـ ح ١٠٥/٢ ـ ح ٢٠٣/٤ **(٦٤)** ف ح ١٧/٢ **(٦٥)** ف ح ٣٣٩/٢ **(٦٧)** ف ح ١٨٣/٣ ـ ح ٣٤٢/١ ـ ح ١٧/٢ **(٧٠)** ف ح ٢٥٥/١ ـ ح ١٢٣/٤ ـ ح ٣٥٢/٣ ـ ح ١٤١/٢ ـ ح ٢٤٠/٤ ـ ح ٣٥٢/٣ ـ ح ١٤١/٢ ، ٤٩٢ ، ١٤١ ، ٦٣٩ ـ ح ٢٧/٤ ، ٣٤ ـ ح ٤٠٣/٣ ـ ح ٣٤/٤ ـ ح ٦٣٩/٢ ـ ح ٢٥٥/١ ، ٢٥٦ ، ٤١٧ **(٧٢)** ف ح ٦٢٠/٢ ، ٣٧

سورة الشعراء

(٥) ف ح ٦٣/٢ ـ ح ٣٦٧/١ ـ إيجاز البيان آية ٢٢ ـ ف ح ١٢٩/٤ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح ٧٧/٢ ـ ح ٣٦٣/٤ ، ٣٥٧ ـ ح ١٢٧/٣ ـ ح ١٢٩/٤ ـ ح ٧٤/٢ ، ١٩٠ ، ٧٤ ، ٣٢٩ **(٢١)** ف ح ١٥٥/٢ ـ ح ٢٦٤/٣ ، ١٢٥ ـ ح ١٨٣/٤ ـ ح ٢٦٤/٣ ، ١٢٥ ـ ح ١٨٣/٤ ـ ح ١٥٥/٢ ـ ح ٤٢٠/٢ **(٢٢)** ف ح ١٥٥/٢ **(٢٣)** ف ح ٢٠/٤ ـ ح ٩٠/٣ ـ ح ١٩٤/١ ـ ح ١٧٥/٤ **(٢٤)** ف ح ٢٠/٤ **(٢٥)** ف ح ٢٠/٤ **(٢٦)** ف ح ٢٠/٤ **(٢٧)** ف ح ٩٠/٣ ـ ح ٢٠/٤ **(٢٨)** كتاب المشاهد ـ كتاب النجاة ـ ف ح ٢٠/٤ **(٣٠)** فصوص الحكم/فص ٢٥ **(٣١)** فصوص الحكم **(٣٢)** فصوص الحكم **(٤٦)** ف ح ٢٣٥/١ ـ فصوص الحكم **(٤٨)** فصوص الحكم ـ ف ح ٢٣٥/١ **(٧٨)** ف ح ٢٠٤/١ **(٧٩)** ف ح ٢٠٤/١ **(٨٠)** ف ح ٦٧٢/١ ، ٢٠٤ ـ ح ٢٧٥/٤ ـ ح ٣٩٣/١ ـ ح ٩٧/٤ ، ٢٧٥ ـ ح ٣٩٣/١ **(٨٢)** ف ح ٣٩٣/١ **(٩٩)** ف ح ٢٩٨/١ **(١٠١)** ف ح ٦٨٦/١ **(١٠٩)** ف ح ١٢٠/٣ ، ١٦٨ **(١٣٠)** ف ح ٢٨١/٣ **(١٥٥)** ف ح ٧٢٧/١ **(١٩٣)** ف ح ١٠٨/٣ ـ ح ٧١/٢ ، ٥٦٨ **(١٩٤)** ف ح ١٥٧/٣ ، ١٠٨ ـ ح ٤٢٧/٤ ـ ح ٥٦٨/٢ ـ ح ٤٢٧/٤ ـ ح ٩٤/٣ ، ٩٣ **(١٩٧)** كتاب مواقع النجوم **(٢١٤)** ف ح ٦١٠/٢ **(٢١٨)** ف ح ٣٢٢/٣ **(٢١٩)** ف ح ٣٤/٢ ، ١٠٢ **(٢٢٤)** ف ح ٥١/٤ **(٢٢٧)** ف ح ٤٠٣/٢ ـ ح ٥١/٤ ـ ح ٣٩١/٣

سورة النمل

(٤) ف ح ١٥٠/٢ ، ١٩٧ ، ١٥٠ ـ إيجاز البيان آية ٢١٢ **(٨)** ف ح ٢٥٦/٣ ـ ح ٧٠/٢ ـ ح ٢٥٦/٣ ـ كتاب التنزلات الموصلية **(٩)** ف ح ٧٤/٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ـ ح ١١٩/٣ **(١٠)** كتاب الإسراء ـ كتاب النجاة **(١٤)** ف ح ١٣٨/٤ ـ ح ٢٤٣/٣ ـ ح ٥٢٦/٤ ـ ح ٨٣/٣ ـ ح ٣٠٦/٢ ، ٣٧٤ ـ ح ٣٥٤/١ ـ إيجاز البيان آية ٧ ـ ف ح ٨٣/٣ ـ ح ٢٨/٢ ـ ح ٢٤٣/٣ ـ ح ٥٢٦/٤ **(١٦)** ف ح ١٥٤/٣ **(١٩)** ف ح ٢٣٠/١ ـ كتاب النجاة **(٢١)** كتاب النجاة **(٢٣)** كتاب الأعلاق **(٢٤)** إيجاز البيان آية ١٢ ـ ف ح ٤١٥/٢ **(٢٥)** ف ح ٥١٢/١ **(٢٦)** ف ح ٤١٥/٢ ـ ح ٥١٢/١ **(٢٧)** ف ح ٣٥٩/٤ **(٢٩)** كتاب فصوص الحكم/فص ١٦ **(٣٠)** كتاب الإسراء ـ كتاب النجاة **(٤٠)** ف ح ٧٣/٤ ـ ح ١٢٠/ ـ كتاب نقش الفصوص ـ ف ح ١٢٠/٢ ـ كتاب فصوص الحكم/فص ١٦ **(٤٢)** ف ح ٦٦٤/١ ـ ح ١٥/٢ ـ ح ٤٩٦/١ ـ ح ٤٨٣/٢ ، ٤٩٥ ـ ح ٤٩٦/١ ـ ح ٤٩٥/٢ **(٤٣)** ف ح ٤٨٣/٢ **(٤٤)** كتاب فصوص الحكم/فص ١٦ ـ كتاب نقش الفصوص ـ كتاب الأعلاق **(٥٠)** إيجاز البيان آية ١٦ ـ ف ح ٥٣٦/٢ ـ ح ٣٦٢/١ ـ ح ٥٣٠/٢ ـ ح ١٤٥/٤ ـ ح ٥٣٠/٢ ـ ح ١٤٥/٤ ـ كتاب الشاهد **(٥٩)** ف ح ٩٦/٤ ـ ح ١١٨/٢ **(٦٢)** ف ح ٥٠٧/١ ، ٥٠٣ ـ ح ٤/٣ ـ ح ٦٨٧/١ **(٦٣)** ف ح ٤/٣ **(٧٧)** ف ح ٩٦/٣ **(٨٢)** ف ح ٢٥٨/٣ **(٨٨)** ف ح ٣٤٥/٢ ، ٣٨٦ **(٨٩)** ف ح ١٧٠/٣ **(٩١)** ف ح ٧٥٧/١ **(٩٢)** ف ح ٩٤/٣

سورة القصص

(٧) ف ح ٧٨/٢ ـ كتاب رد الآيات المتشابهات **(٩)** كتاب فصوص الحكم/فص ٢٥ **(١٠)** كتاب فصوص الحكم **(١٢)** كتاب فصوص الحكم **(١٣)** كتاب فصوص الحكم **(١٥)** ف ح ٣٦٢/١ ـ ح ٤٧٠/٢ **(١٧)** ف ح ٣٨٦/٤ **(٢٨)** ف ح ٢٥٦/٣ **(٢٩)** ف ح ٢٥٦/٣ ، ٢١٥ ـ كتاب النجاة **(٣٠)** ف ح ٢١٥/٣ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح ٧٠/٤ ـ ح ٢١٥/٣ **(٣٤)** ف ح ٣٤٩/٣ ـ كتاب النجاة **(٣٨)** ف ح ١٧٨/٣ ، ٣٥٥ ـ ح ٣٠١/١ ـ ح ١٣٦/٤ ـ ح ١٧٨/٣ ـ ح ١٣٦/٤ **(٤١)** إيجاز البيان آية ١٢٢ **(٤٤)** ف ح ١٩٥/٣ **(٤٦)** كتاب الأعلاق **(٥٥)** كتاب مواقع النجوم **(٥٦)** ف ح ١٨٠/٤ ، ٣١٤ ـ ح ١٤/٣ ، ٤٩٨ ـ ح ١٨١/٢ ـ ح ٦٠/٤ **(٥٧)** ف ح ٦٠٤/٢ ـ كتاب التراجم **(٦٠)** ف ح ٤٩٤/٤ ، ١٠٧ ـ ح ٦/١ **(٦٨)** ف ح ٥٣٩/٢ ـ ح ٣٩٧/٣ ـ ح ١٦٩/٢ ـ ح ٤١٧/٤ ـ ح ٤١٧/٢ ، ٥٣٩ ـ ح ٣٨٥/١ ، ٤٠٥ ـ ح

٣٠/٤ ، ٢٠١ ـ ح ٣٥٦/٣ ، ٣٧٥ ـ ف مقدمة/٤١ ـ إيجاز البيان آية ١٩٥ **(٧٠)** ف ح ٤١٦/٢ ـ ح ١١٢/٣ **(٧٣)** ف ح ٢٠٧/١ ، ٤٩٣ ، ٢٠٧ **(٧٥)** ف ح ٣٥٠/٤ **(٧٦)** ف ح ١٢٨/٤ ، ٤٤٠ ـ ح ١٨٦/٢ ، ١٨٧ **(٧٧)** ف ح ٣٤٤/٢ ـ ح ٣٤٩/٣ ـ ح ١١٤/٤ ـ ح ٤٥٩/٣ **(٨٣)** ف ح ٣٨٣/١ ـ ح ٢٤٤/٤ ـ ح ١٧٣/١ ـ ح ٢٤٤/٤ ـ ح ١٧٣/١ ـ ح ٥٧/٣ ـ ح ٧٥٣/١ ـ ح ٥٧/٣ ـ كتاب الوصية ـ ف ح ٤٥٨/٤ ـ كتاب الوصية **(٨٤)** ف ح ١٧٠/٣ ـ ح ١٧٥/١ **(٨٦)** ف ح ٣٨٦/٤ **(٨٨)** ف ح ٤١٧/٤ ـ ح ٤١٧/٢ ـ ح ٤١٩/٣ ـ ح ١٠٠/٢ ـ ح ٣٧٣/٣ ، ٤١٩ ـ ح ٤١٧/٤ ـ ح ٤١٩/٣ ـ ح ٩٩/٢ ـ ح ٢٥٥/٣ ـ ح ٩٩/٢ ، ٢٢٤ ـ ح ٣٤٩/٤ ـ ح ٢٥٥/٣ ، ٤١٩ ، ٤٤٣ ـ ح ٣١٣/٢ ـ ح ٢٥٥/٣ ـ ح ٩٩/٢ ، ٤١٦ ـ ح ١١٢/٣

سورة العنكبوت

(٢) ف ح ٢٤٨/٣ **(٣)** ف ح ٢٤٩/٣ **(٤)** ف ح ٢٥٢/٣ ، ٤٧٣ **(٦)** ف ح ٧٢/٣ ـ ح ٢٢٦/٢ ـ ح ١٦٠/٣ **(٨)** كتاب المشاهد القدسية **(١٢)** ف ح ٣٠٣/١ ـ ح ١٩٥/٣ ـ ح ٦٥٠/٢ **(١٣)** ف ح ٧٧/٣ ـ إيجاز البيان آية ٤٩ **(١٤)** ف ح ٥٠/٣ **(٢٠)** كتاب إنشاء الدوائر ـ ف ح ١١٨/١ ، ١٢٠ ـ كتاب عقلة المستوفز **(٢٧)** كتاب الإسفار ـ ف ح ٧٢٣/١ ، ٢٣٠ **(٢٩)** ف ح ٢٥٢/٣ **(٣٨)** ف ح ١٤٩/٢ **(٤٣)** ف ح ١٨٩/١ ـ ح ٤١٧/٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ـ كتاب مواقع النجوم **(٤٤)** كتاب إنشاء الدوائر **(٤٥)** ف ح ١١١/٤ ـ ح ١١٩/٢ ـ ح ٥٤٢/١ ، ٤٢١ ـ ح ١١٩/٢ ـ ح ٥٤٢/١ ـ ح ١١٩/٢ ـ ح ٥٤٢/١ ، ٤٦٢ ، ٢٥٧ ـ ح ١١٩/٢ ـ ح ٤٦٢/١ ـ ح ١٦٩/٢ ـ ح ٥٤٢/١ ، ٥٤٣ ، ٦٥٠ ، ٢٥٧ ـ ح ١١١/٤ ـ ح ٥٤٢/١ ، ٥٤٣ ، ٢٥٧ ـ ح ١١٩/٢ ، ٤٠٠ ، ١١٩ ـ ح ٤٣٨/٣ ـ ح ١١٩/٢ ، ٤٠٤ ـ ح ٤١٣/١ ، ٤١٥ ـ ح ٤٩٤/٣ **(٤٧)** كتاب فصوص الحكم فص ١٠ **(٥٠)** ف ح ١٤٥/٣ **(٥١)** ف ح ١٤٥/٣ **(٥٢)** ف ح ٣٢٥/٤ ، ١٣٣ ، ٢٨٤ **(٥٦)** ف ح ٢٤٧/٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ **(٥٧)** ف ح ٣٥٢/٤ **(٦٤)** ف ح ٣١٧/١ ـ ح ٨٦/٢ ـ ح ٢٤٤/٣ ـ ح ٤٥١/٤ **(٦٥)** ف ح ٢٠٨/١ **(٦٧)** إيجاز البيان آية ١٢٦ **(٦٩)** ف ح ١٤٨/٢ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ـ ح ٤١٢/٤ ـ كتاب الأمر المحكم المربوط .

سورة الروم

(٢) ف ح ٦٠/١ ـ ح ٥٩٢/٢ **(٣)** ف ح ٦٠/١ **(٤)** ف ح ٢٩٠/١ ، ٣٦٢ **(٨)** ف ح

٣٩٠/٢ ، ٣٩٦ ـ ح ٥١٢/٣ **(٩)** ف ح ٤٤٣/٤ **(١١)** كتاب التنزلات الموصلية **(١٧)** ف ح ٥٣٩/١ **(١٨)** ف ح ٥٣٩/١ **(٢٠)** ف ح ٤٦٠/١ ، ٤٩٨ ـ الديوان/١٤٨ **(٢١)** ف ح ٤٢٨/٢ ـ ح ١٨/٣ ـ ح ٢٠٦/١ ـ ح ٤٢٨/٢ ، ٥٥٧ ـ كتاب التنزلات الموصلية **(٢٢)** ف ح ٤١٩/٢ **(٢٣)** ف ح ٢٠٧/١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ **(٢٤)** ف ح ٤٤/١ **(٢٧)** ف ح ٢٨٩/٤ ـ ح ١٤٩/٢ ـ ح ٣٢٦/٣ ، ١١٦ ، ٣٦٣ ، ١١٦ **(٢٨)** إيجاز البيان آية ١٠ ـ كتاب الأعلاق **(٢٩)** ف ح ٤٨/٤ **(٣٠)** ف ح ٧٢٢/١ ـ ح ٦١٦/٢ ـ ح ٧٠/٢ ـ ح ٢٤/٣ ـ ح ٦٩/٢ ، ٥٣٤ ـ ح ٣٤٧/٤ ـ ح ١١٧/٣ ، ٢٥٥ ، ٢٣٠ ـ ح ٥٣٤/٢ **(٤١)** ف ح ٢٦١/٤ ، ٤٧٦ ، ٣٩١ **(٤٧)** ف ح ٣٢٨/٣ ـ ح ٢٨٣/٤ ، ٣٢٥ ـ ح ١٦٧/٣ ـ ح ٢٨٣/٤ ـ ح ٣٢٨/٣ ـ ح ٢٤٧/٢ ـ كتاب التراجم **(٥٤)** ف ح ٢٨١/٤ ـ ح ٢١٣/١ ـ ح ١١/٤ ـ ح ٢٧٥/١ ـ ح ٢٨١/٤ ، ١١ ، ٢٨٢ ـ ح ٢٤١/١ ـ ح ١١/٤ ـ ح ٢٧٥/١ ـ ح ٢٩/٢ ـ ح ٣٧٩/٣ ـ ح ٢٨٢/٤ ـ ح ٢٤١/١ ـ ح ٢٨١/٤ ، ١١ ، ٢٨١ ـ ح ٢٧٥/١ ، ٢١٣ ـ ح ٤١٥/٤ ـ كتاب الشاهد .

سورة لقمان

(٧) ف ح ٢٥/٤ **(١٠)** كتاب التراجم ـ ف ح ٤١٧/٣ ، ٤١٨ ، ٤٥٩ **(١١)** ف ح ٢٨٩/٤ ـ كتاب عنقاء مغرب **(١٢)** ف ح ٢١٧/٢ **(١٣)** كتاب فصوص الحكم فص ٢٣ ـ كتاب نقش الفصوص ـ ف ح ٣٥٤/٣ ـ ح ٢٤١/٤ ـ ح ٣٥٥/٣ ، ٢٤١ ، ٣٥٥ **(١٤)** إيجاز البيان آية ٢٣٣ ـ ف ح ١٧١/٣ ـ ح ١٤٢/١ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح ١٧١/٣ ـ ح ١٤٢/١ ـ إيجاز البيان آية ٢٠٠ ـ ف ح ٢٠٤/٢ ـ ح ٣٠٩/٤ ـ ح ٢٠٤/٢ ـ ح ٦٤/١ **(١٥)** ف ح ٥٠٦/١ ـ ح ١١٤/٤ ـ ح ٣٥٩/٣ ـ ح ١١٤/٤ **(١٨)** ف ح ٣٤٢/٢ **(٢٠)** ف ح ٣٨/٣ ـ كتاب إنشاء الدوائر ـ ف ح ٦٠/١ ـ ح ٩٧/٤ ، ٣٥٠ ، ٢٥٦ **(٢٢)** ف ح ١١٨/٤ **(٢٦)** ف ح ٢٦٥/٣ **(٢٧)** كتاب رد الآيات المتشابهات ـ ف ح ٦٥/٤ ـ ح ٥٢٥/٣ ـ ف ح ١٦٦/٤ ، ٦٥ ـ ح ٥٢٥/٣ ـ ح ٩٠/٢ ، ٤٥٩ ، ٤٢٣ ، ٥٥٢ ـ ح ٤٣٦/١ **(٢٩)** ف ح ٥٥٢/٢ ، ٦٣٩ ـ ح ٢٤٦/٣ **(٣٠)** ف ح ٣٢٢/٤ **(٣١)** ف ح ٦٩٦/١ ـ ح ٥٦٤/٣ **(٣٣)** ف ح ٢٣٨/١ **(٣٤)** ف ح ٤١٢/٢

سورة السجدة

(٢) ف ح ٦٣/١ **(٨)** ف ح ٢٥٠/٣ **(١٢)** ف ح ٤٨٥/٣ ـ ح ١٧٠/٢ **(١٣)** ف ح

٤٢٦/٤ **(١٥)** ف ح ٥١٢/١ **(١٦)** ف ح ١٧/٢ ، ٨٩ ـ كتاب الإسراء ـ كتاب النجاة **(١٧)** ف ح ٥٣٨/٣ ـ ف ح ٨٩/٢ ، ١١٧ ـ ح ٥٤٢/٣ ـ الديـوان/١٤٨ **(٢٢)** ف ح ٤٤٠/٤ **(٢٦)** ف ح ١١٥/٣ **(٢٧)** ف ح ٦٢٨/٢ ـ ح ٣٥١/٣

سورة الأحزاب

(٤) ف ح ٧٣١/١ ـ ح ٣٣٢/٤ **(٥)** ف ح ٤٣٧/٤ **(٦)** كتاب تلقيح الأذهان ـ ف ح ٢٢٩/٣ **(٧)** ف ح ٥٨/٤ ـ كتـاب النجـاة **(٨)** ف ح ٢٤٩/٣ ، ٤٦٨ ، ٢٤٩ ـ ح ٢٨/٢ ـ كتاب الشاهد **(١٣)** ف ح ٤٠٧/١ ـ كتاب الأعلاق ـ كتاب النجاة ـ كتاب المشاهد ـ ف ح ٣٨٦/٢ ـ كتاب الشاهد **(٢١)** ف ح ٣٩٧/٤ ، ٤٥٦ ـ ح ١٥٣/٣ ـ ح ٧١١/١ ـ ح ٥٠١/٣ ـ ح ١٨١/٤ **(٢٣)** ف ح ١٠/٤ ـ ح ٣٢٨/٣ ـ ح ٥٧/٤ **(٢٤)** ف ح ٢٨/٢ **(٢٦)** ف ح ٣٤٠/٤ **(٢٩)** ف ح ٤٦٠/١ **(٣٠)** ف ح ٢٧/٢ **(٣١)** ف ح ٢٧/٢ **(٣٢)** ف ح ٤٨٦/١ **(٣٣)** ف ح ١٢٦/٢ ـ ح ١٩٦/١ ـ ح ١٢٦/٢ ـ ح ١٩٦/١ ـ ح ٥١٣/٢ ـ ح ١٩٦/١ ـ إيجاز البيـان آيـة ٢٣١ ـ ف ح ١٩٦/١ ، ٢٨٢ ـ كتـاب الإسفار ـ ف ح ١٩٧/١ **(٣٤)** ف ح ٣٦٥/٤ **(٣٥)** ف ح ٢٣/٢ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٩٧ ، ٣٠ ـ ح ٤٥٧/٣ ، ٤٧٤ ـ ح ٣٩٧/٢ ـ ح ٢١٢/٣ ـ ح ٣٠/٢ ، ٣٩٧ ، ٢٣ **(٣٦)** ف ح ١٢٢/٤ ، ١٠٦ **(٣٧)** ف ح ١٨٠/٤ ، ١٨١ ، ٣٠٢ **(٣٨)** كتاب القسم الإلهي ـ ف ح ١٨١/٤ **(٤٠)** ف ح ٥١٣/٣ ـ ح ١٨١/٤ ـ كتاب المسامرات ـ ف ح ٥١٣/٣ ـ ح ٤٨/٢ ـ ح ٥١٣/٣ ـ ح ٤٨/٢ **(٤١)** ف ح ٥٣٩/١ ـ الديوان/١٠٧ ـ ف ح ٤٦١/٤ ـ ح ٢٢٩/٢ ـ ح ٢٩٩/٣ ـ ح ٢٢٩/٢ ـ ح ٢٩٩/٣ ـ ح ٢٢٨/٢ ، ٢٢٩ ـ ح ٣٦/٤ ـ ح ٧١٣/١ ـ ح ٣٦/٤ **(٤٢)** ف ح ٥٣٩/١ **(٤٣)** ف ح ٣٨٦/١ ، ٥٣٩ ، ٧٥٤ ـ ح ١١٩/٢ ـ ح ١٩٠/٤ ـ ح ١١٩/٢ ـ ح ٥٤/٣ ـ ح ٥٣٩/١ ، ٥٤٠ ، ٥٣٩ **(٤٦)** ف ح ٦٤٢/١ ـ ح ١١١/٣ ـ ح ٤٦٢/١ ، ٦٦٤ **(٥٠)** ف ح ١٥٣/٣ ـ ح ١٤٦/١ ـ ح ٥١٢/٣ ـ ح ٦٣٧/١ **(٥١)** كتاب المسامرات **(٥٢)** ف ح ١٩٣/٢ ـ إيجاز البيان آية ٢٢١ ـ ف ح ١٩٣/٢ ـ كتـــــاب المسامرات ـ ف ح ٢٠٨/٢ ـ ح ٧٣/٤ ـ ح ٢٠٨/٢ ـ ح ٤٥٥/١ ـ ح ٢٥٤/٤ **(٥٣)** ف ح ٣٥٦/٤ **(٥٥)** ف ح ٣٤٤/٢ **(٥٦)** ف ح ٥٣٩/١ ، ٥٢٩ ، ٥٣٩ ، ٤٨١ ، ٣٨٧ ، ٤٣١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦ ، ٧٢٢ ، ٥٤٠ **(٥٧)** ف ح ٧٣٠/١ ـ ح ٣١٧/٤ ـ ح ٣٥٦/١ ، ٦٨٠ ـ ح ٢٠٦/٢ ـ ح ٣١٧/٤ ـ ح ٣٦/٣ ـ ح ٣١٧/٤ ـ ح ٣٦/٣ ـ ح ٣١٨/٤ ـ ح ٦١٢/١ ، ٧٣٠ ـ ح ٤٦٣/٣

(٥٨) ف ح ٣٨١/٣ (٥٩) ف ح ٤٠٨/١ - كتاب المسامرات (٦٧) ف ح ٣٤٠/١ (٦٩) ف ح ٤٩٠/٣ ، ٢٤١ (٧٠) ف ح ٢٣٨/١ - ح ٢٤١/٣ (٧١) ف ح ٢٤١/١ (٧٢) ف ح ١٨٥/٤ - ح ٥٨/٢ - ح ١٣٨/٤ - ح ٦٢٩/٢ - ح ٢٩٢/٤ ، ١٨٥ - ح ٤٩٠/٣ ، ٢ ، ٣٣٣ - ح ١٨٥/٤ - ح ١٧٠/٢ - ح ١٨٥/٤ - ح ٢/٣ - ح ٥١٩/٢ - ح ٢/٣ - ح ١٣٨/٤ - ح ٤٢١/٢ ، ٢٠ ، ٦٣٠ - ح ٦٩١/١

سورة سبأ

(٢) ف ح ٤٥٨/٣ (٦) ف ح ٢٤٦/٢ (١٠) كتاب فصوص الحكم فص ١٧ - كتاب نقش الفصوص - ف ح ٥٩٣/٢ - فصوص الحكم فص ١٧ (١٣) كتاب فصوص الحكم فص ١٧ - ف ح ٢٠٢/٢ - ح ٢٤٢/٤ - ح ٥٦٤/٣ - ح ٢٠٢/٢ - ح ٢٤٢/٤ - ح ٢٠٢/٢ - ح ٥٠٣/١ - كتاب نقش الفصوص (١٩) كتاب الأعلاق (٢١) ف ح ١٨٢/٢ - ح ١٢٠/٣ ، ٤٠٥ (٢٣) ف ح ٥٢٨/١ - ح ١٥٩/٤ - ح ٢١٥/٣ - ح ١٩٥/٤ - ح ٢١٥/٣ - ح ١٩٥/٤ - ح ٢١٥/٣ - ح ٢٥٥/٢ - ح ٢١٥/٣ - ح ١٤/٢ - ح ١٩٥/٤ - ح ٧٨/٢ - ح ١٩٥/٤ - ح ٢١٥/٣ - ح ١٩٥/٤ - ح ٢٥٥/٢ - ح ١٥٩/٤ - ح ٣٩٩/١ - ح ٢١٥/٣ - ح ١٩٥/٤ - ح ٧٨/٢ (٢٦) ف ح ٥٨٨/٢ (٢٨) ف ح ١٤٣/٣ - ح ٢٢١/٤ - ح ١٣٤/٢ - ح ١٣٥/١ - ح ١٣٩/٢ - ح ١٣٥/١ - ح ١٣٤/٢ - ح ١٣٥/١ - ح ١٣٩/٢ - ح ١٣٥/١ - ح ١٣٤/٢ ، ١٣٨ ، ١٣٤ - ح ١٣٥/١ - ح ٤١٣/٣ - ح ١٣٥/١ - ح ٤١٣/٣ ، ٢٥١ (٣٧) ف ح ٤٥٢/١ - ح ٣٥١/٤ (٣٩) ف ح ١٤٨/٤ - ح ٥٧١/١ ، ٥٧٦ (٤٦) ف ح ٥٦١/٣ ، ٥٦٣ - ح ٦٢٠/٢ (٤٧) ف ح ٢٣/٤

سورة فاطر

(١) ف ح ٥٦٨/١ - ح ٧٠/٢ ، ٦٧ - ح ٢٦١/٣ ، ٣٨٥ ، ٥٤ (٤) ف ح ٣١٠/٤ (٣) ف ح ١٦٦/٢ ، ٤١٧ (٦) ف ح ٢٤٩/١ (٨) ف ح ٣٨٨/٣ - ح ١٤١/٤ ، ١٥٠ ، ١٤١ - ح ٤٩٤/٤ - ح ٣٠٩/٣ - ح ١٤١/٢ - ح ٢٧٠/٤ - كتاب تاج الرسائل (١٠) ف ح ١٩١/١ - ح ٣٣/٣ - ح ١٩١/١ - ح ٢٢٨/٤ - ح ٣٣/٣ ، ٥٢٣ - ح ٢٩٦/٢ (١٢) إيجاز البيان آية ١١ - ف ح ٤٥٣/٢ - ح ٣٩٠/٣ (١٣) ف ح ٣٥٧/٤ (١٥) ف ح ٢٦٣/٢ ، ٦٠١ - ح ٣٥/٣ - ح ٢٤٩/٤ - ح ٤٦٩/٢ - ح ١٩٦/٤ - ح ٥٤٤/٣ - ح ٢٢٨/١ - ح ٢٦٣/٢ ، ٦٠١ - ح ١٢/٤ ، ٢١٢ - ح

٦٣/٢ ـ ح ٣٥/٣ ـ ح ٩٢/١ ـ ح ٢٦٣/٢ ـ ح ٢٨٦/٤ ، ٢١٢ ـ ح ٤٠٥/٣ ـ ح ٢٨٦/٤ ـ ح ١٠٠/٢ ـ ح ٢٨٦/٤ ـ ح ١٩/٣ ، ٢٧٢ ، ١٩ ، ٢٧٢ ـ ح ١٦/٢ ـ ح ٢٢٨/١ ـ ح ٦٣/٢ ـ ح ٢٦٢/١ ـ ح ٢٠٠/٢ ـ ح ٢٦٢/١ ـ ح ٥٩٠/٢ ـ ح ٤٦٠/٣ ـ الديوان/١٩٤ (**١٦**) إيجاز البيان آية ٢١ ـ ف ح ١٦٩/٢ ، ٥٣٩ (**١٨**) ف ح ١٦٠/٢ (**١٩**) ف ح ١٢١/٣ (**٢٠**) ف ح ٥٣٩/١ (**٢٤**) كتاب عنقاء مغرب ـ إيجاز البيان الفاتحة آية ٤ ـ ف ح ٤٩١/٣ ، ٥٠ ، ٣٥٢ ـ ح ١٤٧/١ ـ ح ١٥٣/٣ ، ٣٨٨ (**٢٥**) كتاب التنزلات الموصلية (**٢٧**) ف ح ٤٥٩/٣ (**٢٨**) ف ح ٣٨٣/١ ـ ح ١٣٠/٤ ـ ح ١٩٣/٢ ـ ح ٣٦٠/١ ـ ح ٣٢٢/٣ ـ ح ٥٤/٤ ، ١٣٠ ـ ح ٣٢٢/٣ ـ ح ٥/٤ ، ١٣١ (**٢٩**) ف ح ٥٧٣/١ ، ٥٧٩ ، ٥٩٠ (**٣٠**) ف ح ٢٠٢/٢ (**٣٢**) ف ح ٤١٧/٤ ـ ح ٤٠٢/٣ ـ ح ١٣٦/٢ ، ٣٦٠ ، ٩ ـ ح ٤١٧/٤ ـ ح ١٣٦/٢ ـ ح ٤٢٤/٤ ـ ح ٥٣٢/٢ ، ١٦٠ ـ ح ٧٣/٤ ـ ح ١٠٤/٣ ـ ح ٧٣/٤ ، ١٦٤ ، ٣٥٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٧ ، ٣٩٥ ـ ح ٢٢/٢ ـ ح ٣٥٢/٤ ـ كتاب التنزلات الموصلية (**٣٥**) ف ح ٣٣٨/٤ ـ ح ٣٢١/١ (**٣٧**) ف ح ٢٤٣/٣ (**٣٩**) ف ح ٦٤٣/٢ (**٤٢**) ف ح ٢٢٦/٣

سورة يس

ف ح ١٧٢/٢ ـ ح ٤٦٤/١ (**١**) ف ح ٦٩٣/٢ ـ ح ٢٧٩/٣ (**١٠**) ف ح ٢٧٨/٣ (**١٢**) ف ح ٢٨٧/٤ ـ ح ١٨٠/١ ـ ح ٨٣/٤ ، ٢٨٧ ـ ح ١١٢/٣ (**١٩**) ف ح ٣٧٧/٢ (**٣٧**) ف ح ٣٨٨/١ ، ١٤١ ـ كتاب الشأن ـ ف ح ١٤١/١ ، ٧١٦ ، ٦٦٠ ـ ح ٦٤٧/٢ ـ ح ١٢/٣ (**٣٨**) ف ح ١٩٨/٤ ، ٣٩٦ ـ ح ٤٩٣/٣ ـ ح ٣٧٧/٤ ، ٣٩٦ (**٣٩**) ف ح ١١١/٣ ـ ح ٤٤٠/٢ ـ ح ٤٣٦/٣ ـ ح ٤٤٠/٢ ـ ح ٤٣٦/٣ ـ ح ٤٣١/٢ ـ ح ٤٣٦/٣ ، ٤٣٨ (**٤٠**) ف ح ٤٣٣/٢ ، ٤٤٣ ـ ح ١٤١/١ ـ ح ٥٣/٣ ـ عقلة المستوفز (**٥١**) ف ح ٦٦/٣ (**٥٢**) إيجاز البيان آية ٣ (**٥٧**) ف ح ٦٤١/١ (**٥٩**) ف ح ٢٢٠/٣ ـ ح ٣٠٢/١ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ـ ح ٢٢٠/٣ ـ ح ٣٠١/١ ـ إيجاز البيان آية ٣١ (**٦٥**) كتاب التدبيرات الإلهية ـ ف ح ٤١٢/١ ـ ح ١٧١/٣ ـ ح ٤١٩/٤ (**٦٩**) ف ح ٢٧٤/٢ ـ ح ٤٥٨/٣ ـ ح ٥٦/١ ـ ح ٤٥٨/٣ ـ ح ٥٦/١ ـ إيجاز البيان آية ١٤٩ ـ ف ح ٤٥٨/٣ ـ ح ٥٦/١ ـ ح ٥٨/٣ (**٧٠**) كتاب تلقيح الأذهان (**٧١**) ف ح ٢٩٤/٣ ـ ح ٢٩٧/٤ ـ ح ٢٩٤/٣ (**٧٣**) ف ح ٤٦٥/٢ ـ ح ٤٩٠/٣ (**٧٧**) ف ح ٣٥٥/٣ (**٨٢**) ف ح ٥٨٨/٢ ـ ح ٤٢٤/٤ ، ٤٣٠ ـ ح

١٦٨/١ ، ٧٤١ – ح ٣/٤

سورة الصافات

(١) ف ح ٤٤٨/١ – ح ٤٤٦/٣ (٢) كتاب عقلة المستوفز – ف ح ٤٤٦/٣ (٣) ف ح ٢٥٦/٢ ، ٢٥٧ (٦) ف ح ٥٤٨/٣ – كتاب الإسفار (٧) ف ح ٥١٦/١ (٨) ف ح ٥٣١/٣ (١٠) ف ح ٤٥٠/٢ (٣٥) ف ح ٤١٧/٢ (٤٨) ف ح ٣٥٦/٤ – ح ٥٣٠/١ (٥٥) ف ح ٦٧٩/٢ (٥٦) ف ح ٦٧٩/٢ (٥٧) كتاب مواقع النجوم (٦٠) ف ح ١١٣/٤ (٦١) ف ح ١١٣/٤ (٦٤) كتاب الإسراء (٦٧) ف ح ٥٦٥/٣ (٨٩) كتاب الإسراء (٩٥) ف ح ٦١٢/٢ (٩٦) ف ح ٢١٣/٤ ، ٢٠ – ح ٣٤٨/١ – كتاب عقلة المستوفز – ف ح ٣٤٧/١ ، ٣٧٨ – ح ٣٩٦/٢ – ح ٢٢٧/٤ – ح ١٧١/١ ، ٧٢٧ – ح ٣٥٠/٤ – ح ٥٦٦/٣ ، ٢١١ ، ٢١٢ – ح ٨٩/٢ – ح ١٢٦/٤ ، ٤١٠ – ح ٢٠٣/٢ – ح ٣٤٨/١ – كتاب مواقع النجوم – كتاب التدبيرات الإلهية (١٠٢) ف ح ٢٤٠/٤ – فصوص الحكم – كتاب النجاة – كتاب الإسفار (١٠٣) كتاب النجاة (١٠٥) كتاب فصوص الحكم (١٠٦) كتاب فصوص الحكم – إيجاز البيان آية ٥٠ (١٠٧) ف ح ٦٢٩/١ – ح ٢٤٠/٤ – كتاب فصوص الحكم – ف ح ٥٦٤/١ ، ٥٩٦ (١٣٨) ف ح ٢٤٠/١ (١٤٥) ف ح ٢١٢/١ (١٤٦) كتاب نقش الفصوص (١٤٧) كتاب الجلال والجمال (١٤٨) كتاب الجلال والجمال – ف ح ٤١٥/٢ (١٥٠) ف ح ٣٦٧/٣ (١٥٣) ف ح ١٦٢/٣ (١٥٨) ف ح ٣٦٧/٣ (١٦٤) ف ح ٢٩٦/١ – ح ٥٤/٣ ، ١٨٤ – ح ٢٥٥/٢ – ح ٢٥٨/١ – ح ٣٨٥/٢ (١٦٦) ف ح ٥٢٠/٢ (١٧١) ف ح ٣٣٤/٢ ، ٥٣٥ (١٧٣) ف ح ١٤٠/٣ – ح ٣٥/٢ ، ٤٢ (١٧٧) ف ح ٣٣٨/١ (١٨٠) ف ح ٥٣٦/٣ – ح ٦٩٧/١ ، ٣٤٤ – ح ٥٣٦/٣ – ح ٤٠١/٢ – ح ٥٣٦/٣ – ح ٥٤٢/٢ – ح ٩٣/١ – ح ٤١٢/٤ – ح ٥٨٠/٢ – ح ١٣٢/٤ ، ٣٧٢ – كتاب الأعلاق – ف ح ٣٧٢/٤ – ح ٥٣/٢ – ح ٥٣٨/٣ – ح ٢٨٣/٢ – ح ١٤٨/٣ (١٨١) ف ح ١٩٦/٣ ، ٥٣٧ (١٨٢) ف ح ٥٣٧/٣ ، ١٩٦

سورة ص

(١) ف ح ٧١/١ (٣) ف ح ٣٥٠/٤ (٤) كتاب الإسراء – كتاب النجاة (٥) ف ح ٥٩٠/٢ – إيجاز البيان آية ١٦٣ – ف ح ٢٥٤/٤ ، ١٠٦ – ح ٥٩٠/٢ ، ٤٠٩ – ح ٩٤/٣ ، ٢٤٨ – ح ٥٩٠/٢ ، ٥٩١ – ح ٢٥٤/٤ – ح ١٧٨/٣ (٧) ف ح ٤١٧/٢ – كتاب النجاة (٩) ف ح ٥٧/٢ (١٥) ف ح ١٩٠/٣ (١٦) الديوان/٩٣ (١٧) ف ح

٤٦٨/٢ ـ كتاب فصوص الحكم فص ١٧ **(١٨)** ف ح ٤٧١/٤ **(٢٠)** ف ح ٢٦٩/٢ ـ ح ٢٥٨/٤ ـ ح ٤٥٦/٣ ـ فصوص الحكم ـ ف ح ٢٦٩/٢ ـ ح ٤٥٦/٣ ـ ح ٢٥/٤ ، ٣٣٨ ، ٢٥٨ ـ ح ٢٤٠/١ **(٢٤)** ف ح ٣٠٥/٢ ـ ح ١٣٣/٤ ، ٦٥٥ ـ ح ٥١٣/١ ـ ح ١٥٥/٤ ـ ح ٥١٣/١ ـ ح ١٥٥/٤ ـ كتاب تلقيح الأذهان **(٢٦)** ف ح ٩٦/٢ ـ ف ح ١٥٥/٤ ـ ح ١٩١/٣ ـ ح ١٥٥/٤ ، ١٠٧ ـ ح ٩٦/٢ ـ ح ١٣٨/٣ ، ٣٦٤ ، ١٣٨ ـ ح ٣٣٦/٢ ـ ح ١٩١/٣ ـ ح ٤٨/٤ ، ١٠٧ ـ ح ٣٣٦/٢ ، ٣٠٨ ، ٤٠٤ ـ ح ٤٧٦/٤ ـ ح ١٩١/٣ **(٢٧)** ف ح ١٩١/٣ **(٢٩)** ف ح ٥١٣/١ ، ٥٠٤ ـ ح ٤٧٢/٣ ـ ح ٥١٣/١ ، ٤٠١ ، ٦١٨ **(٣٠)** كتاب فصوص الحكم **(٣٢)** ف ح ٢٠٧/٢ **(٣٣)** كتاب النجاة ـ الديوان/٤٤٠ ـ ف ح ٢٠٧/٢ **(٣٤)** ف ح ٢٠٧/٢ ، ٥٤٤ ـ ح ١٣٣/١ ـ كتاب تلقيح الأذهان ـ ف ح ٥٤٤/٢ ـ ح ١٨٦/٣ **(٣٥)** ف ح ٥٨٥/١ ـ كتاب نقش الفصوص ـ ف ح ٥٨٥/١ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ـ كتاب النجاة ـ ف ح ١٧٣/١ **(٣٦)** ف ح ٥٨٥/١ ـ ح ٤٥٠/٢ ـ كتاب فصوص الحكم فص ١٦ **(٣٩)** ف ح ٥٨٥/١ ـ كتاب نقش الفصوص ـ ف ح ١٨٨/٢ **(٤٠)** ف ح ٢٠٧/٢ **(٤٢)** كتاب فصوص الحكم فص ١٨ ـ كتاب نقش الفصوص **(٤٣)** كتاب نقش الفصوص **(٤٤)** كتاب الإسراء ـ كتاب نقش الفصوص ـ ف ح ٢٠٦/٢ ـ ح ٤٠٨/٤ ـ ح ٢٩/٢ ، ٢٠٦ ، ١٨٩ ـ ح ١٤٣/٤ **(٤٧)** ف ح ٣٩/٢ ، ٣٦ **(٦٢)** ف ح ١٢٦/٢ **(٦٤)** إيجاز البيان آية ٣٦ ـ ف ح ٢٩٩/١ **(٦٥)** ف ح ٦١٩/٢ ـ ح ٣٢٣/٤ **(٦٩)** ف ح ٢٥١/٢ ـ ح ٢٦/٣ ـ ح ٣٩١/٤ ـ ح ٥٨٦/١ ـ ح ٤٣٢/٣ ـ ح ٥٨٦/١ ـ ح ٩٣/٢ ـ ح ٢٦/٣ ـ ح ٦٥١/٢ ـ ح ٤٤٧/٤ ـ ح ٢٦/٣ ـ ح ٤٧٢/٢ ـ ح ٢٦/٣ ـ ح ٤٠٨/٤ ـ ح ٢٦/٣ ـ ح ٤٠٨/٤ ـ ح ٢٦/٣ ـ ح ٣٩١/٤ ـ ح ١٣٧/٣ ـ ح ٣٩١/٤ **(٧١)** ف ح ٧٠/٢ ـ ح ٤١٠/٤ ـ ح ٧٠/٢ **(٧٢)** كتاب عقلة المستوفز ـ ف ح ٧٥١/١ ـ كتاب التدبيرات الإلهية **(٧٣)** ف ح ٤٢٦/٢ ـ ح ١٦٨/١ ـ ح ٢٧٨/٤ ، ٢٧٩ ـ ح ٤٢٦/٢ **(٧٤)** ف ح ٤٢٦/٢ **(٧٥)** ف ح ٤/٢ ـ ح ٣٥١/٣ ، ٢٩١ ـ ح ١٢٢/١ ـ ح ٦٧/٢ ـ ح ٢٩٥/٣ ـ ح ٤/٢ ، ٤٦٨ ـ ح ٢٩١/٣ ـ كتاب فصوص الحكم ـ ف ح ٣١٢/٤ ـ ح ٢٩١/٣ ، ١٣٧ ـ ح ٤٦٨/٢ ، ١٧٤ ـ ح ٢٤٥/٤ ـ ح ٢٥٥/٢ ، ٧٠ ـ ح ٣٠٠/٣ **(٧٦)** ف ح ٤٦٨/٢ **(٨٢)** ف ح ٣٦٨/٣ ـ ح ٧١٨/١ **(٨٣)** ف ح ٤٦٧/٢ ـ ح ٣٨١/٣ ، ٣٦٨ **(٨٥)** ف ح ٣٦٨/٣ ـ ح ١٣٤/١

سورة الزمر

(١) ف ح ٣١٠/٢ **(٢)** ف ح ٣٦٢/١ ـ ح ٥٩١/٢ ـ ح ٣٤٥/٤ **(٣)** ف ح ٥٧/٤ ـ ح ٢٢١/٢ ـ إيجاز البيان آية ١٩٦ ـ ف ح ٣٠١/١ ـ ح ٣٧٦/٣ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦ ، ٧٧ ، ٢٤٣ ، ٣٠٨ ـ إيجاز البيان آية ٢٥ ـ ف ح ٣٠٨/٣ ـ ح ٤٠٩/٢ ، ٤٠٨ ـ ح ١٧٨/٣ **(٤)** ف ح ٥٧٩/٢ ـ ح ١٦٢/٣ ـ ح ٩٢/٤ ـ ح ١٦٢/٣ ـ ح ٩٣/٤ ـ ح ٥٨٠/٢ ـ ح ١٦٢/٣ ـ ح ٥٨٠/٢ ، ٦١٤ ـ ح ٨٤/٣ **(٥)** ف ح ٣٩٥/١ ـ كتاب عقلة المستوفز **(٦)** ف ح ٦٢/٢ ـ ح ٢٦٥/٣ ـ ح ٤١٨/٢ **(٧)** ف ح ١٨٢/٤ ـ ح ٣٥٩/١ **(٨)** كتاب التدبيرات الإلهية **(٩)** ف ح ١٥٢/٤ ، ٣١٢ ـ ح ٣٧٠/٢ ـ ح ٢٤٥/٣ ، ٤٧٨ ـ ح ١٤٥/٤ ـ كتاب مواقع النجوم ـ ف ح ١٢٠/٣ ، ١٢١ **(١٠)** ف ح ٥٣٩/٣ ـ ح ٢٨/٢ **(١٤)** ف ح ٤٦٨/٣ **(١٧)** ف ح ٥٣٧/١ ـ ح ٧٠/٢ **(١٨)** كتاب مواقع النجوم ـ ف ح ١٠٥/٤ ـ كتاب التنزلات الموصلية ـ ف ح ٣٩/٢ ـ ح ٣٣٩/١ ـ ح ١٠٥/٤ ، ٤١٧ **(١٩)** ف ح ٥٨/٣ ، ٢١٧ ، ٢٤٠ **(٢١)** ف ح ٣٣٢/١ **(٢٢)** كتاب شعب الإيمان ـ ف ح ٨٢/٣ **(٢٨)** إيجاز البيان المقدمة **(٣٠)** ف ح ٦٣٤/١ ـ ح ٤١٥/٤ ، ٣٥٦ ـ ح ١٠٩/٢ **(٣٣)** ف ح ٦٤٤/٢ ـ ح ٢١٨/٣ **(٤٢)** ف ح ٣٧/٢ ـ ح ٥٠٧/٤ ـ ح ١١١/٣ **(٤٥)** إيجاز البيان الفاتحة ٣ ـ ف ح ٣٢٨/٣ **(٤٧)** ف ح ٥٥/٢ ، ٦١٩ ـ كتاب فصوص الحكم فص ١٢ ـ ف ح ٢٧٨/٣ ـ ح ٢٧٧/٤ ـ ح ٢٨٥/١ ـ ح ٣٤٦/٤ ، ٢٧٧ ـ ح ٥٣٢/١ **(٥٢)** ف ح ٢٢٤/٤ **(٥٣)** ف ح ٤٤٦/٤ ـ ح ١٤٨/٣ ، ١٨٣ ـ ح ٤/٤ ـ ح ١٧١/٢ ـ ح ١٨٣/٣ ، ٥٦٧ ـ ح ٤٤٦/٤ ـ ح ١٧١/٢ ـ ح ٥٦٧/٣ ، ١٨٣ ـ ح ٤٤٦/٤ ، ٢٤٠ ـ ح ٧٣٤/١ ـ ح ٥٦٧/٣ ، ٣٩٣ ـ ح ٣٠٤/٤ ـ ح ٣٨٨/٣ ، ٣٥٣ ، ١٨٣ ـ ح ١٧١/٢ ـ ح ١٤٨/٣ ـ ح ٤٤٦/٤ ، ٣٠٤ ـ ح ١٨٣/٣ ، ٥٦٧ ، ١٤٨ ـ ح ٤/٤ ـ ح ٣٠٩/٣ ـ إيجاز البيان الفاتحة ٣ ـ ف ح ٤٣٣/٣ ـ ح ٤/٤ ـ ح ٣٥٣/٣ ـ ح ٢٣٩/٤ ـ الديوان/١٥٢ **(٥٦)** ف ح ٢٨٩/٣ ـ ح ٢٧٨/٢ ـ كتاب رد الآيات المتشابهات **(٥٨ ـ ٥٩)** كتاب رد الآيات المتشابهات **(٦٠)** ف ح ٢٧٦/١ **(٦٢)** ف ح ٣٦٩/٣ **(٦٣)** ف ح ٢٦٦/٤ **(٦٥)** ف ح ١٣٨/٢ ، ٤١٠ ـ ح ٢٣٨/٣ ـ إيجاز البيان **(٦٧)** ف ح ٤١٩/٤ ـ كتاب الأعلاق ـ ف ح ١١٥/٢ ـ ح ٩٥/١ **(٦٨)** ف ح ١٠٨/٣ ، ١٣٥ ـ ح ٤١/٢ ـ ح ٢٢/٣ ـ ح ٥٨٧/٢ ـ ح ١٩٠/٣ ، ٢٢ ـ ح ١٦٠/٤ ـ ح ٣١٦/١ ـ ح ٦٢٧/٢ ـ ح ٥٥/١ **(٦٩)** ف ح ٤٨٥/٢ **(٧١)** ف ح

٣٠٣/١ (**٧٣**) ف ح ٣٠٣/١ (**٧٤**) ف ح ١٨٠/٤ - إيجاز البيان آية ٣٦ ـ ف ح ٨٧/٢ (**٧٥**) ف ح ٤٢٠/٣ ، ٤٣١ - كتاب شجرة الكون ـ ف ح ٤٣٦/٢ ـ ح ٤٩٢/٣ - كتاب الإسراء - كتاب النجاة .

فهرس الجزء الثالث

سورة الكهف

إشارة ـ أحسن زينة على الأرض رجال الله ٣
بحث في الفتوة ٤
« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ... » الآيـة ٦
« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة ... » الآيـة ٨
نصيحة ـ اصبر نفسك مع أحباب الله ١١
تحقيق : إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ١٢
عدم تجلي الحق في الأفعال وهو تعلق القدرة بالمقدور ١٧
إشارة ـ مجمع البحرين ١٩
إشارة ـ لِمَ كان الدليل حوتاً ؟ ١٩
تفسير من باب الإشارة : « فوجدا عبداً من عبادنا » الآيـة ٢٠
استدراك ـ العلم وسوء الخلق لا يجتمعان ٢٢
مراتب العلوم : علم العقل ـ علم الأحوال ـ علـم الأسرار ٢٢
حكمة تأخير الاستثناء على الفعل ٢٦
من كان وقته الكشف أُنكِر عليه و لم ينكر هو على أحد ٢٧
قول الخضر « وما فعلته عن أمري » أدب الإضافة ٢٩
إشارة : سفينتك مركبك فاخرقه بالمجاهـدة ٣٠
يأجوج ومأجوج ٣٢
« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ... » الآية ٣٣

شرف العالم بعضه على بعض بـالمراتب ٣٤
إشارة : لِمَ أمر الحق رسول الله ﷺ أن يقول « قل إنما أنا بشر مثلكم » ؟ ٣٥
تحقيق : إخلاص العمل لله من الشرك ٣٧
سورة مريم
ذكر الرحمة العبدَ ٣٨
اسم يحيى عليه السلام ٣٩
تعجب زكريا عليه السلام ورد الحق عليه ٤٠
دقيقة : لِمَ غلب على أمة عيسى القول بالصورة ٤٤
خروج عيسى عليه السلام على صورة جبريل في المعنـى والاسم والصورة .. ٤٤
نقصان المرأة عن الرجل في العلم بالأحدية الذاتية ٤٥
مدة حمل عيسى عليه السلام ، والشاهدان ببراءة أمه ٤٦
قول بني إسرائيل لمريم عليها السلام : « يا أخت هارون » ٤٧
قول عيسى عليه السلام : « والسلام عليّ ... » الآيـة ٤٩
يوم الحسرة ٥٠
صفة الصدّيق ٥٢
نصيحة : إذا ناجيت الله فلا تناجه إلا بكلامه ٥٤
الوهب ٥٤
إدريس عليه السلام ما مـات إلى الآن ٥٦
الجنات الثلاث : جنة الأعمال ، وجنة الاختصاص ، وجنـة الميراث ٥٨
نصيحة : ينبغي لك أن تحزن على ما يفوتك من جنة الأعمال ٥٨
تنزل الأرواح واستنزالها ٥٩
أودع الله في الإنسان علم كل شيء ٦٠
نصيحة : كن مع الله في شيئية وجودك على حالك إذ لم تكن شيئاً ٦١
الحشر الروحاني والجسماني ٦٢

الصراط يوم القيامة هو علم الشريعة في الدنيا ٦٣
كيف يُحْشَرُ المتقون إلى الرحمن ؟ ٦٤
حكم العبادة للممكن في حال عدمه أمكن فيه منها في حال وجوده ٦٦

سورة طه

الرحمن على العرش استوى ٦٧
المسألة الأولى : الألفاظ التي تعطي التشبيه والتجسيم ٦٧
المسألة الثانية : في الاستواء ٦٩
المسألة الثالثة : في معنى العرش ٧٠
المسألة الرابعة : في تفسير الآية ٧١
إشارة : قراءة لأبي العباس العريبي ٧٢
« يعلم السر وأخفى » الآية ٧٢
التوحيد السادس عشر وهو توحيد الإبدال ٧٣
الأسماء الحسنى كلها للمرتبة ٧٤
تجلي الحق لموسى عليه السلام في صورة النار ٧٦
إشارة : خلع النعلين ٧٨
التوحيد السابع عشر وهو توحيد الاستماع وهو توحيد الإنابة ٧٨
تفسير من باب إشارة : الإنيتان المتميزتان ٧٩
الأعيان لا تنقلب ٨٠
إشارة : سنعيدها سيرتها الأولى ٨١
إشارة : تخرج بيضاء من غير سوء ٨١
إشارة : إلقاء موسى في التابوت وفي اليم ٨٢
إيمان فرعون ـ قوله تعالى : « لعله يتذكر أو يخشى » ٨٤
قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام « إنني معكما أسمع وأرى » ٨٥
توحيد ـ « الذي أعطى كل شيء خلقه ... » الآية ٨٦

مسئلة تفضيل الفقر على الغنى وبالعكس ٩٠
رقيقة ـ إعطاء الله تعالى العقل خلقـه ٩١
« منها خلقناكم وفيها نعيدكم ... » الآية ٩٣
فعل الساحر ٩٤
« فأوجس في نفسه خيفة موسى » الآيـة ٩٥
« وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا » الآيـة ٩٦
إشارة : من ألقى نفسه في بحر إرادة مولاه تولاها بلطف حكمته ٩٧
« والله خير وأبقى » الآية ٩٨
المحروم كل المحروم من لا يعلق همته هنا بتحصيل المعالي من الأمـور ٩٩
نسبة الأفعال إلى المخلوقين فيها إشكال ١٠٠
إشارة : « قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك ... » الآية ١٠١
إشارة : حياة القلوب في اتباع الشرائع ١٠٢
« فقبضت قبضة من أثر الرسول » الآيـة ١٠٤
التوحيد الثامن عشر وهو توحيد السعة وهو توحيد التنزيه ١٠٥
« خالدين فيه ... » الآية أي في حمل الوزر لا في العذاب ١٠٦
توحيد ـ « ولا يحيطون به علماً » الآية ١٠٨
الوحي وحيان : وحي قرآن ووحي فرقان ١٠٩
« وقل رب زدني علماً » الآيـة ١٠٩
تحقيق : الدعاء من العبد إظهار الافتقـار إلى الله ١١٢
« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ... » الآية ١١٢
الاجتهاد لا يسوع مع وجود النص في المسئلة ١١٣
الأمر الإلهي لا يخالـف الإرادة ١١٤
لولا خطيئة آدم ما ظهرت سيادته في الدنيا ١١٥
ضعف القول بتسرمد العذاب ١١٦

النساء زهرة حيث كن ١١٨
« ورزق ربك خير وأبقى » الآية ١١٨
توحيد – « قل كل متربص فتربصوا ... » الآيـة ١٢٠

سورة الأنبياء

وصف الذكر وهو القرآن بأنه محدث وهو قديم ١٢١
ما هي الأجساد ؟ ١٢٣
« يسبحون الليل والنهار لا يفترون » الآية ١٢٥
الدليل العقلي على أحدية الخالق وهو مستند الإمام الواحد ١٢٦
تحقيق : من احتج عليك بما سبق فهي حجة لا تنفع قائلهـا ١٢٨
التوحيد التاسع عشر وهو توحيد الاقتدار والتعريف ، توحيد الأنانية ١٢٨
تحقيق : كما أن لكل أجل كتاب فلكل عمل جزاء ١٢٩
« وجعلنا من الماء كل شيء حي » الآية ١٣٠
تنفس الأسماء بالهواء المذاب في الماء وأثر الرطوبة الجوية في الحيـاة ١٣١
الزمان أمر متوهم لا حقيقة له ١٣٣
خلق الله الموت تمحيصاً لدعوى عباده في محبته ١٣٤
تجسد المعاني ١٣٥
فتوة إبراهيم عليه السلام – ومن صفات الفتـوة ١٣٧
قول إبراهيم عليه السلام « بل فعله كبيرهم » ١٣٨
النار تحرق بحقيـقتها لا بصورتها ١٤٠
إشارة : إذا لم تراقب خواطرك فإنها تتصرف فيما لا ينبغي ١٤١
الفهم درجة عليا في المحدثات ١٤٢
الشكوى إلى الله لا تقدح في الصبر ١٤٢
إشارة : الصبر مقاومة وهو سوء أدب في حق الكامل ١٤٣

التوحيد العشرون وهو توحيد الغم وهو توحيد المخاطب « أنت » ١٤٤
قوله تعالى عن مريم عليها السلام « فنفخنا فيها من روحنا » الآية ١٤٥
يأجوج ومأجوج ١٤٥
« إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » الآية ١٤٧
من هم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ؟ ١٤٨
بحث في الإعادة ١٤٩
« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » الآية ١٤٩
« قال رب احكم بالحق ... » الآية ١٥١

سورة الحج

« وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » الآية ١٥٤
« ذلك بما قدمت يداك ... » الآية ١٥٦
أشد الله تعالى محمداً ﷺ سجود كل شيء ١٥٧
بحث في الإرادة ١٥٩
إشارة : قلب العبد كالكعبة تطوف به الخواطـر ١٦١
نصيحة : لا تزد في العهود ويكفيك ما جبرت عليـه ١٦٣
إشارة : طواف القدوم وطواف الوداع ١٦٥
شعائر الله وتعظيمها ١٦٧
صفات المخبتين ١٦٩
اعتبار من إشعار البدن ١٧٠
« ولينصرن الله من ينصره » الآيـة ١٧٢
« فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » الآية ١٧٣
« يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » الآية ١٧٨
المعرفة تتعلق بأمرين الحق والحقيقة ١٨٠
حق الجهـاد ١٨٢

رفع الحرج عن الأمة ١٨٣

سورة المؤمنون

الخشوع ١٨٥
« تبارك الله أحسن الخالقين » الآية ١٨٧
إشارة : العارفون كما هم اليوم يكونون غـداً ١٩١
المشفقون ١٩١
« والذين يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة » الآيـة ١٩٢
التوحيد الحادي والعشرون توحيد الحق وهو توحيد الهوية ١٩٨
« ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به » الآيـة ١٩٨
مسئلة : قوله تعالى « خير الـراحمين » ٢٠٠

سورة النور

حد الزنـا ٢٠١
حكم الحاكم بعلمه ٢٠٣
الفرق بين التواب الرحيم وبين التواب الحكيم ٢٠٤
حكمة العقوبة بالكفارة ٢٠٦
على من يقع العذاب ، على النفس الناطقـة أم على الجوارح ٢٠٧
جعل الله الطيبين للطيبات من كونه طيباً ٢١٠
حد التوبة ٢١٢
« الله نور السموات والأرض » الآيـة ٢١٤
قراءة ٢٢١
تفسير من مبشرة ٢٢١
لحوق النساء بالرجال في درجة الكمـال ٢٢٢
الأكابر من الرجال ٢٢٣

تحقيق : كل ما يعطيه الحس من المغاليط ، إنما الغلط للحاكم ٢٢٤
تفسير من باب الإشارة ـ الذين ستروا محبتهم ٢٢٤
إشارة : معرفتك بالله مثل معرفتك بـالسراب ٢٢٥
« ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » الآية ٢٢٦
رؤية رسول الله ﷺ تسبيح من في السموات والأرض ٢٢٦
« كل قد علم صلاته وتسبيحه » الآية ٢٢٧
السحاب وأنواع البروق ٢٢٨
أول درجات التكليف ٢٣١
إشارة : المؤوف لا حرج عليـه ٢٣٢

سورة الفرقان

أنزل الله تعالى الكتاب فرقاناً في ليلة النصف من شعبـان ٢٣٣
« وخلق كل شيء فقدره تقديراً » الآية ـ العماء وخلق العـالم ٢٣٣
« أرأيت من اتخذ إلهه هواه » الآية ٢٤٣
« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ... » الآية ٢٤٥
اعتبار : أنت ظل قام الدليل على أن التحريك للحق لا لك ٢٤٧
إشارة : الإنسان الكامل هو ظل الله ٢٤٨
إشارة : معرفة الله تعالى من مد الظل ٢٤٩
إشارة : الليل لباس لأهل المحبة يسترهم ٢٤٩
دور البحر في تصفية الهواء ٢٥٠
« ثم استوى على العرش فسأل به خبيراً » الآية ٢٥١
سجدة الامتياز للمؤمن ٢٥٢
عباد الـرحمن ٢٥٣
« فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » الآية ٢٥٤

سورة الشعراء

« وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث » الآيـة ٢٥٨
تحقيق : الخواطر والأوهام هي الحاكمة على الكثائف ٢٦١
حال الشمس في كل لحظة هو شروق واستواء وغروب ٢٦٣
تفسير من باب الإشارة ٢٦٤
من أدب الإضافة ـ ومعنى الحديث [لا شفاء إلا شفاؤك] ٢٦٦
طلب الرسل الأجر من رب العالمين ٢٦٩
نزول القرآن على قلب محمد ﷺ وأمته ٢٧٢
الفرق بين نزول القرآن على قلب النبي ونزوله على قلب الـولي ٢٧٣
إشارة : القلب إذا سجد لا يرفع أبداً ٢٧٥
رحمة الله واسعة ونعمته سابغة جامعة ٢٧٦

سورة النمل

نصيحة : جُلّ الخير في السعي على الغير ٢٧٧
تجلي الحق تعالى لموسى عليه السلام في عين حاجته ٢٧٨
إشارة : لِمَ قلبت العصا ثعباناً ٢٧٨
إشارة : لا ترهب على الضعيف ٢٨٠
إشارة : لا تعمل إلا عن بينة من ربك ٢٨٠
التوحيد الثاني والعشرون وهو توحيد الخبء ٢٨٢
تقديم اسم سليمان عليه السلام شرع وقتـه ٢٨٣
الذي أتى بالعرش هو آصف بن برخيـا ٢٨٤
إشارة : من قول بلقيس « كأنه هـو » ٢٨٦
إشارة : من فعل بلقيس « وكشفت عن ساقيها » ٢٨٦
نصيحة : من اعتمد على غير الحق جعل نصرته فيه مكراً ٢٨٧

« وقل الحمد لله ... » الآية ٢٨٨
تحقيق : كل مخلوق الاضطرار يصحبه دائماً لأنه حقيقته ٢٨٩
إشارة : « أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ... » الآية ٢٩٠
دابة الأرض التي تخرج في آخر الزمـان ٢٩١
إشارة : من خصائص المحمديين من أهل الله ٢٩٢

سورة القصص

سلطان الوحي أقوى من أن يقاوم ٢٩٤
الأدب في نسبة الأفعال ٢٩٦
إشارة : إذا جئت إلى الحق فلا تترك منك مع الكون شيئاً ٢٩٨
مسئلة : الفرق بين أثر نزول الوحي على رسول الله ﷺ وبين كلام الحق لموسى عليـه السلام ٢٩٩
إشارة : لا تطلب رِدْءاً سواه ٣٠٠
الأئمة رجلان ظالم وعادل ٣٠٢
تحقيق : خطأ من قال إذا خرج الكلام من القلب وقع في القلب ٣٠٤
تحقيق : الزاهد والعارف ٣٠٥
« وربك يخلق من يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » الآية ٣٠٦
تحقيق الجبر والاختيار : العبد مجبور في اختياره ٣٠٧
نسبة الاختيار إلى الحق تعالى ٣٠٧
نصيحة : لا يختار العبد ما لم يختره له الحق ٣٠٨
التوحيد الثالث والعشرون وهو توحيد الاختيار ٣٠٩
« إن الله لا يحب الفرحين » الآية ــ الحزن في الدنيـا ٣١٠
« وأحسن كما أحسن الله إليك » الآية ٣١١
« والعاقبة للمتقين » الآية ــ عدم العلو في الأرض ٣١٢
« كل شيء هالك إلا وجهه » الآية ــ **وحدة الوجود** ٣١٤

التوحيد الرابع والعشرون وهو توحيد الحكم بالتوحيـد ٣١٧

سورة العنكبوت

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » الآية ٣١٧
وجه في سبق الرحمة ٣١٨
الذات الإلهية غنية عن العالمين ٣١٩
إشارة : لا تقف مع السبب الذي أوجـدك ٣١٩
بدء الخلق : إيجاز البيان بضرب من الإجمال ٣٢١
إسحق عليه السلام موهوب ، وإسماعيـل عليـه السلام جمع لـه بين الـكسب
والوهب ٣٢٤
الأمثال ما جاءت مطلوبة لأنفسها ٣٢٦
الحق المخلوق بـه ٣٢٧
كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ٣٢٩
« ولذكر الله أكبر » الآية ٣٣٠
مسألة : التكبير في الصلاة ٣٣٢
تفسير من باب الإشارة : « إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون » ٣٣٥
إشارة : قلبك هو الكعبة في أرض بدنك ٣٣٦
محمد ﷺ أعدل الأمزجة وأكملها ٣٣٧
« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » الآية ٣٤٠
إشارة : السفر قطعة من العـذاب ٣٤٠

سورة الروم

على الجُمَّل ٣٤١
الحق المخلوق بـه ٣٤٢
الآيات المعتادة والآيات غير المعتادة ٣٤٧

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً » الآية ٣٤٧
لطيفة : الجمال العرضي حجاب على الجمال المطلق ٣٤٨
« ومن آياته منامكم بالليل والنهار ... » الآيـة ٣٤٩
بدء الخلق والإعادة ٣٥١
القول بالمفهوم ضعيف في الدلالة ٣٥٢
الفطرة ٣٥٣
« لا تبديل لخلق الله » الآية ٣٥٣
ما ابتليت البرية وهي برية ، إنما هو جزاء ، ما هو ابتـداء ٣٥٥
« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » الآية وكيف يظهر الكافرون على المؤمنين ؟ ٣٥٦
تلازم النصر مع الصدق ٣٥٨
نصيحة وإشارة : « الله الذي خلقكم من ضعف ... » الآية ٣٦٠

سورة لقمان

الإنسان الكامل قطب الفلك وهو العمد ٣٦٢
الشرك ظلم عظيم لمن اتُّخِذَ إلهاً من غير دعوى منه ٣٦٣
« أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير » الآية ـ الأسباب ٣٦٤
الرزق مضمون وهو لمن يأكله لا لمن يجمعه ـ تنبيه ٣٦٥
كل نعم الله عظيمة ظاهرة وباطنـة ٣٦٧
ما هي كلمات الله ؟ ٣٦٨
« كلٌّ يجري إلى أجل مسمى » الآية ٣٦٩

سورة السجدة

لا حكم لأداة لو ٣٧٣
« تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الآية ، إشارة من باب يحبهم ويحبونه ٣٧٤
قرة العين ٣٧٥
ذكر أخبار القرون الماضيـة ٣٧٦

جميع الحواس لا تخطىء أبداً ٣٧٧
سورة الأحزاب
إشارة : الأب في الولادة الدينية ٣٧٨
إشارة : الحق أولى بعباده المضافين إليـه ٣٧٩
« ليسأل الصادقين عن صدقهم » الآيـة ٣٧٩
إشارة : « يا أهل يثرب لا مقام لكم » ٣٨٠
نصيحة : لا راحة مع الخلق فارجع إلى الحق فهـو أولى بك ٣٨١
« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » الآية ٣٨٢
« فمنهم من قضى نحبه » الآيـة ٣٨٥
« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ... » الآية ٣٨٧
« إن المسلمين والمسلمات ... » الآية طبقات الأولياء ٣٩٠
لِمَ لم يقل الله تعالى : ومن يعص الرسول فقد عصى الله ؟ ٣٩٦
ابتلى الله تعالى نبيه بنكاح زوجة من تبناه ٣٩٧
الذكر بالاسم المفرد : الله الله ٣٩٩
شروط الذكر ٤٠٠
إشارة للعارفين : الغيرة ٤٠١
« هو الذي يصلي عليكم وملائكته ... » الآية ٤٠٢
الرسول ﷺ سراج منير ٤٠٥
نكاح الهبة خاص برسول الله ﷺ ٤٠٦
« وكان الله على كل شيء رقيباً » الآية ٤٠٧
تميز النبي ﷺ بمرتبة لم تعط لأحد سواه ٤٠٩
ما معنى الصلاة على النبي ﷺ كالصلاة على إبراهيم ٤١٠
تحقيق : من غيرة الله أن تكون المنة لله وحده ٤١٣
إشارة : مراتب الرجال في التسليم مـن الصلاة ٤١٤

أزواج النبي ﷺ وبناته ٤١٥
« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ... » الآية ٤١٧

سورة سبأ

إشارة لا تفسير : على الإنسان أن يعلم ما يلج في أرض طبيعته ٤٢١
إشارة : القلوب القاسية يلينها الزجر والوعيد ٤٢٣
« وقليل من عبادي الشكور » الآيـة ٤٢٤
« وربك على كل شيء حفيظ » الآية ٤٢٥
الصلاة على الميت شفاعة من المصلي عليه ٤٢٦
« حتى إذا فزِّع على قلوبهم ... » الآيـة ٤٢٦
« وما أرسلناك إلا كافة للناس » الآية ـ شمول الرسالة المحمدية من آدم عليـه
السلام إلى يوم القيامـة ٤٢٩
جميع الشرائع هي شرع محمد ﷺ بأيدي نوابه ٤٣٠
نصيحة ـ ظهور الحق في مرآة محمد ﷺ أكمل ظهور وأعدله ٤٣١
إشارة : من اغترف نال الدرجات ٤٣٣
الملائكة لسان خير على المؤمنين لا تدعو عليهم بشر ٤٣٤
قوله ﷺ : [إن الحديث لمثل القرآن أو أكثر] الحديث ٤٣٥
« قل ما سألتكم من أجر فهو لكم » الآية ٤٣٦

سورة فاطر

الفرق بين العين ووجودها ٤٣٨
« جاعل الملائكة رسلاً ... » الآية ـ أجنحة الملائكة ٤٣٨
إمساك الحق تعالى عطـاء ٤٣٩
التوحيد الخامس والعشرون وهو توحيد العلة ٤٤٠
إشارة : حكمة من أحد عقلاء المجانين ٤٤٠

نصيحة : الإنسان إذا كان في شيء لم ير حقيقته ومعناه ٤٤٣
إشارة : ما ثَمَّ إلا عبد ورب ٤٤٤
تسمية الحق باسم كل ما يُفْتَقَر إليه ٤٤٥
بحث في الغنى بالله ٤٤٨
الخلق كله أمم ، وفي كل أمة نذير من جنسها ٤٥١
سبب وضع الشريعة في العالم ٤٥٢
سبب زرقة السماء ، وأثر البعد في التلوين العارض ٤٥٣
كل عالم لم تظهر عليه ثمرة علمه ولا حكم عليه علمه فليس بعالم ٤٥٣
صدقة السر وصدقة العلن ٤٥٤
الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ٤٥٥
إشارة : صح لنا ورث الكتاب لأنه أعطاه لنا من غير اكتساب ٤٥٨
سورة يس
« يس » الآية ٤٦١
إشارة : الإمام المبين ٤٦٣
نظرية التصوير الشمسي ٤٦٥
قراءة ابن مسعود « والشمس تجري لا مستقر لها » ٤٦٦
بحث في فلك المنازل ٤٦٦
إشارة : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ٤٦٨
من أين ضل القائلون بالتناسخ ؟ ٤٦٩
حشر الأجسام في الآخرة ٤٧٠
طوائف أهل النار ٤٧١
الجوارح شاهد مصدق يوم القيامة ٤٧٢
« وما علمناه الشعر ... » الآية ٤٧٢
المستغرقون بهذه الدار الدنيا أموات غير أحياء ٤٧٣

كل يد خالقة في العالم هي يد الحق ، يد ملك وتصريف ٤٧٤
الإنسان بيِّنُ الخصومة ، ظاهرٌ بها ٤٧٥
الأمر الإلهي أمران ، بالواسطة وبرفع الوسائط ٤٧٦
بحث ـ السماع الإلهي هو أول مراتب الكون ٤٧٧

سورة الصافات

الشهب هي ذوات الأذناب ٤٧٩
التوحيد السادس والعشرون وهو توحيد التعجب ٤٨٠
نصيحة : لا تصاحب إلا من ترى معه الزيادة في دينك ٤٨٢
توحيد الفعل لا يخلص ، لا كشفاً ولا شرعاً ولا عقلاً ٤٨٥
إشارة لا تفسير : والله خلقكم وما تعملـون ٤٨٦
لطيفة « والله خلقكم وما تعملون » فهو العامل ٤٨٧
إشارة : إذا تركت ما لله عند الله كـنت راشداً ٤٨٧
لم ابتلي إبراهيم عليه السلام بذبح ابنـه ٤٨٨
إشارة : بادر إبراهيم إلى ضيافة ربه بولده ٤٨٩
لم يُولَد أحد من ولد آدم ولادتين سوى يونس عليه السلام ٤٩١
« وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » كيف جاء الحق بلفظ أو وهي للشك ؟ ٤٩٢
إشارة : من قول الملائكة (وما منا إلا له مقام معلـوم) ٤٩٤
« وإن جندنا لهم الغالبون » الآية ٤٩٥
تنزيه الحق عن وصف الواصفين ٤٩٧
لله الأسماء ما له الصفات ٤٩٨
إشارة : الحمد لله ٥٠١

سورة ص

حـرف الصاد ٥٠١

إشارة : في حق الرسول ﷺ ومنة الله تعالى عليـه ٥٠٢
الإله لا يكون بالجعل ٥٠٣
قوله تعالى : « العزيز الوهـاب » ٥٠٤
الحكمة ، ومن هم الحكماء على الحقيقة ٥٠٦
إشارة : ضرب مثال للأسماء الإلهية المائة ٥٠٨
داود عليه السلام نص على خلافته بالاسم ومع ذلك نهي عن اتبـاع الهوى . ٥٠٩
قول سليمان عليه السلام « أحببت حب الخير عن ذكر ربي » ٥١٢
« ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » الآية ٥١٢
بحث الفرق بين الأجسام والأجساد ٥١٣
إشارة : أرغب في ملك لا ينبغي لسواك ٥١٤
لطيفة : لذة الاتصاف بالعبوديـة ٥١٤
الشكوى إلى الله لا تقدح في الصبر ٥١٦
إشارة : أعظم الفتن الخبر « خلق الله آدم على صورته » ٥١٦
معنى المصطفين الأخيار ٥١٨
اختصام الملأ الأعلى ٥١٩
سجود الملائكة لآدم عليه السلام ٥٢٣
تحقيق : تقسيم الأمر إلى حق وخلق ٥٢٤
إشارة : أثر المزاج في الـروح ٥٢٥
العالون من الملائكة ٥٢٧

سورة الزمر

« فاعبد الله مخلصاً له الدين » الآية ٥٣١
الدين الخالص ٥٣١
تحقيق : فرّق بين قولك : الله ، وقولك : إله ٥٣٤
أيوجد المُحَال ؟ ٥٣٥

إشارة : لا يتمكن للإنسان المشي في ظلمة باطنه إلا بسراج العلم ٥٣٧
الرجاء يتلو الخوف ٥٣٨
فضل العلم وأنه أسنى الكرامات ٥٣٩
« إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب » الآيـة ٥٤٣
« الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » الآيـة ٥٤٤
« أفمن شرح الله صدره للإسلام ... » الآية ٥٤٦
تحقيق : كما أنه لم ينم قلب رسول الله ﷺ لم يمت قلبه ٥٤٨
الصدق متعلقه الخبر ومحلـه الصادق ٥٤٨
تحقيق : إيثار الله تعالى لجناب المؤمنين ٥٥٠
« وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » الآية ٥٥١
شمول الرحمة ٥٥٢
تحقيق : طمع إبليس في شموله بالرحمة ٥٥٤
جنب الله ٥٥٦
القبضة واليمين ٥٥٨
بحث في الصور ٥٦٠
بحث في الحشر ٥٦١
لغة : ذكر واو العطف وحذفها ٥٦٣
إشارة : من قام باللام وحده ٥٦٤